المحتويات

مقدمة ٥

• الشبهة الأولى ٩

الزعم أنّ هناك توافقًا بين الإسلام واليهودية عقيدةً وتشريعًا وكتابًا

• الشبهة الثانية ٣٣

الزعم أن الهُدى في اتباع اليهودية دون سواها

• الشبهة الثالثة ٥٠

الزعم أن الإسلام دينٌ مقتبسٌ من الحنيفية واليهودية و النصرانية ومحرَّف عنها

• الشبهة الرابعة ٧٧

الزعم أن النصرانية أكثر واقعية من الإسلام وأصلح منه لحياة الناس

• الشبهة الخامسة ١١٥

الزعم أن الإسلام يُحلُّ ويحرِّم ما يشاء، النصرانية ليست كذلك

• الشبهة السادسة ١٢٩

الزعم أن الإسلام دين محلي، وأن المسيحية دين عالمي

• الشبهة السابعة ١٤٠

الزعم أنّ التثليث عقيدة التوحيد وأن له صورًا في سلوك المسلمين

• الشبهة الثامنة ١٤٧

ادعاء وجود صُوَر للتثليث في العقيدة الإسلامية

• الشبهة التاسعة ١٥٨

ادّعاء أن التَّصوُّف الإسلامي مُقْتَبَس من المذاهب الروحانية الشرقية والفلسفات الأجنبية

• الشبهة العاشرة ١٨٤

ادعاء التقارب بين الإسلام والنصرانية في تصوّر طبيعة المسيح

• الشبهة الحادية عشرة ١٨٨

ادِّعاء فضل عيسى عليه السلام على محمد ﷺ بثبوت الحياة الأبدية

• الشبهة الثانية عشرة ١٩١

دعوى اقتباس القرآن الكريم من التوراة والإنجيل

• الشبهة الثالثة عشرة ١٩٥

ادِّعاء أن القرآن يُقِرُّ الإنجيل. بصورته الحالية. ويوجب على أهل الأديان جميعًا الإيمان به

• الشبهة الرابعة عشرة ٢٢١

دعوى إقرار القرآن بأن النصارى على حق

• الشبهة الخامسة عشرة ٢٣٢

دعوى تودد القرآن إلى اليهود والنصارى، ثم عدوله عن ذلك

• الشبهة السادسة عشرة ٢٣٩

ادعاء أن القرآن في حديثه عن أهل الكتاب يدعو إلى إرهابهم والتحقير من شأنهم

• الشبهة السابعة عشرة ٢٤٦

دعوى نزاهة التوراة والإنجيل عن التحريف والتزييف

• الشبهة الثامنة عشرة ٢٤٩

دعوى اقتباس القرآن بعض التعابير من الإنجيل

• الشبهة التاسعة عشرة ٢٥١

ادّعاء أن الكتاب الذي لا ريب فيه هو الإنجيل وليس القرآن

• الشبهة العشرون ٢٥٣

ادعاء أن القرآن شهد لليهود والنصارى بالأمان والتواضع، وشهد للدين المسيحي بالدوام والخلود

• الشبهة الحادية والعشرون ٢٥٦

الزعم أن القراءات القرآنية أشدُّ اختلافًا من تعدُّد الأناجيل

• الشبهة الثانية والعشرون ٢٥٨

دعوى تفرُّد القرآن بالنسخ دون غيره من الكتب السماوية الأخرى

- الشبهة الثالثة والعشرون ٢٨١

إنكار القصص القرآني بدعوى تناقضه مع نصوص الكتاب المقدس

- الشبهة الرابعة والعشرون ٢٨٩

تخطئة القرآن لمخالفته التوراة فيما رُوي عن كفالة زكريا لمريم

- الشبهة الخامسة والعشرون ٢٩٤

الزعم أن القرآن الكريم زيف قصة مائدة عيسى عليه السلام

- الشبهة السادسة والعشرون ٣٠٠

الزعم أن القرآن يناقض التوراة في روايته أحداثًا أسطورية في قصة يوسف عليه السلام

- الشبهة السابعة والعشرون ٣٠٥

الزعم أن الإسلام يعترف بالشرائع الأخرى على صورها المحرَّفة ويدعو لاتباعها

- الشبهة الثامنة والعشرون ٣٢٠

الزعم أن الإسلام ليس آخر الأديان وأن محمدًا ﷺ ليس خاتم النبيين

المصادر والمراجع ٣٢٩

مُقدِّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، ورحمة الله للناس أجمعين، وارض اللهم عن صحابته الغُرِّ الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين... وبعد.

فمن المعلوم - يقينًا - لدى كل مسلم أن الدين عند الله واحد، وأن الأنبياء جميعهم بعثوا بالإسلام، الذي هو الدين عند الله تعالى، وكل نبي إنما جاء مصدقًا لما سبقه من رسالات سماوية، ومن ثم فإن عقيدة الأنبياء واحدة، وهي عقيدة التوحيد، ولم تختلف رسالة من الرسالات السماوية عن الأخرى إلا في جانب التشريع الذي يُراعَى فيه ظروف الزمان والمكان؛ ويترتب على ذلك أنه لا توجد أديان سماوية متعددة؛ وإنما توجد شرائع سماوية متعددة، نسخ اللاحق منها السابق، إلى أن استقرت الشريعة السماوية الأخيرة، التي قضت حكمة الله تعالى أن يكون مبلِّغُها هو خاتم الأنبياء والرسل أجمعين محمد ﷺ.

وليس بوِسْع المنصفين من أهل الكتاب أن يُشكِّكوا في وحدة الدين السماوي، وأن الأنبياء إنما جاءوا ليصدِّق بعضهم بعضًا فيما بُعِثُوا به من الدين، وما كانوا ليتفرقوا إلى عقائد متباينة مختلفة، ولكن واقع الحال يشهد أن أهل الكتاب اختلفوا وتفرَّقوا، واختلقوا على أنبيائهم ما لم يقولوه، رغم ما جاءهم من العلم في ذلك بغيًا بينهم، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٩).

ومن أجل ذلك جاء هذا الجزء ليعالج قضايا عِدَّة منبثقة عن هذا الموضوع؛ ومن أهمها:

- ما أثير حول وجود قاسم مشترك من التوافق بين الإسلام واليهودية الحالية، في جانب عقيدة التوحيد، وبعض الجوانب التشريعية في الديانتين، أو المضمون العام لمحتوى كتابيهما (القرآن والتوارة)، أو تماثل أسلوبهما؛ وكل ذلك من أجل إثبات أن الإسلام متأثر باليهودية وآخذ عنها.
- وثَمَّة دعاوَى أخرى متشابهة تريد أن تجعل من الديانة اليهودية في وضعها الحالي - ديانة سماوية، ما زالت تحتفظ بقُدْسيَّتها، بما يعني أن الهداية مُتحقِّقة لمُتَّبِعيها، وأنهم ليسوا في حاجة إلى دين سواها لكي يهتدوا.
- ومن أوسع القضايا التي استولت على حيِّز كبير من البحث في هذا الجزء - تلك الأفانين المتعسفة التي تهدف إلى إبراز الإسلام، وكأنه مُنْتَحَل[1] من النصرانية، أو أنه صورة مشوَّهة أو محرَّفة عنها.
- ومن القضايا ذات العمق الكبير أيضًا تلك الأهواء المُغْرِضة التي تجعل من النصرانية ديانة عالمية، بينما تُلْبِس الإسلام ثوب المحلية الضيقة.

١. المُنتَحَل: المأخوذ، وانتحل فلان الشيء: أي ادعاه لنفسه وهو لغيره.

- ويلتحق بما سبق تلك المحاولات اليائسة التي تزعم أن النصرانية أكثر واقعية من الإسلام، أو أنها أصلح لواقع الحياة منه؛ حيث يُحلِّل الإسلام ويُحرِّم بلا معيار، بينما النصرانية ليست كذلك.
- ومن أخطر الدعاوَى التي نُوقِشت في هذا المجال دعوى أن الإسلام يقرُّ التثليث، ومحاولة تلمُّس الأدلة على تلك الدعوى الباطلة، أو الاستشهاد ببعض العبارات التي تتردَّد على ألسنة الناس؛ مُماحَكة[1] وتعسُّفًا.
- وأخيرًا، توقَّفنا عند محاولات التشكيك في صحة القصص القرآني بدعوى أنه يتناقض مع قصص الكتاب المقدس، والغرض من تلك المحاولات هو إنكار صحة القرآن، وزعزعة الثقة في كل ما ورد فيه من أخبار وغيبيات.

هذا وقد انتهت المناقشات التي دارت حول القضايا السابقة إلى عِدَّة نتائج، أهمها:

١. الأصل أن الأديان السماوية كلها تنبع من مشكاة واحدة، وأن التوحيد هو العقيدة السماوية الصحيحة الثابتة، التي تنسجم مع الفطرة الإنسانية قبل تلويثها بمعتقدات فاسدة، ولقد أثبتت أبحاث العلماء من دارسي الأديان أن الناس كانوا في أقدم عهودهم على التوحيد الخالص، وأن الوثنية فُرِضَتْ عليهم بفعل رؤسائهم الدينيين.

٢. بقي الإسلام محفوظًا كما أراده الله تعالى؛ بسبب حفظ الله لمصدريه الأساسيين (الكتاب والسنة)، وأن الأمة الإسلامية على مرِّ العصور امتازت بالأمانة والدقة والحفظ والتدوين والتوثيق والإسناد، فحملت الوحي - قرآنًا وسنة - كما هو إلى الأجيال التالية، ووقفت بالمرصاد لكل محاولة تهدف إلى أي تحريف أو تغيير في كتاب ربها وسنة نبيها.

٣. تعرضت الأديان السماوية السابقة - خاصة اليهودية والنصرانية - للتحريف والتغيير، وعبثت بها أيدي البشر بما تمليه أهواء الكهان، وأغراض الحكام في المجامع الدينية والمجالس الكهنوتية، فضلًا عن أن نصوص التوراة والإنجيل الموجودة الآن ليست مما أُوحِيَ إلى موسى وعيسى - عليهما السلام - بالأساس، وليست من كتابتهما أو إملائهما، بل هي من تأليف كُتَّاب متأخرين من الكهنة والرهبان، ممن كان لهم الحق في وضع الأحكام وتفسير النصوص وتحديد الطقوس الدينية.

٤. لا وجه للمقارنة بين الإسلام من جانب، واليهودية والنصرانية من جانب آخر، سواء من ناحية العقيدة أو النظام التشريعي والأخلاقي، أو أسلوب الكتابين (القرآن والكتاب المقدس)، إذ لا وجه للتقارب بين عقيدة التوحيد الخالصة دون شوائب والعقائد الوثنية التي أدخلها أهل الكتاب في دينهم بعدما حرَّفوا كتبهم، كما أنه لا وجه للمقارنة بين الإعجاز البلاغي والسمو البياني في القرآن والأسلوب الركيك المفكك في الكتاب المقدس بعَهْدَيْه.

٥. الهُدى في اتباع الإسلام: عقيدة وشريعة وأخلاقًا، والضلال والفساد في اتباع التوارة المحرَّفة، التي تصف المولى تبارك وتعالى وأنبياءه المرسلين بأبشع الصفات وأخسها، وتمتهن المرأة وتحتقر إنسانيتها، وكذلك التلمود المؤلَّف بروح العنصرية البغيضة الحاقدة على مختلف الأمم والشعوب، وباسمهما ارتكب اليهود أفظع الجرائم وأشنعها،

---

١. المُماحَكة: الجدال واللّجاجة.

ولا يزالون حتى يومنا هذا يلعبون أحطَّ الأدوار وأخسها على المسرح الدولي، فاليهودية لا تصلح لأن تكون ديانة عالمية بسبب قيامها على العنصرية البغيضة، فضلًا عن أنه لا يوجد نص في التوارة يتحدث عن هذه العالمية، فهي دين أسرة بشرية واحدة هم بنو إسرائيل، وهم يكرهون أن يدخل بينهم غير عنصرهم.

٦. كذلك النصرانية ليس فيها نص على عالميتها، ولم تنشط الدعوة إليها إلا بعد اعتناق الرومان لها، وما وُجِدَ من نصوص تتحدث عن التبشير بها فهي من وضع البشر، كما أنها ديانة لا ترتبط بواقع الحياة، بل تُرَكِّزُ على الجانب الروحي فقط، ولما أرادت أن تدخل في واقع الحياة أفسدتها وشوهت صورة الدين في أذهان الناس؛ بما ارتكبت من جرائم وفظائع، مما أدى في نهاية الأمر إلى خروج الناس عليها، والتخلص من سلطانها، وإحلال العلمانية[1] والأفكار الإلحادية محلها.

٧. لا توجد شريعة من الشرائع السماوية أو الوضعية تشتمل على السمات والخصائص التي تجعلها عالمية إلا الشريعة الإسلامية؛ فهي ليست شريعة جنس معين، ولا تحدها حدود جغرافية أو إقليمية، بل إنها صالحة لكل البيئات وكل الأجواء، وتتناسب مع كل بقعة في الأرض على اختلاف المستويات المادية والاعتبارات الأخرى؛ وما ذلك إلا لأنها تمتلك منظومة تشريعية وتوجيهية شاملة لكل نواحي الحياة، تتفق مع طبيعة النفس البشرية، وتتواءم مع الفطرة السَّوِيَّة، وتدركها العقول السليمة في سهولة ويسر.

٨. ولا شك أن أي محاولة يُراد منها استخراج اعتراف من القرآن بالتثليث، هي محاولة مُتعسِّفة تتجاهل آيات القرآن التي تصرح ببطلان التثليث، وتُكفِّر من يعتقده، والآيات التي استدلوا بها على التثليث من القرآن لا تدل إلا على فساد هذه العقيدة وضلال معتنقيها.

٩. إن أدنى مقارنة بين القصص القرآني المحكم والقصص المتهافت الموجود في كتابهم، توضح مدى صدق القرآن ونزاهته ودقته وإحكامه، وموافقته للمنطق ومطابقته للواقع، بخلاف قصص التوراة والإنجيل المليئة بالخرافات والأساطير التي وضعها البشر، وما أنزل الله بها من سلطان.

ولعلنا بهذا نكون قد أَمطْنا اللِّثام عن وجه الحقيقة، فبدا الحق واضحًا جليًّا: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧).

١. العَلْمانية: مذهب يُخْرِج الاعتبارات الدينية من العلاقات المَدَنِيَّة والتعليم العام.

الشبهة الأولى

الزعم أنَّ هناك توافقًا بين الإسلام واليهودية عقيدةً وتشريعًا وكتابًا (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن الإسلام موافق لليهودية من عدة جوانب:

- من حيث العقيدة: فكلا الديانتين يدعو إلى عقيدة التوحيد.
- كذلك النظام التشريعي متقارب فيهما.
- تشابه أسلوب القرآن والتوراة ومضمونهما.

ويرمون من وراء ذلك إلى القول بأن الإسلام متأثر باليهودية وتابع لها.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإسلام واليهودية ديانتان سماويتان توحيدِيَّتان، وقد بقيت عقيدة التوحيد صافية نقية في القرآن، بينما طَمَسَتها يد التحريف في التوراة.

٢) يختلف التشريع في القرآن عنه في التوارة والتلمود كمًّا وكيفًا، وثمة فارق كبير بين السمو الأخلاقي في القرآن، وبين التدنِّي والعنصرية غير الإنسانية في التوراة والتلمود الحاليين.

٣) الأسلوب القرآني في القمة التي لا تُدانَى فصاحةً ونصاعةً وملاحةً وبلاغةً، في حين أن أسلوب التوراة والتلمود مفكَّك باهت هزيل.

التفصيل:

ربما يكون أبلغ في الرد على هذه المغالطات أن نرجع إلى متون الكتب المقدسة، وأصول العقائد في هذه المسائل عند المسلمين واليهود؛ لنتبين أوجه الشبه والاختلاف في الأصل، ثم نتابع تطوراتها لدى الطرفين.

أولا. عقيدة التوحيد بين التوراة والقرآن، وبين اليهودية والإسلام:

لا شك أن عقيدة التوحيد في التوارة المُنَزَّلة من عند الله تعالى قبل تحريفها، وكذلك في القرآن الكريم باعتبارهما كتابين سماويين من لدن الإله الواحد الأحد - عقيدة متماثلة جوهرها التوحيد الخالص، والتنزيه الكامل للذات الإلهية.

وعن قضية "الإيمان بالله بين التوراة والقرآن" يقول د. أحمد السقا: يعترف المسلمون بأن الله واحد، ويعترف المسلمون بأن هذا الإله الواحد ليس كمثله شيء لقوله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ (الإخلاص)، ولقوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى)، ويعترف المسلمون بأن هذا الإله الواحد يعلم ما خفي في الضمائر، لقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ (الأنعام).

وفي التوراة عبارات تدل على أن الله واحد، وليس كمثله شيء، ويعلم ما خفي في الضمائر.

(*) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. الإسلام والغرب، روم لاندو، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م. الأديان في القرآن، محمد بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ط٣. الرد على المشكل، سيد أحمد محسب مرسي، المكتبة الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

ففي سِفْر الخروج(*): "ثم تكلَّم الله بجميع هذه الكلمات قائلًا: أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك إله غَيُور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مُبْغِضِيَّ". (الخروج ٢٠: ١ـ ٥)، وفي سفر التثنية: "فاعلم أن الرب إلهك هو الله، الإله الأمين، الحافظ العهد والإحسان للذين يحبونه ويحفظون وصاياه إلى ألف جيل، والمجازي الذين يبغضونه بوجوههم ليهلكهم. لا يمهل من يبغضه. بوجهه يجازيه". (التثنية ٧: ٩، ١٠).

وقال سليمان عليه السلام لله عز وجل: "وأَعْطِ كل إنسان حسب كل طُرُقه كما تعرف قلبه. لأنك أنت وحدك تعرف قلوب بني البشر". (أخبار الأيام الثاني ٦: ٣٠).

ولكن أيَّة توراة هذه التي نقصدها حين نقول إن مضمون عقيدة التوحيد فيها يماثل ما في القرآن، لا شك أنها التوراة الكتاب السماوي الصحيح، قبل تحريفه، وإلا فإن التوراة التي بين أيدي الناس الآن، والتي سُقْنَا منها الشاهد السابق تحفل بمئات الشواهد على طَمْس عقيدة التوحيد، وبسبب هذا التحريف اختلط الحابل بالنابل، والغَثُّ بالسمين[1]، والصحيح بالسقيم، والأصلي بالمحرَّف.

في هذا المضمار كتب د. عبد الحليم عويس تحت عنوان "إله التوراة: وثنية وتجسيد" ما يأتي: "يقول المؤرخ العالمي أرنولد توينبي عن إله اليهود: كان يهوه إله قبيلة بدوية، وتطورت هذه الديانة حتى بلغت مرحلة متقدمة على يد الأنبياء في القرن الثامن ق. م. فلما نَقَلَ نبوخذ نصر ـ ملك البابليين بالعراق ـ جماعة من أشراف اليهود وكهانهم وصناعهم وعمالهم الماهرين ـ فيما عُرف بالسبي البابلي ـ لا يزيد عددهم على ٤٦٠٠ بلغت الديانة اليهودية نضجها... مما استمده الأسرى اليهود من المجتمع البابلي من عقائد وأفكار، وتأثر اليهود بالديانة الزرادشتية[2]، واستمدوا منها بعضًا من عقائدهم في الجن والشياطين، وربما أخذوا منهم بعضًا من عقائدهم المهمة.

فاليهودية ـ بسبب الميل اليهودي الثابت للوثنية والحسية والنفعية ـ تعرضت في كثير من العصور، لغلبة الوثنية عليها، وهذا مكَّن لمدارس التحليل الأنثروبيولوجي والسيكولوجي ـ أن تجد فيها مجالًا خصبًا لدراسات منحرفة. وحسبنا أن نقرأ أسفار الملوك والقضاة لنرى صورًا كثيرة من تعدد الآلهة المبجلة المعبودة، ليس من جانب عامة الناس فقط، بل من جانب الأنبياء أنفسهم، بل إننا نجد ما هو أسوأ من

(*) اعتمدنا في تخريج نصوص الكتاب المقدس على ترجمة فانديك بستاني، المأخوذة من أصول الأغاني العبرية واليونانية.

١. اختلط الحابل بالنابل والغَثُّ بالسمين: أي اضطربت الأمور.

٢. الزَّرادشْتيَّة: ديانة فارسية قديمة تقوم على عبادة وثنية في إطار من الصراع بين قُوَى النور وقُوَى الظلام، تُنْسَب إلى زَرادشْت الذي ادَّعى النبوة، وقال بواحدنية الله، وأنه خالق النور والظُّلْمَة، وأن الخير والشر والصلاح والفساد إنما حصل بامتزاجهما لحكمة رآها في التركيب، وقد جاءهم بكتاب سمَّاه (الأوفستا)، زعم أنه نزل عليه من السماء، وقد دعا فيه إلى عبادة النار؛ لأنها تمثل رمز الخير.

ذلك بكثير، حيث يُعْزَى[1] إلى النبي هارون ـ شقيق موسى عليه السلام نفسه ـ أنه هو الذي صنع للناس العجل أثناء ذهاب موسى لميقات ربه، بعد أن استبطأ بنو إسرائيل عودته التي لم تزد عن المقرر لها إلا عشرة أيام، ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ (الأعراف: ١٤٢).

ففي هذه الأيام العشرة وافق النبي هارون ـ حسب زعمهم ـ على أن يصنع لهم عجلًا صنمًا يعبدونه. والتوراة تحكي هذه الواقعة بكلمات وأساليب لا يمكن أن تُقْبَلَ دينًا ولا عقلًا. تقول: "ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: «قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه». فقال لهم هارون: «انزعوا أَقْراط[2] الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها». فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل[3]، وصنعه عجلًا مسبوكًا[4]. فقالوا: «هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر». فلما نظر هارون بنى مذبحًا أمامه، ونادى هارون وقال: «غدًا عيدٌ للرب». فبكَّروا في الغد وأَصْعَدوا مُحْرَقات وقدَّموا ذبائح سلامة. وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب. فقال الرب لموسى: «اذهب انزل. لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر. زاغوا سريعًا عن الطريق الذي أوصيتهم به. صنعوا لهم عجلًا مسبوكًا، وسجدوا له وذبحوا له وقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر»". (الخروج ٣٢: ١ـ٨).

بل من العجيب أنهم نسبوا إلى موسى عليه السلام أنه صنع حيَّة نحاسًا ظل بنو إسرائيل يعبدونها حتى مُلِّك عليهم حزقيا بن آحاز فأزالها، ونصُّ ذلك: "وتكلَّم الشعب على الله وعلى موسى قائلين: «لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت في البرية؟ لأنه لا خُبْز ولا ماء، وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف». فأرسل الرب على الشعب الحيَّات المُحْرِقة، فلَدَغَت الشعب، فمات قوم كثيرون من إسرائيل. فأتى الشعب إلى موسى وقالوا: «قد أخطأنا إذ تكلَّمنا على الرب وعليك، فصلِّ إلى الرب ليرفع عنا الحيات». فصلَّى موسى لأجل الشعب. فقال الرب لموسى: «اصنع لك حيَّة محرقة وضعها على راية، فكل من لُدِغ ونظر إليها يحيا». فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية، فكان متى لدغت حية إنسانًا ونظر إلى حية النحاس يحيا". (العدد ٢١: ٥ ـ ٩).

ولكن على خلاف هذه النظرة الحمقاء العبثية التي ترسمها التوراة المحرَّفة للأنبياء والتي يُراد من خلالها تشويه مقام النبوة المعصوم ـ نجد القرآن الكريم يبرئ موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ من الشرك ومن هذه الخيانة لرسالة التوحيد التي أُرْسِلا بها، فقال تعالى:

---

١. يُعْزَى: يُنسَبُ.

٢. الأَقْراط: جمع قُرْط، وهو ما يُعلَّق في شَحْمة الأذن من دُرٍّ أو ذهب أو فضة أو نحوها.

٣. الإزميل: آلة من حديد أحد طرفيها حادٌّ يُنقَر بها الحجر والخشب، أو تُزال بها الزوائد من المصنوعات الخشبية.

٤. المسبوك: يُقال: سَبَكَ المَعْدَن: إذا أذابه وخَلَّصه من الخبث، ثم أفرغه في قالب.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ (مريم)، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ (الصافات).

وعن براءة موسى وهارون - عليهما السلام - من عبادة العجل يقول القرآن: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ (الأعراف).

وفي سورة طه يبين القرآن إنكار هارون عليه السلام على بني إسرائيل عبادتهم العجل وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن ذلك المنكر ووعظهم من أجل ردهم إلى الحق وإقلاعهم عن هذا الضلال من الشرك والكفر. يقول القرآن: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ (طه).

كما يبين القرآن الكريم موقف موسى عليه السلام الحاسم من الشرك وعبادة الأصنام ورفضه لكل ما يمس التوحيد، عندما طلب منه بنو إسرائيل أن يجعل لهم وثنًا إلهًا يعبدونه من دون الله، قال عز وجل: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ (الأعراف).

مما دفعه إلى تحطيم العجل - الذي اتخذه السامري لهم إلهًا في غيبة موسى عندما ذهب للقاء ربه - على مرأى ومسمع من بني إسرائيل، وطرده لمن صنعه لهم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ (طه).

هذه هي الصور الوضيئة لموسى وهارون في القرآن، تناقض تمامًا الصورة المشينة التي تحط من قدرهما في التوراة المحرَّفة، فما أبعد الشُّقَّة بين الصورتين، فهل بعد ذلك يجوز لإنسان أن يتجرَّأ ويدعي وجود أدنى توافق بين الإسلام الصحيح واليهودية المحرَّفة؟!

وإذا ما عدنا إلى التوراة نجد أنه على خُطَى موسى وهارون - حاشاهما - جاء نبي الله سليمان عليه السلام لينهي هو الآخر حياته - بعد أن آتاه الله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده - بعبادة الأوثان والأصنام تقربًا لزوجاته الألف، وعلى رأسهم في الإغراء بالطبع زوجته المصرية ابنة فرعون التي نقلت إلى قصور سليمان معبوداتها الوثنية، وبدلًا من أن يقودها نبي الله سليمان بن داود إلى توحيد الله، قادته هي - ولا ندري لأي سبب؟ أفليس في زوجاته الألف ما يعصمه من الخضوع لامرأة واحدة؟! - إلى نبذ التوحيد وخيانة عهده وعهد أبيه مع الله، ونحن نجد تصوير هذه الواقعة في سفر الملوك الأول على النحو الآتي: "فذهب سليمان وراء عَشْتُورَث إلهة الصِّيدُونيِّين، ومَلْكوم رِجْس العمُّونيِّين، وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تمامًا كداود أبيه. حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكَمُوش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمُولَك رجس بني عمُّون. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كُنَّ يُوْقِدْنَ ويذبحنَ لآلهتهن. فغضب الرب على سليمان؛ لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين، وأوصاه في هذا الأمر ألَّا يتبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب" (الملوك الأول ١١: ٥ - ١٠).

وهكذا تحول نبي الله سليمان بن داود النبي ابن النبي الذي كان يدعو الناس إلى التوحيد، هو وجنوده من الجن والإنس والطير، إلى داعية للوثنية يبني لها المعابد والمذابح في الأماكن المرتفعة الواضحة.

ولكن القرآن يذكر سليمان بالخير ويبرئه تمامًا من تهمة الكفر هذه، فيقول: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ (ص)، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (البقرة). ويقول الله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء).

وإذا كان هذا هو مستوى الأنبياء أو الصالحين القدوة الذين يكلمهم الله - حسب زعم التوراة - فمن الطبيعي أن يكون هذا هو حال الشعب، فالناس على دين ملوكهم، ولهذا نجد أن عامة بني إسرائيل يتورطون في عبادة الأوثان لأوهن الأسباب، ويستمرون مع ذلك سنوات طويلة إلى أن تكثر عليهم المصائب، ويَحمَى عليهم غضب الرب، "فسكن بنو

إسرائيل في وسط الكنعانيين والحِثِّيين والأموريين والفِرزِّيين والحِوِّيين واليَبُوسيِّين، واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء، وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم. فعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب، ونسوا الرب إلههم وعبدوا البَعْلِيم[1] والسَّواري. فحمي غضب الرب على إسرائيل، فباعهم بيَدِ كُوشان رِشَعْتايِم مَلِك أرام النَّهرين. فعبد بنو إسرائيل كوشان رشعتايم ثماني سنين". (القضاة ٣: ٥ ـ ٨).

وفي النسيج العام للأسفار الخمسة الأساسية التي تشكل التوراة يبدو التساهل مع الأصنام أمرًا عاديًّا في حياة أنبياء بني إسرائيل، فراحيل ـ زوجة نبي الله يعقوب ـ تسرق الأصنام (الآلهة) من لابان وتخفيها تحتها وتجلس عليها، وترفض أن تقوم من فوقها وقت البحث عنها بحجة أن عليها عادة النساء ولا تستطيع أن تقوم. ولابان يعتب على يعقوب أنه يريد الهرب دون وداعه، ولكن هذا لا يَهُمُّه، بل الذي يَهُمُّه هو: لماذا سرق منه آلهته؟

وفي مقابل هذه الصور الرذيلة للأنبياء في التوارة نجد صورة حسنة سامية في القرآن الكريم ترفض كل ما ألحق بسيرتهم من نقائص ومخازي فهم عباد الله المصطفون الأخيار، جعلهم الله تعالى هداة للبشرية وأسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، فقال: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ (٩٠) ﴾ (الأنعام)، وقال أيضًا: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ (٧٣) ﴾ (الأنبياء).

وإذا ما تركنا الحديث عن الأنبياء والرسل وذهبنا إلى عقيدة التوراة في الإله، رأينا من النسيج العام للتوراة أيضًا أن إله اليهود نفسه يهوه لا يشعر في حديثه أنه إله واحد فرد صمد "فإنك لا تسجد لإله آخر، لأن الرب اسمه غيور. إله غيور هو. احترز من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض، فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم، فتُدعَى وتأكل من ذبيحتهم، وتأخذ من بناتهم لبنيك، فتزني بناتهم وراء آلهتهن، ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن". (الخروج ٣٤: ١٤ ـ ١٦).

وحتى أزمنة قريبة جدًّا، بل حتى القرن العشرين، نسمع عبارات تتردد في التراث اليهودي مثل: آلهتك وآلهتهن.. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بالنسبة إلى الذات الإلهية ومكانتها عبر العصور، بل تضمن العهد القديم حتى في أسفار التوراة الخمسة المعتمدة.. نعوتًا بالغة الهبوط، ليس بالنسبة لله فحسب، بل بالنسبة للبشر الأسوياء، فضلًا عن بشر في مستوى الأنبياء عليهم السلام.

إننا نجد في أسفار التوراة حديثًا عن الله يجعله أقرب إلى البشرية والتجسيد منه إلى الألوهية والتنزيه.

ومن المعروف أن تشويه صورة الله وتشبيهه بالصفات البشرية الناقصة من شأنه أن يقضي على مكانة الألوهية، وأن يقضي على الشعور بعظمة الله وقدرته وتعاليه، واستحقاقه للعبادة، فإذا لم يكن الله إلهًا بحق منزهًا عن صفات النقص، والعجز، والنسبة، فكل شيء مباح في هذه الدنيا، إن التوراة تصف الله بالتعب والإجهاد، والشعور بالإرهاق، ولهذا فإنه يأخذ عطلة

---

١. البَعْلِيم: جمع بعل، وهو بمعنى إله عند اليهود.

ليستريح من عمله.

لقد ورد في سفر التكوين النص التالي: "فأكملت السماوات والأرض وكل جندها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدَّسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقًا ". (التكوين ٢: ١ ـ ٣).

والنص ـ كما نرى ـ واضح لا يقبل تأويلًا، وكل تأويل له لا يخلو من تكلف وتعسُّف. كما وصفت التوراة الله بالجهل وعدم العلم بالوقائع، يذكر سفر التكوين أن آدم عندما أخطأ اختبأ من وجه الرب الإله: "فنادى الرب الإله آدم وقال له: «أين أنت»؟ فقال: «سمعت صوتك في الجنة فخشيت، لأني عريان فاختبأت». فقال: «من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها»؟ فقال آدم: «المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت». فقال الرب الإله للمرأة: «ما هذا الذي فعلت»؟ فقالت المرأة: «الحيَّة غرتني فأكلت»". (التكوين ٣: ٩ـ١٣).

فهل يليق أسلوب هذا الحوار بجلال الله؟ وهل يقبل مع هذا الأسلوب البعيد عن التنزيه والعلم المطلق اللائق بعظمة الله، أي تكلف في التأويل أو محاولة للتبرير؟ أوليس من الواجب بالنسبة لقضية الألوهية تنزيه الله عن هذا الأسلوب؟! وهذا الإله ـ كما تُصَوِّره التوراة ـ يتوتر ويقلق ويخشى على مستقبله من آدم بعد أن أكل من الشجرة، تقول التوراة: "وقال الرب الإله: «هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفًا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا ويأكل ويحيا إلى الأبد». فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها". (التكوين٣: ٢٢، ٢٣).

ولنلاحظ هنا لغة الجمع في الإله "كواحد منا"، فهل هناك أكثر من إله؟!

إن حكايات العهد القديم وخيالاته السارحة تنال من جلال الألوهية، ولا تبعث النفوس على إعظامٍ لله ولا تهيُّب، وأين له ـ هذا القاع ـ مما حفل به القرآن من ترديد لأسماء الله الحسنى وأوصافه السنية؟ فنلاحظ أن سورة بني النضير ـ الحشر ـ خُتِمَت بأكثر من عشرين اسمًا ووصفًا لله الكبير المتعال، كأنها تذكر القوم "اليهود" بما نسوه أو تعلِّمهم ما جهلوه عن إلههم الحق، ولم يقدِّروا قدره، ولم يعرفوا حقَّه، يقول الله ﷻ بعدما وبَّخ اليهود على غدرهم وفِسْقِهم: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الحشر).

في هذه الآية الثانية تسعة أسماء وصفات زيادة عن سابقتها التي تضمنت خمسة أسماء وصفات: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ (الحشر).

وفي هذه الآية الثالثة إضافة سبعة أسماء وصفات أخرى يتآلف فيها الكمال الإلهي نورًا على نور، أين من هذه القِمَّة السامقة حديث التوراة عن إله جهول أكول يصارع عبدًا له طول الليل؟! من أجل ذلك حدد

الإسلام عقيدته الكبرى في كلمات قلائل واضحة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ (الإخلاص).

فالإسلام يرفض كل قول ينسب لله تجسيدًا أو تشبيهًا أو حلولًا في أشياء وما إلى ذلك من أوهام وضلالات، كما يرفض كل حديث يصور الله تعالى وقد لحقت به عواطف الإنسان وانفعالاته وضعفه، فكل ذلك باطل الأباطيل.

وليس مهمًّا أن يعج العهد القديم بهذه الصور التي لا تليق بالله، ففي كتب الوثنيين أكثر من هذا. لكن أن يقال: إن هذا كتاب مقدس موصول النسب بالله، فهذا ما يستحيل نقلًا وعقلًا، والأسوأ من ذلك أن تُشَلَّ العقول أمامه وتُغَلَّق، ويبلغ الأمر برجل كالرئيس الأمريكي ريجان أن يرفعه بيديه ملوحًا وقائلًا: هذا الكتاب يجب أن يحكم العالم!! وللأسف فهذا ما يقع فعلًا، وهذا ما يقود البشرية إلى الدمار"[1].

أيُّ شبه ـ بعد هذا ـ يمكن أن يشتبه على عاقل بين "التوحيد" في صفائه ونقائه في الإسلام، وبين ما رسمته التوراة "المحرَّفة" من صورة للإله، وهي أقرب ما تكون إلى الوثنية، والجسدية، والبشرية؟!

هذه الصورة المغشوشة المزيفة الشركية، التي رسمتها هذه التوراة لمقام الألوهية، هي التي أثارت في هذا المقام تساؤلات استنكارية جمة في عقل الإمام "ابن القيم" حين تحدث عنها فقال: "وأما اليهود فقد حكى الله لك عن جهل أسلافهم، وغباوتهم وضلالهم ما يدل على ما وراءه من ظلمات الجهل، التي بعضها فوق بعض، ويكفي في ذلك عبادتهم العجل الذي صَنَعَته أيديهم من ذهب، ومن عبادتهم أن جعلوه على صورة أبلد الحيوان، وأقله فطانة، الذي يضرب المثل به في قلة الفهم.

فانظر إلى هذه الجهالة والغباوة، كيف عبدوا مع الله إلهًا آخر، وقد شاهدوا من أدلة التوحيد وعظمة الرب وجلاله ما لم يشاهده سواهم؟! وإذ قد عزموا على اتخاذ إله دون الله، اتخذوه ونبيهم حيٌّ بين أظهُرهم لم ينتظروا موته، وإذ قد فعلوا لم يتخذوه من الملائكة المقربين، ولا من الأحياء الناطقين، بل اتخذوه من الجمادات! وإذ قد فعلوا لم يتخذوه من الجواهر العلوية كالشمس، والقمر، والنجوم، بل من الجواهر الأرضية! وإذ قد فعلوا لم يتخذوه من الجواهر التي خلقت فوق الأرض عالية عليها كالجبال، ونحوها، بل من جواهر لا تكون إلا تحت الأرض والصخورُ والأحجارُ عالية عليها! وإذ قد فعلوا لم يتخذوه من جوهر يستغني عن الصنعة، وإدخال النار وتقليبه وجوهًا مختلفة وضربه بالحديد وسبكه، بل من جوهر يحتاج إلى نيل الأيدي له بضروب مختلفة وإدخاله النار وإحراقه واستخراج خبثه!، وإذ قد فعلوا لم يصوغوه على تمثال ملك كريم ولا نبي مرسل، ولا على جوهر علوي لا تناله الأيدي بل على تمثال حيوان أرضي! وإذ قد فعلوا لم يصوغوه على تمثال أشرف الحيوانات وأقواها وأشدها امتناعًا من الضيم كالأسد، والفيل، ونحوهما، بل صاغوه على تمثال أبلد الحيوان، وأقبله

1. الفكر اليهودي بين تأجيج الصراعات وتدمير الحضارات، د. عبد الحليم عويس، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ط1، 2003م، ص9 وما بعدها.

للضيم والذل بحيث يُحرَث عليه الأرض ويُسقَى عليه بالسواقي، والدواليب، ولا له قوة يمتنع بها من كبير ولا صغير.

فأي معرفة لهؤلاء بمعبودهم ونبيهم وحقائق الموجودات؟

وحقيق بمن سأل نبيه أن يجعل له إلهًا فيعبد إلهًا مجهولًا، بعدما شاهد تلك الآيات الباهرات، ألا يعرف حقيقة الإله ولا أسماءه، وصفاته، ونعوته، ودينه، ولا يعرف حقيقة المخلوق وحاجته وفقره.

ولو عرف هؤلاء معبودهم ورسولهم لما قالوا لنبيهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (البقرة: ٥٥)، ولا قالوا له: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (المائدة)، ولا قتلوا نفسًا، وطرحوا المقتول على أبواب البرآء من قتله، ونبيهم حيٌّ بين أظهرهم، وخبر السماء والوحي يأتيه صباحًا ومساءً، فكأنهم جوَّزوا أن يخفى هذا على الله كما يخفى على الناس!!

ولو عرفوا معبودهم لما قالوا في بعض مخاطباتهم له: "يا أبانا، انتبه من رقدتك، كم تنام" ولو عرفوا لما سارعوا إلى محاربة أنبيائه وقتلهم، وحبسهم، ونفيهم، ولما تَحَيَّلُوا[1] على تحليل محارمه، وإسقاط فرائضه بأنواع الحيل.

ولقد شهدت التوراة بعدم فطانتهم وأنهم من الأغبياء، ولو عرفوه لما حجروا عليه بعقولهم الفاسدة، أن يأمر بالشيء في وقت لمصلحة ثم يزيل الأمر به في وقت آخر لحصول المصلحة، وتبدُّله بما هو خير، وينهى عنه ثم يبيحه في وقت آخر لاختلاف الأوقات والأحوال في المصالح والمفاسد، كما هو شاهد في أحكامه القدرية الكونية التي لا يتم نظام العالم ولا مصلحته إلا بتبديلها واختلافها بحسب الأحوال والأوقات والأماكن، فلو اعتمد طبيب ألا يغير الأدوية والأغذية بحسب اختلاف الزمان والأماكن والأحوال لأهلك الحرث والنسل، وعُدَّ من الجهال، فكيف يحجر على طبيب القلوب والأديان أن تتبدل أحكامه بحسب اختلاف المصالح؟! وهل ذلك إلا قدح في حكمته ورحمته وقدرته وملكه التام وتدبيره لخلقه؟

ومن جهلهم بمعبودهم ورسوله وأمره، أنهم أُمِروا أن يدخلوا باب المدينة التي فتحها الله عليهم سُجَّدًا ويقولوا: حِطَّة، فيدخلوا متواضعين لله سائلين منه أن يحط عنهم خطاياهم، فدخلوا يزحفون على أَسْتاهِهم[2] بدل السجود لله، ويقولون: "هنطا سقماثا"؛ أي: حنطة سمراء، فذلك سجودهم وخشوعهم، وهذا استغفارهم واستقالتهم من ذنوبهم.

ومن جهلهم وغباوتهم، أن الله ﷻ أراهم من آيات قدرته وعظيم سلطانه وصدق رسوله ما لا مزيد عليه، ثم أنزل عليهم بعد ذلك كتابه، وعهد إليهم فيه عهده، وأمرهم أن يأخذوه بقوة فيعبدوه بما فيه كما خلَّصهم من عبودية فرعون والقبط، فأبوا أن يقبلوا ذلك وامتنعوا منه، فنَتَق الجبل[3] العظيم فوق رءوسهم على قَدْرِهم، وقيل لهم: إن لم تقبلوا أطبقته عليكم فقبلوه

١. تَحَيَّلُوا: استخدموا الحيلة والخداع.

٢. الأَسْتاه: الأعجاز.

٣. نَتَق الجبل: رفعه من مكانه ليسقط في مكان آخر.

من تحت الجبل. قال ابن عباس: رفع الله الجبل فوق رءوسهم، وبعث نارًا من قبل وجوههم، وأتاهم البحر من تحتهم، ونودوا: إن لم تقبلوا أَرْضَختُكم[1] بهذا، وأحرقتكم بهذا، وأغرقتكم بهذا، فقبلوه، وقالوا: سمعنا وأطعنا ولولا الجبل ما أطعناك، ولما آمنوا بعد ذلك قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ (البقرة: ٩٣).

ومن جهلهم أنهم شاهدوا الآيات ورأوا العجائب التي يؤمن على بعضها البشر، ثم قالوا بعد ذلك: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ (البقرة: ٥٥)، وكان الله سبحانه قد أمر موسى أن يختار من خيارهم سبعين رجلًا لميقاته: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ (الأعراف: ١٥٥)، فاختارهم موسى وذهب بهم إلى الجبل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشَّى الجبل، وقال للقوم: ادنوا، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الحجاب وقعوا سُجَّدًا، فسمعوا الرب تعالى وهو يكلِّم موسى، ويأمره وينهاه ويعهد إليه، فلما انكشف الغمام قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[2].

ولعله من اللطيف أن نختم الحديث في هذا الجانب بطُرْفة ساقها الشيخ منصور الرفاعي عبيد تحت عنوان "نكتة"، قال فيها: "شاعر الإسلام العظيم محمد إقبال لـمَّا سُئِل: لماذا نزلت الأديان السماوية، وبعث الله رسله وأنبياءه في آسيا، ولم يبعث أحدًا منهم في أوربا؟ فأجاب محمد إقبال: آسيا اختارها الله لتكون مكانًا لتنزُّل رسالته، وترك أوربا للشيطان، فقال السائل: قد عرفنا رسل الله، فأين رسل الشيطان إلى أوربا؟ قال: اليهود.

إن اليهود هم هم، في كل زمان. وقد أساءوا الأدب دائمًا مع الله، عبدوا العجل، وقالوا عزير ابن الله، ثم قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، وهذا اجتراء منهم وافتراء. لكن ماذا نقول لأولاد الأفاعي الذين عاشوا وأيديهم ملوثة بدماء الأنبياء، ثم هم تمردوا على موسى، واتهموا إبراهيم عليه السلام من قبل. وعاشوا في كل أنواع الفساد. لذلك عندما سمعوا قول الله تعالى في آية نزلت في القرآن الكريم: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ (البقرة). ذهب اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له: يا محمد، افتقر ربك فسأل عباده القرض، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ (آل عمران).

إن من اجترأ على قتل الأنبياء بغير حق، لم يُسْتبعد منه أن يقول على الله أقوالًا منكرة، لكن الحق عز وجل أخبر بأنه سينتقم من المجرمين الذين يفترون الكذب.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه بيت المدراس[3]، فوجد من اليهود أناسًا كثيرًا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يُقال له

١. أَرْضَختُكم: المقصود بها أسقط عليكم الجبل.

٢. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن قيم الجوزية، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٣٦٩ وما بعدها.

٣. بيت المدراس: هو البيت الذي يدرس فيه اليهود كتبهم.

"فِنْحَاص"، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حَبْرٌ يقال له "أشيع". فقال أبو بكر: ويحك يا فِنْحَاص، اتقِ الله وأَسْلِم، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فِنْحَاص: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرَّع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيًّا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويُعْطينا، ولو كان غنيًّا ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر، فضرب وجه فِنْحَاص ضربًا شديدًا، وقال: والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله، فَاكْذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: أَبْصِر ما صنع بي صاحبك. فقال ﷺ لأبي بكر: "ما حَمَلَكَ على ما صَنَعْتَ"؟ فقال: يا رسول الله، إن عَدُوَّ الله قد قال قولًا عظيمًا، زَعَم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غَضِبْتُ لله مما قال، فضربت وجهه. فجَحَد ذلك فنحاص، وقال: ما قلتُ ذلك. فأنزل الله فيما قال فنحاص ردًّا عليه وتصديقًا لأبي بكر: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾.

وقول الله جل شأنه: ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ ﴾ تهديد ووعيد؛ ولهذا قرنه بقوله تعالى: ﴿ وَقَتْلَهُمُ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ (آل عمران: ١٨١)؛ أي: هذا قولهم في الله، وهذه معاملتهم لرسل الله، وسيجزيهم الله تعالى على ذلك شَرَّ الجزاء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ (آل عمران)؛ أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتحقيرًا وتصغيرًا[1] ®.

هذا ما كان من أمر عقيدة التوحيد بين كتب الديانتين ـ الإسلام واليهودية ـ المقدسة. فماذا عن الجوانب الأخرى كالمعاملات والأخلاقيات؟

ثانيًا. التشريع والأخلاق بين القرآن والتوراة والتلمود:

يشتهر عن اليهودية أنها ـ على عكس المسيحية الديانة الروحانية بالأساس ـ ديانة تشريعية اهتمت بالتشريع والتقنين لحياة اليهود، وهي بهذا أشبه بالإسلام، ولكن الفارق الجوهري في هذا الشأن، هو الاختلاف كمًّا وكيفًا بين الديانتين، بالإضافة إلى ما أصاب كتب اليهودية المقدسة من تحريف يجعل الاختلاف في هذا المجال واضحًا والبون شاسعًا.

تحت عنوان "من صور التشريع في اليهودية" يحدثنا في هذا الجانب الدكتور أحمد شلبي قائلًا: "ينسب إلى موسى عليه السلام أنه أول من رسم لليهود السلطة التشريعية، ويذكر ***Hosmer*** أن موسى وضع أسس التشريع في التوراة، فأصبحت المرجع القانوني، كما أصبحت حجر الأساس لبناء الدولة اليهودية، ويذكر ***Weech*** أن موسى كان قائدًا لبني إسرائيل، وكان بجانب ذلك مرشدًا ومشرِّعًا له.

ونقرر أن الأسفار الخمسة المسماة بالتوراة والموجودة

---

١. القرآن واليهود، منصور الرفاعي عبيد، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، ص٥٨: ٦٠.

® في "**الإشارات إلى التوحيد في الكتاب المقدس**" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السابعة، من هذا الجزء. والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

الآن ليست مما أُوحِي إلى موسى، وليست من كتابته أو إملائه، بل هي من تأليف كُتَّاب متأخرين، وأن الوصايا العشر أو بعضها هي ما تبقَّى لنا من توراة موسى، وما عدا هذه الوصايا من تشريعات فهو من صنع الكهنة والرهبان من اللاويين أبناء ليفي، الذين كان لهم الحق في وضع الأحكام للأمة العبرية، ولم يكن أحد غير هؤلاء يستطيع أن يقرّ القرابين بالطريقة الصحيحة، أو يفسر الطقوس، أو الأسرار الدينية تفسيرًا آمنًا من الخطأ. وهكذا وضع الكهنة والرهبان هذه التشريعات يقررون بها حقوقًا لأنفسهم، وتقاليد لقومهم، وقد آن لنا أن نقتبس الوصايا العشر ثم نتبعها بحديث عن التشريع الذي وضعه الكهنة والرهبان.

من مطالعة أسفار موسى الخمسة يتضح لنا أن الوصايا العشر وردت في صيغتين: إحداهما أكثر اتصالًا بالدين والعقيدة، وقد جاءت في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج، وفي الإصحاح الخامس من سفر التثنية، وهناك في الصيغتين توافق في بعض الوصايا، ثم اختلاف في البعض الآخر، فتتّجه الصيغة الأولى للعقيدة وتهتم بالقرابين التي تُقَدَّم، والثانية للتقاليد والآداب.

ونصُّ الصيغة الأولى كالآتي:

"احفظ ما أنا مُوصِيك اليوم... لا تسجد لإله آخر، لأن الرب اسمه غيور... لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة... تحفظ عيد الفطير. سبعة أيام تأكل فطيرًا كما أمرتك في وقت شهر أبيب، لأنك في شهر أبيب خرجت من مصر... لي كل فاتح رحم، وكل ما يولد ذكرًا من مواشيك بكرًا من ثور وشاة. وأما بكر الحمار فتفديه بشاة، وإن لم تفده تكسر عنقه. كل بكر من بنيك تفديه، ولا يظهروا أمامي فارغين... ستة أيام تعمل، وأما اليوم السابع فتستريح فيه... وتصنع لنفسك عيد الأسابيع أبكار حصاد الحنطة... وعيد الجمع في آخر السنة... لا تذبح على خمير دم ذبيحتي، ولا تبت إلى الغد ذبيحة عيد الفصح... أول أبكار أرضك تحضره إلى بيت الرب إلهك. لا تطبخ جديًا بلبن أمه... ". (الخروج ٣٤: ١١ـ٢٨).

ونصُّ الصيغة الثانية كالآتي:

"أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي، وأصنع إحسانًا إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي. لا تنطق باسم الرب إلهك باطلًا، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلًا. اذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك. لا تصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك. لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح في اليوم السابع. لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه. أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك. لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد على قريبك شهادة زور. لا تشته

بيت قريبك... ". (الخروج ٢٠: ٣ـ ١٧).

هذه هي الوصايا العشر في أسفارهم، يلاحظ عليها اختلاط الحق بالباطل؛ بسبب تدخل البشر فيها بالزيادة والنقصان عبثًا وتحريفًا واتباعًا للأهواء، أما في القرآن الكريم فنجد تشريعات أخلاقية راقية محكمة في كل جوانب التشريع الإسلامي، أساسها القاعدة العامة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ (النحل).

وقد جمع القرآن الكريم معظم التشريعات المبثوثة في تضاعيف التوراة والإنجيل في آيتين من آياته في قوله ﷻ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ (الأنعام).

والقرآن الكريم يمتلئ بمثل هذه الأحكام والوصايا الأخلاقية الراقية التي تحض على التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل واتباع الهدى والصراط المستقيم.

وفي أسفار التوراة الموجودة بين أيدينا، يلاحظ ازدحام التشريعات في سفر الخروج واللاويين والعدد والتثنية، وفيما يلي نماذج من تشريعات **سفر الخروج**:

- "من ضرب إنسانًا فمات يقتل قتلًا. ولكن الذي لم يتعمد، بل أوقع الله في يده، فأنا أجعل لك مكانًا يهرب إليه... وإذا ضرب إنسان عبده أو أمته بالعصا فمات تحت يده ينتقم منه. لكن إن بقي يومًا أو يومين لا ينتقم منه؛ لأنه ماله... وإذا نطح ثور رجلًا أو امرأة فمات، يرجم الثور ولا يُؤكل لحمه. وأما صاحب الثور فيكون بريئًا. ولكن إن كان ثورًا نطاحًا من قبل، وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه، فقتل رجلًا أو امرأة، فالثور يرجم وصاحبه أيضًا يقتل". (الخروج ٢١: ١٢ـ ٢٩).
- "إذا سرق إنسان ثورًا أو شاة فذبحه أو باعه، يُعوَّض عن الثور بخمسة ثيران، وعن الشاة بأربعة من الغنم. إن وجد السارق وهو ينقب، فضرب ومات، فليس له دم. ولكن إن أشرقت عليه الشمس، فله دم". (الخروج ٢٢: ١ - ٣).

وفي **سفر اللاويين** أحكام تتصل بالقرابين والطقوس والأعياد والنذور والمحرمات وكفَّارات الذُّنوب، وفيه كذلك شروح ضافية لمكانة اللاويين، وخيمة الاجتماع، والمحرمات في الزواج، والطعام الذي يحل والذي يحرم، ومن هذا السفر يمكن أن نقتبس بعض التشريعات:

- "متى ولد بقر أو غنم أو معزى يكون سبعة أيام تحت أمه، ثم من اليوم الثامن فصاعدًا يرضى بـه قربـان وقود للرب". (اللاويين ٢٢: ٢٧).
- "والأرض لا تُباع ألبتة، لأن لي الأرض، وأنتم غرباء ونزلاء عندي". (اللاويين ٢٥: ٢٣).

وفي **سفر العدد** ـ بالإضافة إلى العدِّ والإحصاء ـ توجد تشريعات حول نقاط كثيرة؛ منها ما سُمِّي بـ "شريعة الغَيْرة واللعان والاعتراف". وقد ورد ذلك مفصلًا في الإصحاح الخامس، وهناك تشريعات أخرى بهذا السفر نقتبس منها ما يلي:

- "من مسَّ ميتًا يكون نجسًا سبعة أيام. يتطهر بـه في اليوم الثالث، وفي اليوم السابع يكون طاهرًا. وإن لم يتطهر في اليوم الثالث ففي اليوم السابع لا يكون طاهرًا... هذه هي الشريعة: إذا مات إنسان في خيمة، فكل من دخل الخيمة، وكل من كان في الخيمة يكون نجسًا سبعة أيام. وكل إناء مفتوح ليس عليه سداد بعصابة فإنه نجس". (العدد ١٩: ١١ـ ١٥).
- "وكلم موسى رءوس أسباط بني إسرائيل قائلًا: «هذا ما أمر به الرب: إذا نذر رجل نذرًا للرب، أو أقسم قسمًا أن يلزم نفسه بلازم، فلا ينقض كلامه. حسب كل ما خرج من فمه يفعل. وأما المرأة فإذا نذرت نذرًا للرب والتزمت بلازم في بيت أبيها في صباها، وسمع أبوها نذرها واللازم الذي ألزمت نفسها به، فإن سكت أبوها لها، ثبتت كل نذورها. وكل لوازمها التي ألزمت نفسها بها تثبت. وإن نهاها أبوها يوم سمعه، فكل نذورها ولوازمها التي ألزمت نفسها بها لا تثبت". (العدد ٣٠: ١ ـ ٥).

وفي **سفر التثنية** تكرار للتشريعات والتعاليم التي وردت في الأسفار السابقة، بالإضافة إلى تشريعات أخرى استحدثت فيه، وفيما يلي نماذج من تشريعات هذا السفر:

- "احفظ شهر أبيب واعمل فِصْحًا[1] للرب إلهك، لأنه في شهر أبيب أخرجك الرب إلهك من مصر ليلًا. فتذبح الفصح للرب إلهك غنمًا وبقرًا في المكان الذي يختاره الرب ليحل اسمه فيه. لا تأكل عليه خميرًا. سبعة أيام تأكل عليه فطيرًا، خبز المشقة، لأنك بعجلة خرجت من أرض مصر، لكي تذكر يوم خروجك من أرض مصر كل أيام حياتك". (التثنية ١٦: ١ ـ ٣).
- "لا يقوم شاهد واحد على إنسان في ذنب ما أو خطية ما من جميع الخطايا التي يخطئ بها. على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر". (التثنية ١٩: ١٥).

هذا جانب من التشريعات التي تخصُّ الجانب العقابي أو الجنائي في اليهودية، وكما هو واضح نجده لا ينضبط بقاعدة، أو يقوم على مقصد وهدف، فهي أحكام مضطربة مشوشة مشوهة عبثت بها أهواء البشر وأمزجتهم. أما في الإسلام فإن الشريعة الإسلامية قائمة كلها على حِكَمٍ وعِلَلٍ منضبطة بقواعدها ومقاصدها، لذلك فإنها احتوت على أفضل القوانين والتشريعات على مرّ التاريخ، التي كانت تهدف دائمًا إلى تحقيق العدالة والمساواة داخل المجتمع البشري؛ مما

١. الفِصْح من الأيام: الصَّحو الذي لا غَيْم فيه ولا بـرد، وعند اليهود: عيد ذِكْرَى خروجهم من مصر، وعند المسيحيين: عيد ذكرى قيامة السيد المسيح من الموت في اعتقادهم، ويعرف بالعيد الكبير.

يؤدي إلى الأمن والطمأنينة والاستقرار.

ولكن المجال لا يتسع هنا لعرض جميع تشريعات الإسلام سواء في الجانب العقابي أو غيره، فقد تم الحديث عن ذلك في أماكن أخرى من هذه الموسوعة وفيها الكفاية.

ونورد الآن نماذج لبعض التشريعات المتصلة بمسائل مهمة كموقف اليهودية من المرأة، ومن الرق والاعتراف، ورأيها في الميراث، والمحرمات في الزواج وغيرها. وسيمكننا بعرض هذه المسائل أن نبرز المقارنة بين التشريعات في اليهودية والتشريعات في الإسلام:

١. **الاعتراف والتطهير:**

في الفكر اليهودي تكثر الخطايا، ففي كل شهوة من الشهوات تكمن الخطيئة، فالخطيئة تدنس المخطئ، والحيض والولادة كالخطيئة يدنسان المرأة، ويتطلبان تطهيرًا ذا مراسم وتقاليد وتضحية وصلاة على يد الكهنة، والهبات والقرابين هي الوسيلة للتكفير عن الخطايا، على أن تُقدَّم للكهنة بعد الاعتراف الكامل بما ارتكب الإنسان من إثم، وعلى هذا كان المجتمع اليهودي مجتمع خطايا، ومجتمع تكفير وغفران في نفس الوقت، حتى إن التاجر كان ولا يزال يطفف الكيل ويغش في الميزان، ثم يحاول التكفير عن ذنبه بالتضحية والصلاة.

وقد أورد سفر العدد صورة مفصلة للمرأة التي تريد أن يغفر لها وضرورة أن تذهب للكاهن، لتعترف عنده بخطيئتها، وذكر السفر أن الكاهن يوقفها أمام الرب، ويأخذ ماء مُقدَّسًا في إناء خزف، ويتلو عليه ترانيم وأدعية، ويطلب الكاهن من المرأة الاعتراف، فإن رفضت سقاها من هذا الماء الذي يُسمَّى ماء اللعنة، وهددها بأن هذا الماء إذا دخل أحشاءها وهي مذنبة لم تعترف، وَرِمَ بطنُها وسقط فخذها، وإذا اعترفت استطاع الكاهن أن يطهرها بالقرابين والهبات والأدعية؛ وهذه هي الفقرات التي تعبر عن هذا المعنى:

"وكلَّم الرب موسى قائلًا: «كلِّم بني إسرائيل وقُل لهم: إذا زاغت امرأة رجل وخانته خيانة، واضطجع معها رجل اضطجاع زرع، وأخفى ذلك عن عيني رجلها، واستترت وهي نجسة وليس شاهد عليها، وهي لم تؤخذ، فاعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهي نجسة، أو اعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهي ليست نجسة، يأتي الرجل بامرأته إلى الكاهن، ويأتي بقربانها معها: عشر الإيفة من طحين شعير، لا يصب عليه زيتًا ولا يجعل عليه لبانًا، لأنه تقدمة غيرة، تقدمة تذكار تذكر ذنبًا. فيقدمها الكاهن ويوقفها أمام الرب، ويأخذ الكاهن ماء مقدَّسًا في إناء خزف، ويأخذ الكاهن من الغبار الذي في أرض المسكن ويجعل في الماء، ويوقف الكاهن المرأة أمام الرب، ويكشف رأس المرأة، ويجعل في يديها تقدمة التذكار التي هي تقدمة الغيرة، وفي يد الكاهن يكون ماء اللعنة المر.

ويستحلف الكاهن المرأة ويقول لها: إن كان لم يضطجع معك رجل، وإن كنت لم تزيغي إلى نجاسة من تحت رجلك، فكوني بريئة من ماء اللعنة هذا المر. ولكن إن كنت قد زغت من تحت رجلك وتنجست، وجعل معك رجل غير رجلك مضجعه يستحلف الكاهن المرأة بحلف اللعنة، ويقول الكاهن للمرأة: يجعلك الرب لعنة وحلفًا بين شعبك، بأن يجعل الرب فخذك

ساقطة وبطنك وارمًا. ويدخل ماء اللعنة هذا في أحشائك لورم البطن، ولإسقاط الفخذ. فتقول المرأة: آمين، آمين. ويكتب الكاهن هذه اللعنات في الكتاب ثم يمحوها في الماء المر، ويسقي المرأة ماء اللعنة المر، فيدخل فيها ماء اللعنة للمرارة. ويأخذ الكاهن من يد المرأة تقدمة الغيرة، ويردد التقدمة أمام الرب ويقدمها إلى المذبح. ويقبض الكاهن من التقدمة تذكارها ويوقده على المذبح، وبعد ذلك يسقي المرأة الماء. ومتى سقاها الماء، فإن كانت قد تنجست وخانت رجلها، يدخل فيها ماء اللعنة للمرارة، فيرم بطنها وتسقط فخذها، فتصير المرأة لعنة في وسط شعبها. وإن لم تكن المرأة قد تنجست بل كانت طاهرة، تتبرأ وتحبل بزرع". (العدد ٥: ١١ ـ ٢٨).

وإذا ذهبنا إلى نظام التطهير من الذنوب في الإسلام وجدنا نظامًا آخر يختلف تمامًا عن هذا النظام الآسن[1] الذي لا يزيد الإنسان إلا خبالًا ورجسًا، بل يدفع الإنسان إلى الاستمرار في السيئات والفواحش، حيث لا يوجد في الإسلام واسطة بين العبد وربه، وليس فيه مراسم للتطهير، وإنما من أخطأ وارتكب إثمًا أو فعل منكرًا عليه أن يتوب ويرجع إلى الله، ولا تُقبل التوبة إلا بشروط، منها: الإقلاع عن الذنب وعدم الرجوع إليه، والندم على فعله، ورد الحقوق إلى أهلها، ثم الاستزادة من الحسنات التي تُذهِب السيئات، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ (آل عمران)، وقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ (هود)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ ﴾ (النساء).

٢. الرق:

أباحت التوراة الاسترقاق بطريق الشراء، أو سَبْيًا في الحرب، فجعلت للعبري ـ اليهودي ـ أن يَسْتَبْعِدَ العبري إذا افتقر، فيبيع الفقير نفسه للغني، أو يقدم المدين نفسه للدائن حتى يوفِّي له الثمن، ويبقى عبدًا له ست سنين ثم يتحرر، ففي سفر الخروج: "إذا اشتريت عبدًا عبرانيًّا، فست سنين يخدم، وفي السابعة يخرج حرًّا مجانًا". (الخروج ٢١: ٢)، وإذا سرق العبري ماشية وذبحها، أو أي شيء استهلكه، ولم يكن في يده ما يُعَوِّض به صاحبه، يباع السارق بسرقته كما نصت التوراة على ذلك في سفر الخروج، وأباحت التوراة للعبري أن يبيع بنته فتكون أَمَةً للعبري الذي يشتريها.

أما الاسترقاق سبيًا في الحرب فهو أيسر ما ينزله اليهود بأعدائهم، وقد نص العهد القديم على ما يلي: "حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربا، فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب

1. الآسن: الفاسد.

جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة - كل غنيمتها - فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك". (التثنية ٢٠: ١٠ - ١٤) ®.

فأين هذا من التشريعات الإسلامية المنضبطة في مسألة الرق والاسترقاق وغيرها؛ إذ إن الإسلام حرص على تحرير الرقيق تدريجيًّا في المجتمعات؛ وذلك بتضييق روافده وتوسيع أبواب الخروج من الرق، فجعل عتق الرقاب كفارات لكثير من الذنوب كالقتل والظهار والحنث في القسم وغيرها... والأعظم من ذلك تلك الحقوق التي أعطاها الإسلام للرقيق على سادتهم من المعاملة الحسنة وتلبية حاجاتهم وضرورياتهم، وفي الحديث الصحيح: "إخوانكم خَوَلُكم[1]، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم"[2].

وهذه الحقوق التي أعطاها الإسلام للرقيق نابعة من نظرة الإسلام للناس كافة، التي لا تفرق بين غني وفقير أو عبد وسيد أو امرأة ورجل، فالكل عند الله سواسية، لا تَميُّز إلا بالإيمان والعمل الصالح، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات).

٣. الميراث:

إذا نظرنا إلى نظام الإرث في التوراة فإننا نجد أن أول من يَرِثُ المَيِّتَ ولدُه الذكر، وإذا تعدد الذكور الأولاد فللبِكْرِي حظ اثنين من إخوته، ولا فرق بين المولود بنكاح صحيح أو غير صحيح من الأولاد في المواريث، فيعطى لكل منهم نصيبه بصَرْفِ النظر عن النكاح الذي ولد منه، ولا يُحْرَم البكري من امتيازه إذا كان من نكاح غير شرعي.

أما البنات فمن لم تبلغ منهن الثانية عشرة فلها النفقة والتربية حتى تبلغ هذه السن تمامًا، وليس لها شيء بعد ذلك، وإذا لم يكن للميت ولد ذكر فميراثه لابن ابنه، وإذا لم يكن له ابن انتقل الميراث إلى البنت فأولادها وهكذا. ويرى القَّراءون أن يكون للبنت نصيب مع الولد، سهمان للولد وسهم للبنت. وإذا لم تكن له ذرية فميراثه لأصوله، وأحق الأصول بميراث الميت أبوه، وله كل التركة، فإن لم يكن له أب فجده. وإذا لم يكن له أصول انتقل الميراث إلى درجات الأقارب الفرعية من الذكور، وإذا لم يكن للميت وارث من فروع أو أصول أو حواش، كانت أمواله مباحة يملكها أسبق الناس إلى حيازتها، وتظل وديعة في يد حائزها[3] مدة ثلاث سنوات، فإذا لم يظهر للميت وارث خلالها صارت ملكًا لحائزها، وعند اختلاف الدين يرث اليهودي أقاربه من غير اليهود، ولا يرث الأقاربُ غيرُ اليهودِ اليهوديَّ.

® في "موقف الإسلام من الرق" طالع: الشبهة السادسة عشرة، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

١. خَوَلُكم: عُهْدَتكم، أي أمانة في أعناقكم.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا الشرك (٣٠)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه (٤٤٠٥).

٣. الحائز: المالك.

أما الميراث في الإسلام فله نظام بديع في توزيع التركة وأهم ميزة تميز النظام الإسلامي عن غيره في هذا المجال أنه أبطل قاعدة: لا ترث البنات إلا عند فقد الذكور، المعمول بها في الشرائع السابقة، فأصبحت البنات يرثن في أبيهن المتوفَّى، سواء ترك أبناء ذكورًا أو لا، وترث الأم في ابنها المتوف مع أبيه إن كان على قيد الحياة، أو كان قد تُوفِّي، وترث الزوجة في زوجها المتوفى كما يرث الزوج زوجته المتوفاه.

فالميراث في الإسلام قائم على مبدأ العدالة وإعطاء كل ذي حق حقه، ويعتمد في توزيعه للإرث - حتى يحقق العدالة والمساواة - على جهة القرابة ودرجتها والعبء المالي، وليس على النوع، فلا تفاوت في الميراث حسب الذكورة والأنوثة، والمرأة في الإسلام لا ترث نصف الرجل إلا في أربع حالات، وترث في إحدى عشرة حالة مثل الرجل، وترث في أربع عشرة حالة أكثر من الرجل، وترث في خمس حالات ولا يرث نظيرها من الرجال، والحالات الأربع التي ترث فيها نصف الرجل ترجع إلى العبء المالي الذي يوجبه الإسلام على الرجل في مقابل معافاة المرأة من هذه الالتزامات.

ولكي نعرف دقة تشريع نظام الميراث في الإسلام نطالع الآيات التي وردت فيها أحكامه: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (النساء).

وقال الله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ (النساء).

هذه هي القواعد العامة في توزيع الميراث في الإسلام، ونجد أنها تختلف كُليَّة عن نظام الإرث في التشريعات اليهودية والتشريعات الأخرى، ومن ثَمَّ فلا مجال للمقارنة بينهما.

٤. النكاح وتعدد الزوجات:

السِّنُّ المفروضة لصحة التزوج في اليهودية هي الثالثة عشرة للرجل، والثانية عشرة للمرأة، ولكن يجوز نكاح من بدت عليه علامات بلوغ الحُلُم قبل هذه

السن، ومن بلغ العشرين ولم يتزوج فقد استحق اللعنة، وتعدد الزوجات جائز شرعًا بدون حدٍّ، ولم يرد بالتوراة ولا أحكام الأنبياء نَهْي عن تعدد الزوجات ولا عن تحديد عددهن، وعلى العكس من ذلك فقد ورد في التوراة ما يفيد تعدد الزوجات للأنبياء، ولغير الأنبياء. وحدد الربانيون الزوجات بأربع، وأطلقه القرَّاءون.

ويقول غوستاف لوبون: وكان مبدأ تعدد الزوجات شائعًا كثيرًا لدى بني إسرائيل على الدوام، وما كان القانون المدني أو الشرعي ليعارضه.

وغير اليهود يُعتبرون وثنيين في نظر اليهود، ومن أجل هذا لا يجيزون زواج اليهودي أو اليهودية من غير اليهود.

وعن المحرمات في الزواج تمنع الديانة اليهودية أن يتزوج الرجل مَن كانت زوجة لعمِّه، ومن كانت زوجة لأخيه إذا أنجبت منه، ولا تجعل اليهودية الرضاعة سببًا للتحريم. وفيما يتعلق بزوجة الأخ المتوفَّى فقد نصَّت التوراة على أنه إذا لم يكن للمتوفى ابن فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبي، بل يدخل عليها أخو زوجها ويتخذها لنفسه زوجة، والبكر الذي تلده يقوم باسم أخيه الميت، لئلَّا يُمحَى اسمه من إسرائيل، ولا يزال الربانيون يعملون بهذا التشريع. أما القرَّاءون فيرون أن هذا التشريع قد نُسِخ من زمن ولا يزال منسوخًا.

وبعض القرَّائين يحرِّمون امرأة زوج الأخت، فإذا تزوج زوج الأخت زوجة أخرى ثم طلقها، أو مات عنها فإنها تكون محرمة على إخوة ضَرَّتها، وبعضهم يجعل الزوج والزوجة كشخص واحد، ويُجْرُون التحريم على هذا الأساس، ومعنى هذا أنه يحرم على الزوجة ما يحرم على زوجها لو قدِّر زوجها امرأة، أي أنها يحرم عليها أخوه وعمه وخاله وابنه.

٥. المرأة:

وقد ورد بالعهد القديم عن المرأة ما يلي:

"دُرْتُ أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلًا، ولأعرف الشر أنه جهالة، والحماقة أنها جنون. فوجدت أمرَّ من الموت: المرأة التي هي شباك، وقلبها أشراك، ويداها قيود. الصالح قُدَّام الله ينجو منها. أما الخاطئ فيؤخذ بها". (الجامعة ٧: ٢٥، ٢٦).

والزواج في اليهودية صفقة شراء تُعَدُّ المرأة به مملوكة، وتُشترَى من أبيها فيكون زوجها سيدها المطلق، ويتم الزواج إذا باركه أحد الكهنة، وقدم الرجل للمرأة خاتمًا، أو هدية أخرى لها قيمة في حضور شاهدين على الأقل، ويعتبر ذلك عقدًا، وإذا حضر العقد عشرة رجال فأكثر أُتبع العقد بصلوات وأدعية يشترك فيها الجميع. ومن تقاليد الفكر اليهودي أن الرجل إذا تزوج لا يلتحق بالجيش، ولا يرتبط بأعمال تبعده عن زوجته مدة عام، فشهر العسل في الفكر اليهودي عام كامل.

والمرأة المتزوجة كالقاصر والصبي والمجنون، لا يجوز لها البيع أو الشراء، وينص الفكر اليهودي على أن جميع مال المرأة ملك زوجها، وليس لها سوى ما فُرِض لها من مؤخر الصداق في عقد الزواج، تُطالِب به بعد موته، أو عند الطلاق منه، وعلى هذا فكل ما دخلت به من مال، وكل ما تلقطه وتكسبه من سعي وعمل، وكل ما يُهدى في عرسها، ملك حلال لزوجها، يتصرف فيه

كيف شاء بدون معارض ولا منازع.

وبالنسبة لكثرة ما شوهد من وقوع الشِّقاق والفرقة بين الأزواج، فقد استقر رأي السادة على وجوب الأخذ بمشروع "وقف الزوجية" ومعنى وقف الزوجية أن توقف أموال الزوجة، ويصير الزوج قَيِّمًا عليها يستغلها، دون أن يبيعها أو يرهنها، فتصبح الزوجة بذلك مالكة لرقبة الأموال، والزوج مالكًا للمنفعة، فإذا حصلت الفُرقة عادت الثروة للزوجة "[1].

وإذا كانت المرأة في اليهودية تُباع وتُشترى، وهي المسئولة عن الخطيئة الأولى، وتُعامل معاملة الصبي القاصر أو المجنون، وتُمَلَّك هي ومالها لزوجها، فإن هذه النظرة الدونية للمرأة قد رفضها الإسلام، وأعطاها حقوقًا لم تكن المرأة نفسها تحلم بها، بل إن الإسلام سوَّى بين الرجل والمرأة في سائر الحقوق والواجبات إلا في بعض الأحكام القليلة، وأعطاها حرية اختيار زوجها ونهى عن إكراهها في النكاح، وأعطاها حق تملك المال والتصرف فيه بحريتها دون وصاية من أحد، وجعل لها حق المشاركة في الأمور العامة والسياسة كالبيعة والحسبة وغيرها، حتى في أمور العبادات والطاعات لم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة إلا في بعض الأحكام القليلة: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ (النساء).

وقد كرَّم الإسلام المرأة في جميع أحوالها: بنتًا وأمًّا وأختًا وزوجةً... كرَّمها أمًّا وجعل حقوقها أضعاف حقوق الأب: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الأحقاف).

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: "أمك"، قال: ثم من؟ قال: "ثم أمك"، قال: ثم من؟ قال: "ثم أمك"، قال: ثم من؟ قال: "ثم أبوك"[2].

وكرَّمها زوجة وجعل نفقتها وكسوتها وطعامها وشرابها على زوجها، وجعل أساس الزواج المودة والرحمة والسكن وليس مجرد التمتع والشهوة كما في غير الإسلام من أديان، وكرَّمها بنتًا وجعل الجنة جزاء تربيتها ورعايتها.

٦. الأخلاق اليهودية:

هذا عن جانب التشريع الذي لعله ظهر للقارئ من عرض بعض ملامحه، الفارق الواضح بين التشريع الإسلامي الرباني، وبين تشريع التوراة والتلمود، الذي طالته يد التحريف والتزييف؛ فحفل بالمتناقضات والغرائب. فماذا عن الجانب الأخلاقي، لا شك أن الملمّ ببعض المضامين في الجانبين والروح السائدة فيهما، سوف يتوقع أن الاختلاف بين القرآن وبين التوراة والتلمود سيكون أوضح والفارق أبين في الجانب

١. اليهودية، د. أحمد شلبي، النهضة المصرية، القاهرة، ط١٢، ١٩٩٧م، ص٢٩١ وما بعدها.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة (٥٦٢٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به (٦٦٦٤).

الأخلاقي والإنساني.

في هذا المجال، وتحت عنوان "نظرة اليهود إلى باقي الأمم على أنهم كلاب وحمير وخنازير" كتب د. محمد عبد الله الشرقاوي يقول: "جاء في التلمود، أن الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة، فإذا ضرب أُميٌّ إسرائيليًّا فكأنه ضرب العزة الإلهية، ويعتقد اليهود فيما سطره لهم حاخاماتهم ـ أن اليهودي جزء من الله، كما أن الابن جزء من أبيه، ولذلك ذكر في التلمود أنه إذا ضرب أميٌّ إسرائيليًّا فالأمي يستحق الموت، وأنه إذا لم يُخلَق اليهود، لانعدمت البركة من الأرض، ولما خُلِقت الأمطار والشمس، ولما أمكن باقي المخلوقات أن تعيش، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق الموجود بين اليهود وباقي الشعوب، وجاء في تلمود أورشليم أن النطفة المخلوق منها باقي الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هي نطفة حصان... ويعتبر التلمود أيضًا الأجانب كلابًا، وفي سفر الخروج (١٢، ١٦) أن الأعياد المقدسة لم تجعل للأجانب ولا للكلاب... وذكر في كتب أخرى: أن الكلب أفضل من الأجانب؛ لأنه مصرَّح لليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب، وليس له أن يطعم الأجانب، وغير مصرَّح له أن يعطيهم لحمًا، بل يعطيه للكلب؛ لأنه أفضل منهم.

والأمم الخارجة عن دين اليهود ليست فقط كلابًا بل حميرًا أيضًا. وقال الحاخام "أباربانيل": الشعب المختار فقط يستحق الحياة الأبدية، وأما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير.. فالخارج عن دين اليهود حيوان على العموم، فسَمِّه كلبًا، أو حمارًا، أو خنزيرًا. والنطفة التي هو منها هي نطفة حيوان.. فبناء على هذه القواعد لا يَعتبر اليهود باقي الأمم أقارب لهم؛ لأنه لا يمكن اعتبار الحيوان قريبًا للإنسان.

ويعتبر اليهودي الوثنيَّ الذي لا يتهود والمسيحي الذي على دين المسيح كلاهما عدو الله وعدوهم، كما يعتبر اليهود كل خارج عن مذهبهم غير إنسان، ولا يصح أن نستعمل معه الرأفة، ويعتقدون أن غضب الله موجه إليه، وأنه لا يلزم أن تأخذ اليهود شفقة به.

وجائز لبني إسرائيل على حسب تعاليم التلمود أن يغشُّوا الكفار؛ لأنه يقول: يلزم أن تكون طاهرًا مع الطاهرين، ودنسًا مع الدنسين، ومحظورٌ على اليهود ـ حسب التلمود ـ أن يحيُّوا الكفار بالسلام، ما لم يخشوا ضررهم أو عداوتهم، فاستنتج الحاخام بشاي من ذلك أن النفاق جائز، وأن الإنسان ـ أي اليهودي ـ يمكنه أن يكون مؤدَّبًا مع الكافر، ويدّعي محبته كذبًا إذا خاف أن يؤذيه. وذكر التلمود أنه جائز استعمال النفاق مع الكفار، والكفار هم كل الخارجين عن الدين اليهودي[1].

وفي مقابل هذه النظرة العنصرية في اليهودية نجد أن أعظم ما امتاز به الإسلام وشرائعه ـ هو تكريم الإنسان عمومًا دون النظر إلى جنسه أو لونه أو دينه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء)، وكذلك فإن الناس سواسية لا فرق بينهم لدين أو جنس أو عنصر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم

١. الكنز المرصود في فضائح اليهود، د. محمد عبد الله الشرقاوي، دار عمران، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م، ص٢٠٠ وما بعدها.

﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾ (الحجرات)، وفي الحديث: "أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى"(١).

ولقد كان العدل والسماحة هما معيار النظرة القرآنية وروح الحضارة الإسلامية في التعامل مع كل الأمم والشعوب على تنوع دياناتها ومللها وثقافاتها وحضاراتها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)﴾ (المائدة)، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)﴾ (البقرة)، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ (النحل).

والنصوص التي تبين سماحة الإسلام وعدالته وإنصافه لكل المخالفين أكثر من أن تُحصى ولا يسع المجال لسردها، وقد سبق تفصيلها في أماكن أخرى من هذه الموسوعة وفيها الكفاية.

وفي أحد أعياد اليهود - وهو عيد الفِصْح - يأمر التلمود بذبح الآدميين من غير بني إسرائيل وتقديمهم قربانًا لآلهتهم، ومزج دمائهم بعجين الفطائر المقدسة التي يتناولونها في أعيادهم وأفراحهم الدينية، ويستنزف اليهود دم ضحاياهم بطرق كثيرة منها ما يُسمَّى "البرميل الإِبْرى" وهو برميل يُثبِّتون على جانبه من الداخل إبرًا حادة توضع فيها الضحية حية، فتُغْرز هذه الإبر في جسمها حتى يسيل الدم ببطء من مختلف أعضائها، وتظل كذلك في عذاب أليم حتى تفارقها روحها، بينما يكون اليهود الملتفون حول هذا البرميل في نشوة تامة؛ لما يبعث هذا المنظر في نفوسهم من لذة وسرور، وينحدر الدم إلى قاع البرميل، ثم يصب في إناء مُعدّ لجمعه، وأحيانًا تقطع شرايين الضحية من عدة مواضع ليتدفق الدم من جروحها، وأحيانًا تذبح الضحية كما تذبح الشاة، ويؤخذ دمها وبعد أن يجتمع الدم يقدم للحاخام أو الكاهن، لإعداد الفطائر المقدسة.

واليهود لا يشمئزون من مزاولة هذه الجريمة البشعة حتى في العصر الحاضر، لو تمكنوا من ذلك، وخاصة بعد إقامة دولتهم غير الشرعية على أرض فلسطين الإسلامية.

بل أكثر من هذا لقد جاء في التلمود أنه: "محرَّمٌ على اليهودي أن يُنجي أحدًا من الأميين من هلاك أو يخرجه من حفرة يقع فيها، بل إذا رأى أحد الأُمِّيِّين يقع في حفرة لزمه أن يسدَّها بحجر"؛ لأن السكان الذين كانوا في أرض كنعان وقَضَت التوراة المزعومة بقتلهم جميعًا لم

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ (٢٣٥٣٦)، والطبراني في الأوسط، باب العين، باب من اسمه عبد الرحمن (٤٧٤٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

يُقتَلوا عن آخرهم، بل هرب بعضهم واختلط بباقي أمم الأرض، ولذلك يلزم قتل غير اليهودي لاحتمال أن يكون من هؤلاء الهاربين"[1] ®.

ثالثًا. بين أسلوب القرآن وأسلوب التوراة:

تتمة هذه المزاعم أن هناك تشابهًا بين أسلوبي القرآن والتوراة، مع أن المتصفح للكتابين - ولو متعجِّلًا - يدرك بيسر وبداهة الفرق بين الأسلوب القرآني البليغ البديع الفصيح، عالي المستوى قوة وجزالة، ووضوحًا ودقة، وبين أسلوب التوراة الركيك - في معظمه - الهزيل، مفكك البنية غامض المعنى في أحيان كثيرة، لا تستشعر فيه جلال الأسلوب القرآني وبلاغته المهيبة.

يقول د. الجُدَيْع: "يَعْسُر أن تَحُدَّ وجوه الإعجاز في القرآن العظيم، فكل شيء منه لا نظير له، فهو باهر في ألفاظه وأسلوبه، في تأليفه ونَظْمه، في بيانه وبلاغته، في تشريعه وحِكَمه التي حَيَّرَت الألباب، في أنبائه وأخباره، في تاريخه وحفظه في علومه التي لا تنقطع ولا تقف عند غاية.

ومن أنواع الإعجاز القرآني: الإعجاز اللغوي: هذا النوع هو أبرز ما تحدى به القرآن العرب في حياة النبي ﷺ وهو التحدي في أبرز خصائصهم، فمع أنه بلسانهم، وأتى بما لا يخرج عن وجوه فصاحتهم، وأساليب بيانهم، وهم يومئذ في الذروة في ذلك نثرًا ونظمًا. لكنهم عجزوا عن معارضته ولو بسورة من مثله، فصاروا يتخبطون، فتارة يقولون "هو شعر" وتارة "قول كاهن" وتارة "أساطير الأولين" لا يثبتون على شيء؛ لأنهم يعلمون أنه ليس كما يقولون، وما كانوا ليغفلوا عن صفة الشعر ولا صيغة النثر، وهم أهل ذلك وعباقرته، وإنما شأنهم شأن من قال الله فيهم: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (النمل).

ثم إن هذا القرآن قد اشتمل من القاموس العربي على أحسن الكلمات وأفصحها، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ (الزمر: ٢٣)، أما في تركيب جمله وتناسق عباراته، ومقاطع آياته، فهو الفرد الذي لا نظير له، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (فصلت)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الزمر).

فكم تُرى يكون في الكلام من المعاني، أو البيان، أو البديع، فإن القرآن في ذروة ذلك، بل به عُرف كل ذلك، فما وضعت علوم البلاغة إلا بسببه طريقًا إلى فهمه، وإبرازًا لعظيم قدره، وتأصيلًا ليُبنَى سائر الكلام على قاعدته ونهجه.

وأهل التفسير في القديم والحديث، يراعُون هذه الخصوصية للقرآن، فلم يتكلم أحد في تفسير هذا الكتاب، وبيان دلائله ومعانيه من لدن أصحاب النبي ﷺ وإلى اليوم، إلا وهو يراعي الجوانب البلاغية

---

١. دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، د. محمد الأعظمي، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٢٤٢: ٢٤٤.

® في **"عنصرية اليهود والتوراة"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء. والوجه الرابع، من الشبهة العشرين، من الجزء الخامس (النظم الحضارية).

فيه، وأسرار ذلك لا تنتهي، ولن تنتهي: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء)[1].

فأين هذه البلاغة وتلك الفصاحة في أسلوب التوارة، ولغتها أشبه ما يكون بلغة الأطفال، حيث الجمل التي لا رابط بينها، والتكرار المعيب، والحشر والإقحام®؟!

إن التوارة ـ بوضعها الحالي ـ يعود تاريخها إلى سنة ٩٠ قبل الميلاد بعد وفاة موسى عليه السلام بمئات السنين فكيف يمكن الوثوق بها؟!

هذا بالإضافة إلى السطحية والخرافات والأباطيل التي تطفح بها هذه الأسفار، وكل ذلك يؤكد عدم ارتباطها بالوحي الإلهي.

وقد اعترف كثير من الدارسين والباحثين بهذه الحقيقة؛ لأن التناقضات وعدم التجانس المعهود في نصوص التوراة تؤكد حقيقة أن الأناجيل تحتوي على فصول ومقاطع ما هي إلا النِّتاج الوحيد للخيال البشري، فقد جاءت من خلال فكر الكنيسة وآراء المؤلفين، يقول جراهام سكروجي: نعم إن الكتاب المقدس بشري، هذه الكتب المقدسة قد مَرَّت عبر عقول الناس، وهي مكتوبة بلغة الناس، وخطت بأقلام الناس وأيديهم تحمل في أساليبها خصائص البشر".

بعد هذا العرض المسهب، لا شك أنه قد اتضح للعيان الفارق الظاهر بين القرآن من ناحية، وبين التوراة والتلمود من ناحية، مضمونًا ـ عقيدة وتقنينًا وأخلاقًا ـ وأسلوبًا، فارق ما بين الإلهي الرباني وبين البشري الإنساني.

الخلاصة:

- بما أن اليهودية والإسلام ديانتان سماويتان؛ فمن الطبيعي أن تكونا ديانتين توحيديتين، إلا أن القرآن ـ المحفوظ بأمر الله ـ قد ظل كتابًا توحيديًّا خالصًا، بينما شَوَّهت يد التحريف هذه العقيدة في التوراة فجعلتها أقرب إلى التجسيدية الوثنية.
- التوحيد في الإسلام ينزه الله تعالى عن الشِّرك وعمّا لا يليق به جل جلاله من صفات وينعته بنعوت الكمال وصفات الجلال، فهو الذي لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وهو المعبود بحق ولا معبود سواه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، أما في اليهودية فقد تأثر اليهود بالمجتمعات الوثنية كالمجتمع البابلي أثناء الأسر البابلي، وتأثروا بالديانة الزرادشتية وما بها من عقائد وأفكار، بل أخذوا معظم عقائدهم في الإلهيات وغيرها من هذه المجتمعات الوثنية، فهم يصفون الله بصفات النقص والعجز مثله مثل البشر يعتريه التعب والإرهاق والخوف والجهل وغيرها مما لا يليق بالذات العلية؛ فأدى ذلك إلى تشويه صورة الله عند اليهوديين وقضى على مكانة الألوهية والشعور بعظمة الله وقدرته وتعاليه واستحقاقه للعبادة.
- الجانب التشريعي في الإسلام متعاظم دقيق

---

١. المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف الجديع، مؤسسة الريان، بيروت، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٧: ٢١ بتصرف.

® في **"وجوه الإعجاز في القرآن الكريم"** طالع: الوجه التاسع، من الشبهة الأولى، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم). والوجه الثالث، من الشبهة التاسعة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

منطقي متلائم مع الطبيعة البشرية، بينما هو في اليهودية، في كثير من الأحيان، غريب الأحكام متناقض قاسٍ غير واقعي، غير ملائم للطبيعة الإنسانية؛ إذ إنها من صنع الكهنة والرهبان من اللاويين أبناء ليفي الذين كان لهم الحق في وضع الأحكام للأمة العبرية، وذلك بشهادة المنصفين من الدارسين الذين شهدوا بأن هذه التشريعات جاءت من وضع الكهنة والرهبان يقررون بها حقًّا لأنفسهم وتقاليد لقومهم حسب أهوائهم وأغراضهم الشخصية.

- الجانب الأخلاقي في القرآن إنساني خالد راق، بينما هو في الناحية الأخرى عنصري حاقد، وحشي فاسد.

- كذا الأسلوب القرآني في فصاحته وبلاغته، يشعرك بجلال الألوهية، وتسري فيه الهيبة الربانية، بينما الأسلوب في التوراة والتلمود بشري متهافت مفكك لا يرقى إلى حد البلاغة والفصاحة البشرية، فضلًا عن أن يكون مُنَزَّلًا من عند الله تعالى.

- لقد شهد العلماء الدارسون للأديان والعاملون في مقارنتها بأن القرآن الكريم ـ وهو مصدر التشريع الأول في الإسلام ـ محفوظ ومصون كما أنزل من عند الله تعالى، بينما اعترف جميع الدارسين ومعظمهم من غير المسلمين بأن الأسفار الخمسة المسماة بالتوراة الموجودة الآن ليست مما أُوحي إلى موسى عليه السلام وليست من كتابته أو إملائه؛ بل هي من تأليف كُتَّاب متأخرين، وهم بالطبع غير معصومين فزادوا فيها وانتقصوا منها وحرّفوا وغيّروا وبدّلوا.

الشبهة الثانية

الزعم أن الهُدى في اتباع اليهودية دون سواها (*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم اليهود أن الهُدى والرشاد محصورٌ فقط في اتِّباع ديانتهم دون سواها، وأنهم ليسوا في حاجة إلى غيرها من الأديان، وهم بهذا ينكرون أن شريعة محمد ﷺ قد نسخت شريعة موسى عليه السلام؛ ويدَّعون أن شريعة محمد ﷺ خاصةٌ بالعرب لا عامةٌ للأمم كافة، وأن اليهودية فيها من العلم والشرع ما يكفي اليهود، ويغنيهم عن أي دين أو علم أو تشريع جديد.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إلى أي هدى يدعون ؟! أهدى التوراة المحرفة، أم التلمود المؤلَّف؟ هل الهدى في عبادة إله عاجز جاهل يصرعه الإنسان أم الإيمان بأنبياء قتلة ولصوص وزناة وخونة.. أهذا هو الهدى الذي ينبغي ألَّا يُتَّبع سواه؟!

٢) الإسلام هو الرسالة العامة الخاتمة الناسخة لما سبقها من رسالات، ومحمد ﷺ خاتم الرسل، وعندهم

(*) العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي، د. أحمد بن عبد الله إبراهيم الزغبي، مكتبة العبيكان، السعودية، ط١، ١٩٩٨م. الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق: د. بكر زكي عوض، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤م. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠١م.

® في **"إبطال القرآن دعوى أهل الكتاب أنهم خيرٌ دينًا وكتابًا ونبيًّا"** طالع: الشبهة السادسة والعشرين. وفي **"إبطال القرآن دعوى أهل الكتاب أن الهدى في اتباع ما هم عليه"** طالع: الشبهة الأربعين؛ من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

البشارة بذلك.

٣) ما حال بضاعتهم المغشوشة وعلمهم المزعوم؟ وإلامَ يوجهان ويرشدان؟ وما حال النفوس الإنسانية المعاصرة، والتدني الأخلاقي، وصور الظلم والعنف، وصور القرن العشرين الدموية، إلا انعكاس لأسفار التوراة!!

التفصيل:

هذا من أبرز ما زعمت اليهود، وعليه أصرت، واستنادًا إليه تأسس تاريخها في كل مراحله، حتى قيام كيانهم الصهيوني بفلسطين المحتلة الموصوف بأنه دولة دينية توراتية، فما حقيقة هذه المزاعم؟

أولا. إلى أي هدى يدعون وبه يتمسكون؟

هل هو هدى التوراة الحالية المحرَّفة مُنْبَتَّة الصلة - إلا قليلًا منها مختلطًا بتزييف طاغ - بما نزل على موسى عليه السلام ؟! هل تريد دليلًا آخر على مثل هذا الأمر الثابت المشتهر - نقصد تحريفهم للتوراة؟ تأمل إذن ما تختلقه هذه التوراة - هدى اليهود المزعوم - في حق الذات الإلهية - تعالى الله عما يقولون -: "لله أشكال متعددة في العهد القديم - التوراة - فهو في شكل سحاب ودخان، ونار، ورعد وإنسان، وكذلك قدراته محدودة وقريبة من قدرة الإنسان في بعض الأحيان، فعلى سبيل المثال وليس الحصر:

١. **الله سحاب ودخان ونار ورعد:**

ففي سفر الخروج: "وكان الرب يسير أمامهم نهارًا في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلًا في عمود نار ليضيء لهم. لكي يمشوا نهارًا وليلًا. لم يبرح عمود السحاب نهارًا وعمود النار ليلًا من أمام الشعب". (الخروج ١٣: ٢١، ٢٢). وفيه أيضًا: "وكان في هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب، وأزعج عسكر المصريين، وخلع بكر مركباتهم حتى ساقوها بثقلة. فقال المصريون: «نهرب من إسرائيل، لأن الرب يقاتل المصريين عنهم»". (الخروج ١٤: ٢٤، ٢٥). وفيه أيضًا: "فقال الرب لموسى: ها أنا آتٍ إليك في ظلام السحاب؛ لكي يسمع الشعب حينما أتكلم معك، فيؤمنوا بك أيضًا إلى الأبد... وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الأتون[1]، وارتجف كل الجبل جدًّا. فكان صوت البُوق يزداد اشتدادًا جدًّا، وموسى يتكلَّم والله يجيبه بصوت". (الخروج ١٩: ٩ - ١٩).

٢. **الله في صورة إنسان وبقدراته:**

وقد ظهر الرب بصورة إنسان وبقدراته المحدودة في النصوص التالية:

ففي سفر التكوين: "سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه. لأن الله على صورته عمل الإنسان. فأثمروا أنتم واكثروا وتوالدوا في الأرض وتكاثروا فيها". (التكوين ٩: ٦، ٧).

وفيه أيضًا: "ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسَّف في قلبه". (التكوين ٦: ٥ - ٧).

وفيه أيضًا: "وقال الرب في قلبه: "لا أعود ألعن

١. الأَتُون: المَوْقِد الكبير.

الأرض أيضًا من أجل الإنسان، لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضًا أميت كل حي كما فعلت. مدة كل أيام الأرض: زَرْع وحصاد، وبَرْد وحر، وصيف وشتاء، ونهار وليل، لا تزال". (التكوين ٨: ٢١، ٢٢).

٣. الله يظهر لإبراهيم كرجل يمشي ويستريح ويأكل الطعام:

فجاء في سفر التكوين: "وظهر له الرب عند بَلُّوطات مَمْرَا وهو جالس في باب الخيمة وقت حرِّ النهار، فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض، وقال: «يا سيد، إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك. ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة، فآخذ كِسْرة خُبْز، فتسندون قلوبكم ثم تجتازون، لأنكم قد مررتم على عبدكم». فقالوا: «هكذا تفعل كما تكلَّمت». فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة، وقال: «أسرعي بثلاث كَيْلات دقيقًا سميذًا. اعجني واصنعي خبز مَلَّة». ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلًا رخصًا وجيدًا وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله. ثم أخذ زُبْدًا ولبنًا، والعجل الذي عمله، ووضعها قُدَّامهم. وإذ كان هو واقفًا لديهم تحت الشجرة أكلوا وقالوا له: «أين سارة امرأتك؟» فقال: «ها هي في الخيمة». فقال: «إني أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن». وكانت سارة سامعة في باب الخيمة وهو وراءه. وكان إبراهيم وسارة شيخين مُتقدِّمين في الأيام، وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء. فضحكت سارة في باطنها قائلة: «أبعد فنائي يكون لي تَنَعُّم، وسيدي قد شاخ؟» فقال الرب لإبراهيم: «لماذا ضحكت سارة قائلة: أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت؟ هل يستحيل على الرب شيء؟ في الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن». فأنكرت سارة قائلة: «لم أضحك». لأنها خافت. فقال: «لا! بل ضحكت» ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سَدُوم. وكان إبراهيم ماشيًا معهم ليُشَيِّعهم. فقال الرب: «هل أُخْفِي عن إبراهيم ما أنا فاعله، وإبراهيم يكون أُمَّة كبيرة وقوية، ويتبارك به جميع أمم الأرض؟ لأني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب، ليعملوا برًّا وعدلًا، لكي يأتي الرب لإبراهيم بما تكلَّم به». وقال الرب: «إن صُراخ سَدُوم وعَمُورَة قد كَثُر، وخَطِيَّتهم قد عَظُمت جدًّا. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إليَّ، وإلا فأعلم». وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم، وأما إبراهيم فكان لم يزل قائمًا أمام الرب". (التكوين ١٨: ١ـ ٢٢).

وجاء في سفر الخروج: "هو بيني وبين بني إسرائيل علامة إلى الأبد. لأنه في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض، وفي اليوم السابع استراح وتنفس". (الخروج ٣١: ١٧)، وجاء فيه أيضًا: "كلِّم بني إسرائيل أن يأخذوا لي تَقْدِمة. من كل من يَحُثُّه قلبه تأخذون تَقْدِمتي. وهذه هي التقدمة التي تأخذونها منهم: ذهب وفضة ونحاس، وأَسْمانْجُوني وأُرْجُوان وقِرْمِز وبُوص وشَعْر مِعْزَى، وجلود كِباش مُحَمَّرة وجلود تُخَسٍ وخشب سَنْط، وزيت للمنارة وأطياب لدُهْن المَسْحَة وللبَخُور العَطِر، وحجارة جَزْعٍ وحجارة

ترصيع للرِّداء والصُّدْرة. فيصنعون لي مَقْدِسًا لأسكن في وسطهم. بحسب جميع ما أنا أريك من مثال المسكن، ومثال جميع آنيته هكذا تصنعون. فيصنعون تابوتًا من خشب السنط، طوله ذراعان ونصف، وعرضه ذراع ونصف، وارتفاعه ذراع ونصف. وتغشيه بذهب نقي. من داخل ومن خارج تغشيه، وتصنع عليه إكليلًا من ذهب حواليه. وتسبك له أربع حلقات من ذَهَب، وتجعلها على قوائمه الأربع. على جانبه الواحد حلقتان، وعلى جانبه الثاني حلقتان. وتصنع عَصَوَيْنِ من خشب السنط وتُغَشِّيهما بذهب. وتُدْخِل العصوين في الحلقات على جانبي التابوت ليحمل التابوت بهما. تبقى العصوان في حلقات التابوت. لا تنزعان منها. وتضع في التابوت الشهادة التي أعطيك... وأنا أجتمع بك هناك وأتكلم معك، من على الغطاء من بين الكَرُوبين اللذين على تابوت الشهادة، بكل ما أوصيك به إلى بني إسرائيل". (الخروج ٢٥: ٢ ـ ٢٢).

وفي سفر الخروج أيضًا: "ثم صعد موسى وهارون وناداب وأَبِيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة. ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل. فرأوا الله وأكلوا وشربوا". (خروج ٢٤: ٩ ـ ١١).

٤. يعقوب يصارع الله، وهو في هيئة إنسان:

في سفر التكوين: "فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه، ضرب حُقَّ فَخْذِه، فانخلع حُق فَخْذ يعقوب في مصارعته معه. وقال: أطلقني، لأنه قد طلع الفجر. فقال: لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فقال: لا يُدْعَى اسمك في ما بعد يعقوب، بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقَدَرْتَ. وسأل يعقوب وقال: أخبرني باسمك. فقال: لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك". (التكوين ٣٢: ٢٤ ـ ٢٩).

هل يُعقل أن يعرف يعقوبُ اللهَ، والله بنفسه لا يعرف اسم يعقوب، ولذلك سأله: ما اسمك؟!

٥. الله تعالى ينزل إلى الأرض بنفسه ليتحقق من المظالم:

ففي سفر التكوين: "وقال الرب: إن صُراخ سَدُوم وعَمُورَة قد كَثُر، وخطيَّتهم قد عَظُمَت جدًّا. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إليَّ، وإلا فأعلم". (التكوين ١٨: ٢٠، ٢١).

٦. الله يحتاج إلى علامات توضع على منازل بني إسرائيل؛ ليميزها عن منازل المصريين فلا يضرهم:

وفي سفر الخروج: "ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل في العَشِيَّة. ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العُليا في البيوت التي يأكلونه فيها. ويأكلون اللحم تلك الليلة مشويًّا بالنار مع فَطِير. على أعشابٍ مُرَّة يأكلونه. لا تأكلوا منه نيئًا أو طبيخًا مطبوخًا بالماء، بل مشويًّا بالنار. رأسه مع أكارعه وجوفه. ولا تبقوا منه إلى الصباح. والباقي منه إلى الصباح، تحرقونه بالنار. وهكذا تأكلونه: أحقاؤكم مشدودة، وأحذيتكم في أرجلكم، وعِصِيُّكم في أيديكم. وتأكلونه بعَجَلَة. هو فِصْحٌ للرب. فإني أجتاز

في أرض مصر هذه الليلة، وأضرب كل بِكْر في أرض مصر من الناس والبهائم. وأصنع أحكامًا بكل آلهة المصريين. أنا الرب. ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها، فأرى الدم وأعبر عنكم، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر". (الخروج ١٢: ٦ ـ ١٣).

٧. **تكاليف الرب لأنبيائه:**

في سفر الخروج: "فحمي غضب الرب على موسى وقال: أليس هارون اللاويُّ أخاك؟ أنا أعلم أنه هو يتكلم، وأيضًا ها هو خارج لاستقبالك. فحينما يراك يفرح بقلبه، فتكلمه وتضع الكلمات في فمه، وأنا أكون مع فمك ومع فمه، وأعلمكما ماذا تصنعان. وهو يكلم الشعب عنك. وهو يكون لك فمًا، وأنت تكون له إلهًا". (الخروج ٤: ١٤ـ ١٦). وفيه أيضًا: "انظر! أنا جعلتك إلهًا لفرعون. وهارون أخوك يكون نبيك". (الخروج ٧: ١).

وفي سفر إرميا: "فقلت: «آه، يا سيد الرب، إني لا أعرف أن أتكلم لأني ولد». فقال الرب لي: «لا تقل إني ولد، لأنك إلى كل من أرسلك إليه تذهب وتتكلم بكل ما آمرك به. لا تخف من وجوههم، لأني أنا معك لأنقذك، يقول الرب». ومد الرب يده ولمس فمي، وقال الرب لي: «ها قد جعلت كلامي في فمك. انظر! قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك، لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبني". (إرميا ١: ٦ـ ١٠).

وفي سفر يشوع: "وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلًا: «موسى عبدي قد مات. فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل...". (يشوع ١: ١ـ ٦).

٨. **عندما يغضب الرب في العهد القديم:**

في سفر صموئيل الثاني: "وكلَّم داود الرب بكلام هذا النشيد في اليوم الذي أنقذه فيه الرب من أيدي كل أعدائه ومن يد شاول، فقال: "الرب صخرتي وحصني ومنقذي... أدعو الرب الحميد فأتخلص من أعدائي... في ضيقي دعوت الرب، وإلى إلهي صرخت، فسمع من هيكله صوتي، وصراخي دخل أذنيه. فارتجت الأرض وارتعشت. أسس السماوات ارتعدت وارتجت، لأنه غضب. صعد دخان من أنفه، ونار من فمه أكلت. جمر اشتعلت منه. طأطأ السماوات ونزل، وضباب تحت رجليه... أرعد الرب من السماوات، والعلي أعطى صوته. أرسل سهامًا فشتَّتهم، برقًا فأزعجهم. فظهرت أعماق البحر، وانكشفت أسس المسكونة من زجر الرب، من نسمة ريح أنفه. أرسل من العُلَى فأخذني، نشلني من مياه كثيرة. أنقذني من عدوي القوي، من مبغضي لأنهم أقوى مني". (صموئيل الثاني ٢٢: ١ ـ ١٨).

وفي سفر الخروج: "وأنا أرسل أمامك ملاكًا، وأطرد الكَنْعانيين والأَمُورِيِّين والحِثِّيين والفِرِزِّيين والحِوِّيِّين واليَبُوسِيِّين. إلى أرض تفيض لبنًا وعسلًا. فإني لا أصعد في وسطك لأنك شعب صلب الرقبة، لئلا أفنيك في الطريق. فلما سمع الشعب هذا الكلام السوء ناحوا ولم يضع أحد زينته عليه. وكان الرب قد قال لموسى: قل لبني إسرائيل: أنتم شعب صلب الرقبة. إن صعدت لحظة واحدة في وسطكم أفنيتكم.

ولكن الآن اخلع زينتك عنك فأعلم ماذا أصنع بك". (الخروج ٣٣: ٢ ـ ٥).

مما سبق، وعلى الرغم من هذه الصفات غير اللائقة لإله بني إسرائيل ـ كما هو مذكور في العهد القديم ـ مما لا يتوافق بالمرة مع أوصاف الله في القرآن الكريم، إلا أن الحق قد ظهر بين سطور هذا العهد، في سفر الخروج: "فقال: «أرني مجدك». فقال: «أجيز كل جودتي قُدَّامك. وأنادي باسم الرب قدامك. وأتراءف على من أتراءف، وأرحم من أرحم». وقال: «لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني ويعيش». وقال الرب: «هوذا عندي مكان، فتقف على الصخرة»". (الخروج ٣٣: ١٨ـ ٢١).

وفي هذا الإصحاح السابق يُنسَى كل ما جاء في وصف الله ﷻ في صورة الإنسان، حيث إنه قابل إبراهيم، وصارع يعقوب، وتكلم مع يوشع وأرميا، كما أن شعب بني إسرائيل رأوه جهرة، وأكلوا وشربوا أمامه، وهو يتعارض كلية مع ما ورد من أن الذي يرى وجه الرب لا يعيش، وقد صحَّح القرآن الكريم هذه القصص جميعها في الآيات الآتية: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف: ١٤٣)، ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ (النساء: ١٥٣)، ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ (الأعراف: ١٥٥).

ولما عبد الإسرائيليون العجل أخذ سيدنا موسى سبعين رجلًا من بني إسرائيل لم يعبدوا العجل لميقات ربه، ليعتذروا عن قومهم، وعن سفاهاتهم من مثل طلبهم من سيدنا موسى أن يروا الله جهرة، وهذا يدل على أن السبعين رجلًا من بني إسرائيل قد صُعِقُوا، ولم يروا الله كما ادَّعوا، ولم يأكلوا أمامه كما هو مذكور في سفر التكوين.

وعلى سبيل المثال، نجد في القرآن أيضًا تحقيق قصة إبراهيم مع ضيوفه الملائكة، نجد في العهد القديم أن أحد الضيوف الثلاثة هو الله نفسه، غسل قدمه واستراح تحت الشجرة، وأكل وشرب، بينما في القرآن القصة مذكورة في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ (هود).

وهذا مخالف لما جاء في العهد القديم، فالملائكة لم يأكلوا ولم يشربوا، وهم الذين بشَّروا سيدنا إبراهيم ليس بإسحاق فقط، ولكن بُشِّر أنَّ بعد إسحاق يعقوب، وهذا تحقيق لا يمكن لبشر أن يدعيه[1].

أإله بهذه الأوصاف يستحق أن يُعبد وأن تُلتَزَم شريعتُه، ولا يَحِيد[2] عنها بشر إلى شريعة تُنزِّه الله بما يليق به من الكمالات التي أوجزها القرآن في بلاغته الرائعة، بقوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١) ؟!

١. يقولون عن الإسلام، د. عبد الحافظ سلامة حامد، دار الكتاب للنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م، ص٧٩: ٨١.

٢. يَحِيد: يميل.

هذه طبيعة نظرتهم في شريعتهم لمقام الألوهية، فكيف يا تُرى تكون هذه النظرة لمقام النبوة؟ يتبادر إلى الذهن، بل يقفز مباشرة عند سماع هذا السؤال القول الشائع عن اليهود وبني إسرائيل أنهم "قتلة الأنبياء".

عن الصورة العامة لأنبياء العهد القديم يحدثنا الأستاذ أحمد عبد الوهاب قائلًا: "لقد أولى الكثير من العلماء موضوع الأنبياء في العهد القديم ـ ما يستحقه من دراسة وتمحيص، ومن أمثلة لبعض الدراسات الجادة في هذا الموضوع ما قام به إريك ويليام هيتون في كتابه "أنبياء العهد القديم"، ولقد عالج هيتون في دراسته عدة نقاط منها: لفظ النبي، الذي استخدم بكثرة في أسفار العهد القديم، ومدلول هذا اللفظ والأنبياء الحقيقيين والأنبياء المحترفين الكذابين الذين ازدحمت بهم إسرائيل، وخاصة في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ـ ومظاهر النبوة ووسائل التنبؤ، وغير ذلك مما يتعلق بهذا الموضوع.

ورغم أن هيتون ركز في دراسته على أنبياء العهد القديم ابتداء من موسى، ومن جاء بعده.. فسوف نعرض لشيء من دراسة هيتون باعتبارها مدخلًا مناسبًا لدراسة الأنبياء في العهد القديم، وذلك مع التعليق عليها وتطويرها، بما يجعل حقيقة النبوة والنبيين في صورتها العامة أكثر وضوحًا.

يقول هيتون: لا يمضي الإنسان بعيدًا في قراءة أسفار الأنبياء دون أن تقابله فقرة كهذه: "هكذا قال رب الجنود: لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم، فإنهم يجعلونكم باطلًا. يتكلمون برؤيا قلبهم لا عن فم الرب". (إرميا ١٦: ٢٣).

إن مثل هذ التشهير بالأنبياء على لسان أحدهم، ليوقعنا في أشد الحيرة، ما لم نعلم أن ألفاظًا مثل: نبي، ويتنبأ، لها معان واسعة جدًّا في أسفار العهد القديم، إن الظاهرة المشتركة لكل الأنبياء في العالم القديم هي دعواهم أنهم كانوا يتكلمون بسلطان من إلههم، وكان النبي هو الشخص الذي تكلم بالنيابة عن إلهه. ولقد استُخدم لفظ "النبي" دون تحفظ حتى إنه أُطلِق على أولئك الذين تكلموا باسم آلهة الوثنيين. ولهذا فإن دارس أسفار العهدء القديم يواجه ضرورة التمييز بين الأنواع المختلفة من الأنبياء، وأن يعرف الصفات التي تجمعهم غير لفظ النبي الذي وصفوا به، وادعاء كل منهم أنه يتكلم بسلطان إلهي.

ومن الواضح أنه لا يوجد معيار حقيقي لتمييز حقيقة الظواهر التي اقترنت بكل من الأنبياء الحقيقيين والأنبياء الكذابين، ويتبين ذلك مما نقرؤه في سفر التثنية: "إذا قام في وسطك نبي أو حالم حلمًا، وأعطاك آية أو أعجوبة، ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قائلًا: لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها ونعبدها، فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم، لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم". (التثنية ١٣: ١ ـ ٣).

لقد لمس هيتون كبد الحقيقة حين بين هنا ـ بناء على دراسته وفهمه لأسفار العهد القديم ـ أن أي محاولة لربط النبوة الحقيقية بحدوث خوارق وظواهر غير عادية، أو بصيغة أخرى بمعجزات مادية، هي في الواقع

وَهْم وظُنُون لا تغني عن الحق شيئًا في هذا المقام، وأن النبوة الحقة لا يمكن الحكم عليها إلا بصدق العقيدة التي تقوم على التوحيد الخالص وطُهر السلوك والبذل وغير ذلك من جميع الصفات الكريمة"[1] ®.

هذه هي عقيدة اليهود في الله وفي الأنبياء، كلها كما هو واضح تناقضات وافتراءات وتخاريف عقول فاسدة غير منضبطة.

أما عن التشريعات اليهودية فحدِّث ولا حرج عن سخافاتهم وضلالاتهم التي لا يقبلها عقل سليم، فعلى سبيل المثال لا الحصر: إذا أردنا أن نعرف طبيعة نظرة توراتهم ـ التي يزعمون أن الهدى في اتباعها دون غيرها ـ لمسألة المرأة فإننا نجد ما لا يتفق مع المنطق، ولكننا نجد كل ما يخالف الفطرة السوية والعقول السليمة، كما نلاحظ الفرق الشاسع بين مكانة المرأة في الإسلام وتكريمه لها وإعلائه لمنزلتها أمًّا وزوجة وابنة... إلخ، بصورة غايرت ما قبله وسَمَتْ على ما بعده®، وبين منزلتها في العهد القديم وطبيعة النظرة العنصرية إليها:

"ومن ذلك لا يخطئ اليهودي إذا اغتصب امرأة مسيحية، فزواج المسيحيين هو من قبيل وَطْء الحيوانات لبعضها.. قال موسى: لا تَشْتَهِ امرأة قريبك، فمن يزنِ بامرأة قريبه يستحق الموت.. ولكن التلمود لا يعتبر القريب إلا اليهودي فقط، فإتيان زوجات الأجانب جائز، واستنتج من ذلك الحاخام رشي أن اليهودي لا يخطئ إذا تعدى على عِرْض الأجنبي؛ لأن كل عقد نكاح عند الأجانب فاسد؛ لأن المرأة التي لم تكن من بني إسرائيل كبهيمة، والعقد لا يوجد في البهائم وما شاكلها. وقد أجمع على هذا الرأي الحاخامات بشاي وليفي وجرسون، فلا يرتكب اليهودي محرمًا إذا أتى امرأة مسيحية. وقال ميمانود: إن لليهود الحق في اغتصاب النساء غير المؤمنات، أي غير اليهوديات!!

وقال الحاخام تام الذي كان في الجيل الثالث عشر بفرنسا: إن الزنا بغير اليهود ذكورًا كانوا أو إناثًا لا عقاب عليه؛ لأن الأجانب من نسل الحيوانات.

ولذلك صرَّح الحاخام المذكور ليهودية أن تتزوج بمسيحي تهود مع أنها كانت رفيقة له غير شرعية قبل الزواج، فاعتبر العلاقات الأصلية كأنها لم تكن؛ لأنها أشبه شيء بنكاح الحيوانات!!

وجاء في التلمود: إن من رأى أنه يجامع والدته فسيُؤتَى الحكمة، بدليل ما جاء في كتاب الأمثال: إن الحكمة تُدعَى والدة، ومن يرى أنه جامع خطيبته فهو محافظ على الشريعة، ومن يرى أنه جامع أخته فمن نصيبه نور العقل، ومن يرى أنه جامع امرأة قريبة فله الحياة الأبدية.

نناشدك الله أيها القارئ، إذا كانت تلك هي القواعد

---

١. النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص١٣ وما بعدها.

® في **"مقام الأنبياء في الكتاب المقدس"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة عشرة، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل١). والوجه الثالث، من الشبهة الرابعة والستين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢). وفي **"مقام الأنبياء بين القرآن والتوراة"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة، من هذا الجزء.

® في **"منزلة المرأة في الإسلام"** طالع: الشبهة الأولى، من الجزء الثامن عشر (قضايا المرأة).

الأدبية، أفلا يتمنى الإنسان بعد ذلك أن يرى تلك الأحلام حقيقة، ويترقى من هذه إلى تلك؛ لأنه إن كانت نتيجة الأحلام بالكيفية المشروحة، فما بالك بالحقيقية؟ وقال الرابي كرونر: إن التلمود يصرح للإنسان ـ يعني اليهودي ـ أن يسلِّم نفسه للشهوات إذا لم يمكنه أن يقاومها، ولكنه يلزم أن يفعل ذلك سرًّا لعدم الغدر بالديانة!! وذكر في التلمود عن كثير من الحاخامات كالرابي راب، ونحمان: أنهم كانوا ينادون في المدن التي يدخلونها عما إذا كان يوجد فيها امرأة تريد أن تسلم نفسها لهم مدة أيام. وجاء في التلمود أيضًا عن الرابي اليعازر أنه فتك بكل نساء الدنيا، وأنه سمع مرة أن واحدة تطلب صندوقًا ملآنَ من الذهب حتى تسلم نفسها لمن يعطيها إياه، فحمل الصندوق وعدَّى سبعة شلالات حتى وصل لها.. ولنضرب صفحًا عن باقي القصة؛ لأنها مخلة بالآداب.

ومن الأمور المذمومة أنه جاء في آخر القصة أنه: لما تُوفِّي هذا الحاخام صرخ الله من السماء قائلًا: تحصل الرابي اليعازر على الحياة الأبدية!!

وليس للمرأة اليهودية أن تبدي أدنى شكوى ـ على زعم التلمود ـ إذا زنى زوجها في المسكن المقيم معها، ولما قال الحاخام يوحنا: إن اللواط بالزوجة غير جائز عارضوه في ذلك قائلين: إن الشرع لم يحرم هذا الأمر، بل قال إنه لا يخطئ اليهودي مهما فعل مع زوجته، وأية طريقة اتبعها نحوها بأمر الزواج، فهي له بالنسبة للاستمتاع بها كقطعة لحمة اشتراها من الجزار، يمكنه أكلها مسلوقة أو مشوية على حسب رغبته، ويضربون لذلك مثلًا: أن امرأة حضرت إلى الحاخام وشكت له أن زوجها يأتيها على خلاف العادة، فأجابها: لا يمكنني أن أمنعه عن هذه المسألة يا ابنتي؛ لأن الشرع قدمك قودًا لزوجك"[1].

ومن تشريعاتهم الشاذة في شأن المرأة أيضًا ما يرويه الإمام ابن القيم تحت عنوان "من شريعتهم نكاح امرأة الأخ أو العار.. " قائلًا: وأذكر لك مسألة من مسائل شرعهم المبدَّل، أو المنسوخ، تعرف بمسألة "البياما والجالوس" وهي أن عندهم في التوراة: "إذا سكن إخوة معا ومات واحد منهم وليس له ابن، فلا تَصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبي. أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة، ويقوم لها بواجب أخي الزوج. والبكر الذي تلده يقوم باسم أخيه الميت، لـئلَّا يُمحَى اسمه من إسرائيل. وإن لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه، تصعد امرأة أخيه إلى الباب إلى الشيوخ وتقول: قد أَبَى أخو زوجي أن يُقيم لأخيه اسمًا في إسرائيل. لم يشأ أن يقوم لي بواجب أخي الزوج. فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه. فإن أصر وقال: لا أرضى أن أتخذها. تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ، وتخلع نعله من رجله، وتبصق في وجهه، وتصرخ وتقول: هكذا يفعل بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه. فيُدعَى اسمه في إسرائيل: بيت مخلوع النعل". (التثنية ٢٥: ٥ ـ ١٠).

وفي هذا كله لتلجئه إلى نكاحها؛ لأنه إذا علم أنه قد فرض على المرأة وعليه ذلك فربما استحيا وخجل

---

١. المسيحيون والمسلمون في تلمود اليهود، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص٥٦ وما بعدها.

من شَيْل نعله من رجله، والبصق في وجهه ونبزه باللقب المستكره الذي يبقي عليه وعلى أولاده عارًا، ولم يجد بدًّا من نكاحها، فإن كان من الزهد فيها والكراهة لها بحيث يرى أن هذا كله أسهل عليه من أن يبتلى بها وهان عليه هذا كله في التخلص منها، لم يُكرَه على نكاحها، هذا عندهم في التوراة.

ونشأ لهم من ذلك فرع مرتب عليه، وهو: أن يكون مريدًا للمرأة محبًّا لها، وهي في غاية الكراهة له، فأحدثوا لهذا الفرع حكمًا في غاية الظلم والفضيحة، فإذا جاءت إلى الحاكم أحضروه معها ولقنوها أن تقول: إن حَمَوي لا يقيم لأخيه اسمًا في بني إسرائيل، ولم يرد نكاحي، وهو عاشق لها ـ فيلزمونها بالكذب عليه، وأنها أرادته فامتنع - فإذا قالت ذلك ألزمه الحاكم أن يقوم ويقول: ما أردت نكاحها، ونكاحها غاية سؤله وأمنيته، فيأمرونه بالكذب عليها ـ فيخرج نعله من رجله إلا أنه لا مَسْك هنا ولا ضرب، بل يبصق في وجهه، وينادى عليه: هذا جزاء من لا يبني بيت أخيه، فلم يكفهم أن كذبوا عليه حتى أقاموه مقام الخزي، وألزموه بالكذب، والبصاق في وجهه، والعتاب على ذنب جَرَّه غيره، كما قيل:

وجُرْمٍ جَرَّه سُفَهاءُ قَومٍ
وَحَلَّ بغير جارِمِه العَذابُ

أفلا يستحيي من تعيير المسلمين مَنْ هذا شرعُه ودينه"[1]؟!

١. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، مرجع سابق، ص٢٦٤، ٢٦٥.

ثانيًا. شريعة محمد ﷺ خاتمة ناسخة لما قبلها، وعندهم البشارة بذلك:

فقد كان علماء اليهود يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ويعلمون أنه النبي الخاتم للرسالات، يقول ابن القيم: "وأما اليهود فقد كان علماؤهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن شيخ من بني قريظة، قال: هل تدري عما كان إسلام أسد وثعلبة ابني شعبة وأسد بن عبيد، لم يكونوا من بني قريظة، ولا النضير، كانوا فوق ذلك؟ فقلت: لا، قال: فإنه قدم علينا رجل من الشام من اليهود يقال له "ابن الهيبان" فأقام عندنا، والله ما رأينا رجلًا يصلي خيرًا منه، فقدم علينا قبل مبعث رسول الله ﷺ بسنتين، فكنا إذا قحطنا وقلَّ علينا المطر نقول: يا ابن الهيبان اخرج فاستسق لنا، فيقول: لا والله حتى تقدِّموا أمام مخرجكم صدقة، فنقول: كم؟ فيقول: صاعًا من تمر، أو مُدَّيْنِ من شعير، فنخرجه.

ثم يخرج إلى ظاهر حرتنا ونحن معه نستسقي، فوالله ما يقوم من مجلسه حتى تمطر ويمر بالشِّعاب، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث، فحضرته الوفاة واجتمعنا إليه، فقال: يا معشر يهود، أترون ما أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قالوا: أنت أعلم، قال: فإني إنما خرجت أتوقع نبيًّا، قد أظل زمانه، هذه البلاد مُهاجَره، فاتبعوه ولا يسبقن إليه غيركم إذا خرج، يا معشر اليهود فإنه يبعث بسفك الدماء وسبي الذراري والنساء ممن يخالفه، فلا يمنعكم ذلك منه، ثم مات، فلما كانت الليلة التي فتحت فيها قريظة، قال أولئك الثلاثة الفتية، وكانوا شبانا أحداثًا:

يا معشر اليهود، والله إنه للذي ذكر لكم ابن الهيبان، فقالوا: ما هو به، قالوا: بلى، والله إنه لصفته، ثم نزلوا وأسلموا وخلَّوْا أموالهم وأهليهم. قال ابن إسحاق: وكانت أموالهم في الحصن مع المشركين، فلما فتح ردت عليهم.

وقال ابن إسحاق: حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد، قال: كان بين أبياتنا يهودي فخرج على نادي قومه بني عبد الأشهل ذات غداة، فذكر البعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان، قال ذلك لأصحاب وثن لا يرون أن بعثًا كائن بعد الموت، وذلك قبيل مبعث النبي ﷺ فقالوا: ويحك يا فلان! وهذا كائن أن الناس يُبْعَثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يُجْزَون بأعمالهم؟! قال: نعم، والذي يحلف به لوددت أنَّ حظِّي من تلك النار أن تُوقِدوا أعظم تَنُّور في داركم فتُحمونه، ثم تقذفونني فيه، ثم تطبقون عليَّ، وأنَّى أنجو من النار غدًا، فقيل: يا فلان ما علامة ذلك؟ قال: نبي يبعث من ناحية هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن، قالوا: فمتى نراه؟ فرمى بطرفه فرآني وأنا مضطجع بفناء باب أهلي، وأنا أَحْدث القوم، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه، فما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ.

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، قال: حدثني أشياخ منا قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا، كان معنا يهود، وكانوا أهل كتاب، وكنا أصحاب وثن، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون، قالوا: إن نبيًّا مبعوثًا الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم قتل عاد وإرم، فلما بعث الله ﷻ رسوله ﷺ اتبعناه وكفروا به، ففينا وفيهم أنزل الله ﷻ: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (البقرة).

وذكر الحاكم وغيره عن ابن أبي نجيح عن علي الأزدي، قال: كانت اليهود تقول: اللهم ابعث لنا هذا النبي يحكم بيننا وبين الناس، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فلما التقوا هُزمت يهود خيبر، فعاذت اليهود بهذا الدعاء، فقالت: اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان، إلا نصرتنا عليهم، قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء، فهزموا غطفان، فلما بعث النبي ﷺ كفروا به، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ (البقرة: ٨٩) يعني بك يا محمد: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (البقرة) يستفتحون: أي يستنصرون.

وذكر الحاكم وغيره أن بني النضير لما أُجْلُوا[1] من المدينة أقبل عمرو بن سعد، فأطاف بمنازلهم فرأى خرابها، ففكر ثم رجع إلى بني قريظة فوجدهم في الكنيسة، فنفخ في بوقهم فاجتمعوا، فقال الزبير بن باطا: يا أبا سعد، أين كنت منذ اليوم فلم نرك؟ وكان لا يفارق الكنيسة، وكان عزيزًا في اليهودية.

قال: رأيت اليوم عِبَرًا اعتبرنا بها، رأيت إخواننا قد جَلَوْا بعد ذلك العز والجلد، والشرف الفاضل والعقل البارع، قد تركوا أموالهم، وملكها غيرهم وخرجوا

١. أُجْلُوا: أُخرِجوا.

خروج ذل، ولا والتوراة ما سُلِّط هذا على قوم قط لله بهم حاجة، وقد أوقع قبل بابن الأشرف في عزة بنيانه في بيته آمنًا، وأوقع بابن سنينة سيدهم، وأوقع ببني قينقاع فأجلاهم وهم جل اليهود، وكانوا أهل عُدَّة وسلاح ونجدة - حصرهم النبي ﷺ فلم يُخرج إنسان منهم رأسه حتى سباهم، فكُلِّم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب - يا قوم قد رأيتم ما رأيتم فأطيعوني وتعالوا نتبع محمدًا، فوالله إنكم لتعلمون أنه نبي وقد بشرنا به وبأمره ابن الهيبان وأبو عمرو بن حواس، وهما أعلم اليهود جاءا من بيت المقدس يتوكَّفان[1] قدومه، وأمرانا باتباعه، وأمرانا أن نقرئه منهما السلام، ثم ماتا على دينهما ودفناهما بحرتنا. فأسكت القوم فلم يتكلم منهم متكلم، فأعاد هذا الكلام ونحوه، وخوَّفهم بالحرب والسباء والجلاء، فقال الزبير بن باطا: قد - والتوراةِ - قرأتُ صفته في كتاب التوراة التي أُنزلت على موسى ليس في المثاني التي أحدثنا، فقال له كعب بن أسد: ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه؟ قال: أنت، قال: ولِمَ، فوالتوراة ما حُلْتُ بينك وبينه قط؟

قال الزبير: بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا، فإن اتبعته اتبعناه وإن أبيت أبينا، فأقبل عمرو بن سعد على كعب، فذكر ما تقاولا في ذلك إلى أن قال كعب: ما عندي في ذلك إلا ما قلت، ما تطيب نفسي أن أصير تابعًا.

وهذا المانع هو الذي منع فرعون من اتباع موسى، فإنه لما تبين له الهدى عزم على اتباع موسى عليه السلام، فقال له وزيره هامان: بينا أنت إله تُعبد تصبح تَعبدُ ربًّا غيرك؟! قال: صدقت.

وذكر ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر، قال: حدثت عن صفية بنت حُيَي أنها قالت: كنت أَحَبَّ ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، فلما قدم رسول الله ﷺ غدوا عليه ثم جاءا من العشي، فسمعت عمي يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت.

فهذه الأمة الغضبية معروفة بعداوة الأنبياء قديمًا، وأسلافهم وخيارهم قد أخبرنا الله عز وجل عن أذاهم لموسى، ونهانا عن التشبه بهم في ذلك فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأحزاب).

وأما خلفهم فهم قتلة الأنبياء، قتلوا زكريا وابنه يحيى وخلقًا كثيرًا من الأنبياء، حتى قتلوا في يومٍ سبعين نبيًّا، وأقاموا السوق في آخر النهار، كأنهم لم يصنعوا شيئًا، واجتمعوا على قتل المسيح وصلبه، فصانه الله من ذلك، وأكرمه أن يهينه على أيديهم، وألقى شَبَهه على غيره فقتلوه وصلبوه. وراموا قتل خاتم النبيين مرارًا عديدة والله يعصمه منهم. ومن هذا شأنهم لا يكبر عليهم اختيار الكفر على الإيمان "[2] ®.

هذه دلائل واضحة على ختم الرسالات والهيمنة

١. يتوكَّفان: ينتظران ويتوقعان.

٢. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، مرجع سابق، ص٥١: ٥٦.

® في **"ضعف أدلة التوراة والإنجيل على تأبيد شريعتهما"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن). وفي **"البشارة بمحمد في الإنجيل"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة عشرة، من هذا الجزء.

عليها بشرع محمد ﷺ، لكن اليهود قوم ينكرون.

ثالثًا. بضاعة مغشوشة وعلم مزعوم:

ما المضمون العلمي والثقافي والفكري للتوراة المُحرَّفة التي يزعمون كفايتها والاستغناء بها عن غيرها؟ في نظرة إجمالية يحدثنا د. عبد الحليم عويس عن الأثر الحضاري لدعوة التوراة قائلًا: "إننا أمام هذه اللوحة التي تقدمها التوراة، سواء بالنسبة لذات الله ﷻ أو بالنسبة للقصص التي تقوم فيها دعوة صريحة للجنس الحرام، أو بالنسبة للأنبياء الذين فقدوا القدرة على أن يكونوا نماذج عالية نتيجة ما وُصِموا به، أو لهذه الصورة من العنف، والظلم، والدموية، والوثنية التي تُعزَى[1] إلى الأنبياء.

إننا أمام هذه اللوحة التوراتية نستطيع أن نجد التفسير الصحيح لانحرافات كثيرة في التاريخ البشري، جعلت هذا التاريخ ينحرف عن هدى الله، وعن الرحمة والعدل، ويصبح كأنه غابة فيها أسود هم اليهود، والذين يفترسون غيرهم من الحيوانات، فيحكمون الغابة بقوانين الغابة. وهذه اللوحة التوراتية تفسِّر لنا كثيرًا من الحروب الجماعية التي أخذت شكل حروب عالمية بعد ذلك، تُلقَى فيها القنابل على المدن والقرى، فلا تفرق بين شيخ وطفل ومَدَنِيٍّ وعسكريٍّ، وكلما انتهت حرب بدأت حرب أخرى، وكلما انتهت حرب مباشرة ظهرت حرب غير مباشرة، وإذا لم يكن هناك أعداء حقيقيون، بحثوا عن أعداء غير حقيقيين، وفرضوا عليهم أن يكونوا أعداء حقيقيين. لماذا؟ لأنه لا بد أن يكون هناك أعداء، لا بد أن تكون هناك صراعات وحروب.

ولا يجوز أن تكون الحياة الإنسانية مجالًا للحوار والتفاعل والتكامل، بل لا بد من الصدام الدامي بين كل الفصائل؛ من أجل بقاء الأيدي اليهودية هي الوحيدة الحاكمة. أما الحيوانات الأخرى فلا بد من أن تتصادم ولا تجد فرصة للتفاهم حتى لا تفكر في اكتشاف الماسونية العالمية[2] التي تملك الخيوط، والتي تحرك الألعاب التآمرية، ولا تعرف نفسها إلا من خلال الصدام مع الآخر"[3].

ليت الأمر قد اقتصر على التوراة المحرفة، بل أضيف إليها ما هو شر منها وهو "التلمود" دستور اليهود

---

١. تُعْزَى: تُنسَبُ.

٢. الماسُونيَّة: حركة لها طابع سياسي وديني، يرجع تاريخ إنشائها ـ على الراجح ـ إلى بداية القرن الأول الميلادي، عندما كان حاخامات اليهود يَتَنَبَّئون بقُرْب ظهور نبي جديد، وقد طرحت نفسها على أنها مؤسسة إحسانية وجمعية فكرية، تسعى لاستقطاب ذوي النفوس الحُرَّة، ويقصد بالماسونية البنَّاءون الأحرار، وهم الذين بنوا هيكل سليمان، وكان اسم هذه الجمعية في عهد التأسيس الأول "القوة الخفية" ثم تَسَمَّت من بِضْعة قرون باسم "فري ماسونري Free Masonry"، وتتكون الكلمة من ثلاثة مقاطع: الأول: Free ومعناه: حُر، والثاني Mason ومعناه: حِرْفة الحجارة، أو حرفة البناء، أو الحرفة عامة، والمقطع الأخير Ry للنسبة، ومعناه: جمعية البنائين الأحرار، وكان القول السائد في القرن السابع عشر أن صاحب المهنة الحر هو الذي لا يتقيَّد بحرفة، فكل من النجار والحداد والبنَّاء يعد "ماسون"، فإذا انتسبوا لنقابة أو رابطة فهم "فريمسون". وهدفها تحرير المنتمي إليها من الأفكار التقليدية القديمة، والتَّخلِّي عن العادات السائدة؛ بُغْيَة التَّوصُّل إلى النور. وهذه الحركة تنكر جوهر الأديان جميعًا، وتقول بوحدة الوجود، واتحاد الخالق بالمخلوق، فما هي إلَّا آلة صيد بِيَد اليهود يصرعون بها كبار الساسة، ويخدعون الأمم الغافلة والشعوب الجاهلة عبر منافذ نشاطاتها المتعددة.

٣. الفكر اليهودي بين تأجيج الصراعات وتدمير الحضارات، د. عبد الحليم عويس، مرجع سابق، ص٥٥، ٥٦.

الأساسي، يعرفنا به "ظفر الإسلام خان" بقوله: "ينقسم التلمود إلى جزئين هامين:

١. المشناه **mishnah**: وهو الأصل "المتن".

٢. جمارا **Gamara**: شرح مشناه، ومشناه أول لائحة قانونية وضعها اليهود لأنفسهم بعد التوراة، جمعها يهوذا هاناسي فيما بين ١٩٠، ٢٠٠ م، أي بعد قرن تقريبًا من تدمير تيطس الروماني الهيكل. أما "جمارا" فاثنان: جمارا أورشليم (فلسطين) وجمارا بابل.

جمارا أورشليم - أو فلسطين - هو سجل للمناقشات التي أجراها حاخامات فلسطين - أو بالأخص علماء مدارس طبرية - لشرح أصول المشناه، ويرجع تاريخ جمعه إلى عام ٤٠٠ م، وجمارا بابل هو سجل مماثل للمناقشات حول تعاليم المشناه، دوَّنها علماء بابل اليهود، وانتهوا من جمعه سنة ٥٠٠ م تقريبًا.

فمشناه مع شرحه جمارا أورشليم يُسمَّى "تلمود أورشليم"، ومشناه مع شرحه جمارا بابل يُسمَّى "تلمود بابل"، وكلاهما يطبع على حدة.

المشناه: هو خلاصة القانون الشفهي الذي تناقله الحاخامات منذ ظهور حركة الفَرِّيسِيِّين(١) التابعين لأهواء النفس، ونشطت حركتهم بعد ظهور عيسى ابن مريم عليه السلام؛ مما أدى أخيرًا إلى تسجيل المبادئ الهدامة التي قامت عليها دعوة الفريسيين التي استنكرها المسيح"(٢).

يبرز لنا الدكتور محمد الشرقاوي أهمية التلمود في حياة اليهود وحركاتهم ومؤامراتهم، فيقول: "التلمود هو كتاب بني إسرائيل الأقدس، وهو - في قداسته - فوق التوراة، وسائر الأسفار اليهودية، وليس هناك ما هو أسمى مقامًا من التلمود المقدس، ذلك قول أحبارهم الثقات عندهم.. وهذا التلمود الأقدس، - كما تصفه الحاخامات - من تأليف شيوخهم وأحبارهم ورؤسائهم، وقد وصفه الدكتور جوزيف باركلي - أحد أبرز المتخصصين في الأدبيات العبرية والدراسات التلمودية - قائلًا: بعض أقوال التلمود فعال وبعضه كريه وبعضه الآخر كفر.

والتلمود صورة صادقة للتعبير عن الشخصية الإسرائيلية التي أفرزته، فهو يجلي دفائنه النفسية اليهودية، ويبرز مكنوناتها الغائرة، ابتدعه شيوخ إسرائيل تحت وطأة معاناة الشتات والاغتراب والتقطيع في الأرض، وتحت أثقال الأسر والقهر والتشرد الذي ملأ نفوسهم هوانًا ومذلة، وفجَّر فيها كل مخزونها من طاقات الحقد، والحسد، والكراهية، والبغض، والرغبة المحمومة في الانتقام، والتجبر، والانتقام من الأمم كلها، والتجبر على الأُمِّيِّين أجمعين"(٣).

وعن خلاصة مضمون هذا الكتاب الأقدس لدى اليهود، الذي يعطي ملامح شريعتهم التي يعتبرونها عندهم هي الحق الذي لا محيد عنه، يحدثنا ظفر الإسلام خان، فيقول: "التلمود مركب عجيب لآراء متناقضة أحيانًا، وأمثال وأحكام، وهو يختلف مع التوراة كثيرًا

١. الفَرِّيسِيِّين: فِرْقة يهودية.

٢. التلمود تاريخه وتعاليمه، د. ظفر الإسلام خان، دار النفائس، الأردن، ط٢، ١٩٧٢م، ص١١، ١٢.

٣. الكنز المرصود في فضائح التلمود، محمد عبد الله الشرقاوي، مرجع سابق، ص٣، ٤.

في أحكامه، إنه يبيح الربا، وتقديم الأطفال قربانًا للإله "مولوخ"، رغم تحريم التوراة. إنه يبيح الغش، ويعلله بما جاء في التوراة: "مع الطاهر ستكون طاهرًا ومع المتمرد النجس ستكون كذلك"، والحاخامات يعلِّمون شعبهم كراهية المسيحيين والأجانب، وأي يهودي يشهد ضد يهودي آخر أمام أجنبي يلعن ويسب فيه علانية، واليهودي يتحرر من أي يمين يقسمها مع الأجنبي، ولا يجوز له إنقاذ أرواح الأجانب في مواسم الأمراض، وزواج الأجانب ليس بزواج، ولحم جَزَّاريهم ليس إلا جيفة، ولا يجوز دعوة الأجانب إلى داخل البيوت اليهودية، ولا ينبغي رد الأشياء التي يفقدها الأجانب، وإذا نطح ثور اليهودي ثور الأجنبي لا يلتزم اليهودي بشيء، ولكن إذا نطح ثور الأجنبي ثور اليهودي وجب على الأجنبي دفع التعويض عن الضرر الذي أصاب ثور اليهودي.

ويقال عن أحد الحاخامات إنه باع بعض الأشجار لأحد الأجانب، ثم أمر خادمه أن يقطع بعض الأغصان قائلًا: إن الأجنبي يعرف عدد الأشجار، ولكنه لا يعرف ضخامتها، وعدد أغصانها. وما أصدق ما قاله د. جوزيف باركلي عن التلمود:

"بعض أقوال التلمود فعال، وبعضها كريه، وبعضها الآخر كفر، ولكنها تشكل في صورتها المخلوطة أثرًا غير عادي للجهد الإنساني وللعقل الإنساني وللحماقة الإنسانية: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ (المائدة: ١٣)، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (البقرة)، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (البقرة).

وقد يستطيع الإنسان تزييف الحقائق، وقد يسهل عليه أن يكذب ويكذب، حتى يصدق هو نفسه كل أكاذيبه، وينسى أنه مخترعها الأصلي، ولكن رغم هذا يبقى دائمًا شيء واحد، الكلمة المكتوبة منذ آلاف السنين، والآثار التي تحدد بالضبط عمر الأشياء وعمقها، ومخطوطات التاريخ التي تظل دائمًا هي المرجع وكلمة الصدق الوحيدة التي لا تميل مع أهواء البشر، وحتى إذا حدث ومالت، فبين سطورها تستطيع الحقيقة دائمًا أن تجد لها مكانًا.

وعدونا الإسرائيلي حاول كثيرًا أن يزيف ويخدع، ويبتز العواطف والأموال والمعونات، وما زال يفعل متجاهلًا وناسيًا أن مخطوطاته هو وآثاره وتلموده وكتب تفسيره تروي بلغته العبرية حكايات وحكايات تفضح كل محاولاته[1].

تُرى ما مضاعفات هذه العقيدة العنصرية بتعاليمها الشاذة على أرض الواقع، في تاريخ وواقع اليهود وعلاقتهم بالأمم والشعوب الأخرى؟! نجد ضالتنا للإجابة عن هذا السؤال في كلام ضافٍ للدكتور عبد الحليم عويس قال فيه: "وهذا السلوك يعود بجذوره

---

١. التلمود: تاريخه وتعاليمه، د. ظفر الإسلام خان، مرجع سابق، ص٩٠: ٩٣.

إلى التوراة التي تُشيع في اليهود روحًا من الاستعلاء العنصري، والشعور بأن العالم خلق لهم وحدهم، وبأن الآخرين لا يستحقون الحياة، فضلًا عن أن يستحقوا الحوار والتعاون، وتمضي أمريكا وراء المنظور التوراتي دون أدنى بصيرة أو عقلانية!!

إن التوراة التي يستلهمها اليهود دائمًا، والتي بنوا من أجلها دولة إسرائيل، هي التي تقف ـ بفلسفتها ـ وراء هذا الخراب العالمي. إن الإيمان الديني المكين لدى اليهود بأنهم شعب الله المختار، وأن الناس قسمان: اليهود والجوييم (الأُمَمِيُّون)، أي: الكفرة الوثنيون، واليهود وحدهم هم شعب الله المختار، وهم أبناء الله وأحباؤه لا يتقبل العبادة إلا منهم، ونفوسهم مخلوقة من نفس الله، وعنصرهم من عنصره، فهم وحدهم أبناؤه الأطهار، وقد منحهم الله الصورة البشرية، تكريمًا لهم، أما الجوييم (الأُمَمِيُّون) فخلقوا من طينة شيطانية، والهدف من خلقهم خدمة اليهود، ولم يمنحوا صورة البشرية إلا بالتبعية لليهود، ليسهل التعامل بين الطائفتين إكرامًا لليهود، فاليهود أُصَلاء في الإنسانية، والجوييم أتباع فيها، وعلى هذا فمن حق اليهود معاملة الأمميين كالبهائم، والآداب التي يتمسك بها اليهود فيما بينهم لا يمكن أن يعاملوا الأمميين بها، فلهم أن يسرقوهم، ويغشوهم، ويكذبوا عليهم، ويخدعوهم ويغتصبوا أموالهم ويقتلوهم، ويهتكوا أعراضهم، ويرتكبوا معهم كل الموبقات ما أمنوا استتار جرائمهم.

إن هذه العقيدة المسيطرة على اليهود قديمًا وحديثًا، والمحركة لهم سياسيًّا في العصر الحديث ـ عقيدة جَرَّت العالم كله إلى كوارث لا نهاية لها، فقد عمل اليهود على تمزيق الأوطان، والقضاء على القوميات والأديان، وإفساد نظم الحكم في كل الأقطار، بإغراء الملوك والحكام باضطهاد الشعوب، وإغراء الشعوب بالتمرد على سلطة الحاكم ونصوص القانون.

وباسم هذه العقيدة ينشرون المذاهب المدمرة، فهم يعملون على نشر الشيوعية أحيانًا، والرأسمالية أحيانًا أخرى، ويلبسون مسوح الاشتراكيين أحيانًا، وينادون بالحرية بالمعنى الانحلالي والمساواة بالمعنى الفوضوي، ويثيرون الكتل العالمية ويدفعونها إلى الصراعات، وهم يثيرون المظلومين في وجه الظالمين، ولكنهم سرعان ما يحاربون الحرية والمساواة، أي يحاربون المظلومين، ويعلنون أن الطاعة العمياء والتفاوت بين الناس هما أساس القيم البشرية، ويحاربون الحرية مؤكدين أنها تحوِّل الغَوْغاء إلى حيوانات، وأن من الضروري أن تسحق هذه الكلمة ويزول مدلولها تمامًا.

وهم في أيامنا هذه ينشرون الإباحية والفوضوية، ويعملون على تقويض الأسر، وقطع صلات الود بين الأرحام، ويدفعون الناس للشهوات والانحلال، والبعد عن كل القيم الإنسانية، وترسم "بروتوكولات حكماء صهيون" الطريق لليهود لأن يستغلوا النزعات والغرائز الإنسانية كالمال والنساء والغرائز مع الجوييم، لتكون أداة في يد اليهود، كما توصي البروتوكولات أن يضع اليهود في المراكز الكبيرة شخصيات مرموقة لها أخطاء وملفات!! لا يعرفها إلا اليهود، وفي ظل الخوف من إشاعة هذه الأخطاء، ينفذ هؤلاء الأشخاص لليهود ما يشيرون به عليهم دون تردد.

وتهتم البروتوكولات بأن يسيطر اليهود في هذه

المرحلة على الصحافة ودور النشر وجميع وسائل الإعلام، حتى لا يتسرب للرأي العام إلا ما يريده اليهود وحدهم، ويستعمل اليهود المال وسيلة من أكبر وسائلهم، ليس للرشوة فحسب، بل لإثارة الثورات الداخلية عن طريقه، فهم يغرون الحكام ضعاف النفوس بجمع المال لهم ولأولادهم بطريقة غير مشروعة ومثيرة للرأي العام، ثم يدفعون الشعوب لتثور ضد الحاكم الذي استحوذ على ثروة البلاد وغلبته الأنانية القاسية، كما يدفعون بأشخاص وطبقات يسمونها النخبة المثقفة لخيانة دينهم ووطنهم وحضارتهم، والارتباط مصلحيًّا باليهود، وعن طريق جمعياتهم المشبوهة مثل: الماسونية، والروتاري، والليونز، وشهود يهوه يصنعون من بعض الأشخاص شيئًا له قيمة، ويهيئون فرصًا لاحتلالهم مكانة مرموقة، ومن خلالهم يحققون أغراضهم، ويدمرون ثوابت الأمم، ويخترقون كل الأجهزة الحساسة في الأمة، بأحدث طرق التجسس النفسي والتحليلي.

إن النفوس الإنسانية المعاصرة، والتدني الأخلاقي وصور الظلم، والعنف، وصورة القرن العشرين الدموية، والبداية الكئيبة للألفية الثالثة. كل هذا الذي يمكننا تسميته بأزمة الإنسانية المعاصرة، تعود بجذورها وفكرها ومفرداتها العقدية، ونماذجها السلوكية إلى أسفار التوراة، وإلى هذه اللوحة القاتمة التي تصورها سطورها وصفحاتها، هذه اللوحة التي لا يمكن أن تكون رسالة الله لهداية الإنسان، وسعادة الإنسانية.

هذه اللوحة التي تقدم الله والأنبياء بأسوأ صورة، وتدعو الإنسانية إلى حياة غابيَّة حيوانية سوداوية"[(١)®].

هذه هي طبيعة المبادئ التوراتية، والتعاليم التلمودية المعتنقة لدى هؤلاء القوم، وهذه هي تجلياتها على أرض الواقع، فما الذي يغري فيهما من إنسانية وخير وصلاح لتكون هذه الشريعة منهاجًا للبشر ونبراسًا لحياتهم دون غيرها من الشرائع؟! فليكن الناقد بصيرًا، وليميز بين الإنساني الرباني، وبين الإبليسي الشيطاني!

الخلاصة:

- أي سبيل هدى ورشاد يزعمون؟! أهو سبيل التوراة المحرفة التي تصف المولى ﷻ وأنبياءه بأبشع الصفات وأخسها، وتمتهن المرأة وتحتقر إنسانيتها؟! أم طريق التلمود المؤلف بروح عنصرية بغيضة، حاقدة على مختلف الأمم والشعوب؟!
- من المعروف والثابت أن شريعة محمد - لا التوراة - هي الرسالة الخاتمة لرسالات السماء الناسخة لما قبلها والمهيمنة عليها، وعند اليهود وأهل الكتاب عمومًا البشارة بذلك في كتبهم إيماءً وتصريحًا، وعلماؤهم وأحبارهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.
- باسم مبادئ التوراة المحرفة، وتعاليم التلمود العنصرية ارتكب اليهود - ولا يزالون - أبشع الجرائم، ولعبوا ويلعبون أخس الأدوار، فهل في هذه المبادئ المعتنقة، وفي السلوك المترتب عليها المستند إليها، ما

١. الفكر اليهودي بين تأجيج الصراعات وتدمير الحضارات، د. عبد الحليم عويس، مرجع سابق، ص٦٤: ٦٩.
® في **"عنصرية اليهود والتوراة"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الأولى، من هذا الجزء. والوجه الرابع، من الشبهة العشرين، من الجزء الخامس (النظم الحضارية).

يغري باتباعها والتمسك بها واعتبارها الأقدس وغيرها زائف؟ أم أنها المغالطة والمكابرة والاستعلاء والحقد والعنصرية بلا ريب؟!

الشبهة الثالثة

الزعم أن الإسلام دينٌ مقتبسٌ من الحنيفية واليهودية والنصرانية ومحرَّف عنها (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن الإسلام دين مقتبس من الحنيفية واليهودية والنصرانية، ويزعمون أن محمدًا ﷺ استوعب جميع الديانات السابقة ليبدع هذا الدين ويؤلف القرآن من عند نفسه، متصنعًا ما يسميه الوحي، وما هو إلا عَرَضٌ من أعراض الهستيريا والصرع اللذَيْن كان مريضًا بهما.

وجوه إبطال الشبهة:

١) بشارة الكتب السماوية السابقة بسيدنا محمد ﷺ ثابتة، وإن كان أهل هذه الديانات ينكرونها تعاميًا وتعصبًا.

٢) بقايا الحنيفية قبل الإسلام ظلال باهتة لا تصلح أساسًا لهذا الصرح الكامل، وكثير من الأحناف صدَّقوا بنبوة سيدنا محمد ﷺ.

٣) الإسلام ليس نسخة من اليهودية أو النصرانية أو من كلتيهما، ومقارنة جوهر هذه الديانات من خلال كتبها المقدسة يثبت ذلك.

٤) المصروع لا يُملي - بعد إفاقته مباشرة - كلامًا واضحًا يتضمن أحكامًا دقيقة وآدابًا جمَّة، وما في القرآن من وجوه الإعجاز ينفي أن يكون من صنع محمد ﷺ وتأليفه.

التفصيل:

قبل تناول هذه الشبهات بالمناقشة والتفنيد، ربما يلزم أن نذِّكر بما هو ثابت ومعروف وشائع من أن الكتب السماوية السابقة اعترفت وشهدت وبشرت - خاصة قبل تحريفها - بنبوة محمد ﷺ الصادقة ورسالته الخاتمة.

أولا. بشارة الكتب السماوية السابقة بمحمد ﷺ:

في أسلوب حواري رشيق يتحدث عن هذا الموضوع الداعية الإسلامي الكبير أحمد ديدات - رحمه الله - تحت عنوان "ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ" فيقول: "يدافع المسيحي بالحجة عن النبوءات المذكورة في الكتاب المقدس، ويقول: إن الكتاب المقدس تنبأ بقيام روسيا السوفيتية واليوم الآخر وعن قيام البابا، وإنه هو الوحش ٦٦٦ المذكور في سفر الرؤيا - آخر أسفار العهد الجديد - وإنه وكيل عيسى على الأرض. وآخر تصريح في تفسير هذه النبوءات أن الوحش ٦٦٦ هو هنري كيسنجر، كما أن بعض هذه النبوءات يذكر - بحسب تفسيرهم - قيام إسرائيل وتشكيل دولة الصهاينة العنصرية الباغية المغتصبة!!

إننا نسأل المسيحي: إذا كانت هذه النبوءات قد تحدثت عن قيام روسيا السوفيتية وعن البابا وهنري كيسنجر وتأسيس دولة البغي إسرائيل، فلا بد لهذه

(*) الإسلام والغرب، روم لاندو، مرجع سابق.

النبوءات إذًا أن تذكر شيئًا عن النبي ﷺ. إننا نسأل: ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد؟ يجيب المسيحي: لا شيء. نعود لنقول له: إن هذا الرجل ـ محمدًا ـ الذي يؤمن به وبرسالته ملايين وملايين الناس، والذين يؤمنون:

- بولادة عيسى المعجزة.
- بأن عيسى هو المسيح.

وبأن عيسى عليه السلام أحيا الموتى وشفى الأعمى والأكمه والأبرص بإذن الله، لا بد لهذا الكتاب المقدس أن يذكر شيئًا عن هذا الرجل العظيم الذي تكلم كلامًا حسنًا عن عيسى وأمه مريم. يجيب المسيحي قائلًا: لا يوجد أي ذكر أو أية نبوءة في الكتاب المقدس عن محمد!

يدعي المسيحي أن هناك مئات بل آلاف النبوءات عن قدوم عيسى المسيح في أسفار العهد القديم (التوراة). إننا لن نتساءل عن هذه النبوءات؛ لأن العالم الإسلامي بأَسْره قَبِلَ بعيسى المسيح دون العودة إلى نبوءات الكتاب المقدس، ونحن نعترف، ونقبل عيسى المسيح بشهادة سيدنا محمد وحده. وهنالك الآن في العالم أكثر من مليار مسلم ممن يحبون ويحترمون ويقدرون نبي الله العظيم ورسوله عيسى المسيح عليه السلام دون الحاجة إلى أن يقنعهم المسيحي بجدله الإنجيلي الديالكتيكي.

ولكننا نسأل الآن العالم المسيحي بملايينه أن يذكر لنا نبوءة واحدة من هذه الآلاف التي تذكر عيسى بالاسم؟ إن كلمة (مسيح) ليست اسمًا بل لقبًا، هل توجد نبوءة واحدة تقول بأن اسم المسيح سيكون عيسى؟ وأن اسم أمه سيكون مريم؟ و(والده) المفترض يوسف النجار؟ وأنه سيولد في عهد هيردوس الملك؟ لا. لا توجد هذه التفاصيل. إذًا كيف توصل المسيحي إلى أن آلاف هذه النبوءات تشير إلى عيسى؟

يجيبك قائلًا: النبوءة هي حدث سيحصل في المستقبل، وعندما يحل هذا الحدث فإننا نتحقق من وقوع ما تم التنبؤ به في الماضي.

إذًا إننا نقول لك بأنك تستدل، تستنتج، تستنبط بالمنطق، تجمع (١+١)، (٢+٢). تعال معنا إذًا أيها الأخ المسيحي نطبق هذه القاعدة لنفتش عن النبوءات التي تشير إلى سيدنا محمد ﷺ في كتابك المقدس: "أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به". (التثنية ١٨: ١٨).

يجيب المسيحي: تشير هذه النبوءة إلى عيسى المسيح. نقول: ولكن لماذا عيسى؟ فاسمه لم يذكر هنا، يرد قائلًا: يصف هذا النص المسيح تمامًا. انظر كلمة (مثلك) أي مثل موسى، وعيسى مثل موسى، فموسى كان يهوديًّا وعيسى يهودي. موسى كان نبيًّا وعيسى نبيًّا، لذا فعيسى مثل موسى، وهذا ما قاله الله لموسى، نقول: هل يمكنك أن تجد أوصافًا أخرى يتوافق فيها موسى وعيسى؟

يجيب المسيحي: لا، لا أعتقد أنه يوجد أكثر من ذلك.

نقول: إذا كان هذا هو المعيار الذي تعتمد عليه في قولك بأن هذه النبوءة: "أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به" تشير إلى عيسى، فإن هذا المعيار ينطبق أيضًا على كل

الشخصيات التي ذكرها الكتاب المقدس والتي أتت بعد موسى: سليمان، أشعيا، حزقيال، دانيال، هوشع، يوئيل، ملاخي، يوحنا المعمدان؛ لأن هؤلاء كانوا يهودًا وأنبياء.

إننا نقول: إن عيسى ليس مثل موسى، وسنبرهن لك على ذلك بالعقل والمنطق، فالمثل هو الشبه أو النظير بأدق الصفات والمميزات:

- عيسى ليس مثل موسى؛ لأن المسيحي يقول: إن عيسى هو الله، بينما موسى ليس هو الله.
- يقول المسيحي: إن عيسى مات لأجل خطايا البشرية، بينما لم يمت موسى لأجل خطايا البشرية.
- يقول المسيحي: إن عيسى ذهب إلى الجحيم ثلاثة أيام، بينما لم يذهب موسى إلى الجحيم، ولو ليوم واحد.

إذًا عيسى ليس مثل موسى، ونقول: إن ما ذكرناه إلى الآن هي مسائل إيمانية، وليست حقائق، قد نختلف عليها، تعال إذًا نتكلم منطقيًّا وعقلانيًّا.

١. كان لموسى أم وأب، كما كان لمحمد أم وأب. بينما كان لعيسى أم فقط وبدون أب. وهذا يعني أن عيسى ليس مثل موسى، بل إن محمدًا هو مثل موسى.

٢. وُلِد كل من موسى ومحمد ولادة طبيعية - أي بثمرة علاقة رجل مع امرأة - بينما خُلق عيسى بمعجزة. يقول لنا إنجيل القديس متى: "أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا: لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف، قبل أن يجتمعا، وُجِدَت حُبْلَى من الروح القدس". (متى ١: ١٨).

كما يخبرنا القديس لوقا عندما أخبرت مريم عن ابنها المقدس: "فقالت مريم للملاك: «كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلًا»؟ فأجاب الملاك وقال لها: «الروح القدس يحل عليك، وقوة العلي تُظَلِّلُكِ، فلذلك أيضًا القدوس المولود منك يُدْعَى ابن الله»". (لوقا ١: ٣٤، ٣٥).

إذًا كانت ولادة عيسى بمعجزة بينما كانت ولادة كل من موسى ومحمد ولادة طبيعية، لذا فإن عيسى ليس مثل موسى، بل محمد مثل موسى.

٣. تزوج كل من موسى ومحمد وأنجبا أولادًا، بينما لم يتزوج عيسى وبقي عَزَبًا طوال حياته، إذًا: عيسى ليس مثل موسى، بل محمد مثل موسى.

٤. اعتنق اليهود ديانة موسى في حياته، كما اعتنق العرب الإسلام في حياة محمد، ولقد عانى موسى من شعبه كثيرًا، ولكنهم في النهاية قبلوه نبيًّا أرسل إليهم، كما عانى محمد من العرب واضطر إلى الهجرة للمدينة المنورة بعد ثلاث عشرة سنة من الإقامة في مكة، واعتنق العرب الإسلام قبل وفاته وقبلوه نبيًّا أرسل إليهم، بينما يقول الكتاب المقدس عن المسيح: "إلى خاصته جاء، وخاصته لم تقبله". (يوحنا ١١: ١).

وحتى هذا اليوم وبعد ألفي عام، فإن شعبه أو خاصته - اليهود - لم تقبله. إذًا عيسى ليس مثل موسى، بل محمد مثل موسى.

٥. كان موسى ومحمد نبيين ورئيسي دولة - ملكين - والمعنى بكلمة نبي شخص يتنزل عليه وحي سماوي لإرشاد البشرية، والوحي الذي يتنزل عليه ينقله إلى البشر دون إضافة أو نقصان، ورئيس الدولة أو الملك شخص لديه القرار بالحكم بالموت أو الحياة

على أتباعه، ولا يهم إذا وضع رئيس الدولة أو الملك تاجًا على رأسه أو اكتسى لباس الملك، أو لباس رئيس الدولة، فإن تمتع بالقدرة على إنزال العقوبة القصوى فهو ملك.

امتلك موسى هذه القدرة، ففي قصة الإسرائيلي الذي كان يجمع الحطب يوم السبت، أمر برجمه حتى الموت: "فأخرجه كل الجماعة إلى خارج المحلة ورجموه بحجارة، فمات كما أمر الرب موسى". (العدد ١٥: ٣٦).

وهنالك جرائم أخرى مذكورة في الكتاب المقدس أمر موسى فيها بالعقوبة القصوى على اليهود، وتمتع محمد أيضًا بالقرار لإصدار الأحكام بالموت على أتباعه.

وهنالك نبوءات في الكتاب المقدس عن أنبياء لم يتمكنوا من تنفيذ الوحي السماوي على البشر، وقد فشل هؤلاء القدِّيسون في إقناع الناس بدعواتهم، كلوط ويونان ودانيال وعزرا ويوحنا المعمدان، لقد بلَّغوا الرسالة فقط ولم يتمكنوا من تطبيقها، وللأسف فإن سيدنا عيسى ينتمي إلى هذه المجموعة، والكتاب المقدس يؤكد هذه الحقيقة.

عندما أُحضِر عيسى أمام الحاكم الروماني بيلاطس متهمًا بقذف الدولة، دفع التهمة الباطلة عنه بحجة مقنعة قائلًا: "أجاب يسوع: «مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم، لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود. ولكن الآن ليست مملكتي من هنا»". (يوحنا ١٨: ٣٦).

أقنعت هذه الحجة بيلاطس الوثني بأن عيسى لا يتملك قواه الفعلية، ولا يشكل خطرًا على حكمه، لقد ادعى عيسى مملكة سماوية فقط، أي بعبارة أخرى ادعى أنه نبي فقط. إذًا عيسى ليس مثل موسى، بل محمد مثل موسى.

٦. لقد أدخل كل من موسى ومحمد تعاليم وقوانين جديدة لأتباعهما وشعبيهما، ولم تقتصر دعوة موسى بوضع الوصايا العشر للإسرائيليين، بل اشتملت أيضًا على طقوس وقوانين شاملة لرشاد شعبه، ولقد ظهر محمد في وقت كان العرب فيه في جهل وبربرية عمياء. كان العربي في ذلك الزمن يتزوج زوجة أبيه وَيَئِدُ بناته أحياء، وكان يتعاطى الخمر ويمارس الزنا، وكانت عبادة الأصنام والمقامرة شغله الشاغل.

ويصف جيبون العرب قبل الإسلام في كتابه "سقوط وتدهور الإمبراطورية الرومانية" قائلًا: "يصعب تمييز الصفات الإنسانية عن الصفات البهيمية الحيوانية، يصعب التمييز فيها بين الإنسان والحيوان، لقد كان الإنسان في تلك الفترة بَهِيمَةً في صورة إنسان".

ومما لا شك فيه أن محمدًا قد انتَشَل العرب من هذه البربرية الوضعية، كما يقول توماس كارليل، وجعلهم حَمَلة مِشْعل النور والمعرفة: "لقد كان ذلك بالنسبة للعرب ولادة من ظلام إلى نور، ولقد ولد بسببه شعب رعاة تائه في صحرائه منذ بدء الخليقة، ترى المنسيَّ ملء سمع العالم، والصغير كبيرًا، وأصبحت الجزيرة العربية خلال قرن واحد من الزمان في غرناطة من جهة ودلهي من جهة أخرى ـ تضيء شجاعة وبهاء، ونور العبقرية يشع على الجزيرة العربية وعلى أجزاء كبيرة من العالم، لقد أعطى محمد شعبه قانونًا ونظامًا لم يعرفه من قبل.

شك اليهود في أن عيسى قد يكون أفَّاكًا يريد إفساد تعاليمهم، ولقد حاول عيسى جاهدًا أن يؤكد لهم بأنه لم يأتهم بدين جديد - لا قوانين جديدة ولا تعاليم جديدة - وهي هي أقواله: "لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل". (متى ٥: ١٧، ١٨).

وبعبارة أخرى، فإنه لم يأت بقوانين جديدة أو تعاليم جديدة، بل أتى لإنجاز الناموس القديم. هذا ما أراد عيسى أن يُفهِمَه لليهود، إلا إذا كان يخدعهم ليقبلوه نبيًّا - محاولًا فرض دين جديد عليهم، ولكن لا يلجأ هذا النبي العظيم إلى هذه الوسيلة لتخريب دين الله. هو نفسه قد أنجز الناموس وأتمه، وتقيَّد بالوصايا، واحترم السبت، فلم يتهمه أي يهودي يومًا ما قائلًا: لماذا لم تصم، أو لماذا لم تغسل يديك قبل تناول الخبز، صحيح أن التهم ألصقت بتلاميذه، لكنه هو نفسه لم يُرْمَ بأية تهمة مطلقًا، ولو لمرة واحدة، وذلك لأنه كيهودي مؤمن احترم تعاليم الأنبياء الذين سبقوه، وبإيجاز فإنه لم يأت بدين جديد ولا تعاليم جديدة كما فعل موسى ومحمد. إذًا: عيسى ليس مثل موسى، بل محمد مثل موسى.

٧. دُفن موسى ومحمد في التراب في هذه الأرض، بينما يقول النصارى إن عيسى في السماء، إذًا عيسى ليس مثل موسى، بل محمد مثل موسى.

لقد حاولنا حتى الآن التركيز على زاوية واحدة فقط من هذه النبوءة، أي "أقيم لهم نبيًّا مثلك"، مثلك أنت؛ أي: مثل موسى، ولكن النبوءة تقول أكثر من هذه العبارة: "أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك".

سنركز الآن على العبارة: "من وسط إخوتهم" يخاطب الله اليهود هنا، موسى وشعبه كمجموعة عرقية، لذا فإخوتهم هم حتمًا العرب، يخبرنا الكتاب المقدس أن إبراهيم خليل الله كان له زوجتان: سارة وهاجر. وولدت هاجر لإبراهيم ولدًا - البِكْر - يذكر الكتاب المقدس أن اسم إبراهيم كان أبرام، ثم غيَّره الله إلى إبراهيم: "فولدت هاجر لأبرام ابنًا. ودعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل". (التكوين ١٦: ١٥).

"فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه، وجميع ولدان بيته، وجميع المبتاعين بفِضَّته، كل ذكر من أهل بيت إبراهيم، وختن لحم غُرْلَتهم في ذلك اليوم عينه كما كلمه الله... وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته". (التكوين ١٧: ٢٣- ٢٥).

كان إسماعيل الابن الوحيد لإبراهيم وذرية إبراهيم عندما جدَّد الله العهد مع إبراهيم. أعطى الله إبراهيم ولدًا آخر من سارة، وكان اسمه إسحاق، وكان أصغر من أخيه إسماعيل. إسماعيل وإسحاق هما ابنا الأب الواحد إبراهيم، فهما أخوان. إذًا فأولاد الأخ هم إخوة أبناء الأخ الآخر. أولاد إسحاق هم اليهود، وأولاد إسماعيل هم العرب، فهم إذًا إخوة، يؤكد الكتاب المقدس فيقول: "وإنه يكون إنسانًا وحشيًّا، يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن". (التكوين ١٦: ١٢). "وسكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر حينما تجيء نحو أشور. أمام جميع

إخوته نزل". (التكوين ٢٥: ١٨). أولاد إسحاق هم إخوة أولاد إسماعيل، ومحمد من أولاد إسماعيل إخوة بني يعقوب ـ الإسرائيليين ـ هذا ما تقوله هذه النبوءة: "أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك...". (التثنية ١٨: ١٨)، تحدد النبوءة بوضوح أن هذا النبي الذي يكون مثل موسى لن يكون من الإسرائيليين، بل من إخوتهم، وكان محمد من إخوتهم. إذًا كانت النبوءة تتحدث عن محمد.

وتتابع النبوءة فتقول: "... وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به". (التثنية ١٨: ١٨). فما هو المقصود بهذه العبارة عندما تقول: "اجعل كلامي في فمه"؟ إذا طلبنا إليك أيها القارئ العزيز أن تردد من بعدنا عبارة، فإننا نكون قد جعلنا كلامنا في فمك، أو إذا أردنا أن نعلمك لغة أجنبية، وقلنا لك: ردد من بعدنا، فإننا نضع الكلمات في فمك. وهكذا فإن القرآن الكريم يصدق هذه النبوءة من خلال الوحي الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ، وسنرى فيما يلي كيف جعل الله كلامه في فمه.

يخبرنا التاريخ أن محمدًا كان في الأربعين من عمره في كهف على بُعد ثلاثة أميال من مكة يُدْعَى "غار حراء"، وفي الليلة السابعة والعشرين من شهر رمضان نزل الملاك جبريل عليه السلام على محمد فقال له: "اقرأ"، فأجابه محمد: "ما أنا بقارئ"، يعني: أنه لا يعرف القراءة، فطلب إليه جبريل للمرة الثانية، وسمع منه نفس الجواب، وفي المرة الثالثة قال له جبريل: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ (العلق)، تأكَّد عندئذ لمحمد أن عليه أن يردد ما قاله جبريل، فردد الكلمات التي وضعت في فمه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ (العلق)، هذه هي الآيات الخمس الأولى التي أنزلها الله على محمد، وهي أولى الآيات في سورة العَلَق.

عاد محمد ﷺ إلى منزله من الغار، بعد أن تركه الملاك جبريل يرتعد خوفًا، وطلب إلى زوجته خديجة أن تضع عليه غطاء، وبعد أن استراح وهدأت نفسه شرح لزوجه ما سمعه ورآه، فشجعته وشدت من عزيمته، قائلة له: لا يريد الله بك شرًّا. هل هذه اعترافات أفَّاك أو محتال؟ هل يعترف الأفاك عندما يقابل ملاكًا أرسله الله، يخاف يرتعد، يتعرق، ويجري مسرعًا إلى منزله؟ لا يمكن لأي إنسان مهما كان متحيزًا إلا أن يُقرَّ ويعترف بأن هذه الانفعالات والاعترافات لا تصدر إلا عن إنسان صادق أمين.

وخلال الثلاث والعشرين سنة من نبوة محمد "وضعت في فمه" آثار راسخة لا تمحى من قلبه وعقله، ومع استمرار نزول القرآن الكريم وحيًا عليه كانت هذه الكلمات التي وضعت في فمه تُسجَّل على جلد الحيوان، وعلى قلوب صحابته، وقد رتبت هذه السور قبل وفاته وجمعت ووضعت على الشكل الذي نرى عليه القرآن الكريم اليوم. كلمات الله ـ الوحي ـ وضعت في فمه، كما تقول النبوءة: "... وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به".

إن تجربة محمد في الغار في الجبل الذي أُطلق عليه اسم "جبل النور"، وتجاوبه مع أولى كلمات الوحي ـ ينطبق أيضًا على نبوءة أخرى في سفر إشعياء، والتي تقول: "أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة

ويُقال له: «اقرأ هذا». فيقول: «لا أعرف الكتابة». (النبي الأمي) لقد أجاب محمد ﷺ جبريل عليه السلام بقوله: "ما أنا بقارئ"، وتقول النبوءة: "يُدفع الكتاب لمن لا يعرف القراءة ويُقال له: «اقرأ»، فيقول: «لا أعرف القراءة»". (إشعياء ٢٩: ١٢).

لم يكن يوجد كتاب مقدس في اللغة العربية في القرن السادس الميلادي في الفترة التي ظهر فيها محمد، إضافة إلى أن محمدًا كان أميًّا لا يعرف القراءة أو الكتابة، لم يتعلم من أي إنسان حرفًا، بل علّمه خالقه شديد القوى كل شيء: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ (النجم).

وقد يجيب المسيحي قائلًا: لا بأس بكل ما تقدم من أدلة وبراهين، ولكني كمسيحي أؤمن بأن عيسى المسيح هو الله، وقد خلصنا من الخطيئة. والجواب على هذا بأن الله ﷻ لا يقبل هذا الكلام؛ لأنه أمر بتسجيل تحذيره. يعلم الله بأنه سيأتي زمن يترك فيه الناس كلامه ويفسرونه كما يشاءون ويرغبون، لذا فإنه أتبع هذه الفقرة من التثنية: "وأجعل كلامي في فمه". (التثنية ١٨: ١٨)، وحذر الناس قائلًا: "ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه". (التثنية ١٩: ١٨).

ألا يخيفك هذا التهديد والوعيد يا أخانا المسيحي؟ معجزة المعجزات! ففي التثنية دليل آخر على تحقيق النبوءة التي تشير إلى النبي محمد ﷺ الذي سيتكلم كلامًا باسم الله: "لكلامي الذي يتكلم به باسمي"، فويل للإنسان الذي لا يسمع ويطيع كلامه ـ كلام الله ـ فالله سيطالبه وسيحاسبه.

نسألك أيها الأخ: مَنْ قبل محمد تكلم باسمه تعالى؟ وأنت ترى وتسمع الكلام الذي أنزل على محمد ـ القرآن الكريم ـ تبدأ كل سورة فيه بالآية الكريمة: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ حتى صارت هذه الآية شعار المسلم عند قيامه بأي عمل، فكيف تقبل أيها المسيحي أن تخالف الأمر الذي نزل في كتابك المقدس، وأن تنحرف عن مقولة "باسم الله" لتبدلها بشعار "باسم الآب والابن والروح القدس"؟!

أضف إلى ما سبق أن مجلة "التايم" الأمريكية ـ الصادرة في ١٥ تموز ١٩٧٤ ـ نقلت آراء مؤرخين وكتبة وقادة عسكريين ورجال أعمال عن الموضوع: من هم أعظم رجال التاريخ؟

قال البعض: هتلر، وقال آخرون: غاندي، بوذا، لنكولن، ومن شابههم.

وضع جول ماسرمان ـ وهو عالم نفساني أميركي مشهور ـ معيارًا للحكم، وقال: إن على القائد أن ينجز ثلاث وظائف:

- أن يؤمِّن الخير للذين يقودهم.
- أن يؤمِّن نظامًا اجتماعيًّا يوفر الأمان لأتباعه.
- أن يقدم لهم مجموعة معينة من العقائد.

سلط هذا البروفيسور هذا المعيار على التاريخ وحلل شخصياته: الإسكندر، بوذا، هتلر، باستور، سالك، قيصر، موسى، عيسى، كونفوشيوس، وغيرهم، ووصل في الختام إلى هذه النتيجة:

- أنجز باستور وسالك الوظيفة الأولى.
- أنجز عيسى وبوذا الوظيفة الثانية.
- أنجز محمد أعظم القادة في كل الأزمنة

الوظائف الثلاث مجتمعة، وشاركه موسى بهذا الإنجاز ولو بدرجة أقل.

غابت صورتا عيسى وبوذا من لوحة رجال الإنسانية العظام حسب هذا المعيار الموضوعي الذي وضعه هذا البروفيسور الكبير في جامعة شيكاغو، وكانت النتيجة - وبمَحْض الصدفة - انتماء موسى ومحمد إلى نفس المجموعة من الرجال العظام، مما أضاف دليلًا آخر على الأدلة والبراهين التي سبق الإتيان بها وشرحها وتفصيلها على أن: عيسى ليس مثل موسى، بل محمد مثل موسى: "أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به"[1] ®.

ولو سَلَّم أهل الأديان السابقة بهذه النبوءة الصادقة الواردة في أصولهم - خاصة قبل التحريف - لانحلت المشكلة وآمنوا بالإسلام دينًا سماويًّا ووحيًا صحيحًا نزل على نبي صادق، لكن إنكارهم ألجأهم مع من تابعهم في مزاعمهم إلى تلك الافتراءات المذكورة سلفًا في حق الإسلام ونبيه، وأنه استوحاه من كتبهم وأبدعه من تلقاء نفسه بعد نوبات هستيريا وصرع كانت تنتابه - كما يزعمون.

١. أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، ترجمة: د. عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٥٥: ١٦٩ بتصرف. المسلمون في إنجيل متى، د. ممدوح جاد، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢١١. آلام المسيح: رؤية نقدية إسلامية، ياسر أنور، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ص٧٤.

® في **"البشارة بمحمد في التوراة"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية. وفي **"البشارة بمحمد في الإنجيل"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة عشرة؛ من هذا الجزء.

ثانيًا. هل اقتبس النبي دينه من الحنفاء؟

الحنفاء أفراد قلائل من العرب دانُوا في الجاهلية ببقايا مبادئ الحنيفية دين إبراهيم ، ساخطين على ما عجَّت به أحوال المجتمع الجاهلي من عبادات وثنية وضيعة وأحوال مُتَرَدِّية دنيئة، لكن أمر هؤلاء الحنفاء - لندرتهم واعتزالهم في الغالب - لم يكن ظاهرًا، وحركتهم لم تكن ملحوظة، وفي تفنيد احتمال اقتباس النبي ﷺ منهم يقول د. إبراهيم عوض: زعم المستشرقون أن النبي ﷺ قد أخذ منهم: الحنفاء، وهم أفراد من العرب ظهروا قبيل البعثة النبوية، لم يقنعهم ما عليه أقوامهم من عبادة أصنام وتظالم، وغير ذلك من مظاهر التحلل الروحي والفساد الاجتماعي.

وبدلًا من أن يرى المستشرقون في ذلك دليلًا على أن الجو كان يستدعي ظهور نبي يُصلح هذه الحال المائلة في جزيرة العرب وفي العالم معًا، إذ كانت الأوضاع في الإمبراطوريات العالمية في ذلك الوقت مثلها في شبه الجزيرة تزداد سوءًا - بل إلى أسوأ دائمًا، نراهم كعهدهم فيما يتعلق بالإسلام ونبيه، يتهمونه ﷺ بالأخذ من هؤلاء الحنفاء.

وفي مناقشتنا لهذا الادعاء نحب أن نضع تحت بصر القارئ الحقائق الآتية:

- إن أحدًا من الحنفاء لم يدَّع هذا، ولو حدث أن النبي قد تعلم من أي منهم لانبرى[2] واحد منهم على الأقل - وليكن أمية بن أبي الصلت، الذي لم يشأ أن يؤمن بالنبي ﷺ؛ لأنه كان يطمع أن يكون

٢. انبرى: اعترض أو تصدَّى.

هو الرسول المختار ـ وقال: لا تصدقوا محمدًا، فإنه دَعِيٌّ كذاب، لقد تعلم منا، وأخذ ما علمناه إياه ولفَّق منه دينًا.

ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، فكيف يحق لأي مستشرق أن يتقدم بهذا الاتهام بعد أكثر من أربعة عشر قرنًا، وليس في يديه أي دليل؟ أهذه هي الموضوعية التي يتشدَّقون[1] دائمًا بها، بينما يرموننا ـ نحن المسلمين ـ بأننا ندافع عن ديننا بالحق والباطل وكل السبل؟!

- ثم إن محمدًا ﷺ لو كان قد تعلم من الحنفاء، فمن كان أولى إذن بادعاء النبوة؟ واحد من الأساتذة الأصلاء أم محمد تلميذ هؤلاء الأساتذة الأجلاء؟

ولا يقولن أحد: إنهم كانوا مشغولين فقط بمصايرهم الفردية، فقد كانوا دائمًا يعيبون على أقوامهم قبح ما يعتقدون ويصنعون، وكان لبعضهم مواعظ في الأسواق والمجامع، ولكن أحدًا منهم قط لم يدّعِ النبوة، فما السبب في ذلك ما دام ادعاؤها سهلًا إلى حد أن تلميذًا من تلاميذهم مثل محمد قد زعم أنه نبي يوحى إليه من السماء.

- أضف إلى هذا أن من الحنفاء من أسلم وآمن بما جاء به النبي ﷺ، فقد أسلم ورقة بن نوفل بعد أن استحكم في النصرانية، كما أسلم أيضًا عبيد الله بن جحش بعد الالتباس الذي كان فيه، ثم ظل مسلمًا إلى أن هاجر إلى الحبشة، وهناك تنصَّر ومات على النصرانية، ولا يفوتنا أنه لو كان سمع أو شهد أن محمدًا قد سرق أفكاره من أحد لما آمن به في البداية أو لفضحه بذلك عند النجاشي ومطارنته[2].

ومن الحنفاء أيضًا عثمان بن الحويرث، وقد قدم على قيصر فتنصَّر وحسنت منزلته لديه (لاحظ أن من تنصَّر منهم قد تنصر في الغربة). ويذكرون أن قيصر توَّجه وولّاه أمر مكة ولكن أهل مكة رفضوه. وقد مات بالشام مسمومًا على يد عمرو بن جفنة الملك الغساني، وهو ما يعطينا فكرة عن نواياه ودوافعه.

أما زيد بن عمرو بن نفيل فقد اتبع دين إبراهيم واعتزل الأوثان والميتة والقرابين، ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وقد دخل في الإسلام ابنه سعيد بن زيد، وابن عمه عمر بن الخطاب، وابنة عمه (أخت عمر وزوجة سعيد بن زيد نفسه) فلو أن سعيدًا هذا أحس أن محمدًا قد تعلم من أبيه أو لو أن أباه صارحه بشيء من ذلك لما أسلم البتة، أو لو أن عمر صاحب العين اليقظة والعقل اللماح واللسان الجريء حاكت في قلبه أية ذرة من ريبة حول محمد وأخذه المزعوم عن الحنفاء أو عن ابن عمه بخاصة لـمَّا دخل في الإسلام أبدًا[3].

ويضاف إلى ما سبق أن ما كان باقيًا وقتها من مبادئ الحنيفية لم يكن سوى أفكار باهتة، ولمع خافتة لم تنر طريق السائرين عليها بشكل تام فظلوا تائهين هائمين ـ كما يروى عن كثير منهم ـ حتى جاء الإسلام، فأين هذا من الصرح العظيم الهائل الكامل؛ عقيدة وشريعة، عبادة ومعاملة ؟! ذلك الدين الحنيف الذي أظهره الله على الدين كله رغم أنف الصادين المعاندين.

---

١. يتشدَّقون: يتكلمون.

٢. المَطارِنَة: جمع مطران، وهو رئيس الكهنة عند النصارى، وهو فوق الأسقف ودون البطريرك.

٣. مصدر القرآن، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص١٢٩: ١٣٦ بتصرف.

ثالثًا. هل الإسلام دين محرف عن اليهودية والنصرانية؟

بغَضِّ النظر عن المزاعم التافهة القائلة بأنه ﷺ قد أخذ عن بحيرا الراهب، الذي لَقِيَه بشكل عابر في رحلة تجارية إلى الشام، وهو ﷺ ما يزال صغيرًا، كما تروي المصادر التاريخية. أو عن ورقة بن نوفل الذي صدقه فور علمه بخبر نزول الوحي عليه، عندما أخذته إليه السيدة خديجة - رضي الله عنها - كما تروي المصادر أيضًا، ولم يكذبه ولم يزعم أنه تلميذ دَعِيٌّ - بغض النظر عن كل هذه المزاعم الواهية، التي لا تثبت على ساقين، فإن المقارنة العلمية لجوهر هذه الأديان - الذي يستوحى من كتبها المقدسة - توضح بُعد الشُّقَّة[1] واتساع البون بين مبادئ الإسلام وبين هذه الأديان السابقة المدعى عليه أنه نسخة محرفة منها.

حول هذه المقارنة يحدثنا الأستاذ أحمد عبد الوهاب، قائلًا:

١. الإله:

يرفض المسلم كل قول ينسب لله تجسيدًا أو تشبيهًا، أو حلولًا في أشياء، وما إلى ذلك من أوهام وضلالات، كما يرفض كل حديث يصور الله وقد لحقت به عواطف الإنسان وانفعالاته وضعفه، فكل ذلك باطل الأباطيل.

إن القاعدة الأصلية التي يقوم عليها فكر المسلم في الإله الحق - أنه واحد أحد صمد: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص)، وأنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، وأنه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ (الأنعام: ١٠٣)، وأنه ﷻ: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ (البقرة: ٢٨٤)، وأنه: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ (الروم).

وفيما يلي بعض ما يرفضه الفكر الإسلامي مما نجده في الأسفار: خاصًّا بهذا الموضوع الخطير، بل إنه أخطر موضوعات العقيدة على الإطلاق:

- **الراحة بعد خلق السماوات والأرض:** يقول سفر التكوين: "وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدَّسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقا". (التكوين ٢: ٢، ٣).

ولقد صحَّح الله تعالى هذا المفهوم في القرآن الكريم فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ (ق)، وفي صيغة استفهام استنكاري نقرأ قول الحق: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ (ق).

- **الندم على خلق الإنسان وغيره:** "ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثُر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه. فقال الرب: «أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم»". (التكوين ٦: ٥ - ٧).

لكن القرآن يصحِّح المفاهيم حول عمليات الخلق، فيقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ

١. الشُّقَّة: المسافة.

﴿مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (الدخان)، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ (القمر)، ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ (السجدة: ٧)، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ (الرعد)، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ (الأنعام).

- **بلبلة ألسنة البشر ليتفرقوا فلا يتقدموا في الحياة**[1]: "وكانت الأرض كلها لسانًا واحدًا ولغة واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقًا أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض: «هلُمَّ نصنع لبنًا ونشويه شيًّا». فكان لهم اللبن مكان الحجر، وكان لهم الحمر مكان الطين. وقالوا: «هلم نَبْنِ لأنفسنا مدينة وبُرْجًا رأسه بالسماء. ونصنع لأنفسنا اسمًا لئلا نتبدد على وجه كل الأرض». فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب: «هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض». فبدَّدهم الرب من هناك على وجه كل الأرض، فكفوا عن بنيان المدينة، لذلك دعى اسمها «بابل» لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض". (التكوين ١١: ١ـ ٩).

لكن القرآن يعلم الناس جميعًا أن اختلاف ألسنتهم كاختلاف ألوانهم، إنما هو آية دالة على قدرة الله وبديع صنعه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (الروم). ويعلمنا القرآن أن الله يرضى عن تقدم الإنسان في هذه الحياة، إذ يقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الجاثية).

- **مصارعة إنسان والعجز عن التغلب عليه**: إنها حقًّا تصدم كل مسلم حين يقرأ هذا العنوان الفرعي في الأسفار: "يعقوب يُصارع الله"، تقول هذه الأسطورة: "فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه، ضرب حُقَّ فَخْذه، فانخلع حُقُّ فَخْذ يعقوب في مصارعته معه. وقال: «أطلقني، لأنه قد طلع الفجر». فقال: «لا أطلقك إن لم تباركني». فقال له: «ما اسمك؟» فقال: «يعقوب». فقال: «لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقَدَرْتَ». وسأل يعقوب وقال: «أخبرني باسمك». فقال: «لماذا تسأل عن اسمي»؟ وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان «فَنِيئيل» قائلًا: «لأني نظرت الله وجهًا لوجه، ونُجِّيَتْ نفسي»". (التكوين ٣٢: ٢٤ـ ٣٠).

ونجد في القرآن ما يعزينا عن مثل تلك الأوهام، ومثيلاتها كثير، حين نقرأ قول الحق: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ (الحج).

- **الحلول في الإنسان**: تلك عقيدة مستقاة من أساطير الأقدمين، هنودًا ومصريين وإغريق وغيرهم، حيث تصوروا أن آلهتهم تحل في الإنسان، بل في الحيوان والطير، ولهذا عبدوا تلك المخلوقات وسجلوا

---

١. بَلْبل اللهُ ألسنةَ الخلق: فرَّقها.

ضلالاتهم هذه على معابدهم وآثارهم، وها هو كاتب إنجيل يوحنا ينفرد ـ دون غيره من كتبة الأناجيل ـ بتقرير أن الله قد حلَّ في المسيح، إذ ينسب إليه هذا القول: "ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيَّ؟ الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي، لكن الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال. صدقوني أني في الآب والآب فيَّ، وإلا فصدقوني لسبب الأعمال نفسها". (يوحنا ١٤: ١٠، ١١).

وفكرة الحلول هذه التي تسربت إلى الإنجيل الرابع ـ قد جاءت من رسائل بولس الهلينستي التي كتبت قبله بأكثر من خمسين عامًا، فقد كتب يقول عن المسيح: "فإنه فيه يَحِلُّ كلُّ مِلْءِ اللَّاهوت جسديًّا". (رسالة بولس إلى أهل كولوسي ٢: ٩).

إن القول بأن المسيح إله أو ابن إله، وأنه الأقنوم الثاني من الثالوث، أو أن الله قد حلَّ فيه، كل ذلك قد تسرب إلى المسيحية من الديانات البشرية القديمة. لقد وصف القرآن الذين يعتنقون مثل هذه الأفكار بأنهم يحاكون ما كان عليه قدامى الكافرين، وذلك في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ (التوبة: ٣٠).

يقول أدولف أدمان في كتابه "ديانة مصر القديمة" عند الحديث عن معتقدات المصريين القدماء: "اعتقد المصري أن روح الإله تسكن الحيوان المقدس في معبده. وقد أعطى هذا الاعتقاد رجال الدين المتفقهين فيه فرصة طيبة لكي يضموا في تعاليمهم هذه الحيوانات المقدسة، فتمتعت العجول والتيوس والبقر والصقور والتماسيح والثعابين بقداسة لا شك فيها. وانتهى الأمر بهم أنهم لم يكتفوا بجعل روح واحدة لكل إله، بل زادوا العدد، فمثلًا رع كانت له سبعة أرواح. ولما كان الملك في اعتقادهم ذا صفات إلهية؛ لذلك وجب أن يكون له أرواح كثيرة. ويكفينا أن نختم هذه الكلمة بحقيقة أخرى وهي أن الإله يمكن أن يكون بمثابة روح لإله آخر. فمثلًا آمون كان روح شو أو روح أوزوريس، وعندما عانق أوزوريس إله منديس المثل على شكل التيس ـ تكون من هذا العناق روح مزدوجة".

إن الإسلام حازم وواضح تمامًا في كل ما يتعلق بألوهية المسيح، فالقرآن يقول: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ (الزخرف)، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ (مريم)، وقال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ

وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ (المائدة).

إن المسيح ليتبرَّأ من كل من يحاول الخلط بينه وبين الله، أو ينسب له ألوهية على أي صورة من الصور، فلا يزال قوله الحق في الأناجيل واضحًا وضوح الشمس في رابعة النهار، وغير محتاج إلى شرح المفسرين وتأويل المُتَفَيْهِقين[1]: "وفيما هو خارج إلى الطريق، ركض واحد وجَثَا[2] له وسأله: «أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟» فقال له يسوع: «لماذا تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله»". (مرقس ١٠: ١٧، ١٨، متى ١٩: ١٦، ١٧، لوقا ١٨: ١٨، ١٩).

لقد أجمعت الأناجيل الثلاثة ـ التي لا تعرف شيئًا عن الزعم بحلول الله في المسيح ـ على هذه الحقيقة الأساسية التي هي المفتاح لحل الخلافات العقائدية بين المسيحيين أنفسهم، وبينهم وبين المسلمين. لقد كان ما قرره المسيح هنا متفقًا تمامًا مع ما يقرره القرآن في آيات كثيرة من أبرزها: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ (النحل)، ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ (الروم: ٢٧)®.

٢. الأنبياء:

إن المسلم ليرفض كل ما أُلحِقَ بسِيَر الأنبياء من نقائص ومخازٍ، فهم عباد الله المصطفون الأخيار، جعلهم الله هداة للبشرية وأسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، فالقرآن يقول فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ (مريم)، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ (الأنبياء).

تلك هي عقيدة المسلم في أنبياء الله، ومن ثم فهو ينكر بل يستنكر كل الخطايا والسقطات التي نقرؤها عنهم في الأسفار، ومن أمثلة ذلك ما يقال عن:

- **زنا لوط بابنتيه:** وكان من ثمرته ابنا الزنا موآب وعمون ومن ذرية أولهما جاء داود: "وصعد لوط من صُوغَر وسكن في الجبل، وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة: «أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلم نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه، فنُحْيِي من أبينا نَسْلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: «إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرًا الليلة أيضًا فادخلي اضطجعي معه، فنحيي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنا ودعت اسمه «موآب»، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضًا

---

١. المُتَفَيْهِقين: المقصود بهم: الثرثارون والمتكلمون بتوسع وبلا احتياط أو احتراز.

٢. جَثَا: جلس على رُكْبَتيه.

® في **"إبطال الإسلام والعقل لعقيدة الحلول والاتحاد"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة العشرين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

ولدت ابنا ودعت اسمه «بن عمِّي»، وهو أبو بني عمُّون إلى اليوم". (التكوين ١٩: ٣٠ـ٣٨).

- **خيانة موسى وهارون لله**: وكان هذا الاتهام الخطير هو آخر وحي تلقاه موسى قبل موته، فقد كلم الرب موسى في نفس ذلك اليوم قائلًا: "وكلم الرب موسى في نفس ذلك اليوم قائلًا: «اصعد إلى جبل عَبَارِيم هذا، جبل نَبُو الذي في أرض موآب الذي قبالة أريحا، وانظر أرض كنعان التي أنا أعطيها لبني إسرائيل مُلْكًا، ومت في الجبل الذي تصعد إليه، وانضم إلى قومك، كما مات هارون أخوك في جبل هور وضم إلى قومه. لأنكما خنتماني في وسط بني إسرائيل عند ماء مريبة قادش في بريَّة صِين، إذ لم تُقدِّساني في وسط بني إسرائيل". (التثنية ٣٢: ٤٨ ـ ٥١).

لكن القرآن الكريم يبرئ موسى وهارون من هذه الخيانة وأمثالها، فيقول: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾﴾ (مريم)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ (الصافات).

- **زنا داود بامرأة أُوريَّا الحِثِّي**: ثم تآمر عليه وقتله: "وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشَّى على سطح بيت المَلِك، فرأى من على السطح امرأة تَسْتَحِمُّ. وكانت المرأة جميلة المنظر جدًّا. فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: «أليست هذه بَثْشَبع بنت أَلِيعام امرأة أُوريَّا الحِثِّي؟». فأرسل داود رُسُلًا وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مطهرة من طَمْثِها. ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: «إني حبلى». فأرسل داود إلى يُوآب يقول: «أرسل إلى أوريا الحثي». فأرسل يوآب أوريا إلى داود. فأتى أوريا إليه، فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب. وقال داود لأوريا: «انزل إلى بيتك واغسل رجليك». فخرج أوريا من بيت الملك، وخرجت وراءه حصة من عند الملك. ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده، ولم ينزل إلى بيته. فأخبروا داود قائلين: «لم ينزل أوريا إلى بيته». فقال داود لأوريا: «أما جئت من السفر؟ فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟» فقال أوريا لداود: «إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام، وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي؟ وحياتك وحياة نفسك، لا أفعل هذا الأمر». فقال داود لأوريا: «أَقِمْ هنا اليوم أيضًا، وغدًا أطلقك». فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده. ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره. وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده، وإلى بيته لم ينزل. وفي الصباح كتب داود مكتوبًا إلى يوآب وأرسله بيد أوريا. وكتب في المكتوب يقول: «اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت». وكان في محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا في الموضع الذي

علم أن رجال البأس فيه. فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب، فسقط بعض الشعب من عبيد داود، ومات أوريا الحثي. فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب. وأوصى الرسول قائلًا: «عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب، فإن اشتعل غضب الملك، وقال لك: لماذا دنوتم من المدينة للقتال؟ أما علمتم أنهم يرمون من على السور؟ من قتل أبيمالك بن يَرُبُّوشَث؟ ألم تَرْمِه امرأة بقطعة رَحًى من على السور فمات في تاباص؟ لماذا دنوتم من السور؟ فقل: قد مات عبدك أوريا الحثي أيضًا». فذهب الرسول ودخل وأخبر داود بكل ما أرسله فيه يوآب. وقال الرسول لداود: «قد تجبَّر علينا القوم وخرجوا إلينا إلى الحقل فكنا عليهم إلى مدخل الباب. فرَمَى الرُّماة عبيدك من على السور، فمات البعض من عبيد الملك، ومات عبدك أوريا الحثي أيضًا». فقال داود للرسول: « هكذا تقول ليوآب: لا يَسُؤْ في عينيك هذا الأمر، لأن السيف يأكل هذا وذاك. شدِّدْ قتالك على المدينة وأخربها. وشدِّده». فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها، ندبت بَعْلَها. ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته، وصارت له امرأة وولدت له ابنا. وأما الأمر الذي فعله داود فقَبُح في عيني الرب". (صموئيل الثاني ١١: ٢ـ ٢٧).

ويكفي أن نقرأ ما يقوله القرآن الكريم في شأن داود حتى نقول كما علمنا القرآن في مواجهة مثل تلك التُّهَم الخطيرة أن نقول: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ (النور). فالقرآن يقول في داود: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ (الإسراء)، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ (سبأ).

- **كفر سليمان في أواخر أيامه**: "وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون: موآبيَّات وعمُّونيَّات وأدُوميَّات وصِيدُونيَّات وحِثِّيَّات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل: «لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم». فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة. وكانت له سبعمائة من النساء السيدات، وثلاثمائة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أَمَلْنَ قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملًا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عَشْتُورَث إلهة الصِّيدُونيِّين، ومَلْكُوم رِجْس العمُّونيِّين. وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يَتْبَع الرب تمامًا كداود أبيه. حينئذ بني سليمان مرتفعة لكَمُوش رِجْس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمُولَك رجس بني عمُّون. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كُنَّ يُوْقِدْنَ ويَذْبَحْنَ لآلهتهن. فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين، وأوصاه

في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب". (الملوك الأول ١١: ١ ـ ٩).

لكن القرآن يذكر سليمان بالخير ويبرئه تمامًا من تهمة الكفر هذه: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾(ص)، وقال الله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ (البقرة: ١٠٢).

- **أنبياء بني إسرائيل قبل المسيح كانوا لصوصًا:**

إن هذا ما ينسبه إنجيل يوحنا إلى المسيح حين يقول: "فقال لهم يسوع أيضًا: «الحق الحق أقول لكم: إني أنا باب الخراف. جميع الذين أتوا قبلي هم سُرَّاق ولصوص، ولكن الخراف لم تسمع لهم. أنا هو الباب. إن دخل بي أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى. السارق لا يأتي إلا ليسرق ويذبح ويهلك، وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل. أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف". (يوحنا ١٠: ٧ ـ ١١).

وكل ما سبق قليل من كثير مما يصدم المسلم حين يقرأ سِيَر النبيين في الأسفار®.

قضية صلب المسيح:

يختلف الإسلام مع النصرانية في قضية أساسية من قضايا الإيمان في عقائد المسيحيين، وهي القول بأن المسيح انتهت حياته بالصلب، وأن ذلك كان ضرورة للتكفير عن خطايا البشر حسب نظرية بولس.

إن القرآن يقرر بوضوح عدم صلب المسيح، وأن الله نَجَّاه من محاولات اليهود قتلَه، بأن رفعه إليه، وأن الأمر كان فتنة اختلطت فيها حقيقة الأمر على كثير من الناس، فالقرآن يقول: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ (النساء).

ويكفي أن نرجع إلى الأسفار في هذه القضية لنعلم فيها الآتي:

١. حين شعر المسيح بالخطر يتهدده وهو في الحديقة كانت صلاته حارَّة إلى الله كي ينجيه من الموت. فقد: "ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا، وابتدأ يدهش ويكتئب. فقال لهم: «نفسي حزينة جدًّا حتى الموت! امكثوا هنا واسهروا». ثم تقدم قليلًا وخر على الأرض، وكان يصلي لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن. وقال: «يا أبا الآب، كل شيء مستطاع لك، فأجز عني هذه الكأس. ولكن ليكن لا ما أريد أنا، بل ما تريد أنت»". (مرقس ١٤: ٣٣ ـ ٣٦)، ولوقا ٢٢: ٤٣، ٤٤).

٢. حين جاءت قوة الظلم وتقدم يهوذا الخائن ليدلهم على سيده: "فقال له يسوع: «يا صاحب، لماذا جئت»؟، حينئذ تقدموا وألقوا الأيادي على يسوع وأمسكوه". (متى ٢٦: ٥٠).

وفي المحاكمة "اجتمعت مشيخة الشعب: رؤساء

® في **"مقام الأنبياء في الكتاب المقدس"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء. والوجه الأول، من الشبهة التاسعة عشرة، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل١). والوجه الثالث، من الشبهة الرابعة والستين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢).

الكَهَنة والكَتَبة، وأصعدوه إلى مجمعهم قائلين: «إن كنت أنت المسيح، فقل لنا!». فقال لهم: «إن قلت لكم لا تصدقون، وإن سألت لا تجيبونني ولا تطلقونني»". (لوقا ٢٢: ٦٦ـ٦٨).

وهنا وقفة، لنفرض جدلًا أنه كان المسيح، فإن هذا يعني أنه كان يرجو إطلاق سراحه، وهذا ينفي ما نقرؤه في رسائل بولس وما اقتبس منها في الأناجيل، مثل القول بأن المسيح: "بذل نفسه لأجل خطايانا لينقذنا من العالم الشرير"، أو أنه "بذل نفسه فدية لأجل الجميع"، ومعنى ذلك أنه لو كان المسيح قد قتل حقًّا، لكان ذلك رغمًا عنه. وبهذا تتعاظم خطيئة البشرية التي قتلته ظلمًا وقهرًا. ومن يُكَفِّر عن تلك الخطيئة العظمى بعد ذلك؟! وإذا افترضنا أنه ليس المسيح فإن هذا ما يفيده المضمون، خاصة إذا علمنا أن الفقرة التالية لهذا هي قول ذلك الذي يستجوبونه: "منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسًا عن يمين قوة الله". (لوقا ٢٢: ٦٩).

وهذا يقطع بأن الشخص الذي قبضوا عليه وحاكموه وصلبوه، إنما كان شخصًا آخر غير المسيح، وأنه رآه بعيني رأسه، وقد صعد إلى السماء ولهذا قال: "منذ الآن".

٣. ولقد كانت آخر صرخة للمصلوب هي قوله: «إلوي، إلوي، لما شبقتني»؟ الذي تفسيره: إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟ (مرقس ١٥: ٣٤). لكن المسيح قرر في الإنجيل أن الله معه ولن يتركه أبدًا. وهذا ما يعتقده كل المؤمنين. فهو يقول: "والذي أرسلني هو معي، ولم يتركني الآب وحدي، لأني في كل حين أفعل ما يرضيه". (يوحنا ٨: ٢٩).

فمن المؤكد أن الذي أطلق صرخة اليأس تلك على الصليب إنما كان شخصًا آخر غير المسيح الذي أكد أن الله معه في كل حين.

٤. لقد تنبأ المسيح بنجاته من القتل - كما تنبأت المزامير كثيرًا وكثيرًا - فلا يزال بين أيدينا ما قاله المسيح في تحدٍّ لليهود حين حاولوا اصطياده في إحدى المرات: "فأرسل الفَرِّيسِيُّون ورؤساء الكهنة خداما ليمسكوه. فقال لهم يسوع: «أنا معكم زمانًا يسيرًا بعد، ثم أمضى إلى الذي أرسلني. ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا»". (يوحنا ٧: ٣٢: ٣٤)، لا نظن أحدًا يشك في وضوح هذا القول الذي يعني أن اليهود حين يطلبون المسيح لقتله فلن يجدوه؛ لأن الله سيحفظه بالرفع، ومن الطبيعي أن يقال: إن السماء مكان يعجز اليهود عن الوصول إليه تعقبًا للمسيح.

٥. هذا وقد اختلفت الأناجيل الأربعة في عناصر قصة الصلب، ويكفي أن نذكر أن العشاء الأخير كان حسب الثلاثة الأولى: متى ومرقص ولوقا هو عشاء الفِصْح، وأما الإنجيل الرابع فقد جعله قبل الفصح بأيام. وقد ترتب على هذا أن كان يوم الصلب حسب الثلاثة يوم الجمعة، بينما هو حسب إنجيل يوحنا يوم الخميس الذي ذبحت فيه خراف الفصح. (يوحنا ١٨: ٢٨، ويوحنا ١٩: ١٤).

ولما كانت المقبرة التي وضع فيها جسد المصلوب قد وجدتها مريم المجدلية خالية صباح الأحد، فإن هذا يعني أن جسد ذلك المصلوب لم يُدفَن

في الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال حسبما هو شائع في الأناجيل. (أناجيل: متى ٤٠: ١٢، ومتى ٢٣: ١٧، مرقس ٣١: ٩، لوقا ٢٢: ٩).

فالفترة بين يوم الجمعة يوم الصلب ويوم الأحد يوم القيامة، لا تزيد على يوم واحد وليلتين.

وهذا قليل من كثير مما يبرهن على عدم صلب المسيح[١]®.

وفي السياق نفسه أدلى بدلوه الأستاذ محمد فريد وجدي ـ رحمه الله ـ الذي كتب تحت عنوان "المسيحية في الإسلام" يقول: هذا عنوان كتاب أرسله إلينا أحد فضلاء المسلمين، تأليف حضرة الإيغومانس إبراهيم لوقا راعي الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بمصر الجديدة، وقد بين المؤلف غرضه من وضعه، فقال في مقدمته: "إن القرآن لم يهاجم المسيحية التي أسسها المسيح، ونشرها رسله القديسون، ولكنه هاجم بدعًا خاصة، كانت قد ظهرت عند ظهوره، ونادت بتعاليم لا تقرّها المسيحية، فحاربها كما حاربتها المسيحية من قبل ومن بعد، إلى أن قال: وغايتنا التي نتوخّاها[٢] لتوفيق، لا الجدل والتفريق، وإنا لنرجو أن يتقبل إخوتنا المسلمون رسالتنا هذه كرسالة محبة وإخلاص، وفقنا الله جميعًا إلى سواء السبيل".

١. الإسلام والأديان الأخرى: نقاط الاتفاق والاختلاف، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٤٩: ٦٠ بتصرف يسير.

® في **"عقيدة الصلب والفداء"** طالع: الشبهة الثالثة والتسعين. وفي **"حَسْم القرآن الكريم مسألة صلب المسيح"** طالع: الشبهة الثانية والتسعين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢).

٢. نتوخّاها: نقصدها.

وقد طلب إلينا مرسل الكتاب أن نبدي رأينا فيما ذكره حضرة القس مؤلف الكتاب من إقرار القرآن على العقائد المسيحية الحقة، وهي في نظره ما عليه النصارى اليوم من تثليث وبنوة... إلخ. وقد وجه حضرة القس الخطاب للمسلمين، فحق علينا أن نبدي له رأينا فيما ذكره.

قال حضرته تحت عنوان "المسيح الإله": "تعتقد المسيحية أن المسيح هو الله باعتباره الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس للذات الإلهية الواحدة الجوهر والعدد، والإسلام لا ينكر هذه العقيدة ولا يرفض القول بلاهوت المسيح، بل إنه ليؤيده، ويؤيده بأدلة عديدة، وآيات كثيرة وشهادات متنوعة منها:

- أسماؤه الحسنى وألقابه التي ذكرها له القرآن.
- الحقائق الخاصة بحياته في ذاتها.
- شهادة القرآن له بالكمال الأدبي في حياته.
- شهادة القرآن له بقدرته فائقة الطبيعة.
- ما أثبت له من الاختصاصات والوظائف.
- ما شهد له به عن مركزه الممتاز.

نقول: إن هذه دعوى جريئة لم يقل بها أحد من الذين كتبوا عن الإسلام من المسيحيين إلا أن يكونوا من أهل المماحكات اللفظية الذين يترفع عنهم مثل الإيغومانس إبراهيم لوقا، فإذا كان قد مضى على نزول القرآن أكثر من ألف وثلاثمائة وخمسين سنة، وقد قرأه عدد لا يحصى من الناس وفهموا منه أن الإسلام ينفي ألوهية المسيح، وعلم ذلك في كل هذه القرون عدد لا يحصى من أهل الملل الأخرى، وألفت في الجدل حول هذه المسألة كتب لا تدخل تحت حصر، كل هذا لو كان

في حقيقته سوء فهم تسلط على عقول الناس، وساقهم إلى الجِدال والتماري كل هذه القرون الطويلة - فإن الذي يهتك سر هذا القصور يخلد لنفسه في تاريخ الخلافات الدينية أثرًا لا يشتبه لغيره، ولكنه يسجل في الوقت نفسه على العقلية الإنسانية اختلالًا تصبح معه غير جديرة بالثقة في نظرها وأحكامها، ويدب الشك إلى كل آثارها الأدبية والعلمية والفلسفية التي تم بناء صروحها في قرون طويلة، توقعًا لظهور أفذاذ يكشفون عن حقيقة الغباوات التي قادت العقول للخلافات أحقابًا متعاقبة حول مسائل لا خلاف فيها على الإطلاق! اللهم إن هذا محال، وإن كان يوجد ما هو أبعد عن التصديق من المحال فهو منه.

اعتمد حضرة القس فيما أورده من القرآن الكريم، تدليلًا على ألوهية عيسى عليه السلام على ما جاء فيه من إطلاق لفظتي (كلمة وروح) عليه، ورأى أن ذلك من أدل الأدلة على مشايعته للمسيحيين في القول بنبوة عيسى لله وبألوهيته، فقال: "رأينا فيما سبق كيف أن القرآن أقر بصحة عقيدة المسيحيين في فاديهم بما لقبه من ألقاب لا يجوز أن ينعت بها أحد سوى الله تعالى، فدعاه أولًا كلمة الله، وثانيًا روحًا منه".

ونحن نعجب كيف يسيغ حضرة القس أن يعتقد أن لفظتي (روح، و كلمة) لا يجوز أن تطلقا إلا على الله تعالى، على حين أن المقرر عند أهل العلم والفلسفة أنهما لا يجوز أن يطلقا عليه؛ لأن كل تعبير لفظي عنه تعالى يفيد التقييد والتحديد.

وهو ما يتنزه عنه عز وجل كل التنزه، هذا ما انتهت إليه الفلسفة، وهذا ما قرره الإسلام قبلها بأكثر من ألف سنة، فقال عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، وقال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ (الأنعام: ١٠٣)، وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠)﴾ (طه) فلفظة (روح) قليلة على خالق الأرواح ومبدعها، ولفظة (كلمة) أقل من تلك أيضًا. وقد أطلق القرآن الكريم لفظة روح على بعض مخلوقاته فسمى جبريل روحًا، وسمى القرآن روحًا. فقال عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤)﴾ (الشعراء)، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى: ٥٢)، ولا يجيز المسلمون إطلاقهما على الله تعالى؛ لأن قاعدة التنزيه المطلق عندهم: "أن كل ما خطر ببالك، فالله بخلاف ذلك" وأنَّى لمخلوق عاجز محدود القوة العقلية، أن يصل إلى معرفة حقيقة الخالق أو أن يطلق عليه ألفاظًا وُضِعَت لتعيين الكائنات الجزئية؟

أما لفظة: "كلمة" فلها في القرآن معنى غير ما يفهمه المسيحيون منها، فهي عندنا لا تحتمل غير معناها اللغوي. وقد أطلقها الله تعالى على عيسى؛ لأنه كما قال الرازي: قد وجد على خلاف السنة المعروفة، فأضيف حدوثه إلى كلمة الله مباشرة وهي "كن" وعلى هذا جرى جميع المفسرين، وقد وردت لفظة كلمة في الكتاب الشريف في مواطن كثيرة جدًّا، من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ (هود: ١١٩)، وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ (يونس: ١٩)، وقوله عز وجل: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ (إبراهيم: ٢٤)، وقوله عز وجل: ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ (إبراهيم: ٢٦)، وقد صرح القرآن الكريم بأن لله كلمات

لا تحصى لا كلمة واحدة. فقال ﷻ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ (لقمان: ٢٧).

من الجرأة التي لا يمكن وصفها بوصف أن يدعي مُدَّعٍ أن القرآن يقول بألوهية المسيح، وقد نفاها عنه بعبارات صريحة في عشرات من الآيات بما لا يحتمل أي تأويل. وقد وجه الخطاب إلى النصارى خاصة، ونهاهم عن القول بالتثليث والبنوة والتأليه، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ (النساء).

وقال تعالى مبينًا للناس الهول الهائل من ادعاء الولد له: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ (مريم).

لا أتخيل أنه بعد هذه النصوص المحكمة الحاسمة يمكن أن يقول أحد كما قال حضرة القس إبراهيم لوقا: "الإسلام لا ينكر هذه العقيدة، ولا ينكر القول بلاهوت المسيح، بل إنه ليؤيده، ويؤيده بأدلة عديدة، وآيات كثيرة، وشهادات متنوعة.

اللهم إن هذا محال، أقول: محال وأنا مطمئن؛ لأنه لا يتأتى لكائن من كان، مهما بلغ من أساليب المغالطة[1] والسَفْسَطة أن يتقي وقع هذه الآيات الصريحة في نفوس قارئيها، وأن يستخرج منها ما تأباه معاني ألفاظها، ومباني تراكيبها، فلو كان يعلم الكاتب المتحمس ما يجنيه عليه تحمسه لموضوعه من إضعافه وتوهينه، لربأ بنفسه أن يرتكب مثل هذا الشطط في تبيينه.

كل ما استند إليه حضرة القس في تدعيم كلامه، وهوَّن عليه إهمال عشرات الآيات التي وردت في نفي الألوهية والبنوة عن عيسى ـ ما أطلقه القرآن الكريم على هذا الرسول من روح الله، وأنه كلمته ألقاها إلى مريم، وقد قلنا إن الله تعالى قد أطلق لفظة "روح" على جبريل عليه السلام.

أما "الكلمة" فقد أريناك مواطن استعمالها في الكتاب، بما لا يدع شبهة في أن المقصود بها كلمة "كن"، أي كلمة الخلق المباشر عند عدم وجود الأسباب العادية، وكيف يُعْقَل أن ترِدَ في القرآن لفظة "الكلمة" بمعنى الأقنوم الثاني من الأقانيم الثلاثة المؤلفة لذات الخالق، وهو ينهى النصارى في آيات كثيرة عن القول بالتثليث ويعده أمرًا إدًّا[2]، وقد ورد في ذلك قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ (النساء: ١٧١)، وفي آية أخرى قوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ﴾ (التوبة: ٣٠)، أي يقولون ما يشاكلون به قول الكافرين السابقين الوثنيين، فقد كان للمصريين القدماء ثالوث مؤلف من: حورس وإيزيس وأوزوريس، وكان للهنود ثالوث مؤلف من براهما وسيفا وفيشنو،

١. المغالطة: محاولة إيقاع الآخرين في الخطأ.

٢. الإدُّ: المُنْكَر العظيم.

ولغيرهم ثالوثات أخرى، وقد أجمعوا على أن أحد أركانها قد نزل إلى الأرض، وتجسد فيها، وعاش بين الناس ليعلمهم ويصلح شأنهم، ومن هنا قرر الفيلسوف فولتير أن المسيحية قد أخذت في هذه العقيدة أخذ البوذية[1] سواء بسواء في تثليثها أو في آدابها وأخلاقها.

وما كنا لنتنزل إلى إيراد مثل هذه الأقوال لولا أن حضرة القس إبراهيم لوقا قد اضطرنا إليه، دفاعًا عن كتابنا وذودًا عن كرامتنا.

وبعد، فإن البحث في ذات الخالق لا يجيزه لنفسه من يعرف ضعف مصادر معرفتنا، ومدى سلطان عقولنا على فهم الحقائق، فالإدراك الذي قصر عن فهم ماهية المادة، وحقيقة الفضاء والزمان، ولم يحط بأكثر أسرار النظام الآلي الذي بين يديه - لا يستطيع ببداهة العقل أن يصل من معرفة ذات الله إلى شيء على الإطلاق، وإن افترض أنه تلقى معرفته بذات الله من طريق الوراثة، وجب عليه أن يرفضها ليخلُصَ من تبعاتها، مكتفيًا من الاعتقاد بوجود الله منزهًا عن صفات المخلوقين، وبأنه يتعالى أن تحيط به عقول الآدميين، وإلا عَرَّضَ عقيدته لشُبُهات المجادلين، واضطر لوقف حصة كبيرة من وقته لصد هجمات المهاجمين، والإجابة عن استشكالات المستشكلين، وإن عقيدة تحيط بها كل هذه الصعوبات، وتقوم في وجهها جميع هذه الشبهات، لا يمكن أن تصبح عقيدة عامة لأمة في خاصتها، فضلًا عن الإنسانية برُمَّتها[2].

يلوح لي أنه يغيب عن الآباء المسيحيين أن الناس اليوم قد افتتنوا بالفلسفة المادية، إلى حد أن رفضوا العقيدة بالخالق، على ما تعرِّفه به أرقى فلسفة في الأرض من التوحيد والتنزيه، فهل من مسايرة الحقائق أن يزيد على تلك العقيدة ما يجعلها غير معقولة؟

إن دعاة المسيحيين قد عجزوا عن نشر المسيحية حتى في البلاد الوثنية، على ما يبذلونه من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ويفوز عليهم دعاة الإسلام في كل بقعة من بقاع الأرض، فتسارع الملايين إلى الدخول في الإسلام غير مسوقين بأي دافع مادي زاهدين في الهَيْل[3] والهَيْلمان[4] الذي يبذله الجانب الآخر.

هذه المقارنات تريك الصعوبة المطلقة في إمكان قبول العقيدة المسيحية على ما هي عليه من القول بالتثليث والتأليه والبنوة، وقد ظهر في إنجلترا وألمانيا، وهولاندا وفي كل بقعة من أوربا مذهب الموحدين تحت اسم (***Unitarisme***) رفض أهلُه التثليث وما يتبعه واتخذوا لهم كنائس خاصة وهم يعدون في كل أمة بالملايين، وأكثر ما يوجدون في إنجلترا وأمريكا. ولسنا نشك في أن هؤلاء هم طليعة الإسلام في

---

١. البُوذِيَّة: ديانة أَسَّسها أحد حكماء الهند (بوذا ٥٦٤ - ٤٨٣) ق. م، وهي أقرب إلى فلسفة الحياة منها إلى الدين؛ حيث لا تؤمن بإله، وتقوم على التَّجرُّد والزهد؛ تخلُّصًا من الشهوات والألم، وطريقًا إلى الفناء التامِّ، وتقول بالتَّناسُخ ومبدأ السببية، وتنكر الروحية والحساب، وهي من أكثر الديانات انتشارًا في الهند والشرق الأقصى.

٢. برُمَّتها: بكاملها.

٣. الهيل: ما انهال من الرمل، والمقصود بها الخير الكثير.

٤. الهَيْلَمان: الخير أو المال الكثير.

أوربا ولله عاقبة الأمور[١].

هل يعقل بعد كل ما سبق عن جوهر الأديان السابقة ومضامين كتبها المقدسة المحرَّفة، أن يقال: إن الإسلام قد اشتق منها؟ على ما بينها وبينه من اختلافات جذرية شاسعة؟!

رابعًا. الوحي والصرع:

زعم المغرضون أن ما كان يَعْتَري[٢] رسول الله ﷺ عند تلقي الوحي، أعراض للهستيريا والصرع! أما ما كان يعتريه فهو - كما وصفته الأحاديث والآثار المروية - تفصُّد جبينه بالعَرَق[٣] في اليوم شديد البرد، وتربُّد وجهه[٤] واحمراره وإغماض عينيه. فهل هذه أعراض مرض الصرع المعروف؟ وهل يمكن له - إن كان الأمر كما زعموا - أن يبلِّغ ﷺ - فور إفاقته - ما أُنزِل إليه، أحكامًا وتشريعًا وأخلاقًا في نظام دقيق معجز؟!

لندع الأستاذ محمد فريد وجدي يجيبنا عن هذه التساؤلات؛ إذ كتب تحت عنوان "هل كان محمد يتصنَّعُ الوحي"؟ يقول: كان النبي ﷺ بزعمهم مريضًا عصبي المزاج مصابًا "بالهستيريا"، فيسمع ما لا حقيقة له ويحسبه حقائق، ويصبغه بصبغة العقائد التي تملأ قلبه، والصور التي تشغل عقله.

لقد ذكرنا شبهة الهستيريا، فلا يصح لنا أن نترك أكثر القراء يتساءلون عن ماهية هذا الداء، وعن كُنْه[٥] الخيالات والضلالات الحسية والمعنوية التي يولدها للمصاب به، وعن مكان هذه الشبهة من سيرة رسول الدين العالمي الأخير.

الهستيريا - كما يصفها الأساتذة الأعلام: كريكيه ولاندوزي وشاركو - داء عصبي عُضَال[٦]، أكثر ما يعتري النساء، وهو وراثي، صفاته المميزة: شذوذ خلقي حاد، وحساسية متطرفة تصل إلى حدود غير معقولة، ثم يزداد المرض حدَّة فيشعر المصاب به بالاختناق، وبضيق في الصدر عظيم وبخفقان مزعج وارتعاش وباضطرابات خطيرة في الهضم، وقد يصحب هذه الأعراض شلل في بعض الأعضاء، فإذا تابع هذا المرض تقدمه، جاء دور التَّشنُّج[٧]، فيسبقه بكاء وعويل وكرب عظيم، وهذيان ينتهي بالإغماء، فإن تجاوز هذه الدرجة دخل في دور أشد خطورة من كل ما مر، فيرى المريض أشباحًا تهدده أو تسخر منه أو تزعجه ويسمع أصواتًا لا وجود لها في حس غيره.

ومن أخص مميزات هذا الدور: شعور المصاب بكرة تأخذ بمخنقه، فلا يزال يضطرب منها حتى تفقده

١. مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص٣٥٥: ٣٦٠. وانظر في ذلك أيضًا: المناظرة الكبرى مع القس شرُوش، أحمد ديدات، ترجمة: رمضان الصفناوي، المختار الإسلامي. المسيحية والإسلام والاستشراق، محمد فاروق الزين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م. الإسلام كبديل، مراد هوفمان، مؤسسة بافاريا، ط١، ١٩٩٣م، فصل: المسيحية من وجهة نظر إسلامية.

٢. يعتري: يصيب أو يظهر.

٣. تفصُّد جبينه بالعَرَق: تعبير يدل على شدة سيلان العرق دلالةً على موقف مُحْرِج أو نحوه.

٤. تربُّد وجهه: أي احمراره حُمْرة شديدة، وذلك يحدث عند مواجهة الأمر الجَلَل.

٥. الكُنْه: الحقيقة.

٦. العُضَال: الشديد المُعجز الذي لا طبَّ له.

٧. التَّشنُّج: تَقَبُّض عضلي غير إرادي.

الحس تمامًا، فيقع في الإغماء وسط حركات مضطربة بيديه ورجليه، وقفز من مكان إلى مكان على صورة تثير الذعر في قلب كل من يراه، فلا يجد لإنقاذه حيلة غير الصبر حتى تزول عنه يسيرًا يسيرًا لتعاد الكرة عليه بعد حين، فهل كان للنبي ﷺ هستيريا تنتابه بهذه الأعراض؟

لو كان كذلك، لوجب وضعه في أقصى درجات هذا المرض؛ لأنه كان يرى شبحًا يظنه مَلَكًا، ويسمع صوتًا يتخيله وحيًا. وهذه الأمور من مميزات الدور الأخير لهذا الداء، حين يتفاقم[1] أمره وتشتد وَطْأَته ويعزُّ[2] شفاؤه، ومتى بلغ المصاب هذا الدور أصبح هدفًا لجميع أعراضه، أولها شذوذ الأخلاق والحساسية المتطرفة والخفقان المزعج والبكاء والنشيج والهذيان أي الهلوسة، وآخرها التخبط باليدين والرجلين والقفز بالجسم كله من مكان إلى مكان.

فهل نقل عن خاتم المرسلين شيء من هذه الأعراض، على كثرة الذين تتبعوا حياته وتعقبوا أعماله؟

وهل عهد في تاريخ العالم أن مريضًا بمثل هذه الداء الذي أعجز الطب قديمًا وحديثًا، يندب نفسه لتطهير أمة برمتها من أرجاس الوثنية، وتوحيد كلمتها وجمع متفرقها، وإيتائها بدستور ينظم شئونها ويسدد خطواتها، وينقلها من طورها المتحجر الذي كانت فيه إلى أطوار متعاقبة تندفع فيها اندفاعًا طبيعيًّا مرتبًا على موجب النواميس الاجتماعية، حتى تصل بعد ثمانين سنة إلى درجة دولة لا تغرب الشمس عن أملاكها، هي أكبر دولة عرفها تاريخ البشر إلى اليوم؟

إذا كان محمد - وهو هستيري مريض في رأيهم - يوفق إلى مثل هذه الأمور الجِسَام[3]، حتى يغير سطح المعمورة من حال إلى حال، مما لم تأت بمثله أجيال الفاتحين ولا كبار الملوك والسلاطين، بل ولا أولو العزم من المرسلين، فماذا كان صانعًا لو كان رسولًا حقًّا، يرى الملك ويسمع منه الوحي؟ ولو كان هذا حال رجل خيالي مريض شاذ الأخلاق، وعرضة لجميع الأعراض التي ذكرناها - الصنف الذي إذا رأيته رحمته واستعذت بالله - فماذا بقي للصادقين الكاملين وللأصحاء العاملين من الذين إذا رأيتهم افتخرت أن تكون واحدًا من أشياعهم؟

هل عهد أحد في تاريخ الإنسانية أن المرضى المتهوسين يصلحون لقيادة أنفسهم؟ فضلًا عن التصدي لقيادة الأمم والبلوغ بها إلى أَوْجٍ[4] لم تصل إليه أمة قبلها ولا بعدها؟!

هب أن الهذيان يؤدي بالمصاب بالهستيريا إلى التصدي لمثل هذه الخطة، فهل يكون حاله في الدعوة إليها أمثل من حال المجنون يضحك من يسمعه يهذي بها، ويستدعي غيره ليشاركه في التلهي بما يقول؟ هل بلغت أن العرب الجاهليين ضحكوا من دعوة محمد ﷺ واتخذوها هزوًا ولعبًا، أم قابلوه بالاضطهاد، وصبُّوا على أتباعه ألوان العذاب، حتى اضطروهم للهجرة إلى الحبشة مرتين، ثم إلى المدينة، وهناك شنوا عليهم

1. يتفاقم: يتصاعد ويتزايد.
2. يَعزُّ: يَصْعُب.
3. الجِسَام: الصِّعاب.
4. الأَوْج: المكانة أو المنزلة

الغارات الشَّعواء[١]، وتألَّبوا[٢] عليهم، ولم يتركوا وسيلة إلا استخدموها لحل جماعتهم، ثم انتهى أمرهم بالخضوع للنبي خضوعًا لا حد له؟

لا يستطيع أعداء محمد - مهما تنطَّعوا[٣] في تصيُّد الشبهات وتدبيرها من مختلف الأعاليل - أن ينالوا من شخصيته الفذَّة، فإن ما أثمرته من الثمرات - مما لم يتسنَّ مثله لمصلح أو لرسول قبله - تَدْحَض[٤] كل فِرْية[٥] تُلفَّق للحَطِّ من قدرها، وتبني لصاحبها صرحًا من المجد جديدًا، وتوحي إلى الذائدين عن كرامته أدلة تجعل ما لفَّقه خصومه هشيمًا تَذْرُوه الرياح[٦].

هذه المفارقة الواضحة والمسافة الشاسعة بين طبيعة شخصية سيدنا رسول الله ﷺ وما يمثله في حياة البشرية وبين حال مصروع متهوِّس، يهذي وهو لا يدري - كما زعم المبطلون - هي التي حملت د. محمد المسير على أن يتساءل قائلًا: "وإذا كان الواحد منا عندما يهمه شيء ويحرص عليه يشغل باله وفكره حتى لا يكاد يحس بمن حوله، فينادي عليه أقرب الناس منه مكانًا فلا يسمع له نداء، فما بالك بالاتصال بالملأ الأعلى والاستغراق في لقاء الملك الروحاني والتلقي عن الله تعالى؟! ثم إن الناس في كل زمان ومكان يرون المصروع ويعرفون الصرع، فهل من المعقول أن يُخدع الصحابة جميعًا في رسول الله ﷺ ويصعب عليهم التفريق بين حال الوحي وحال الصرع؟!

إن فاقد الشيء لا يعطيه، والمصروع لا يشفي مصروعًا، ولقد كان الصرعى يأتون إلى رسول الله ﷺ طلبًا للشفاء، فعن عطاء بن رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أُريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أُصرَع، وإني أتكشَّف، فادع الله لي، قال: "إن شِئْت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك"، فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشَّف، فادع الله ألَّا أتكشف، فدعا لها[٧]. فإذا كان الصرعى يأتون رسول الله طلبًا للشفاء، فهل يكون الصرع خفيًّا على الناس يؤمئذ حتى يختلط بالوحي؟! ألا ساء ما يحكمون[٨]!

هل بقي مزيد قول في هذا الموضوع؟ لعله من المفيد أن نختم ببحث ناقشت فيه د. هدى عبد الكريم هذه الشبهات مجملة وفنَّدتها[٩] في أسلوب علمي رصين، فقالت: "الناظر في مزاعم المستشرقين هذه وفي حال الرسول الكريم ﷺ وفي كتاب الله تعالى الذي أوحي به إليه، يتبين له بطلان هذه المزاعم من عدة وجوه:

الأول: أن القرآن الكريم نفسه ينفي أن يكون من صنع البشر وتأليفهم، وإنما هو كلام الله المنزل

١. الشَّعواء: الشديدة.
٢. تألَّبُوا: تجمعوا..
٣. تنطَّعوا: غالوا وتكلفوا.
٤. تَدْحَض: تبطل.
٥. الفِرْيَة: الشبهة والأُكذوبة.
٦. الإسلام دين الهداية والإصلاح، محمد فريد وجدي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص١٧٠: ١٧٤ بتصرف.

٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب فضل من يصرع من الريح (٥٣٢٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك (٦٧٣٦).
٨. النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد سيد أحمد المسيَّر، دار الاعتصام، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٠م، ص٢٢١.
٩. فنَّدتها: ضَعَّفت أقوالها وأثبتت بطلانها.

على رسوله محمد ﷺ لهداية الناس وإصلاح حالهم وذلك من عدة نواح:

١. من ناحية أسلوبه البليغ المعجز المغاير لأسلوب النبي ﷺ فيما صدر عنه من الأقوال غير القرآن، فالحديث يختلف اختلافًا كبيرًا عن القرآن الكريم من جهة الأسلوب، وكل قارئ يفهم العربية يدرك ما بين الأسلوبين من فرق كبير، فلو كان القرآن صادرًا عن محمد نتيجة انفعالاته بما يحدث في حياته وما يجري في مخيلته من أفكار لكان أسلوبه هو نفس أسلوب الأحاديث؛ لأنه لا يمكن أن يكون لكاتب واحد مهما بلغ من الذكاء والعبقرية أسلوبان يختلفان هذا الاختلاف الكبير.

وبهذا يتبين لنا بطلان دعوى المستشرقين أن القرآن صادر عن النبي ﷺ.

٢. من ناحية ما تضمنه من إشارات علمية دقيقة ونبوءات غيبية وأخبار القرون الماضية والتشريع العظيم، وغير ذلك من العلوم والمعارف يزخر بها هذا النهر العظيم، كل ذلك ينفي أن يكون القرآن بشريًّا، وإلا فمن أين لمحمد ﷺ الرجل الأمي هذه الحقائق العلمية التي لم يُتوصل إلى معرفتها إلا في العصر الحاضر، ومن أين له معرفة أخبار الأولين من الأنبياء والمرسلين؟!

ومن أين له معرفة دقائق التاريخ وأحوال الأمم السابقة، هل عاصرها واطلع على أخبارها؟! وإن إخبار القرآن الكريم بقصص الأمم السابقة وما حلّ بهم بدقة وتفصيل يؤكد أنه من عند الله، وليس من عند محمد ﷺ الذي لم يقرأ كتابًا ولم يدرس علمًا قط. وهذه النبوءات الغيبية الموجودة في القرآن من أين لمحمد ﷺ بها؟! إن الإنسان مهما بلغ من العبقرية والذكاء لا يستطيع أن يكشف حجب الغيب المكنون بعبقريته وذكائه. إن كل ذلك يؤكد أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من عند محمد ﷺ؛ وإنما هو من عند الله الذي أحاط بكل شيء علمًا.

٣. إن القرآن لا يعكس شخصية الرسول ﷺ في أفراحه وأحزانه، لقد توفي عمه أبو طالب وزوجته خديجة في عام واحد، وحزن عليهما حزنًا شديدًا حتى سُمِّي ذلك العام بعام الحزن، فهل يوجد في القرآن أي إشارة لكل هذا؟! فلو كان القرآن كما يزعمون نابعًا من ذاته لظهرت تلك المشاعر في سور القرآن.

ثم إن القرآن في بعض المواقف كان يخالف رأي الرسول ﷺ، بل كان يعاتبه ويلومه على أفعاله كعتابه في موقفه من الرجل الأعمى عبد الله بن أم مكتوم حيث قال ﷻ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ (عبس)، وكعتابه له في مسألة أسرى بدر حيث قال: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأنفال)، وكعتابه له ﷺ في مسألة الإذن للمنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، حيث قال: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (التوبة).

فلو كان القرآن الكريم نابعًا من ذاته لما ظهر فيه مثل ذلك العتاب على رسول الله ﷺ؛ لأن طبع البشر أن يخفوا أخطاءهم وتقصيرهم ولا يذكروها في مؤلفاتهم،

وبهذا يظهر أن القرآن الكريم ليس من صنعه إنما هو خارج عن ذاته ﷺ.

وليس أدل على أن القرآن ليس من عند محمد ﷺ من اشتداد حاجة الرسول ﷺ إلى شيء منه، فلا يجده إلا بعد فترة من الزمن، فقد كان ﷺ تمر به بعض المواقف المحرجة يحتاج فيها إلى القرآن لحسم الموقف فلا يجد، مثال ذلك ما حلَّ به ﷺ من الضيق والحرج عندما رماه المنافقون في أهل بيته السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ فلم يستطع ﷺ أن يفعل شيئًا حتى جاءه الوحي ببراءة أهله، وقطع بذلك ألسنة المروجين والخائضين، فلو كان القرآن من عنده لأعلن منذ اللحظة الأولى براءتها وحسم الموقف.

الثاني: انتفاء أن يكون الوحي من داخل نفسه ﷺ:

إن أعراض الوحي الظاهرة على النبي ﷺ التي لا دخل له بها تؤكد أن الوحي خارج عن ذاته ﷺ، فهذه الأصوات المختلطة التي كانت تسمع عند الوجه الشريف، تنفي أن تكون ظاهرة الوحي تكلفًا من قبله ﷺ؛ إذ لو كان الأمر كذلك لكانت طوع بنانه، يأتي بشيء جديد من الوحي في أي وقت يشاء بهذه الطريقة، والكل يعلم أنه ﷺ كان يمر بظروف معينة أحوج ما يكون فيها إلى شيء من الوحي فلا يأتيه.

ثم إن هذه الظاهرة كانت تحل به ﷺ فجأة دون سابق إنذار أو استعداد لذلك، فقد يكون جالسًا مع أصدقائه أو أعدائه يحادثهم فيأتيه الوحي فجأة ويقطع عليه حديثه، وقد يكون راكبًا على دابته أو ماشيًا على رجليه فيفاجئه الوحي، ولو كان الوحي من عند نفسه لاستعد لذلك، ولحدد أوقاتًا معينة لإظهار ما عنده من الوحي.

إن موقف رسول الله ﷺ عند تلقي القرآن الكريم عن أمين الوحي جبريل يؤكد أن الوحي خارج عن ذاته الشريفة، وأن القرآن لم يصدر عنه ﷺ، لقد كان يتلقى القرآن من أمين الوحي على عَجَل، يحرك لسانه وشفتيه طلبًا لحفظه وعدم نسيان شيء منه؛ لتبليغه للناس كاملًا كما أنزل، فأمره الله ﷻ بترك ذلك؛ لأنه ﷻ هو الكفيل بتعليمه وترسيخ ذلك في نفسه، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ (طه). وقال ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ (القيامة).

فلو كان القرآن الكريم نابعًا من تفكيره لجرى على سنته في كلامه العادي؛ لأنه لا يتكلم إلا بعد تفكير عميق وتمحيص دقيق، ولكن هول المفاجأة بالوحي الخارج عن ذاته هي التي تدفعه إلى التعجل والترديد باللسان والشفتين، كما أخبرنا الله ﷻ في كتابه الكريم، وكذلك موقفه المليء بالخشية والتقديس للقرآن، يؤكد أنه ليس من عند نفسه كما يزعم الحاقدون.

الثالث: انتفاء فرية الصرع عن النبي ﷺ:

إن اتهام المستشرقين للنبي ﷺ بأنه نسي الليل والنهار، والحلم واليقظة، وأنه كان يهيم بين شعاب الجبال ويخر مغشيًا عليه، ما هو إلا نسيج خيال لا أساس له من الصحة، فلم يثبت عنه ﷺ أنه بلغ به الجهد في خلوته كما يدعي هؤلاء، وإن الروايات الصحيحة ترد كل هذه المزاعم والأقاويل الباطلة.

لقد عاش النبي ﷺ طيلة حياته في صحة نفسية

وعصبية وعقلية دائمة، لم يطرأ عليه أي خلل في عقله أو أعصابه في يوم من الأيام، بل كان كمال عقله مضرب الأمثال. وليس أدل على انتفاء هذه الفرية وبطلانها من كفاحه المرير في سبيل نشر دعوته، ومن سياسته الحكيمة، وخططه الحربية، وتنظيماته الاجتماعية، فلو كان مصابًا بالانهيار العصبي كما يزعمون فهل يقوى على مثل هذا النضال الطويل، وهل يُؤثَر عنه تلك السياسة البارعة، والتنظيمات الدقيقة؟!

يقول عبد الكريم الخطيب: أمجنون مصروع يبني دولة وينشئ نظامًا ويقيم دينًا ويعيش في أجيال الناس منذ قام إلى اليوم دون أن يصاب بنكبة أو خلل؟ أمجنون مصروع يَثْبُت لهذه العواصف العاتية المزمجرة، وحيدًا في وجه أمة صحراوية النفوس صخرية الطباع، ثم لا يكون منه في حال من الأحوال، تخاذل أو ضعف حتى يُحَوِّل هذه العواصف إلى أنسام عليلة وريح رخاء؟!

ألا ما أبعد هذا الكمال الإنساني عما يتخبط به الحاقدون من المستشرقين وغيرهم. ولقد شهد بعض المنصفين من المستشرقين على انتفاء هذه الفرية عنه مستدلين بحياته المشرقة، وما أُثِر عنه من أمور عظيمة على ذلك، يقول ماكس مايرهوف: "أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلًا مصابًا بمرض عصبي، أو بداء الصرع، ولكن تاريخ حياته من أوله إلى آخره ليس فيه شيء يدل على هذا، كما أن ما قام به فيما بعد من التشريع، والإدارة يناقض هذا القول.

أما ادعاؤهم بأن ما كان يظهر على النبي من أعراض حين كان يتصل بالوحي أنها أعراض صرع فادعاء باطل يدل على جهلهم المستحكم بحقيقة الوحي؛ لأن وحي الله لأنبيائه لا يمكن إخضاعه لقوانين البحث العلمي؛ لأنه فوق العقل، وفوق العلم البشري. وأعراض الصرع تختلف تمام الاختلاف عما كان يعتري النبي ﷺ عند اتصاله بالوحي، فهي أعراض مرضية مصحوبة باصفرار في الوجه وبرودة في الأطراف واصطكاك في الأسنان وغيبوبة كاملة، إذ يحتجب نور العقل ويخيم الجهل، فلا يذكر من يصاب بذلك أي شيء مما حدث له، بل ينسى هذه الفترة من حياته نسيانًا تامًّا.

أما ظاهرة الوحي فتكون مصحوبة بإشراق وارتفاع في درجة الحرارة، وهي مبعث للنور الهادي الذي لا ظلمة فيه، ومصدر للعالم المشرق الذي لا جهل فيه.

ثم إن نزول الوحي لم يقترن بالغيبوبة دائمًا، إذ كان يأتيه أمين الوحي أحيانًا في صورة رجل فيحادثه، ويوحي إليه بما شاء الله أن يوحي به إليه.

يقول د. محمد حسين هيكل في الرد على هذه الفرية: "وتصوير ما كان يبدو على محمد في ساعات الوحي على هذا النحو خاطئ من الناحية العلمية أفحش الخطأ، فنوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أي ذكر لما مرَّ به أثناءها، بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسيانًا تامًّا، ولا يذكر شيئًا مما صنع أو حل به خلالها؛ ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل، هذه أعراض الصرع كما يثبتها العلم، ولم يكن ذلك مما يصيب النبي العربي أثناء الوحي، بل كان تتنبه حواسه والمدارك في تلك الأثناء تنبهًا لا عهد للناس به، وكان يذكر بدقة ـ غاية الدقة ـ ما يتلقاه وما

يتلوه بعد ذلك على أصحابه، ثم إن نزول الوحي لم يكن يقترن حتمًا بالغيبوبة الجسمية، مع تنبه الإدراك الروحي غاية التنبه، بل كان كثيرًا ما يحدث والنبي في تمام اليقظة العادية. فالصرع يعطل الإدراك الإنساني، وينزل بالإنسان إلى مرتبة آلية يفقد أثناءها الشعور والحس، أمّا الوحي فسمو روحي اختص الله به أنبياءه ليلقي إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كي يبلغوها للناس، وقد يصل العلم إلى إدراك بعض هذه الحقائق ومعرفة سننها وأسرارها بعد أجيال وقرون، وقد يظل بعضها لا يتناوله العلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وبعد هذا العرض لشبهات المستشرقين نجد أنها ترديد مَقِيت[1] لشبهات العرب في الجاهلية ألبسوها ثوبًا جديدًا وعرضوها في حلة من القول المزوق والكلام المنمق مدَّعين الموضوعية والبحث العلمي، وقد بينا بالدليل القاطع زيف تلك الشبهات وبطلانها من الأساس سائلين الله تعالى أن يلهمنا الصواب في القول والعمل[2].

الخلاصة:

- رغم تحريف التوراة والإنجيل إلا أنهما لا يزالان شاهدين على نبوة محمد ﷺ وأنه خاتم الأنبياء، يعرف ذلك علماء اليهود والنصارى وإن تغافلوا عن هذه البشارات به ﷺ.

- الظلال الباهتة والومضات الخافتة المتبقية من مبادئ الحنيفية - قُبيل بعثة محمد ﷺ - لا تصلح أن تقيم هيكل ديانة، فضلًا عن أن تكون أساسًا لهذا الصرح الهائل الكامل "الإسلام".

- ولو حدث أن أخذ النبي ﷺ دينه عن أحد من الحنفاء لانبرى واحد منهم على الأقل لتكذيب النبي ﷺ وهو لم يحدث.

- وليس الإسلام نسخة محرَّفة أو معدَّلة عن اليهودية أو النصرانية أو كلتيهما، ومقارنة جوهر هذه الديانات من خلال كتبها المقدسة يثبت ذلك، كما في مسألة توحيد الله وتنزيهه، ومقام الأنبياء ومنزلتهم.

- المصاب بالصرع تنتابه أعراض غريبة مفزعة، وعند إفاقته ينسى كل ما مرَّ به في أثناء نوبة الصرع، أما النبي ﷺ فقد كان يملي الوحي بما فيه من أحكام دقيقة وآداب جمَّة فور إفاقته من لحظة الوحي مباشرة. أضف إلى هذا أن ما يتمتع به القرآن الكريم من البلاغة والإعجاز ينفي عنه أن يكون صناعة بشرية.

الشبهة الرابعة

الزعم أن النصرانية أكثر واقعية من الإسلام وأصلح منه لحياة الناس (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن النصرانية أكثر صلاحية

1. المَقِيت: البغيض.
2. الأدلة على صدق النبوة المحمدية ورد الشبهات عنها، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٤٩٥: ٥١٠.

(*) ظلام من الغرب، الشيخ محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

للحياة وارتباطًا بالواقع من الإسلام، ويزعمون أن المدنيَّة الحديثة مدنية نصرانية ترعرعت في أحضان الكنيسة، وأن الدين الإسلامي دين انتهى زمنه ولا مستقبلله.

وجوه إبطال الشبهة:

١) متى كان للنَّصرانيَّة علاقة بواقع الحياة ومجرياتها من الأصل؟ وقد نَظَرَت إلى الجانب الروحي فقط، وتحكمت الكنيسة في رقاب البلاد والعباد؛ فحاربت العلم وأعدمت العلماء وأحرقت المصلحين وسامت[1] الناس شتى صنوف الاضطهاد، حتى ضجَّ الناس وثاروا عليها وعزلوها عن واقع الحياة وحبسوها وراء جدران المعابد والكنائس.

٢) شمولية الإسلام لأمر الدين والدنيا ووسطيته، أَهَّلَته للصلاحية لكل زمان ومكان، فهو دين المادة والروح والعقل والعلم والعبادات والمعاملات، وما تخلف المسلمون عن الصدارة والقيادة إلا بعد أن فرطوا في دينهم.

٣) الحضارة الإسلامية ذات نزعة إنسانية؛ لأنها تميزت بالمزج بين الرقي المادي والمعنوي على حد سواء، وقامت على مبدأ العدالة والحرية والمساواة.

٤) العلمانية في بلادنا زرع شيطاني.

٥) حضارة الغرب تَتَّسِم بقدر كبير من التوحش خصوصًا في علاقتها بالآخر.

٦) المستقبل للإسلام بشرط تحقيق المسلمين له وتطبيقه، والتجديد والإحياء الحضاري.

التفصيل:

أولا. متى كان للمسيحية عهد بواقع الحياة، وعلاقة بمجرياتها من الأصل؟!

المسيحية ديانة يغلب عليها ـ في أصلها السماوي ـ الجانب الروحي الأخلاقي المثالي، وتعاليمها لم تهتم كثيرًا بمسيرة الإنسان، ومعاملاته، وتفاعلات الحياة الإنسانية العملية في المجالات المختلفة على وجه الأرض.

فإنجيل متَّى يُورد على لسان المسيح عليه السلام قوله: "طُوبَى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات. طوبى للحزانى، لأنهم يتعزون. طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجِياع والعطاش إلى البر، لأنهم يشبعون. طوبى للرحماء، لأنهم يرحمون. طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله. طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يدعون. طوبى للمطرودين من أجل البر، لأن لهم ملكوت السماوات". (متى ٥: ٣ ـ ١٠).

وفي إنجيل لوقا يجيب المسيح عليه السلام عن سؤال السائل: ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ بقوله: "تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قدرتك، ومن كل فكرك، وقريبك مثل نفسك. فقال له: بالصواب أجبت. افعل هذا فتحيا". (لوقا ١٠: ٢٧، ٢٨)، فهذا اللون من المبادئ والتعاليم يمثل لب ما ينسب للمسيح وجوهره، وعليه كان مدار رسالته، ومع هذا فبدافع شهوة التسلط والتحكم والسيطرة، والمصالح الدنيوية للباباوات، تحكمت الكنيسة ـ خلال العصور الوسطى ـ في رقاب البلاد والعباد في الغرب، وتدخلت في أخص خصوصياتهم

١. سامت: أذاقت

وأمسكت بخناقهم.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: "اشتد ضغط الكنيسة الكاثوليكية على المسيحيين، وبالغت في فرض آرائها عليهم مبالغة تجاوزت حد الغلو، ولم تسلك في ذلك سبيل الموعظة الحسنة، والدعوة الصالحة والإرشاد القويم، ومخاطبة الأرواح والنفوس، وتمكينها من أن تتبعها وهي حرة مريدة مختارة، بل سلكت سبيل العنف، وركبت متن الشدة، فجعلت كل رأي في العلوم الكونية يخالف رأيها كفرًا، ولا تدعو معتنقيه إلى الهداية، وترشده إلى الرشاد، كما يليق برجال الدين مع من يرونه ضالًّا، بل تُكفر لأوهى الأسباب، وتحرق أو تعذب من تراه كافرًا بلا رفق ولا هوادة.

فهذا المجمع الثاني عشر من مجامع الكنيسة هو المجمع المسمى باللاتيراني الرابع المنعقد سنة ١٢٥١م، يقرر استئصال الهراطقة[١]، ويعنون بذلك كل من يرى رأيًا مخالفًا للكنيسة، ولو كان رأيًا في الكون أو طبائع الأشياء، ولم تكتف الكنيسة بقتل من يجهرون بآراء تخالف آراءها، بل أخذت تنقب على القلوب وتستكنه خبايا النفوس، وتكشف عن سرائر الناس، بما أسماه التاريخ محاكم التفتيش، التي دنست تاريخ الأديان بما ارتكبت من آثام، وما أزهقت من أرواح، وما سفكت من دماء، وما عذبت من أحياء، وإن جهر رجل من رجال الدين بالدعوة إلى الإصلاح، داعيًا رجال الكنيسة إلى أخذ الناس بالرفق، وحاثًّا رجال الدين على الأخذ بهديه، كان عقابه الحرمان والقتل.

وحدث في أوائل القرن الخامس عشر أن أحس أساقفة فرنسا بوجوب إصلاح الباباوات، فانعقد لذلك مجمع مؤلف من ١٥٠ أسقفًا، و ١٨٠٠ من رجال الدين، ولكن هذا المجمع انتهى في قراراته بالأمر بإحراق يوحنا هوس مصلح كنيسة بوهيميا ورفيقه جيروم. ولقد حُرِقَ وعُذِّبَ في هذا السبيل علماء قُتِلوا في سبيل العلم، بسبب مظالم تلك الكنيسة، وضيق صدر القوَّامين عليها، ومما يذكر في هذا أن أحد العلماء واسمه أبيلارد كان له رأي في تكفير المسيح عن خطيئة آدم، خالف به رأي الكنيسة، فقال: ليست حياة المسيح وصلبه، وما لاقى في ذلك من تعذيب سبيلًا لإرضاء الله، وإنزال عفوه عن خطيئة الإنسان، فعفو الله أيسر من ذلك وأقرب، وإنما لاقى المسيح ما لاقى إعلانًا لما يكِنُّه قلبه من حب الله. وعسى أن يثير في الناس عاطفة الشكر، وعرفان الجميل، فيعيدهم إلى طاعة الله، ولكنه ما إن قال ذلك القول حتى انعقد مجلس لمحاكمته، فكان نصيب كتبه التحريق، ونصيبه السجن الدائم حتى وافته منيته، وجاليليو يرى رأيًا في الكون فيسجن لذلك الرأي، مع أن رأيه ليس من أمور الدين في شيء.

بالغت الكنيسة في شدتها، كما رأيت، ولم ينجُ حتى الملوك من طغيانها، فقد كان انقسام الدولة الرومانية الغربية إلى ممالك مختلفة، واعتبار كل مملكة وحدة سياسية، لا تتصل بالأخرى إلا اتصال محبة وسلام، أو حرب وخصام، كان ذلك سببًا في أن صار البابا لا سلطان لأحد من ولاة الأمر عليه، وقد تقرر هذا من بعد، كما صار تعيين الباباوات باختيار المجامع، لا بتعيين ملك أو أمير، مهما تكن قوته وسطوته.

وصار الباباوات بعد تعيينهم غير خاضعين بأي نوع

---

١. الهراطقة: أصحاب البِدَع عند النصارى.

من أنواع الخضوع لأي ملك من الملوك، وعلى النقيض من ذلك لهم هم السلطان الذي لا يردُّ على كل مسيحي، مهما تكن مكانته، يستوي في ذلك الأمير والخفير، والراعي والرعية، فليس لأي مَلِكٍ سلطان على البابا، والبابا له سلطان على كل ملك؛ لأنه مسيحي، وله السلطان الكامل على كل المسيحيين. ولأن البابا خليفة لبطرس الرسول، وبطرس الرسول أقامه المسيح رئيسًا على الحواريين من بعده، فالبابا على هذا الأساس خليفة للمسيح ينطق باسمه، ويتكلم بخلافته، وينفذ بسلطانه، ومن خرج عن طاعته فقد خرج عن طاعة المسيح وحارب دينه.

وبهذا المنطق فرضوا أوامرهم على الملوك، كما فرضوها على سائر الناس، ولذا لم ينج بعض الملوك من قرارات المجامع بحرمانهم، وطردهم من حظيرة المسيحية ولعنهم، فقد جاء في كتاب "سوسنة سليمان": "المجمع الثالث عشر انعقد في ليون من أعمال فرنسا سنة ١٢٤٥م بأمر البابا إينوسنت الرابع لأجل عزل فردريك ملك فرنسا وحرمانه، وهذا المجمع لم تُسلِّم كنيسة فرنسا حتى الآن بصحته أو بسلطانه، مطلقًا.

لم ينج إذن الملوك من قرارات الحرمان والطرد، وإن لذلك أثره في نفوس شعوبهم، كما أنه يحفز الملوك على العمل من جانبهم على حماية أنفسهم، وهم في ذلك لا يمتنعون عن أن يثيروا القالة[1] في رجال الكهنوت، ويكبروا صغائرهم، ويروجوا عنهم ما يحطُّ من قداستهم، حتى ينفردوا بالاحترام، ولا يكون سلطان لأحد غيرهم.

هذه هي الكنيسة في معاملتها للناس، عنف، وزجر، وقسوة، لا إرشاد وهداية وإصلاح، وهي تضرب كل من يعترض طريقها، لا تفرق بين سائس ومسوس، وحاكم ومحكوم، وراع ورعية، وقد احتكمت لهذا بذوي السلطان، فكان لا بد من مغالبة بينهما، ولم يكن الأمر مقصورًا على الأذى البدني تنزله بمن يخالفها، ولو فيما ليس بينه وبين الدين نسب، ولا يتصل به بسبب، بل تعدى ذلك إلى إرهاق المسيحيين بإتاوات مالية يفرضونها، وضرائب كبيرة يأخذونها، وعلى ذلك صار المسيحيون قاطبة يئنُّون تحت نِير[2] ثقيل، سواء في ذلك من خالف ومن وافق.

فالمخالف بالعذاب يُهرَّأ[3] به جسمه، والموافق بالمال يوثق به، وتفرض عليه ضرائب لأسباب غير معقولة وغير مقبولة أحيانًا، وما يجمع من أموال الفقراء والمجدودين التي حصلوا عليها بالكدِّ واللغوب[4] يتوزعه رجال الدين بينهم، وينفقونه إسرافًا وبِدارًا[5] في سبيل تحقيق رغباتهم، وبذلك كانوا يجمعون المال من غير حِلّه وينفقونه في غير حِلّه أيضًا، وبذلك انغمسوا في شر ما في هذه الدنيا، وتركوا لُبَّ الدين.

ولقد احتجزت الكنيسة لنفسها الحق في فهم الكتب المقدسة عندهم، واستبدت بتفسيرها دون سائر الناس، ولا معقِّب لما تقول في هذا التفسير، أو في رأي تبديه أو أمر تعلنه، وعلى الناس أن يتلقوا قولها بالقبول، وافق العقل أو خالفه، وعلى المسيحي إذا لم يستسغ عقله قولًا

١. القالة: اسم للقول الفاشي في الناس خيرًا أو شرًّا.

٢. النِّير: الخشبة المعترضة فوق عُنُق الثور لجرِّ المحراث أو غيره.

٣. يُهرَّأ: يُسقط لحمه من عظمه من شدة العذاب.

٤. اللُّغوب: التعب والإعياء.

٥. بِدَارًا: مبادرين ومسارعين إلى الإنفاق.

قالته أو مبدأ دينيًّا أعلنته، أن يُروِّض[1] عقله على قبوله، فإن لم يستطع، فعليه أن يشك في العقل، ولا يشك في قول البابا؛ لأن البابا خليفة لسلسلة الخلافة التي بناها.

ولقد كانت تعلن ـ أي الكنيسة ـ أمورًا ما جاء بها الكتاب المقدس عندهم، وما تعرض له المسيحيون الأولون، ولا المجامع الأولى، وهي أمور غريبة جد الغرابة، بعيدة عن القبول في أحكام العقل جد البعد، وتُلزِم المسيحيين بها، وتفرضها عليهم فرضًا، ومن قال كلمة فيها فالويل له، ينزلونه به في الدنيا ولا ينتظرون حساب الديان في الآخرة.

ونذكِّر القارئ على سبيل المثال، بمسألتين كان لهما أثر في الفكر المسيحي، وبسببها هما وغيرهما تقدم المصلحون في جرأة، داعين إلى إصلاح الكنيسة بالحسنى أو بغير الحسنى، هاتان المسألتان هما مسألة الاستحالة، ومسألة الغفران.

أما مسألة الاستحالة، فالأساس فيها ما علمت في الشعائر النصرانية، من أن المسيحيين يأكلون يوم الفِصْح خبزًا، ويشربون خمرًا، ويسمون ذلك بالعشاء الرباني، ولقد زعمت الكنيسة أن ذلك الخبز يستحيل إلى جسد المسيح، وذلك الخمر يستحيل إلى دم المسيح المسفوك، فمن أكلها وقد استحالا هذه الاستحالة فقد أدخل المسيح في جسده بلحمه ودمه.

وذلك أمر غريب في العقل، لا يستطيع أن يستسيغه أحد بيسر وسهولة، بل لا يستطيع أن يستسيغه قط، إذ كيف يتحول الخبز لحمًا؟ وكيف يصير لحم شخص معين معروف؟ وكيف تتحول الخمر دمًا، وتصير دم شخص معين معروف؟ ذلك غريب بل مستحيل التصور والقبول في العقل، ولكن الكنيسة فرضت على الناس قبوله ومنعتهم من مناقشته، وإلا عُرِّضوا للطرد والحرمان. وهل ورد هذا الأمر في الكتب المقدسة، حتى يجب الأخذ به من غير تفسير أو تأويل؟ إنه أمر استقلت به الكنيسة وأعلنته وأيدته في أحد مجامعها، غير معتمدة في ذلك على نص صريح من الكتب المقدسة عندهم.

ولقد خالفت في بعض شأنه الكنيسة الكاثوليكية غيرها من الكنائس، فالكنيسة الشرقية ترى أن العشاء الرباني لا يكون بالفطير، بينما تراه الكنيسة اللاتينية، ووجد من رجال الفكر من ينكرون هذه الاستحالة، ويعتقدون أنها غير ممكنة في العقل ولا سائغة في الفكر.

أما مسألة امتلاك الكنيسة حق الغفران للمسيء في الدنيا، فقد قررته الكنيسة حقًّا لنفسها، في المجتمع الثاني عشر أيضًا. وقد جاء في كتاب "تاريخ الكنيسة" في بيان قرار المجمع في هذا الشأن: "أنهى المجمع تعليمه فيما يتعلق بأمر الغفران" فقال: "إن يسوع المسيح ما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذي نالته من العلا منذ الأيام الأولى، قد أعلم المجتمع المقدس، وأمر بأن تحفظ للكنيسة في الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحي، المثبتة بسلطان المجامع. ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون أن الغفرانات غير مفيدة، أو ينكرون على الكنيسة سلطان منحها، غير أنه قد رغب في أن يستعمل هذا السلطان باعتدال واحتراس، بسبب العادة المحفوظة قديمًا، والمثبتة في الكنيسة، لئلا يمس

---

١. يروِّض: يُذلل ويُخضع.

التهذيب الكنسي تراخٍ بفرط التساهل".

هذا قرار المجمع، وفيه تمكين للكنيسة من سلطان قوي جبار، وهو سلطان مسح الذنوب وغفرانها مهما يكن مقدارها، ومهما تكن قد دنست النفس، وأرهقت القلب، ولكنه قد أوصى الكنيسة بالاعتدال والاحتراس؛ حتى لا يؤدي الإفراط في منح الغفران إلى ترك التهذيب الديني، وهجر تعاليم الكنيسة، والعبث بهدي الدين، فهل أخذت الكنيسة بما أعطاها المجمع، وراعت حق الرعاية ما أوصاها به من عدم الإفراط في الإعطاء والمنح؟ لقد أتى حين من الدهر من بعد أن أعطى رجال الدين أنفسهم ذلك الحق، أن أفرطوا في إعطائه إفراطًا شديدًا، وأنشئوا له صكوكًا تباع وتشترى، فباعوها كأنها عَرَض من أعراض الدنيا، ومتعة من متعها، وبذل العصاة في سبيلها المال، وما كان عليهم من حرج في أن يرتكبوا ما شاءوا من الموبقات، وينالوا ما تهوى الأنفس من معاص، ما دام ذلك يفتدى بمال قلَّ أو جلّ، وهذا نص صك الغفران الذي يباع بيع السلعة: "ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان، ويُحِلُّك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة، وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها، وأيضًا من جميع الإفراط والخطايا، والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة، ومن كل علة، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا، والكرسي الرسول، وأمحو جميع أقذار المذنب وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التي كنت تلتزم بمكابدتها[1] في المطهر، وأردك حديثًا إلى الشركة في أسرار الكنيسة وأقرنك في شركة القديسين، وأردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا عند معموديتك، حتى إنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي دخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح، وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة، حتى تأتي ساعتك الأخيرة، باسم الآب، والابن، والروح القدس".

هذه صورة من صور صك الغفران تذكر أنها تمحو الآثام، وتغفر ذنوب العاصي، ما تقدم منها وما تأخر، تغسله من ذنوبه الماضية حتى يصير طاهرًا، ثم لا يصير قابلًا لأن تؤثِّر فيه الذنوب، مهما يرتكب من خطايا، ومهما ينغمس في المعاصي، كأن ذلك الصك جواز المرور إلى النعيم المقيم، لا يعوق حامله عائق، ولا يرده عن الوصول خازن أو حارس، هذا ما يدل عليه الصك، وهذا ما كانت تحاول الكنيسة أن تلقيه في روع الناس تمكينًا لسلطانها، ورغبة في نقودهم التي يبذلونها للكنيسة في سبيل الحصول على ذلك الصك الذي يكون سر الأمان وطريق الوصول إلى الغاية.

لقد ابتدأت الكنيسة صك الغفران بمسألة الاعتراف بالذنوب عند الموت والتوبة، ثم تولى القسيس مسح هذه الذنوب، والشخص لم يودع الدنيا، ثم انتقلت من ذلك إلى أن جعلت لنفسها الحق في الغفران، ولشخص قوي يستقبل الحياة، ولا يودعها، ويُقبل على مُتَعها ولا يدبر عنها، وغالت

---

١. المكابدة: المعاناة.

فجعلت لنفسها غفران ما تقدم وما تأخر من الذنوب، ثم أغرقت في المغالاة فاتخذها رجال الدين بابًا من أبواب الكسب للكنيسة، ثم إنهم ينفقون ما يجمعونه من مال فيما يحله الدين والأخلاق، وما قد يحرمانه، وبذلك طمَّ السيل[1] حتى جاوز الحزامُ الطبْيَيْنِ[2].

وهل كان رجال الدين في سلوكهم الشخصي، وفي استمساكهم بعروة الأخلاق وهدى الدين، يستحقون أن يبذل الناس في طاعتهم ما يبذلون ويروضوا أنفسهم على الخضوع لآرائهم وقبولها بقبول حسن، متهمين العقول إن حاولت التمرد والعصيان؛ لأن حال رجال الدين بعيدة عن الظِّنَّة[3] مُنزَّهة عن الرِّيبة، قد سَمُوا بأنفسهم حتى ساموا في علو القديسين، والشهداء، والصالحين، وجعلوا أنفسهم عنوان العفة، ونجع النفس عن الشر، وافتدوا الفضيلة بأنفسهم، أو عرضوا أنفسهم للفداء، كما كانوا يرون أن المسيح قد فعل من قبل؟

لقد كانت حال رجال الدين تحوطها الريبة من كل جانب وتأخذهم الأنظار المتعقبة من كل ناحية من نواحي الحياة، حرَّموا على أنفسهم الزواج إذ سادت الرهبانية[4] وسيطرت على نفوسهم، فجعلوا زواجهم حرامًا؛ لينصرفوا لخدمة كنيسة الرب، ويقوموا على سِدانتها، ويرعوها حق رعايتها، ولكن ما إن توردت عليهم الأموال، وكثرت أمامهم أسباب النعيم، حتى فكهوا فيها مترفين، وانغمسوا في الملاذ يستطيبون أطيبها ويطلبون أشدها، ولما مكنوا لأنفسهم من السلطان، اندفع بعضهم في طلبها اندفاعًا، ومنهم من استهتر في سبيلها استهتارًا، وخرجت حال بعض أولئك المنغمسين في الخطايا من السر إلى الجهر، ومن التستر إلى التفحش ومن الخفية إلى الإعلان.

واتصل بعضهم بالنساء اتصال سفاح، بعد أن حَرَّمُوا على أنفسهم النكاح، ولم تتمنع النساء المتصلات بهم من أن يعلنّ ذلك مفاخرات به، وجاء من ذلك الاتصال الآثم أولاد لا آباء لهم، ولكن لهم حظوة؛ لأن بعض رجال الدين يعرفون آباءهم، كما يعرفون أبناءهم، فيمكنون لهم بسلطانهم الديني سلطانًا دنيويًّا.

ولقد كانت تلك الحياة اللاهية العابثة الفاسقة ميزة اختص بها بعض رجال الطبقة الدينية أنفسهم، أما التُّحُوت من رجال الدين ففي فقر مُدْقِع[5]، وفي حياة هي أقرب إلى الدين المسيحي من حياة كبرائهم، وذوي السلطان فيهم وفي الشعب" [6].

فلما أخذت أوربا في النهوض في مطالع العصور الحديثة، كان أول ما سعت إليه هو التخلص من رِبْقَة[7] الكنيسة، وتحكُّم الباباوات، بل عادى رجال الفكر ورموز النهضة أكثر ما عادوا الكنيسة وما ترمز إليه من

١. طمَّ السيل: كَثُر وعظُم.
٢. جاوز الحِزام الطُّبْيَين: هو مثل يضرب في تجاوز الحد.
٣. الظِّنَّة: التُّهمة.
٤. الرَّهبانية: هي التَّقشُّف والتَّخلِّي عن أشغال الدنيا، وترك ملاذها، والزهد فيها، والعزلة عن أهلها، والاستغراق في العبادة، مع العزوف عن الزواج والزهد فيه.
٥. المُدْقِع: الشديد المُذِلّ.
٦. محاضرات في النصرانية، الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ص١٥٣: ١٥٩..
٧. الرِّبْقة: أصلها العروة في الحبل تُجعل في عُنق البهيمة أو يدها لتمسكها، والمقصود بربقة الكنيسة: إذلالها.

دين، فأوغلوا[1] في الإلحاد والمُرُوق من الدين[2] كما أوغلت الكنيسة في الغلو باسم الدين، ومن هنا نشأت العلمانية اللادينية.

يقول الشيخ أبو زهرة: "هذا سلطان الكنيسة، وتلك حال رجالها، يتدخلون في كل شيء، ينقبون عن القلوب، وقد سترها علام الغيوب، ويُرهِقُون من يتهمونهم بأقسى أنواع العذاب، ويفرضون سلطانهم على الراعي والرعية، حتى يتململ[3] من تحكُّمهم الملوك والأمراء، وذوو الفكر من الشعوب، ويَجْبُون[4] الإتاوات ويفرضون الضرائب حتى كأنهم الجباة العشارون لا رجال الدين المهذبون، ويعطون أنفسهم حق مسح الخطايا بعد اعتراف المذنب في آخر أيامه في الدنيا، وأول أيامه في الآخرة.

ثم يغالون فيمنحون أنفسهم حق غفران الذنوب السابقة واللاحقة للقوي الصحيح، ويكتبون في ذلك صكوكًا يبيعونها بثمن قليل أو كثير، ثم يقضون أو بعضهم حياة كلها لهو، وحولهم الناس ينظرون.

ولقد بلغ السيل الزُّبَى[5] في العصر المشهور في التاريخ الأوربي بعصر النهضة، وفيه نهضت الإرادة الإنسانية، والعقل الإنساني يفرضان وجودهما، وفيه استطاع الأوربيون أن يروا الله في الإسلام، والتدين الحقيقي فيما يدعو إليه هذا الدين، إذ اتصل الشرق بالغرب، فيما قبس الغرب من دراسات تلقَّاها على أساتذة من المسلمين بشكل خاص، ومن الشرقيين بشكل عام، وفيه علم أنه لا سلطان لأحد من رجال الدين على القلب، وأن لا وساطة بين الله والعبد، وأن الله قريب ممن يدعوه، ويجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

حينئذ أخذت الأنظار المتربصة تحصي على رجال الدين ما يفعلونه، ووجد من بينهم من استنكروا حالهم، وأخذوا يدعون زملاءهم إلى إصلاح حالهم، ليردوهم إلى حكم دينهم قبل أن يفوت الوقت، وقبل أن ينفضَّ الناس، وقبل أن يحملهم العامة على الإصلاح، ولقد جاهر بذلك جيروم وهوس، ولكن كان نصيبهما أن أعدما تحريقًا بالنيران، وكان ذلك بقرار من مجمع كونستانس الذي انعقد من سنة ١٤١٤م إلى سنة ١٤١٨م، ولقد قرر ذلك المجمع قتل هذين العالمين حرقًا بالنار؛ لأنهما دعوا الكنيسة إلى عدم الأخذ بما يسمى سر الاعتراف، مبينين أن الكنيسة ليس لها سلطان في محو الإثم أو تقريره، وإنما التوبة مع رحمة الله هي التي تمحو الآثام، وتطهر النفس من الخطايا، ولقد تقدم إلى المجتمع يوحنا هوس ليدافع عن آرائه، وهذا ما قاله كاتب متعصب للكاثوليك في ذلك الدفاع:

"لدى دخوله أخذ يعلن غواياته قبل انتظاره حكم المجمع على تعاليمه، فقرّ الرأي إلى إلقاء القبض عليه، وفوض المجمع إلى بعض أعضائه أن يفحصوا مؤلفاته وألحوا عليه أن يقلع عنها، ولكنهم لم يستفيدوا شيئًا، ووجدوا في مؤلفاته فصولًا كثيرة تتضمن أضاليل، وقد خوَّلوه[6] الحرية ليوضح أقواله في كل منها، وحرَّضوه

١. أوغلوا: بالغوا وتعمقوا.
٢. المروق من الدين: الخروج منه.
٣. يتململ: يقلق وينزعج.
٤. يَجْبون: يجمعون.
٥. بلغ السَّيل الزُّبى: وهو مثل يُضرب في تجاوز الحد.

٦. خوَّلوه: منحوه.

على الخضوع لحكم المجمع، وعرضوا عليه صورة الرجوع عن ضلاله، فأبى أن يمضيها، وبقي مُصرًّا على غيِّه، ولم يشأ المجمع أن يتوصل معه إلى المضايقة الأخيرة، بل حاول مرارًا أن يرده عن عناده فحكموا أولًا على كتبه بالتحريق رجاء أن يخيفوه بذلك، لكنه لبث مصرًّا على عناده، فحينئذ حطُّوه عن الدرجات المقدسة حطًّا احتفاليًّا، وأسلموه لحكومته فحكمت عليه بالحرق حيًّا، بمقتضى نواميس المملكة، ثم نال جيروم تلميذه وقرينه في العناد، هذا العقاب نفسه.

أما المجمع فلم يطلب قط هذا العقاب، بل ترك للقضاء المدني أن يعمل بموجب شرائع المملكة التي كانت تعطي للملك حقًّا في أن يعاقب من يفسدون النظام المدني بينهم بتعاليم سيئة تقلق راحة الجمهور.

هذا ما يقوله الكُتَّاب المدافعون عن الكنيسة، ومهما يكن قولهم في براءتها من دم أولئك الذين حاولوا من رجال الدين إصلاحًا، فمما لا شك فيه أنها لم تُصغِ إلى أقوالهم، بل عاقبتهم عليها بالحرمان، فسلبتهم المنصب الديني، ثم عاونت بذلك على قتلهم أفظع قتلة، إن لم تكن هي الفاعلة[1].

يفهم مما سبق - وهو أمر معروف في تاريخ أوربا في ذلك الوقت - أن النهضة ثم التقدم الحضاري المعاصر في الغرب قد قام على أنقاض الدين والنظام الكنسي، ولم ينبن عليه، ويتكأ إليه وينطلق منه، ومن ثم فلا سبيل إلى القول بأن المسيحية ما زالت حيَّة، وأن تعاليمها ما زالت تواكب الحياة في تدفقها المستمر.

ثانيًا. شمولية الإسلام لأمر الدين والدنيا ووسطيته:

بالمقابل - وهذا أيضًا من البدهيات، المفروغ منها - فإن الإسلام دين كامل عام شامل وسطي، دين مادة وروح، عبادات ومعاملات، أخلاق وممارسات، فكر وسلوك، علم وعمل، نقل وعقل. ومن ثم فتعاليمه على علاقة ماسَّة بواقع حياة البشر، بل إنه يمتلك منظومة تشريعية وتوجيهية لهذه الحياة الدنيا استعدادًا للآخرة، يقول مراد هوفمان: "فبلفظ المسلم للقسم الأول من الشهادة (أشهد أن لا إله إلا الله) يؤكد اعترافه يقينًا بوحدانية الله المطلقة.

الوحدانية أو التوحيد، كما يعرفه الإسلام، ينسحب على العلاقة بين الفكر والمادة، وبين الروح والجسد، والعلم والدين، والإنسان والطبيعة، وبين أعضاء الأمة الإسلامية التي خلقها الله فقال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ (الأنبياء)، كذلك يعتقد المسلم أنه لا يمكنه أن يهتدي لولا هداية الله، إذا تُرك للطبيعة وحدها يستهديها؛ لذا يؤمن بضرورة الوحي لمعرفة الهدى من الضلال، والحق في جانب المسلم استنادًا إلى دراستنا لقوانين الطبيعة.

ثم إن المسلمين يؤمنون أن الله بيَّن لعبيده حقًّا طريق الهدى، وذلك عن طريق أنبياء التوحيد المرسلين، مثل إبراهيم، وموسى، وعيسى، وختم الله هذه الرسالات بالقرآن (هدى للناس) والذي نزله على محمد خاتم النبيين والمرسلين، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ (الأحزاب)؛ لهذا يؤكد الشطر الثاني من الشهادة أن محمدًا

1. محاضرات في النصرانية، الشيخ محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص١٥٩: ١٦١.

رسول الله، وهذا الشطر لازم كل اللزوم لإتمام الشهادة، أما ختم شيء أو أمر فمعناه عند الحديث عن الوحي أنه تم واكتمل.

هذا الكمال لم يكن متوافرًا قبل محمد ﷺ، بالرغم من إبلاغ موسى لرسالة الله، وبالرغم من إبلاغ عيسى كذلك، فبقيت الحاجة بعد عهدهما ماسَّة إلى الإكمال، وكانت هناك إمكانية ـ في عهد الرسول ـ لتحقيق ذلك الإكمال، أما الحاجة إلى الإكمال والتقويم فلزمت لخروج اليهود والنصارى على الطريق المستقيم في اعتقاد المسلمين، فاليهود زعموا أن بينهم وبين الله عهدًا، فهم شعبه المختار، الذي لن تمسه النار إلا أيامًا معدودة، وأما النصارى فقد زعموا أن عيسى ابن الله المماثل له في طبيعته الإلهية.

وأما توافر الإمكانية، فذلك أن التطور البشري في القرن السابع، سمح بنسخ المعايير السابقة غير المناسبة نسخًا نهائيًّا، لتحل محلها المعايير الشرعية التي نزل بها الوحي من عند الله.

في ضوء هذا نتبين المغزى العميق للآية الثالثة من سورة المائدة، فقد نزلت تلك الآية الكريمة في اليوم التاسع من ذي الحجة للعام العاشر الهجري الموافق عام ٦٣٢ الميلادي، أي قبل وفاة الرسول بواحد، أو اثنين وثمانين يومًا، والمؤذنة بانتهاء مهمة الرسول في أداء الأمانة، وإبلاغ الرسالة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

أما اليوم، فتصف كلمة "مسلم" الإنسان الذي يلتمس سلامته بإسلامه أموره لله، ويجد هذه السلامة في هدى القرآن الذي يبين له حدود الله، والذي يحوي غير المنسوخ من الكتب السماوية السابقة على الإسلام. هكذا يلتزم المسلم الحق بالوصايا العشر الواردة في التوراة، وبالإيثار وحب الآخرين الذي ألحَّ عليه وأوصى به الإنجيل في العهد الجديد، وهو بعد ذلك يؤمن بالأصول الستة التي يؤمن بها اليهودي والمسيحي الملتزمان. وذلك كما بينها القرآن لنا في سورتي: (البقرة: ٢٨٥)، و (النساء: ١٣٦):

- وجود الله.
- وجود مخلوقات غير مرئية لنا (الملائكة).
- نزول كتب سماوية على بعض الأنبياء.
- إرسال الله رسله وأنبياءه إلى الأمم.
- القيامة والبعث يوم الحساب.
- القضاء والقدر.

بعد ذلك ينفرد الإسلام بأنماط سلوكية تتمثل في الفرائض والعبادات، وقواعد الإسلام الخمس إلى جانب الشهادة:

- شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.
- إقامة الصلاة (الصلوات المفروضة).
- إيتاء الزكاة.
- صوم رمضان.
- حج البيت من استطاع إليه سبيلًا.

هذه القواعد الخمس وحدها كافية لبيان أن الإسلام دين وعمل، عبادة وأفعال، حتى الصلاة نفسها، وهي صلة روحية مصحوبة بالعمل، أو الفعل المتجلي في المشاركة الجسدية لأداء هذا الفرض، الإسلام يلحُّ على الإيمان والعمل معًا، كما في سورة العصر المكية:

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ (العصر)®.

في هذه السورة تصوير موجز مصغر، واضح أشد الوضوح للمسلم البَرِّ التقي، فهو يعبد الله ويتوكل عليه، يعمل الصالحات ويوصي نفسه وغيره بها، دون تظاهر ورياء، أو مَنٍّ أو اتباع العنف، مدلًّا بما يفعل[1].

ويقول: "أمَّا إنَّ الإسلام دين ودولة، فحقيقة يثبتها الإسلام، وإن لم تكن هذه الصيغة قد وردت في القرآن حرفيًّا، لكن القرآن يصور المسلم مخلوقًا ملتزمًا بمبادئ خلقية، دون تقييد، بحيث ينبغي له أن يكون مواطنًا حرًّا، وينبغي عليه في الوقت نفسه أن يصدر في أقواله وأفعاله عن إيمان بالله، فيكون الله ﷻ محور حياته أولًا وآخرًا. بهذا يملأ الإسلام حياة الإنسان أو يحتويها بكافة نواحيها[2].

حول هذه الخصيصة "شمولية الإسلام ووسطيته" يقول د. عبد القادر محمود: "من هنا لم يذهب الإسلام مذهب التفرقة بين ما لله وما لقيصر، فلم تنفصل فيه الدولة عن الشريعة؛ لأن الأمر كله لله، لله الأمر جميعًا، ولله المشرق والمغرب، إنما كانت التفرقة بين ما لله وما لقيصر تفرقة الضرورة التي لا يقبلها المتدين، وهو قادر على تطويع قيصر بأمر الله، وهذا التطويع ولا شك هو الذي أوجبته العقيدة الشاملة، وكان له الفضل في صمود الأمم الإسلامية أمام سطوة الاستعمار والحركات الهدامة، كما كان له الفضل في إيمانها الراسخ بأن هذه الأباطيل والضلالات لا بد أنها زاهقة زائلة.

أمر آخر هو أن هذه العقيدة قد أبت على المسلم أن يطيع الحاكم بجزء منه ويطيع الله بغيره، كما أبت على المرأة المسلمة أن تعطي بدنها في الزواج لصاحبها، وتنأى عنه بروحها وسريرتها، وأبت على الإنسان جملة أن يستريح إلى الفصام الوجداني، ويحسبه حلًّا لمشكلة الحكم والطاعة، قابلًا للدوام.

هذا الشأن، والشأن العظيم للعقيدة الإسلامية كما يصفها العقاد، بها وبمنهجها هو الذي جعل المسلم وحدة متكاملة، لا يتجلى واضحًا قويًّا كما يتجلى من عمل الفرد في نشر العقيدة، ودليل ذلك إسلام عشرات الملايين في الصحاري الإفريقية وغيرها على يدي تاجر فرد، أو متصوف صاحب طريقة، أو مذهب أو اتجاه، منفرد في خلوة واعية، يحيا فيها أحيانًا ليعود إلى رسالته مع الناس، والأحياء والحياة، غير معتصم بسلطان هيكل ولا بمراسم كهانة، وإنما هو مع الله متخلق بأخلاق الله الذي ليس كمثله شيء. ولا شك أن قدرة الفرد المسلم هنا تعمل، وتصنع ما لم تصنعه جموع التبشير والمبشرين من سدنة الاستعمار والاستشراق، وتصنع ما لم تصنعه سطوة الفتح والغلبة.

قوام الأمر كله هو شمول العقيدة، وشمول الدعوة، ولا يوصف بالشمول دين ينكر الجسد، كما لا يوصف بالشمول دين ينكر الروح، وما كان الشمول في العقيدة ليذهب فيها إفراط في ملكة من الملكات، وليس في الإسلام على الإطلاق أن الخطيئة موروثة في الإنسان قبل ولادته، ولا أنه يحتاج في التوبة

® في "اقتران العمل بالإيمان في الإسلام" طالع: الشبهة الثالثة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

١. الإسلام كبديل، د. مراد هوفمان، مرجع سابق، ص٣٨: ٤١.

٢. المرجع السابق، ص١٣٨.

عنها - دون جريرة[1] - إلى كفارة من غيره، فالإسلام عقيدة شمول؛ لأنها تشمل النفس الإنسانية بجملتها من عقل وروح وضمير وجسد مطمئن متوافق مع عقله وروحه وضميره.

أمر آخر خطير يمس عقيدة الإسلام، هو أن شمولها أفرد لها مزايا لم تُعهد في دين آخر من الأديان الكتابية، فإن تاريخ التحول إلى هذه الأديان لم يسجل لنا قط تحولًا اجتماعيًّا إليها من دين كتابي آخر بمحض الرضا والاقتناع، إذ كان المتحولون إلى المسيحية واليهودية قبلها في أول نشأتها أممًا وثنية لا تدين بكتاب، ولم تعرف قبل ذلك عقيدة التوحيد السليم، أو الإله المحيط بكل شيء، ولم يحدث قط في أمة من الأمم ذات الحضارة العريقة، أنها تركت عقيدتها لتتحول إلى دين غير الإسلام، إنما تفرد الإسلام بهذه المزية دون سائر العقائد، فتحولت إليه الشعوب فيما بين النهرين، في أرض الهلال الخصيب، وفي مصر وفي فارس، وتحول إليه أناس من أهل الأندلس، وصقلية، كما تحول إليه أناس من أهل النوبة في السودان القديم، عاشوا مع المسيحية أكثر من قرنين كاملين.

ما الذي رغبهم وحبب إليهم التحول، والإنابة إلى دين الفطرة؟! إنه الشمول، الشمول الحي النابض بأعظم دفقات ونبضات الدنيا والآخرة جميعًا على استواء واعتدال. إنه الشمول الذي يجمع بين النفس والضمير، ويعم بني الإنسان على تعدد الأقوام والأوطان، ويحقق المقصد الأكبر من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد الشرائع وعقائد الأخلاق وآداب الاجتماع[2] ®.

لم تتوقف ميزات رسالة الإسلام وخصائصها على وقت نزولها فقط، بل صاحبتها في مسيرة التاريخ بحيوية مدهشة في تجاوبها مع واقع الحياة، ومتطلباتها، وذلك أنها تضم نوعين من التعاليم، الأولى: ثوابت راسخة لا تتبدل بتبدل الزمان والمكان، وهي الأصول، وأخرى مرنة قابلة للتكيف مع متغيرات الزمان والمكان دون أن يمرق الإنسان أو يتفلت من إطار الأصول السابقة، وهذا هو ميدان الاجتهاد في الإسلام لإنزال الأحكام الشرعية على أرض الواقع، لضبط سلوك الإنسان، وظروف حياته المتغيرة، بضابط الشرع.

يقول د. محمد عمارة في هذا الشأن: "لا وحي بعد القرآن ولا نبوة بعد محمد ﷺ هذه هي شريعة الرسالة الإسلامية، ختام كل الرسالات، فقد احتفظت هذه الشريعة بالثبات في كل الأحكام، ولكنها أتاحت الفرصة لكل ما هو متغير في شئون الدنيا، بحيث فتحت باب الاجتهاد أمام العقل المؤمن.

لقد وقفت الشريعة الإسلامية عند التفصيل في الأحكام لما هو ثابت، والإجمال في الأحكام لما هو متغير، فاكتفت إزاء المتغيرات من شئون الدنيا بما يمثل

١. الجريرة: الجناية والذنب.

٢. الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٤١٤، ٤١٥..

® في **"شمولية الإسلام لكل جوانب الحياة"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي). والوجه الأول، من الشبهة السادسة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء الخامس (النظم الحضارية). وفي **"وسطية الإسلام"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السادسة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

فلسفة للتشريع والتقنين، وذلك حتى لا ينسخ التطور الأحكام الإلهية إن هي فصلت وقننت لهذه المتغيرات، وأيضًا حتى لا تحدث قطيعة معرفية في فلسفة بين الفقه المتطور وبين ثوابت الشريعة وروحها المتميزة، فاحتفظت الشريعة الإلهية بالثبات الذي حقق لها التواصل في حضارة الأمة وفقه فقهائها عبر الزمان والمكان.

وواكب الفقه كل المستجدات مع التزامه بفلسفة التشريع الإسلامية وهو يقنن لكل جديد. فكان كالفروع النامية التي تظلل المساحات الجديدة في الواقع المتطور مع استمدادها روح التشريع الإسلامي من المنابع والجذور.

ولهذه الحقيقة من حقائق الوسطية الجامعة بين الثوابت والمتغيرات، بين الشريعة التي هي وضع إلهي ثابت وبين الفقه الذي هو اجتهاد الفقهاء في إطار الشريعة الثابتة ـ لهذه الحقيقة كان الاجتهاد فريضة كفائية من فرائض الإسلام، يجب على الأمة أن تخصص له من علمائها من ينهض بفريضته، وإلا وقع عليها الإثم بكاملها.

وغير آيات التدبر والتفكر، ففي القرآن أيضًا: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣)، ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (التوبة)، وحتى في عصر البعثة النبوية عندما كان البلاغ القرآني، والبيان النبوي ـ يجيبان عن علامات استفهام المجتمع المسلم، وكان الرسول ﷺ يرسي قواعد الاجتهاد الإسلامي، ليس بمجرد السماح به، بل بالحثِّ عليه والترغيب فيه. فهو القائل: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر"[1].

ومن نعم الإسلام على العقل المسلم أنه لم يحظر عليه الاجتهاد في ميدان يستطيع الاجتهاد فيه، فباستثناء الغيب، وما لا يستطيع العقل أن يفقه كنهه، أو يستقل بإدراكه، فتح الإسلام أمام العقل المسلم آفاق الاجتهاد، ففي النصوص قطعية الثبوت والدلالة هناك اجتهاد في فهمها، وفي تقعيد وتقنين أحكامها، وفي تنزيل هذه الأحكام، وفي النصوص ظنية الدلالة هناك اجتهاد في دلالتها، وفي النصوص ظنية الثبوت هناك اجتهاد في ثبوتها، أما ما لا نص فيه، فأبواب الاجتهاد فيه مفتوحة لقياس أحكامه على غيره مما فيه أحكام نصية، وبينهما علاقات؛ ولأن الاجتهاد الإسلامي فريضة إسلامية، تحولت في الحضارة الإسلامية إلى علم من علوم الإسلام، فإن قواعدها وضوابطها وشروطها قد صانتها، ويجب أن تصونها دائمًا وأبدًا، عن الأدعياء وعن الأعداء.

فهذا العلم ككل العلوم الشرعية مؤسس على الكتاب والسنة، والغاية منه تحقيق إسلامية المعرفة في كل ميادين الاجتهاد[2].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٦٩١٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٤٥٨٤)، واللفظ له.

٢. الإسلام وضرورة التغيير، كتاب العربي، التاسع والعشرون ١٥ يوليو ١٩٩٧، ص٧٢، ٧١.

ثالثًا. حضارة ذات نزعة إنسانية:

وعلى عكس المدنية الغربية الحديثة، التي نهضت على أنقاض الدين ونفوذ الكنيسة، مغرقة في العلمانية اللادينية، استندت الحضارة الإسلامية في أَوْج[1] ازدهارها إلى المرجعية الدينية الإسلامية، وظلت وثيقة الصلة بها، فجاءت حضارة فريدة في طابعها، وفي تأثيرها، وقد شهد لها البعيد قبل القريب، وقد أورد بعضًا من هذه الشهادات الأستاذ محمد فريد وجدي تحت عنوان "ما أفاده الإسلام للمدنية، شهادات لا يمكن التَّماري[2] في صحتها"، فقال: "لقد أفاد الإسلام العالم كله من الناحيتين الدينية، والمدنية، إفادة يتعذر تقديرها، وليس المسلمون بحاجة لأن تبين لهم وجوه الإفادة الدينية، فإن ما يعلمونه من سلامة عقائدهم وأصالة أصولهم، وما أبيح لهم من حرية الفكر والنظر، والاعتماد على العقل وأعلام الوجود، لا تدعهم يشكون في أن دينهم سنّ للناس كافة سنة لا مَحِيص[3] لهم عن القيام عليها.

فإن ظهر أن كثيرًا منهم لا يزالون يتحامون الجري عليها، فسيضطرهم الترقي العلمي والفلسفي إلى الاعتراف بأحقيتها، وإذ ذاك يلتقي الناس كافة في حظيرة واحدة، هي حظيرة الإنسانية الموحدة تحت علم الدين الفطري، والمعارف الممحصة.

أما من الناحية المدنية، فقد شهد العالم كله بأن المسلمين حفظوا التراث العلمي العالمي، وتولوه بالزيادة والتمحيص، وطبقوه على حاجات الحياة الإنسانية، فأوجدوا بذلك مدنية ليس في العالم اليوم من يدعي أنه ليس مدينًا للإسلام من هذه الناحية.

قد استشهدنا على صحة هذه الدعاوى، بجماهير من كبار المؤرخين والعلماء الأوربيين، وآخر ما وصل إلينا عنهم في هذا الباب كتاب حضارة العرب للعلامة الاجتماعي جوستاف لوبون، وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ النابه محمد عادل زعيتر، ونرى أن نقتبس منه بعض ما قاله العلامة الاجتماعي المذكور في هذا الشأن ليتدبره المسلمون، ويعرفوا أن ما قصروا فيه من بيان هذا الحق، قد قام به من منصفي الغربيين من لا يمتُّون[4] إليهم بأقل صلة.

قال جوستاف لوبون تحت عنوان "تمدين العرب لأوربا، تأثير العرب في الشرق والغرب": "خضع الشرق لكثير من الشعوب كالفرس والإغريق، والرومان... إلخ، ولكن تأثير هذه الشعوب السياسي، إذا كان عظيمًا فيه، فإن تأثيره المدني فيه كان ضعيفًا للغاية.

وما عجز عنه الإغريق والفرس والرومان قدر عليه العرب بسرعة، ومن غيره إكراه. وما وفق العرب له في مصر اتفق لهم مثله في كل بلد خفقت فوقه رايتهم كأفريقية - يريد تونس - وسورية وفارس، وقد بلغ نفوذهم بلاد الهند، التي لم يدخلوها إلا عابري سبيل، وقد كان لهم تأثير واضح في بلاد الصين التي لم يزوروها إلا تجارًا.

ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب،

١. الأَوْج: القِمَّة.
٢. التَّماري: الجدال.
٣. المَحِيص: المَحِيد والمَهْرب.
٤. يمتُّون: ينتمون.

فجميع الأمم التي كانت ذات صلة بالعرب، اعتنقت حضارتهم، ولو حينًا من الزمن.

ولم يتجلَّ[1] تأثير العرب في الشرق في الديانة واللغة والفنون وحدها، بل كان لهم الأثر البالغ في ثقافته العلمية أيضًا. وقد نقل العرب إلى الهند، والصين أثناء صِلاتهم بهما قسمًا كبيرًا من معارفهم العلمية التي عدها الأوربيون على غير حق من أصل هندي أو صيني، ويظهر أن ما اقتبسه الصينيون من العرب أهم مما أخذه الهنود عنهم، وأن علوم العرب دخلت الصين على إثر الغارة المغولية، وأن الفلكي الصيني الشهير كوشوكينغ تناول في سنة ١٢٨٠م رسالة ابن يونس في الفلك، وأذاعها في بلاد الصين، وأن الطب العربي انتشر في الصين في سنة ١٢١٥م، وقتما غزاها كوبلاي خاقان المغول[2].

ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوربا حينما أدخل العرب الحضارة إليها، فإذا رجعنا إلى القرن التاسع من الميلاد حين كانت حضارة العرب الأندلسية في أوج نضارتها، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجًا يسكنها أمراء إقطاعيون متوحشون يفخرون بعجزهم عن القراءة، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان المساكين الجاهلون، الذين كانوا يصرفون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا بخشوع كتب الأقدمين النفيسة ليكون عندهم بذلك من الرُّقوق[3] ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة.

مضت مدة طويلة قبل شعور أوربا بهمجيَّتها، ولم يَبْدُ[4] ميلها إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر، والقرن الثاني عشر من الميلاد، فلما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل عنهم، ولَّوْا وجوههم شطر العرب.. وإذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا ما انطوت عليه القرون القديمة، فالعرب هم تلك الأمة، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون اسم اليونان، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة، قال المسيو ليبري: لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الحديثة عدة قرون.

إن عرب الأندلس إذن هم الذين صانوا في القرن العاشر من الميلاد العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان، حتى في القسطنطينية، ولم يكن في العالم في ذلك الزمن غير الأندلس العربية بلاد يمكن طلب العلم فيها، فإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلم، ونذكر منهم على حسب بعض الروايات التي لا تزال موضوع جدال جربرت الذي صار بابا في سنة ٩٩٩ ملقبًا بسلفستر الثاني، ولما أراد هذا البابا أن ينشر في أوربا ما تعلمه عد الناس ذلك من الخوارق واتهموه بأنه باع روحه إلى الشيطان.

وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس في جامعات أوربا نحو ستة قرون، ويمكننا أن نقول إن تأثير العرب في بعض العلوم كعلم الطب مثلًا، دام إلى الزمن الحاضر. فقد شرحت كتب

---

١. يتجلَّى: يظهر.

٢. خاقان المغول: سلطانهم الأكبر.

٣. الرُّقوق: جمع الرَّق، وهو جلد يُكتَب فيه.

٤. يبدو: يظهر.

ابن سينا في مونبيليبه في أواخر القرن الماضي.

وإذا كان تأثير العرب عظيمًا في أنحاء أوربا التي لم يسيطروا عليها إلا بمؤلفاتهم، فقد كان تأثيرهم أعظم من ذلك في البلاد التي خضعت لسلطانهم كبلاد أسبانيا. ولن يرى الباحث مثالًا أوضح من العرب على تأثير إحدى الأمم في أمة أخرى، ولم يشتمل التاريخ على ما هو أبرز من هذا المثال".

هذا ما يقوله العلماء الاجتماعيون الأوربيون الذين لا يصح اتهامهم بالمبالغة والإغراق في أمر لا تعود منه عليهم ولا على أقوامهم أية مفخرة، ونحن إن نشرناه هنا. كما نشرنا عشرات من مثله في تقدير تأثير أوائلنا في أحوال العالم الأدبية والمدنية، فما ذلك إلا لنداك على أن في الإسلام روحًا تبعث الآحاد والجماعات إلى الارتقاء لا يوجد ما يشبهها في التعاليم البشرية. ولنا من وراء ذلك مطلب أكبر قيمة من هذا، وهو أن نستفيد منه لنستعيد مجدنا القديم، ومكانتنا العالمية الماضية، وهو أمر لا سبيل إليه إلا بعملنا المتواصل لتجلية الإسلام في صورته الحقيقية باجتثاث جذور البدع المتفشية في جميع الشعوب الإسلامية، وقطع دابر الآراء الضالة في الدين والدنيا والآداب العامة والخاصة، والعمل في دُءوب ومضاء على توهين[1] أصول الفلسفة المادية التي تعتبر أقوى عدو للأديان في العصر الحاضر، ومن الله التوفيق[2].

ومما لا مماراة فيه عند العقلاء أن ميزة الحضارة الإسلامية الفريدة، أنها حضارة ذات نزعة إنسانية عامة لا عنصرية خاصة، في ذلك يقول الدكتور عبد الله علوان: الحضارة من حيث مفهومها لا تكون ذات طابع إنساني حتى تتصف بالرقي المادي، والرقي المعنوي على حد سواء. والمقصود بالرقي المادي للحضارة مظهرها المتمثل بالصناعة والزراعة، والتجارة، وأصناف الفنون، وأنواع العلوم، لكل أمة ناهضة وشعب طموح. والمقصود بالرقي المعنوي المبادئ الروحية، والقيم الخلقية، والمفاهيم الفكرية، التي تعبر عن معتقدات الأمة وسلوكها، وفلسفتها في الحياة.

والحضارة في تحقيق هدفها، لا تقاس بالتقدم الفكري والعلمي، أو الإبداع الصناعي والآلي، أو التفوق الزراعي والعمراني، إلا بمقدار ما يكون ذلك تعبيرًا عن مقاصد إنسانية سامية، وتجسيدًا لأهداف خلقية نبيلة.. وهنا يرد السؤال: هل الحضارة في الإسلام تتميز بالطابع المادي، والطابع المعنوي على حد سواء أم تقتصر على أحدهما دون الآخر؟

وإذا كانت تتميز بالطابع المعنوي، فهي ذات قيم روحية، وذات مبادئ خلقية، وذات فلسفة فكرية، وبالاختصار إنها ذات نزعة إنسانية تجلت زمنًا في حياة الشعوب، وبناء الأمم. والآن نريد أن نكشف لكل ذي عينين عن حقيقة هذه النزعة، وأن نبين مبادئها في عالم الفكر، وأن نوضح آثارها وتطبيقاتها في عالم الواقع، ليعلم من يريد أن يعلم أن الحضارة في الإسلام لم تقتصر على الجانب المادي فحسب، وإنما شملت الفضائل الإنسانية، والمكارم الخلقية والقيم الروحية،

---

١. التوهين: الإضعاف.

٢. من معالم الإسلام، د. محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٥٧: ٦٠.

على حد سواء[١].

وبعد أن يسهب المؤلف في تبيان خصائص النزعة الإنسانية في هذه الحضارة مثل: مبدأ لا إكراه في الدين، ومبدأ التعارف بين الشعوب، ومبدأ تحقيق العدالة والمساواة بين الجميع، ومبدأ الجنوح للسلم، ومبدأ الإحسان للأَسْرى، ومبدأ الحرب الرحيمة، ومبدأ حفظ العهود والمواثيق، ومبدأ الاستفادة من حضارات الأمم الأخرى، الحكمة ضالة المؤمن، يقول: "ولكن هل كانت هذه المعارف في تقرير النزعة الإنسانية بين الأقوام غير المسلمة، حبرًا على الورق، أو بوقًا للدعاية، أو سرابًا لخداع الشعوب، أو كانت حقيقة قائمة في عالم الواقع، وميدان التنفيذ؟

فلنستقرئ التاريخ ليقول كلمته ويدلي بحجته، لكونه الحكم الفصل:

- السلطان سليم الأول العثماني رأى أن الرومان والبلغار والأرمن، قد كثروا في مملكته كثرة مزعجة، وأقضُّوا مضجع الدولة الإسلامية بفتنهم ومؤامراتهم، فقرر أن يجبرهم على الإسلام، أو يخرجهم من مملكته، فعارض شيخ الإسلام زنبيلي علي أفندي معارضة شديدة، وقال له بلهجة فيها حدة: ليس لك على اليهود والنصارى إلا الجزية، وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم، فرجع السلطان سليم عند عزمه امتثالًا لإرادة الشرع. وهذه الحادثة التاريخية تدل على أنه لا إكراه في الدين.

- أبى رسول الله ﷺ أن يقاتل أهل جرباء وأيلة وأذرح بعد أن انسحبت أمامه جحافل الروم في تبوك، أبى أن يقاتلهم لما وجد من جنوحهم للسلم امتثالًا لقوله ﷻ: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ (الأنفال: ٦١).

وهو الذي أنكر على أسامة بن زيد فعلته لقتله رجلًا من المشركين استسلم للإسلام، وقال كلمة الحق، وقد قال له ﷺ: "أقال لا إله إلا الله وقتلته"؟ قال: قلتُ: يا رسول الله، إنَّما قالها خوفًا من السلاح! قال: "أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أَمْ لا"[٢]. فهذه الأفعال تدل على أن من جنح للسلم فعلينا أن نجنح له.

- ومما يرويه التاريخ أن عاملًا من عمال عمر بن عبد العزيز كتب إلى عمر يقول: إن الدخول في الإسلام أضرّ بالجزية، أفأفرضها على مَنْ أسلم؟ فأرسل إليه عمر بن عبد العزيز يقول: قبح الله رأيك، إن الله ﷻ لم يرسل محمدًا ﷺ جابيًا، وإنما أرسله هاديًا، فإذا أتاك كتابي هذا، فارفع الجزية عمن أسلم من أهل الجزية!!

وهذا الموقف من الخليفة الأموي عمر يدل على أن الذمي إذا أسلم بطوعه واختياره يكون شأنه كأي مسلم آخر، له ما لنا وعليه ما علينا، بلا ظلم ولا عدوان!!

- لمَّا غزا التتار بلاد الإسلام، ووقع كثير من المسلمين والنصارى في أسرهم، ثم عادت الغلبة للمسلمين، ودان ملوكهم بالإسلام، خاطب شيخ الإسلام ابن تيمية أمير التتار بإطلاق الأسرى، فسمح له الأمير التتاري بفك أسرى المسلمين وأبى أن يسمح

---

١. معالم الحضارة في الإسلام، د. عبد الله ناصح علوان، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٩٨٤م، ص١١١: ١١٣.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله (٢٨٧).

بأهل الذمة، فقال له شيخ الإسلام: لا بد من فك الأسرى من اليهود والنصارى؛ لأنهم أهل ذمتنا، فأطلقهم له.

- ومن أروع ما نسوقه في هذا الصدد ما ذكره البلاذري في كتابه "فتوح البلدان" من أنه لما استخلف عمر بن عبد العزيز، وفد عليه قوم من أهل سمرقند، وشكوا إليه قتيبة بن مسلم الباهلي بأنه دخل مدينتهم على غدر منهم وأسكن المسلمين بها؟ فكتب عمر إلى واليه في الولاية المجاورة وأمره بأن يرفع شكواهم إلى القاضي، فإن ثبت لديه ما ادعوه أمر بإخراج المسلمين من سمرقند، فلما رفعت القضية إلى قاضي المسلمين ابن خاطر الباجي، حكم بإخراج المسلمين، فعجب أهل سمرقند من عدالة المسلمين وأكبروها، ودخلوا في الإسلام طائعين.

- وكان للذميين نوع من التأمين الاجتماعي ضد الشيخوخة، والمرض، والفقر، فإن خالد بن الوليد ﷺ حين كان يقود معارك الفتح في العراق أعلن في معاهدة الصلح مع أهل الحيرة ـ وكانوا مسيحيين ـ: "وجعلتُ لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيًّا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحتُ جزيته، وعِيل[1] من بيت مال المسلمين هو وعياله ما أقاموا بدار الإسلام".

وروى أبو يوسف في كتاب "الخراج" أن شيخًا كان يسأل الناس في عهد عمر، وكان ذميًّا يهوديًّا ـ فقال له عمر: ما أنصفناك، أكلنا شبيبتك ثم نضيعك في هَرَمك، ثم أخذه إلى بيته فأعطاه ما وجده، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول: انظر إلى هذا وضُرَبائه[2] فافرض لهم من بيت المال ما يكفيهم وعيالهم، إنما الصدقات للفقراء والمساكين، وهذا من مساكين أهل الكتاب.

وروى البلاذري في كتاب "فتوح البلدان" أن عمر بن الخطاب ﷺ مرَّ وهو في طريقه إلى الشام بقوم مَجْذُومين[3] من النصارى، فأمر أن ينفق عليهم من بيت المال ما يكفيهم وعيالهم، وبأن يجعل لكل واحد منهم من يخدمه، ويقوم على شئونه، فهذا غَيْض من فَيْض، مما شهد به التاريخ على ظاهرة النزعة الإنسانية المتمثلة في مبادئ الإسلام، والمتحققة في معاملة الحكام، والقائمة في عالم الواقع عبر العصور، فقد طوَّف نظام الإسلام في الآفاق شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، ونزل السهول والوديان، وساح في الجبال والصحاري، وتقلب في جميع البيئات والأمصار، وعاصر الرخاء والشدة، والسلم والحرب، والحضارة والتخلف، وواجه الأحداث في جميع الأزمنة والقرون.

فكانت المعاملة الحسنة لأبناء الشعوب لا مثيل لها في التاريخ، بل كان الانفتاح على الأمم ظاهرة من ظواهر هذا الدين، بل كان التسامح الذي شهده أصحاب العقائد والملل من حكام المسلمين مفخرة من مفاخر الإسلام. ومن الشهادات الحقة من شهادات المنصفين.

يتبين أن التاريخ لم يعرف أنبل ولا أكرم ولا أرحم من سماحة المسلمين وعدلهم في معاملة الأعداء فضلًا عن الأصدقاء.

لقد عَقِم التاريخ أن يلد حُكَّامًا كأبي بكر، وعمر،

---

1. عِيلَ: جِيء له بما يحتاج من مال وكساء وغيره.
2. الضُّرباء: الأمثال.
3. المَجْذُوم: الذي أصابه مرض الجُذام.

وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز، وصلاح الدين... وعشرات غيرهم ﷺ، وعقمت الدساتير أن تصنع دستورًا كمبادئ الشريعة الإسلامية، وأنظمة القرآن الكريم في العمق، والموضوعية، والدقة، والشمول؛ لأن العظمة في هؤلاء الحكام أنهم أخذوا بأنظمة القرآن الكريم، ومشوا على سنته، والعظمة بالقرآن أن اختار الله تعالى له رجالًا بحكمته، وساروا على هديه: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) ﴾ (المائدة).

والذي نخلص إليه مما تقدم: أن الحضارة في الإسلام تميزت بشيئين:

- تميزت بالرُّقيِّ المادي؛ لكونها شملت جميع جوانب الحياة.
- وتميزت بالرقي المعنوي؛ لكونها شملت مبادئ النزعة الإنسانية، وعواملها الروحية والخلقية على حد سواء.

وهاتان الميزتان للحضارة الإسلامية تؤكدان أن الحضارة في الإسلام ذات طابع إنساني لكونها سبيلًا إلى السعادة البشرية، وطريقًا لبناء شخصية الإنسان على أساس الاحترام والكرامة[1] ®.

---

١. معالم الحضارة في الإسلام، د. عبد الله ناصح علوان، مرجع سابق، ص١٣١ وما بعدها.

® في "الجانب الإنساني في رسالة الإسلام" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

رابعًا. زرع شيطاني:

رغم هذا البون الشاسع بين طبيعة الحضارة الغربية الحديثة الناهضة على رفات الدين النصراني، وبين الحضارة الإسلامية المرتكزة على الدين، إلا أن قومًا من إخواننا في المشرق ممن هواهم غربي خالص قد حاولوا أن يسيروا بنا مسيرة الغرب نفسها، ويوجهونا وجهته ذاتها، المتنكرة للدين في نهضتها، بأن جاهدوا ولا يزالون في سبيل استزراع هذا النموذج الغربي في مجتمعات الشرق، فنما زرعهم شيطانيًّا غريبًا، ملفوظًا من هذه المجتمعات، كجسم مريض يلفظ عضوًا غريبًا استزرع فيه دون مواءمة، فلم يتكيف معه، وجاءت ثمرة حصادهم حنظلًا مُرًّا.

وقد أغراهم بتكرار التجربة الغربية في مجتمعات الشرق في العصر الحديث تراجع المسلمين السياسي والحضاري، وتعطل الاجتهاد ورسوخ التقليد، فحملوا وزر هذا كله على رقبة الدين - وهو منه براء - فأرادوا أن يلفظوه من حياة المسلمين كما لفظه الغرب إبان مطلع نهضته الحديثة، لكن الجهة منفكة بين التجربتين والحالتين، فالمعروف أن الكنيسة - باسم الدين - تتحمل جانبًا كبيرًا من أسباب تخلف أوربا في العصور الوسطى، بينما الثابت في الحالة الإسلامية - حيث لا كنيسة ولا كهنوت - أن مجافاة المسلمين لدينهم - الذي ارتكزت عليه حضارتهم الباكرة الزاهرة - هي أكبر أسباب تراجعهم وانحطاط شأنهم. فالمقدمات في الحالتين ليست متماثلة أو متشابهة حتى تؤدي إلى النتيجة نفسها، ومن ثم تستدعي العلاج ذاته.

تحت عنوان "أَغْلِفة تُغطِّي الحقيقة العظمى" يحدثنا

الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ عن أثر هذه العوامل السابقة وما نتج عنها من اختلاط الحق بالباطل في واقع المسلمين المعاصر، فيقول: "يطيب لي أحيانًا أن أقيس نفسي بسكان الأرض من البشر كما تقيس القطرة نفسها أحيانًا بأمواج اليم! أقول: ما أنا؟ واحد من خمسة مليارات يطعمها قيِّم السماوات والأرض. انتشر بين المدائن والقرى، ما أقل شأني!

لكن القضية ليست قضية طعام ميسور أو مجهد يحيا به هذا الجسد، إن لكل واحد منا عينين وأذنين يطل بهما على الوجود من حوله، والإبصار وظيفة معقدة تنقل صور الأشياء إلى المخ ليميز بعضها عن بعض ثم يتصرف. وكذلك الآذان في أصداغ الناس كلهم، وقد تكون وظائفها أعقد وأصعب.

عليَّ ـ كي أستبين الحق ـ أن أجيب عن خمسة أسئلة في هذه الآية: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ (يونس: ٣١).

إن عشرين مليارًا من الآذان والعيون، تقوم بوظائفها في هذه اللحظة تحت إشراف بالغ الدقة، وهناك أضعاف هذا العدد من الخلايا التي تولد، والخلايا التي تفنى، في كل كيان حي تظل فيه الحرارة، وتتجدد فيه الأنسجة، إلى أن يأذن الله بقبضه، فتخلو منه الدنيا بعد أن جاءها كما كانت خالية منه قبل أن يجيئها!

مَنْ المشرف على هذه الكواكب المتصلة؟ من يدبر أمرها كله؟ إنني في دنيا الناس الآن ـ عندما أقيس نفسي بسكان الأرض ـ أهون من ذبابة. فكيف إذا قِسْتُ نفسي بجموع المستقدمين والمستأخرين من أزل الدنيا إلى أبدها؟ كم أساوي والحالة هذه؟

لقد تضاءلت كثيرًا وهذا الخاطر يمر بي، وزاح عني غروري، وعرفت أن المحصورين في أنفسهم يعيشون في وهم كبير، أو في ظلمة دامسة! ثم طفر بي الطفر طفرة أخرى: ما يكون وزن الناس كلهم بعدما أسمع هذا النبأ عن أبعاد الكون الذي نَرْمُق[1] ملكوته بقصور شديد؟ يقول الله ﷻ: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (غافر).

إن الأرض إذا قيست بأمها الشمس هباءة[2] طائرة، والشمس إذا قيست بالمجرات الأخرى هباءة شاحبة، والشموس والمجرَّات إذا قيست بملكوت الله حَلَقَة في فَلَاة[3]، وليس يبقى في العالم الرحب شيء له قيمة تذكر إلا عقل ساجد لله جاثٍ أمام عظمته يقول: "سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم".

إن الألسنة اللاهثة[4] تنقطع وهي في سباق مع ذرات الوجود قبل أن تحصي ما ينبغي لله من مجد، وما يستحقه من حمد.

إن الإنسان الأول الذي أحسن تنزيه الله وتوحيده ومدحه، والثناء عليه، بما هو أهله، والحضارة التي أقامها على ظهر الأرض، أساسها الربانية الخالصة، وشعارها الفذ: الله أكبر، وجهادها الزاكي الباقي هو

١. يرْمُق: يديم النظر.
٢. الهباءة: ذرات التراب التي تُرى في شعاع الشمس.
٣. الفَلَاة: الصحراء.
٤. اللاهث: الذي يُخرج لسانه من شدة العطش أو الحرارة.

لحراسة الحقيقة الواحدة، وإخماد المناوشات التي تعاديها، وقد لاحظت ـ وأنا وزملائي ندرس العلوم الحديثة ـ كأن هناك مؤامرة طويلة الذيول لتجهيل الناس بالله، وصرفهم عنه، وتعليقهم بأوهام ما أنزل الله بها من سلطان.

اسمع هذه الكلمة: "إن الطبيعة زودت الأرحام بوسائد ينقلب فوقها الجنين فلا تضطرب له أجهزة، ولا تشوه له ملامح مهما كانت الاهتزازات التي تتعرض لها الأم!!

ما الطبيعة التي قامت بهذه المهمة الصعبة؟ ذكر هي أم أنثى؟ جنّ هي أم ملك؟ كيف قامت بمهمتها هذه في أرجاء القارات الخمس؟ ظاهر أن الكاتبين يتعمدون إسدال حجب خادعة على عمل القدرة العليا، ظاهر أن المراد إهالة التراب على اسم الله! أهذه معرفة إنسانية، أم جهالة إنسانية؟

إن البيئة التي نشأ فيها العلم المادي، كانت أبعد ما تكون عن احترام الدين؛ لأن الدين الذي عرفتْه كان أبعد ما يكون عن احترام العقل، بيد أن الحقيقة لا يجوز أن تضيع في هذه المتاهات الغريبة!

واسمع هذا الكلام في تفسير بدء الخلق: "منذ ٥٠ مليون سنة وقع انفجار عظيم في الكون، انطلقت منه سُحُبٌ هائلة من الغازات والذرات أخذت تدور هنا وهناك، ثم تجمعت على مرّ السنين، فإذا هي تلك النجوم والشموس، والعوالم العليا والدنيا التي تشرق وتغرب في أرجاء السماوات!!

انفجار نشأت عن أنقاضه المتناثرة هذه الكواكب الدوارة، بحساب دقيق: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ (يس: ٤٠).

ونشأت عن مصادفته العمياء أو العوراء أرضنا التي قال موسى في وصفها لفرعون، أو في عمل الله بها كما عبر القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤﴾ (طه).

أيّ انفجار هنا؟ مَنْ صاحبه؟ كيف تمخض تلقائيًّا عن هذه الأفلاك التي لا يعوجّ لها مدار، والتي لا يتخلف لها ميعاد في شروق أو غروب؟! هذا هذر باسم العلم! هذا تجهيل متعمد للخالق الحق بديع السماوات والأرض، والذي يراه أولو الألباب أن العلم الحديث يجب أن يبرَّأ من هذا التجهيل الكَنُود[1]، وأن يترك هذه التي ينطلق منها في علوم الكيمياء، والفيزياء، والأحياء، وأن يتحدث بأدب وخشوع عن الخالق.

وهذا التصحيح هو عمل المسلمين الأُوَل، وهو ألف باء الرسالة الإسلامية، والواقع أن علم التوحيد، أو علم الكلام هو الذي ينهض بهذا العبء عندما ينسجم مع قواعده القرآنية، ويتخلص من أدران[2] الفكر الإغريقي القديم، ويتخلص في الوقت نفسه من العوام الذين يقفون عند الظواهر القرآنية، ويتحدثون عن الله حديثًا يشبه حديث الخرافيين من أهل الكتاب الأولين، ويكادون يجسدونه لفرط سذاجتهم.

المظنون أن البلاد التي سَعِدت بالوحي أدنى إلى الرشد، وأحق بالاستقرار من البلاد التي حُرِمت

١. الكَنُود: الجاحد.
٢. الأدران: جمع دَرَن، وهو المرض أو الأوساخ.

منه، فقد تمهد لها الطريق، وانزاحت العقبات، ولعلها تجد في مسيرتها ما يعرفها بالوجهة ويؤمنها من الأخطار.

لكن ملاحظة الماضي والحاضر تخلف هذا الظن، وتلقي في أنفسنا أن جماهير غفيرة تحرم من بركات الدين لسببين: إمَّا زَيْغ في القلب، أو أَفَنٌ في الرأي[1]! وقد يلتقي السببان في بعض الأفراد أو في بعض الطوائف، والذي يتدبر القرآن الكريم يشعر بأنه أكثر الحديث عن أهل الكتاب السابقين كي يجنب أصحاب الرسالة الخاتمة قسوة القلب، وضعف الفكر، ويربطهم بالفكرة السليمة، والعقل الواعي! وليتنا أبصرنا على أشعة الوعي الخاتم هذه الحقائق!

فإن الإيمان يضيع أثره مع كل خلل يصيب العقل، ومع كل هوى يخالط القلب، أو بتعبير أصرح لن يكون للدين موضع يحتله ويعمل منه، إذا اختفى الإنسان السوي وتعطلت مشاعره، وتعطل أسمى ما فيه وهو تفكيره وضميره! وقد أعجبني كتاب الأستاذ عبد المنعم خلاف "أؤمن بالإنسان" لهذا الملحظ!!

عندما يكون الدين مراسم لفكر سطحي فإنه يتحول إلى أشكال وترانيم، وعندما يكون ذكاء مع شح مطاع وهوى متبع، فإنه يتحول إلى مصيدة للمغانم والمآرب[2]، وأخطأ سقراط عندما قال: الفضيلة المعرفة! ما قيمة المعرفة عند الذين تقودهم شهواتهم؟

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الجاثية)

لا بد ـ مع المعرفة الواسعة ـ من ضميمة أخرى هي النية الشريفة، وإخلاص القلب لله! وقد أفاض علماؤنا الأولون في أن النجاة تعتمد على الفقه. وهو المعرفة الصحيحة للحكم ـ وعلى التجرد ـ وهو البراءة من المآرب الشخصية والتمحضُ لله ﷻ، ويظهر أن الجمع بين الأمرين يحتاج إلى جهود مضنية.

هل كان الخوارج مخلصين؟ يرى الكثيرون أنهم أُتُوا من بَلَادَة الفقه، وقصر النظر مع حسن نيتهم!! ورأيي أنَّ رفضهم السماع من أولي الألباب وأهل الذكر هو لون من العناد، يقدح في إخلاصهم للحق ويخرجهم من دائرة الاجتهاد المحترم!

الفضيلة هي المعرفة حقًّا عندما تكون المعرفة باعثة على إرضاء الله وفعل الخير، ونصرة الحق، ومحق الباطل وتحسين الحسن وتقبيح القبيح، وما أحوج العالم الإسلامي إلى عارفين من هذا النوع الشريف. إن البيئات المتدينة في أرجاء شتى من العالم الإسلامي تتسم بالقصور والجمود، وتشدها إلى التراب طبائع معتلة، والجو الذي تحيا فيه ـ يخالف مخالفة تامة جو القرآن الكريم المليء بالصحو والضوء والتألق والانطلاق. لقد شرح لنا الوحي الخاتم علاقتنا بربنا وعلاقتنا بالناس، فعرفنا أن الله واحد، وأن ما عداه خَلْقٌ يعنو له، ويهلك إن فقد إيجاده وإمداده، وأننا عائدون إليه ألبتة بعد انقضاء آجالنا هنا، وأننا محاسبون على الطريقة التي قضينا بها أيامنا على ظهر الأرض، شرح القرآن ذلك بوضوح لم يعهد في فلسفة سابقة، ولا في دين مضى! فالإله كما صوره أرسطو يحيا في

١. أَفَنٌ في الرأي: نقصان في العقل.
٢. المآرب: الأغراض.

غيبوبة خاصة لا يدري ما يفعله غيره، ولا يعنيه، وهو بتعبير ول ديورانت: يملك ولا يحكم مثل ملكة إنجلترا! ولعل العالم صدر عنه بطريق التفاعلات الكيماوية! إنها ألوهية سخيفة!

أما الإله الثالث فشأنه لا يقل عجبًا، إن إدخال جبل في قارورة أيسر من إدخال فكرة التثليث والتوحيد في دماغ بشر، وكذلك فكرة الخطيئة والفداء، من أجل ذلك انفصل العلم عن الدين، واتخذ كل منهما وجهة خاصة به، على نحو ما قيل:

سَارَتْ مُشَرِّقَةً وَسِرْتُ مُغَرِّبًا
شَتَّانَ بَيْنَ مُشَرِّقٍ ومُغَرِّبِ

أما الوحي الخاتم ـ وما نحسب في الدنيا الآن وحيًا غيره ـ فهو يقود البشر من بصائرهم إلى كون يدل على الله تعالى، أو إلى إله تتجلى عظمته في ملكوته، وتتضح الآفاق بوحدانيته، وامتداد سلطانه!! ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (غافر).

ومن عجائب الدنيا أن أمة لديها هذا الوحي لا تحسن صحبته، ولا تستضيء بسناه، ولا تتعرف منه على حقوق الله، وحقوق الناس!! بل ينظر الناظرون إليها فيجدونها متخلفة عن الركب الإنساني السائر، يجود عليها هذا بآلة، وذاك برغيف، أو يمنُّ هذا عليها بدواء تعالج به عللها، أو سلاح ترد به العادين عليها، أما إنتاجها لنفسها ودينها فصفر!

إن الهزائم النفسية والعلمية أنْكَى[1] ـ في نظري ـ من الهزائم السياسية والعسكرية، ويغلب أن تكون هذه نتيجة لتلك. وقد رَمَقْتُ الصَّنَم[2] الذي هوى في أوربا الشرقية، وكيف تدافعت الشعوب إلى الخروج من سجن الشيوعية، وكيف تعالت صيحاتها وهي تطارد حكام الأمس الدابر، وتستنزل عليهم اللعنات!! وكنت أحسب الشيوعيين العرب سوف يتوارون خجلًا بعدما انكشفت عوراتهم هناك! لكن الذي حدث أنهم تماسكوا ونظموا في الجزائر مظاهرة نسوية لإلغاء قوانين الأسرة الإسلامية!

إن أشرف ما تُزَيِّن به العلمانية دعواها هو تطلُّعها إلى إنسانية سليمة، تنمو مواهبها في جوٍّ ضاحٍ[3] من الحريات المصونة، تحرسها عدالة اجتماعية وسياسية ممتدة، وينعم فيها الرجال، والنساء، والصغار، والكبار، بحقوق لا يعكرها أمنيات طبقي أو عرقي، وينتفع الناس فيها على الحياة، فيستغلون قوى الكون باقتدار مادي وعلمي لا حدود له.

إن حضارتنا الأولى كفلت هذا كله، وضمت إليه أمرًا آخر لا تعرفه الحضارة المعاصرة، هو الإيمان بالله والتزام هداه والإعداد للقائه، والشعور بأن هذه الحياة الدنيا جسر إلى ما بعدها من خلود! ذاك تاريخ سلفنا العظيم.

عندما أسقط المرتدون الخلافة الإسلامية في تركيا، أقاموا نظامًا علمانيًّا ظاهره الانفلات من الأديان كلها، وباطنه مخاصمة الإسلام وحده، ومتابعة أوربا في مظاهر حضارتها المنتصرة، وكان النظام الجديد

---

١. أَنْكَى: أشد..

٢. رَمَقْتُ الصنم: نظرته وشاهدته.

٣. الضَّاحي: المُشرِق.

عسكريًّا صارمًا، بدأ عهده بقتل عدد كبير من رجال الدين الذين قادوه، والحق أن الشعب كان كارهًا له، مُؤْثرًا الإسلام في شئون حياته كلها، بيد أنه فشل في مقاومة الارتداد المسلح، فاستكان على مضض[1]، وإلى حين، منتهزًا كل فرصة لإظهار ولائه الإسلامي وحنينه إلى أن يعود الإسلام المستبعد.

وبدهي أن تكون شئون الأسرة والعلاقات بين الجنسين هي في مقدمة ميادين الصراع بين العلمانية والإسلام، فقد كان الحكام حراصًا على نقل الاختلاط الأوربي الماجن إلى الشرق الإسلامي كله، وإذا كانوا قد تركوا القرآن خلف ظهورهم، فما الذي كان يرجى منهم؟!

﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (النور: ٢١) وقاومت طالبات الجامعات والمعاهد هذا الزحف المنحل، وأصررن على ارتداء الحجاب الإسلامي! إنه سمة الفضيلة والتحفظ! تبقى المرأة طاهرة مصونة عن الأعين المتلصصة! بيد أن هذا الاحتشام أحفظ الملاحدة، فاستصدر قائد الجيش قرارًا من المحكمة العليا بأن هذا الاتجاه الإسلامي يخالف الثورة الكمالية العلمانية، ومن ثم يجب منعه! وقد لاحظنا أن المحكمة الدستورية العليا في فرنسا أقرت الحجاب الإسلامي، ولم تر فيه تناقضًا مع النظام العام السائد، وهو حكم معقول، لكن التابع الأحمق قد يكون ملكيًّا أكثر من الملك، أفكان النظام التركي قادرًا على منع الراهبات المسيحيات من ارتداء ملابسهن، وهي أقرب ما تكون إلى الحجاب الإسلامي؟! إنه استأسد[2] على العفيفات المحصنات من طالبات الجامعات وحدهن[3]!

خامسًا. حضارة متوحشة:

هكذا يريد العلمانيون استغلال لحظة الوهن الحضاري في الجسد الإسلامي - الناشئة عن مجافاة الإسلام لا موالاته - كما ذكرنا - في استزراع ملامح مدنية، لا ننكر فائدتها وجدواها المستحبة في كثير من الجوانب المادية، لكن سِجِلَّها في الجانب الروحي والقِيَمِي والإنساني شائنٌ إلى حدٍّ كبير.

وقد كان منطقيًّا أن نقتبس منه الجانب المادي - شأن حضارات التاريخ البشري في التأثير والتأثر - مع إبقائنا على قِيَم عقيدتنا وهويتنا - كما فعلت كثير من الأمم المعاصرة؛ كاليابانيين والصينيين - لكن هؤلاء يريدون اقتلاعنا من جذورنا ومسخ هويتنا وإزاحة عقيدتنا، ثم يقال إن الإسلام قد بطل مفعوله وانتهى دوره في الحياة!!

ورغم تفلُّت هذه المدنية الغربية - المراد لنا أن نَحْذُو حذوها حَذْو النَّعْل بالنعل - من إسار[4] الدين فيبدو أنها قد استندت منه إلى ما يناسب وحشيتها، ففي الكتاب المقدس: "حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصُّلْح، فإن أجابتك إلى الصلح وفُتِحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربًا،

١. مَضَض: تَأَلُّم.

٢. استأسد: حاكى الأسد في القوة والبطش.

٣. تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، الشيخ محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٩٩٢م، ص٤١: ٥٤.

٤. الإسار: ما يُقيَّد به الأسير.

فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدِّ السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًّا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تَسْتَبْقِ منها نَسَمَة ما، بل تُحرِّمها تحريمًا: الحِثِّيِّين والأَمُوريين والكَنْعَانيين والفِرِزِّيِّين والحِوِّيِّين واليَبُوسيين، كما أمرك الرب إلهك، لكي لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم، فتخطئوا إلى الرب إلهكم". (التثنية ٢٠: ١٠ـ ١٨).

"فتجنَّدوا على مِدْيَان كما أمر الرب وقتلوا كلَّ ذَكَر. وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم: أَوِي وراقِم وصُور وحُور ورابع. خمسة ملوك مِدْيَان. وبَلْعام بن بَعُور قتلوه بالسَّيف، وسَبَى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم، ونهبوا جميع بهائمهم، وجميع مواشيهم وكل أملاكهم. وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم، وجميع حصونهم بالنار. وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم، وأَتَوا إلى موسى وأَلِعازار الكاهن وإلى جماعة بني إسرائيل بالسبي والنهب والغنيمة إلى المحلة إلى عَرَبات موآب التي على أُرْدُنِّ أَرِيحًا". (العدد ٣١: ٧ـ ١٢).

"فهتف الشعب وضربوا بالأبواق. وكان حين سمع الشعب صوت البُوق أن الشعب هتف هتافًا عظيمًا، فسقط السور في مكانه، وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه، وأخذوا المدينة. وحرَّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحدِّ السيف. وقال يشوع للرجلين اللذين تجسَّسا الأرض: «ادخلا بيت المرأة الزانية وأخرجا من هناك المرأة وكل ما لها كما حلفتما لها». فدخل الغلامان الجاسوسان وأخرجا راحاب وأباها وأمها وإخوتها وكل ما لها، وأخرجا كل عشائرها وتركاهم خارج محلة إسرائيل. وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب". (يشوع ٦: ٢٠ ـ ٢٤)[١].

"فقال الرب ليشوع: «مد المِزْراق الذي بيدك نحو عاي لأني بيدك أدفعها». فمد يشوع المزراق الذي بيده نحو المدينة. فقام الكمين بسرعة من مكانه وركضوا عندما مد يده، ودخلوا المدينة وأخذوها، وأسرعوا وأحرقوا المدينة بالنار... وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعًا بحدِّ السيف حتى فنوا، أن جميع إسرائيل رجع إلى عاي وضربوها بحد السيف. فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفًا، جميع أهل عاي. ويشوع لم يرد يده التي مدها بالمزراق حتى حرم جميع سكان عاي. لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذي أمر به يشوع. وأحرق يشوع عاي وجعلها تلًّا أبديًّا خرابًا إلى هذا اليوم. ومَلِك عاي علَّقه على الخشبة إلى وقت المساء. وعند غروب الشمس أمر يشوع

---

١. المناظرة الكبرى، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٦٣، ٦٤.

فأنزلوا جُثَّته عن الخشبة وطرحوها عند مدخل باب المدينة، وأقاموا عليها رُجْمَة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم. حينئذ بنى يشوع مذبحًا للرب إله إسرائيل في جبل عِيبال". (يشوع ٨: ١٨ ـ ٣٠).

"من خارجٍ السيفُ يُثْكِل، ومن داخلِ الخدورِ الرعبةُ. الفتى مع الفتاة والرضيع مع الأشيب. قلتُ: أُبَدِّدُهم إلى الزوايا، وأُبطِّل من الناس ذِكْرهم". (التثنية ٣٢: ٢٥، ٢٦).

وكذلك فعل يشوع بالشعوب الآتية: مَقِيدة وأريحا ولبنة، ولخيس، وحبرون، ودبير، وضربهم بحدِّ السيف، وكل نفس بها ولم يُبْقِ بها شاردًا، بل حرَّم كل نَسَمَة بها، كما أمر الرب!! "فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسَّهْل والسُّفُوح وكل ملوكها. لم يُبْقِ شاردًا، بل حرَّم كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل". (يشوع ١٠: ٤٠).

"ثم رجع يشوع في ذلك الوقت وأخذ حاصور وضرب مَلِكها بالسيف، لأن حاصور كانت قَبْلًا رأسَ جميع تلك الممالك. وضربوا كل نفس بها بحد السيف. حرموهم، ولم تَبْقَ نسمة، وأحرق حاصور بالنار. فأخذ يشوع كل مدن أولئك الملوك وجميع ملوكها وضربهم بحد السيف. حرمهم كما أمر موسى عبد الرب". (يشوع ١١: ١٠ ـ ١٢). "وخرج رجال إسرائيل لمحاربة بنيامين، وصفَّ رجال إسرائيل أنفسهم للحرب عند جِبْعَة. فخرج بنو بنيامين من جبعة وأهلكوا من إسرائيل في ذلك اليوم اثنين وعشرين ألف رجل إلى الأرض". (القضاة ٢٠: ٢٠، ٢١).

"فضرب الرب بنيامين أمام إسرائيل، وأهلك بنو إسرائيل من بنيامين في ذلك اليوم خمسة وعشرين ألف رجل ومائة رجل. كل هؤلاء مخترطو السيف". (القضاة ٣٥: ٢٠). "وجاء إلى السامرة، وقتل جميع الذين بقوا لأخآب في السامرة حتى أفناه، حسب كلام الرب الذي كلم به إيليا". (الملوك الثاني ١٧: ١٠).

"وقال لأولئك في سمعي: اعبروا في المدينة وراءه واضربوا. لا تشفق أعينكم ولا تعفوا. الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء، اقتلوا للهلاك. ولا تقربوا من إنسان عليه السِّمَة، وابتدئوا من مَقْدِسِي. فابتدءوا بالرجال الشيوخ الذين أمام البيت. وقال لهم: "نجِّسوا البيت، واملأوا الدُّور قَتْلَى. اخرجوا". فخرجوا وقتلوا في المدينة". (حزقيال ٩: ٥ ـ ٧).

وفي العهد الجديد أيضًا أن إله المحبة أتى من أجل دمار البشرية: "جئت لألقي نارًا على الأرض، فماذا أريد لو اضطرمت؟ ولي صبغة أصطبغها، وكيف أنحصر حتى تكمل؟ أتظنون أني جئت لأعطي سلامًا على الأرض؟ كلا، أقول لكم: بل انقسامًا. لأنه يكون من الآن خمسة في بيت واحد منقسمين: ثلاثة على اثنين، واثنان على ثلاثة. ينقسم الأب على الابن، والابن على الأب، والأم على البنت، والبنت على الأم، والحماة على كَنَّتها[1]، والكَنَّة على حماتها". (لوقا ١٢: ٤٩ ـ ٥٣).

والغريب في تفسير الأنبا شنودة في هذه الفقرة أنه يزعم أن عيسى عليه السلام يعني بها أن هذا الدين عندما يدخل في بيت ما، سيؤمن أحد أفراد البيت به ويكفر الآخرون، مما سيؤدي إلى اصطدام أفراد البيت بعضهم ببعض.

---

١. الكَنَّة: امرأة الابن أو الأخ.

وهذا تفسير بعيد عن واقع النص، إذ لا يقول إله أو نبي إنه أتى بالانقسام ونشر العداوة بين أهل البيت الواحد، بل من العقل أن يقول لهم: إنه أتى بالحق المبين، إنه أتى بالفضيلة، إنه أتى بالحب لمن يتبعه، فيكون بذلك مُبشِّرًا وليس مُنفِّرًا. وكذلك فإن من طبيعة النار أنها حارقة، مدمرة، وهذا ما رأيناه من سياق النص، فأين البشارة السارة في هذا الدين الذي ينذر متبعيه بالدمار الشامل لهم ولأسرهم؟ فهل البشارة السارة والدين القويم يطلق عليه النار المدمرة المهلكة؟

"لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض. ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا. فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها. وأعداء الإنسان أهل بيته". (متى ١٠: ٣٤ ـ ٣٦).

وهذا النص مؤكد لتفسيرنا السابق، فالسيف المقصود هنا ليس سيف الحق، كما يدَّعي النصارى، ولو كان هو سيف الحق، لكان لزامًا عليه أن يقول: جئتكم بالحق، والخير والسلام، لمن يتبعني، وليس بالسيف؛ لأن النار مفرِّقة ومدمِّرة لأفراد البيت الواحد، ومُقَوِّضة[1] للمجتمع بأكمله. ثم هل سيف الحق يكون شرًّا على مقتنيه؟ وهل لا يسمى سيف الحق سيف سلام، ويطلق عليه سيف التفريق بين الناس؟ وهل سيف الحق يُؤجِّج العداوة[2] بين أفراد أهل البيت الواحد؟ وإذا كان السيف سيفرق بين أفراد الأسرة الواحدة، فكيف نفهم هذا في ضوء قوله: "سمعتم أنه قيل: عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا. ومن سخرك ميلًا واحدًا فاذهب معه اثنين. من سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده". (متى ٥: ٣٨ ـ ٤٢).

فإذا كان هذا الدين سيفًا لتفريق الناس والأحبة، فهو دين لدمار البشرية، فماذا كان سيفعل الشيطان غير ذلك لو أرسل كتابًا للبشرية؟

وفي الوقت الذي يكون الكتاب المقدس فيه هو الكتاب الأوحد في الكون الذي يأمر بقتل العجائز والنساء والأطفال، وشقِّ بطون الحوامل: "وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحدِّ السيف. وقال يشوع للرجلين اللذين تجسَّسا الأرض: «ادخلا بيت المرأة الزانية وأخرجا من هناك المرأة وكل ما لها كما حلفتما لها». فدخل الغلامان الجاسوسان وأخرجا راحاب وأباها وأمها وإخوتها وكل ما لها، وأخرجا كل عشائرها وتركاهم خارج محلة إسرائيل. وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب". (يشوع ٦: ٢١ ـ ٢٤).. "فالآن اذهب واضرب عماليق، وحرموا كل ما له ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلًا وامرأة، طفلًا ورضيعًا، بقرًا وغنمًا، جملًا وحمارًا". (صموئيل الأول ١٥: ٣).

"وأخرج الشعب الذين بها ونشرهم بمناشير ونوارِج حديد وفئوس. وهكذا صنع داود لكل مدن

---

١. المُقَوِّضة: الهادمة.

٢. يؤجِّجُ العداوة: يُشعل نيرانها.

بني عمُّون. ثم رجع داود وكل الشعب إلى أورشليم". (أخبار الأيام الأول ٢٠: ٣)، "فالذي ينجو من سيف حزائيل يقتله ياهو، والذي ينجو من سيف ياهو يقتله أليشع". (الملوك الأول ١٧: ١٩)، "فتضربون كل مدينة محصنة، وكل مدينة مختارة، وتقطعون كل شجرة طيبة، وتطُمُّون جميع عيون الماء، وتفسدون كل حقلة جيدة بالحجارة". (الملوك الثاني ٣: ١٩). "يا بنت بابل المخربة، طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا! طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة!". (مزامير ١٣٧: ٨، ٩).

"تجازى السامرة لأنها قد تمردت على إلهها. بالسيف يسقطون. تحطم أطفالهم، والحوامل تشق". (هوشع ١٣: ١٦). وليس هذا شأن العهد القديم فقط، بل إن بولس نفسه قد أيدَّ كل ما ورد فيه من دموية، فنجده يقول في الرسالة إلى العبرانيين: "بالإيمان سقطت أسوار أريحا بعدما طيف حولها سبعة أيام. بالإيمان راحاب الزانية لم تهلك مع العصاة، إذ قبلت الجاسوسين بسلام. وماذا أقول أيضًا؟ لأنه يعوزني الوقت إن أخبرت عن جدعون، وباراق، وشمشون، ويفتاح، وداود، وصموئيل، والأنبياء، الذين بالإيمان: قهروا ممالك، صنعوا برا، نالوا مواعيد، سدوا أفواه أسود، ٣٤ أطفئوا قوة النار، نجوا من حد السيف، تقووا من ضعف، صاروا أشداء في الحرب، هزموا جيوش غرباء". (الرسالة إلى العبرانيين ١١: ٣٠ ـ ٣٤). "لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين، لأنه أية خلطة للبر والإثم؟ وأية شركة للنور مع الظلمة؟ وأي اتفاق للمسيح مع بليعال؟ وأي نصيب للمؤمن مع غير المؤمن؟ وأية موافقة لهيكل الله مع الأوثان؟". (رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ٦: ١٤ ـ ١٦).

إذن فبولس نفسه يرى أن ما فعله هؤلاء من سفك دماء وجرائم حرب إنما هو تقوى وإيمان وخير!! أضف إلى ذلك أن عيسى عليه السلام لم يأت بدين جديد، فما كان له أن يُعلِّم دينًا جديدًا في معبد اليهود بين ظهرانيهم وينشره في ربوع اليهودية، فكم من مرة احتكم إلى التوراة؟ وكم من مرة أعاد على أذهان مستمعيه من اليهود أقوال التوراة والأنبياء في القضايا المختلفة؟ وكم مرة صحح أفهامهم ومعتقداتهم بشأن كتب موسى والأنبياء؟

وبذلك لن يبقى الغرض من مجيئه إلا تدمير الأسر والحياة الاجتماعية الهادئة، إلا إذا أقرت الكنيسة بأن هذا النص ليس من أقوال عيسى عليه السلام.

فما هو إذن الدين الجديد الذي أتى هو به وليس بولس، الذي من شأنه أن يفرق به بين أفراد الأسرة الواحدة؟ وأين واجبه كإله للمحبة أن يهدي البشرية؟ وهل خلق البشرية بهذا السوء، لدرجة أن هذا الدين لن يجتمع في أسرة كاملة؟ أم أرسل دينًا سيئًا لدرجة أن الأتقياء من أهل البيت الواحد لن يقبلوه، وبذلك يصطدمون بالأشرار الذين يجمعهم هذا البيت؟ فالإله في زعمهم يفترض بذلك أنه لن يؤمن به بيت كامل بالمرة، بل سيكون الانقسام داخل كل بيت، منهم الكافرون ومنهم المؤمنون، فرسالته ينبغي أن تكون هي رسالة الحب، ومن لا يتبعها يكن من الآثمين، فكان ينبغي لهذا الإله أن يكون من المتفائلين، وأن ينظروا إلى النور الذي تشعه رسالته، وليس إلى ظلام قلوب

الآثمين. فتبريراتهم في هذا الشأن إذا متهافتة"[1].

هذا عن التاريخ القديم، فماذا عن التاريخ الحديث في ظل التمدن الحضاري، وعلو نبرة حقوق الإنسان، يقول د. عبد الله علوان: "صحيح أن أمريكا وروسيا بلغتا الذروة في الرقي المادي في عصرنا اليوم، ولكنهما صفر على الشمال في التحضر الإنساني والتعامل البشري!! نعم إنهما صفر على الشمال لماذا؟

لأن أمريكا تضع على فنادقها ونواديها لافتات تكتب عليها "للبيض فقط" أو تكتب عليها في وقاحة متناهية "ممنوع دخول السود والكلاب"!!

لأن أمريكا مكنت دولة القزم - إسرائيل - في فلسطين بعد أن أخرجت الآلاف من أهلها من ديارهم بغير حق، فهاموا على وجوههم مشردين في كل أرض وتحت كل سماء.

لأن أمريكا سرطان الاستعمار في العصر الحديث، وكم استعمرت من أمم مستضعفة؟ وكم استذلت من شعوب صغيرة؟ وكم امتصت من خيرات دول لا حول لها ولا قوة!!

وقس على ذلك إنجلترا التي حرمت الملوَّنين في إفريقيا من حقوقهم البشرية، وقتلتهم بالجملة؛ لأنهم طالبوا بحريتهم حين أحسوا بالكرامة.

وقس على ذلك فرنسا حين قتلت مئات الألوف في تونس والجزائر ومراكش، لا لشيء سوى أنهم طالبوا بالحرية والكرامة والاستقلال.

هذه هي الحضارة الغربية على حقيقتها، وهذه هي المدنية الأوربية في أوجها، كيف يجيزون لأنفسهم رفع الشعارات المزيفة، وطرح فكرة الوصاية على العالم، وهذه هي أفعالهم القبيحة ومعاملتهم الوحشية؟!!

وماذا صنعت الشيوعية؟ يقول د. عبد الله عزام في كتابه "السرطان الأحمر":

- في تركستان الشرقية: احتلتها الصين سنة ١٩٣٤م، بمساعدة الجيش الأحمر الروسي وقتلوا ربع مليون مسلم من المفكرين والعلماء والشباب.
- قامت الثورة الصينية سنة ١٩٥٢م فقتلت ١٢٢ ألفًا من المسلمين.
- في يوغسلافيا أباد تيتو بعد الحرب العالمية من المسلمين ٢٤ ألفًا.
- في القرم أبادت الشيوعية سنة ١٩٢١م مائة ألف.
- في القفقاس نفى ستالين إلى سيبريا وآذربيجان حوالي مليونين من المسلمين، وهدم المساجد وحوَّلها إلى اصطبلات ودُور للسينما ومراكز للحزب، وأماكن للترفيه.
- في تركستان الغربية كان مجموع من قتل من المسلمين فيها ٦ ملايين مسلم سنة ١٩١٩م، هرب منها مليون ونصف. عدا ثلاثة ملايين قتلوا ما بين سنة ١٩٢٠م إلى سنة ١٩٥١م.
- وقد ثبت بالإحصائيات الروسية أن ستالين قد قتل ١١ مليونًا من المسلمين.

ولا شك أن هذه الهمجية والاستعباد وخنادق القتل الجماعي ومسابح حمامات الدم - وَصْمة عار في جبين الإنسانية، بل وحشية متناهية لم يشهد مثلها التاريخ:

---

١. المناظرة الكبرى مع القس زكريا بطرس حول ألوهية يسوع، علاء أبو بكر، مرجع سابق، ص١٩: ٢٢.

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ (البروج)، وما اقترفوا من إثم سوى أن قالوا: إننا نرفض اعتناق مبادئ الكفر والإلحاد، فكان هذا مصيرهم وجزاءهم، أين هذا كله من إنسانية الإسلام وحضارة الإسلام، وسماحة الإسلام، وعدالة الإسلام"[1]؟!

فماذا لو تأخر هذا الكلام حتى يشهد قائله فواجع اللحظة الراهنة في البوسنة وكوسوفا والشيشان، وتركستان، والعراق، وأفغانستان، وفلسطين وغيرها؟!

فضلًا عن السجون السرية حول العالم، ناهيك عن معتقل "جوانتانامو" وسام العدالة والحرية وحقوق الإنسان على صدر حضارة الغرب المعاصرة والذي لا يليق حتى بحقوق الحيوان!!

سادسًا. المستقبل للإسلام إن شاء الله:

هذه ملامح مسيرة الديانتين (النصرانية والإسلام) ومدى تأثيرهما في مجريات الواقع تاريخيًا، وقبل هذا مدى قابلية جوهرهما وطبيعتهما للتأثير في واقع البشر، وما من شك في أن الإسلام ينفرد بإلحاحه على الالتفات لواقع الإنسان والمجتمع، ومجريات الحياة الإنسانية والتنظير لها وتقويمها، فهل لهذا الدين مستقبل في حياة البشر؟

يجيب عن هذا التساؤل مجموعة من أعلام المفكرين، يقول الأستاذ محمد فريد وجدي في ختام مقال له بعنوان "المستقبل للإسلام": "هذا هو الدين الذي جاء به محمد ﷺ دينًا عامًّا للبشر كافة، فهل تجد محيصًا للبشر عنه؟ كيف يعقل ذلك والفطرة أساسه والعقل نِبْراسه والعلم مادته؟ وهل للبشر محيص عن هذه الأصول الطبيعية مهما حاولوا ذلك وتكلفوه؟ فإن كان في العالم أصول كلما أمعنت في البعد عنها ازدادت قربًا منها، فهي الفطرة والعقل والعلم.

وهذا معنى قوله ﷻ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ (آل عمران)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ (النساء). وقوله ﷻ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ (سبأ)"[2].

وتحت عنوان "هل استنفدت الحضارة الإسلامية أغراضها"؟ يقول د. عبد الله علوان: بلغت الحضارة الإسلامية من النضج والازدهار، ما جعلها بحق أن تكون أستاذة الحضارات في فترات طويلة من التاريخ، بل كانت البشرية شرقًا وغربًا تنهل من سلسبيلها العذب، وترتشف من معينها الصافي على مدى العصور وكرّ الدهور، بل إن أوربا بأسرها ـ كما اعترف رجال الفكر فيها ـ لم تنهض حضاريًّا، ولم تتقدم علميًّا، ولم تنضج فكريًّا، إلا بفضل ما أخذوه عن المسلمين من

---

١. معالم الحضارة في الإسلام، د. عبد الله ناصح علوان، مرجع سابق، ص١٤٧: ١٥١ بتصرف.

٢. من معالم الإسلام، د. محمد فريد وجدي، مرجع سابق، ص٥٢.

علوم حضارية حية ومعارف كونية متجددة!! إذن فما الذي أصاب المسلمين اليوم؟

هل الذي أصابهم من تخلف حضاري، وانحسار سياسي، وتفكك اجتماعي؛ لأن الإسلام لم يعد صالحًا لهذا الزمن، أو لأن مفاتيح الحضارة التي وجدت في الماضي لم تعد صالحة اليوم؟!

في الحقيقة ليس هذا ولا ذاك؛ لأن الإسلام يتسم بالخصائص التالية:

- يتَّسم بالربانية؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد.
- ويتسم بالعالمية؛ لأنه شريعة البشرية جمعاء.
- ويتسم بالشمول؛ لأنه تنزل لمناهج الحياة.
- ويتسم باليسر؛ لأنه دين التيسير ودفع الحرج.
- ويتسم بالتجدد؛ لأنه يفي بحاجات البشرية في كل زمان ومكان.
- ويتسم بالخلود؛ لأن الله تعالى تكفل بحفظه إلى يوم الدين.

ومن هنا نعلم السر في قوله ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

ويكفي الإسلام خلودًا وعظمة أن يشهد لصلاحيته كبار رجال القانون الوضعي في الغرب، وهي شهادات معللة، تحمل في عباراتها براهين صدقها، بل معترفة بسبق الشريعة وفضلها وتفوقها، ولا بأس أن نسوق هنا بعض هذه الشهادات للذين لا يزالون يثقون بالفكرة إذا هبت ريحها من جهة الغرب:

١. يقول د. إيزكو انساباتو: إن الشريعة الإسلامية تفوق في كثير من بحوثها الشرائع الأوربية، بل هي التي تعطي للعالم أرسخ الشرائع ثباتًا.

٢. ويقول العلامة شبرل عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا في مؤتمر الحقوق سنة ١٩٢٧م: إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد ﷺ إليها؛ إذ رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون، لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة.

٣. ويقول الفيلسوف الإنجليزي برنارد شو قولته الخالدة: لقد كان دين محمد موضع تقدير سام لما ينطوي عليه من حيوية مدهشة، وأنه الدين الوحيد الذي له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة، وأرى واجبًا أن يُدعى محمد ﷺ منقذ الإنسانية، وإن رجلًا كشاكلته إذا تولى زعامة العالم الحديث فسوف ينجح في حل مشكلاته.

٤. ويقول المؤرخ الإنجليزي ويلز في كتابه "ملامح تاريخ الإنسانية": إن أوربا مدينة للإسلام بالجانب الأكبر من قوانينها الإدارية والتجارية.

٥. أمّا المؤرخ الفرنسي سيديو فيؤكد: أن قانون نابليون منقول عن كتاب فقهي في مذهب الإمام مالك هو: "شرح الدردير على متن خليل"

ويكفي الإسلام عطاءً وتجددًا أن تشهد المؤتمرات الدولية على صلاحيته وملكة خلوده على مدى الزمان والأيام:

ففي مدينة لاهاي انعقد مؤتمر دولي للقانون المقارن سنة ١٩٣٧م.

وفي نفس المدينة ـ لاهاي ـ انعقد مؤتمر المحامين الدولي سنة ١٩٤٨م.

وفي باريس عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجتمع الدولي، مؤتمرًا تحت اسم "أسبوع الفقه الإسلامي" سنة ١٩٥٠، وقد سجلت هذه المؤتمرات القرارات التاريخية التالية:

- اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرًا من مصادر التشريع.
- وأنها حية قابلة للتطور.
- وأنها شرع قائم بذاته ليس مأخوذًا عن غيره.
- يجب على جمعية المحامين الدولية أن تتبنى الدراسة المقارنة لهذا التشريع، نظرًا لما في التشريع الإسلامي من مرونة.
- إن مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمة حقوقية تشريعية لا يماري فيها.
- بإمكان الفقه الإسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها"[1].

وقد تعددت التصورات وتنوعت اجتهادات المفكرين الإسلاميين حول أنجح السبل لإقامة مجتمع إسلامي رشيد، بعبارة أخرى لإحداث أكبر تأثير لتعاليم الإسلام الصالحة سلفًا للتطبيق والتأثير، كما وضح لنا مما سبق، على عكس زعم الزاعمين أنه بطل مفعولها وتلاشى أثرها. وعن السبيل إلى إقامة مجتمع إسلامي يقول الشيخ الشعراوي - رحمه الله - دعوا الإسلام محققًا، وإن لم يكن مُطبقًا، وبعد ذلك طبق الإسلام فيما ولايتك فيه على نفسك، فلو أن كل واحد فينا طبق الإسلام فيما ولايته على نفسه، لسقط الحاكمون بغير الإسلام وحدهم.

ولو أن الحكام يعلمون أن الناس يحبون منهج الله؛ لأنهم يرونهم يطبقونه في نفوسهم، لتقربوا إلى شعوبهم بتطبيق منهج الله.. إن مهمتنا في الحياة نحو مجتمع إسلامي ذات شِقَّين:

الأول: أن نسعى ونلحق ونجاهد في تطبيق الإسلام.

الثاني: إذا لم يتحقق التطبيق فعلينا أن نحقق الإسلام ونصفيه علمًا، علمًا يجلي عقيدة الإسلام تجلية صافية، ويبين حقيقة القرآن، وما فيه من كنوز ثمينة، وأنه ليس من قول بشر؛ لأن فيه غيبيات تتسامى على قدرات البشر، وعملُنا حاليًّا أن نجلي الإسلام عقيدة وعبادة"[2].

وتحت عنوان "تجديد الإسلام: كيف؟" بمعنى كيفية تنشيط تأثير الإسلام في واقع حياة المسلمين يبين الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - أنه: "وإن كنا يخامرنا الأسى لحال المسلمين في القرون الأخيرة، ولمستواهم العلمي الهابط، ولغيابهم عن المجامع العلمية الناشطة، وقد كان من أثر هذا الغياب أن ألف بعض الأوربيين رسالة عن أثر: ألف ليلة وليلة في التشريع الإسلامي. والتعتيم على حقائق الإسلام تبذل فيه جهود هائلة، ويشارك فيها شياطين الشرق والغرب، حتى ليكاد الدين الصحيح يستخفي من دنيا الناس، فماذا نعمل للنهوض بأعباء المنصب الكبير الذي اصطفانا القَدَر له بعدما أورثنا القرآن الكريم، وكلفنا أن نتعلمه ونعلمه للآخرين؟

١. معالم الحضارة في الإسلام، د. عبد الله ناصح علوان، مرجع سابق، ص١٥٣: ١٥٧.

٢. الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، مكتبة القرآن، ص١٢٢، ١٢٣.

قبل الإجابة المفصلة عن هذا السؤال أود أن أقرر أمورًا ذات بال:

- أن دار الإسلام لم تنصف الوحي الذي شرفت به، ولم تحسن القيام عليه.
- أن العالم ـ بعيدًا عن ديار الوحي، وفي غياب تعاليمه ـ لم يقف مكتوف الأيدي، بل خط لنفسه مناهج من عنده، اختلط فيها الصالح والطالح.
- أنه منذ سقوط بيزنطة، وافتتاح المسلمين للقسطنطينية، اكتشف الأوربيون أمريكا واستولوا على الأندلس، وبدأ عصر الإحياء، ووقعت طفرة علمية لم تعرف الدنيا شبيهًا لها منذ بدء الخليقة، كما استقرت نظم اجتماعية وسياسية، كثر الحديث فيها عن حقوق الإنسان وكرامات الشعوب.
- كان الوجود الإسلامي خلال هذا التحول العالمي يتقلص ويتراجع حتى أمسى أطلالًا بالية مع مرور القرن الرابع عشر للهجرة!!

وقد اضطررت أن أضع عشرة تعاليم جديدة تنضاف إلى التعاليم العشرين التي وضعها الإمام حسن البنا لترميم العالم الإسلامي وإصلاح فهمه وعمله به، والواقع أن الجهاد العلمي في معركة البناء فريضة لازمة، وإذا لم ننتصر فيها فسيكون عقابنا شديدًا.

إن تجديد الإسلام ليس نشاطًا في ميدان واحد بل في ميادين شتى، وليس صمودًا أمام عدو واحد بل أعداء كثيرين، لعل أشدهم بأسًا يكمن في داخل بلادنا.

ولا بأس أن أعيد هنا المبادئ العشرة التي اقترحتها ترشيدًا لمسيرة الإصلاح عندنا:

١. النساء شقائق الرجال وطلب العلم فريضة على الجنسين كليهما، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وللنساء ـ في حدود الآداب الإسلامية ـ حق المشاركة في بناء المجتمع وحمايته.

٢. الأسرة أساس الكيان الخلقي والاجتماعي للأمة، والمِحْضَن[1] الطبيعي للأجيال الناشئة، وعلى الآباء والأمهات واجبات مشتركة لتهيئة الجو الصالح بينهما، والرجل هو رب الأسرة، ومسئوليته محدودة بما شرع الله لأفرادها جميعًا.

٣. للإنسان حقوق مادية، وأدبية تناسب تكريم الله له، ومنزلته الرفيعة على ظهر الأرض، وقد شرع الإسلام هذه الحقوق ودعا إلى احترامها.

٤. الحكام ـ ملوكًا كانوا أم رؤساء ـ أُجَراء لدى شعوبهم، يرعون مصالحها الدينية والدنيوية، ووجودهم مستمد من هذه الرعاية المفروضة ومن رضا السواد الأعظم بها، وليس لأحد أن يفرض نفسه على الأمة كرهًا، أو يَسُوس[2] أمورها استبدادًا.

٥. الشورى أساس الحكم، ولكل شعب أن يختار أسلوب تحقيقها، وأشرف الأساليب ما تمحض لله، وابتعد عن الرياء والمكاثرة والغش وحب الدنيا.

٦. الملكية الخاصة مصونة بشروطها وحقوقها التي قررها الإسلام، والأمة جسد واحد، لا يهمل منها عضو، ولا تُزدرَى فيها طائفة، والأخوة العامة هي القانون الذي ينتظم الجماعة كلها فردًا فردًا، وتخضع له شئونها المادية والأدبية.

٧. أسرة الدول الإسلامية مسئولة عن الدعوة

---

١. المِحضَن: المكان الذي تَجْثُم فيه الحمامة على بيضها.
٢. يَسُوس: يتولَّى الرئاسة.

الإسلامية، وذود المفتريات عنها، ودفع الأذى عن أتباعها حيث كانوا، وعليها أن تبذل الجهود لإحياء الخلافة في الشكل اللائق بمكانتها الدينية.

٨. اختلاف الدين ليس مصدر خصومة واستعداء، وإنما تشب الحروب إذا وقع عدوان وحدثت فتنة أو ظلمت فئات من الناس.

٩. علاقة المسلمين بالأسرة الدولية تحكمها مواثيق الإخاء الإنساني المجرد، والمسلمون دعاة لدينهم بالحجة والإقناع فحسب، ولا يضمرون شرًّا لعباد الله.

١٠. يسهم المسلمون مع الأمم الأخرى - على اختلاف دينها ومذاهبها - في كل ما يرقى ماديًّا ومعنويًّا بالجنس البشري، وذلك من منطلق الفطرة الإسلامية والقيم التي توارثوها عن كبير الأنبياء محمد ﷺ.

تلك هي المبادئ العشرة التي أقترح إضافتها، والتي أتقدم بها مع التعاليم العشرين لمجدد القرن الرابع عشر الإمام الشهيد حسن البنا، ولمن شاء أن يقبل أو يرفض، وآخر ما ندعو به: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة)، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود) [1].

بل إن بعض هؤلاء المفكرين، إمعانًا في التأكيد والإلحاح على الصلة الوثيقة المستمرة، غير المنقطعة أو الجامدة، أو باطلة المفعول، كما يزعم المغالطون - بين تعاليم الإسلام وواقع الحياة، يتواصل بالرؤية الإسلامية مع أحدث التجليات والنظم والأفكار في حياة البشر ليقيمها من المنظور الإسلامي الحي، فحول ما يسمى بالنظام العالمي الجديد وما يثيره من جدل، كتب د. محمد عمارة تحت عنوان "النظام العالمي الجديد، رؤية إسلامية" يقول: "إقامة العلاقات الدولية بين الأمم والشعوب والدول والحضارات على قاعدة من المساواة في الكرامة، والعدالة في تبادل المنافع، وفق الرؤية الإسلامية هو امتثال لحكم الله، فالتكريم الإلهي هو لبني آدم وليس لشعب أو جنس أو حتى لأبناء دين معين.

ليست للإسلام وأمته وحضارته وعالمه مشكلة مع علاقات دولية عادلة ونظام علمي رشيد، بل إن مشاركة المسلمين في إقامة هذه العلاقات الدولية العادلة والنظام العالمي الرشيد هو تكليف إلهي فرضه الله ﷻ على المسلمين، فالتعددية في الشرائع - ومن ثم في الحضارات - وفي اللغات والألوان - أي القوميات والأجناس - وفي القبائل والأمم والشعوب، هذه التعددية - بالنص القرآني - وفي التصور الإسلامي - سنة إلهية وقضاء تكويني لا تبديل ولا تحويل.. وإقامة العلاقات بين فرقاء هذه التعددية بالمعروف، ووفق ما يتعارف عليه الناس، والتعارف أي التفاعل في المعروف هو التكليف الإلهي بإقامة العلاقات مع الآخرين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود)، وقال ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (المائدة)، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

---

١. تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٣٣: ٣٦.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات).

والتفاعل بين الحضارة الإسلامية وسائر الحضارات الإنسانية، البائدة منها والحية، الماضية منها والمعاصرة، تكليف إلهي أقامه المسلمون بانفتاحهم على مختلف الحضارات، فشريعة من قبلنا شريعة لنا، ما لم تكن هناك خصوصية لشريعتنا نسخت نظيرها في الشرائع الأخرى، والسياسة الشرعية لا تقف عند البلاغ القرآني والبيان النبوي، وإنما يدخل فيها كل ما يحقق الصلاح، وينفي الفساد، إذ هي ـ في تعريف السلف: "الأعمال والتدابير التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم ينزل بها وحي، أو ينطق بها رسول" ذلك أن "الحكمة" هي في التعريف النبوي ـ "الإصابة في غير النبوة"، أي الصواب الذي يدركه البشر بالعقل والوجدان، والحواس والتجريب، والمسلمون مدعوون إلى طلب هذه الحكمة ـ الصواب ـ من أي مصدر، وأية أمة وأية حضارة، وكما قيل الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها.

ومنذ فجر الإسلام، وضع المسلمون هذا المنهاج في التفاعل الحضاري موضع التطبيق، فأخذوا من تجارب وقواعد وتراتيب الحضارات الأخرى "المشترك الإنساني العام"، وأضافوه إلى "الخصوصيات الإسلامية" التي تميز بها منهاج الرسالة الإسلامية الخاتمة، فاختاروا "التفاعل الحضاري" من موقع "الراشد المستقل"، رافضين "التبعية والتشبه والتقليد" وكذلك العزلة والانغلاق، صنعوا ذلك عندما أخذوا عن الرومان "تدوين الدواوين" ولم يأخذوا "القانون الروماني" استغناء بالشريعة الإسلامية المتميزة، وعندما أخذوا عن الهند الفلك والحساب ولم يأخذوا فلسفة الهند استغناء بالتوحيد، وعندما أخذوا من الإغريق "العلوم التجريبية" ولم يأخذوا أساطيرهم الوثنية، المنافية للتوحيد الإسلامي.

بل وصنعت ذلك الحضارة الغربية إبان نهضتها الحديثة، عندما أخذت عن الحضارة الإسلامية العلوم التجريبية، والمنهج التجريبي، ولم تأخذ عنا التوحيد ولا الوسطية ولا القيم، وأحيت خصوصياتها الإغريقية والرومانية، فكان هذا الصنيع دليلًا على أن التفاعل الصحيح بين الحضارات والعلاقات العادلة والحرة بين الأمم والدول، لا بد أن تتأسس على حرية اختيار الأمم والحضارات لما يناسب هويتها الحضارية المتميزة، فيدعم الاستقلال والتميز لهذه الهوية، وحرية الرفض لما يمسخ ويشوه هذه الخصوصيات، وهذا هو القانون المعيار الذي نريده حاكمًا للعلاقات بين أمتنا وحضارتنا والأمم والحضارات الأخرى.

وإذا كانت أمتنا تشكو من التخلف الحضاري، فإن طوق نجاتها من هذا التخلف هو التجديد، والإحياء الحضاري، وأعدى أعداء هذا التجديد هو التقليد، فالتقليد للنماذج الحضارية الغربية والوافدة، يعطل ملكة الإبداع والابتكار. ولن تنهض الأمة إلا بالتجديد، ولن يكون هناك تجديد إلا إذا شعرت الأمة بالحاجة إليه، وبأنه ضروري، ولن يتأتى ذلك إلا إذا آمنت بأن لها في النهضة مشروعًا متميزًا عن المشاريع الأخرى للحضارات الأخرى، عند ذلك تدفعها الحاجة إلى التجديد والإحياء، وتنمو لديها ملكات

الابتكار والإبداع، تلك التي تذبل وتموت في ظل التشبه والمحاكاة والتقليد للآخرين.

ولقد كانت اليقظة الإسلامية، الحديثة والمعاصرة، على وعي بهذه الحقيقة منذ بداياتها، فدعا أعلامها إلى التمييز في التفاعل الحضاري، والعلاقات مع أمم الحضارات الأخرى، بين النافع والضار، بين الملائم التجريبي ذي القوانين والحقائق العامة والمحايد، وبين الفلسفات والثقافات والعلوم الإنسانية والآداب والفنون، التي موضوعها النفس الإنسانية المتميزة بتميز الحضارات، فقال جمال الدين الأفغاني: "وإن أبا العلم وأمه هو الدليل، والدليل ليس أرسطو بالذات ولا جاليليو بالذات، والحقيقة تُلْتمس حيث يوجد الدليل. والتمدُّن الأوربي هو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني، والمسلمون الذين يقلدونه إنما يشوهون وجه الأمة، ويضيعون ثروتها، ويحطُّون من شأنها، إنهم المنافذ لجيوش الغزاة، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب"، والإمام حسن البنا هو القائل "إن الإسلام لا يأبى أن نقتبس النافع وأن نأخذ الحكمة أنى وجدناها"، ولكنه يأبى كل الإباء أن نتشبه في كل شيء بمن ليسوا من دين الله على شيء، إن الأمة إذا أسلمت في عبادتها، وقلدت غير المسلمين في بقية شئونها، فهي أمة ناقصة الإسلام، تضاهي الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)﴾ (البقرة).

إننا نريد أن نفكر تفكيرًا استقلاليًّا، يعتمد على أساس الإسلام الحنيف، لا على أساس الفكرة التقليدية التي جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب واتجاهاته في كل شيء، نريد أن نتميز بمقوماتنا ومشخصات حياتنا كأمة عظيمة مجيدة، تجر وراءها أقدم وأفضل ما عرف التاريخ من دلائل ومظاهر الفِخَار والمجد.

تلك هي صورة العلاقات الدولية العادلة التي نريد أن يكون عالمنا "منتدى حضارات مستقلة"، تتفاعل فيما هو "مشترك إنساني عام"، وتتمايز فيما هو "خصوصيات حضارية"، وتتبادل المنافع وفق معايير عادلة؛ ويتحقق الأمن والتقدم والسلام للإنسانية، التي شملها الله عز وجل بالتكريم، وحمَّلها أمانة الاستخلاف في إقامة العمران.

ونحن نؤمن أننا المالكون للنبأ العظيم، والكتاب المبين، والوحي الوحيد الذي لم يُصِبْه التحريف، وإننا حملة الشريعة الإلهية الخاتمة والخالدة، المصححة لانحرافات وتحريفات الشرائع السابقة، والمصدِّقة بأنبياء ورسل كل الرسالات الإلهية، والمهيمنة على التراث الديني للإنسانية جمعاء.

وفي ذلك الوقت نؤمن بمبدأ وقيمة حرية الاعتقاد، فالإيمان الديني في الرؤية الإسلامية هو تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين، ومحال أن يكون هذا الإيمان ثمرة للإكراه له والترهيب: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ

عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ (الكافرون)، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (هود)، ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ (يونس).

ولقد أنفق المسلمون الأوائل القرن الأول مع عمر في فتوحات أزالت سلطان البغي ـ البيزنطي ـ الذي استعمر الشرق، وفتن أهله عن دينهم، حتى عندما كان دينهم هذا مخالفًا لمذهبه داخل النصرانية التي ينتسب إليها الجميع.

فأنجز المسلمون ـ ومعهم شعوب الشرق، وهم على دياناتها القديمة تحرير الأرض، وتحرير الضمير والاعتقاد، وبنوا الدولة، وتركوا الناس أحرارًا في اختيار الدين الذي به يؤمنون، فكانت سابقة لا نظير لها في التاريخ.

فعالمية الإسلام التي لا تجعله دين العرب خاصة، ولا دين جنس من الأجناس دون سواه، وهذه العالمية تتوجه به إلى كل البشر، وتراهم إزاء دعوته إحدى أمتين:

- **أمة الاستجابة**، التي اختارته اختيارًا حرًّا، فالتزمت بأمانة إقامته إلى يوم الدين.
- **وأمة الدعوة**، التي على المسلمين أن يعرضوا عليها الوجه الحق للإسلام، لعل الله أن يهديها إلى هذا الدين.

وذلك هو التقسيم الإسلامي للعالم، منذ أن ظهر الإسلام، فالناس إزاءه أمة دانت به وله، وأمة هي مدعوة ـ بالحكمة والموعظة الحسنة ـ لتدخل فيه. أما ذلك التقسيم القديم، الذي تحدثت عنه مصادر الفقه الإسلامي، والذي قسم العالم دار إسلام وسلام، ودار كفر وحرب، أو إلى دار إسلام، ودار عهد، ودار حرب، فإن الذي اقتضاه وفرضه، هم الذين أعلنوا الحرب المستمرة على الإسلام وأمته وداره منذ فجر ظهور الإسلام، وإلا فبماذا كان مطلوبًا من فقهائنا أن يسموا ديار الذين عاشوا يُجيِّشون الجيوش ويشنون الغارات على ديار الإسلام؟!

لقد ظلت القسطنطينية على امتداد تاريخها النصراني ـ منذ عهد هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م) وحتى الفتح الإسلامي لها (٨٥٧ ـ ١٤٥٣م) في حرب دائمة ضد الدولة الإسلامية، والحملات الصليبية ـ التي قادتها البابوية الكاثوليكية وقادها أمراء الإقطاع الأوربيون، ومولتها المدن التجارية الأوربية، وشاركت فيها شعوب أوربا؛ هذه الحملات ظلت حربًا قائمة ومستمرة على الإسلام وأمته وعالمه قرنين من الزمان (٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ)، وفي أثنائها أقامت الصليبية مع الوثنية التترية حلفًا ضد دار الإسلام، ولما افتتح المسلمون قاعدة تجييش الجيوش ضد عالمهم ـ القسطنطينية ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م ـ صعَّد الجناح الغربي للنصرانية الغربية الضغط على الإسلام. فاقتلعوه من الأندلس (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م) وبدءوا حرب القرون الخمسة، تلك التي بدأت بالالتفاف حول العالم الإسلامي، هي الغزوة الاستعمارية الحديثة لقلبه، قبل قرنين من الزمان، وهي الغزوة التي التهمت أقطار الإسلام، وأسقطت خلافته، ولا تزال تمارس الهيمنة والاستغلال لكل عالم الإسلام.

فهو تاريخ من الحرب الدائمة القائمة، والمعلنة على عالم الإسلام، وذلك الذي جعل فقهاءنا يقسمون العالم إلى دار سلام، ودار دعوة إلى الإسلام، وفي ظل نظام دولي عالمي عادل، يصبح العالم بأسره في الرؤية الإسلامية دار عهد تحكم دوله وشعوبه وحضارته عهود ومواثيق هذا النظام العالمي وآليات مؤسساته العالمية والدولية، وتصبح الشعوب غير المسلمة أهل عهد وأمة دعوة؛ فيسقط تعبير دار الحرب من رؤية الفقه الإسلامي للعلاقات الدولية، إذا طوى الآخرون صفحة الحرب التي أعلنوها على الإسلام.

تلك هي رؤيتنا للعالم المعاصر الذي نريده، ولقد سبق للإمام البنا أن عبَّر عن هذه الرؤية عندما كتب يقول: إن الإخوان المسلمين يرون الناس بالنسبة إليهم قسمين: قسم اعتقد ما اعتقدوه من دين الله وكتابه، وآمن ببعثة رسوله وما جاء به، وهؤلاء تَربُطُنا بهم أقدس الروابط، رابطة العقيدة، وهي عندنا أقدس من رابطة الدم، ورابطة الأرض، فهؤلاء هم قومنا الأقربون الذين نحِنُّ إليهم ونعمل في سبيلهم ونَذُود[1] عن حِماهم، ونفتديهم بالنفس والمال، في أي أرض كانوا ومن أي سلالة انحدروا: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٠).

وقوم ليسوا كذلك ولم نرتبط معهم بهذا الرباط، فهؤلاء نسالمهم ما سالمونا، ونحب لهم الخير ما كفوا عدوانهم عنا، ونعتقد أن بيننا وبينهم رابطة الدعوة، علينا أن ندعوهم إلى ما نحن عليه؛ لأنه خير الإنسانية كلها، وأن نسلك إلى نجاح هذه الدعوة ما حدد لها الدين نفسه من سبل ووسائل، فمن اعتدى علينا منهم، رددنا عدوانه بأفضل ما يرد به عدوان المعتدين: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ (الممتحنة).

أما النظام العالمي المعاصر، كما تجسده موازين القوى في المؤسسات الدولية والممارسات الواقعية، فإنه في الحقيقة نظام غربي يمثل الطور المعاصر للنظام الاستعماري الغربي الحديث، ويمارس الهيمنة والاستغلال ضد أمم وحضارات الجنوب، وفي مقدمتها الأمة الإسلامية.

إن عالمية أي نظام لا يمكن أن تتحقق إلا إذا راعت مواثيقه ومؤسساته الخصوصيات الحضارية والعقائدية والثقافية للأمم والحضارات المتميزة في هذا النظام، والمؤسسات الدولية لا يمكن أن تكون دولية حقًّا إلا إذا راعت المصالح العادلة لمختلف الدول التي تتمتع بعضوية هذه المؤسسات، تراعي ذلك في التمثيل بالمؤسسات العامة والفرعية، وفي اتخاذ القرارات، وفي حق الاعتراض على القرارات ـ النقض الفيتو ـ وفي معايير تطبيق القرارات وفي توزيع العوائد المادية، والثقافية، والعلمية، والفنية للمؤسسات والمنظمات الدولية المتخصصة.

وبذلك وحده يكتسب النظام صفة "العالمية" حقًّا، وتكون مؤسسات هذا النظام، بحق مؤسسات دولية، ونحن نريد لعالمنا نظامًا عالميًّا عادلًا يسعى لتحقيق

1. نَذُود: نَدافع.

التوازن - أي العدل - بين شعوب العالم، وأممه وحضاراته، ونعلم أن ذلك لن يتحقق بمجرد التمني ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ (النساء)؛ وإنما طريقنا إليه إقامة النظام العربي والنظام الذي يجعل من أمتنا وإمكاناتها كتلة ذات وزن في مكونات هذا النظام"[1].

الخلاصة:

- المسيحية - في أصلها غير المحرَّف - ركزت تعاليم رسولها المسيح عليه السلام على الجانب الروحي الإنساني في الغالب، كرد فعل على إيغال اليهود في الجانب المادي وإغراقهم فيه، ومن ثم فليس لها كبير اهتمام بواقع حياة الناس ومعاملاتهم، وليس فيها شريعة كشريعة موسى وشريعة محمد.
- معروف - بالمقابل - أن الإسلام دين الوسطية والشمولية، والقصد والموازنة بين الروحانيات وبين الماديات، والنقل والعقل، وأمر الدنيا والآخرة. ولهذا فتعاليمه - على عكس النصرانية في الغالب - على علاقة وثيقة بمجرى حياة الناس وتعاملاتهم.
- الحضارة الإسلامية تتسم بنزعة إنسانية واضحة برزت في علاقة المسلمين مع غيرهم - زمن قوتهم - وإنصافهم لهم وعدم إكراههم على ما لا يرغبون فيه.
- محاولة العلمانيين جلب العلمانية - المتنكرة للدين - لمجتمعاتنا، أنتجت زرعًا شيطانيًّا وكيانًا غريبًا يلفظه الجسد الإسلامي بقوة؛ لأنه علاج لمرض لا يعاني هو منه أصلًا.
- اتسم سلوك الغرب الحضاري - ولا يزال - بقدر كبير من التوحش خصوصًا في معاملة الآخر، خاصة المسلمين، والتاريخ والحاضر خير شاهد على العداء المستحكم تجاههم.
- المستقبل للإسلام - إن شاء الله - لا لغيره، لمقومات ذاتية فيه، فهو الأقرب لواقع البشر والمُنَظِّر لمجرى حياتهم، لكن تحقق ذلك على أرض الواقع يقع على عاتق أتباعه، ويتوقف على مدى بذلهم الجهد في هذا المضمار.

الشبهة الخامسة

الزعم أن الإسلام يُحلُّ ويحرِّم ما يشاء، النصرانية ليست كذلك(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن هناك مخالفةً ملحوظة بين منهج الإسلام ومنهج النصرانية من حيث التحليل والتحريم؛ فهو في الإسلام حيثما اتُّفق لا قاعدة له ولا معيار، كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وهو في النصرانية ليس كذلك.

---

1. الإسلام وضرورة التغيير، كتاب العربي، مرجع سابق، ص١٣١: ١٣٧.

(*) منحة القريب المجيب في الرد على عُبَّاد الصليب، الشيخ عبد العزيز والشيخ حمد بن ناصر آل معمر، دار ثقيف للنشر والتأليف، الرياض، ط٤، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الأصل وحدة الدين السماوي التوحيدي وتعدد الشرائع حسب الزمان والمكان حتى جاءت الشريعة الخاتمة الخالدة.

٢) شهادات الدارسين والباحثين تؤكد تحريف الأديان السابقة على الإسلام مما أوقعها في أخطاء ومتناقضات لا يقبلها عقل وعليه فلا يُعترَف إلا بالإسلام عقيدة وشرعًا لأنه المصدر الأوحد الذي لم يحرَّف.

٣) مزية الدين الإسلامي الجوهرية هي الشمولية لشأن الدنيا والآخرة، الروح والمادة، العبادة والقيادة؛ لذلك كثرت تشريعاته من الحلال والحرام وغيرهما بخلاف الأديان الأخرى ذات النظرة الجزئية لا الشاملة؛ كالمسيحية التي اهتمت بالجانب الروحاني فقط على حساب الجانب المادي.

٤) الأساس في التحليل والتحريم في الشريعة الإسلامية هو رعاية المصالح ودرء المفاسد عن الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، وقوله ﷺ: "لا ضرر ولا ضِرار"[(١)].

التفصيل:

إن شريعة الإسلام تنزيل من حكيم حميد، والمحرمات منصوص عليها، وما لم يُنص على تحريمه فهو مباح، إلا ما ثبت ضرره البين مما لم يَكُن موجودًا في عهد الوحي، انطلاقًا من قاعدة "لا ضرر ولا ضرار"، وقوله ﷻ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وهذا الذي يرمون به الإسلام متحقق بوضوح في النصرانية، فهم الذين يبيحون ويحرمون ما شاءت أهواؤهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ (التوبة: ٣١). وقال ﷻ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ (الشورى: ٢١).

وقد خرجوا على شريعة التوراة، مع أنها جزء من كتابهم المقدس، بسبب تدخُّلهم في التحليل والتحريم، ومن ذلك أن الخنزير مُحرَّم في التوراة، وأباحه النصارى، وأن تعدُّد الزوجات مباح في التوراة، وحرَّمه النصارى، وأن الختان مشروع في التوراة، وغير مشروع عند النصارى.

أولا. وحدة الدين الإلهي-الإسلام-في أصله السماوي:

الإسلام دين الرسل جميعًا من لدن آدم عليه السلام حتى محمد ﷺ خاتم المرسلين. وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة تأكيدًا تامًّا، فذكر على لسان نوح عليه السلام قوله: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢﴾ (يونس: ٧٢)، وعلى لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ (البقرة: ١٢٨)، وفي وصية يعقوب لأولاده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم

١. صحيح: أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الأقضية، باب القضاء في المرفق (٢٧٥٨)، وأحمد في مسنده، ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ (٢٨٦٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٠).

﴿مُّسْلِمُونَ ١٣٢﴾ (البقرة: ١٣٢)، وعن الكليم موسى عليه السلام: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ٨٤﴾ (يونس). وفي معرض الحديث عن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ (المائدة: ٤٤)، وعن يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ (يوسف)، وعن سحرة فرعون وقد آمنوا بموسى: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ١٢٦﴾ (الأعراف)، وعن حواري عيسى عليه السلام: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٥٢﴾ (آل عمران)، وعن بلقيس ملكة سبأ وقد آمنت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٤٤﴾ (النمل)، وفي دعاء الرجل الصالح: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٥﴾ (الأحقاف).

وفي الحديث: "الأنبياء إخوة أبناء من علَّات، وأمهاتهم شتّى ودينهم واحد"[١]. قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣)[٢].

يؤكد هذه الوحدة القائمة على التوحيد الخالص لله الخالق عز وجل الأستاذ أحمد عبد الوهاب بقوله: "إن الإسلام دين التوحيد الخالص، ولهذا فإن المسلم يعترف بصحة كل قول أو حديث يؤكد توحيد الله ويدعو إليه.

ومن أمثلة ذلك ما نجده في الأسفار، ويأتي مصداقًا لما يقرره القرآن الكريم. ففي الوصية الأولى لموسى ولبني إسرائيل: "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مُبْغِضِيَّ". (الخروج ٢٠: ٢ ـ ٥).

وفي الوحي إلى إشعياء: "قبلي لم يُصوَّر إله وبعدي لا يكون. أنا أنا الرب، وليس غيري مُخلِّص. أنا أخبرت وخلصت وأعلمت وليس بينكم غريب. وأنتم شهودي، يقول الرب، وأنا الله. أيضًا من اليوم أنا هو، ولا منقذ من يدي. أفعل، ومن يرد"؟ (إشعياء ٤٣: ١٠ ـ ١٣).

وفي أقوال المسيح وتعاليمه: "وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته". (يوحنا ١٧: ٣). "كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجدًا بعضكم من بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه"؟ (يوحنا ٥: ٤٤).

"فجاء واحد من الكَتَبَة وسمعهم يتحاورون، فلما رأى أنه أجابهم حسنًا، سأله: «أيَّة وصية هي أول الكل؟» فأجابه يسوع: «إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد. وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك،

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام (٦٢٨١).

٢. الإسلام، سعيد حوى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ج١، ص٣.

ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الأولى. وثانية مثلها هي: تحب قريبك كنفسك. ليس وصية أخرى أعظم من هاتين». فقال له الكاتب: «جيدًا يا معلم. بالحق قلت، لأنه الله واحد وليس آخر سواه. ومحبته من كل القلب، ومن كل الفهم، ومن كل النفس، ومن كل القدرة، ومحبة القريب كالنفس، هي أفضل من جميع المحرقات والذبائح». فلما رآه يسوع أنه أجاب بعقل، قال له: «لست بعيدًا عن ملكوت الله»". (مرقس ١٢: ٢٨ ـ ٣٤).

وفي رسائل تلاميذه: "أنت تؤمن أن الله واحد. حسنًا تفعل. والشياطين يؤمنون ويقشعرون! ولكن هل تريد أن تعلم أيها الإنسان الباطل أن الإيمان بدون أعمال ميت"؟ (رسالة يعقوب ٢: ١٩، ٢٠).

وفي القرآن الكريم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء)، ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ (طه)، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف).

والله تعالى ليس كمثله شيء: "ليس مثل الله يا يشورون. يركب السماء في معونتك، والغمام في عظمته". (التثنية ٣٣: ٢٦). "فبمن تشبّهون الله، وأي شَبَهٍ تعادلون به". (إشعياء ٤٠: ١٨). "الله لم يره أحد قط". (يوحنا ١: ١٨). "الذي وحده له عدم الموت، ساكنًا في نور لا يدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه". (رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس ٦: ١٦). ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى)، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ (الأنعام) [1].

تعدد الشرائع:

لئن اتحد الدين الإلهي في جوهره التوحيدي لرب العالمين، فقد تعددت الشرائع بتعدد الأمم وتنوع الظروف وتغير الأحوال بتغير الزمان والمكان، وقد اختصت الأقوام السابقة كلٌّ بدعوة، حتى أرسل الله خاتم الأنبياء ﷺ بخاتمة الرسالات، وفي هذا الشأن. يقول د. شوكت عليان تحت عنوان "الحكمة من تعدد الديانات": "خلق الله تعالى الناس ولم يتركهم وشأنهم، بل اختار لهم نظمًا، وأحكامًا تسعدهم في الدنيا والآخرة؛ وذلك لأن الإنسان عاجز عن إدراك المغيبات، ويتأثر تفكيره بمؤثرات من الزمان والمكان والمجتمع، وهو عاجز عن حمل غيره على طاعته لعدم قدرته على القهر الذي يربي الناس على كمال الطاعة، ولهذا جعل تعالى في كل أمة رسولًا لها منها وأيده بالمعجزات، وأمده بتعاليم السماء لينشر الخير، ويعالج الشر ويبلغهم الوعد بالثواب، والوعيد بالعقاب: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ (النساء).

وقد شرع الله تعالى لخلقه ما يناسب حالهم، ويتلاءم مع ظروف حياتهم وقوة إدراك عقولهم، وقوة احتمالهم، لهذا تعددت شرائعه في عباده على لسان رسله ـ عليهم

١. الإسلام والأديان الأخرى، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص٢٧: ٢٩.

السلام ـ ففرض ﷻ من التكاليف على كل أمة ما يتناسب مع هذه الظروف المختلفة، حتى المعجزات التي أيد الله بها الرسل، اختلفت لتكون في كل طور آية لله عند كل فريق يؤمنون بها، ويصدقون على أساسها دعاة التوحيد قال ﷻ: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة: ٤٨).

وقد كانت الرسالات السابقة على الإسلام كلها خاصة بمعنى أن كل رسول كان يختص بدعوته جماعة معينة لا تكلف بها جماعة أخرى، قال ابن عاشور: ولما كان العالم كلُّه مركبًا من آحاد الناس، ومملوءًا بأفعالهم، وهم يقتربون ويبتعدون من هذه الدرجة بمقدار نفوذ سلطان الدين إلى نفوسهم ومساعيهم، كان إصلاحه غير حاصل إلا بإصلاح أجزائه القابلة للإصلاح، وهو إصلاح نفوس آحاد الناس. ثم يلزم أن يكون صلاح الآحاد متماثلًا في أصوله ليمكن التعاشر والتآلف، فإن الاختلاف في أصول الأحوال النفسانية يجر إلى تعذر الائتلاف.

هذه غاية الأديان، وقد سلكت لها مسالك كثيرة، وهي مثل الطرقات العامة، تختلف بالطول والقصر والسعة والضيق، على حسب اختلاف استعداد الأمم ومدى تقبلهم، كي لا يحرج الله تعالى الناس بتحميلهم ما لا قِبَل لهم بتحمله رحمة منه تعالى. علم ﷻ أن في طبع البشر البعدَ عن إدراك ما لم تتهيأ نفسه لإدراكه، ولو أننا فرضنا استسلامه إلى الأوامر والنواهي فهو لا يلبث أن ينحرف ويحيد عنها بقصد أو غير قصد، فالأديان هي مبدأ إرشاد البشر إلى طريق الصلاح منذ ظهر على الأرض، ولم تزل تسمو به في درج الارتقاء كما يربى الطفل في نشأته.

ثم إن انقسام البشر وتشعبه، وتَبَاعُد أقطار إقامته، وصعوبة اختلاط بعضهم ببعض وضعف دواعي تواصلهم، وتعذُّر أو تعسر أسباب ذلك، وضعف القوى النفسية بسبب العداوة والبغضاء بينهم بتوهم كل فريق أو شخص أن صلاحه بإضرار غيره، وحياته بهلاك غيره، مع ما يضاف إلى ذلك من إغراء الباغين من الزعماء المضللين؛ كل ذلك قد فرق جماعتهم، وباعد بين أخلاقهم وعوائدهم، وبث بينهم العداوة والبغضاء، فحال دون الالتئام والألفة والاتحاد.

فلهذا كانت الأديان السابقة للإسلام تجيء خاصة بعشائر ثم بقبائل، ثم بأمم، والذي نجده منها يناسب حال أمة أو قبيلة، قد لا يناسب حال غيرها. وقد صرحت الأديان السالفة كلها والشرائع السابقة بتخصيص دعوتها بقوم معينين، فموسى ﷺ مثلًا، مع اختراقه أممًا كثيرة في جهات بني إسرائيل في طرق التِّيه، قاصدين الأرض المقدسة، لم يدعُ إلى اتباعه غيرَ قومه السائرين معه، ولما جاء عيسى ﷺ لم يدعُ إلى اتباع دينه غيرَ بني إسرائيل. وقد تحدَّث القرآن الكريم عن الأنبياء في إطار الخصوصية لدعواتهم، فقال ﷻ: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (الشعراء)، وقال ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ (الشعراء).

وعدد المرسلين كثير، وقد كفانا الله مئونة حصرهم، فقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (غافر: ٧٨). وسمى الله تعالى منهم في القرآن خمسة وعشرين أكثرهم

في سورة الأنعام، قال ﷻ: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (الأنعام).

وهذه الديانات، وإن تعددت في الفروع والتكاليف والأعمال، فهي قد اتحدت في المصدر الذي صدرت عنه، وهو الله تعالى، واتَّحدت أيضًا في الأصل الذي دعت إليه وهو التوحيد، فالقدر المشترك بين الرسالات جميعًا هو تصحيح العقيدة أولًا، ثم معالجة الأمراض الخلقية والاجتماعية الموجودة في تلك البيئات، قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل: ٣٦)، وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنبياء)، وقال: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (الشورى: ١٣) [١].

ثانيًا. تحريف الديانات السابقة:

مما لا مراء فيه أن الأديان السابقة قد أصابها التحريف والتبديل، مما حرفها عن أداء رسالتها الصحيحة وأوقع في عقيدتها ومسيرتها كثيرًا من الأخطاء والأغاليط، وقد حفلت كتبها المقدسة بكثير مما هو بشري ناقص، مما باعد بينها وبين أصلها السماوي، وأفقدها - في نظر كثيرين من نقاد وعلماء الأديان الشرقيين والغربيين - سمة القداسة وصفة السماوية.

لتأكيد هذا نورد شهادات لأحد رجال الدين والقانون وهو د. روبرت كيل تسلر في كتابه "حقيقة الكتاب المقدس" - الذي يُقيِّم التوراة والإنجيل، أو ما يُسمَّى بالعهدين القديم والجديد - يقول: "ووجهة نظرنا هي أن الكتاب المقدس مليء دون شك بالنبضات الإلهية والحقائق الكبرى، ولكنه أيضًا كتاب بشري يحتوي على ما لا يحصى من النقص بكل أشكاله[٢]".

ويعلق مترجم الكتاب على هذا الرأي قائلًا: "وهنا أتساءل: ما القيمة العلمية أو الأدبية أو التربوية أو حتى التاريخية لهذا الكتاب، إذا كان يحتوي على ما لا يحصى من النقص البشري؟! ولا أعرف هل يعرف د. روبرت كيل نفسُه ما معنى كلمة "كتاب مقدس"؟

فإن معناه أن مَن أوحى به هو الله، ولا دخل لأي عنصر بشري في محتواه. وعلامَ الاهتمام بكتاب بشري يجمع في طياته بعضًا من الومضات الإلهية، وبه كل هذا النقص والتناقض[٣]؟ وبشكل أدق يقول كيل أيضًا: "إنه لا توجد صفحة واحدة من صفحات الأناجيل المختلفة لا يحتوي نصها الأصلي على العديد من الاختلافات[٤]".

---

١. الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، د. شوكت عليان، دار الشواف، ليبيا، ط٢، ١٩٩٦م، ص١١٦: ١١٨.

٢. حقيقة الكتاب المقدس تحت مجهر علماء اللاهوت، ترجمة وتعليق: علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٣.

٣. المرجع السابق، ص١٣، ١٤.

٤. المرجع السابق، ص١٦.

وفي موضع ثالث يقول كيل: "ويُنهي القس شورر كلامه قائلًا: إن الهدف من القول بالوحي الكامل للكتاب المقدس، وبالمفهوم الرامي إلى أن يكون الله هو مؤلفه، هو زعم باطل ويتعارض مع المبادئ الأساسية لعقل الإنسان السليم، الأمر الذي تؤكده لنا الاختلافات البينة للنصوص، لذلك لا يمكن أن يتبنى هذا الرأي إلا إنجيليون جاهلون أو من كانت ثقافته ضَحْلَة(١)، وما يزيد دهشتنا أن الكنيسة الكاثوليكية ما زالت تنادي أن الله هو مؤلف الكتاب المقدس. وحتى أشهر آباء الكنيسة ـ أوجستين ـ قد صرح بعدم الثقة في الكتاب المقدس لكثرة الأخطاء، لذلك لم يعرف كتاب مثل هذه الأخطاء والتغييرات والتزويرات مثلما عرفه الكتاب المقدس(٢)".

وينقل عن ثان فيقول: "ويشير يوليشر.. كذلك إلى التغييرات المتعمدة خصوصًا في نصوص الأناجيل، حيث يقول: إن الجاهل فقط هو الذي ينكر ذلك. كما أكد كل العلماء في المائة سنة الأخيرة حقيقة وجود العديد من التغييرات المتعمدة التي لحقت بالكتاب المقدس في القرون الأولى الميلادية، ومعظم هؤلاء العلماء الذين أرادوا الكلام عن الكتاب المقدس ونشأته ونصه وقانونيته بصورة جدية من لاهوتي الكنيسة(٣)".

بناء على ذلك، فالأديان السماوية كلها، وإن اشتركت في أصلها التوحيدي السماوي، فإن غير الإسلام منها قد حُرِّف وطالت أصولَه يدُ التبديل والتغيير، بل التزوير، ولهذا فالإسلام وحده هو من يُعَد المتحدث الرسمي عن السماء، وأن حلاله وحرامه موافق لتعاليم المولى ﷻ.

ثالثًا. مزية الإسلام الكبرى:

بالإضافة لهذا، فإن للدين الإسلامي مزية جوهرية، هي أنه ليس دين تعاليم روحانية مثالية أخلاقية عقائدية فقط، وإنما هو، كما هو معروف وثابت، دين عقائد وعبادات ومعاملات، ودنيا وآخرة، دين ودولة، عبادة وقيادة، دين عام في الزمان والمكان، صالح لكل عصر ومِصر.

ولهذا فقد كثر في شريعته وفقهه التحليل والتحريم لتعرضه بالتنظير والتقييم والتقويم لأحوال الناس المستجدة ومعاشهم المستمر، أما النصرانية فإنها تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، كما هو مشهور في أدبياتها، ومن ثم لا صلة لها بالتحليل والتحريم إلا من طرف خفي خافت باهت.

ومن هنا لا يصح القول ولا تجوز المقارنة بين الإسلام والمسيحية، بحيث يقال إن شريعة محمد مخالفة لدين المسيح مضادة له، تحل ما تشاء وتحرم ما تشاء. فالإسلام ـ كما سبق ـ يوافق النصرانية وغيرها من الأديان السماوية ـ في أصلها الصحيح قبل التحريف ـ في عقيدة التوحيد. أما فيما عدا ذلك فلا موضع للمقارنة إذ لا شريعة، ولا فقه، للدنيا في النصرانية تقارن بشريعة الإسلام المفصلة بهذا الشأن، وكما قيل فإن مملكة المسيحية هي السماء لا الأرض. أما الإسلام فمملكته السماء والأرض والحضر والمدر والوبر

---

١. الضَّحلة: القليلة.

٢. حقيقة الكتاب المقدس تحت مجهر علماء اللاهوت، ترجمة وتعليق: علاء أبو بكر، مرجع سابق، ص١٨.

٣. المرجع السابق، ص٣٠.

والسهل والوعر.

والحق أنه لا مقارنة من الأصل، تصح بين دين حفظ الله كتابه المقدس - القرآن الكريم - حرفًا حرفًا وبين آخر ذهبت قدسية كتابه، وما قد يكون به من شيء من الشرائع، فقد عبثت به يد التأليف والتلفيق البشري على مرِّ القرون باعتراف رجال كنيسته وعلماء لاهوته!

حول هذه المزية الجوهرية للإسلام، من حيث كونه عقيدة وشريعة، وعبادة ومعاملة، وامتيازه بذلك على سائر الأديان، كمًّا وكيفًا، التقت أقلام كبار المفكرين والعلماء تؤكدها وتبلورها. يقول الأستاذ أحمد عبد الوهاب مقارنًا بين الإسلام وغيره من الأديان، في هذا الشأن تحت عنوان "الدين والناس والحياة": "ماذا يريد الإنسان في هذه الحياة؟ إنه يريد - أولًا - تحقيق مطالبه الفطرية والغريزية، ثم هو يريد الأمن والسلام والحرية والفرح والمتعة، والحياة المستمرة. إنه - باختصار - يريد السعادة الأبدية، وهو بالطبع لا يريد مضادات السعادة الأبدية من أحزان وآلام وموت وعذاب، إن الإنسان لا يريد الشقاء.

والمؤمنون - كبشر - ليسوا خروجًا عن هذه القاعدة، فهم يبحثون عن السعادة، ويسعون جاهدين من أجلها، وإن اختلفت مفاهيمها لديهم - في بعض الأحيان - عن تلك التي يسعى من أجلها غيرهم. وتحدثنا الكتب المقدسة عما يسعد الإنسان ويشقيه، فتَعِده بالأولى إذا سار مع الله، وتتوعده بالثانية إذا تمرد على المنهج الإلهي، وجعل الشيطان له قرينًا.

ونتبين من التوراة مطالب السعادة التي يرجوها الإسرائيليون، وذلك من أقوال الرب التي جاء بها موسى: "إذا سلكتم في فرائضي وحفظتم وصاياي وعملتم بها، أُعْطِي مطركم في حينه، وتعطي الأرض غلَّتها، وتعطي أشجار الحقل أثمارها، ويلحق دراسكم بالقِطاف، ويلحق القطاف بالزرع، فتأكلون خُبْزَكم للشَّبع وتسكنون في أرضكم آمنين. وأجعل سلامًا في الأرض، فتنامون وليس من يزعجكم. وأُبِيدُ الوحوش الرديئة من الأرض، ولا يعبر سيف في أرضكم. وتطردون أعداءكم فيسقطون أمامكم بالسيف. يطرد خمسة منكم مئة، ومئة منكم يطردون رَبْوة، ويسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف. وأَلْتَفِتُ إليكم وأُثْمِركم وأُكثِّركم وأَفِي ميثاقي معكم، فتأكلون العتيق المُعتَّق، وتخرجون العتيق من وجه الجديد. وأجعل مسكني في وسطكم، ولا ترذلكم نفسي. وأسير بينكم وأكون لكم إلهًا وأنتم تكونون لي شعب". (اللاويين ٢٦: ٣ - ١٢).

كما تحدد لنا التوراة عناصر الشقاء التي يحذرها الإسرائيليون، من قول الرب: "لكن إن لم تسمعوا لي ولم تعملوا كل هذه الوصايا، وإن رفضتم فرائضي وكرهت أنفسكم أحكامي، فما عملتم كل وصاياي، بل نكثتم ميثاقي، فإني أعمل هذه بكم: أُسلِّط عليكم رُعْبًا وسُلًّا وحمّى تُفْنِي العينين وتُتْلِف النفس. وتزرعون باطلًا زرعكم فيأكله أعداؤكم. وأجعل وجهي ضِدَّكم فتنهزمون أمام أعدائكم، ويتسلَّط عليكم مُبْغِضُوكم، وتهربون وليس من يطردكم. وإن كنتم مع ذلك لا تسمعون لي، أزيد على تأديبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم، فأُحطِّم فَخار عِزِّكم، وأُصيِّر سماءكم كالحديد، وأرضكم كالنحاس، فتفرغ باطلًا قوتكم،

وأرضكم لا تُعطي غلَّتها، وأشجار الأرض لا تُعطي أثمارها. وإن سلكتم معي بالخلاف، ولم تشاءوا أن تسمعوا لي، أزيد عليكم ضربات سبعة أضعاف حسب خطاياكم. أطلق عليكم وحوش البَرِّيَّة فتُعْدِمكم الأولاد، وتَقْرِض بهائمكم، وتُقلِّلكم فتُوحَش طُرُقكم. وإن لم تتأدبوا مني بذلك، بل سلكتم معي بالخلاف، فإني أنا أسلك معكم بالخلاف، وأضربكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم. أجلب عليكم سيفًا ينتقم نقمة الميثاق، فتجتمعون إلى مُدُنكم وأرسل في وسطكم الوَبَأ فتدفعون بيد العدو. بكَسْري لكم عصا الخبز. تخبز عشر نساء خبزكم في تنُّور واحد، ويَرْدُدن خبزكم بالوزن، فتأكلون ولا تشبعون. وإن كنتم بذلك لا تسمعون لي بل سلكتم معي بالخلاف، فأنا أسلك معكم بالخلاف ساخطًا، وأؤدبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم، فتأكلون لحم بنيكم، ولحم بناتكم تأكلون. وأُخْرِب مرتفعاتكم، وأقطع شمساتكم، وألقي جثثكم على جثث أصنامكم، وتَرْذُلكم نفسي. وأُصيِّر مُدُنكم خَرِبة، ومَقادِسكم مُوحِشة، ولا أشتم رائحة سروركم. وأوحش الأرض فيستوحش منها أعداؤكم الساكنون فيها. وأُذرِّيكم بين الأمم، وأُجرِّد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة، ومدنكم تصير خربة. حينئذ تستوفي الأرض سُبُوتها كل أيام وحشتها وأنتم في أرض أعدائكم. حينئذ تَسْبِت الأرض وتستوفي سبوتها. كل أيام وحشتها تسبت ما لم تسبته من سبوتكم في سكنكم عليها. والباقون منكم أُلقي الجبانة في قلوبهم في أراضي أعدائهم، فيهزمهم صوت ورقة مندفعة، فيهربون كالهرب من السيف، ويسقطون وليس طارد. ويعثر بعضهم ببعض كما من أمام السيف وليس طارد، ولا يكون لكم قيام أمام أعدائكم، فتهلكون بين الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم". (اللاويين ٢٦: ١٤ ـ ٣٨).

ومن هنا نتبين أن السعادة والشقاء في دين الإسرائيليين ـ وهو ما اصطلح على تسميته باليهودية ـ إنما هي أمور تتعلق بالحياة الدنيا. فاليهودي لا يرجو إلا نعيم الدنيا، وهو لا يحذر إلا شقاءها.

أما الإنجيل فلا تُرْجَى فيه السعادة إلا في الحياة الآخرة، فلقد قال المسيح في موعظته الشهيرة: "ورفع عينيه إلى تلاميذه وقال: «طُوباكم أيها المساكين، لأن لكم ملكوت الله. طوباكم أيها الجِياع الآن، لأنكم تشبعون. طوباكم أيها الباكون الآن، لأنكم ستضحكون". (لوقا ٦: ٢٠، ٢١).

"لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض حيث يَفْسدُ السوس والصَّدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزًا في السماء، حيث لا يفسد سوس ولا صدأ". (متى ٦: ١٩، ٢٠).

كذلك لا يحذر الإنسان شقاء إلا شقاء الآخرة: "وإن أَعْثَرَتْكَ يدك فاقطعها. خير لك أن تدخل الحياة أَقْطَع من أن تكون لك يدان وتمضي إلى جهنم، إلى النار التي لا تُطفَأ. حيث دُودُهم لا يموت والنار لا تُطفأ. وإن أعثرتك رِجْلُك فاقطعها. خير لك أن تدخل الحياة أعرج من أن تكون لك رجلان وتُطرح في جهنم في النار التي لا تُطفأ. حيث دودهم لا يموت والنار لا تُطفأ. وإن أعثرتك عينك فاقلعها. خير لك أن تدخل ملكوت الله أعور من أن تكون لك عينان وتُطرح في

جهنم النار. حيث دودهم لا يموت والنار لا تُطفأ". (مرقس ٩: ٤٣ ـ ٤٨).

ويذكر الإنجيل بوضوح على لسان المسيح، أنه محال الجمع بين نعيمي الدنيا والآخرة، ولذلك كانت حملته شديدة على الأغنياء وأصحاب الممتلكات الدنيوية، إذ اعتبرهم قد استوفوا نعيمهم في الدنيا، ولم يَبْقَ للأغلبية الساحقة منهم ـ إن لم يكونوا جميعهم ـ سوى عذاب الآخرة: "لا يَقْدِر أحد أن يخدم سَيِّدَيْنِ؛ لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال. لذلك أقول لكم: لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس"؟ (متى ٦: ٢٤، ٢٥).

"فنظر يسوع حوله وقال لتلاميذه: «ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله»! فتحيَّر التلاميذ من كلامه. فأجاب يسوع أيضًا وقال لهم: «يا بني، ما أعسر دخول المُتَّكِلين على الأموال إلى ملكوت الله! مرور جمل من ثُقْب إبرة أيسر من أن يدخل غَنِيٌّ إلى ملكوت الله»". (مرقس ١٠: ٢٣ ـ ٢٥).

وأما في القرآن فيستطيع المسلم أن يحصل على السعادة في الدنيا والآخرة: قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (٢٠١)﴾ (البقرة)، قال ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (الأعراف: ٣٢).

ولقد جمع إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام بين خيري الدنيا والآخرة، إذ قال الله فيه: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧)﴾ (العنكبوت).

والإسلام يَحُثُّ المسلم على السعي من أجل الغنى وكثرة المال، يطلبه بالطرق المشروعة وينفق منه في أعمال الخير المشروعة، فيسعد دنيا وأخرى، ويسعد الآخرين: قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ (النساء: ١٠٠)، قال ﷻ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (النساء: ٩٥)، قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)﴾ (البقرة)، وقال ﷻ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾ (النحل).

وجعل الله طاعته وسيلة للحياة السعيدة بإمكاناتها المتنوعة، فكان قول نوح ـ وغيره من المرسلين ـ لمن أرسل إليهم: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢)﴾ (نوح)، وكان قول هود لقومه عاد: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ

قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ (هود).

ولقد استعاذ رسول الله ﷺ من الفقر، وجعله قرينًا للكفر، فقال ﷺ: "اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر"[1].

وقال لسعد بن أبي وقاص ﷺ: "إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس"[2].

وعلى المسلم أن يقيم علاقات متوازنة بين مطالب الدنيا والآخرة، كل على قدره، فيحصل بذلك على السعادة فيهما، ولذلك سجّل القرآن الكريم هذا القول الحكيم: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ (القصص: ٧٧)، ولم يُكلّف المؤمنون بالله أن يعذبوا أنفسهم في الدنيا على أن يعوّضوا عن ذلك في الآخرة، فلهم أن يعملوا لسعادتهم في الدنيا، بجانب عملهم لسعادة الآخرة: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (الأعراف).

وحين يتمرد الإنسان على منهج الله تعالى، فعليه أن يتوقع الشقاء، لا في الآخرة فحسب، بل في الدنيا كذلك، قال الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (الروم)، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ (النور: ١٩) ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ (التوبة: ٧٤).

هذا، ولما كانت الحياة الآخرة حياة الأبد، وكانت الحياة الدنيا قصيرة فانية، كان على المؤمن العاقل أن يوجه همّه إلى الآخرة، وأن يستخدم الدنيا وسيلة تعينه على تحقيق سعادته في الآخرة. من أجل ذلك كان على المسلم أن يعترف بسعادة الدنيا والآخرة، ولكن عليه أن يُؤثِر ما في الآخرة على الدنيا، وعليه كذلك أن يعترف بشقاء الدنيا والآخرة، إلا أن ما في الآخرة أشد وأقسى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ (النازعات)، ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (القصص)، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (الأنعام)، ﴿ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (الأنعام)، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ (لقمان).

وخلاصة القول في النظر إلى سعادة الإنسان وشقائه، أنها في اليهودية دنيوية بحتة، وهي في المسيحية أخروية فحسب، بينما هي في الإسلام تجمع بين هذا وذاك، مع ترجيح ما في الآخرة على

---

١. صحيح الإسناد: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة ﷺ (٢٠٣٩٧)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب الأذكار، باب الدعاء عند الكرب (٧٠١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي (١٣٤٧).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء بدفع الوباء والوجع (٦٠١٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث (٤٢٩٦).

ما في الدنيا[١] ®.

وهذا الإسلام هداية كاملة للإنسان والناس، فإن الله ﷻ جعله كاملًا وشاملًا، بحيث لا تبقى قضية من قضايا الوجود إلا وقد بين حكمه فيها إباحة أو حرمة، أو كراهة، أو سنية، أو وجوبًا، أو فريضة، سواء في ذلك شئون العقيدة أو العبادة أو السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو الحرب أو السلم أو التشريع، إلى آخر ما يتصوره الإنسان من شئون الإنسان. قال الله تعالى واصفًا كتابه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، وما لا يعرف من الكتاب والسنة صراحة، يعرف استنباطًا يعرفه مجتهدو الأمة الإسلامية.

فقد بينت في الكتاب والسنة قضايا العقيدة وقضايا العبادة وقضايا المال وقضايا الاجتماع، وقضايا الحرب والسلم، وقضايا التشريع والقضاء، وقضايا العلم والتعليم والثقافة، وقضايا الحكم والسلطان، وقد عبر عن ذلك فقهاؤنا بقولهم: اعلم أن مدار أمور الدين على الاعتقادات والآداب والعبادات والمعاملات والعقوبات[٢].

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ ما ترك أمرًا يقربنا من الله إلا وأمرنا به، ولا ترك أمرًا يبعدنا عن الله إلا نهانا عنه، حتى تركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. فالإسلام هو رسالة الحياة كلها، ورسالة الإنسان كله، كما أنه رسالة العالم كله، ورسالة الزمن كله[٣].

"إن في الإسلام طائفة من الأصول والتعاليم مقيسة على قابلية النفس الإنسانية، ومؤلفة بحيث تستثير قواها الكامنة فيها، وتوجهها إلى المرامي البعيدة عنها، مزودة بمناعات مناسبة لها، تنتج آثارًا يحار في تعليلها العقل[٤]".

وأخيرًا، هذه شهادة لرجل مسيحي غربي هو الكاتب الأيرلندي الشهير "برنارد شو" يقول: "الإسلام هو دين الديمقراطية وحرية الفكر، هو دين العقلاء، وليس فيما أعرف من الأديان نظام اجتماعي صالح كالنظام الذي يقوم على القوانين والتعاليم الإسلامية، الإسلام هو الدين الوحيد الذي يبدو لي أن له طاقة هائلة لملاءمة أوجه الحياة المتغيرة، وهو صالح لكل العصور[٥]".

لعله اتضح ـ للعقلاء الموضوعيين ـ الآن لماذا كثر في الإسلام ـ دون سواه ـ التحليل والتحريم، منحازًا بذلك عن غيره من الأديان، فلا محل إذًا للمغالطة في هذا الشأن.

رابعًا. مدار التحليل والتحريم في الشريعة الإسلامية:

هل للشريعة مقاصد وأهداف لما شرعته من

---

١. الإسلام والأديان الأخرى، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص٧١: ٧٧.

® في **"أثر التوبة في تحقيق السعادة ودفع القلق"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة عشرة، من الجزء السادس عشر (أصالة التشريع الإسلامي). وفي **"فشل النظرة المادية في تحقيق السعادة الإنسانية"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثلاثين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

٢. الإسلام، سعيد حوى، مرجع سابق، ج١، ص٦.

٣. نحو وحدة فكرية، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، ص٤٥.

٤. من معالم الإسلام، محمد فريد وجدي، مرجع سابق، ص٧٩.

٥. الإسلام بعيون مسيحية، لطفي حداد، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ص٢٠٩.

أحكام؟ سواء ما أمرت به من فرائض ومندوبات، وما نهت عنه من محرمات ومكروهات، وما جعلت للمكلفين الخيار في أحكامها في فعله وتركه من مباحات.

أم أن الشريعة في أحكامها تعبدية تحكمية، تأمر وتنهى، وتحلل وتحرم، دون أن تقصد إلى شيء وراء أمرها ونهيها، وحظرها وإباحتها؟ وبعبارة أخرى: هل أحكام الشريعة معلَّلة بعلل مفهومة للبشر أم لا؟

ونبادر فنقول: إن الجمهرة العظمى من علماء الأمة من السلف والخلف، متفقون على أن أحكام الشريعة ـ في جملتها ـ معلّلة، وأن لها مقاصد في كل ما شرعته، وأن هذه المقاصد والعلل والحِكم معقولة ومفهومة تفصيلًا، إلا في بعض الأحكام التعبدية المحضة، والتي كان من الحكمة المعقولة أيضًا ألا يعرف تفصيل ما وراءها من أسرار.

ومما لا ريب فيه لأي دارس أن الشريعة الإسلامية أقامت أحكامها على رعاية مصالح المكلفين، ودرء المفاسد عنهم، وتحقيق أقصى الخير لهم.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ورحمته وإحسانه أن يتعبد خلقه بما فيه صلاحهم وفلاحهم في العاجلة والآجلة، ولهذا نقرأ في كتاب الله العزيز آية الوضوء: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٦﴾ (المائدة)، وفي الصلاة نقرأ قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥). وفي الزكاة نقرأ قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة: ١٠٣). وفي الصوم نقرأ قوله ﷻ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ (البقرة)، وفي الحج نقرأ قوله ﷻ: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ (الحج: ٢٨).

فإذا كانت مصالح المكلفين مرعية في ذات العبادات التي اعتبر التعبد هو المقصود الأول منها، فكيف بأمور المعاملات الدنيوية التي تنتظم بها معايشهم وعلاقاتهم أفرادًا وأسرًا ومجتمعات وأممًا؟

ولهذا أكد المحققون من علماء الأمة: أن الشريعة إنما وُضِعت لإقامة مصالح العباد في المعاش والمعاد، أو في العاجل والآجل... وبهذا يتبين لنا شمول المصلحة التي قصدت الشريعة إلى إقامتها وحفظها. فهي ليست المصلحة الدنيوية فحسب، كما يدعو خصوم الدين، ولا المصلحة المادية فقط، كما يريد أعداء الروحية، ولا المصلحة الفردية وحدها، كما ينادي عشاق الوجودية وأنصار الرأسمالية ولا مصلحة الجماعة أو البروليتاريا كما يدعو إلى ذلك أتباع الماركسية والمذاهب الجماعية، ولا المصلحة الآتية للجيل الحاضر وحده، كما تتصور بعض النظرات السطحية. إنما المصلحة التي قامت عليها الشريعة في كلياتها وجزئياتها، وراعتها في عامة أحكامها، هي المصلحة التي تسع الدنيا والآخرة، وتشمل المادة والروح، وتوازن بين الفرد والمجتمع وبين الطبقة والأمة، وبين المصلحة القومية الخاصة والمصلحة الإنسانية العامة، والموازنة بالقسط بين هذه المصالح المتقابلة المتضاربة في كثير من الأحيان لا ينهض بها علم بشر، وحكمة بشر، وقدرة بشر.

وإذا كانت الشريعة تقصد إلى رعاية المصالح، فهي بالتالي تقصد إلى إزالة المفاسد ومنعها، حتى إن بعض

الذين اعتبروا المصلحة دليلًا شرعيًّا مستقلًّا استندوا إلى حديث: "لا ضرر ولا ضِرار" [1].

ومعنى "لا ضرر ولا ضرار": أي لا يضر الإنسان نفسه ولا يضار غيره. أو لا يضر غيره ابتداء ولا يضاره جزاء. وإذا ثبت نفي الضرر والضرار لزم أن تُرعى المصالح والمنافع وتحفظ.

وقد أخذ العلماء منه أن الأصل في المضار التحريم؛ لأن كلمة "ضرر" جاءت نكرة في سياق النفي فتعم كل ضرر كان. بخلاف المنافع، فالأصل فيها الإباحة لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٢٩).

وحفظ المصالح أو المقاصد الشرعية تكون من جهتين: إيجابية بحفظ ما يثبت قواعدها ويقيم أركانها. وسلبية بدرء الاختلال الواقع أو المتوقع عنها.

ومن ثم كان درء المفاسد لازمًا لإقامة المصالح، بل هو داخل في مراعاتها من جهة العدم كما قال الشاطبي، وعلى هذا الأساس قامت أوامر الشرع ونواهيه [2].

ولعله قد تأكد مما سبق أن شيئًا في الشريعة الإسلامية لم يُحَلَّ أو يُحَرَّم تعسُّفًا أو بلا حكمة، بل إن أحكام الشريعة وأوامرها ونواهيها تقصد إلى إقامة المصلحة ودرء المفسدة، وقد كشف لنا العلم الحديث عن علل كثيرة لتحريم لحم الخنزير مثلًا®، مما ينزِّه هذه الشريعة عن العبث، ويثبت إلهيتها.

الخلاصة:

- الدين الإلهي واحد في أصله السماوي التوحيدي، أما الشرائع فمتعددة بتعدد الأمم واختلاف الزمان والمكان، وقد تجلت حقيقة هذا الدين الإلهي في صورته النهائية الخاتمة في الإسلام.
- شهد علماء الأديان ونقادها الغربيون أن الأديان السابقة على الإسلام أصابتها يد التحريف والتبديل. ولم يبق بين الأديان دين لم يُحرَّف عقيدةً وشريعة غير الإسلام.
- مزية الإسلام الجوهرية أنه دين ودنيا وعبادة ومعاملة، ومن ثم فقد ضَبَطَ كل شيء في حياة الناس بمعيار الحلال والحرام، أما الغالب على الأديان الأخرى فهو النظرة الجزئية لا الشاملة، كالجانب الروحاني الغالب على المسيحية مثلًا.
- أساس التحليل والتحريم في الشريعة الإسلامية هو إقامة المصالح ورعايتها، ودرء المفاسد والمضار وإزالتها، وقد قال ﷻ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

---

١. صحيح: أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الأقضية، باب القضاء في المرفق (٢٧٥٨)، وأحمد في مسنده، ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ (٢٨٦٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٠).

٢. انظر: مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٥، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٥٧: ٦٦..

® في "**الحكمة من تحريم لحم الخنزير**" طالع: الشبهة الثالثة عشرة، من الجزء السادس عشر (أصالة التشريع الإسلامي). وفي "**نجاسة لحم الخنزير وشحمه**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الأولى، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

الشبهة السادسة

الزعم أن الإسلام دين محلي، وأن المسيحية دين عالمي(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن الإسلام ليس دينا تبشيريًّا كالنصرانية، وأن محمدًا قد أُرسل إلى قومه من العرب فقط، وهم بهذا يدَّعون أنهم لا تلزمهم دعوة الإسلام ولا تشملهم على عكس المسيحية العالمية المناسبة لكل زمان ومكان وذوق.

وجوه إبطال الشبهة:

١) عالمية الإسلام أمر ثابت بالقرآن والسنة، وقد بُعِثَ النبي ﷺ إلى الناس كافة ولم يُختَص بالعرب.

٢) النصرانية هي الديانة المحلية، إذ أرسل عيسى عليه السلام لخِراف بني إسرائيل الضالة "لم أُرسَل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة". (متى ١٥: ٢٤).

٣) تدليس بولس بداية الانحراف والتحول، الذي لم ينته حتى اليوم.

٤) أظهر النقد العلمي أن العبارات القليلة التي توهم عالمية النصرانية في الإنجيل لا ثقة بها ولا بثبوتها التاريخي.

التفصيل:

هذا قلب لحقائق الأمور وطبيعة الديانتين وواقع التاريخ، وقد بلور مضمون هذه الشبهة د. فرج الله عبد الباري بقوله: "وقد جادل المسلمون أهل الكتاب في مسائل عديدة كان من بينها إنكار أهل الكتاب لعموم رسالة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ، وقد استدل النصارى بآيات من القرآن الكريم حرفوها عن مواضعها ليستشهدوا بها زورًا وبهتانًا على أن دعوة الإسلام لا تلزمهم ولا تشملهم؛ لأن القرآن نزل بلسان عربي؛ ولأن محمدًا ﷺ لم يتكلم بألسنتهم.

أثار هذا قدماء النصارى وجادلوا بهذه الأباطيل علماء الإسلام كالقرافي وابن تيمية والخزرجي، وتبنَّى بعض النصارى هذه الشُّبَه وأثاروها مرة أخرى في العصر الحديث، وبينما هم يثيرون الشبه بالنسبة للإسلام تراهم يعملون في غير كلل ولا ملل لنشر النصرانية في أرجاء العالم على اعتبار أنها الديانة العالمية، وهي الدعوة التي يجب أن توجه إلى جميع أفراد الجنس البشري كما يزعمون"[1].

فإلى نقض هذه الشبهة ورد هذا الافتراء من مختلف جوانبه:

أولا. عالمية الإسلام أمر ثابت في القرآن والسنة:

أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "فُضِّلت على الأنبياء بست: أُعْطِيتُ جوامع الكَلِم، ونُصِرت بالرعب، وأُحلَّت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأُرسلت إلى الناس كافة، وخُتِمَ بي النبيون"[2].

(*) القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، كارين أرمسترونج، ترجمة: د. فاطمة نصر، و د. محمد عنان، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

١. نقض دعوى عالمية النصرانية، فرج الله عبد الباري، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ص٤.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب منه (١١٩٥)..

وقال ﷺ: "وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة"[1]. وقال الله ﷻ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وقال ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ: ٢٨).

ومن العجيب أن بعض النصارى يذهبون إلى القول بأن محمدًا نبي للعرب خاصة، يقولون هذا ويرددونه ويتشدقون به، مع وفرة النصوص الكريمة في القرآن والسنة التي تؤكد عموم رسالته للعالمين.

بل إن كثيرًا من نصوص القرآن الكريم دعوة موجهة إلى أهل الكتاب، من يهود ونصارى وغيرهم من أهل النحل والملل المختلفة في كل البقاع والأصقاع، وهذه دعوة الرسول ﷺ ورسله، وجهاده لليهود والنصارى وللمجوس وللمشركين - من العرب ومن غيرهم - شاهد صدق على ما نقول.

وفي القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه ذكر وتنديد بكفر الكافرين من اليهود والنصارى، وأمْرٌ بقتال الظالمين والطغاة منهم، ودعوة لهم إلى الدخول في الإسلام دين الله الحق، قال ﷻ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)﴾ (آل عمران).

وقال ﷻ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)﴾ (آل عمران).

وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧)﴾ (النساء).

وقال تعالى أيضًا: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم (٣٢٨)، وفي موضع آخر.

لِلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ (النساء).

وقال الله تعالى أيضًا: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ (المائدة).

وقال ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (المائدة)، وقال ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (المائدة) وقال ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ (المائدة).

قد يقول قائل: أليس هناك تناقض بين هذه الآيات وبين آيات أخرى تقول: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (آل عمران)، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (يوسف)، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (الشعراء)، ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (القصص).

ونقول في الإجابة: ليس في القرآن آية واحدة تدل أو تشير إلى أن رسالة محمد ﷺ مختصة بالعرب وحدهم، وإنما فيه إثبات رسالته إليهم، كما أن فيه إثبات رسالته إلى قريش! وليس بين هذين تناقض. وكذلك ليس هناك تناقض بين أن يوجه القرآن الخطاب إلى أهل الكتاب ـ كما أسلفنا ـ وبين أن يوجهه إلى بني إسرائيل أو بني آدم، كما في قوله ﷻ: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (البقرة)، ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ (الأعراف: ٢٧)، ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (الأعراف)، ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)﴾ (الأعراف).

فليس التخصيص في توجيه الدعوة الإسلامية إلى العرب أو بني إسرائيل بمنافٍ لعموم الرسالة إلى الثقلين، ولهذا فإن البشرية كلها ـ بل الجن كذلك ـ مخاطبون برسالة محمد ﷺ ومسئولون عن دعوته، وعن مدى استجابتهم واتباعهم لها. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمَقَتَهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب"[1]. وأولئك البقايا الذين عناهم الرسول ﷺ في هذا الحديث، فمن لم يؤمن به فهو كافر من أهل النار، كما قال ﷺ: "والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار"[2].

ثم إنه من المعروف أن بني إسرائيل، كانوا أكثر الأمم أنبياء. بعث إليهم موسى، وبعث إليهم بعده أنبياء كثيرون، حتى قيل: إنهم بلغوا ألف نبي، كلهم يلتزمون بشريعة التوراة، يأمرون بها، ويدعون إليها، ولا يغيرون منها شيئًا، ثم جاء المسيح بعد ذلك بشريعة أخرى غيَّر فيها بعض شرع التوراة بأمر الله، فإذا كان إرسال موسى والأنبياء بعده لم يمنع من إرسال المسيح إلى بني إسرائيل، فلماذا يرفضون أن يكون محمد رسولًا إلى أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، وهم منذ المسيح لم يأتهم رسول من الله، كما قال ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)﴾ (المائدة)[3].

ولا نظن أن منصفًا ـ بعد هذا ـ يجد مجالًا لنفي عالمية الدين الإسلامي والقول بخصوصيته للعرب دون غيرهم من الأمم، كما كانت طبيعة الرسالات قبله، محلية أو قبلية، أو ما شابه ذلك®.

ثانيًا. النصرانية ديانة محلية:

هذه هي مقولة الحق تشهد على صدقها تعاليم صاحب الرسالة ـ المسيح عليه السلام ـ وتطبيقاته وتصرفاته، وتحت عنوان "خصوصية رسالة عيسى عليه السلام لبني إسرائيل من خلال نصوص الأناجيل الحالية " كتب د. فرج الله عبد الباري يقول: "النصوص الدالة على خصوص الدعوة لبني إسرائيل:

١. ورد في إنجيل متى: "فستلد ابنًا وتدعو اسمه يسوع. لأنه يُخلِّص شعبه من خطاياهم". (متى ١: ٢١). البشارة هنا بعيسى قبل مولده كما ورد في إنجيل متى، وأن يسوع يخلص شعبه من خطاياهم، ولكن وليم إدي يفسر هذا النص بقوله: "يخلِّص شعبه: أي اليهود أولًا، ثم جميع الذين يؤمنون به من كل أمة"[4].

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي لا يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٧٣٨٦).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس (٤٠٣).

٣. مناظرة بين الإسلام والنصرانية، مجموعة باحثين، دار الحديث، القاهرة، ط٢، ١٤١٢هـ، ص٣٠٣: ٣٠٩.

® في **"عالمية الإسلام"** طالع: الشبهة العاشرة، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي١).

٤. الكنز الجليل في تفسير الإنجيل، وليم إدي، ج١، ص٩.

وليس هناك إشارة في النص من قريب أو بعيد، تشير إلى تخليصه لغير شعبه وهم اليهود، وهذا تحكُّم في تفسير النص بقول شارح النص، وإلا فما دلالة ذلك في النص؟ لا وجود لها، وسوف نرصد ونبين كيف طرأت دعوة عالمية النصرانية على يد بولس.

٢. ورد في إنجيل متى عن توجيهه لتلاميذه بنشر الدعوة: "هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلًا: «إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا. بل اذهبوا بالحري إلى خِراف بيت إسرائيل الضالة. وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين: إنه قد اقترب ملكوت السماوات»". (متى ١٠: ٥ ـ ٧).

في هذا النص تتضح وصية عيسى لتلاميذه: "إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا". لقد أرسلهم إلى أمتهم اليهود والشعب المختار، والمراد بخراف بني إسرائيل الضالة هم اليهود الذين ضلوا عن مسالك الحق والعبادة الروحية، فكانوا كغنم بلا راع ـ وهذا التبشير من قبل التلاميذ كان لتنبيه أفكار اليهود وتمهيد الطريق لكل التعاليم المسيحية، كما يقول وليم إدي في تفسيره للنص السابق، ولكن مفسرًا آخر لنفس النص يحاول أن يستشف المرحلية في الدعوة من خلال وصية المسيح لتلاميذه التي تأمرهم بألا يدخلوا عند غير اليهود يقول: "أمر التلاميذ بأن لا يكرِزوا بالإنجيل في الزمن الحاضر إلا لليهود فقط" [1].

وليس هناك ما يدل على ما ذهب إليه مفسر العهد الجديد من خلال النص الذي يفسره.

١. تفسير العهد، وليم إدي، دار الثقافة، القاهرة، ص٢٥..

٣. في نفس إنجيل متى نص آخر يدل دلالة صريحة وواضحة على كون دعوة عيسى عليه السلام خاصة لبني إسرائيل فقط، مهما كانت الدواعي والظروف الموجبة لدعوة غيرهم، يقول متى: "وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة: «ارحمني، يا سيد، يا ابن داود! ابنتي مجنونة جدًّا». فلم يجبها بكلمة. فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: «اصرفها، لأنها تصيح وراءنا!» فأجاب وقال: «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة»". (متى ١٥: ٢٢ ـ ٢٤).

وتعليقنا على هذا النص هو أنه بالرغم من صراخ المرأة وحاجتها الشديدة لشفاء ابنتها، إلا أن المسيح بناء على رواية إنجيل متى لم يغير موقفه، ولم يتصرف من تلقاء نفسه؛ لأنه مرسل إلى بني إسرائيل فقط كما أجاب تلاميذه. ونقرأ تفسير ذلك النص في المصادر المسيحية: "لم يكن من مانع حينئذ لشفاء تلك الابنة سوى عدم إرادته، لم أرسل، أي من الأب، إلا إلى خراف بني إسرائيل".

ويظهر من هذا أن وظيفة المسيح كانت مختصة باليهود، والله قضى بأن ينادي بالإنجيل لليهود أولًا إيمانًا للعهد، وشفقة المسيح على اليهود حصرت تبشيره بهم، فلو نادى للأمم لرفض اليهود كلهم ذلك في الحال لشدة تعصبهم، فجواب المسيح لتلاميذه ليس إنكارًا قاطعًا لطلبتهم، لكنه إظهار؛ لأن إجابة تلك الطلبة خارج عن دائرة رسالته حينئذ. وما كاد ـ أي هذا القائل بمرحلية الدعوة المسيحية ـ يعترف بالحق حتى تنكَّب الطريق وقال في نهاية تفسيره "حينئذ" ليدل على أن دعوة شعب إسرائيل كانت مرحلة مؤقتة تلتها مرحلة

أخرى، وهي دعوة المسيح لجميع الأمم بعد ذلك، والنص الذي بين أيدينا لا يساعده في فهمه، ولكن التحكم في النصوص هو الذي يسيطر على هذا المفسر وغيره حتى يخلُص إلى عالمية الملة النصرانية التي ما نادى بها المسيح ولا تلاميذه على نحو ما سنرى.

وتقول رواية متَّى إن المرأة أتت وسجدت له قائلة: يا سيدي أَعِنِّي، فأجاب وقال: ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب، فقالت: نعم يا سيد، والكلاب أيضًا تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها، حينئذ أجاب يسوع وقال لها: يا امرأة عظيمٌ إيمانُك، ليكن لك ما تريدين، فشفيت ابنتها من تلك الساعة.

وهذه الرواية ـ إن صحت ـ لا تعني أنه دعاها إلى الإيمان برسالته، كل ما في الأمر أنه شفى ابنتها، وعلى فرض أنه دعاها إلى رسالته، فلا يعني ذلك عموم دعوته؛ لأن "المبعوث إلى قومه لم يُنْهَ عن دعاء غيرهم إلى الله، وهو من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، لا من باب التكليف بإيصال الدعوة إلى غير من أرسل إليهم.

٤. ومن النصوص التي تدل على أن عيسى عليه السلام جاء لبني إسرائيل وأن دعوة تلاميذه كانت خاصة باليهود، ما ورد في إنجيل متى عن حساب يوم القيامة، وقيام المسيح وتلاميذه بالمحاسبة، كما يعتقد النصارى، يقول: "ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك. فماذا يكون لنا؟ فقال لهم يسوع: «الحق أقول لكم: إنكم أنتم الذين تبعتموني، في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده، تجلسون أنتم أيضًا على اثني عشر كرسيًّا تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر»". (متى ١٩: ٢٧، ٢٨).

بنفس منطق إنجيل مَتّى مع عدم اعتقادنا بمحاسبة المسيح لأحد ولا التلاميذ؛ لأن الذي يتولى الحساب هو الله رب العالمين، نقول: نَصُّ متى يشير إلى أن المسيح والتلاميذ عن يمينه يدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر، الذين يتكوَّن منهم الشعب اليهودي، ولو كانت رسالته للعالم لأدان الناس جميعًا. وعلى الرغم من الوضوح في الخصوصية بأسباط إسرائيل الاثني عشر فإن مفسر إنجيل متّى يأتينا بفهم جديد للأسباط، وأنهم ليس المراد بهم في العهد الجديد بني إسرائيل، وإنما كل المؤمنين يقول: "أسباط إسرائيل الاثنا عشر في العهد القديم شعب الله الخاص، ومعناه في العهد الجديد غالبًا كل المؤمنين" (١).

وقد اضطر إلى ذلك التفسير المخالف للمتعارف عليه بين الجميع ـ من أن الأسباط هم بنو إسرائيل ـ فذكر أن كلمة الأسباط في العهد الجديد "غالبًا" تدل على كل المؤمنين ـ فذكر كلمة "غالبًا" ليتسنَّى له إثبات أن التلاميذ يدينون أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، الذين معناهم في العهد الجديد كل المؤمنين، هل رأيت تحكمًا وليًّا للنصوص مثل ما يقوم به مفسر الإنجيل ليدلل على أن الدعوة عامة وليست خاصة؟ كل هذا لحساب بولس فقط؛ لأنه هو أول من ابتدع عموم دعوة المسيح لغير اليهود مخالفًا المسيح عليه السلام والتلاميذ في فهمهم للدين الذي تلقوه عن المسيح عليه السلام.

---

١. الكنز الجليل في تفسير الإنجيل، وليم إدي، مرجع سابق، ج١، ص٣٢٩.

٥. وإذا تركنا إنجيل متى، فإننا سنجد التصريح بخصوصية رسالة عيسى واضحة من خلال بعض النصوص في إنجيل يوحنا، فقد ورد في يوحنا: "إلى خاصته جاء، وخاصته لم تقبله". (يوحنا ١: ١١).

ونحن مع المفسر في أنه جاء إلى بني إسرائيل، وكثير منهم لم يقبلوه، وإن كان بعضهم قد آمنوا برسالته، والتزموا بتعاليمه، وليس معنى أنه لم يُقبل من شعبه وإنما قُبِل من غيرهم أن هذا يجعل رسالته عامة، وإنما قبول غيرهم له ولرسالته لا يُخرِج دعوته من الخصوصية إلى العمومية، ثم لنا أن نتساءل: في أي وقت قَبِل غيرُ اليهود دعوة المسيح؟

إن نصوص الأناجيل لا تقدم لنا أي دليل على قيام عيسى عليه السلام بدعوة غير اليهود إلى الإيمان به أثناء حياته، ولكن بولس يبني ذلك على رؤياه الخاصة، حتى الذين ناصبوه العداء ووقفوا ضده، حين أخبرهم المسيح أنه سيغادر الدنيا، لم يفهموا أنه يشير إلى الرفيق الأعلى، وإنما فهموا أنه سيغادر مكانهم إلى حيث يعيش اليهود في الشتات خارج فلسطين؛ لأنهم كانوا يفهمون أن رسالته خاصة بهم دون سواهم من الشعوب، فلو فكر في دعوة غيرهم فأول ما تبادر إلى ذهنهم اليهود في الشتات، ورد في يوحنا: "فقال لهم يسوع: «أنا معكم زمانًا يسيرًا بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني. ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا». فقال اليهود فيما بينهم: «إلى أين هذا مزمع أن يذهب حتى لا نجده نحن؟ ألعله مزمع أن يذهب إلى شتات اليونانيين ويعلِّم اليونانيين؟»".
(يوحنا ٧: ٣٣ - ٣٥).

وهنا إشارة إلى أن اليهود لم يفهموا كلامه، أو عوجوه، وقالوا: إن معناه الهرب من البلاد إلى حيث يعيش اليهود متفرقين بين اليونانيين. فإذا كان الأمر على هذه الشاكلة، وأن خصوصية النصرانية ثابتة بنصوص الأناجيل، وممارسات المسيح عليه السلام وتوجيهاته؛ فما الذي حوَّلها عن وجهتها وحرَّفها عن مسارها؟ الجواب هو ما يلي[1].

ثالثًا. تدليس بولس بداية الانحراف والتحول:

ولد بولس في طرسوس لأب يهودي، وكان في مبدأ حياته يضطهد أتباع المسيح، إلى أن زعم أن المسيح ظهر له فرآه عيانًا فتحول إلى الإيمان بالمسيح وبشَّر بالمسيحية في آسيا الصغرى والبلقان، وإيطاليا وإسبانيا، ويعتبر بولس هو مؤسس المسيحية الحقيقي، ويغلب على اعتقاد معتنقيها في كل أقطار الأرض.

تحت عنوان "خصوصية دعوة المسيح" يجمل د. عبد الرحمن جيرة طبيعة هذا التحول الذي تم على يد بولس قائلًا: "يؤكد القرآن الكريم خصوصية رسالة المسيح عليه السلام ببني إسرائيل، قال عز وجل: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (آل عمران: ٤٩)، ومن خلال الواقع التاريخي لدعوته عليه السلام لا تجد من بين تلاميذه من هو من غير اليهود، ولا يذكر إنجيل من الأناجيل الأربعة أن المسيح دعا غير اليهود، بينما تلاميذ بولس جميعهم باستثناء اثنين أو ثلاثة من غير اليهود.

وتختلف المسيحية التي أنشأها بولس عن تلك التي جاء بها المسيح في جنسها وفكرها، فالمسيح كان

١. نقض دعوى عالمية النصرانية، د. فرج الله عبد الباري، مرجع سابق، ص٢٣: ٢٨.

إسرائيليًّا يعيش بين أحضان الكنعانيين ـ الفلسطينيين ـ إلا أنه ما رأى أن دعوتهم واجبة عليه، وحتى عندما تدعو الظروف إلى ذلك.

وبعد أن يورد النص السابق عن المرأة الكنعانية التي استغاثت بعيسى ليشفي ابنتها، فكان جوابه: لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة، يقول المؤلف: فهذا نص صريح، ولكن تأمل ماذا فعل بولس؟ لقد ترك فلسطين بما فيها من يهود وكنعانيين، سامريين وعبرانيين، وانطلق إلى الرومان ليعرض عليهم ما لا يمكن تصديقه ولا قبوله في فلسطين"(1).

وقد نعجب ـ بعد ذلك ـ من أمر بولس، وتحريفه الديانة النصرانية، وتحويلها عن وجهتها الأصلية، وهي الخصوصية لبني إسرائيل فقط إلى العمومية والعالمية، متسائلين كيف أمكن له ذلك؟ وبأي الوسائل أتمه؟ وأية مسالك سلكها وصولًا إلى هدفه؟

إن معظم المصادر ـ كما يقول الدكتور فرج الله عبد الباري ـ تشير إلى أن بولس بعد رؤيته المزعومة كان يبذل جهدًا غير عادي للتبشير بدعوته، وكان لا يكل ولا يمل من الاتصال باليهود وبغيرهم من اليونانيين والوثنيين، ويرصد لنا شارل جينبير حركة بولس ودعوته بقوله: "كان يرتحل من بلدة إلى أخرى، ولا يقيم بضعة أيام في أي منها إلا حينما يجد جاليات يهودية مهمة، وكان يبدأ الحديث في المعابد فتثير آراؤه غضب اليهود، وعندما يستطيع أن يهدئ من روعهم يحاول إقناع من يأتي إليه من طلاب المعرفة".

وفي أثناء ذلك كان يكاتب سائر الكنائس التي غرسها بغية تدعيمها، إن الحركة وحدها لا تكفي، ولكن يجب أن يكون مع الحركة والدعوة شيء آخر ما هو؟

لقد رسم بولس خطة ذكية، تمثلت هذه الخطة في مخاطبة كل جماعة بما يناسبها، بمعنى أنه كان لا يصادر فكر أحد من الذين يدعوهم، بل على العكس كان يثبت لهم أن عقائدهم لا تخالف ما يدعو هو إليه، بل أكثر من هذا كان يثبت لهم أنّ ما يعتقدونه هو نفسه ما جاء به المسيح.

فهل يا ترى من الممكن أن يرفض أحد دعوته؟ ولندلك على صحة ما ذهبنا إليه بأحد النصوص من رسائله الأولى إلى كورنثوس، يقول: "فصِرْتُ لليهود كيهودي لأربح اليهود. وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس. وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس مع أني لستُ بلا ناموس لله، بل تحت ناموس للمسيح لأربح الذين بلا ناموس. صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء. صرت للكل كل شيء، لأخلص على كل حال قومًا. وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل، لأكون شريكًا فيه". (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ٩: ٢٠ـ ٢٣).

في هذا النص سر النجاح الذي لاقاه بولس: الخداع والكذب والحربائية، ليضلل من يدعوهم من الأميين ويوهمهم بأن ما هم عليه لا يخالف ما يدعو إليه، وكما يقول جينبير: "لم يكن غير اليهود في هذا العصر يهتم

---

١. من يَرْعَى الخراف، د. عبد الرحمن جيرة، دار المحدثين، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٧م، ص٦٠، ٦١.

بدعوة عيسى، ولم يكن غير اليوناني يستطيع أن يمد في أبعاد هذه الدعوة حتى يبلغ بها حدود العالمية، لقد جمع بولس بين اليهودية واليونانية، ثم أضاف إليها ميزة ثالثة غالية هي تمتُّعه بالجنسية اليونانية، أو بتعبير أدق حصوله على صفة المواطن الروماني.

وكانت تلك الميزة ذات نفع كبير متعدد الجوانب، كانت تحميه من الانزلاق إلى تعصب يهود فلسطين القومي الذي اتصف بضيق الأفق وكراهية الأجنبي، وكانت تدعوه إلى العالمية في التفكير والعمل، ثم كانت هي السبب الذي اتخذه، وهو لا يكاد يشعر، ليرتفع بالأمل الذي ظهر بين طائفة محدودة من اليهود إلى مرتبة الأديان الإنسانية؛ لذلك كله نستطيع وصف بولس بأنه كان " منشِئ المستقبل".

وقد سلك بولس هذا مسالك شتى لإرضاء الأُمِّيِّين ونشر دعوته فيما بينهم، ولم تكن دعوى عالمية النصرانية إلا واحدة مما ابتدعه بولس في دين المسيح، ويضاف إليها إقدامه على إلغاء الختان على ثبوته في العهد القديم وإقرار المسيح له، وادعاء صلب المسيح وتأليهه هو طامة من طوامِّ بولس بعيدة الأثر في النصرانية إلى اليوم، فهو المروِّج الأكبر، والداعي الأكبر إليهما، وبلغ به تلبيسه أنه وقف يحدِّث اليونانيِّين أن لهم إلهًا مجهولًا يقيمون له معبدًا، وأنه جاء ليدلهم عليه وأن معبودهم هذا الوثني هو المسيح يسوع!

وكذلك سار بولس في كل طائفة يزيِّن لها دعوته بما يجد لديها من عقائد، فتبدلت النصرانية بين يديه كثيرًا بحسب عقائد الأقوام الذين يتوجه بدعوته إليهم. ولم تزل آثار صنعه المشئوم قائمة في الديانة النصرانية إلى اليوم®.

رابعًا. مناقشة ما ورد في إنجيل متى حول عالمية النصرانية:

ورد في متى: "فتقدم يسوع وكلمهم قائلًا: «دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتَلْمِذوا جميع الأمم وعَمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس»". (متى ٢٨: ١٨، ١٩).

يقول د. وليم إدي: كان إرسال المبشرين بالإنجيل في أول الأمر إلى اليهود فقط، ولكن المسيح أطلقه هنا فأمر بتبشير كل الناس يهودًا أو أممًا، وهذا مناقض لآراء اليهود كل المناقضة، حتى إن تلاميذ المسيح توقفوا عن طاعة هذا الأمر لتعصبهم اليهودي، فانقضى عليهم سنون وهم متأخرون عن إجرائه، حتى ألزمهم الاضطهاد في أورشليم أن يذهبوا منها ويبشروا الأمم. إن الاعتراف بخصوصية رسالة عيسى ﵇ يكاد يظهر بين ثنايا كلام مفسر نص إنجيل متى.

إذا قلنا إن الدعوة في البداية كانت لليهود، فلنا أن نتساءل: هل نُسخ هذا الأمر بأمر آخر للتلاميذ أن يذهبوا ويكرزوا لسائر الأمم؟ والنصارى لا يعترفون بالنسخ، فعَلامَ يُحْمَل الأمر أولًا وأخيرًا؟ ثم إذا رفض التلاميذ أو عيسى معلمهم فعلام يُحمل هذا الرفض؟ وهل ينبغي للرسل أن يمتنعوا عن تنفيذ أمر معلمهم وهو من صميم الطاعة له؟

كل هذه إلزامات لا نجد إجابة لها عند أحد

® في **"أثر بولس في تحريف العقيدة النصرانية"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثامنة. والوجه الثاني، من الشبهة السابعة والعشرين من هذا الجزء.

مفسري إنجيل متى في هذا النص وغيره من النصوص، وتقول إنهم رسل مجاراة للنصارى في إطلاق هذا الوصف عليهم، وإن كنا لا نوافقهم عليه، ثم لنا أن نقول: إنه على فرض أن التلاميذ رفضوا ثم اضطروا إلى تبشير الأمم بعد الاضطهاد، فهو أمر ضروري طارئ وليس من أصل الرسالة، كما يفهم من كلام وليم إدي وسوف نورد من الأدلة ما يدحض حجة النصارى عمومًا حول هذه القضية.

وبصرف النظر عن تفسير النص، فإن إنجيل متى نفسه دار حوله أَخْذ ورد، فإن علماء اللاهوت النصارى وجهوا النقد إلى إنجيل متى نفسه، وعلى وجه الخصوص خاتمته التي ورد فيها النص بعموم رسالة المسيح، ومما ذكروه:

١. أن الغموض يحيط بكاتبه وتاريخ تأليفه والمكان الذي كتب فيه، فلا يعرف على وجه التأكيد اسم مؤلفه، وقد ضاعت النسخة الأصلية ووُجِدَت ترجَمَتُها، ولا يعرف أي شيء عن الشخص الذي ترجمها حتى اسمه مجهول، فكيف يعتمد عليه؟ وهل يصدق بأنه كتاب مقدس؟

٢. ثم تأتي خاتمة إنجيل متى التي يشكك فيها الباحثون ويعتبرونها دخيلة عليه، فهي تنسب للمسيح قوله لتلاميذه "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" ويرجع السبب في ذلك الشك - كما يقول أدولف هرنك - إلى الآتي:

- لم يرد إلا في الأطوار المتأخرة من التعاليم المسيحية ما يتكلم عن المسيح وهو يلقي مواعظ ويعطي تعليمات بعد أن أقيم من بين الأموات، وأن بولس لا يعلم شيئًا عن هذا.
- إن صيغة التثليث التي تتكلم عن الآب والابن والروح القدس، غريب ذكرها على لسان المسيح، ولم يكن لها نفوذ في عصر الرسل.

وقد نبه علماء الإسلام إلى تفرد متى بهذه العبارات، يقول يحيى بن نصر في مجادلته للنصارى حول زعمهم عالمية النصرانية: "فمن أين أخذتم هذا الاعتقاد" ومن أتاكم به؟ وفي أي كتاب نزل؟ وأي نبي تنبأ به؟ وأي قول قاله المسيح حتى استدللتم به على هذا المعنى حتى تدعوه فيه؟ وهل بنيتم إلا على قول متى عن المسيح إنه قاله لتلامذته حين أراد أن يفارقهم... إلخ وانفراد متى وحده بهذه الرواية على هذا النحو، ينفي عنها أية قدسية، فمع أنها باطلة أصلًا، فإن أحدًا من الأناجيل المعتمدة لدى النصارى لم يذكرها، فقد ذكر لوقا ومرقس لفظ "الكرز" وهو التبشير والوعظ للأمم، ولكن لم يذكرا التعميد باسم الآب، والابن والروح القدس.

ومع أن إنجيل يوحنا أشد الأناجيل حرصًا على تدوين أقوال المسيح وأعماله وباعتراف علماء النصارى، ومنهم الخمسمائة الذين اشتركوا في دائرة المعارف البريطانية، أنه ألف بعد المسيح بفترة للرد على منكري ألوهيته، فإن هذه الفقرة رغم أهميتها عند النصارى، ليس لها أصل في هذا الإنجيل، علمًا أنه انفرد عمن سواه بين الأناجيل بذكر أشياء كثيرة أقل أهمية من هذه العبارة ولا تتوقف عليها النجاة. ولقد انبنى على الخلاف الواقع في ألفاظ هذه العبارة خلاف شديد بين طوائف النصارى حتى حكمت كل طائفة على غيرها

بالكفر، ما لم يجر التعميد على طريقتها.

ومما يدلل على كذب متَّى في نسبته هذا القول للمسيح أن التثليث وألوهية المسيح لم يتقررا في عقيدة النصارى إلا في نهاية الربع الأول من القرن الرابع الميلادي بموجب قرارات مجمع نيقية الذي تم عقده في ٣٢٥م بأمر قسطنطين إمبراطور الدولة الرومانية، أما ألوهية روح القدس فلم تقرر هذه الأخرى إلا في مجمع قسطنطينية ٣٨١م، الأمر الذي يقطع بأن هذه الفقرات مصطنعة أُلحِقت وأُضِيفت بعد ذلك إلى إنجيل متى خصوصًا وأنها تتناقض مع تعاليم المسيح وتلاميذه حال حياته، من أن الدعوة كانت لبني إسرائيل فقط، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن إنجيل متى محرف ومبدل ونسخته الأصلية ليست موجودة، يقول رحمة الله الهندي: إن إنجيل متى كان باللسان العبراني، وفُقِدَ بسبب تحريف الفرق المسيحية، والموجود الآن ترجمته، ولا يوجد عندهم سند هذه الترجمة، فلا يعلم باليقين اسم المترجم أيضًا إلى هذا الحين.

وحتى على فرض وجود هذه الأمور، معلومية مصدر إنجيل متى وكاتبه ومترجمه، فإن بعض شراح الأناجيل يعتبرون أن هذا الإنجيل كتب لليهود وليس للأمميين، ولذلك استحق أن يكتب في أول العهد الجديد، والدليل على ذلك في رأي "وليم إدي": إذ يصرح بيسوع مرسلًا مخصوصًا إلى اليهود، فهذا مفسر من مُفَسِّري الإنجيل يقول بأن إنجيل متى يصرح فيه على لسان المسيح بأن عيسى مرسل مخصوص إلى اليهود، وهل نقول بغير ذلك؟ فلم إذن إضافة الفقرات التي تدعو سائر الأمم إليه؟ إن وجود النص المصرح بدعوة جميع الأمم إلى النصرانية دليل على التحريف الذي مارسه النصارى بعد عيسى عليه السلام على دعوته وإنجيله الحق الذي أنزله الله عليه ـ وعلمه إياه، وبشر بمحمد عليه السلام كنبي خاتم بدين ناسخ لما قبله من الأديان ومن بينها النصرانية.

وعلى هذا المنوال يسير الباحث في مناقشته لما ورد في إنجيل مرقس حول عالمية النصرانية إلى أن يقول: وأخيرًا فإن الخلاصة أن الباحثين فَرَغُوا منذ أمد بعيد من الإقرار بأن خاتمة مرقس الوارد بها النص الخاص بدعوة الأمم لا وجود لها في أقدم النسخ المنسوبة إلى مرقس، وأنها أضيفت في وقت متأخر باستثناء الفقرات الأولى منها، حتى إن بعض النسخ استباحت أن تضع ملخصًا لهذا الجزء المضاف بدلًا من نصه، وعلى هذا فتكون الفقرات الأخيرة التي تتحدث عن عموم الدعوة مضافة، ولم تصدر أساسًا عن المسيح عليه السلام " [1].

هذه إذن قصة التحول إلى العالمية ـ المزعومة ـ للنصرانية عن خصوصيتها الثابتة لبني إسرائيل، فهل ما يزال هناك مجال للتمادي في هذا الباطل، وبالمقابل إنكار الحق الثابت بعالمية دعوة الإسلام، وختمها ونسخها لرسالات السماء؟!

الخلاصة:

- الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، نصَّ على ذلك نبيُّها ﷺ، وشهد به تاريخها، وتظهره أجلى ظهور دراسة عقيدتها وتشريعاتها، وأنها صالحة لهداية الضمير

١. من يَرْعَى الخراف، د. عبد الرحمن جيرة، مرجع سابق، ص٥٧ وما بعدها.

البشري والمجتمع في كل زمان وبيئة.

- الثابت الصحيح بنصوص الإنجيل الواضحة الصريحة وممارسات صاحب الرسالة عيسى عليه السلام أن النصرانية ديانة خاصة لقومه بني إسرائيل.
- تحولت النصرانية عن خصوصيتها إلى العالمية على يد بولس الذي حرَّف كثيرًا من عقائدها وأصولها، وجارى كل أمة في باطلها استمالة لها إلى النصرانية، بل أدخل في صُلب العقيدة ما يناسب ذوق المدعوين كالقول بالصلب، والتثليث، وتأليه البشر... إلخ.
- نصوص الأناجيل الدالة على العالمية نصوص مضافة ملفقة غير موجودة في النسخ الأصلية، ولم تثبت عن المسيح، كما ذكر نقاد الكتاب المقدس، ولا عن تلامذته الأصلاء، بل إن بعضهم اختلف مع بولس حين دعا إلى عقيدتهم أممًا من غير بني إسرائيل.

الشبهة السابعة

الزعم أنَّ التثليث عقيدة التوحيد وأن له صورًا في سلوك المسلمين(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن المسيحية دين توحيد، والتثليث فيها لا يعني الكثرة والتعدد، فالمراد بالآب الذات، وبالابن النطق الذي هو قائم بتلك الذات، وبروح القدس الحياة، والثلاثة واحد، ويدَّعون أن الإسلام يؤمن بهذا الثالوث، ويستدلون على ذلك بقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١)، وأن للتثليث صورًا في سلوك المسلمين وكلامهم، فهم يقولون: بسم الله الرحمن الرحيم، والله العظيم ثلاثًا، وأحلف بالطلاق ثلاثًا.

وجوه إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم صريح في نفي عقيدة التثليث النصرانية وذلك في غير آية من آياته.

٢) ما يزعمونه من شواهد إسلامية تُقِرّ عقيدة التثليث أو تدانيها هو زعم متهافت لا يعرفه المسلمون، ولا يحسونه في كلامهم.

٣) عقيدة التوحيد هي دعوة الأنبياء جميعهم، ولقد وُجد لها شواهد في العهدين القديم والجديد، على ما حل بهما من تبديل وتغيير.

التفصيل:

أولا. استحالة عقيدة التثليث وموقف القرآن منها:

إن ما حاولوا أن يلتمسوه لعقيدة التثليث من مسوغ عقلي لم يزدها إلا استحالة عقلية، وبعدًا عن الواقع، وتعقيدًا يعلمه زعماؤهم أكثر من غيرهم.

فالآب ذات، والابن ذات كذلك بدليل انفصاله عنه ودخوله في جوف أمه مريم، ولا مهرب لهم من هذا، فالمسيح مكث في جوف أمه، ثم خرج منه، ثم عاش بين

(*) التبشير العالمي ضد الإسلام، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة النور، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م. مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٥م. حضارة العرب، جوستاف لوبون، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م. رد على مفتريات كاهن الكنيسة، محمد عبد اللطيف ابن الخطيب، المطبعة المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. قناة الحياة. موقع المتنصرين.

الناس يأكل الطعام مثل أمه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ (المائدة: ٧٥)، وتداعيات أكل الطعام كثيرة، كلها تقول إنه إنسان كبقية البشر، إنه مخلوق كبقية الخلق، له متطلباته، له حاجاته كأي واحد منا، ثم تنتهي حياته نهاية مأساوية، حسب اعتقادهم، يُقتل ويُصلب ولا يدفع عن نفسه ضرًّا، فأين ألوهيته؟ وأين بنوته للإله؟ وإذا لم يدفع عن نفسه الأذى فكيف يملك الخلاص لغيره؟! ولمن؟ للعالمين؟!! نريد عقولًا غير العقول لتصدق ما تقولون!!! وكيف يتحول النطق إلى ذات؟!! أرونا نموذجًا واقعيًّا يصدق ما تقولون، وكيف تكون هذه الثلاثة واحدًا؟! إنها ثلاثة: الآب، والابن، والروح القدس، لكلٍّ حقيقته، واستقلاليته، وصفاته، وخصائصه، فكيف يكون مجموع الثلاثة واحدًا، وإلهًا واحدًا؟!! من أين تأتي بعقل يصدق بهذا؟!

وليس في الإنجيل نص صريح على أن الآب والابن والروح القدس شيء واحد، على الرغم من أننا لا نعترف بأن هذه الأناجيل كتاب موحى به من عند الله، ويشاركنا في ذلك عقلاؤهم غير المتعصبين وكل عاقل منصف، فقد ثبت أن إنجيلهم ليس نصًّا صحيحًا يعتمد عليه، ولا هو مضبوط النقل، ولا يوثق به في الدين.

والقرآن الكريم ينص صراحة دون أدنى شك على نفي التثليث وكفر معتقده، والنهي عن القول به، يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ (المائدة).

وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ (المؤمنون). وقال عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (التوبة).

والآية التي احتجوا بها وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١) حجة عليهم لا لهم؛ فهي تؤكد - كغيرها من آيات كثيرة - على أن عيسى ابن مريم وليس ابن الله، وهي تنص صراحة على أنه رسول الله وليس إلهًا، ثم هي تنهى صراحة عن التثليث ولو بالقول فضلًا عن الاعتقاد: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ (النساء: ١٧١).

وهي - بعد ذلك - تؤكد النهي عن ذلك القول مرة أخرى: ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ (النساء: ١٧١)، وتأمر بالاعتقاد الحق في الله ورسله بمن في ذلك عيسى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، فالله أرسلهم وهم مرسلون من قبله، وهي تؤكد أن الله إله واحد وليس كما يدَّعون، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (النساء: ١٧١).

وهي تبرهن على خصائص الألوهية وتنزِّه أن يكون الإله مخلوقًا من المخلوقات، وتطرح هذا الاستفهام التعجبي الاستنكاري، لعل الغافلين يفيقون: ﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ (النساء: ١٧١)، والآية تبرهن على أن من له ملك السماوات والأرض ليس

بحاجة أن يتخذ واحدًا من خلقه إلهًا معه أو ابنًا له.

والآية - بعد ذلك كله - تحرر العقل والقلب من التوكل على أي عبد مخلوق من دون الله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝١٧١﴾ (النساء) وقبل ذلك كله تعد الآية هذا الاعتقاد الفاسد، وهو التثليث، غلوًّا في الدين، وخروجًا عن النهج القويم، وتنهى عن هذا الغلو ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾، كما تنهى عن التقوُّل على الله بغير الحق، وهو هذا الاعتقاد الفاسد الذي يبرأ منه الله ورسوله عيسى عليه السلام وأن يلزموا الحق ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾.

ثم تأتي الآية التالية لهذه الآية لتعلن أن عيسى عبد الله، ولن يتكبر عن عبادة ربه لا هو ولا الملائكة المقربون: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ (النساء: ١٧٢). أبعد هذا كله يبقى وجه للاستدلال بهذه الآية الكريمة على هذه العقيدة الباطلة، عقيدة التثليث، وكل كلمة فيها تنطق ببطلانها وتبرهن على ذلك، وما يتلوها من آيات يؤكد بطلان هذا الزعم؟

فإذا كانت الجمل الآتية في الآية وهي: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ تدل على التثليث النصراني، فأين الآب في الآية المتمم للثالوث النصراني؟ أهو المسيح؟ هم لا يقولون بذلك، وأين الابن؟ لم تصرح الآية بل تقول الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ فتذكر المسيح على أنه ابن مريم، بشر من بشر، رسول الله، فهو رسول الله إذن وليس الله، وليس ابنًا لله عز وجل كما زعم هؤلاء[®].

ثانيًا. محاولات التماس صور التثليث عند المسلمين وتهافتها:

التثليث عند من يعتقده هو اعتقاد بأن الإله مجموع ثلاثة كل منهم مستقل عن الآخرين وهذا بعيد كل البعد عن اعتقاد المسلمين جميعًا، عوامهم وخواصهم.

فالتثليث عندهم هو اعتقاد بأن الإله مجموع ثلاثة، وكل واحد من الثلاثة منفصل مستقل عن الآخرين، وهم يقولون: باسم الآب والابن والروح القدس، والعطف يقتضي المُغايرة، الآب عندهم يختلف عن الابن، وقد انفصل الابن عن الآب وخاطبه ودعاه، مما يدل على أن الابن غير الآب، وكذلك القول الروح القدس.

وهذا بعيد كل البعد عن اعتقاد المسلمين جميعًا؛ عوامهم وخواصهم كما تقدم القول، فهم يؤمنون بإله واحد: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ (الشورى: ١١)، ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ (الإخلاص).

واستدلالهم على صحة التثليث بالبسملة، فهذا مما لا صحة فيه، فالبسملة توحيد في مقابل تثليث؛ لأن الله تعالى في البسملة ذات موصوفة بصفات الكمال ونعوت الجلال، والرحمن الرحيم وصفان له عز وجل باعتبار الخير والإحسان الصادرين عن قدرته، فإن صفات الله تعالى

® في "تهافت المزاعم عن إقرار الإسلام للتثليث" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

منها: "صفات ذات، وصفات فعل، وضابط صفات الذات هي التي لا تنفكُّ عن الله، وضابط صفات الفعل هي التي تتعلق بالمشيئة والقدرة.

ومثال صفات الذات: النفس والحياة والقدرة والسمع والبصر والوجه واليد والرجل والملك والعظمة والكبرياء والإصبع والعين والغنى والقِدَم والرحمة والحكمة والقوة والعزة والوحدانية والجلال، وهي التي لا تنفك عن الله.

ومثال صفات الفعل: الاستواء والنزول والضحك والمجيء والعجب والفرح والرضا والحب والكره والسخط والإتيان والمقت والأسف، وهذه يقال لها: قديمة النوع حادثة الآحاد، ويصلح أن تقول قبلها: إذا شاء" (١).

وأين هذه الافتتاحية الربانية الحقة ـ في البسملة ـ من هذا الهُراء الذي لا يقبله دين قويم ولا عقل سليم، فكيف يلتقي تثليث وتوحيد في عبارة واحدة؟ كيف يكون الثلاثة واحدًا؟ كيف يكون الآب والابن والروح القدس ـ وكل منهم له استقلاليته بحُكْم سَرْد الأحداث التي سطَّرتها أناجيلكم المحرَّفة ـ إلهًا واحدًا كما يتردَّد في شعائركم؟!

ما أبعد الفارق بين التسمية باسم الله الواحد الذي أخص صفاته الرحمة، وبين الافتتاحية بإعلان الوثنية المسروقة من جاهليات موغلة في القدم، لا يقبلها عقل ولا دين®!

وأمّا الاستدلال بما يقوله العامَّة نحو: والله العظيم ثلاثًا، أو أنتِ طالق ثلاثًا وما إلى ذلك، ففي الحق أن هذه حجة مضحكة، يُسِيء صاحبها إلى نفسه وعقله، ولا يضير المسلمين بذلك في شيء؛ فإن القسم بالله ثلاثًا إنما يعني به المُقْسِم ثلاث مرات لا أنه يقسم بثلاثة آلهة.

وهم يؤكدون بلفظ الثلاثة كما يستعلمون غيره من ألفاظ العدد كالستين والسبعين ونحوهما، وليس العدد ثلاثة "خصوصية في الإسلام، وإنما يشيع في مثل الإيمان والكفّارات على سبيل التدريج والامتهال، أو على سبيل التوكيد والتوثيق، وأمّا أن هذا أمارة على التثليث النصراني فقول طائش شاذ لا يعرفه المسلمون، ولا يحسونه في كلامهم، ولا يذهب إليه في تحقيقه باحث جادّ وإن كان نصرانيًّا فيما نظن.

من هذا الزعم دعواهم أنه "من العسير أن تستخلص من القرآن نفسه مذهبًا في العقيدة موحدًا متجانسًا خاليًا من المتناقضات؛ فالتوحيد مذهب ينطوي على النقائض العسيرة الفَهْم، أما التثليث فمذهب واضح في فهْم الألوهية(٢)".

وهذه أحكام مُبَيَّتَة لا تستند إلى بحث علمي ولا إلى برهان، يُكَذِّبها واقع الإسلام وواقع النصرانية، ويشهد لذلك العقلاء من الباحثين المنصفين.

---

١. الكواشف الجلية عن معاني الواسطية، السلمان، مكتبة الرياض الحديثة، ص٤٢٩، ٤٣٠. وللمزيد يُرجى مطالعة: شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، الشيخ محمد الصالح العثيمين، دار ابن الجوزي،الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ، ج١، ص٧٧ وما بعدها.

® في **"الفرق بين البسملة والتثليث"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثانية، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

٢. الفكر الاستشراقي: تاريخه وتقويمه، د. محمد الدسوقي، دار الوفاء، المنصورة، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص٧٩.

فالإله في الإسلام واحد لا يُعبد سواه؛ لأنه لا يستحق أحدٌ أن يُعبد إلا هو ﷻ، فهو وحده الخالق المدبِّر المهيمن، الذي يرجع الأمر كله إليه.

وكل معبود من دونه لا يملك من أمر نفسه ـ فضلًا عن غيره ـ شيئًا؛ فكيف يُعبَد مع الله؟!

والإله الواحد لا يشبه خلقه؛ فللخلق صفات تَخُصُّهم، ولا توجد في الإله الحق، وإلا كان الإله الخالق مخلوقًا، وللإله الخالق صفات تخصه لا توجد في المخلوق وإلا لكان المخلوق إلهًا خالقًا.

أين هذا الموضوع من عقيدة التثليث الغامضة المعقَّدة، التي تقف أمام العقل، ولا يستطيع العاقل أن يجمع بينها وبين عقله، فإما أن يتخلى عنها إذا احترم عقله، وإما أن يتخلى عن عقله إذا تمسك بها®؟!

ثالثًا. خصائص عقيدة التَّوحيد وثبوتها في بعض نصوص العهدين القديم والجديد:

إن عقيدة التوحيد هي الأساس الذي دعا إليه القرآن الكريم وتنبني عليه عقيدة كل مسلم، وهي دائمة في حياة البشرية لا يكف المؤمن عن الدعوة إليها، فلا يُدعى إليها الكفار وحدهم لكي يؤمنوا، ولا المشركون وحدهم ليُصَوِّبوا اعتقادهم، ولكن يدعى إليها المؤمنون بها كذلك ويذكَّرون بها، كي تظل حية في قلوبهم، راسخة في ضمائرهم، عاملة في واقع حياتهم، لا يفترون عنها، ولا يغفلون عن مقتضياتها، فالإنسان يحتاج دائمًا إلى التوحيد، ولذلك نرى أن الله ﷻ عندما أرسل الرسل كان أول ما يأمرهم أن يبلغوه هو "عبادة الله وحده لا شريك له".

يقول الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ (هود)، ويقول ﷻ: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (هود) ويقول ﷻ: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود: ٦١)، ويقول ﷻ: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ (هود: ٨٤) [(١)].

ولقد جاءت نصوص التوحيد في أسفار موسى عليه السلام التي يقدِّسها النصارى كذلك، وخاصة سِفْرَي التثنية والخروج فيما يُسمَّى بـ "الوصايا العشر"، حيث جاء في سفر الخروج: "احفظ ما أنا موصيك اليوم. ها أنا طارد من قُدَّامك الأموريين والكنعانيين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين. احترز من أن تقطع عهدًا مع سكان الأرض التي أنت آتٍ إليها لئلا يصيروا فخًا في وسطك، بل تهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتقطعون سواريهم. فإنك لا تسجد لإله آخر، لأن الرب اسمه غيور. إله غيور هو". (الخروج ٣٤: ١١ ـ ١٤).

وجاء فيه أيضًا: "لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في

® في "محاولة التماس شواهد للتثليث في القرآن الكريم" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثامنة، من هذا الجزء.

١. مفاهيم ينبغي أن تُصحَّح، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٩، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مُبْغِضِيَّ". (الخروج ٢٠: ٣-٥).

من هذا يتضح أن الله دعا إلى وحدانيته في أول وصاياه لنبيه موسى عليه السلام كما رَقِيَ بالعقل البشري من خلال هذه الوصية أن يدَّعي لله شريكًا، أو أن تنبت فيه فكرة التشبيه والتمثيل لهذا الإله الخالق، وبيّن له أنه لا يتجسد في أحد، ولا يحل في إنسان، فإذا جاء بعد موسى من يدّعي هذا، فلا يصح أن ينسب لأنبياء الله ورسله، وهذا كان واضحًا في الوصية الثانية التي نفت نفيًا تامًّا أن يكون هناك شريك للخالق في ملكه، أو شبيهًا له في الأرض والسماء، وقد ساق المسيح عليه السلام هذه الوصية، كذلك حين أراد أن يفصح أمام الملأ عن جوهر العقيدة التي يحق لأتباعه أن يتمسكوا بها ويسيروا على دربها، وهي هي العقيدة نفسها التي نطقت بها اليهودية، وسُجِّلت صيغتها بنفس الحروف تقريبًا في سفر التثنية الذي جاء فيه: "اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد. فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك". (التثنية ٦: ٤، ٥). وتشابه العبارتين يدل على مدى قرب المسيحية من اليهودية في العقيدة، ومن ثم فأي مخالفة لهذه العقيدة يعتبر في حد ذاته جرمًا لا مغفرة له؛ لأنه يحمل جرثومة الكفر ويؤدي إلى تكذيب الأنبياء، ولقد ذكرت دائرة المعارف الأمريكية (أن المسيحية اشتقت من اليهودية، واليهودية صارمة في عقيدة التوحيد، وأن التوحيد هو القاعدة الأولى من قواعد العقيدة)[1] ®.

وعقيدة التوحيد عقيدة واضحة بسيطة، لا غموض فيها ولا تعقيد: حيث تتلخص في القول بأن هذا الكون البديع المحكم التكوين لا يقوم بنفسه بل إن وراءه إلهًا واحدًا وربًّا خالقًا قائمًا على خلقه، وأن هذا الإله ليس له شريك ولا شبيه ولا صاحبة ولا ولد، كل ما في الكون خلقه، وإليه المرجع والمآب، وتلك عقيدة لا غموض فيها ولا ألغاز، تتناسب مع مقتضيات العقل التي تبحث عن معاني الوحدة وراء التنوع والكثرة وتعمد إلى إرجاع الأشياء المتفرقة دومًا إلى سبب واحد[2]. فليس في عقيدة التوحيد ما في غيرها من الغموض والتعقيد.

أما عقيدة التثليث - في حقيقة أمرها - عقيدة وثنية غامضة معقدة، وهي دخيلة على دين الله، فالله سبحانه مُنَزَّه عن أن يُشْبِهَهُ شيء أو يُشْبِهِ هو سبحانه شيئًا آخر. يقول الشيخ السيد سابق: عقيدة التثليث أساسها الثالوث الأقدس، أي المركب من ثلاثة أقانيم - أصول - هي: الآب والابن وروح القدس، وهي جواهر ثلاثة، وكل جوهر منها مستقل عن الآخر، والثلاثة مع ذلك إله واحد، والتثليث ليس خاصًّا

---

١. أصول العقيدة الإسلامية، د. محمد سلامة أبو خليفة، دار الهاني، مصر، ط١، ٢٠٠٥م.

® في **"عقيدة التوحيد في نصوص التوراة والإنجيل"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الأولى، من هذا الجزء. والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

٢. المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، السعودية، ط١، ٢٠٠٢م، ص٩٩: ١٠٢.

بالنصارى، فقد جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية قولها في تحديد الدين لفظة ثالوث: "إنه اتحاد ثلاثة أشخاص متميزة مكونة لإله واحد في عقيدة الديانة النصرانية وبعض الديانات الأخرى، فيقال، مثلًا، الثالوث النصراني والثالوث الهندي".

وقال الأستاذ محمد فريد وجدي: "نعم كان الثالوث موجودًا في ديانة قدماء المصريين بالنسبة لآلهتهم الوطنية، وقد اندثرت تلك الديانة الآن، والثالوث الهندي موجود للآن لدى الملايين من الناس في الهند والصين، وهو أن البراهمة يعتقدون أن الخالق تجسد أولًا في "بِرَهْمَا" ثم في "فِيشْنُو" ثم في "سيفا"، ويصورونهم ملتصقين إشارة إلى هذا التجسد الثلاثي، ويعتقد البوذيون أن الإله فيشنو الذي هو أحد أركان الثالوث الهندي تجسد مرارًا عديدة لتخليص العالم من الشرور والذنوب، وكان تجسده في بوذا للمرة التاسعة.

هذه العقيدة هي في حقيقة أمرها وثنية، ودخيلة على دين الله، فالله منزه عن أن يشبهه شيء، أو يشبه هو شيئًا آخر، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى: ١١) وذاته فوق متناول العقول ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (الأنعام)، ولا يجوز أن تتركب ذاته المقدسة من أجزاء، أو تتحد بالأشياء، أو تحل في خلق من المخلوقات ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ (طه: ١١٠)[1].

إن عقيدة التثليث غامضة معقدة، تقف أمام العقل دون أن يستطيع العاقل أن يجمع بينها وبين عقله، فإما أن يتخلى عنها إذا احترم عقله، وإما أن يتخلى عن عقله إذا تمسك بها؟! وهذا اعتراف جوستاف لوبون أحد قادة الفكر في أوربا يتحدث عن بساطة التوحيد، وغموض العقائد في الديانات الأخرى قائلًا: "إذا رجعنا إلى القرآن الكريم في عقائده الرئيسية أمكننا عَدُّ الإسلام صورة مبسطة عن النصرانية، ومع ذلك فإن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي، وذلك أن الإله الواحد الذي دعا إليه الإسلام مهيمن على كل شيء، ولا تَحُف به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يفرض تقديسهم.

وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم، وتُشتَق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سِرُّ قوة الإسلام، فالإسلام إدراكه سهل، خال مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم غالبًا من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحًا وأقل غموضًا من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله، وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها، ويدخل النار من يُعرِض عنها.

وإنك ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة إلا رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثًا عن التثليث والاستحالة، وما شابه ذلك من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين

---

١. انظر: العقائد الإسلامية، السيد سابق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٣، ١٩٧٦م.

على دقائق الجدل[1].

الخلاصة:

- القرآن الكريم هو كتاب التوحيد الخالص، الذي ينصُّ على نفي التثليث، وكفر معتقده، والنهي عن القول به، والآية التي احتجوا بها تؤكد كغيرها من الآيات على أن عيسى ابن مريم وليس ابن الله، فهو بشر، وهو رسول الله.
- مفهوم التثليث بعيد كل البعد عن اعتقاد المسلمين جميعًا عوامهم وخواصهم، فالبسملة توحيد في مقابل تثليث، فالله تعالى واحد له أسماؤه وصفاته العديدة التي منها الرحمن الرحيم.
- وعوام المسلمين حينما يقسمون، لا يدور بخاطرهم أبدًا أن الله الذي يحلفون به ثلاثًا هو الآب والابن والروح القدس، ولكن الله عندهم واحد، أحد، فرد، صمد، وهم يقسمون به ثلاثًا، لا أنه عندهم مؤلَّف من ثلاثة أقانيم كما يقوله النصارى في ربهم.
- عقيدة التوحيد عقيدة واضحة بسيطة، لا غموض فيها ولا تعقيد، حيث إنها تتلخص في القول بأن هذا الكون البديع لا يقوم بنفسه، بل إن وراءه إلهًا واحدًا وربًّا خالقًا، وأن هذا الإله لا شريك له، ولا شبيه له سبحانه.
- أمّا عقيدة التثليث - في حقيقة أمرها - فهي عقيدة وثنية عرفها كثير من الديانات القديمة، وهي عقيدة غامضة معقدة، تقف أمام العقل دون أن يستطيع العاقل أن يجمع بينها وبين عقله، فإمَّا أن يتخلى عنها إذا احترم عقله، وإما أن يتخلى عن عقله إذا تمسك بها.

١. حضارة العرب، جوستاف لوبون، مرجع سابق، ص١٢٥ بتصرف يسير.

الشبهة الثامنة

ادعاء وجود صُوَر للتثليث في العقيدة الإسلامية(*)

مضمون الشبهة:

تدَّعي طائفة من المغالطين أن الإسلام إن يكن ردَّ عقيدة التثليث النصرانية ظاهرًا، فإنه - في حقيقة الأمر - قد ألمح إلى مظاهر لها تتجلَّى في البسملة التي يرددها المسلمون، وفي الصفات الإلهية العديدة التي أسندها الإسلام إلى الله ﷻ لا سيما اسم "الودود" الذي يستدعي ضربًا من التآلف في الذات الإلهية بين أقانيمها المكوِّنة لحقيقتها، وربما أضافوا إلى ذلك ما يشيع في القرآن الكريم من إسناد الأفعال إلى الله بضمير الجماعة كقوله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر). ويرون أن عقيدة التثليث التي جاء بها عيسى - بزعمهم - هي التصور الوحيد الذي يسد الفجوة بين الربِّ وعباده بروابط الحب التي أقامها تجسده ثم صلبه فداءً لهم وتكفيرًا عن خطاياهم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) العقيدة النصرانية في عيسى عليه السلام عقيدة متناقضة مضطربة، لا يستسيغها عقل أو يطمئن إليها ضمير.

(*) رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم، د. محمد جمعة، ١٩٨٥م. رد على مفتريات كاهن الكنيسة، ابن الخطيب، مرجع سابق. هل القرآن معصوم؟ www.islameyat.com

٢) المحاولات الكثيرة التي أقدم عليها بعض كتاب النصارى لإثبات أن الإسلام أقر بعض مظاهر التثليث - هي من التكلف والعنت على نحو يسقط قيمتها ويجعلها غير جديرة بالاعتبار.

٣) تعلق بعض النصارى بتعدد الصفات الإلهية في الإسلام للقول بضرب من التعدد في الإسلام يخالف ما يعرفه المسلمون من دينهم وما يفهمونه من هذه الصفات.

٤) لم يدع عيسى عليه السلام - كغيره من الرسل - إلا توحيد الله تعالى، وكثير من العقائد النصرانية إنما مرجعه إلى بولس الذي لا تخلو سيرته من شبهات وشكوك.

٥) عقيدة التثليث في النصرانية قد فشلت في طمأنة الضمير المسيحي وبخاصة في العصر الحديث؛ وهذا يفسر إقبال الغربيين على اعتناق الإسلام.

التفصيل:

أولا. التناقض في عقيدة التثليث:

يستهلون شبهتهم بسرد بعض آيات القرآن الكريم التي تدعو إلى توحيد الله، ونبذ التثليث الذي مهما حاولوا أن يقنعوا الناس بأنه توحيد لا بد أن يردّهم إلى أنه تعدد وتثليث. ويعقبون على الآيات المذكورة في مضمون الشبهة وهي قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ (المائدة)، وقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ (النساء)، وقوله عز وجل: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ١٧)، ويقولون: إن هذه الآيات توضح أن محمدًا سمع من بعض أصحاب البدع من النصارى أنه يوجد ثلاثة آلهة، هم الله ومريم وعيسى، فردّ على هذه البدعة، وكرر المرة بعد الأخرى أن الله واحد.

وإذا كانوا ينقلون عن التوراة والإنجيل هذا النص: "الرب إلهنا رب واحد". (التثنية ٦: ٤، ومرقس ١٢: ٢٩)، فلماذا يجعلون هذا الواحد من الثلاثة يتميز عن الآخر، فهما ذاتان، لا يفهم العاقل من هذا التعبير إلا ذلك، ومع ذلك فهما عند النصارى إله واحد!!

يقول د. عبد الحليم محمود: "لقد سمعت مرة - وكِدْتُ لا أصدق أذني - بطريرك أقباط مصر عند تتويجه يقول عن السّيد المسيح عليه السلام: يجلس عن يمين أبيه على العرش، وهما واحد"!

وإذا كانت تصريحات كتابهم المقدس يأتي فيها أحيانًا القول بالإله الواحد، وتعتمدون بعد ذلك على التثليث فهذا يعني تناقضهم في تصوُّر الإله الواحد، وخروجهم على ما صرّح به كتابهم، وقد

ثبت للعلماء أن عقيدة التثليث عند النّصارى عقيدة مقتبسة من الدّيانات الوثنية القديمة، مثل ديانة البراهمة والبوذية، ووثنية قدماء المصريين، والفرس واليونان والرومان" (١).

ومهما حاول النصارى الجمع بين التوحيد والتثليث، فهي محاولة غير موفَّقة، كالذي يجمع بين النقيضين، ويعبر هؤلاء عن تناقضهم وتناقض أبناء ملتهم بقولهم: المسيحيون لا يعبدون ثلاثة آلهة، بل إلهًا واحدًا في وحدانية جامعة هو: الآب، والابن، والروح القدس، فالوحدانية في العقيدة النّصرانية ليست هي عبادة إله واحد، بل مجموعة مركبة، وهي إله واحد سواء فهمت ذلك أم لم تفهمه!!

إنكارهم ألوهية مريم قولا، وعبادتهم لها فعلا:

يقول هؤلاء المدّعون: "ولم يقل مسيحي حقيقي إن العذراء مريم إله، مع كل التقدير والمحبة لها". وليتهم في إنكارهم أُلوهية مريم يعبرون عن كل النصارى، فلسنا هواة خلاف، وقد دعانا المولى ﷻ إلى أن نلتقي مع أهل الكتاب على كلمة سواء: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦٤).

فطائفة البروتستانت من فرق النصارى - وهي فرقة ظهرت متأخرة - هي وحدها التي تنكر ألوهية مريم، أمّا ما عداها من الفرق، فالجميع يقول بألوهية مريم، والنصارى وإن عبدوا مريم إلا أنه لم يثبت أنهم أطلقوا عليها إلهًا، كما أطلقوا على عيسى عليه السلام، ومن هنا ندرك دقة التعبير القرآني عندما قال عن مريم وعيسى مجتمعين: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (المائدة: ١١٦)، والاتخاذ غير التسمية، فهو يَصْدُق بالعبادة، وهي واقعة قطعًا، بينما قال الله تعالى في عقيدتهم في عيسى خاصة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ٧٢).

فهم عبدوه وسمّوه إلهًا، وهذا موافق لواقع النصارى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ (النساء)، وعن عبادة النصارى لمريم - عليها السلام - يقول الشيخ محمد رشيد رضا: "إن هذه العبادة التي يوجهها النصارى لمريم، والدة المسيح - عليهما السلام - منها: ما هو صلاة ذات دعاء وثناء واستغاثة واستشفاع، ومنها: صيام يُنسب إليها ويسمى باسمها، وكل ذلك يقرن بالخضوع والخشوع لذكرها ولصورها وتماثيلها، واعتقاد السلطة الغيبية لها التي يمكنها بها في اعتقادهم أن تنفع وتضر في الدّنيا والآخرة بنفسها أو بواسطة ابنها، وقد صرحوا بوجوب العبادة لها(٢).

فظهر أنَّ ما يدَّعيه هؤلاء بعد ذلك هو موافقة للبروتستانت وخروج على إجماع الكنيستين الشرقية والغربية، أو هو نوع من التضليل ظنًّا منهم أن الناس سيصدقونهم في كل ما يقولون؟! قال ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (التوبة: ٣١)، وإن كنّا وجدنا بعض فرق النصارى تنكر قصد السيدة مريم بالعبادة - كما هو الحال بالنسبة

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ج٦، ص٣٣.

٢. المرجع السابق، ج٧، ص٢٦٣.

للبروتستانت - فذلك كان في مراحل متأخرة، ولا يقدح ذلك في عبارة القرآن؛ فإنّ المعبود في القرآن وكذلك المتبوع اتباعًا كاملًا يسمى إلهًا، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ (التوبة: ٣١)، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الجاثية)، وقول النبي ﷺ: "تَعِس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يُعطَ لم يرض"[1].

ثانيًا. محاولات فاشلة لإقحام التثليث في القرآن:

من العجب أن يحاول فريق من هؤلاء المُدَّعين أن يقحموا التثليث في القرآن الكريم، مع أنهم لا يعترفون بأن القرآن منزل من عند الله.

١. يحاول هذا الفريق أن يقابل بين معتقدهم في الأقانيم الثلاثة، وبين ما يتوهمونه من عبارة القرآن الكريم: الله، وكلمته، وروح منه، قائلًا: والكلّ في ذات واحدة.

وهذه سفسطة واضحة، فالآية القرآنية تقول: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ ولم تقل: الله وكلمته، وروحه في ذات واحدة، كما يفتري هؤلاء على كتاب الله تعالى، وإنما وصف عيسى ابن مريم في الآية بثلاث صفات: أنه رسول الله، وأنه كلمته وأنه روح منه، فهي أوصاف ثلاثة للمسيح، وليس الله والكلمة والروح القدس ذاتًا واحدة في زعمهم، وتأكيد الآيات على نسبة عيسى إلى مريم "عيسى بن مريم" ردّ على النصارى الذين ينسبونه إلى الله فيزعمون أنه ابن الله.

ووصفه بأنه رسول الله تأكيد على أنّه عبدٌ لله طائع له بالقيام ببلاغ رسالته، ووصفه بأنّه كلمته إشارة إلى ميلاده غير المعتاد، فهو نفاذ لكلمة الله، وهي قوله تعالى: "كن" وهذا الفهم لكلمة "كن" أظهر وأشهر ما قيل في تفسيرها.

واستدل بعض القُسُس في إثبات التثليث في الإسلام بقوله ﷻ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فإن فيه ثلاثة أسماء فيدل على التثليث، ونحن نقول: لهم لقد قصرتم، عليكم أن تستدلوا بالقرآن على التَّسْبِيع، ووجود سبعة آلهة بمبدأ سورة "غافر" وهو هكذا: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ (غافر)، بل عليهم أن يقولوا: إنه يثبت وجود سبعة عَشَرَ إلهًا من القرآن بثلاث آياتٍ من آخر سورة الحشر التي ذكر فيها سبعة عشر اسمًا من الذات والصفات متوالية.

وأسماء الله الحسنى تسعة وتسعون فهل يعني ذلك تعدد الآلهة في الإسلام؟! الإسلام حرص أكثر ما حرص على تعميق عقيدة المسلم في التوحيد الخالص، والآيات على ذلك كثيرة، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال (٦٠٧١)، وفي موضع آخر.

﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ (النساء). وقال ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص).

أما التثليث فقد رفضه الإسلام وندد به، كما نبذه القرآن الكريم على النحو السابق، وعلى هذا فدعواهم أن البسملة تدل على التثليث إنما هو إسقاط؛ فلم يخطر في بال المسلمين أنهم يعبدون ثالوثًا، أحد "أقانيمه" محمد ﷺ كما أن عند النصارى ثالوثًا أحد أقانيمه "يسوع"، وقد قال الله تعالى مخاطبًا نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف).

وحين وفاة الرسول ﷺ نزل نبأ وفاته على الصحابة كالصاعقة، ولم يكد بعضهم يصدق بهذا النبأ، فقال لهم أبو بكر ﵁: "من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت"[1]. هذه عقيدة المسلم لا ما يدّعون[2]!

ومعنى قوله ﷻ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي بتخليقه وتكوينه كسائر الأرواح المخلوقة، وإنما أضافه إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم، كما يُقال: بيت الله، وناقة الله.

٢. محاولة استخراج اعتراف من القرآن الكريم بالتثليث، ولو بفرضها على القرآن الكريم فرضًا، بل بفرضها على العقل ولغة القرآن العربية، ولو خالفت الواقع الذي نطق به القرآن الكريم!!

يقولون: وقد اتفق القرآن الكريم مع الكتاب المقدّس في إسناد الفعل وضمير المتكلم في صيغة الجمع إلى الله تعالى، ولم يرد في الكتاب المقدّس ولا في القرآن كلامُ مخلوق، كائنًا من كان، تكلم عن نفسه بصيغة الجمع، مما يدل على وحدة الجوهر مع تعدد الأقانيم في الذات العليا.

فمثلًا ورد في قوله ﷻ: ﴿نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ (البقرة: ٢٣) بصيغة الجمع، وفي قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (الأعراف: ١٩٦) بصيغة المفرد، فتشير الصيغة الأولى إلى جمع الأقانيم، وتشير الصيغة الثانية إلى توحيد الذات.

وهذه التفرقة بين ما جاء بصيغة الجمع وصيغة المفرد في الآيتين السابقتين هي افتراءٌ على الله ﷻ، فليس في القرآن الكريم أن الله واحد في جوهره جمع من حيث الأقانيم، وكل أقنوم متميّز عن الآخر، ولكن اختلاف التعبير حسب اختلاف المقام، فلكلّ مقام مقال، فإذا كان المقام يقتضي التعبير بالجمع عُبِّر بالجمع، وإذا كان المقام يقتضي التعبير بالإفراد عُبّر بالإفراد.

فالتعبير بنون المضارعة في الفعل المضارع، مثل: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ و﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ (الشعراء)... إلخ، وبـ"نا" التي في أصل استعمالها لجماعة المتكلمين قد يأتي للمفرد المعظم نفسه كما يُصدّر القانون بجملة: نحن رئيس الجمهورية، والله ﷻ، أحق بالتعظيم وأولى.

وقد يتطلب المقام في التعبير بالإفراد ليثبت أنه

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه (١١٨٥)، وفي مواضع أخرى.

٢. أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، شوقي أبو خليل، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ١٩٩٩م، ص٢٥٠.

وحده الذي يُنتسب إليه الفعل في مواجهة من يشركون مع الله تعالى غيره فيكون الإفراد في مثل هذا أدلّ على ذلك المعنى.

وقد يكون التعبير بصيغة الجمع إشارة إلى أن الفعل المعبر عنه، وإن كان بأمر الله ﷻ إلا أنه جرى وصدر بأسباب، وعلى أيدي جنوده من الملائكة الذين ينفذون أمره في خلقه.

بهذه الصيغة يعبر المولى ﷻ عن نفسه وعن جنوده المنفذين لأمره، كقوله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (يس)، وقوله ﷻ: ﴿ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (الأنبياء)، وقال: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (الواقعة)، ومعلوم أن ملائكة الموت قريبون من الميت.

ثالثًا. التعلق بالصفات الإلهية في إثبات التعدد:

وقد سلك بعض هؤلاء مسلكًا آخر لإثبات أن الإسلام أقرَّ عقيدة التثليث ولو في صورة من صورها، وذلك بتفسير بعض الصفات الإلهية الثابتة لله أزلًا على نحو يحتِّم افتقارها إلى أطراف أخرى متعددة، وأن الوحدة التامة للذات الإلهية لا تستقيم مع هذه الصفات. وهنا يلجئون إلى تفسير القرآن تفسيرًا وثنيًّا، وياللعجب! فقد أصبح منكرو القرآن مفسرين له، وأصبح من لا يعرف أساليب العرب في لغتهم حُجَّة فيها، وهو يفتقد أبجديّتها!!

وقد زعم هؤلاء أن: من أسماء الله الحسنى أنه الودود، فالودّ صفة من صفاته، ومعرفتنا أن هذه الصفة أزلية دليل على أن هناك تعدد أقانيم في الوحدة الإلهية، لتبادل الودّ بينها قبل أن يُخلق شيء، وإلا ففي الأزل اللانهائي كانت صفة الودّ عاطلة عن العمل، وابتدأت تعمل فبدأ الله "يود" بعد أن خلق الملائكة، والناس، وحاشا لله أن يكون قابلًا للتغيير.

والحق أن الودود من أسماء الله الحسنى يدل على صفته، وهي الودّ، ومعنى الودود: الذي يحب الخير لجميع الخلق، فيحسن إليهم ويثني عليهم (بمعنى: يذكرهم لما يقربهم منه، ويحببهم فيه) وهو قريب من معنى الرحيم، لكن الرحمة إضافة إلى مرحوم، والمرحوم هو المحتاج والمضطر، وأفعال الرحيم تستدعي مرحومًا ضعيفًا، وأفعال الودود لا تستدعي ذلك، بل الإنعام على سبيل الابتداء من نتائج الود[1].

وصفة الودّ في الله ﷻ لا تتطلب الودّ المتبادل بينه وبين غيره، حتى يلزم القول بأقانيم يتبادل الودّ بينها في الأزل، كما توهموا، ولكن الود إرادة الإحسان والإنعام إلى الخلق، فهو ﷻ يريد الإحسان إلى خلقه أزلًا إرادة قديمة قدم وجوده ﷻ، ولكن تنفيذ إرادته بتحقق الإحسان، والإنعام إلى الخلق حين يوجد الخلق فيما بعد، وهذا معنى قول علماء التوحيد في هذه الصفة وغيرها من صفات الله، إن الصفة قديمة ومتعلَّقها حادث، ولو كان ما يقولون حقًّا من أن قدم وأزلية الصفة الإلهية مِمّا يستدعي أزلية الخلق ـ كما زعموا من أن أزلية ود الله التي تستدعي أزلية المودود ـ لكان جميع الخلق ـ يتصفون بالأزلية!

١. المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالي، مكتبة الجندي، القاهرة، ص١١٤، ١١٥.

وإذا كان هؤلاء يعترفون بود الله لهم، فهم أزليّون إذن! والصواب أن صفة الله "الودود" أزلية ولكن نفاذ الود وثماره بالإحسان والإنعام متأخر بحدوث الخلق، وإذا ضربنا أمثلة توضيحية زال هذا اللبس عند طلاب الحقيقة، فمثلًا: إذا تعلّم الإنسان مهنة الطب أو الهندسة أو التجارة فإنه يصير بهذا التعلم متصفًا بهذه الصفة، فيكون طبيبًا أو مهندسًا أو تاجرًا، أو غير ذلك سواء مارس هذه الأعمال فعلًا، أو لم يمارسها.

فالله ﷻ يتصف بصفة الودّ أزلًا؛ لأنه يعلم أنها فيما بعد تتحقق آثارها عند خلق الخلق، فالله ﷻ لم يتغير، فالصفة أزلية ومستمرة فيه ﷻ، ولكن أثرها ظهر عندما ظهر المخلوق المُنعم عليه، فالتغير في المخلوق لا في الخالق.

فلا وجه ـ إذن ـ لزعم أن وجود ثلاثة أقانيم في إله واحد يحل مشكلة تتعلق بالإيمان بصفات الله ﷻ الأزلية التي لها أثرها كالسمع والكلام، فهذه الصفات إلهية ـ كما ذكرنا ـ وإن كانت لها متعلقات حادثة، فآثارها ونتائجها تحدث فيما بعد عند حدوث الخلق، ولا تناقض في ذلك ولا لبس، وعلى هذا فلا حاجة إلى الاعتقاد بأقانيم متميزة يتشخص كل أقنوم منها ليكون ذاتًا مستقلة عن الآخر، فالآب ـ عندهم ـ شيء يغاير الابن، والروح القدس يغايرهما معًا، ومع ذلك فالثلاثة إله واحد، فالإله مجموع الثلاثة، فهل بعد ذلك غموض وتعقيد وتناقض؟!

فالإله واحد وله صفات الكمال ـ مما نعلمه وما لا نعلمه ـ كما أخبرت بذلك الشرائع السماوية فلا لبس ولا إشكال، على أن المسيحية الحقة التي جاء بها المسيح ؈ ما دعت إلى التثليث، ولكن اخترعها بولس الوثني، وراجَتْ بعد ذلك وأصبحت عقيدة رغم كونها من صنع البشر®.

رابعًا. حقيقة دعوة عيسى ؈، وأثر بولس في تحريف النصرانية:

وقد علمنا أن نصوص الإنجيل تنطق بالتوحيد، ولا تحتوي على ثالوثهم المزعوم، وتؤكد ذلك آي القرآن الكريم، فقد جاءت مصدقة لما معهم ومصوِّبةً ومضيفة. فإذا كان الأنبياء يعترفون بعقيدة التوحيد، وإليها يدعون على مرّ الأزمنة والقرون، فهل يقبل عقل سليم أن يتهم المسيح بأنه قد خالف الأنبياء، ودعا بغير ما أمرت به السماء؟! لذا وجدنا القرآن الكريم ينص كما قال فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة: "على أن عقيدة المسيح هي التوحيد الكامل بكل شُعَبه: التوحيد في العبادة، فلا يعبد إلا الله، التوحيد في التكوين فخالق السماء والأرض وما بينهما هو الله وحده لا شريك له، والتوحيد في الذات والصفات فليست ذاته مركبة، وهي منزهة من مشابهة الحوادث"[1].

قال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ (المائدة)، وقال ﷻ على لسان المسيح ؈: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ

® في **"تهافت محاولات التماس صور للتثليث عند المسلمين"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة، من هذا الجزء.

١. محاضرات في النصرانية، الشيخ محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص١٢.

﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾(المائدة: ١١٧)، وحين حاول النصارى أن يخرجوا بدعوة المسيح عن الوحدانية، ويلبسوها ثوب الوثنية ألبسهم الله ثوب الكفر، قال ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ (المائدة: ٧٣).

كما أكد بشرية المسيح عليه السلام فقال ﷻ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ (المائدة: ٧٥)، وخليق بمن يأكل الطعام أن يُحْدِث، ومن كان كذلك فلا يكون إلهًا من دون الله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (المائدة: ٧٦)، ويمضي القرآن في تصويب عقيدة النصارى الحالية، فيقول: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ (النساء: ١٧٢)، ومن الغريب أن المسيح لن يستكبر على عبودية الله الواحد، والنصارى لا يرضون له ذلك!

إذن فعيسى عليه السلام ما دعا إلا إلى توحيد الله، فغير التوحيد إذن دخل النصرانية من بعده، وما كان عيسى إلا رسولًا لله رب العالمين، ولو كان المسيح بخلاف ذلك وعقيدته تغاير عقيدة الأنبياء، لصرح بذلك كتاب الإسلام الذي شهد له التاريخ بالصدق، والعقلاء بالعصمة[1].

١. المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مرجع سابق، ص٦٩: ٩٧.

دعوة بولس إلى الوثنية والتثليث في ثوب المسيحية:

إن بولس ـ اليهودي النشأة، الرّواقي الثقافة، الروماني الفكرة ـ استطاع بكل دهاء وحيلة أن يوجد في المجتمع عقيدة جديدة تناهض عقيدة التوحيد فيما بعد، وقد كان من ألد أعداء المسيحية كما تشهد عليه بذلك أعمال الرسل، وفجأة يعتنق المسيحية إثر نور يقول إنه أبرق حوله من السماء قرب دمشق فغير مجرى حياته، فأصبح داعية المسيحية الأول، وقصته التي لا نود أن نستطرد في سردها ـ إذ لا يجدي ذلك ـ تنبئ عن عقل مريض تميَّز به بولس، وظهر ما يُسمى بالمسيحية البولسية التي تستخف بتعاليم المسيح وتنظر إليها بعين السخرية والاحتقار.

والحقيقة أن الأزمة النفسية التي كان يمر بها بولس ـ رسول المسيحية فيما بعد ـ جعلته يتقبل بكل بساطة العقائد الوثنية، التي كانت تحيط ببيئته، ويعرض بكل غرور عن عقيدة التوحيد، ورسائله شاهد إثبات على ذلك، يقول شارل جنيبير: "إن الدراسة المفصلة لرسائل بولس الكبرى تكشف لنا النقاب عن مزيج من الأفكار، ويبدو لأول وهلة أنها غريبة، فهي تجمع بين النصوص المقدسة القديمة، وبين المفاهيم المنتشرة في الأوساط الوثنية اليونانية والأساطير الدينية الشرقية"[2].

ومن المعلوم أن هذا المزج ساعدته فيه ثقافته القديمة، فهو كان في وسط يعتقد بالإله الإنسان، والإله

٢. المسيحية: نشأتها وتطورها، شارل جنيبير، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٩٨م، ص٩١.

المصلوب... إلخ، فاستطاع بحكم نشأته أن يُكوِّن عقيدة جديدة لدى البسطاء من الناس، خاصة وأن لديه عقلًا يجمع بين اليهودية والرومانية، ومن خلالها يحقق ما يريد، فصوَّر العقيدة الجديدة المناهضة لعقيدة التوحيد في رسائله، واعتمدت المجامع المسيحية فيما بعد اعتمادًا كليًّا على هذه الرسائل ومصطلحاتها الغامضة.

فحينما يقول المسيح: "أنا عبد الله ورسوله، وإنسان، وابن إنسان"، نرى بولس يقول: "الذي هو - أي: عيسى عليه السلام - صورة الله غير المنظور، بِكْر كل خليقة. فإنه فيه خُلِق الكلُّ: ما في السماوات وما على الأرض، ما يُرى وما لا يُرى، سواء كان عروشًا أم سيادات أم رياسات أم سلاطين. الكل به وله قد خُلِق. الذي هو قبل كل شيء، وفيه يقوم الكل، وهو رأس الجسد: الكنيسة. الذي هو البداءة، بِكْر من الأموات، لكي يكون هو متقدِّمًا في كل شيء. لأنه فيه سُرَّ أن يَحِلَّ كلُّ المِلْء، وأن يصالح به الكل لنفسه، عاملًا الصلح بدَمِ صليبه، بواسطته، سواء كان: ما على الأرض، أم ما في السماوات...". (رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي ١: ١٥ - ٢٠).

إلى غير ذلك من هذيان، وهو بهذا يريد أن يكوِّن بالمسيح - لا المسيحية - عقيدة جديدة من نوع خاص، تلبس ثوب المسيح؛ ليتقبلها الناس فيما بعد، وبعد فهذا هو بولس الذي تتخذه المسيحية الثالوثية رسولًا لها وتؤمن بأقواله كافة، ولا تعصي له أمرًا، وهو الذي يعترف أنه ما قابل المسيح في حياته، ولا تلقى على يديه مبادئ المسيحية، ومن ثَمَّ، لا يصح التمسك بأقوال مريض نفسي[1]!

ومن المؤسف بعد ذلك كله أن في كتابهم المقدس يعترف الرب فيه بفساد أنبيائه، فكيف يكون كلامهم وحيَ الله؟ "لذلك أعطى نساءهم لآخرين، وحقولهم لمالكين، لأنهم من الصغير إلى الكبير، كل واحد مُولَع بالرِّبح. من النبي إلى الكاهن، كل واحد يعمل بالكذب". (إرميا ٨: ١٠).

فيكف يثقون بعد ذلك في كلام أنبيائهم وكهنتهم، إذا كان علام الغيوب قد وصفهم بالكذب، أي يقولون ما لم يقله الله ويدّعون أنه منزل من عنده، أليس هذا دليلًا على التحريف؟ أليس هذا أكبر دليل على سحب الثقة من هذا الكتاب، وهؤلاء الأنبياء؟ فإذا كان أنبياؤهم لصوصًا وُسرّاقًا، وكَذَبة، فماذا يكونون هم[2] ®؟

خامسًا. فشل عقيدة الأقانيم في هداية الضمير المسيحي:

إن كثيرًا من مروِّجي النصرانية يعمدون إلى المقارنة بين صلة الإنسان بالله في النصرانية والإسلام، ويصوِّرون إلَهَ النَّصرانية رحيمًا ودودًا يتنزل من عليائه في صورة الإنسان الفادي الذي يتحمل عن البشر

---

١. المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مرجع سابق، ص١١٩: ١٢٢.

٢. انظر: عيسى ليس المسيح الذي تفسيره: المسِّيَّا، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ص٣٨: ٥٤.

® في **"أثر بولس في تحريف العقيدة النصرانية" طالع**: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة والعشرين، من هذا الجزء. وفي **"دور بولس في تحويل النصرانية إلى دعوة عالمية"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السادسة، من هذا الجزء.

خطاياهم التي ورثوها عن أبيهم الأول القديم، وأن هذا التجسُّد للإله مما يقارب بين الإنسان وخالقه، ويصل بينهما بروابط الودِّ والمحبة، هذا على عكس إله المسلمين العليّ المتكبر الذي لا يقنع من عباده إلا بالركوع والخضوع.

وهذا الذي يزعمونه زيف كلُّه، فإن المحبّة المدّعاة لا يتوسَّل إليها بالخلط بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، وهما حقيقتان مستقلتان لا سبيل إلى المزج بينها إلا بالردة إلى تصورات الوثنيين الذين أحسوا روحًا إلهية تسري في كل شيء حتى دعاهم ذلك إلى تقديس مظاهر الطبيعة والحيوانات والحجارة.

إن الإله عند المسلمين غفور ودود، يدعو عباده إلى طاعته بالحب كما قال ﷻ لنبيِّه ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (آل عمران).

هكذا يدعوكم في غير تعقيد أو دخول في متاهات الأقانيم والتجسد من أجل التقريب بينه وبين عباده.

وليسأل العاقل نفسه عندما تُملى عليه هذه العقيدة الوثنية، ما الذي يعود عليَّ وعلى علاقتي بربي إذا اعتقدت أن الإله عبارة عن مجموعة أو شركة مكونة من ثلاثة، كل واحد من الثلاثة متميز عن الآخر؟ هل استقامت علاقتي بالله بهذه العقيدة؟ أو أن الفجوة بسببها تزداد اتساعًا؟ ألا يتكل الإنسان أن ابن الله سيخلصه من الخطايا الموروثة فيغريه ذلك بالخطأ والبعد عن الله بمعصيته؛ فتزداد العلاقة بينه وبين ربه سوءًا والفجوة المدّعاة اتِّساعًا؟

إقبال الغربيين على اعتناق الإسلام:

فمن خلال البحوث والدراسات تطلَّع أتباعُ المسيحية في هذا العصر إلى الإسلام، فوجدوه دينًا يتلاءم مع الفطرة، يتوافق مع العلم، يتآخى مع العقل، دين لا يجسد الإله، ولا يرفع البَشَر إلى درجة الألوهية، دين يكره التعدد وينبذ الثالوث، ويدعو إلى الاعتقاد بإله واحد في أفعاله لا شريك له، كل شيء قائم بأمره، وكل شيء خاضع له، من تكلم سَمِع نُطْقه، ومن سكت عَلِم سرَّه، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبه، وهو فوق كل شيء، وليس دونه شيء، هو مالك كُلّ شيء: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى)، والدلائل على هذه الوحدانية مبثوثة في الكون كله، وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد، ومسطورة في كتاب الإسلام: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِۦ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (النمل).

نظر الموحدون المسيحيون إلى هذه الآيات القرآنية، وغيرها من الآيات الكونية فأيقنوا أن عقيدة التوحيد في الإسلام هي العقيدة الصحيحة الخالصة التي يسكن إليها القلب، ويقتنع بها العقل، فتوجهوا بكل اطمئنان إلى الإسلام، وأخذوا يشهرون عقيدة التوحيد الخالصة في شتى بقاع العالم.

والشواهد على ذلك كثيرة:

ففي جريدة الرأي العام، جاء خبر أن ثلاثين شخصًا يعلنون الإسلام في دولة الإمارات العربية

خلال شهر يناير ١٩٨٨م، وفي المملكة العربية السعودية واحد وخمسون شخصًا من مختلف الجنسيات العالمية يعلنون إسلامهم، ويُشْهِر أحد عشر ألفًا من المسيحيين إسلامهم في سنَتي ١٩٨٧م ١٩٨٨م في كوريا الشمالية، وفي فرنسا وصل عدد المسلمين إلى ١،٥ مليون مسلم، وفي أمريكا وصل تعدادهم إلى ٧،٥ مليون مسلم في عام ١٩٨٨م، وفي لندن، معقل المسيحية، اعتنق الإسلام حوالي ٧٦ ألف موحد في ذكرى مولد الرسول ﷺ[١].

هذا وغيره الكثير يؤكد أن الإسلام، لا المسيحية، هو دين الغد، وأقوال هؤلاء تدل على مدى اقتناعهم بالإسلام وعقيدته، فمثلًا مسيو "أتين دينيه" الفرنسي يقول عن الإسلام: "إن الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الإله شكلًا بشريًّا، أو ما إلى ذلك من الأشكال، أما في المسيحية فإن لفظ "الله" تحيطه تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن في السن، وقد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة، والانحلال، فمن تجاعيد في الوجه غائرة[٢] إلى لحية بيضاء، مرسلة مهملة، تثير في النفس ذكرى الموت والفناء.

الكاتبة الأمريكية مريم جميلة ترى أن التجسد موروث عن الأديان البدائية الوثنية، أما الادّعاء بأنه أوحى به من قبل السماء، فلا نصيب له من الصحة، وقد وجدت من الأساقفة من يقول: إن المسيحية يجب أن تخضع لناموس التطور والتغير، وتقول الكاتبة أيضًا: قرأت عن حفلات راقصة داخل الكنيسة بواشنطن، وعن كاهن في مدينة نيويورك يُعين مستشارًا لبعض الفرق الموسيقية، ويطوف معها في الملاهي اللَّيلية، وعن مجموعة من القُسُس الشبان تقيم خدمة استشارية للشواذ جنسيًّا في سان فرنسيسكو، وعن هذه العقيدة تقول: "إن العقيدة الصافية النفيسة في الإسلام ترفض كل أشكال القومية والعنصرية والتثليث، وعبادة القديسين وتقديس الصور، والكهنوت وتجعل المؤمن يتعاطف مع كل المخلوقات التي أوجدها الإله، ويقيه الخوف من غير الله، ويدفعه إلى التقوى وعدم اليأس.

إذن ففي ظل الإيمان بعقيدة التوحيد، الانتحار والتشاؤم والقنوت أمور لا محل لها في نفس المؤمن[٣].

الخلاصة:

- محاولة استخراج اعترافٍ من القرآن الكريم بالتثليث محاولة متعسفة، تتجاهل آيات القرآن التي تصرح ببطلان التثليث، وتنهى عن القول به، والآيات التي استدلوا بها على التثليث لا تمت له بصلة لا من قريب ولا من بعيد. وهذا دليل على جهلهم بلغة العرب، إذ إن لكل مقام مقال.
- أما وصف القرآن لعيسى بأنه كلمة الله وروح منه كناية عن أنه وُجد عليه السلام بنفاذ كلمة الله تعالى (كُن) بدون أسباب معتادة، وأنه خلق بخلق الله المباشر له، وبنفخ روح القدس في مريم، وإضافته لله جاء على سبيل التشريف والتكريم، كقولنا: بيت

---

١. جريدة الرأي العام، القاهرة.

٢. الغائرة: العميقة.

٣. المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مرجع سابق، ص٣٣٠: ٣٣٢.

الله، وناقة الله.

- العقيدة الإسلامية في الله أنه تبارك وتعالى واحد بمجموع صفاته، ولا يفهم أحد من المسلمين من كثرة الصفات تعدُّدًا في حقيقة الذات الإلهية على نحو ما تدعيه النصارى في عبد الله ونبيه عيسى ابن مريم عليه السلام، بل ليس في قدرة التصوُّر البشري أن يَعيَ ذاتًا مجردة من صفاتها.

- التَّحرُّر الغربي الحديث من سطوة الكنيسة وسلطانها كشف عن قصور العقيدة النصرانية عن هداية الضمير وطمأنة الخواطر تجاه مشكلات الإنسان الكثيرة، وهذا يفسِّر إقبال كثير من الغربيين على اعتناق الإسلام الحنيف.

الشبهة التاسعة

ادّعاء أن التَّصوُّف الإسلامي مُقْتَبَس من المذاهب الروحانية الشرقية والفلسفات الأجنبية(*)

مضمون الشبهة:

أنكر بعض المستشرقين أصالة الحياة الروحية في الإسلام، وذلك التصوف الإسلامي السُّنِّي الصحيح، وزعموا أن عامة ما عند صوفية المسلمين من قيم وروحانيات إنما اقتبسوه من المذاهب الروحية الشرقية، سواءً التي ترجع إلى الرهبانية النصرانية أو اليهودية، أو إلى الفلسفات الشرقية ممثلة في التصوف الهندي أو الغنوص الفارسي،[1] أو إلى عناصر أجنبية كالفلسفة اليونانية أو الأفلاطونية المحدثة[2]. ويرمون من وراء ذلك إلى سلب الإسلام أصالة من أصالاته التي يتميز بها.

وجوه إبطال الشبهة:

1) جميع تعريفات مصطلح (الصوفي) ومصطلح (التصوف) نفسه بتفسيراتها المختلفة ـ تدل على أن التصوف عربي المولد إسلامي النشأة.

2) إذا كان من طبائع الأمور أن الظواهر تُفسَّر بعواملها القريبة، فإن المسلمين قد وجدوا في ظل الإسلام طريقًا واضحًا إلى حياة الزهد والروحانيات، وذلك بما تضمنه القرآن الكريم والسنة المطهرة من نصوص، وبما كانت عليه حياة النبي ﷺ من الزهد والتقشف وحياة الصحابة، فلا وجه للقول بتأثير الثقافات والفلسفات الخارجية، اللهم إلا إذا قصد بذلك التأثير على التصوف الفلسفي، الذي هو أجنبي

(*) تاريخ الشعوب العربية، ألبرت حوراني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، بدون تاريخ.

1. الغَنُوص (الغُنُوصية): كلمة يونانية الأصل، ومعناها: المعرفة، غير أنها أخذت بعد ذلك معنًى اصطلاحيًّا وهو: التوصل ـ بنوع من الكَشْف ـ إلى المعارف العُلْيا، أو هو تذوق تلك المعارف تذوُّقًا مباشرًا؛ بأن تُلْقَى في النفس إلقاءً، فلا تستند على الاستدلال أو البَرْهَنة العقلية.

2. الأفلاطونية المُحْدَثة: مذهب فلسفي قالت به مدرسة الإسكندرية فيما بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين نسبة إلى أفلوطين، وهو فيلسوف سكندري عاش في الفترة من (205م ـ 270م) وهو متأثر بأفلاطون، وتُعْزَى إليه مع آخرين الأفلاطونية المحدثة، وأساس المذهب القول بالواحد الذي صدرت عنه الكثرة، وفيه نزعة صوفية تمزج الفلسفة بالدين، وتؤكد على أن الصورة المثالية عبارة عن حقيقة مطلقة، وكان لهذا المذهب تأثير كبير على المعتقدات النصرانية.

خالص نشأةً وصدورًا.

٣) الدعاوى القائلة بتأثير الثقافات والفلسفات الخارجية دعاوى مدحوضة[١] بأدلة قاطعة، تكفي الإشارة إليها هنا عن ذكرها في مواضعها.

التفصيل:

أولا. الأصالة الإسلامية الخالصة لمصطلح "الصوفي" ومصطلح "التصوف":

من الأخطاء التي وقع فيها كثير من المستشرقين: المغالاة في تطبيق المنهج المعترف به في البحث العلمي، وهو منهج التأثير والتأثر؛ فالأصل أن هذا المنهج سليم، بَيْدَ[٢] أن الانحراف ينتُج عن الغلو في تقدير قيمته، فيؤدي فيما يخص تطبيقه على التراث الإسلامي إلى إنكار أصالة التراث الإسلامي، بمحاولة إيجاد المؤثرات من المسيحية واليهودية والبُوذيَّة واليونانية وغيرها. لقد استخدموا هذا المنهج بطريقة مشابهة لقانون العِلَّة والمعلول[٣] في ميدان العلوم الطبيعية، ولكننا يجب إزاء بحثنا في مسائل الفكر والعقيدة أن نتثبَّت من وجود صلة تاريخية واضحة بين السابق واللاحق وأن نتأكد أيضًا " من انتفاء كل ما عساه أن يمنع من تأثير اللاحق بالسابق"[٤].

١. المدحُوضة: المردودة.

٢. بَيْدَ: غير.

٣. قانون العِلَّة والمعلول: العلة تُطلق على المرض، وتطلق على السبب، وفقد عرَّفها الغزالي ـ في اصطلاح الأصوليين ـ بقوله: هي ما أضاف الشارع الحكم إليه، وناطه به، ونَصَّبه علامة عليه. والمعلول: المُسبَّب، والعلة للمعلول كالغيث للنبات.

٤. ابن تيمية والتصوف، د. مصطفى حلمي، دار الدعوة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م، ص٧٤.

ولقد أغفل كثير من الباحثين المستشرقين في مجال التصوف الإسلامي ـ ذلك المنهج الذي يقف مانعًا من تغلغُل[٥] تأثير أي ثقافة أخرى إلى داخله، ونقصد به منهج المطابقة مع تعاليم الكتاب والسُّنَّة، والتي كان يسير عليه أصحاب التصوف المستنِد إلى الكتاب والسنة أنفسهم، أو ما يمكن تسميتهم بأصحاب التصوف السُّنِّي[٦].

وقد أدى ذلك بالمستشرقين إلى قصور في إدراك طبيعة الحياة الروحية في الإسلام، فكان الخطأ في تفسير هذه الحياة وتحليلها، وإنكار أصالتها الإسلامية.

وسنحاول فيما يأتي تصحيح ما وقعوا فيه من خطأ، وإزالة ما وقعوا فيه من لَبْس أو اشتباه.

يكاد يجمع الباحثون على أن لفظ " التصوف" مشتق وليس جامدًا، إلا أنهم اختلفوا في الأصل المشتق منه على أقوال كثيرة، ولقد شغلت هذه القضية الصوفيين أنفسهم منذ القدم، وفي ذلك يقول أبو نصر السرَّاج الطوسي: "إن سأل سائل فقال: قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث، ونسبت الفقهاء إلى الفقه، فلم قلت: الصوفية ولم تنسبهم إلى حال ولا إلى علم؟ ولم تضف إليهم حالًا كما أضفت الزهد إلى الزهاد، والتوكل إلى المتوكلين، والصبر إلى الصابرين؟ يقال له: لأن الصوفية لم ينفردوا من العلم بنوع دون نوع، ولم يترسَّموا[٧] برسم من الأحوال والمقامات دون رسم، فلما كانوا في الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقين اسمًا

٥. تغلغل: تسرُّب.

٦. ابن تيمية والتصوف، د. مصطفى حلمي، مرجع سابق، ص٧٤.

٧. يترَسَّموا: يتَّصِفُوا.

دون اسم؛ فلأجل ذلك ما أضفت إليهم حالًا دون حال، ولا أضفتهم إلى علم دون علم، فلما لم يكن ذلك نسبتهم إلى ظاهر اللبسة، لأن لبسة الصوف دَأْب[1] الأنبياء عليهم السلام"[2].

وقال الكلاباذي: "وقال قوم إنما سُمُّوا الصوفية للبسهم الصوف".

وقال: "ومن لبسهم وزيِّهم سمُّوا صوفية؛ لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس ما لان مسه وحسن مظهره، وإنما لبسوا لستر العورة، فتجزَّوا[3] بالخشن من الشعر، والغليظ من الصوف".

وقال أبو علي الروزباري، وسئل عن الصوفي، فقال: "من لبس الصوف على الصفاء، وأطعم الهوى ذوق الجفاء، وكانت الدنيا منه على القفا، وسلك منهاج المصطفى".

وبهذا يتضح أن الصوفية كثيرًا ما ينسبون أنفسهم إلى الصوفية.

ونسبة الصُّوفي إلى الصوف صحيحة من حيث اللغة، يُقال صاف الكبش: ظهر عليه الصوف، يصوف صوفًا، فهو صوفي[4].

ويظهر أن هذا التفسير هو الصواب؛ لأنه صحيح من حيث اللغة، ولأنه ينطبق على واقع الصوفية في بداية نشأتهم، إذ كان الصوف هو اللبس الغالب على الزُّهَّاد والعُبَّاد[5].

وقد رجَّح ابن تيمية هذا التفسير بقوله: واسم الصوفية هو نسبة إلى لباس الصوف، وهو الصحيح؛ لأن لبس الصوف يكثر في الزهاد" [6].

ومن الصوفية من نسبهم إلى الصفاء، يقول بشر بن الحارث: "الصوفي من صفا قلبه لله". وقال سهل بن عبد الله: "الصوفي من صفا من الكَدَرِ[7]، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والمدر".

ومنهم من نسبهم إلى الصَّفِّ الأول، أو إلى أهل الصُّفَّة، أو إلى " آل صوفة" قبيلة من العرب كانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج، أو إلى صُوفة القَفَا، وهي الشعيرات النابتة في مؤخرة الرأس في الرقبة، أو إلى الصُّوفانة، وهي نوع من البقل[8].

وتتَّفق هذه التفسيرات في أنها غير صحيحة من الناحية اللُّغويَّة؛ لأن النسبة لو كانت إلى الصفاء لقيل: صَفَوِيّ أو صَفَائِيّ؛ ولو كانت إلى الصف الأول لقيل صَفِّيّ؛ ولو كانت إلى أهل الصُّفَّة لقيل صُفِّيّ[9].

وأما صوفة القفا، وهي الشعيرات النابتة في مؤخرة

١. الدَّأْب: العادة.
٢. اللُّمع، أبو نصر السرَّاج الطوسي، نقلا عن: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور، دار الهاني، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٤.
٣. تجزَّوا: لبسوا الجزز، وهو الصوف.
٤. انظر: التصوف والتفلسف: الوسائل والغايات، د. صابر طعيمة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢٤.
٥. نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور، مرجع سابق، ص١٥، ١٦ بتصرف.
٦. التصوف، ابن تيمية، نقلا عن: ابن تيمية والتصوف، د. مصطفى حلمي، مرجع سابق، ص٤٤.
٧. الكَدَر: العُكارة.
٨. التصوف والتفلسف: الوسائل والغايات، د. صابر طعيمة، مرجع سابق، ص٢٤، ٢٥.
٩. نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور، مرجع سابق، ص٢٠.

الرأس، فلا وجه لها[١].

ويعترض ابن تيمية على ربط مصطلح الصوفية باسم رجل أو قبيلة معروفة في الجاهلية اعتراضًا تاريخيًّا منهجيًّا يؤدي إلى عدم الاعتداد به، وفي ذلك يقول: وهذا وإن كان موافقًا للنسب من جهة اللفظ، فإنه ضعيف؛ لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النسَّاك، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى، ولأن غالب من تكلم باسم الصوفي لا يعرف هذه القبيلة، ولا يرضى أن يكون مضافًا إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام" [٢].

وهذه التفسيرات وإن كانت غير صحيحة إلا أنها تدل بوضوح على أن التَّصوُّف نشأ نشأة عربية خالصة، ناهيك عن أن التفسير الصحيح للقب الصوفي ـ كما ذكرنا ـ النسبة إلى الصوف، وهو ما تؤيده اللغة العربية وقواعد اشتقاقاتها.

وإذا كانت التفسيرات تدل على أن أصل التصوف عربي النشأة، فإن بعض الباحثين من المستشرقين في العصر الحديث حاول أن يجد لهذا الاسم أصلًا غير عربي، فأرجعوا كلمة صوفية إلى الكلمة اليونانية ***σοsōØ*** (سوفس).

لكن البحث الحاسم في هذه المسألة هو ذلك الذي قام به تيودور نيلدكه، المستشرق الألماني، في مقال له نشر في مجلة الجمعية المشرقية الألمانية ***ZDMG*** في سنة (١٨٩١)، بيَّن فيه أن كلمة ***σοsōØ*** اليونانية غير معروفة في الآرامية، ولهذا يصعب العثور عليها في العربية نقلًا عن الآرامية، ومن ناحية أخرى نجد في الآرامية وفي العربية الكلمات ***σοcØγλσs*** (سوفسطائي)، ونجد ***cØλэσσØσs*** (فيلوسوفس). والحرف اليوناني ***σ*** قد عُرِّب إلى س، كما هي الحال في معظم أو في كل الأحوال التي عُرِّبَتْ فيها كلمات يونانية تحتوي على حرف س اليوناني؛ ولا نعثر عليها معرَّبة إلى حرف ص.

فلو كانت كلمة "صوفي" مشتقة من كلمة يونانية، لكانت الصاد التي في أولها شاذة تمامًا. ومن ناحية أخرى ليس ثَمَّ دليل حقيقي على أن كلمة "صوفي" مشتقة من ***σοsōØ*** (سوفس) اليونانية، بينما اشتقاقها من كلمة " صوف" تقره اللغة العربية ومصادرها[٣].

وكما اختُلِفَ في تفسير اشتقاق لقب الصوفي، فإنه قد اختُلِفَ أيضًا في تعريف التَّصوُّف نفسه، حتى بلغت كثرتها مبلغًا يدعو إلى النظر والتأمل، حتى قال بعض الباحثين: إنها بلغت نحو ألفي تعريف[٤]. لكنها كلها نابعة من البيئة الإسلامية وجميع عباراتها تدل على ذلك، ومن هذه التعريفات قول الجُنَيْد: التصوف: تصفية القلب من موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق

١. التصوف والتفلسف: الوسائل والغايات، د. صابر طعيمة، مرجع سابق، ص٢٨.

٢. الصوفية والفقراء، ضمن مجموع فتاوى ابن تيمية، نقلا عن: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور، مرجع سابق، ص١٨.

٣. تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني الهجري، د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٧٥م، ص١٠.

٤. نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور، مرجع سابق، ص٢٦.

الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، وعمل ما هو خير إلى الأبد، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول في الشريعة". ومن التعريفات قول السَّري السَّقَطِي: "التصوف اسم لثلاثة معان: هو الذي لايطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم في علم بباطن ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة، ولاتحمله الكرامات على هتك أستار الله"، ومنها أن التصوف: الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق، وهناك تعريفات أخرى كثيرة للتصوف.

وعلى أي حال، فإن التأمل في التعريفات التي قدمها الصوفية يدلنا على أن التصوف ينطوي على معان كثيرة ترجع كلها إلى الزُّهد في الدنيا، ومراقبة الله ﷻ والإنابة إليه والاشتغال بذكره في السِّرِّ والعَلَن، والضَّراعة إليه ﷻ في كل شيء، والاستغناء عن الخلق، ومن هذه المعاني يحصل للنفس تهذيب، ويتكون فيها خلق رفيع، ويتحقق لصاحبها صفاء في قلبه، فتنكشف له الحقائق في يسر ووضوح.

ومن ثَمَّ يمكن القول بأن التصوف عبارة عن: علم تزكية النفس وتطهيرها والوصول بها إلى الكمال في العلم والعمل، والمعرفة بالله، والمحبة له، والتوحيدالكامل له سبحانه، لا من حيث الظاهر بل من حيث الأحوال الباطنة، وليس فقط من طريق الاستدلال، بل من طريق الذوق[1].

فمفهوم التصوف الإسلامي في الأصل لا ينطوي على إشارة لشيء من التأثيرات الدخيلة، وإنما يَنُمُّ عن أصالة إسلامية. فما طبيعة نشأة التصوف الإسلامي؟ وما الذي طرأ عليه عبر مسيرته الطويلة الحافلة؟ هذا ما سنوضحه فيما يأتي.

ثانيًا. أصالة الحياة الروحية في الإسلام وجذورها الإسلامية:

نستطيع أن نقرر أن التصوف الذي عرف في الإسلام بهذا الاسم في القرن الثاني للهجرة ـ تصوف إسلامي صرف، وأنه لم يكن من النِّحَل والمذاهب التي دخلت على المسلمين نتيجة لاتصالهم بالأمم التي دانت بالإسلام، وحملت معها محصولًا كبيرًا من عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها ومذاهب تفكيرها[2].

ومَرَدُّ ذلك إلى أن تاريخ التصوف وتراجم رجاله يدلانا على أن التصوف ولد ولادة طبيعية من رحم الزهد الإسلامي، فالزهد يمثل المرحلة الأولى من مراحل التصوف، ومن السهل أن نتبيَّن في أقوال الزهاد البذور الأولى للاتجاه النظري في التصوف[3].

إن الارتباط بين الزهد والتصوف ارتباط وثيق، فلقد كان الزهد هو البيئة الطبيعية التي نشأ فيها التصوف.

ويشير ابن الجوزي إلى هذا المعنى بقوله: الصوفية من جملة الزُّهَّاد، إلا أن الصوفية انفردوا عن الزهاد

---

١. أصالة التفكير الفلسفي في الإسلام، د. عبد المقصود عبد الغني، ط١، ١٩٨٥م، ص١٨٥: ١٨٧.

٢. نشأة التصوف، عبد الكريم الخطيب، سلسلة الثقافة الإسلامية، المكتب الفني للنشر، القاهرة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، ص٣٠.

٣. التصوف الإسلامي بين الاتباع والابتداع، د. السيد رزق الحجر، دار الهاني، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٣٥.

بصفات وأحوال وتوسموا بسمات... والتصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي[1].

ومهما قيل عن العوامل التي أدت إلى نشأة الزهد في الإسلام، فإن ما يُعتَدُّ به في هذا المقام هو الإسلام، الإسلام ذاته، كما تجلَّى في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وسيرة الرسول ﷺ، وصحابته الأبرار، والتابعين لهم بإحسان.

نعم قد يكون للعامل السياسي أو الاجتماعي أثر في نشأة الزهد، لكنه أثر محرِّك لهذه الظاهرة وليس منشئًا لها، أما المنشئ الحقيقي فهو تعاليم الإسلام، وأوامره الخلقية، والأسوة الحسنة كما تمثلت في حياة الرسول ﷺ وصحابته الكرام ﷺ بدليل أن العرب قبل الإسلام كانوا في صراعات وحروب لم تنقطع، ومع ذلك لم يعتزلوا الحياة ولم يزهدوا فيها.

وإذا كنا نقلل من شأن أثر العوامل السياسية والاجتماعية فيما يتعلق بنشأة الزهد ـ مع أنها أثرت بالفعل في توسيع نطاقه وزيادة أتباعه ـ فإننا لا نقبل بأية محاولة لرد الزهد ـ في أصله ونشأته ـ إلى مصدر أجنبي عن الإسلام.

فالقرآن كثيرًا ما وصف الدنيا بأنها لعب ولهو، وحذَّر المؤمنين من زخرفها وزينتها وغرورها، وفي هذه المعاني نجد كثيرًا من الآيات مثل: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الحديد)، وقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾ (لقمان)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ (الكهف)، وقوله ﷻ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (آل عمران)، وهذه الأوصاف للدنيا والتحذير منها في القرآن كثيرة، ومن هنا كان دعاء المؤمنين الصالحين: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (البقرة)، وكان تنبيه القرآن على أن من طلاب الدنيا من ليس له في الآخرة من خلاق، وأن طلاب الدنيا المنقطعين لها وحدها سوف يُعجِّل الله لهم فيها ما يشاء لمن يريد ثم يُصليه جهنم وبئس المصير: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ (الإسراء).

وينبغي ألَّا نغفل حقيقة مهمة، وهي أن الذَّمَّ الواقع على الدنيا إنما يقع عليها بحسب عمل الإنسان فيها، فإن أساء في علاقته بربه وفي علاقته بغيره وقع الذم على

١. تلبيس إبليس، ابن الجوزي، نقلا عن: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور، مرجع سابق، ص٥٢.

دنياه التي اختارها لنفسه بسوء فعاله، وليست الدنيا كما أرادها الله ﷻ وأحسن خَلْقَها، وجعل ما فيها دلائل على سمو حكمته وعظيم قدرته.

وقبل أن ننهي حديثنا عن القرآن الكريم باعتباره مصدرًا للزهد، نشير إلى أن الجانب الأخلاقي الذي عُني به القرآن الكريم عناية كبيرة حتى لا تكاد تخلو سورة من سوره من التنبيه عليه، هذا الجانب يمثل سمة أساسية في الزهد، كما هو سمة أساسية في التصوف[1].

وها هو ابن القيم يوضح هذا المعنى بقوله: "واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخُلُق"، وذلك هو ما قرره ابن خلدون في قوله: "علم التصوف من العلوم الشرعيَّة الحادثة في المِلَّة، وأصله عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريق الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله ﷻ والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يُقبِل عليه الجمهور من لَذَّة ومال وجاه، والانفراد عن الخَلْقِ في الخُلْوة للعبادة، وكان ذلك عامًّا في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة".

١. اتجه كثير من الصوفية إلى ملاحظة الجانب الأخلاقي في تعريف التصوف، ومن ذلك قول أحمد بن محمد الحريري: التصوف هو الدخول في كل خلق سَني، والخروج من كل خلق دَني. وقول الجُنَيْد: هو العلو إلى كل خلق شريف، والعدول عن كل خلق دنيء. وقول الكتاني: التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء.

وكما كان القرآن الكريم محرِّكًا ودافعًا إلى حياة الزهد بكل ما يتضمنه المعنى الاصطلاحي للزهد - جاءت سنة النبي ﷺ على الطريق نفسه داعية إلى الزهد، محذرة من الاغترار بالدنيا، ناهية عن الركون إليها والاستغراق في لذاتها، منبِّهة على إيثار الآخرة وحسن الاستعداد لها بما يورثه ذلك من ورع وتقوى وخشية ومراقبة وحذر من المُثُول[2] بين يدي الله تعالى[3].

ومن الأحاديث الكثيرة التي تدل على هذه المعاني قوله ﷺ: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر".[4] "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل".[5] "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شَرْبَة ماء"[6].

إلى أحاديث كثيرة جدًّا تضمنت الترغيب في الآخرة، والتحذير من فتنة الدنيا.

وقد تأكدت هذه الأقوال بالسلوك العملي للرسول ﷺ، الذي آثر حياة الزهد والبساطة في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والعيش بصفة عامة، وابتعد عن حياة الترف والسرف والنَّعِيم والتَّوسُّع في

٢. المُثُول: الوقوف.

٣. التصوف الإسلامي بين الاتباع والابتداع، د. السيد رزق الحجر، مرجع سابق، ص٣٦: ٤١، بتصرف.

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حدثنا قتيبة بن سعيد (٧٦٠٦).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب قول النبي ﷺ: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر" (٦٠٥٣).

٦. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الزهد، باب ما ذكر عن نبينا ﷺ (٣٤٣٢٤)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب هوان الدنيا على الله ﷻ (٢٣٢٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٨٦).

طيبات الدنيا، وفي كتب السنة أحاديث كثيرة تَصِفُ صبره على الجوع، ورضاه بالقليل، وإيثاره للتواضع في سائر أمره.

ولقد سار جمهور الصحابة على هذا الهَدْي الإلهي النبوي، فآثروا الزهد وارتضوا حياة الزُّهد والتواضع، لما سمعوا من تحذير النبي ﷺ لهم من فتنة الحياة الدنيا[1].

والآثار عن السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء المسلمين في فضل الصبر على الدنيا والزهد فيها، وفضل القَنَاعة والرضا بالكَفَاف[2]، والاقتصار على ما يكفي دون التكاثر الذي يلهي ويطغي أكثر من أن يحيط بها كتاب، أو يشتمل عليها باب، والذين حجب الله عنهم الدنيا من الصحابة أكثر من الذين فتحها عليهم أضعافًا مضاعفة[3].

وقد كان الأغنياء من الصحابة حريصين على التَّخلُّق بخُلُق الزهد، ويُعرف هذا بالرجوع إلى سيرتهم وأخبارهم، وقد كانت مبذولة في الخير والبر ومعاونة الفقراء، وتجهيز الجيوش، وقضاء مصالح المسلمين وسد حاجاتهم، وقد خلت حياتهم الخاصة من سرف الأغنياء وتبذير المترفين[4]. وقد اقتفى أثرهم كثير من التابعين من أمثال الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز وسفيان الثوري وغيرهم كثير.

ولما كانت هذه هي الجذور التي نبت منها الزهد في الإسلام وكان الزهد مرحلة ممهدة للتصوف السُّني الذي نعني بحديثنا أنه إسلامي النشأة، كانت الآراء التي تقول باقتباس أسس الحياة الروحية وروح التصوف وجوهره من الروافد الخارجة عنه والرافدة إليه - آراء متهافتة؛ " فإرجاع مثل هذا التصوف الإسلامي إلى أحد التأثيرات الوافدة أو إليها جميعًا - صدورًا ونشأة - دونه خَرْطُ القَتَاد[5]، وهو أمر لا يستسيغه العقل السليم، ولا تسمح به حقائق التاريخ"[6].

لأن الذي يتأمل الحياة الروحية عند هؤلاء الزُّهَّاد، يجد أنها انبثقت من الإسلام؛ لأنه يتضمن هذا الجانب، فقد اشتمل القرآن الكريم في آيات كثيرة على جوهر الحياة الروحية من مجاهدة النفس والتوبة والشكر والإخلاص والزهد والتوكل، والخوف والرجاء، والمحاسبة والمراقبة وما إلى ذلك من المعاني والقيم التي تشكل أسس الحياة الروحية، وكانت حياة الرسول ﷺ وسلوكه تطبيقًا لهذه المعاني.

وقد التزم الزهاد الأوائل في حياتهم وسلوكهم بالمنهج الإسلامي، وتمسكوا بالكتاب والسنة، قولًا وفعلًا، عملًا وسلوكًا، نظروا في آيات الكتاب، واقتدوا بالرسول ﷺ وتقربوا إلى الله بالعبادات،

1. نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، مرجع سابق، ص٥٤: ٥٨.
2. الكَفَاف: ما يَسُدُّ الحاجة.
3. جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق: أبو الأشبال الزهري، مكتبة التوعية الإسلامية، مصر، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ج١، ص٧٢٧.
4. نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور، مرجع سابق، ص٥٨، ٥٩.
5. دونه خَرْط القَتَاد: مثلٌ يُضرب للدلالة على استحالة الحدوث.
6. فصول في التصوف، د. حسن الشافعي، ص٦٤، نقلا عن: التصوف الإسلامي بين الاتباع والابتداع، د. السيد رزق الحجر، مرجع سابق، ص٣٧.

وتقشفوا خشية الحساب، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وشاركوا في الجهاد لنشر كلمة الله ﷻ والدفاع عن دينه.

لقد كانت حياتهم تطبيقًا للإسلام في عمومه وشموله، ولهذا فمن الصعوبة أن نجد فروقًا بين صفاتهم زهادًا أو وعاظًا، أو صفاتهم فقهاء ومحدثين؛ لأن هذه الدوائر تتداخل بحيث يتعذر إقامة الفواصل بينها، وتتصل بالدائرة الكبرى التي تحيط بها كلها، دائرة الإسلام الذي يمثل نظامًا كاملًا للحياة في شتى جوانبها.

وقد ذكر أحد الباحثين الجادين ـ بعد أن درس حياة كثير من الزهاد الأوائل ـ أن الزهد عندهم لا يعني التجرد من كل شيء، ولا يعني التقشف في المأكل والملبس، فقد يكون الإنسان زاهدًا ولديه كثير من المال؛ لأنه يملك المال ولكنه لا يملكه المال، وأشار إلى أن نظريات الزهد والتصوف المبكر ترتبط أساسًا بالفكر الديني أوثق ارتباط وتتخذ منه أسسه ومقوماته، كما أشار إلى أن طابع السلوك العملي يغلب على طابع المذهب النظري، ولكن البحث وراء هذا السلوك يكشف عن الأسس النظرية التي يلتحم بها، وهي لا تخرج في إطارها العام عن الكتاب والسنة.

ولكن على الرغم من أن حياة هؤلاء الزهاد قد تضمنت معالم الحياة الروحية عند الصوفية، فإنه كان يطلق عليهم اسم "القُرّاء"، يقول ابن تيمية: "وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم القُرّاء، فيدخل فيهم العلماء والنُّسَّاك، ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء". ومعنى هذا أنه لم يكن يطلق على أحد من المسلمين في عصر الرسول ﷺ والصحابة لقب "صوفي"، فالتصوف إذن اسم طارئ في الإسلام ناشئ في الملة حادث فيها.

وأغلب الظن أن هذا الاسم ظهر واستخدم في القرن الثاني الهجري، وذلك عندما استهان كثير من المسلمين بالدين، وحادوا عن منهج الصحابة في الزهد والورع والتقوى وأقبلوا على الدنيا، وانصرفوا عن الآخرة، ففزع لذلك طائفة من خواص المسلمين وتجردوا لعبادة الله، وزهدوا في الدنيا، وسلكوا مسلك القراء، والتزموا طريق الزهد، فغلب عليهم اسم الصوفية وعلى التجرد الذي اختاروه لأنفسهم اسم التصوف، يقول ابن خلدون بعد أن تحدث عن طريقة السلف وكبار الصحابة والتابعين في الزهد والعبادة والانقطاع إلى الله: "وكان ذلك عامًّا في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة، باسم الصوفية والمتصوفة" [1].

لقد انبثقت الحياة الروحية والمضمون الوجداني من الإسلام نفسه؛ لأنه يتضمن هذا الجانب بلا شك، وانطلق أرباب القلوب على السَّجِيَّة[2]، فمن النظر في آيات الكتاب، ومن الاقتداء بالرسول ﷺ عرفوا المحبة والخشية، وتقربوا إلى الله بالعبادات، وترنموا بالحديث عن الجنة ونعيمها، وأفاضوا الكلام عن النار وعذابها.

---

١. انظر: أصالة التفكير الفلسفي في الإسلام، د. عبد المقصود عبد الغني، مرجع سابق، ص١٨٧: ١٩٢.
٢. السَّجِيَّة: الطَّبع.

كما سيطرت عليهم العقائد الإيمانية، ووضعوا نُصْبَ[١] أعينهم ضرورة للهيمنة[٢] الإلهية التي تحكم سلوكهم، فالإكثار من العبادات للتقرب، والتقشف خشية الحساب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لإقامة المجتمع المسلم الصحيح، والجهاد لنشر كلمة الحق والعدل والدفاع عن ديار الإسلام وتأكيد سلطان الله ﷻ في الأرض [٣].

لقد كان هؤلاء الزهاد مرتبطين بالكتاب والسنة في كل ما يصدر عنهم، ومتابعين لسنة النبي ﷺ وصحابته، ولقد كان أعلام هذا التصوف ـ مع التحفظ على المصطلح ـ حريصين على توضيح أن تصوفهم ينتسب إلى الكتاب والسنة، وقد كرَّروا ذلك وردَّدوه كثيرًا، وألحوا عليه في مواطن عديدة؛ ليتقرر ذلك في نفوس أتباعهم، فها هو الجنيد يقول: "مذهبنا مقيد بأصول الكتاب والسنة". ويقول: "الطُرُق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سُنَّته ولَزِمَ طريقته".

وعندما سُئِلَ أحدهم عن البِدعة قال: التعدِّي على الأحكام، والتهاونُ بالسُّنَن واتباع الآراء والأهواء، وترك الاقتداء والاتباع.

وإذا وقع في قلب واحد منهم إلهام أو فكرة، فإنه لا يقبلها كما يقول أبو سليمان الداراني إلا بشاهدي عدل، هما الكتاب والسنة. ولو ذهبنا نستقصي أقوالهم حول هذه الفكرة لطال بنا القول، مما يدل على رسوخ هذه العقيدة لديهم[٤].

ويمكن أن يطلق على هذا النوع من التصوف التصوف السني، أو التصوف المنتسب إلى السنة، أي التصوف القائم على متابعة القرآن والسنة والاستمداد منهما والوقوف عند حدودهما، وضبط السلوك والخواطر والمعارف بميزانهما[٥].

إن هذا التصوف ـ مع عدم التقيد بالمصطلح ـ إذ لا مُشاحَّة [٦] في الاصطلاح ـ هو الذي نقصده والذي ندافع عنه، والذي نقصد أن نشأته نشأة إسلامية خالصة، بل هي من صميم الإسلام ومنابعه الأصلية.

ثم إنه ينبغي ونحن نتحدث عن التصوف ألا نخلط بين هذا التصوف وما انحدر إليه التصوف في العصور الأخيرة من تدهور وانحطاط، ومظاهر كان الصوفية الخُلَّص يتبرءون منها، ويتحسرون لوجودها بين المنتسبين إلى التصوف، وهذا أحدهم يقول: " كان التصوف حالًا فصار كارًا، وكان احتسابًا فصار اكتسابًا، وكان استتارًا فصار اشتهارًا، وكان اتباعًا للسلف فصار اتباعًا للخلف، وكان عمارة للصدور فصار عمارة للغرور، وكان تعففًا فصار تملُّقًا، وكان تجريدًا فصار ثريدًا" وقد أشاروا إلى ما انحدر إليه بعض شيوخ التصوف من الجهل بالشرع والوقوع في الرِّياء والتكسب بالتصوف والتظاهر أمام الناس

١. نَصْبَ: أمام.
٢. الهيمنة: السيطرة.
٣. ابن تيمية والتصوف، د. مصطفى حلمي، مرجع سابق، ص١٩٥.
٤. انظر هذه الأقوال جميعها في كتاب: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور، مرجع سابق، ص٩٣، ٩٤.
٥. المرجع السابق، ص٩٥.
٦. المُشاحَّة: المجادلة.

بالولاية دون تحقق لأسبابها، وربما لبس أحدهم جُبَّة وأطلق لحية وأرخى عَذَبة[1] ثم ساح في الأرض وتكلَّف السفر، وأظهر الصمت والجوع حتى يستقر في وجدان الناس أنه من الأولياء، وعند ذلك يتجرَّأ على أموالهم وأسرارهم، وربما يتجرَّأ على ما هو أكثر من ذلك، ومن هنا حرص الصوفية على البراءة من هؤلاء الأدعياء، ودعوا الناس إلى أن يَزِنُوا أقوالهم بمقاييس الشرع؛ حتى لا ينخدعوا بهم، أو يقعوا في براثنهم[2].

هذا فضلًا عن أن نخرج ما سمِّي - تجاوزًا - بـ "التَّصوُّف الفَلْسَفِيّ أو الأجنبي"، وهذا يختلف عن النوع الذي ذكرناه والذي تحدثنا عن معياره: التقيد بالكتاب والسنة، والذي اصطلحنا على تسميته بالتصوف السني أو المنتسب إلى السنة.

ولقد أثبتنا أن هذا التصوف عربي المولد إسلامي النشأة، فالكلمات: تصوف وصوفي ومتصوفة، تحمل كل سمات العُرُوبة في وزنها وفي فصاحتها، فلا شائبة من العُجمة في أي واحدة منها. ونشأة هذا النوع - كما رأينا - نشأة إسلامية، فكان يستمد أصوله من تعاليم الإسلام.

ولا نجد وجهًا لأولئك الذين يقولون أن هذا التصوف غريب على الإسلام، قد وفد إليه فيما وفد من مذاهب وفلسفات؛ هندية أو يونانية أو غيرها[3].

أما التصوف الفلسفي، فهو ذلك التصوف الذي تأثر رجاله بالأفكار الدخيلة والتعاليم الغريبة والمؤثرات الأجنبية، فانحرفوا بعيدًا عن مراد الكتاب والسنة، وهو التصوف المتطرف الذي مزج فيه أصحابه - من متفلسفة الصوفية - التصوف بالحكمة المشرقية القديمة، أي تراث الهند وفارس، وبالفلسفة اليونانية والأفلاطونية المحدثة، وبالعقائد المسيحية.

ومن أنصار التصوف الفلسفي المنحرف الحلَّاج المقتول سنة ٣٠٩هـ، صاحب مذهب الحلول الذي تأثَّر فيه بالقَرامطة،[4] وشهاب الدين السُّهْرَوَرْدِي المقتول ما بين سنة ٥٨٦: ٥٨٨هـ، صاحب مذهب الإشراق الذي تأثر فيه بالأفلاطونية المحدثة وبحكمة فارس والهند، وكذلك من أنصار التصوف الفلسفي ابن عربي (ت ٦٣٧هـ) وابن سبعين (ت ٦٦٩هـ) وغيرهم من أصحاب مذهب وحدة الوجود.

إن هذا التصوف الفلسفي وما أدخله من نظريات الحلول والاتحاد والإشراق ووحدة الوجود - يعتبر انحرافًا في التصوف الإسلامي، تطرق إليه من المذاهب والفلسفات المختلفة، ولعل أهم الدوافع التي دفعت هؤلاء الصوفية المتفلسفين إلى التطرف والمغالاة يرجع إلى الصراع العنيف الذي نشب بين الصوفية وخصومهم؛ ذلك أن جماعة من المشتغلين بالعلم قد أعرضوا عن عبادة الله ﷻ وسلوك سبيله، واقتصروا على العلم النظري، وأهملوا الجانب الروحي في الدين،

١. العَذَبة: تُطلق على العِمامة.

٢. نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور، مرجع سابق، ص١٣٢، ١٣٣ بتصرف.

٣. نشأة التصوف، عبد الكريم الخطيب، مرجع سابق، ص٣٩.

٤. القَرامِطة: فرقة إسماعيلية باطنية، أسَّسها قِرمِط أو قَرمَط حمدان (ت ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م)، وانتشر أتباعها في العراق وسوريا والبحرين واليمن.

وأنكروا التصوف بِرُمَّتِه[1] وتطرفوا في موقفهم.

فكان رد الفعل أن قابل فريق من الصوفية هذا التطرف والغلو بغلو مشابه له في الحدة، وهؤلاء هم غلاة التصوف الذين وجدوا في التيارات والمذاهب الدخيلة ما يدعم موقفهم، فأقبلوا عليها يستمدون منها النظريات الغريبة، وصرحوا بعبارات خطيرة لا يقرها الإسلام بل إنه ينكرها، وزعم بعضهم أنه يحصل لهم بطريقهم العملي أعظم مما في الكتب، فمنهم من ظن أنه يلقن القرآن بلا تلقين، ويحكون أن شخصًا حصل له ذلك، وهذا كذب كما يقول ابن تيمية، نعم قد يكون سمع آيات الله فلما صفت نفسه تذكرها فتلاها، فإن الرِّياضة تصقل النفس فيذكر أشياء كان قد نسيها".

وعلى أية حال فإن أنصار التصوف السني ظلوا ملتزمين بمنهجهم ومتمسكين بمبادئ الكتاب والسنة، بل إنهم تصدوا للتصوف الفلسفي، وكشفوا عما في نظرياته من أخطار تنطوي على الإلحاد والشرك والزندقة، ولم ينساقوا وراء مصادره الأجنبية"[2].

إن هذا التصوف الذي يمكن تسميته ـ تسامحًا ـ التصوف الأجنبي أو الفلسفي قد تناول أفكارًا وموضوعات مستقاة من خارج البيئة الإسلامية، مثل التصوف الهندي أو المسيحي أو تصوف الأفلاطونية المحدثة.

وقد وجد هذا النوع لدى المسلمين لأسباب متعددة، يمكن إجمالها في إتاحة الاتصال والتعرف على أنواع التصوف الأجنبية، وكان يرجع أحيانًا إلى الترجمة عن الثقافات الأخرى، وكانت سببًا في معرفة المسلمين بتراث غيرهم من الأمم، كما كان يرجع في بعض الأحيان إلى اتصال المسلمين بعد الفتوح الإسلامية بكثير من الشعوب التي كان لها قدم راسخة في التصوف كالهند وفارس، وربما يرجع إلى الاتصال برهبان النصارى أو أحبار اليهود خاصة من عرفوا منهم بتأويل النصوص الدينية كالقبَّالا[3] وأمثالهم، وأثمر الاتصال بهذه المصادر الأجنبية ثمرته، فوجدنا من بين المسلمين ممن ينتسبون إلى التصوف من يتحدثون عن الفناء أو الاتحاد والحلول أو وحدة الوجود أو إسقاط العبادة عن أهل الولاية ونحو ذلك من الموضوعات[4].

ومن نافلة القول التنبيه على أن الإسلام لا يُقِرُّ مذهبًا يقول بحلول الله في جسد الإنسان، أو فناء الذات الإنسانية في الذات الإلهية، كما لا يقر القول بوحدة الوجود أو أن الله ﷻ مجموع هذه الموجودات، لكن الإسلام يقول باثنينية الوجود، أي الله والعالم، فالله خالق والعالم مخلوق، والله مدبر وبيده الخير والشر، يثيب الناس ويعاقبهم بما يعملون. كما لا يقر الإسلام القول بإسقاط التكليف ورفع فريضة أداء العبادات عن العبد بدعوى أنه وصل إلى معرفة

---

١. بِرُمَّتِه: بكامله.

٢. أصالة التفكير الفلسفي في الإسلام، د. عبد المقصود عبد الغني، مرجع سابق، ص١٩٣، ١٩٤.

٣. القَبَّالا: مذهب يهودي، لازمهم في كل مكان عاشوا فيه، محاولًا الزحف على كل العقائد والسيطرة على كل المجتمعات بدعوى أن بيده الخَلاص.

٤. نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، مرجع سابق، ص٩٥، ٩٦ بتصرف.

الله ومن ثم تسقط عنه التكاليف، وهذا القول لم يعرفه المسلمون أيام النبي ﷺ وأصحابه وهم قمة في كل عصر[1].

وبناء على ما سبق فإنه لا يجوز ـ بحال ـ أن ننسب هذا التصوف إلى الإسلام، بل إنه متأثر بالروافد الغربية الأجنبية عنه، وهذا لا يُنْكِر تأثر المسلمين فيه بالثقافات الأجنبية، ولكن المستشرقين قد خلطوا فادَّعوا تأثر الحياة الروحية في الإسلام وقيم وسلوك الطريق إلى الله والتي تستند إلى الكتاب والسنة ـ ادعوا تأثرها واقتباسها من الثقافات الأخرى مع أنها إسلامية خالصة.

وننتهي من كل هذا إلى القول بأن خضوع معظم دراسات المستشرقين لمنهج التأثير والتأثر جنح بهم إلى البحث عن العوامل الخارجية في كل ما يتعلق بالإسلام، فلم يسلم منهم أيضًا أصوله التي يعبر عنها الكتاب والسنة.

وبالمثل، فعندما قاموا ببحث التصوف، التمسوه في كافة العناصر، فحجب هذا المنهج دراسة الحياة الروحية في البيئة الإسلامية نفسها، ومن واقع النتاج الفكري للمسلمين، كما أخطئوا في تصورهم أن أسس الحياة الروحية عندهم كانت بسيطة ساذجة استنادًا إلى نظرية التطور عند دارون، والحق أن الصواب غير هذا وعكسه، لأن المضمون الروحي للإسلام قد تحقق كاملًا وبمعناه الإسلامي الخالص[2].

وجدير بالذكر ـ بعد استعراض ما مضى ـ أن ننبِّه على ذلك الضابط المهم من ضوابط منهج التأثير والتأثر، ألا وهو أنه لا ينبغي القول بالتأثر بالعوامل الأجنبية طالما كان من الممكن تفسير ظهور ما يمكن تسميته بالتصوف السني بالعوامل القريبة المتيسرة في البيئة الإسلامية، ويتفق هذا المعيار مع طبائع الأمور، حيث لا يلجأ المرء المتزن السوي إلى الاستدانة من غيره إلا إذا عجز عن تدبير شئونه بما لديه من الإمكانيات، ويترتب على تطبيق هذا المعيار أن نبحث عن عوامل التأثير ومصادره في البيئة القريبة ـ وهي البيئة الإسلامية ـ أولًا، فإذا لم نجد تفسيرًا لهذا الرأي أو ذاك في تلك المصادر القريبة، فإن من حقنا ـ عندئذ ـ أن نبحث عما يمكن أن يكون مصدرًا لهذا الرأي هنا أو هناك[3].

وعليه، فإننا قد أثبتنا ـ فيما مضى من سطور ـ نبوع الحياة الروحية في الإسلام وقيم الزهد في الإسلام نفسه من قرآن وسنة، وتحقق هذه المعاني تحققًا كاملًا في حياة الرسول والصحابة ومن تبعهم ممن تقيَّد بالكتاب والسنة، ودللنا على ذلك بالنصوص الظاهرة البيِّنة الواضحة وبالتاريخ الذي قرر هذا الواقع، وليس أصدق من التاريخ حين يقرر الواقع، وعليه فلا وجه للقول بالتأثر بالعناصر الأجنبية، وإنما هي نشأة وصدور إسلامي خالص. كما أن القائلين بتأثير الروافد الأجنبية حججهم داحضة وأدلتهم واهية، وبيان هذا فيما يأتي.

---

١. التصوف والتفلسف: الوسائل والغايات، د. صابر طعيمة، مرجع سابق، ص٩٧.

٢. ابن تيمية والتصوف، د. مصطفى حلمي، مرجع سابق، ص٨٢، ٨٣ بتصرف يسير.

٣. نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، مرجع سابق، ص١٠٤.

ثالثًا. هل تأثرت الحياة الروحية في الإسلام بعناصر أجنبية خارجة عنه؟

لقد عُني كثير من المستشرقين بالتصوف، لكنهم ركزوا في دراساتهم له على إبراز ما أسموه بالعناصر الأجنبية في نشأة التصوف السني الإسلامي، فاهتم بعضهم بإرجاع هذه الحياة الروحية إلى مصادر يونانية، وركز بعضهم على إبراز التأثير الهندي، واهتم بعضهم بالتأثير الفارسي، وجميعهم قرروا تأثر التصوف الإسلامي بالمسيحية.

وهذا الاتجاه يشكل جانبًا من ذلك الاتجاه العام الذي يرمي - كما ذكرنا - إلى إظهار الفكر الإسلامي مجردًا عن أية سمة من سمات الأصالة [1].

وقد ذهب عدد من المستشرقين إلى أن أصل التصوف الإسلامي فارسي، ويعتمد أصحاب هذا الرأي على عدد من الأمور التي لا ترقى إلى مرتبة الدليل القطعي ومنها:

١. ما كان بين العرب والفرس من صلات دينية وثقافية واجتماعية على مر العصور.

٢. أن عددًا كبيرًا من رجال الصوفية كما يقرر ذلك "راسل" و "نيكولسون" و"ثولك" كانوا من الفرس.

٣. أن هناك تشابهًا بين بعض الأفكار في كل من التصوف الإسلامي والفكر الفارسي كالزهد في الجانبين، وكذلك فكرة الخلق بالكلمة الإلهية عند الفارسيين وبواسطة الحقيقة المحمدية عند الصوفية المسلمين، وكاعتراف بعض الصوفية مثل النيسابوري بأن اختلاف الكائنات راجع إلى النور والظلمة، وكالقول بأن العالم ظلال والوجود الحقيقي لله، وهو قول صوفي سبق به الفرس.

أن عددًا كبيرًا من الفرس قد ظلوا على دينهم بعد الفتح الإسلامي، وقد قام هؤلاء - فيما يرى دوزي - بنشر أفكارهم بين المسلمين، حتى من أسلم منهم قد عمد - في زعمه - إلى التصوف باعتباره ردَّ فعل للعقلية الآرية ضد الدين الجديد، إذ قام كل منهم بنشر دينه وأفكاره القديمة من خلال الصوفية كجزء من خطة فارسية قصدت إلى تخريب الفكر الإسلامي، وانتقامًا من الدولة الإسلامية على ما قامت به من إسقاط الدولة الفارسية [2].

ولقد فند هذه الاستدلالات كثير من الباحثين في التصوف الإسلامي، بل ومن المستشرقين أنفسهم. ونوجز الرد فيما يأتي:

محاولة إرجاع التصوف الإسلامي إلى أصول فارسية بالاعتماد على الصِّلات الدينية والثقافية وغيرها بين العرب والفرس - محاولة فاشلة؛ لأن ما استندوا إليه يعني أن التأثير قد تمَّ في اتجاه واحد من الفرس إلى العرب فقط، وهذا مخالف لطبيعة الأفكار والثقافات التي تأخذ وتعطي، بل إن التأثير الأقوى يكون دائمًا - كما يقرر ذلك علماء الحضارات - للحضارة الأقوى، وهي آنذاك الحضارة العربية الإسلامية، فالمعقول أن يكون تأثير العرب - وهم حاملو لواء هذه الحضارة -

---

١. التصوف الإسلامي بين الاتباع والابتداع، د. السيد رزق الحجر، مرجع سابق، ص٣٣.

٢. مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة، د. عبد الله الشاذلي، ص٢٤٣، نقلا عن: التصوف الإسلامي بين الاتباع والابتداع، د. السيد رزق الحجر، مرجع سابق، ص١٩، ٢٠.

على الفرس أقوى وأغلب [١]، ويكفي للدلالة على تأثر الفرس بالعرب أن الفرس تأثروا باللغة العربية وعلومها وثقافتها وحضارتها [٢].

وفضلًا عن ذلك؛ فإن النماذج التي استشهد بها القائلون بالتأثير الفارسي متأخرة كثيرًا عن نشأة التصوف، ولذا كان من غير المعقول القول بأنها مثلت مصدرًا، ولا يعني ذلك أننا نرفض القول بأي تأثير للأفكار والمعتقدات الفارسية القديمة، لأننا نعلم أن بعض التأثير قد حدث بالفعل، لكن في مرحلة متأخرة، وقد أثر في التصوف الفلسفي وهو لا يعنينا هنا [٣].

أما القول بأن كثيرين من الصوفية المسلمين كانوا من الفرس، فهو لا يدل على صحة القول بالأصل الفارسي للتصوف الإسلامي؛ لأننا نعلم في المقابل أن عدد الزهاد والصوفية من غير الفرس كان أكبر كثيرًا منهم [٤].

أما الاعتماد على التشابه في بعض الأفكار، فإنه لا يصلح دليلًا على القول بالتأثير الفارسي؛ لأن هذا التشابه قد يرجع ـ أحيانًا ـ إلى تشابه السلوك الإنساني إزاء موقف من المواقف أو مشكلة من المشكلات، ومثل هذا التشابه العفوي [٥] ليس له قيمة في الحكم بالتأثير والتأثر [٦].

أما رأي دوزي القائل بوجود أفكار مثل صدور كل شيء عن الله، والقول بأن العالم لا وجود له في ذاته، وأن الموجود الحقيقي هو الله عند الفرس، ويحتمل أن تكون هي مصدر التصوف في الإسلام، فَيُرَدُّ عليه بأن مثل هذه الأفكار لا توجد إلا عند أصحاب وحدة الوجود الذين ظهروا في وقت متأخر [٧].

وقد أسلفنا أن ليس للإسلام صلة بمثل هذه الأفكار، ولم يَقُل بها أصحاب التصوف المقيد بالكتاب والسنة، بل ـ كما ذكرنا ـ واجهوا هذه الأفكار ونقدوها وعارضوها.

وأخيرًا، فإن حديث دوزي ومن وافقه عن خطة فارسية لتخريب الفكر الديني الإسلامي انتقامًا من الدولة الإسلامية على إسقاطها للدولة الفارسية ـ هذه الفكرة إن صحَّت فإن تأثيرها يأتي بعد مرحلة الزهد الإسلامي الخالص [٨].

هذا وقد ذهب مستشرقون كثيرون إلى تلمس مصدر للتصوف الإسلامي في الديانات الهندية: الهندوسية والبوذية؛ ويعتمد هؤلاء في تأييد وجهة نظرهم على ما يلاحظ من تشابهات بين بعض مظاهر

---

١. التصوف بين الاتباع والابتداع، د. السيد رزق الحجر، مرجع سابق، ص٢٠.

٢. نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، مرجع سابق، ص١٠٢.

٣. التصوف الإسلامي بين الاتباع والابتداع، د. السيد رزق الحجر، مرجع سابق، ص٢١.

٤. المرجع السابق، ص٢١.

٥. العَفْوي: التِّلقائي.

٦. التصوف الثورة الروحية في الإسلام، د. أبو العلا عفيفي، ص٥٦، ٥٧، نقلا عن: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، مرجع سابق، ص١٠٥.

٧. مدخل إلى التصوف الإسلامي، د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٢٧.

٨. انظر: الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، د. محمد عبد الله الشرقاوي، نسخة خاصة بدار العلوم، جامعة القاهرة، ص٣١.

التصوف النظرية والعملية في الإسلام وفي ديانات الهند، مثل طرائق الزهد، والعبادة والتفكر، والذكر، والمعرفة، والفناء ووحدة الوجود[1].

وقد ذكر بعضهم حججه في تأييد الأصل الهندي للتصوف الإسلامي، وهي ما يأتي:

١. أن معظم الصوفية من أصل غير عربي مثل إبراهيم بن أدهم، وشقيق البلخي ويحيى بن معاذ الرازي.

٢. أن التصوف ظهر أولًا وانتشر في خراسان.

٣. أن تركستان كانت قبل الإسلام مركز تلاقي الديانات والثقافات الشرقية والغربية، فلما دخل أهلها في الإسلام صبغوه بصبغتهم الصوفية القديمة.

٤. أن المسلمين أنفسهم يعترفون بوجود ذلك الأثر الهندي[2].

٥. أن الزهد الإسلامي الأول هندي في نزعته وأساليبه، فالرضا فكرة هندية الأصل، واستعمال الزهاد للمِخلاة والسبح عادتان هنديتان[3].

ويُرَدُّ على أصحاب نظرية المصدر الهندي بما سبق أن قاله نيكولسون نفسه، وهو أن التشابه بين مذهب (أ) ومذهب (ب) لا يعني بالضرورة أخذ أحدهما عن الآخر، فالوصول إلى نتيجتين متشابهتين قد يأتي نتيجة لتطبيق منهج واحد، أو الخضوع لظروف نفسية واحدة.

ومما هو جدير بالذكر أنه لم يُعْثَر على نصوص صريحة تدل على معرفة صوفية المسلمين بعقائد اليهود ورياضتهم إلا عند الصوفي المتفلسف ابن سبعين (ت: ٦٦٩هـ) وهذا يعني أن الأثر الهندي لم يظهر عند الصوفية المتفلسفة إلا في القرن السابع الهجري، وذلك بعد أن استقرت دعائم التصوف السني المقيد بالكتاب والسنة فضلًا عن أن هذا التصوف الفلسفي المتأثر ليس هو المُعْنَى به في حديثنا[4].

وأما القول بأن معظم الصوفية من غير العرب، فهذا غير صحيح؛ وإلا فكيف نفسر الحقيقة التي لا سبيل إلى الطعن فيها من أن كثيرًا من رواد التصوف الإسلامي من أهل سوريا ومصر وأنهم عرب الجنس[5].

ومما يؤكد تهافت القول بالأصل الهندي أن العلاقات المباشرة التي كانت بين الهند وبلاد الإسلام في الحقبة من ١٠٠هـ إلى ١٨٠هـ في البصرة اقتصرت على تبادل المعارف العلمية؛ مثل الزِّيجات الفلكية التي ترجمها الفزاري في سنة ١٥٤هـ، والمعارف الرياضية،

١. المرجع السابق، ص٣١.

٢. الإشارة هنا إلى ما كتبه أبو الريحان البيروني في كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة في العقل مقبولة أو مرذولة"، وقد وازن فيه بين عقائد الهنود وحكمتهم وبين أنظار اليونان ومذاهبهم الفلسفية من ناحية، وبين أذواق الصوفية المسلمين وأقوالهم وطرقهم في الرياضة من ناحية أخرى. (انظر المرجع السابق، ص٣٨).

٣. في التصوف الإسلامي وتاريخه، نيكولسون، ترجمة: د. أبو العلا عفيفي، نقلا عن: الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، د. محمد عبد الله الشرقاوي، مرجع سابق، ص٣٧.

٤. انظر: مدخل إلى التصوف الإسلامي، د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مرجع سابق، ص٣٢.

٥. انظر: الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، د. محمد عبد الله الشرقاوي، مرجع سابق، ص٤٥.

خصوصًا الأعداد وحساب الجيب في حساب المثلثات وبعض المعارف الطبية. ولكن الأمر لم يتجاوز هذا إلى المعلومات الدينية [١].

ويمكننا القول: إن ملاحظات المستشرقين عن المصدر الهندي ليس فيها ما يقوم دليلًا قاطعًا على أن نشأة التصوف الإسلامي فضلًا عن نشأة الزهد ترجع إحداهما أوكلتاهما إلى المصدر الهندي، ولكي نثبت أن مصدر الحياة الروحية في الإسلام هندي: برهمي أو بوذي فنحن مضطرون إلى أن نثبت أولًا وجود مسارب انتقلت خلالها هذه الأفكار وشاعت وعرفت بحيث أصبحت مؤثرة[٢].

وتلك - لعمري - مسألة يَعُوذها[٣] الدليل المادي الذي لا شبهة فيه ولا غبار عليه، وأكبر الظن أن المسلمين لم يعرفوا العقائد الفلسفية والعلوم الهندية معرفة دقيقة واضحة مفصَّلة قبل أن يؤلف البيروني كتابه القيِّم "تحقيق ما للهند من مقولة في العقل مقبولة أو مرذولة"..

ونحن نعلم أن البيروني انتهى من وضع كتابه هذا في الربع الأول من القرن الخامس الهجري، أي في وقت متأخر عن الوقت الذي ظهر فيه زهد النبي ﷺ والصحابة، وظهور الزهاد الأوائل من المسلمين، ومن كان على التصوف السني المتقيد بالكتاب والسنة [٤].

وأما أن البيروني قد ذكر هذا التأثير، فإن الصحيح أن البيروني قد وقف عند إبراز التشابه بين التصوف الإسلامي من ناحية والبرهمية والبوذية من ناحية أخرى، أما فكرة التأثير والتأثر فلا نحسبها واردة على ذهنه آنذاك[٥] لكن يبدو أن المستشرقين قد تلقفوا مقارناته هذه، وأسَّسُوا عليها نظريتَهم عن المصدر الهندي وأثره في نشأة التصوف الإسلامي[٦].

بقي بعد ذلك أن نناقش القائلين بالأصل اليوناني والأصل المسيحي واليهودي.

أما القائلون بالمصدر اليوناني فهم كثيرون، إلا أنهم يعنون بالتصوف الآخذ من مصدر يوناني نوعًا خاصًّا، وهو التصوف الفلسفي، الذي بدأ في الظهور في القرن الثالث الهجري على يد ذي النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥هـ [٧].

وكما قررنا سابقًا فإننا لا ندافع عن هذا التصوف الفلسفي وهذه الأفكار التي لَقِيَت معارضة من

١. الفهرست، ابن النديم، ص٢٤٦، نقلا عن: تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني الهجري، د. عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص٣٨.

٢. فصول في التصوف، د. حسن الشافعي، ص٥٩، نقلا عن: الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، د. محمد عبد الله الشرقاوي، مرجع سابق، ص٤٧.

٣. يَعُوذها: ينقُصُها.

٤. انظر: الحياة الروحية في الإسلام، د. مصطفى حلمي، ص٤٧، نقلًا عن: الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، د. محمد عبد الله الشرقاوي، مرجع سابق، ص٤٧، ٤٨.

٥. فصول في التصوف، د. حسن الشافعي، ص٥٩، نقلا عن: الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، د. محمد الشرقاوي، مرجع سابق، ص٤١.

٦. الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، د. محمد الشرقاوي، مرجع سابق، ص٤١.

٧. مدخل إلى التصوف الإسلامي، د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مرجع سابق، ص٣٢.

أصحاب التصوف السني ـ المقيد بالكتاب والسنة ـ أنفسهم، ونحن لا ننكر الأثر اليوناني على التصوف الفلسفي وأثره في ظهور مثل هذه الأفكار التي تخالف الشرع، فلقد وصلت الفلسفة اليونانية عامة، والأفلاطونية المحدثة خاصة، إلى صوفية الإسلام عن طريق الترجمة والنقل، أو الاختلاط مع رهبان النصارى في الرها وحران، وقد خضع المسلمون لسلطان أرسطو، وإن كانوا قد عرفوا فلسفة أرسطو على أنها فلسفة إشراقية؛ لأن عبد المسيح بن ناعمة الحمصي حينما ترجم الكتاب المعروف بـ "أتولوجيا أرسطو طاليس" قدَّمه إلى المسلمين على أنه لأرسطو على حين أنه مقتطفات من تاسوعات أفلوطين.

وليس من شك في أن فلسفة أفلوطين السكندري التي تعتبر أن المعرفة مدركة بالمشاهدة في حال الغيبة عن النفس وعن العالم المحسوس، كان لها أثرها في كلام متفلسفي الصوفية عن المعرفة، وكذلك كان لنظرية أفلوطين السكندري في الفيض وترتب الموجودات عن الواحد أو الأول أثرها في كلام متفلسفي الصوفية من أصحاب الوحدة مثل السُّهْرَوَرْدِي المقتول، ومحيي الدين بن عربي وابن الفارض وابن سبعين ومن نحا نحوهم [1].

هذا وإن كنا قد اعترفنا بالتأثير اليوناني على هذه الأفكار الفلسفية الصوفية والتصوف الفلسفي، فإنه من المستحيل أن نسلِّم بالتأثير اليوناني على الحياة الروحية والتصوف المستند إلى الكتاب والسنة، فدون هذا ـ كما قلنا ـ خرط القتاد، وهو أمر لا يستسيغه العقل السليم ولا تسمح به حقائق التاريخ، ولقد رأينا كيف كان الزهاد الأوائل وأصحاب التصوف السني حريصين على تأكيد المرجعية الإسلامية، والتقيد بالكتاب والسنة، فأين هذا في الفلسفة اليونانية أو الأفلاطونية المحدثة؟!

أما عن التأثير المسيحي واليهودي، فإنه على الرغم من وضوح تلك النشأة الإسلامية الخالصة للحياة الروحية في الإسلام، وتوفر الأدلة من الكتاب والسنة وحياة النبي ﷺ وصحابته الكرام على تأكيد إسلامية هذا التصوف السني نشأة وصدورًا، وباعتراف رواد أصحابه، على الرغم من ذلك كله إلا أن بعض المستشرقين يفسر نشأة هذه الحياة بالتأثر باليهود والمسيحيين، فهذا جولد تسيهر يفسر وجود ظاهرة الزهد في أواخر عهد الصحابة بقوله: إن الزهد كان رد فعل مضادًّا للترف، وكان مرتبطًا بالثورة على السلطة القائمة آنذاك، ثم كان ـ فيما يقول ـ راجعًا إلى الإعجاب برهبان المسيحية ونسكهم، وبما فيه من تطبيق عملي لفكرة الزهد، وكان الاختلاط بهم سبيلًا إلى التأثر بهم وبأفكارهم، فالتجارب التي تيسر لتلك النفوس المتعطشة للزهد اكتسابها بمخالطتهم المسيحيين قد أصبحت ـ دون ريب ـ مدرسة الزهد في الإسلام. ثم أكمل هؤلاء مذهبهم بما انتحلوه [2] من شواهد وعبارات من العهد الجديد [3].

ويجري نيكولسون على المنوال نفسه فيذكر مثل

١. المرجع السابق، ص٣٣، ٣٤.

٢. انتحل الشيء: ادَّعاه لنفسه وهو لغيره.

٣. العقيدة والشريعة في الإسلام، جولد تسيهر، ص١٣٠: ١٣٦، نقلًا عن: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور، مرجع سابق، ص٦١.

جولد تسيهر أن الزهد لم يكن من الخصائص التي امتاز بها الإسلام ولا نبي الإسلام؛ لأن الإسلام قد هيمنت عليه ـ بعد الانتقال إلى المدينة ـ فكرة امتلاك العالم والسيطرة عليه. وكان مما استدل به أن النبي ﷺ قد أخذ بنصيب من جميع اللذات التي كانت في متناول يده!! وأنه لم يحرم على أتباعه التمتع بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وأن مادة الزهد لم تُذْكَر في القرآن إلا مرة واحدة في سورة يوسف عليه السلام، في قوله ﷻ: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (يوسف)، وليس لها هنا أي معنى صوفي، ثم إن القرآن قد ذم الرهبانية، وصرح بأنها بدعة ابتدعتها المسيحية.... وعلينا ـ إذن ـ ألا ننسى في هذا المقام أثر المسيحية في الزهد الإسلامي في هذا العصر المبكر، لا سيما وأنه توجد أدلة قاطعة ـ في رأيه ـ على أن مذاهب هؤلاء الزهاد كانت ـ إلى حد كبير ـ مستندة إلى تعاليم وتقاليد يهودية ومسيحية [1].

ويضيق المقام ـ هنا ـ عن مناقشة هذه الادعاءات الرامية إلى إثبات أن الزهد لم يكن من خصائص الإسلام ولا نبيه الكريم، وأن ما ظهر منه لدى المسلمين إنما كان ـ في المقام الأول ـ بتأثير اليهودية والنصرانية، ولكننا مع ذلك، نشير ـ في إيجاز شديد ـ إلى ما تضمنته هذه الادعاءات من مبالغات شديدة تصل إلى حد المغالطة في أحيان كثيرة، فلقد تحدث القرآن الكريم في آيات مكية كثيرة عن الزهد، وكان ذلك قبل لقاء الرسول ﷺ والمسلمين باليهود في المدينة، كما تحدث القرآن عنه كثيرًا في آياته المدنية أيضًا، ومعنى ذلك أنه يمثل عنصرًا أساسيًّا من نظرة الإسلام إلى الدنيا، وكذلك تحدثت عنه الأحاديث النبوية الكثيرة الموثقة بأعلى درجات التوثيق التي توفرت لأحاديث رسول الله ﷺ، والتي لا تكاد نجد لها نظيرًا فيما سواها من النصوص الأخرى لدى غير المسلمين، مما يجعل التشكيك فيها ـ كما يحاول جولد تسيهر ـ نوعًا من الادعاء الذي يفتقر إلى الإنصاف والموضوعية.

ثم إن علاقة الرسول ﷺ وصحابته باليهود في المدينة لم تكن علاقة ملائمة للتأثر بهم، فلقد دخلت ـ بعد مدة يسيرة من وجود المسلمين بالمدينة ـ في أطوار من الصراع والحروب، التي انتهت ـ فيما بعد ـ إلى إجلائهم تمامًا من شبه الجزيرة العربية، وكان ذلك بسبب نقض اليهود عهودهم مع الرسول ﷺ وتحالفهم مع أعدائه من المشركين، ومحاولاتهم المتكررة لقتله، ولم تكن هذه العلاقات المتوترة لتسمح بمثل هذا التأثير المزعوم.

ولم يكن اهتمام اليهود بالجوانب الروحية والزهد قويًّا، إلى الحد الذي يجعلهم موضع الاقتداء والأسوة لدى الأوائل من المسلمين، وقد كان هؤلاء الذين يقال إنهم أثَّروا في المسلمين ـ ولا يزالون ـ من أكثر الأمم عناية بجمع الأموال وامتلاكها، واستخدامها لبسط نفوذهم، وتحقيق مآربهم [2]، وتذكر التوراة أن بني إسرائيل قد أخذوا ذهبًا وفضة من المصريين قبل خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام فرارًا من فرعون، ثم حوَّلوا هذا الذهب إلى عجل عبدوه فيما بعد، ونصُّ

---

١. في التصوف الإسلامي وتاريخه، نيكولسون، ص٤٣: ٤٧، نقلًا عن: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، مرجع سابق، ص٦١.

٢. المآرب: جمع مَأرب، وهو الغرض

ذلك: "فحمل الشعب عَجِيْنَهم قبل أن يختمر، ومعاجنهم مصرورة[1] في ثيابهم على أكتافهم. وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابًا. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم، فسلبوا المصريين". (الخروج ١٢: ٣٤ـ٣٦).

وقد كان الانشغال بالمال من أول ما عابه عليهم السيد المسيح ﷺ، حين دخل إلى القدس، وقد أخرج من المعبد هؤلاء الذين حولوه إلى سوق للبيع والشراء، وجعلوه ـ بحسب التعبير المنسوب إلى السيد المسيح في الإنجيل ـ مغارة لصوص، وقد وصف علماءهم بالرياء، والانشغال الشديد بالمال، وتقديس الذهب، وأكل حقوق الضعفاء والأرامل، كما وصفهم بأنهم حيات وأفاع، وأنهم قتلة الأنبياء.

فجاء في إنجيل متى: "لكن ويل لكم أيها الكَتَبَة والفريسيون المراءون[2]! لأنكم تُغْلِقون ملكوت السماوات قُدَّام الناس، فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون! لأنكم تأكلون بيوت الأرامل، ولِعِلَّة تُطِيْلُون صلواتكم؛ لذلك تأخذون دينونة أعظم. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون! لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلًا واحدًا، ومتى حصل تصنعونه ابنًا لجهنم أكثر منكم مضاعفًا. ويل لكم أيها القادة العميان! القائلون: من حلف بالهيكل فليس بشيء، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم. أيها الجهال والعميان! أيما أعظم: ألذهب أم الهيكل الذي يُقدِّس الذهب؟ ومن حلف بالمذبح فليس بشيء، ولكن من حلف بالقربان الذي عليه يلتزم. أيها الجهال والعميان! أيما أعظم: ألقربان أم المذبح الذي يقدس القربان؟ فإن من حَلَف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما عليه! ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه، ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله وبالجالس عليه. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون! لأنكم تُعَشِّرون النَّعنَع[3] والشِّبِثَّ[4] والكمون، وتركتم أثقل الناموس: الحق والرحمة والإيمان. كان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك. أيها القادة العميان! الذين يُصَفُّون عن البعوضة ويبلعون الجمل. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون! لأنكم تُنَقُّون خارج الكأس والصَّحْفَة[5]، وهما من داخل مملوآن اختطافا ودعارة. أيها الفريسي الأعمى! نَقِّ أولًا داخل الكأس والصحفة؛ لكي يكون خارجهما أيضًا نقيًّا. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون! لأنكم تُشْبِهون قبورًا مُبَيَّضة تظهر من خارج جميلة، وهي من داخل مملوءة عِظام أموات وكل نجاسة. هكذا أنتم أيضًا، من خارج تظهرون للناس أبرارًا، ولكنكم من داخل مشحونون رياءً وإثمًا. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون! لأنكم تَبْنُون قبور الأنبياء وتُزَيِّنون مدافن الصديقين، وتقولون: لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء. فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قَتَلَة

١. المصرورة: الموضوعة في الصُّرَّة.
٢. المراءون: المتكبرون.
٣. النَّعنع: النَّعناع.
٤. الشِّبث: اسم نبات.
٥. الصَّحفة: إناء من آنية الطَّعام.

الأنبياء". (إنجيل متى ٢٣: ١٣ ـ ٣١).

وينبغي ألا يغيب عن البال أن اليهود ـ الذين عاشوا في بلاد الإسلام، مستظلين بحضارة الإسلام وثقافته ـ هم الذين تأثروا بالمسلمين في كثير من جوانب حياتهم وثقافتهم، فقد كانوا يستخدمون اللغة العربية في حديثهم ونثرهم المكتوب، ووضعوا نحوهم العبري في كتب باللغة العربية [1]، وتكاد تنحصر العلوم الطبيعية والفلسفة عندهم في بلاد الإسلام، وقد أفادوا إلى حدٍّ ما من علوم المسلمين الطبيعية[2]، أما الفلسفة اليونانية فقد أخذوا معلوماتهم عنها من التراجم العربية، ومن شروح المسلمين، وقد كتبوا بالعربية لليهود والمسلمين على السواء[3]، وكتب موسى بن ميمون (١٢٠٤هـ) عشرة كتب في الطب باللغة العربية[4]، وينطبق ذلك التأثر على مجالات ثقافية أخرى كعلم الكلام الذي تأثر بعلم الكلام الذي ظهر عند المسلمين[5].

١. قصة الحضارة، ول ديورانت، ج٤، ص٩٦. نقلا عن: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور،مرجع سابق، ص٦٣.

٢. المرجع السابق، ١٤/ ١١٠. نقلا عن: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، مرجع سابق، ص٦٣.

٣. المرجع السابق، ١٤/ ١١٥. نقلا عن: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، مرجع سابق، ص٦٣.

٤. المرجع السابق، ١٤/ ١٢١. نقلا عن: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، مرجع سابق، ص٦٣.

٥. انظر مثلا: الأثر الإسلامي في الفكر اليهودي، د. عبد الرازق قنديل، لا سيما الصفحات ٤١٧: ٤٥١ والمقدمة.

André Chouraqui, lapens'ee juive P.U.F Paris ١٩٧٥.p٦٧ et suit.

نقلًا عن: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور،مرجع سابق، ص٦٤.

أما التصوف عندهم، فقد سيطر عليه التأويل منذ بداياته القديمة، وقد اهتموا بالحروف وأسرارها الخفية، والقوى الكامنة فيها، كما عنوا بالتفسير الرمزي لكتابهم المقدس، واستعاروا من الأفلاطونية المحدثة ما يتعلق بالموازنة بين العالم الكبير والصغير، ولم يكن تصوفهم الذي ظهر في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، أي بعد ظهور التصوف الإسلامي بقرون، إلا مطبوعًا بطابع الأسرار والرموز والتأويل[6]، أي أنه لم ينشغل بالتقوى والعبادة والزُّهد.

ويتحدث الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون عن يهوه، الذي يؤمن اليهود بألوهيته، فيصفه بأنه ـ بحسب تصورهم له ـ كان " قاسيًا كل القسوة، ولم يكن بين بني إسرائيل وإلههم من الود ما يجعل من اليهود هذه الصوفية على نحو ما نفهمها" [7].

وليس معنى هذا أن اليهود ـ بصفة عامة ـ لم يكن فيهم زهد بمعنى ما، أو لم يظهر فيهم تصوف بمضمون ما؛ لأن الزهد والتصوف من الظواهر الإنسانية العامة، وإن كانت هذه تظهر بنسب ودرجات متفاوتة، تبعًا لاختلاف الظروف والمؤثرات، فإن كان قد ظهر لدى هؤلاء نوع من التصوف، فإنه قد ظهر في تاريخ متأخر نسبيًّا، ثم إنه قد غلب عليه طابع التأويل والأسرار

٦. انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، ١٤/ ١٢١، ١٣٦: ١٣٩. نقلا عن: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، مرجع سابق، ص٦٤.

٧. منبعا الأخلاق والدين، برجسون، ص٢٥٦، ٢٥٧، وانظر: التصوف في الإسلام، د. عمر فروخ، ص٣٥. نقلا عن: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، مرجع سابق، ص٦٤.

والرموز أكثر مما غلب عليه الزهد والتقوى، وهو ما كان عليه التصوف الذي سيكون تطورًا له فيما بعد، فقد كان ـ في بداياته ـ تصوف زهد وورع، لا تصوف فلسفة ونظر، كما يقول نيكولسون [1].

أما التأثر بالنصرانية فإن القول به لدى نيكولسون وغيره قد جاء بعد استبعاد النصوص المأخوذة من الكتاب والسنة، أو بعد إغفال دلالاتها، وصرف معانيها، للتوصل إلى فكرة محددة سلفًا، وقد ذم القرآن الرهبانية التي ابتدعتها بعض النصارى ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الحديد). ومن شأن هذا أن يصرف المسلمين عن التأثر بها، ثم إن المسلم يعتقد أن دينه هو أكمل الأديان، وأن القرآن مهيمن على كل الكتب التي نزلت من عند الله ﷻ على الأنبياء السابقين، ومن ثم فالمسلم يجد فيه ـ وفي حياة الرسول ﷺ وسنته ـ ما يغنيه عن سواه، وعندما وُجِدَت بعض بوادر التأثر ببعض الرهبان وجدت من يتصدى لها، ويقف في وجهها؛ لأن في الهَدْي المحمدي ما يغني عنها [2].

أما ما ذهب إليه نيكولسون من أن كلمة الزهد لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة، فإنه ليست العبرة بالألفاظ، ولكن بتلك الروح الزهدية التي استُعْمِلَت عليها الآيات القرآنية: مكية ومدنية، واشتملت عليها الأحاديث النبوية، وأكدها التطبيق العملي في حياة النبي ﷺ وأصحابه، فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (العنكبوت)، وقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ (الحديد).

ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" [3]. وقوله ﷺ: "لا والله ما أخشى عليكم أيها الناس إلا ما يُخرج الله لكم من زهرة الدنيا". [4] وقد قال جولد تسيهر في التعليق على رأي مماثل لنيكولسون: "لقد أصبح من الثابت أن من الأحكام المتيسرة التسليم بأن كلمة تكون الشاهد الوحيد الجدير بالثقة على وجود فكرة أو عدم وجودها... من أجل ذلك حَرِيٌّ بنا أن نجعل للحكم والمثل الأخلاقية، وللمبادئ التي ينعكس عنها الفهم أو الإدراك الأخلاقي ــ كما هو الأمر في

١. انظر: في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص١١٣. نقلا عن: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، مرجع سابق، ص٦٥.

٢. انظر: حلية الأولياء، الأصفهاني، ٤/ ٢٢١، ٢٢٢. ومجموع فتاوى ابن تيمية، ١١/ ٧. نقلًا عن: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، مرجع سابق، ص٦٥.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرِّقاق، باب قول النبي ﷺ: "كن في الدنيا كأنك غريب" (٦٠٥٣).

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب تخوف من يخرج من زهرة الدنيا (٢٤٦٨).

الإسلام - قوة أعظم من تلك التي نعزوها لكلمة أو تعبير فني"[1].

على أن ما قلناه لا يعني النفي المطلق لكل تأثر بالمصادر الأجنبية، ومنها الزهد الذي ظهر في المسيحية، وإنما المراد أن نبرز الأثر الإسلامي في نشأة الزهد عند المسلمين، وأنه ليس من المقبول استبعاده، لا سيما في عصور النشأة الأولى لظهور الزهد عند المسلمين[2].

وما قاله جولد تسيهر من أن النبي ﷺ قد أخذ بنصيب من جميع اللذات التي كانت في متناول يده، وأنه أمر الصحابة بالتَّمتُّع بزينة الله التي أخرجها لعباده والطيبات من الرزق - فهذا يتعارض مع سيرة النبي ﷺ ويتعارض مع الفهم الصحيح لآيات القرآن الكريم.

فقد جاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر بن الخطاب ﷺ وهو على حصير قد أثَّر في جنبه، فقال: يا نبي الله، لو اتخذت فراشًا أوثر من هذا، فقال: "ما لي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها" [3].

وقال ﷺ: "والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بِمَ ترجع"[4].

أما قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الأعراف) قال عنه ابن عباس: "كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عُراة، يُصفِّرون ويُصفِّقُون، فأنزل الله: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾، فأُمروا بالثِّياب"[5]، لكن جولد تسيهر يفهم منها أن الله أحلَّ للناس التمتُّع بجميع اللذات والطيبات، وهذا بخلاف ما ورد في أسباب نزولها، وبخلاف ما ورد من أحاديث النبي ﷺ وسيرته وسيرة أصحابه وزهدهم ورضاهم بالقليل.

هذا وعسى أن يكون فيما قدمنا من سطور إزالة كل لبس وشبهة تنسب التصوف الإسلامي السني المقيد بالكتاب والسنة - نشأة وصدورًا - إلى مصادر أجنبية عن الإسلام؛ وإبطال لتلك الآراء التي انطلقت من التعصب الديني البغيض ضد الإسلام والذي طغى على جملة المستشرقين، والتي بدأت في القرن التاسع عشر الميلادي، حين كانت روح الاستعمار ترمي إلى تثبيت دعائمه، وسلب المسلمين كل ميزة عقلية وعلمية، للوصول إلى نتيجة مؤدَّاها أن المسلمين ليسوا مؤهلين لإنشاء أي حركة علمية، وهذا بدوره دفعهم إلى التفرقة - التي ليس عليها دليل ألبتة - بين الجنس السامي والجنس الآري في القدرة العقلية والفكرية.

---

١. العقيدة والشريعة في الإسلام، جولد تسيهر، ص٢١، نقلًا عن: نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، مرجع سابق، ص٦٦.

٢. نظرات في التصوف الإسلامي، د. عبد الحميد مدكور، مرجع سابق، ص٦٦.

٣. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم، مسندُ عبد الله بن العباس رضي الله عنهما (٢٧٤٤)، وابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب من صفته ﷺ وأخباره (٦٣٥٢)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٧٣٧٦).

٥. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب: أحاديث عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، رقم (١٢٣٢٤).

ولقد كان هذا التعصب دافعًا لعدد كبير من المستشرقين إلى إصدار أحكام مسبقة عن الإسلام والمسلمين والعلوم الإسلامية كلها، وهي أحكام تقوم كلها على البحث عن أصول لهذه العلوم من خارج البيئة الإسلامية.

وفي جانب التصوف، أدى هذا التعصب بهم إلى أن ركزوا في دراساتهم له على مرحلة متأخرة في تاريخه من جهة، وعلى دراسة شخصيات منتقاة من جهة أخرى ليتوصلوا إلى نتائج يبدو أنها ـ على أغلب الظن ـ قد أُعِدَّت سلفًا. وعمَّموا أحكامهم على التصوف بجملته، وقد ساعد على ذلك إغفالهم التمييز بين التصوف السني المقيد بالكتاب والسنة والذي هو إسلامي النشأة والصدور والروح وبين التصوف الفلسفي الذي تبنَّى أفكارًا من خارج البيئة الإسلامية، يأباها الشرع، وقد عارضها أصحاب هذا التصوف السني. فبنى كثير من المستشرقين أحكامهم بناءً على هذا التيار الفلسفي المتأخر والمتأثر فعلًا بعناصر أجنبية، فبنى هؤلاء أحكامهم كلها انطلاقًا من هذا التيار فقط، فكان ذلك من أسباب الخلط في الحكم الصحيح على التصوف، وفي نسبته إلى مصادر غير إسلامية[1].

وجدير بالذكر ما حدث من هدأة حدة التعصب لدى كثير من المستشرقين، وفي هذا المعنى يقول مونتجمري وات: "لقد قامت في صفوف المستشرقين في السنوات الأخيرة محاولة إيجابية تحاول النفاذ بصدق وإخلاص إلى أعماق الفكر الديني للمسلمين، بدل السطحية الفاضحة التي صبغت دراساتهم السابقة، ولكن ـ على الرغم من ذلك ـ فإن التأثير بالأحكام التي صدرت مسبَّقًا على الإسلام، والتي اتخذت صورة "أكلشيهات تقليدية" في الغرب، مازال قويًّا في بحوثهم، ولا يمكن إغفاله في أي دراسة لهم عن الإسلام"[2].

ولقد اعترف بجذور التصوف الإسلامي في الكتاب والسنة نيكولسون فقال " لقد وجد التصوف ـ في حقيقة الأمر ـ جذوره في الكتاب والسنة، مثله في ذلك مثل كل حركة دينية في الإسلام ". ويقول أيضًا ومهما يكن من أمر، فإن هنالك أمورًا كثيرة في القرآن تشكل أساسًا حقيقيًّا للتصوف"[3].

على أننا لا نسمح بانسحاب هذا الكلام وغيره من كلام المستشرقين الذين اعترفوا بأصالة التصوف الإسلامي إلا على التصوف السني المقيد بالكتاب والسنة فقط، ولانسمح ـ ألبتة ـ أن ينسحب هذا الكلام وغيره على مظاهر التدهور والانحطاط التي آل إليها التصوف في العصور الأخيرة، والتي كان الصوفية الخُلَّص يتبرءون منها، ويعزلونهم من الانتساب إليهم، هذا فضلًا عن أننا لا نسمح ـ من باب أَوْلَى ـ أن ينسحب هذا الكلام على ذلك التصوف الذي أسميناه ـ تسامحًا ـ التصوف الفلسفي.

١. انظر: التصوف الإسلامي بين الاتباع والابتداع، د. السيد رزق الحجر، مرجع سابق، ص٢٧: ٣٠.

٢. المذهب المحمدي، مونتجمري وات، نقلًا عن: الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، د. محمد عبدالله الشرقاوي، مرجع سابق، ص٢٦، ٢٧.

٣. المرجع السابق، ص١٦٧: ١٧٥.

الخلاصة:

- لا شك أن منهج التأثير والتأثر منهج معترف به في البحث العلمي، فهو منهج سليم، بيد أن المغالاة في تطبيقه تؤدي إلى أخطاء علمية تخالف الواقع والتاريخ، وهذا ما حدث من بعض المستشرقين حين طبقوا هذا المنهج على التصوف الإسلامي، فعَزُوا[1] هذا التصوف الذي يرتبط بالإسلام - نشأة ومنبعًا - إلى مصادر خارجية.

- لمصطلح الصوفي تفسيرات كثيرة، وهي وإن كان أرجحها نسبته إلى لبس الصوف، فإن هذه التفسيرات جميعًا تدل على أن التصوف عربي المولد إسلامي النشأة؛ لأن الناظر في هذه التفسيرات جميعًا يجدها نابعة من البيئة العربية والإسلامية.

- نسبة صوفية إلى الكلمة اليونانية *σoςōØ* (سوفس) ليست صحيحة، وقد حسم هذه المسألة نيلدكه المستشرق الألماني، وبيَّن أن هذه الكلمة اليونانية غير معروفة في الآرامية، ولذ يصعب العثور عليها في العربية نقلًا عن الآرامية، كما أنه في الآرامية والعربية يتعرَّب الحرف اليوناني *σ* إلى س، ولا يتعرَّب إلى ص، فلو كانت كلمة "صوفي " مشتقة من كلمة يونانية كانت الصاد التي في أولها شاذة تمامًا، كما أنه ليس ثمة دليل حقيقي على أن كلمة " صوفي " مشتقة من الكلمة "سوفس " اليونانية، بينما اشتقاقها من كلمة "صوف" العربية تقره اللغة العربية والمصادر العربية.

- كل تعريفات التصوف بجوانبها المختلفة - سواء التي تركز على الجانب العملي أو الأخلاقي وتحققها في السلوك أو جانب المعرفة أو غيرها - تدل على أن التصوف نابع من البيئة الإسلامية وليس من خارجها.

- إذا كان الزهد هو جوهر التصوف والبيئة الطبيعية له، فإن المسلمين قد وجدوا في ظل الإسلام طريقًا واضحًا إلى تحقيق هذا، وذلك بما تضمنته أنوار الوحيين الشريفين - الكتاب والسنة - من نصوص تدعو إلى العُزوف[2] عن الدنيا والتزهيد فيها، وبما مثلته حياة النبي من أُنموذج تطبيقي حقيقي لهذه المبادئ والقيم.

- إذا كانت كلمة الناطقين في علم التصوف اجتمعت على أن التصوف هو الخلق، كما قال ابن القيم، فإن الإسلام من قرآن وسنة قد عُنِي بهذا الجانب الأخلاقي عناية كبيرة، حتى لا تكاد سورة من القرآن تخلو من التنبيه على هذا الجانب، باعتباره سمة أساسية في الزهد.

- إذا كان من طبائع الأمور أن الظاهرة تُفَسَّر بعواملها القريبة، وكان المسلمون قد وجدوا في الإسلام طريقًا واضحًا إلى حياة التصوف الإسلامي الصحيح؛ فإنه لا وجه - إذن - لدعوى اقتباس التصوف الإسلامي من البيئات الخارجة عنه، ولذا نستطيع القول بأن نسبة هذا التصوف الإسلامي إلى أحد التأثيرات الوافدة إليها أو جميعها - نشأة وصدورًا - دونه خَرْطُ القَتاد.

- لقد كان أصحاب التصوف السني مرتبطين بالكتاب والسنة وحريصين على توضيح النسبة بين

1. عَزُوا: أرجعوا.

2. العُزوف: البُعد.

تصوفهم وبين الكتاب والسنة، وهذا المنهج بلا شك يمنع من تغلغل أي تأثيرات خارجية أو ثقافات أجنبية، ولكن بعض المستشرقين أغفلوا هذا فضلُّوا وضلَّلوا.

- جدير بالذكر أننا ندافع عن التصوف المنتسب إلى الكتاب والسنة المنتهج نهجهما، بعيدًا عن مظاهر التدهور والانحطاط التي تبرَّأ منها أصحاب هذا التصوف السني المعتدل وأَسِفُوا لوجودها بين المنتسبين إليهم ومدعي ذلك. هذا فضلًا عن أن نقرر أننا لا ندافع ـ من باب أَوْلَى ـ عن ذلك التصوف الفلسفي الذي ينافي الشرع، والذي اقتبسه أصحابه من الفلسفات الخارجية.

- إذا كنا قد أثبتنا بأدلة قاطعة أصالة التصوف السُّني، فإننا نعترف بأن التصوف الفلسفي ليس من الإسلام في شيء، وقد تأثر رجاله بالأفكار الدخيلة والتعاليم الغربية والمؤثرات الأجنبية، فقد مزج فيه أصحابه بين تراث الهند وفارس والفلسفة اليونانية والأفلاطونية المحدثة والعقائد المسيحية، وهذا التصوف هو المتأثر ـ حقًّا ـ بالثقافات الخارجية عن الإسلام، بل هو ليس من الإسلام أصلًا، فإن كان المستشرقون يقصدون تأثر هذا التصوف الفلسفي فنحن معهم، أما إذا قصدوا التصوف السني، فهذا لا يستسيغه العقل السليم ولا تسمح به حقائق التاريخ، كما أوضحنا سابقًا.

- في سبيل سلب الإسلام كل ميزة ومقدرة عقلية وفكرية، وسلبه كل أصالة، راح بعض المستشرقين يبحثون عن مصدر للتصوف الإسلامي باعتباره نبتًا غريبًا عن بيئته، فتعسفوا في طلب الدليل على ذلك، فجاءت أدلتهم ـ في معظمها ـ متهافتة لا تقوم بها حجة، بل كلها مدحوضة بأدلة قاطعة تؤيدها حقائق التاريخ.

- ما استند إليه المدَّعون مِنْ تأثر التصوف السُّنِّي بالفارسي غير صحيح؛ لأن الأصل تأثير الثقافة والحضارة الأغلب في الحضارة الأضعف، وكانت الأقوى آنذاك العربية الإسلامية، وحقائق التاريخ تثبت تأثر الفرس بحضارة العرب، كما أن ما استشهدوا به من نماذج متأخر عن نشأة التصوف الإسلامي، أما القول بأن كثيرًا من الصوفية كانوا من الفرس، فهذا لا يدل على صحة القول بالأصل الفارسي؛ لأن كثيرًا من الزهاد والصوفية كانوا من غير الفرس. كما أن القول بالتأثر ببعض الأفكار، لا يصلح دليلًا على ما ادَّعوه، لأن هذا التشابه ربما كان راجعًا إلى تشابه السلوك الإنساني إزاء موقف من المواقف أو مشكلة من المشكلات.

- يُرَدُّ على القائلين بالمصدر الهندي بأنه لا بد من أن نثبت وجود صلة تاريخية واضحة بينهما ووجود مسارب[1] تنتقل عبرها هذه الأفكار، وتلك مسألة يعوزها الدليل المادي القاطع الذي لا شبهة فيه ولا غبار عليه. وأما الاعتماد على ما قاله البيروني فإنه لم يكن في حسبانه فكرة التأثير والتأثر، وإنما كان يهتم بإبراز التشابه فقط الذي لا يعني بالضرورة التأثر، فربما كان تلاقي النتائج من اتباع منهج واحد.

- أما القائلون بالأصل اليوناني فهم محقون إن قصدوا التصوف الفلسفي الذي لا علاقة للإسلام به،

---

١. المسارب: المَمَرَّات.

والذي لم يبدأ إلا في القرن الثالث الهجري بعد ظهور التصوف السُّني بسنوات عديدة.

- أما القائلون بالأصل اليهودي، فيُرَدُّ عليهم بأن العلاقة لم تكن تسمح بالتأثير والتأثر، كما أن اهتمام اليهود بالزهد والروحانيات لم يكن قويًّا إلى حد يبلغ بهم درجة الاقتداء، بل إن حقائق التاريخ تثبت أن اليهود هم الذين تأثروا بالمسلمين، أما التأثر بالنصرانية فيكفي أن الله ذَمَّ رهبانيتهم التي يأباها طبع الإسلام وينفيها حسه، وهذا كاف لانصراف المسلمين والتأثر بهم والأخذ عنهم.

- يُرَدُّ على كل ما ادعاه المدَّعون ـ بوجه عام ـ من تأثير العناصر الخارجية في نشأة التصوف، بما قررناه سابقًا من أن التعاليم الإسلامية كانت ـ وما زالت ـ جديرة بتحقيق التوازن الروحي للمسلم بما يغنيه عن التورط في أوحال الأفكار والفلسفات الخارجة عنه والتي لا تسلم من نقده.

- يحسن بنا ـ أخيرًا ـ أن نوضح أن روح التعصب التي سادت بين المستشرقين في القرن التاسع عشر ـ والتي كانت وراء نسبة التصوف الإسلامي إلى عناصر مؤثرة خارجة عنه، وذلك ضمن سلسلة من الادعاءات رَمَتْ إلى سَلْب الإسلام كل مَيزةٍ عقلية وفكرية بل كل أصالة له ـ قد هدأت حِدَّتها في السنوات الأخيرة، فاعترف كثير منهم بأصالة التصوف الإسلامي وجذوره في الكتاب والسُّنة، على أننا ننبِّه على أنَّ كلامهم لا يمكن أن نوافق عليه إلا إذا كان مقصودًا به التصوف السني؛ فقط المقيد بالكتاب والسنة.

الشبهة العاشرة

ادعاء التقارب بين الإسلام والنصرانية في تصوّر طبيعة المسيح(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن صورة عيسى عليه السلام في العقيدة الإسلامية والديانة المسيحية سواء، فهو فيهما روح الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم، ويستدلون على ذلك بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١).

وجها إبطال الشبهة:

١) خلق الله عز وجل عيسى عليه السلام كما خلق آدم، ولذلك خُصّ بأنه روح منه، أي خلقه على غير عادة البشر في التناسل.

٢) بكلمة "كن" خلق عيسى عليه السلام، ولم يكن عيسى هو الكلمة، وهذا فرق ما بين الإسلام والنصرانية في هذه المسألة الكبيرة.

التفصيل:

أولا. وصف القرآن الكريم لعيسى عليه السلام بأنه روح الله:

يصف القرآن عيسى بأنه روح الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ

(*) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، الإمام القرافي، مرجع سابق.

® في **"المراد بأن عيسى كلمة الله وروحه"** طالع: الشبهة الثانية والثمانين. والوجه الأول، من الشبهة السابعة والثمانين؛ من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢).

﴿إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١).

ويفسر النصارى أن عيسى روح الله، بمعنى أنه من ذات الله، وبالتالي فهو جزء من الله، ويقولون: إن في القرآن ما يؤيد دعواهم الباطلة، ويقصدون تفسير "روح منه" بأنه جزء منه، إذ إن "من" للتبعيض كما يزعمون.

ونحن هنا نسوق عدة حقائق تكشف دلالة هذه الصفة التي وصف بها القرآن عيسى عليه السلام:

١. إن ذات الله قديمة واحدة، لا تقبل الانقسام ولا التركيب، وذلك ثابت عقلًا، وإن القول بأن عيسى جزء من الله يفضي إلى اتحاد الحادث بالقديم، وهو محال على الله سبحانه.

٢. إن معنى الآية ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾:

- **نفخة منه**؛ لأن عيسى عليه السلام قد حدث عن نفخة جبريل في جيب درع مريم[١] بأمر الله إياه بذلك، فنسب إلى أنه روح من الله، ومعنى كون عيسى روحًا من الله أن روحه من الأرواح التي هي عناصر الحياة، لكنها نُسِبَت إلى الله لأنها وصلت إلى مريم بدون تكوّن في نطفة، فبهذا امتاز عن بقية الأرواح، ووصف بأنه مبتدأ من جانب الله، وقيل: الروح النفخة، والعرب تسمى النفس روحًا والنفخ روحًا[٢].

- **خَلْقه**، وإنما أضيفت الروح إلى الله إضافة تشريف كما أضيفت الناقة إلى الله على لسان صالح: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ (هود: ٦٤) كما أضيف البيت إلى الله ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ (الحج: ٢٦).

٣. إن النفخ سبب ظاهري لإيجاد الروح في كل مولود، وقد قال الله عن آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الحجر)، وكذلك قال عن خلق عيسى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ (الأنبياء: ٩١)، وكان ذلك النفخ بوساطة جبريل إذا تمثل لها بشرًا سويًّا، فنفخ في جيب درعها حتى صار الحمل بعيسى عليه السلام.

و من المسلم به أن آدم نفخ الله فيه من روحه، وآدم لا أحد يقول بأنه جزء من ذات الله سبحانه، وكذلك عيسى روح من الله، فالحالتان متماثلتان والتفريق بينهما تعسف.

٤. أما تفسير "من" فهي لابتداء الغاية كما في قوله عز وجل: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ (الإسراء: ١) وليست للتبعيض كما يدعي النصارى، وقد ذكر الألوسي في "روح المعاني" قصة مفادها: أن طبيبًا نصرانيًّا كان عند هارون الرشيد، فدخل عليه أحد العلماء ذات يوم فقال النصراني: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى جزء من الله تعالى وقرأ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فرد عليه العالم بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣)، وقال: إذن يلزم أن تكون جميع الأشياء منه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فانقطع النصراني وأسلم، وفرح الرشيد بذلك وكافأ العالم.

وقيل: إن الروح اسم للريح الذي بين الخافقين، يقال لها ريح وروح، وهما لغتان وكذلك في الجمع رياح

---

١. جيب درعها: فرجها.

٢. التحرير والتنوير، ابن عاشور، دار سحنون، تونس، ج٦، ص٥٢.

وأرواح، واسم لجبريل عليه السلام وهو المسمى بروح القدس، والروح اسم النفس المقومة للجسم.

وقيل: إن معنى الروح المذكورة في القرآن في حق عيسى عليه السلام هو الروح الذي بمعنى النفس المقوم لبدن الإنسان، ومعنى نفخ الله تعالى في عيسى عليه السلام من روحه، أنه خلق روحًا نفخها فيه، فإن جميع أرواح الناس يصدق أنها روح الله.

يقول الله تعالى في كتابه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ (آل عمران)، ويقول: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (يس).

فكلمة الله وسره وقولته "كن" وهذا ما يتسق ونظرية الإسلام في تفسيرها، وليس أعرف بها من المسلمين الذين وُكِّلَ لهم تفسير النصوص التي جاءت بلغتهم، ولا يضر أننا لا نقبل تفسيرات كان من ورائها غرض لم تأذن بها قواعد اللغة التي نزل بها القرآن وهي العربية.

ولو كانت هذه الآية دليلًا على معتقدات النصارى في عيسى لكان آدم إلهًا؛ لأنه ورد في حقه مثل ما ورد في حق عيسى بأن قال الله تعالى: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ (الحجر: ٢٩)، بل ولكان الناس جميعًا كذلك؛ لأن الله تعالى خلق الإنسان ثم سواه ونفخ فيه من روحه، ولما كان ذلك باطلًا فالاستدلال بها على عقيدة النصارى في المسيح باطل أيضًا، وتفسيرها هي وكلمة "كلمة منه" على الوجه الذي يذكره هؤلاء المدعون لا وجه له في لغة العرب ولا في طريقة القرآن في التعبير.

يضاف إلى ذلك أن اختصاص عيسى بأنه: روح الله في قوله تعالى: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ (النساء: ١٧١) ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ (آل عمران: ٤٥)، وإن كان جميع البشر كذلك لمجيء عيسى بلا سبب معتاد لدى الناس، فجاء آية للناس تدل على أنه نفاذ لكلمة ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أظهر أمامهم.

ثانيًا. معنى كلمة الله في حق عيسى عليه السلام في القرآن:

صرح القرآن الكريم بأن عيسى كلمة الله، قال عز وجل: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (آل عمران: ٤٥) وقال أيضًا: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ (النساء: ١٧١).

وقد فسر النصارى الكلمة بأنها جزء من الذات، فقالوا: وكلمة الله من ذات الله كما يقال: هذه الخرقة من هذا الثوب!! ولهم تفسيرات عجيبة متناقضة في كيفية اتحاد الكلمة بعيسى حتى أصبح إلهًا كله وإنسانًا كله!!

ونسوق في ردّ هذا الزعم عدة حقائق:

١. من الثابت عقلًا أن الله قديم، لا يجوز عليه الحدوث، كما ثبت أنه عز وجل واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، فذاته ليست مركبة من أجزاء، ولا تقبل الانقسام، وإن القول بأن الكلمة جزء من الذات يوصل إلى القول بالتركيب، وهو من صفات الحوادث.

٢. وبناءً على ذلك فلا يجوز تفسير أن عيسى كلمة الله بمعنى أنه جزء من ذات الله.

٣. خلق الله عيسى ابن مريم بالكلمة التي أُرسِلَ بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها بإذن الله، فكان

عيسى بإذن الله، فعيسى إنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها "كن" فكان، وفي ذلك يقول ابن كثير في تفسيره: "ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى".

٤. قد تكون الكلمة بمعنى الآية، كما قال تعالى عن مريم: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ (التحريم: ١٢)؛ أي إنها صدقت بآياته، وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ (لقمان: ٢٧). أي آياته الدالة عليه.

وفي هذا الإطار يكون معنى أن "عيسى كلمة الله" هو آية دالة على قدرة الله، ويؤيد هذا المعنى قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ (المؤمنون: ٥٠)، وقوله ﷻ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ (مريم: ٢١)، وتخصيصه بذلك لتشريفه وعلو منزلته".

٥. يحمل بعض العلماء معنى الكلمة على سبيل الاستعارة، ذلك أن عيسى عليه السلام لما فُقِد في حقه سبب من الأسباب المادية المتعارف عليها في التوالد من الذكر والأنثى، أُضيف حدوثه إلى الكلمة، فكأنه جعل الكلمة نفسها، كما يُقال على من غلب عليه الكرم: إنه محض الجود، وباعتبار أن كل مولود له سببان أحدهما قريب وهو "المني" والآخر بعيد وهو قوله ﷻ: ﴿كُن﴾ (النحل: ٤٠)، ويؤيد هذا قوله ﷻ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ (النساء: ١٧١)، أي أوصلها إليها وحَصَّلها فيها.

وعلى كل الاحتمالات فإن تفسير الكلمة بأنها جزء من الذات لا يجوز عقلًا، ولا تساعد عليه اللغة وسياق الآية القرآنية وجملة ما يرشد إليه القرآن من حقائق في شأن عيسى عليه السلام.

يقول الطاهر ابن عاشور في تفسيره: "فإن قلتَ: ما حكمة وقوع هذين الوصفين ـ يعني الكلمة والروح ـ هنا على ما فيهما من شبهة ضلت بها النَّصارى. وهلَّا وصف المسيح في جملة "بشر مثلكم يوحى إليَّ"، فكان أصرح في بيان العبودية وأتقى للضلال.

قلتُ: الحكمة في ذلك أن هذين الوصفين وقعا في كلام الإنجيل أو في كلام الحواريين وصفًا لعيسى عليه السلام وكانا مفهومين في لغة المخاطبين يومئذ، فلما تغيرت أساليب اللغات، وساء الفهم في إدراك الحقيقة والمجاز تسرَّب الضلال إلى النصارى في سوء وضعهما، فأريد التنبيه على ذلك الخطأ في التأويل، أي أن قصارى ما وقع لديكم من كلام الأناجيل هو وصف المسيح بكلمة الله وبروح الله، وليس في شيء من ذلك ما يؤدي إلى اعتقاد أنه ابن الله وأنه إله"[1].

الخلاصة:

- محال أن يكون الروح والكلمة على ما تزعمه النصارى، فذلك ما يخالف جوهر العقيدة الإسلامية في شأن عيسى عليه السلام، وهي صريحة في إثبات بشريته وعبوديته لله ﷻ.
- معنى الروح في القرآن في حق عيسى عليه السلام هي بمعنى النفس المقومة للجسم وهي اسم لجبريل عليه السلام ومعنى نفخ الله في عيسى عليه السلام من روحه أنه خلق روحًا نفخها فيه، فإن جميع أرواح الناس يصدق أنها روح الله.
- وأما الكلمة فمعناها أن الله ﷻ إذا أراد شيئًا أن

١. المرجع السابق، ص٥٣.

يقول له كن فيكون، فما من موجود إلا وهو منسوب إلى كلمة كن، فلما أوجد الله عيسى ﷺ قال له كن، في بطن أمه فكان، وأما تخصيصه بذلك فهو للتشريف وعلو المنزلة.

الشبهة الحادية عشرة

ادِّعاء فضل عيسى ﷺ على محمد ﷺ بثبوت الحياة الأبدية (*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغرضين أن عيسى يفضل محمدًا ﷺ، ويعللون هذا بتوهمهم أن عيسى ﷺ حيٌّ حياةً أبدية، فلا تجري عليه سنة الموت كسائر الخلق، بخلاف محمد ﷺ الذي حُكِمُ عليه بالموت والفناء. ويستدلون على هذا بقوله ﷻ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الزمر)، في حين يقول الإنجيل "إني أنا حي فأنتم ستحيون". (يوحنا ١٤: ١٩).

وجوه إبطال الشبهة:

١) لا وجه للمقارنة بين نص الإنجيل ونص القرآن؛ لأن نص القرآن يتحدث عن قانون الموت والحياة، الذي يعم جميع الناس بلا استثناء، ونص الإنجيل يتحدث عن دعوة المسيح لأتِّباعه، الذي به تكون الحياة، حياة الاستقامة والهداية.

٢) قولهم بأبدية حياة عيسى يناقض عقيدتهم بصلبه، فإذا كانت عقيدة الصلب من ثوابت المعتقد النصراني لم يبق وجه لاعتقاد أبدية حياته ﷺ.

٣) إن التفضيل بين الأنبياء ليس قضية اجتهادية، وإنما هو فضل من الله يؤتيه من يشاء.

التفصيل:

أولا. المجاز في عبارة الإنجيل:

النص الإنجيلي يحتمل معنيين: أحدهما افتراض تقديري، والثاني قريب منه، فإمّا أنه يعني أن عيسى في الإنجيل يعد أتباعه بأنهم لن يموتوا أبدًا، وهذا هو الافتراض التقديري بحسب مدلول العبارة لفظًا، والثاني أنهم سيحيون حياة هداية وتكريم. وإن أُخِذَ بالفهم الأول المأخوذ من لفظ العبارة ومنطوقها، فهو مخالفة صارخة للواقع، فهل بقي واحد فقط من أتباع عيسى ولم يمت؟ فلا بد من فهم عبارة المسيح - إن سلمنا بصحتها - "أنا حي فأنتم ستحيون" على حياة الهداية، وهذا هو التقدير المتعين الذي يشهد له الواقع على تقدير صحة العبارة.

وإذا أخذنا بهذا المعنى، وهذا هو الأقرب إلى الصواب، وهو أولى بالأخذ به فلا وجه للمقارنة بينه وبين نصوص القرآن الكريم؛ لأن نص القرآن يتحدث عن قانون الموت والحياة، الذي يعم جميع الناس بلا استثناء، ونص الإنجيل يتحدث عن دعوة المسيح لأتباعه، وباتباعه تكون الحياة حياة الاستقامة والهداية، كما قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ (الأنفال: ٢٤)، وقال ﷻ: ﴿أَوَمَن

(*) النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق.

® في "المفاضلة بين محمد وعيسى" طالع: الشبهة الرابعة والتسعين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل ٢).

كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (الأنعام: ١٢٢)، ولا وجه للمقارنة بين نصين لا ينطلقان من أرضية مشتركة، بل كل منهما يتحدث عن أمر، لكن الذي يبدو أنهم يريدون أن يستدلوا بنصهم الإنجيلي على حياة المسيح وعدم موته، وإن كان النص لا يفيد ذلك فهو مجازي وليس حقيقيًّا، وآفة النصارى أنهم تورطوا في العقائد الباطلة، بسبب فهمهم للعبارات المجازية، الآب الابن الحياة، على أنها تعبيرات حقيقية.

ثانيًا. التناقض بين عقيدة الصلب وبين إثبات الحياة الأبدية:

إن الكلام عن أبدية المسيح يناقض عقيدة النصارى في الصلب والفداء، إذ كيف يصلب ويموت، ثم هو حيٌّ حياة أبدية؟! فهم كما في كتابهم المقدس: "لما أتوا إلى موضع يُقال له جلجثة، وهو المسمى «موضع الجمجمة» أعطوه خلًّا ممزوجًا بمرارة ليشرب. ولما ذاق لم يُرِدْ أن يشرب". (متى ٢٧: ٣٣، ٣٤)، وكان من عادة اليهود أن يعطوا المحكوم عليه بالموت صلبًا خلًّا به مخدر حتى يستطيع أن يتحمل آلام الصلب، ولكن المسيح رفض شرب ذلك المخدر حتى يشرب كأس الآلام ومراراتها حتى ثُمالتها حتى النهاية ليتحمل مشاق الصلب وآلامه من أجل خلاصنا ورفض أن تخفف الآلام من جسده.

"ولما صلبوه اقتسموا ثيابه مقترعين عليها، لكي يتم ما قيل بالنبي: «اقتسموا ثيابي بينهم، وعلى لباسي ألقوا قرعة". (متى ٢٧: ٣٥)، وفي نحو الساعة التاسعة ليلًا صرخ السيد المسيح قائلًا: «إلوي، إلوي، لما شبقتني؟» الذي تفسيره: إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟ فقال قوم من الحاضرين لما سمعوا: «هوذا ينادي إيليا». فركض واحد وملأ إسفنجة خلًّا وجعلها على قصبة وسقاه قائلًا: «اتركوا. لنَرَ هل يأتي إيليا لينزله!» فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح. وانشق حجاب الهيكل إلى اثنين، من فوق إلى أسفل. ولما رأى قائد المئة الواقف مقابله أنه صرخ هكذا وأسلم الروح، قال: «حقًّا كان هذا الإنسان ابن الله!» وكانت أيضًا نساء ينظرنَ من بعيد، بينهن مريم المجدلية، ومريم أم يعقوب الصغير ويوسي، وسالومة، اللواتي أيضًا تبعنه وخَدَمْنَه حين كان في الجليل. وأخر كثيرات اللواتي صعدن معه إلى أورشليم". (مَرْقُس ١٥: ٣٤ ـ ٤١). "بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كمل، فلكي يتم الكتاب قال: «أنا عطشان». وكان إناء موضوعًا مملوًّا خلًّا، فملئوا إسفنجة من الخل، ووضعوها على زوفا وقدموها إلى فمه. فلما أخذ يسوع الخل قال: «قد أكمل». ونكس رأسه وأسلم الروح". (يوحنا ١٩: ٢٨ـ ٣٠)، وعندما قال المسيح أنه قد أكمل فقد أُكْمِلَ أهم حوادث التاريخ البشري في كل العصور، ونادى يسوع بصوت عظيم وقال: "يا أبتاه، في يديك أستودع روحي». ولما قال هذا أسلم الروح ". (لوقا ٢٣: ٤٦).

"وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين، من فوق إلى أسفل. والأرض تزلزلت، والصخور تشققت، والقبور تفتحت، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين وخرجوا من القبور بعد قيامته، ودخلوا المدينة المقدسة". (متى ٢٧: ٥١ ـ ٥٣).

ومما تقدم يتضح أن كلًّا من الأناجيل السابقة

- مَرْقُس ويوحنا ولوقا ومتّى - قد تحدثت عن إسلام المسيح لروحه؛ أي موت المسيح، فكيف تقولون إنه سيحيا حياة أبدية، أو كيف يقول إنجيلكم هذا الكلام وذاك، أي كيف يقرر أمرًا وينفيه في نفس الوقت؟!

ولكن نجيبكم نحن فنقول: إن عيسى عليه السلام رفعه الله عز وجل إليه، ولكن مآله الموت لقول الله تعالى على لسانه: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣ ﴾ (مريم)، ولذلك فإن مسألة موت المسيح هي مسألة منتهية وأنه عليه السلام سيموت كسائر الخلق[®].

ثالثًا. تفضيل الله عز وجل بعض الأنبياء على بعض:

إذا كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد مات، والمسيح عليه السلام سيموت، بعدما ينزل إلى الأرض حكمًا بشريعة الإسلام ثم يموت، فالفارق حينئذ بينه وبين غيره هو طول الحياة وقصرها، ولو كان طول الحياة دليلًا على الفضل والتفاضل لكان نوح عليه السلام أفضل من إبراهيم عليه السلام، ولكان الكافر الأطول عمرًا أفضل من المؤمن الأقصر منه عمرًا، وهذا لا يكون.

ثم إن التفضيل ليس قضية اجتهادية بين العقلاء، وخاصة تفضيل بعض الأنبياء على بعض، فهذه مسألة تتوقف على الوحي ولا تؤخذ من العقل، قال تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، إن فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ثبت له برسالته العالمية الخالدة، وبما أوتي من جوامع الكلم، وما اتصف به من مكارم الأخلاق: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ ﴾ (القلم)، وأعباء الدعوة التي واجه بها العالم كله، وكل قوى الكفر، وبجهاده المتواصل في سبيل الحق، وبالأثر الذي تركه على العالمين.

أَخُوكَ عيسى دَعَا مَيْتًا فقام له

وأنت أَحْيَيْتَ أجيالًا من الأُمَمِ

الخلاصة:

- إن المقصود من كلام عيسى عليه السلام: "أنا حي فأنتم ستحيون" أنهم سيحيون حياة هداية وتكريم، وليس المعنى أنهم سيحيون حياة حقيقية؛ لأنهم جميعًا ماتوا وما بقي منهم أحد، فوجب أن يكون معنى الكلمة أنهم سيحيون حياة الاستقامة والهداية كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ (الأنفال: ٢٤) والعبارات المجازية شائعة مترددة في نصوص الإنجيل.
- وكذلك لو فرضنا جدلًا صحة كلامهم بأنه سيحيا حياة أبدية، فما قولهم في عقيدة الصلب التي تنص على أن المسيح أسلم روحه لله ومات، وهو ما ينافي ادعاء الحياة الأبدية؟!
- ثم إن التفضيل بين الأنبياء ليس قضية اجتهادية، وكذلك لو كان طول الحياة دليلًا على الفضل والتفاضل لكان الكافر الأطول عمرًا أفضل من المؤمن الأقصر منه عمرًا، لكن التفضيل بين الأنبياء هو من فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

® في "عقيدة الصلب والفداء" طالع: الشبهة الثالثة والتسعين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل ٢).

الشبهة الثانية عشرة

دعوى اقتباس القرآن الكريم من التوراة والإنجيل (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن القرآن الكريم ليس وحيًا من عند الله تعالى، بل هو من وضع محمد ﷺ استقاه من كتب أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ التي أخذ منها معظم تشريعاته.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لو كان القرآن الكريم من عند اليهود أو النصارى لقالوا ذلك، ولكنهم لم يفعلوا، وكذلك لم يفعل العرب.

٢) إن التضارب والتناقض اللذين أصابا الكتب التي أوردت هذه الشبهة في حديثها عن إلهية القرآن وبشريته، يؤكد زيف دعوى هؤلاء المشككين.

٣) مخالفة القرآن الكريم للكتب السابقة في العقيدة وجُلّ التشريعات تدحض هذا الافتراء.

٤) شهادات الغربيين التي تؤكد تفرد القرآن عن غيره من الكتب السماوية تشهد بقدسيته وإلهيته.

التفصيل:

أولا. هل ادّعى اليهود والنصارى في أيام نزول الوحي أن القرآن مستوحى من الكتاب المقدس؟

لقد تكفل الله ﷻ بحفظ القرآن وجعله الكتاب الخالد المعجز، ولم يترك هذه المهمة الكبيرة لنبي مرسل أو ملك من الملائكة، فقال ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر)، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء)، فهذه الآيات وغيرها تؤكد أن هذا القرآن من عند الله تعالى، وأنه سبحانه هو الذي تولى حفظ هذا النص من الضياع أو التحريف أو الزيادة أو النقصان. فهذا هو أعظم دليل®.

ولو كان هذا القرآن من عند النصارى أو اليهود ـ كما يدعي هؤلاء ـ لكانوا أسرع الناس في نسبة هذا النص لأنفسهم منذ بداية ظهوره، ولكن لم يقل أحد من اليهود والنصارى في زمان نزول الوحي وتتابعه بأن هذا النص من كتابه المقدس؛ لأنه يعرف الفرق الواضح بين الكتابين، سواء في التشريعات أو العقائد التي جاء بها، ولم يقل أحد من العرب إن هذا النص من عند محمد ﷺ؛ لأنهم أصحاب هذه اللغة ويعرفونها معرفة جيدة، ولذلك تحداهم الله تعالى أن يأتوا بسورة من مثله، بل بآية واحدة، وكل ما قاله العرب في عصر النبي ﷺ أنه ـ حاشا لله ـ ساحر أو مجنون أو كاهن، أو غير ذلك من الادعاءات الباطلة أيضًا.

ثانيًا. تضارب الكتب التي أوردت الشبهة في حديثها عن إلهية القرآن وبشريته:

من يقرأ الكتب التي أوردت هذه الشبهة قد يجد في

(*) الرد على القس بوش في كتابه "محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين"، د. عبد الرحمن جيرة، دار المحدثين، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

® في "**تكفُّل الله بحفظ القرآن الكريم**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة والعشرين، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم). والوجه الثاني، من الشبهة العشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

بعضها ردًّا على هذه الدعوى الباطلة، من تلك الكتب الكتاب الذي ألفه القس جورج بوش الجد تحت عنوان "محمد مؤسس الدين الإسلامي، ومؤسس إمبراطورية المسلمين" ففي هذا الكتاب بعض النصوص التي تؤكد فكرة بشرية القرآن، وفيه نصوص أخرى تشكك في هذه الفكرة، فمن النصوص الأولى: " والاعتقاد الأكثر شيوعًا هو أن محمدًا تلقى العون الرئيسي ـ وضع القرآن أو تأليفه ـ من راهب مسيحي على المذهب النسطوري اسمه "سرجيوس" يفترض أنه نفسه "بحيرا الراهب" الذي تعرف عليه في فترة مبكرة من حياته في بصرى في الشام"[1]. وقال: فإن القرآن قد تمت صياغة محتواه ـ على حد كبير ـ من مواد العهدين القديم والجديد[2].

فالنصوص السابقة تقرر أن القرآن الكريم ـ حسب زعم هؤلاء ـ من وضع محمد ﷺ اعتمادًا على نصوص العهدين القديم والجديد.

ولكننا نجد في مكان آخر من هذا الكتاب ردًّا على هذه الدعوى، حين يقول الكاتب: "فمن هو القادر في هذه الفترة الحالكة على وضع نص كهذا"[3]. يعني: النص القرآني. وفي موضع آخر: "هذا الوحي المدعى بادعائه استقلاليته ـ أي القرآن ـ عن كتبنا المقدسة يضم ـ رغم هذا ـ فقرات ـ آيات ـ أرقى كثيرًا من أية بقايا أدبية تعود للقرن السابع، سواء كانت يهودية أو مسيحية، فهذه الآثار الأدبية ـ أي اليهودية والمسيحية ـ أدنى كثيرًا ـ بلا شك ـ من محتويات ذلك الكتاب المقدس"[4]. يعني القرآن. ويقول في موضع ثالث: "وعلى هذا فستظل مسألة حقيقة القرآن مسألة لا حل لها إلى الأبد، فليس لدينا أدلة حاسمة على تاريخ وضع القرآن، ولا نعرف إلى أي مدى كان محمد ﷺ عارفًا بالكتب المسيحية المقدسة"[5]، وفي موضع رابع يقول: "وليس من السهل ترجمة القرآن بالنسبة للذين تعرفوا عليه في لغته الأصلية، فهناك اعتراف عالمي بأنه ـ أي القرآن ـ يتسم بامتياز لا حدَّ له، لدرجة أنه لا يمكن ترجمته لأية لغة أخرى، إنه ـ أي القرآن ـ نموذج يحتذيه اللسان العربي، إنه مكتوب في معظمه بأسلوب أنيق".

كل هذه النصوص وغيرها يبتغي أعداء الإسلام من ورائها التشويش على معتقدات المسلمين الراسخة في أذهانهم، ولكن هذا لن يكون باعترافهم أنفسهم، فما هي إلا مجرد مكابرة باطلة، وعدم سماع لصوت الحق الذي يخرج من داخلهم عند سماع القرآن الكريم.

ثالثًا. بين القرآن والكتب السابقة عليه:

من يطالع آيات القرآن ونصوص الكتب السابقة ـ التوراة والإنجيل ـ يرى فرقًا كبيرًا بين المصدرين، ويرى العديد من الأمور التي يتعارض فيها القرآن الكريم مع الكتب المقدسة، فكيف يمكن القول: إن النبي ﷺ هو الذي وضع القرآن واعتمد في وضعه على كتب السابقين؟! أينقل عن مصدر وينص على تحريف هذا المصدر وعدم صحته في آن واحد؟! إن هذا

---

١. الرد على كتاب جورج بوش "حياة محمد"، السيد حامد السيد علي، مكتبة الولاء الحديثة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٨٠.

٢. المرجع السابق، ص٨٠.

٣. المرجع السابق، ص٨٢.

٤. المرجع السابق، ص٨٢.

٥. المرجع السابق، ص٨٢.

لشيء عجاب.

لا شك أن القرآن والتوراة والإنجيل وكل الكتب السابقة تتفق في توحيد الله تعالى والدعوة لعبادته من دون المخلوقات جميعا، ولكن الكتب الموجودة الآن ـ ما عدا القرآن ـ كتب محرفة، ولا يمكن الاعتماد عليها في نقل العقائد والشرائع، وهذا ما نص القرآن عليه في العديد من آياته، من ذلك قوله ﷻ: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (البقرة).

ومن العقائد التي يخالف فيها القرآن الكتب المقدسة المحرفة عقيدة التوحيد، فالله ـ عند المسلمين ـ واحد لا شريك له ولا يعبد أحد سواه، أما عند النصارى فإن الله ليس واحدا، بل هو ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، وهو عند أصحاب الكتب السابقة يندم على أفعاله ويرجع فيها وهو يتعب من خلق السماء والأرض فيستريح بعد خلقها، وغير ذلك من العقائد الفاسدة، فكيف نقول إن القرآن أخذ من الكتب السابقة عليه؟!

وفي جانب التشريعات نجد الصلاة عند المسلمين تختلف عن الصلاة عند أصحاب الكتب السابقة، وكذلك الصوم والحج والزكاة، وجانب المعاملات أيضا يختلف كثيرًا عن معاملات أهل الكتاب، فالغش والرشوة في الإسلام حرام، أما عند اليهود فيجوز أن تأخذ الرشوة من غير اليهودي، وتحرم من اليهودي، والإسلام يدعو لحسن معاملة أهل الذمة من اليهود والنصارى، أما هم فيعتقدون أن المسلمين مجرد عبيد لهم، والإسلام يدعو إلى مجادلة أهل الكتاب بالحسنى، فقال ﷻ: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت: ٤٦). والآيات القرآنية في ذلك كثيرة، أما المخالفون للإسلام فلا يعترفون بأي حوار بين المسلمين وبينهم، فلا يعرفون إلا مبدأ القوة والسلاح. فأين عقائد الإسلام وتشريعاته ومعاملاته من عقائد وتشريعات ومعاملات أصحاب الديانات السابقة ؟!

رابعًا. شهادات الغربيين بإلهية القرآن:

من الممكن أن يتحيز صاحب كل عقيدة إلى عقيدته، فالمسلم يتعصب للإسلام والنصراني يتعصب للمسيحية، واليهودي يتعصب لليهودية، ولكن عندما يعترف صاحب عقيدة بصحة العقيدة المخالفة له فإن هذا أصدق دليل على صحة هذه العقيدة، فكذلك القرآن الكريم وجد من الغربيين من يعترف بعدم بشريته وارتفاع مستواه عن كل البشر وكل المخلوقات، لخصوصيته الظاهرة في آياته ومعجزاته التي يمتلئ بها. ومن هؤلاء الغربيين الذين أكدوا إلهيته[١].

١. **بوسوارث سميث قال**: القرآن الكريم هو كلام الله المنزَّل على محمد ﷺ وهو معجزة من المعجزات، حقًّا إنه معجزة.

٢. **البروفيسور كيث إيلي مور**: وهو أستاذ علم التشريح بجامعة ترنتو وجامعة يونبيك بكندا، فعندما عُرِضَ عليه في أحد المؤتمرات أن القرآن الكريم يصف الجنين وأطواره في قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ

١. المرجع السابق، ص٩٢ وما بعدها.

مَكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (المؤمنون).

فقال معقبًا على هاتين الآيتين: إن هذه الحقائق حتمًا جاءت لمحمد ﷺ من عند الله ﷻ؛ لأن هذه المعلومات لم تكشف إلا حديثًا، وهذا يثبت لي أن محمدًا رسول الله ﷺ.

٣. **البروفيسور تاجات كاجاسون:** وهو رئيس قسم التشريح والأجِنَّة، بجامعة شانج ماي بتايلاند، عندما سمع قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ ﴾ (النساء). فعكف على البحث في القرآن الكريم لمدة ثلاث سنوات، ثم أعلن في المؤتمر الطبي بالسعودية، وقال: لقد أصبحت مهتمًّا بالقرآن في السنوات الثلاث الأخيرة، وإنني أؤمن بكل ماجاء في القرآن الكريم؛ وإنه صحيح ويمكن إثباته بالوسائل العلمية، فلم يكن محمد ﷺ يعرف شيئًا عن الكتابة إلا كونه رسولًا من الله سبحانه وتعالى، ولقد حان الوقت أن أشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

٤. **د. أليسون (إنجلترا):** قال معقبًا على قوله ﷻ: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾ (القيامة)، فكل إنسان ـ رجل أو امرأة ـ له بصمة خاصة لا مثيل لها، وهذا يدل على أن الله ﷻ هو الخلاق العظيم، خالق كل شيء، لا إله إلا هو ولا معبود سواه، مَنْ أخبر الحبيب المصطفى ﷺ بهذه الحقيقة ـ والتي لم يكشفها العلم إلا في العصور الحديثة، إنه الله سبحانه وتعالى، وبسبب هذه الآية أعلن أليسون إسلامه (®).

الخلاصة:

- إن القرآن الكريم نزل على رسول الله من قبل الله ﷻ، ولو كان من عند اليهود أو النصارى لقالوا ذلك، ولكن هذا لم يحدث، وكذلك لم يقل العرب إن هذا القرآن من صنعهم لمعرفتهم مدى بلاغة القرآن الكريم.
- الكتب التي أوردت هذه الشبهة تحمل في طياتها ردودًا عليها.
- من يقرأ القرآن الكريم والكتب السابقة يجد فرقًا واضحًا في العقائد والتشريعات والمعاملات بين القرآن وتلك الكتب.
- لقد شهد الغربيون أن القرآن من قِبَل الله ﷻ ولا يستطيع أي واحد من البشر مهما كان قدره أن يأتي بمثل القرآن، بل إن القرآن كان سببًا في إسلام العديد من المخالفين للدعوة الإسلامية.
- لقد كان النبي ﷺ أميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فقد عمل في طفولته في مهنة الرعي، ولم يثبت أنه جلس إلى معلم قط، فكيف يستطيع أن يصنع نصًّا كالنص القرآني الذي حوى العديد من الغيبيات والمعجزات، وأمية النبي ثابتة بالنصوص في القرآن، فقال الله ﷻ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ ﴾ (العنكبوت: ٤٨). وثابت بالحديث

(®) في "**إلهية القرآن الكريم**" طالع: الشبهة الأولى، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم). والوجه الرابع، من الشبهة التاسعة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

الشريف الذي يقول فيه النبي ﷺ: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب"[1]. ثابتة أيضًا بشهادة الغربيين.

الشبهة الثالثة عشرة

ادِّعاء أن القرآن يُقرُّ الإنجيل - بصورته الحالية - ويوجب على أهل الأديان جميعًا الإيمان به(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن الإنجيل بمضمونه الحالي كتاب سماوي مقدس بشهادة القرآن؛ إذ يقول: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (المائدة)، والإيمان به واجب على أهل الأديان جميعًا.

وجوه إبطال الشبهة:

1) القرآن إنما يقرُّ الإنجيل الذي أنزل على عيسى قبل أن يدخله التحريف.

2) الإنجيل بمضمونه الحالي ليس كتابًا سماويًّا، ولو كان الإنجيل كما أنزل من عند الله لما كانت به تلك التناقضات التي لا يقبلها عقل.

3) الإنجيل الصحيح عَدَّ القرآن كتابًا سماويًا خاتمًا ناسخًا لما قبله متعبَّدًا به دون غيره بعد نزوله، وقد بشّر هذا الإنجيل بالنبي محمد ﷺ نبيًّا ورسولا خاتمًا إلى الناس كافة.

التفصيل:

هذه كلمة حق أريد بها باطل، فالإنجيل ككتاب سماوي نزل على عيسى نبي الله عليه السلام يلقى - كغيره من الكتب السماوية - اعتبارًا وإقرارًا وتصديقًا من القرآن الكريم، ولكن هل هذا الكلام ينطبق على الإنجيل الموجود بين أيدي الناس الآن؟

أولا. أي إنجيل يقرُّ القرآن؟

حول نظرة القرآن الكريم للإنجيل، وحول المسيحية عمومًا من وجهة نظر إسلامية يحدثنا د. مراد هوفمان قائلًا: إذا سمع مسلم اسم النبي محمد ﷺ أو قرأه في أي نص، كما في هذا الكتاب مثلًا، فإنه يدعو للنبي مصليًا عليه ﷺ، كذلك يصلي المسلم على عيسى إن تلفظ باسمه أو سمعه.

قد يبدو هذا غريبًا مفاجئًا للقراء الذين ليسوا على علم كافٍ بطبيعة الإسلام وفهمه لذاته، ذلك أن الإسلام لا يعد نفسه دينًا جديدًا في مقابل المسيحية لمجرد أنه تاريخيًا جاء بعدها، بل إنه يرى نفسه مُكمِّلًا للدين الداعي إلى الوحدانية المطلقة، التي وصَّى بها إبراهيم ومن بعده من الأنبياء، ومهيمنًا عليها كما نصَّت على ذلك آيات كثيرة بيِّنة؛ منها قوله ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم

---

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ: "لا نكتب ولا نحسب" (١٨١٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال (٢٥٦٣).

(*) مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق.

مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (الشورى: ١٣)، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (المائدة).

من هذه الزاوية يمكن النظر إلى الإسلام بصفته أقدم الديانات الداعية إلى التوحيد، وإن كان في الوقت ذاته أحدثها تاريخيًّا، إنه إذا غضضنا الطرف عن أخلاقياته ومبادئه الكريمة التي تدعو للتسامح، فإنه لا يزعم لنفسه الأحقية المطلقة التي تشجب غيرها من الأديان، كما تفعل الكاثوليكية بموقفها من الديانات الأخرى.

بل إن الأمر أبعد من هذا، فالإسلام يبني صرحه على أسس الديانتين السماويتين اللتين سبقتاه، مشيدًا بأنبياء الله، مؤكدًا لجوهرهما الذي لم يُنْسَخ بالوحي، إن الإسلام رسالة الوحي إلى الناس كافة في المعمورة كلها. ولنتدبر معًا: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (آل عمران).

ليست صلاحية الإسلام - إذن - ناتجة عن رفضه لليهودية والمسيحية، فالصحيح أن تلك الديانات الثلاث تربطها وشائج القربى، بحيث ترى الفروق التي تفصل فيما بينها أقل بكثير من التي تفصلها عن البوذية والهندية مثلًا.

بذا نتفهم موقف الإسلام في اعتبار عيسى عليه السلام نبيًّا من أنبياء الله، فقد أسلم لله كما يدل على ذلك المعنى الحرفي اللغوي للفظة "مسلم" بيد أنه ليس بحال من الأحوال خاتم النبيين.

ومنطلق علم الأصول أو الدين الإسلامي أن محمدًا ﷺ لم يرد ذكره في التوراة فحسب، وإنما في الإنجيل كذلك، أي في العهدين القديم والجديد، وقد بشر عيسى نفسه بمقدم الرسول الذي تعني ترجمة اسمه "أحمد" مشتقًّا من الحمد: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (الصف)، وقد نص في ذلك نصًّا على أنه آخر الأنبياء وخاتم المرسلين.

يستقي الكثير معرفتهم عن منزلة عيسى ومريم وصورتهما في الإسلام من القرآن، خاصة من سورة آل عمران وسورة مريم، ولا يعرف الكثيرون صورتهما ومنزلتهما في الأثر والسنة، حيث يهتم القرآن بالعبرة المستهدفة من إرسالهما، ومن ثم كان إخباره عنهما بشكل أقل من النمط القصصي في السرد، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ

أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ (مريم)، وقوله ﷻ: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (آل عمران).

هذه الآيات البينات تجعل المسلم يتيقن أن الله ﷻ خلق عيسى خلقًا، لا بالتناسل المألوف: ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ (الجن) ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ ﴾ (الإخلاص). فولدته أمه العذراء مريم ـ مؤيدًا ـ بروح القدس، وبالمعجزات، كما في قوله ﷻ: ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ (المائدة)، ويتيقن المسلم أيضًا أن عيسى نشأ في بيئة يهودية، عبدًا صالحًا مباركًا نبيًّا، وأنه ليس ابنًا لله ـ حاشا لله ـ وأنه ليس ذا طبيعة إلهية أو جوهرًا مشابهًا لله، أو تجسيدًا للناسوت والألوهية في شخص واحد كما يزعمون: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (يونس)، ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾ (مريم).

أمّا التثليث فيرفضه القرآن رفضًا قاطعًا: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (المائدة). والآيات نفسها تؤكد بشرية مريم، وترفض تقديسها إلى درجة التأليه: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (المائدة).

هذا الإغراق والإفراط في تقديس مريم الذي يحلو للبعض أن يضيفه إليها يبرأ منه الإسلام، فما كانت

وابنها سوى عبدين صالحين، كعباد الله الصالحين، لا أكثر ولا أقل، أو كما يقول ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ (الأنبياء)، ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ (التحريم)، ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ (النساء: ١٧١)، إن القرآن الكريم يثبت رفع عيسى إلى السماء، لكن ليس كما تردد في الأناجيل بعد موته المزعوم على الصليب:

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ (النساء).

الآن وفي أيامنا هذه نتساءل: كيف ينظر الإنسان المعاصر إلى إنكار الطبيعة الإلهية للمسيح والروح القدس، اعتبار الأب والابن والروح القدس إلهًا واحدًا كما يزعم القائلون بالتثليث؟ أما أنا شخصيًّا - والكلام ما زال على لسان د. مراد هوفمان - فأرى أن نظرة الإسلام التي تنكر الطبيعة الإلهية لعيسى، تلقى مؤيدين يزداد عددهم باستمرار من بين المسيحيين أنفسهم"[1].

هذه هي طبيعة نظرة القرآن للإنجيل وتقدير الإسلام للمسيحية، فهل هذا ينطبق على واقع الديانة النصرانية وكتابها "الإنجيل" اليوم؟ حتى نقول إنهما ما يزالان يتمتعان بهذا التقدير السامي من قبل الإسلام وكتابه "القرآن".

ثانيًا. هل لا يزال الإنجيل - بمضمونه الحالي - كتابًا سماويًّا؟

تحت عنوان "ما يجب أن يكون في الكتاب الديني من صفات ليكون حجة يحدد الشيخ محمد أبو زهرة مواصفات الكتاب السماوي الصحيح، قائلًا: "لأجل أن يكون الكتاب حجة - يجب الأخذ به على أنه شريعة الله ودينه، ومجموع أوامره ونواهيه، ومصدر الاعتقاد وأساس الملة - يجب أن يتوافر في هذا الكتاب أمور:

أحدها: أن يكون الرسول الذي نسب إليه قد علم صدقه بلا ريب ولا شك، وأن يكون قد دعَّم ذلك الصدق بمعجزة، أي بأمر خارق للعادة قد تحدى به المنكرين والمكذبين، وأن يشتهر أمر ذلك التحدي وهذا الإعجاز، ويتوارثه الناس خلفًا عن سلف، ويتواتر بينهم تواترًا لا يكون للإنسان مجال لتكذيبه.

ثانيها: ألا يكون ذلك الكتاب متناقضًا مضطربًا يهدم بعضه بعضًا، فلا تتعارض تعليماته، ولا تتناقض أخباره، بل يكون كل جزء منه متممًا للآخر ومكملًا له؛ لأن ما يكون عن الله لا يختلف ولا يفترق ولا يتناقض، بل إن العقلاء في أقوالهم وفي كتبهم، يتحرون ألا يتناقض قولهم ولا يختلف تفكيرهم.

ثالثها: أن يدَّعي ذلك الرسول أنه أوحي إليه به، ويدعم ذلك الادعاء بالبينات الثابتة، وهي المعجزات التي بعث بها الرسول ودعا إلى كتابه على أساسها، ويثبت ذلك الادعاء بالخبر المتواتر أو يثبت بالكتاب نفسه.

رابعها: أن تكون نسبة الكتاب إلى الرسول الذي

---

[1]. الإسلام كبديل، مراد هوفمان، مرجع سابق، ص٥١: ٥٤.

نسب إليه ثابتة بالطريق القطعي، بأن تثبت نسبة الكتاب إلى الرسول، بحيث يتلقاه الأخلاف عن الأسلاف جيلًا بعد جيل من غير أي مظنة للانتحال.

وأساس ذلك التواتر أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب، حتى تصل إلى الرسول، بحيث يسمع كل فرد من الجمع الراوي عن الجمع الذي سبقه، والذي سبقه كذلك، حتى يصل إلى الرسول الذي أسند إليه الكتاب ونسب إليه، ونزل به الوحي عليه"[١].

فهل تنطبق هذه الشروط على الإنجيل الموجود بأيدينا الآن، يقول الشيخ أبو زهرة: "إن الكتب في الدين هي أساسه، فإن لم تكن مستوفية الشروط السابقة لم يكن الاطمئنان إلى صحتها كاملًا وتطرق إليها الريب والظن من كل جانب، وبذلك يتهدم الدين من أساسه ويؤتى من قواعده ولا يكون شيئًا مذكورًا في الأديان، بل يكون طائفة من أساطير الأولين كتبها طائفة من الناس، وادعوها دينًا ونسبوها لشخص معترف به، لتروج عند العامة وتدخل في أوهامهم، ويعتمدون على الزمان في تمكينها في نفوسهم وقلوبهم.

وهل الكتب المقدسة عند النصارى سواء أكانت من كتب العهد القديم أو العهد الجديد مستوفية هذه الشروط، فتكون ملزمة للكافة؟

لا يُزْعم أن الذين كتبوها من بعد عيسى عليه السلام رسل مبعوثون بها يبشرون الناس بما فيها؛ فنبحث هل هؤلاء رسل حقًّا وصدقًا، قد تثبت رسالتهم بدليل لا مجال للريب فيه؟!

ولقد قلنا إن الطريق لذلك أن يدّعوا هم هذه الرسالة ويثبتوها بمعجزة يجريها الله على أيديهم، ويتحدوا الناس ليدفعوهم إلى الإذعان أو ليسجلوا عليهم الكفر بعد أن يقوم الدليل عليهم.

إننا نبحث في مراجعهم فلا نجد مرجعًا صحيحًا قرر أن هؤلاء ادعوا مثل هذه الرسالة، ودعوا الناس إلى الإيمان بها ومعهم البرهان عليها والدليل القائم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. نعم قد نجد في رسالة أعمال الرسل ذكرًا لأخبار تلاميذ المسيح وأن روح القدس تجلى عليهم، وأنهم كانوا يأتون بأمور خارقة للعادة، وسماهم كاتب تلك الرسالة رسلًا، ففيها يذكر أن عدد الأصحاب بعد المسيح أحد عشر وهم: بطرس ويعقوب ويوحنا وأندراوس وفيلب وتوما وبرثولماس ومتى ويعقوب بن حلفى، وسمعان الغيور، ويهوذا أخو يعقوب، وأن بطرس وقف وألقى في وسط التلاميذ الذين بلغوا نحو عشرين ومائة ـ خطبة، وأنهم امتلئوا جميعًا بروح القدس، وتكلموا بألسنة غير ألسنتهم. ثم يذكر أن بطرس شفى أعرج من عرجه، ومات من كذب عليه، بعد أن كشف كذبه واختلاسه هو وامرأته.

ذكر سفر الأعمال هذا وذكر عجائب أتى بها بولس ـ في زعمه ـ في آخر ذلك السفر أيضًا، وكذلك نجد في إنجيل لوقا أنه يذكر أن المسيح أرسل سبعين رجلًا ليبشروا باسمه، وأنهم عادوا يقولون له: "يارب، حتى الشياطين تخضع لنا باسمك! فقال لهم: «رأيتُ الشيطان ساقطًا مثل البرق من السماء. ها أنا أعطيكم سلطانًا

---

١. محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص٧١، ٧٢.

لتدوسوا الحيَّات والعقارب وكل قوة العدو، ولا يضركم شيء. ولكن لا تفرحوا بهذا: أن الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بالحري أن أسماءكم كُتِبَت في السماوات»". (لوقا ٩: ١٧ ـ ٢٠).

ونريد أن نناقش أعمال الرسل وإنجيل لوقا في هذا المقام، لنعرف منه مَنْ هم هؤلاء الرسل، لم يذكر سفر الأعمال أسماء العشرين والمائة الذين مُلئوا من روح القدس، نعم إنه ذكر أسماء الحواريين الأحد عشر، وليس منهم من يُنسَبُ إليه كتب أو رسائل، سوى متى وبطرس ويوحنا ويعقوب ويهوذا.. وقد علمت بعض ما في نسبة إنجيل متى ويوحنا إليهما من شك، وأمّا بطرس والباقون فلهم رسائل، ولم يكن معترفًا بصحتها إلى سنة ٣٦٤، حتى إن مجمع نيقية لم يعترف بصحة نسبتها إلى أصحابها، وقد كان سنة ٣٢٥.

وإذا كان سفر الأعمال لم يذكر أسماء العشرين والمائة، ولم يذكر كذلك إنجيل لوقا أسماءهم، فكيف تؤمن برسالة رسل لم تُعرف أسماؤهم، نعم كانت تذكر بعد ذلك أسماء أشخاص، ويوصفون بأنهم رسل، ولكن لم يذكر أنهم من العشرين والمائة، ومن المؤكد أن بولس لم يكن في العدد الذي ذكر في الأعمال، ولا في العدد الذي ذكر في إنجيل لوقا.

إذن لا مقنع فيما جاء في سفر الأعمال، ولا في إنجيل لوقا؛ لأنه لم يذكر أسماء هؤلاء مَعْنِيِّين[1] بالاسم، ثم من هو مؤلف سفر الأعمال؟ قالوا إنه لوقا صاحب الإنجيل.

إذن فالمصدر هو لوقا في الاثنين، ولوقا قد بينا أنه طبيب وقيل إنه مصور، أو هو طبيب مصور، فهل كان من تلاميذ المسيح، أو كان من تلاميذ تلاميذه. لم يثبت شيء من ذلك.

وكل ما ثبت من صلته برجال المسيحية أنه كان من أصحاب أو تلاميذ بولس، وإذن فروايته عن هؤلاء وعن المسيح ليست برواية مَنْ شاهد وعاين، وعلى ذلك يكون السند غير متصل بين لوقا والمسيح أو تلاميذ المسيح.

لم نعرف إذن حقيقة هؤلاء الرسل ومن هم بسند صحيح، فضلًا عن أن يكون السند قطعيًّا، وإذا كنا لا نعرف من هم، فكيف نؤمن لهم بمعجزات؟ إن المصدر الذي ذكر المعجزات هو نفس المصدر الذي ذكر الرسل من غير أن يبين من هم، وهو راو لم يعاين ولم يشاهد، وعلى ذلك يكون الكلام في الإلهام وأنهم رسل ملهمون، لم يثبت بسند يصح الاعتماد عليه والاطمئنان إليه وبناء عقيدة تشرق وتغرب على أساسه.

ولكننا لا نكاد نتهي إلى هذه النتيجة حتى نجد من مجادلي القوم والمناظرين عنهم، من يزعمون أن لوقا نفسه صاحب سفر الأعمال وصاحب الإنجيل، كان من الرسل الملهمين فهو لا يحتاج إلى سند؛ لأن كل كلامه من الروح القدس الذي ملأه كما ملأ إخوانه الرسل. ولكن أين معجزته التي تثبت إلهامه حتى نُصَدِّق كل ما جاء في كتابيه، ويؤمن مؤمن "يحترم الإيمان" بكل ما اشتملا عليه، لم يرد عندهم أي شيء يدل على إلهام لوقا، وأنه كان في العشرين والمائة الذين ألقى فيهم بطرس خطبته وامتلئوا بروح القدس في زعمهم، ولم يكن من السبعين الذين أرسلهم المسيح -

١. مَعْنِيِّين: مقصودين.

كما ذكر في إنجيله - وأخضعوا الأرواح، وأخبرهم أن أسماءهم كتبت في السماء.

ولسنا في ذلك إلا مطالبين بأن يثبتوا إلهام لوقا، لنصدق بإخباره عن الرسل وأعمالهم وعن إلهامهم وامتلائهم بالروح القدس وإعجازهم، لا يوجد أمامنا أي دليل يثبتون به إلهام لوقا فيما كتب، حتى كنا نصدقه في كلامه عن الرسل الذين تجلى عليهم الروح القدس وامتلئوا به، وإن كنا لا نعرف أشخاصهم ولا شيئًا عن أسمائهم وأعمالهم.

بل لقد وجدنا من كُتَّاب القوم الباحثين من يصرح بأن لوقا لم يكن من الملهَمين وأن إنجيله لم يكن إلهاميًّا، وبالأولى رسالته لم تكن بإلهام؛ فقد قال من المحدثين واطسن في المجلد الرابع من كتاب الإلهام ما ترجمته: إن عدم كون تحرير لوقا إلهاميًّا يظهر مما كتب في ديباجة إنجيله، ونصها: "إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المستيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخدامًا للكلمة، رأيت أنا أيضًا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به". ومثل هذا القول من أن ما كتب لوقا ليس بإلهام قاله العلماء الأقدمون من المسيحيين، فيقول أرينوس: إن الأشياء تعلمها من بلغها إلينا.

لم يكن إذن لوقا ملهمًا؛ لأنه لا يوجد دليل يثبت إلهامه، ولأن مقدمة إنجيله كمقدمة رسالته تدل على أنه لم يكن ملهمًا؛ ولأن الثقات من العلماء الأقدمين والمحدثين يقررون أنه لم يكن ملهمًا فيما كتب، بل كتب ما تَعلَّم ولُقِّن، لا ما أوحي إليه به وأُلهم.

وإذا كانت رسالة الأعمال هي المصدر المثبت لإلهام الرسل وامتلائهم بالروح القدس، فيكون ذلك المصدر قد فقد صلاحيته؛ لأنه لم يكن متصل السند بين لوقا والتلاميذ والمسيح؛ ولأن لوقا لم يكن ملهمًا، وهذا كله على فرض صحة نسبة ما أسند إلى لوقا، وفي تلك الصحة كلام سنثبته في موضعه.

ليس عندنا إذن دليل نقلي عنهم يثبت رسالة من يسمُّونهم رسلًا، ويثبت أنهم كتبوا بالإلهام، حتى يعتبر كلامهم وحيًا أوحي به، ويجب تصديقه وقبوله، ولا نجد من الكتب ما يؤيد هذه الدعوى ويثبتها، بل إن راجعنا هذه الكتابات لا نجد أن كتابها يدَّعون لأنفسهم أنهم رسل، ولا من تلاميذه العشرين والمائة، ولا من السبعين الذين ذكرهم لوقا.

وقد رأينا بطرس في رسالتيه يقدمها بأنه رسول يسوع المسيح، ولم يذكر لنفسه وصف الرسالة المطلقة عن الله، ولا نجد في عباراتهم ما يدل على أنهم كتبوا بالإلهام إلا رسائل بولس، فهو الذي يذكر في رسالته أنه يتكلم عن الله، وأحيانًا يقول إنه يتكلم من نفسه.

وإذن نقول إن أصحاب هذه الكتب والرسائل لا يدعون لأنفسهم الرسالة والإلهام، إلا بولس الذي كانت صلته بالمسيحية على ما علمتم، وليس في كتبها ما يشهد له بالرسالة والإلهام إلا سفر الأعمال، وقد علمت قوة الاستدلال به، والاعتماد عليه في الاحتجاج والإثبات"[1].

وبعد أن يعرض المؤلف الإنجيل على محك المقاييس

---

١. محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص٧١ وما بعدها.

التي سبق وضعها للكتاب السماوي الصحيح، كعدم التضارب، وعدم انقطاع السند، وهو ما ثبت لديه عكسه - يقول مجملًا القضية ": هذه كلمتنا في كتبهم، تحرينا فيها أن نكتبها كما كتبها المسيحيون، ونوجه من النقد ما وجهوا، وذلك لكي ننصف القوم.

ولقد ألقينا عليها نظرة فاحصة لنوائم[1] بين أخبارها المختلفة ونجمع بين الأقوال المتضاربة، ونشير إلى حكم العقل المستقيم عليها، أهي صالحة لأن تكون مصدر دين يتدين به ألوف الألوف من البشر وأهل العلم؟ أم غير صالحة؟ إن كتاب كل دين هو الأصل والدعامة والأساس، فإذا كان غير صحيح السند أو غير مقبول لدى العقول كان ثبوت الدين فيه نظر، بل إنه انهار، وفقد أصله ولم يعد شيئًا في الأديان مذكورًا"[2].

أفدين كتابه المقدس بهذه الحالة من جهالة أحوال من يُدْعَون رسله وافتقادهم للوحي والإلهام والإعجاز، وانقطاع سنده واضطراب متنه، وتناقض أقواله، وهزال[3] بعض أفكاره وسخافة بعضها الآخر - خاصة فيما يتعلق بمقام الألوهية والنبوة - كأنها هلاوس بشر بنصف عقل، فهل دين بهذه الأوصاف يستحق أن يتعبد به بعض الناس، فضلًا عن أن يوجب على المؤمنين من أهل الأديان جميعًا أن يقرءوا كتابه ويؤمنوا به بوضعه الحالي، ومضمونه المحرَّف المتهافت؟

إذن بنينا موقفنا الرافض لهذا الطلب، المتمثل في الدعوة إلى قراءة الإنجيل الحالي والإيمان به، على أنه محرف وليس باقيًا على أصله السماوي الصحيح.

فما مفهوم التحريف وأنواعه وأدلة وقوعه وعوامل ذلك؟

تجيبنا عن هذه الأسئلة، مؤلفة كتاب "موقف ابن تيمية من النصرانية"؛ إذ تقول: "يتهم ابن تيمية النصارى بالتبديل والتحريف لكتبهم، ولا يخص بذلك الأناجيل فقط، ولكنه يضم إليها أسفار التوراة باعتبارها العهد القديم لكتابهم المقدس - عندهم - فيثبت فيها وقوع التحريف على أيدي اليهود، وكأنه يريد أن يقول: إن كتب النصارى سواء منها القديم والجديد قد وقع فيها التحريف.. فالتحريف: انحراف الشيء عن جهته، وميله عنها إلى غيرها، وهو يقتضي الخروج عن جادة الطريق، والمراد به هنا: إخراج الوحي والشريعة، عما جاءت به بالتغيير والتبديل في الألفاظ أو بالكتمان والتأويل الفاسد والتفسير الباطل.

والتحريف الذي يتحدث عنه ابن تيمية نوعان:

الأول: تحريف لفظي: وهو تغيير جميع الألفاظ أو بعضها، سواء كان هذا البعض قليلًا أو كثيرًا. وهذا النوع تنكره النصارى.

الثاني: تحريف معنوي: وهو تأويل هذه الألفاظ بمعان لا تدل عليها، ولا تحتملها تلك الألفاظ إلا بنوع من التعسف والافتعال.

وهذا النوع تقره وتعترف به النصارى. وكلا النوعين - كما يرى شيخ الإسلام ابن تيمية - واقع في

---

١. نوائم: نوفِّق.

٢. محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص٩٠.

٣. الهُزال: الضعف.

كتب اليهود والنصارى.

ويؤخذ مما تقدم أن ابن تيمية يرى أن التحريف الواقع في التوراة لم يتناول جميع الألفاظ، بل القليل منها، ولا سيما في الناحية التشريعية، وأنه ما زالت هناك بقايا في التوراة والإنجيل طُلِبَ من أصحابها الحكم بما أنزل الله فيه، يقول ﷺ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (المائدة: ٦٨).

وفيما يتعلق بالتحريف المعنوي فإن ابن تيمية يرى أن جميع الطوائف اليهودية والنصرانية، متفقة على وقوعه؛ لأن كل طائفة ترى أن غيرها أَوّل الكلام بما لا تحتمله الألفاظ من المعاني، وهذا يرجع إلى اختلاف فهمهم للعقيدة، واختلاف ما تأخذه كل طائفة من مدلولات هذه الألفاظ.

ويرى ابن تيمية ـ كما قدمنا ـ أن المسلمين يشهدون على النصارى بهذا النوع من التحريف، فيقول: فأما تحريف معاني الكتب بالتفسير والتأويل وتبديل أحكامها فجميع المسلمين واليهود يشهدون على النصارى بتحريفها وتبديلها، كما يشهد النصارى والمسلمون على اليهود بتحريف كثير من معاني التوراة، وتبديل أحكامها.

وابن تيمية يعني بذلك اتهام أصحاب هذه الأديان بعضهم لبعض ـ بل أرباب الفرق داخل كل دين ـ بأنهم ينحرفون في تأويل ما في كتبهم وتفسيرها، بحيث يجعلها كل فريق دالة على مذهبه مهما اختلفت بينهم تلك المذاهب، فكل فريق يتهم الآخر بالتحريف المعنوي لهذه النصوص، وصرْفها عما يرى أنه هو المعنى الصحيح لها، بل إنه يصرِّح بذلك، فيقول: وكل عاقل يعلم أن الكتب التي بأيديهم في تفسيرها من الاختلاف والاضطراب بين فرق النصارى، وبين النصارى واليهود ما يوجب القطع بأن كثيرًا من ذلك مبدّل محرّف.

ويورد ابن تيمية أدلة كثيرة على وقوع التحريف في الكتاب المقدس ـ عند النصارى ـ بعهديه القديم والجديد، سواء كانت أدلة نقلية أو عقلية (واقعية)، بل يستشهد على ذلك بمظاهر كثيرة من مظاهر التحريف الواقعية الموجودة في صفحات هذا الكتاب، فليس اتهامه لهذا الكتاب بالتحريف مجرد دعوى بلا دليل، وإنما يقدم الأدلة والشواهد الكثيرة على ذلك"[1].

وبعد أن يورد ابن تيمية العديد من هذه الأدلة، كاستشهاده بآيات القرآن والأحاديث، واختلاف الأناجيل لفظًا ومعنى فيما بينها، وتضمنها عقائد فاسدة وشرائع مبتدعة لم يأت بها المسيح ولا غيره، كعقيدة الصلب والفداء والتثليث وعدم اعترافهم بالبشارة بمحمد ﷺ... إلخ. تناقش المؤلفة شبهات النصارى على عدم تحريف كتبهم وإبطال ابن تيمية لها فتقول: "الواقع أن النصارى لا يُسَلِّمُون بالقول بوقوع التحريف اللفظي في كتبهم، بل لقد وُجِد من المعاصرين من ألف كتابًا بعنوان "استحالة التحريف في الكتاب المقدس".

ولكننا في هذا المقام لا يعنينا أن نعرض لهذا الكتاب

---

١. موقف ابن تيمية من النصرانية، د. مريم عبد الرحمن زامل، معهد البحوث بجامعة أم القرى، مكة الكرمة، ط١، ١٩٩٧م، ص٨٣ وما بعدها.

وما فيه، بل إن مقصدنا فقط هو أن نستعرض ما أورده ابن تيمية ونقله عن النصارى في عهده أو فيما قبله من شبهات؛ دفاعًا عن كتبهم وبيانًا منهم بعدم تحريفها، ثم إبطال ابن تيمية لشبهاتهم في هذا المقام، وذلك على النحو التالي:

الشبهة الأولى: يذكر ابن تيمية عن النصارى القول باستحالة تحريف كتابهم المقدس المكتوب باثنين وسبعين لسانًا والمتعدد النسخ في كل لسان والذي مضى عليه إلى مجيء النبي محمد ﷺ أكثر من ستمائة سنة، ويتساءلون في ذلك قائلين: إذا كان الكتاب الذي لهم "أي المسلمين" الذي هو باللسان الواحد لا يمكن تبديله، ولا تغيير حرف واحد منه، فكيف يمكن تغيير كتبنا التي هي مكتوبة باثنين وسبعين لسانًا؟ وفي كل لسان منها كذا، وكذا ألف نسخة؟!

وجاز عليها إلى مجيء محمد أكثر من ستمائة سنة، وصارت في أيدي الناس يقرءونها باختلاف ألسنتهم على تباعد بلدانهم.

وجماع رد ابن تيمية على هذه الشبهة: إننا لم نَدّعِ وقوع التحريف اللفظي في جميع النسخ بجميع اللغات، بل في بعضها لفظيًّا، وأما وقوع التحريف المعنوي فمُسَلّم به من الجميع، ولا وجه لقياس الأناجيل على القرآن المتواتر المحفوظ في الصدور، وإن كثرة النسخ في اللغات الكثيرة - على عكس ما يظنون - مما يتيح الفرصة للتحريف في كتبهم دون أن يتنبه إليه أحد، بخلاف الحال في القرآن المكتوب بلغة واحدة. هذا بالإضافة إلى أن ما تضمنته هذه الأناجيل من أقوال المسيح كما نقلها عنه أصحابها، إنما هي أقوال مترجمة؛ لأن عيسى لم يكن يتكلم إلا العبرية، ومع كثرة الترجمات يقع التحريف فيما نقل عن عيسى عليه السلام لا محالة.

الشبهة الثانية: يحتج النصارى على استحالة التحريف في كتبهم بثناء القرآن عليها وتعظيمه لها، مثل قوله ﷻ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨).

ولله دَرّ ابن تيمية في رده لدفاعهم هذا عن كتبهم وتفنيده لشبهاتهم وتأويلاتهم للآيات الكريمة؛ حيث يقول: القرآن أثنى على كتبكم نعم، والإنجيل فيه هدى ونور نعم أيضًا، ومحمد ﷺ صدّق ما قبله من الكتب، ومن جاء من الرسل نعم، كل هذا حق وصدق والقرآن ذكر ذلك، ولكن أراد الكتب التي لم تُحَرّف ولم تُبَدّل.

فالقرآن أثنى على توراتهم وإنجيلهم قبل التحريف، وعلى من بقي إلى عهد محمد ﷺ على نفس الدين الصحيح الذي جاء من عند الله، أما الكتب بعد التحريف والتبديل، فليس لها اعتبار في الإسلام، ولا تدل الآيات التي استشهدوا بها على أن كتبهم صحيحة، وغير محرفة، كيف وقد ثبت فعلًا أنها محرفة وشهد القرآن عليها بذلك صراحة في قوله ﷻ: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ (المائدة: ١٣)، وغيرها من الآيات، وقد بين الله أنه أنزل هذا القرآن مهيمنًا[١] على ما بين يديه من الكتب.

وليس المسلمون وحدهم هم الذين يقولون بوقوع التحريف في كتب أهل الكتاب عامة، وكتب النصارى

١. المُهَيْمن: المسيطر.

خاصة، بل إن المسيحيين أنفسهم شهدوا على ذلك، ومنهم من هداه الله للإسلام، ومنهم من بقي على مَسِيحِيَّتِه رغم اعترافه بالتحريف في كتبهم، يقول هورن: الحالات التي وصلت إلينا في بادئ زمان تأليف الأناجيل من قدماء مؤرخي الكنيسة (بتراء) غير معينة، لا توصلنا إلى أمر معين، والمشايخ الأقدمون صدقوا الروايات الواهية وكتبوها، وقَبِلَ الذين جاءوا من بعدهم مكتوبهم تعظيمًا لهم، وهذه الروايات الصادقة والكاذبة وصلت من كاتب إلى كاتب آخر، وتعذر نقدها بعد انقضاء المدة.

وهذا أيضًا اعتراف آخر من أحد كبار المؤرخين المسيحيين، وهو ول ديورانت الذي يعترف صراحة بالتحريف في كتبهم، وخصوصًا العهد الجديد، لا سيما الأناجيل، فيقول: وترجع أقدم النسخ التي لدينا من الأناجيل الأربعة، إلى القرن الثالث، أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت بين عامي ٦٠، ١٢٠م، ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان لأخطاء في النقل، ولعلها تعرضت أيضًا لتحريف مقصود.. وملاك القول أن ثمة تناقضًا كثيرًا، بين بعض الأناجيل والبعض الآخر، وأن فيها نقطًا تاريخية مشكوكًا في صحتها، وكثيرًا من القصص الباعثة على الريبة، والشبيهة بما يروى عن آلهة الوثنيين، وكثيرًا من الحوادث التي يبدو أنها وُضِعَت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة في العهد القديم، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها، تقدير أساس تاريخي لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس من طقوسها.

ويقول المسيو إيتين دينيه في كتابه "أشعة خاصة بنور الإسلام" ما نصه: "أمّا أن الله ﷻ قد أوحى الإنجيل إلى عيسى عليه السلام بلغته ولغة قومه، فالذي لا شك فيه أن هذا الإنجيل قد ضاع واندثر، ولم يبق له أثر، وبعض علماء المسيحية يرون أن أناجيلهم ما هي إلا كتب أدبية أكثر منها دينية، يقول ول ديورانت في ذلك: نقيس الآداب المسيحية في القرن الثاني بالأناجيل والرسائل والرؤى والأعمال.

لكننا مع ذلك نرى أنها ليست أدبية بالمعنى الصحيح، بل هي أدب مفكك تنقصه الاستمرارية، وتتضح فيه التناقضات، وفي ذلك يقول د. موريس بوكاي: اللمحة العامة التي أعطيناها عن الأناجيل، والتي استخرجناها من الدراسة النقدية للنصوص، تقود إلى اكتساب مفهوم أدب مُفَكَّك تفتقر خُطَبه إلى الاستمرار، وتبدو تناقضاته غير قابلة للحل.

فهذه الأناجيل بشهادة المسيحيين أنفسهم ليست كتبًا مقدسة - كما يدعون - وإنما هي كتب أدبية، بلغ أدبها من الركاكة والتفكك مبلغًا كبيرًا.

يقول شارل دني بير: وتَصَفُّح الأناجيل وحده يكفي بأن مؤلفيها قد توصلوا إلى تركيبات واضحة التعارض، لنفس الأحداث والأحاديث، مما يتحتم معه القول بأنهم لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية، ولم يستلهموا تاريخًا ثابتًا، يفرض تسلسل حوادثه عليهم، بل على العكس من ذلك اتبع كلٌّ هواه وخطته الخاصة في ترتيب وتنسيق مؤلفه.

وبعد هذا الذي قدمناه من شهادات علماء الأديان من المسلمين، وكذلك شهادات المسيحيين أنفسهم، يمكننا القطع بأنه من الخطأ الكبير أن نعتبر أسفار

الكتاب المقدس الموجودة حاليًّا كتبًا سماوية بالمعنى الصحيح؛ فليست إلا من وضع كاتبيها، ولم يحفظوا فيها من الكتب السماوية الحقيقية إلا النادر القليل - كما شاء الله - إذا قيس إلى ما أثبتوه فيها من تحريفات وتناقضات ومبتدعات"[1].

هل تريد أخي القارئ أن تطالع الآن نماذج حية من واقع نصوص الأناجيل تشهد على تحريفها والتبديل فيها؟ اقرأ معي قول القاضي أبي البقاء الهاشمي (ت ٦٦٨هـ): "نبين - بعون الله - في هذا الباب من تناقض إنجيل النصارى وتعارضه وتكاذبه وتهافته ومصادمة بعضه بعضًا ما يشهد معه من وقف عليه أنه ليس هو الإنجيل الحق المنزل من عند الله، وأن أكثره من أقوال الرواة وأقاصيصهم، وأن نَقَلَته أفسدوه ومزجوه بحكاياتهم، وألحقوا به أمورًا غير مسموعة من المسيح، ولا من أصحابه، مثل ما حكوه من صورة الصلب والقتل واسوداد الشمس، وتغير لون القمر وانشقاق الهيكل، وهذه أمور إنما جرت في زعم النصارى بعد المسيح، فكيف تُجْعَل من الإنجيل، ولم تُسْمَع من المسيح؟! والإنجيل الحق إنما هو الذي نطق به المسيح، وإذا كان ذلك كذلك فقد انحرفت الثقة بهذا الإنجيل، وعدمت الطمأنينة بنقلته، وقد قدمنا أنه ليس إنجيلًا واحدًا، بل الذي في أيدي النصارى اليوم أربعة أناجيل، جمع كل إنجيل منها في قطر من أقطار الأرض بقلم غير قلم الآخر، وتضمن كل كتاب من الأقاصيص والحكايات ما غفله الكتاب الآخر مع تسمية الجميع إنجيلًا.

وقد ذكر العلماء أن اثنين من هؤلاء العلماء الأربعة، وهما مرقس ولوقا، لم يكونا من الاثني عشر الحواريين أصحاب المسيح، وإنما أخذا عمن أخذ من المسيح، وإذا كان الأمر كذلك فهذان الإنجيلان ليسا من عند الله؛ إذ لم يسمعا من لفظ المسيح، والحجة إنما تقوم بكلام الله، وكلام رسوله وإجماع أصحاب رسوله، وقد صرح لوقا في صدر إنجيله بذلك، فقال: "إن ناسًا راموا ترتيب الأمور التي نحن بها عارفون، كما عهد إلينا أولئك الصفوة الذين كانوا خدامًا للكلمة، فرأيت أنا إذ كنت تابعًا أن أكتب لك أيها الأخ العزيز ثاوفيلس، لتعرف به حقائق الأمر الذي وعظت به. فهذا لوقا قد اعترف أنه لم يلق المسيح، وأن كتابه الذي ألفه إنما هو تأويلات جمعها مما وعظه به خدام الكلمة.

واعلم أن هؤلاء الأربعة تولوا النقل عن رجل واحد، فلا بد أن يكون الاختلاف، إما من قِبَل المنقول عنه أو من قبل الناقل، وإذا كان المنقول عنه معصومًا تعين الخطأ في الناقل.

هذا وقد ظهر هذا الخطأ والاضطراب في مظاهر عدة، منها:

١. **التكاذب: وهو تكذيب بعض الأناجيل بعضًا،** فمثلًا: يذكر متى في إنجيله أنه من يوسف رجل مريم - وهو الذي يُسمَّى يوسف النجار - إلى إبراهيم الخليل اثنتان وأربعون ولادة؛ حيث قال: "كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم: إبراهيم ولد إسحاق. وإسحاق ولد يعقوب. ويعقوب ولد يهوذا وإخوته. ويهوذا ولد فارص وزارح من ثامار. وفارص ولد

---

١. موقف ابن تيمية من النصرانية، د. مريم عبد الرحمن زامل، مرجع سابق، ص١٢٤ وما بعدها.

حصرون. وحصرون ولد أرام... وأليود ولد أليعازر. وأليعازر ولد متان. ومتان ولد يعقوب. ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يُدْعَى المسيح. فجميع الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلًا، ومن داود إلى سبي بابل أربعة عشر جيلًا، ومن سبي بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلًا". (متى ١: ١ ـ ١٧)، بينما يقول لوقا: "لا ولكن بينهما أربعة وخمسون ولادة"، وذلك تكاذب قبيح، ولعل الاستدراك على لوقا أولى؛ لأن متى صحابي، ولوقا ليس بصحابي، إلا أنه لا فرق بينهم عند النصارى.

وذلك يقضي بانخرام[1] الثقة بكليهما، قال المؤلف: صواب النسب الذي عددته في إنجيل متى تسعة وثلاثون رجلًا، وفي إنجيل لوقا خمسة وخمسون رجلًا. وذلك من يوسف خطيب مريم إلى إبراهيم الخليل بشرط دخول الجدين يوسف وإبراهيم في العدد، وقد اختلفا في الأسماء أيضًا، وذلك زلل ظاهر.

نوع آخر: قال لوقا: "وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف. واسم العذراء مريم. فدخل إليها الملاك وقال: «سلام لك أيتها المنعم عليها! الرب معك. مباركة أنت في النساء». فلما رأته اضطربت من كلامه، وفكرت: «ما عسى أن تكون هذه التحية!» فقال لها الملاك: «لا تخافي يا مريم، لأنك قد وجدت نعمة عند الله. وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع. هذا يكون عظيمًا، وابن العلي يُدْعى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية". (لوقا ١: ٢٦ ـ ٣٣).

وكذبه يوحنا وغيره فقال: "فحينئذ أخذ بيلاطس يسوع وجلده. وضفر العسكر إكليلًا من شوك ووضعوه على رأسه، وألبسوه ثوب أرجوان، وكانوا يقولون: «السلام يا ملك اليهود!». وكانوا يلطمونه. فخرج بيلاطس أيضا خارجًا وقال لهم: «ها أنا أخرجه إليكم لتعلموا أني لست أجد فيه علة واحدة». فخرج يسوع خارجًا وهو حامل إكليل الشوك وثوب الأرجوان. فقال لهم بيلاطس: «هوذا الإنسان!». فلما رآه رؤساء الكهنة والخدام صرخوا قائلين: «اصلبه! اصلبه!». قال لهم بيلاطس: «خذوه أنتم واصلبوه، لأني لست أجد فيه علة». أجابه اليهود: «لنا ناموس، وحسب ناموسنا يجب أن يموت، لأنه جعل نفسه ابن الله». فلما سمع بيلاطس هذا القول ازداد خوفًا. فدخل أيضًا إلى دار الولاية وقال ليسوع: «من أين أنت؟». وأما يسوع فلم يعطه جوابًا. فقال له بيلاطس: «أما تكلمني؟ ألست تعلم أن لي سلطانًا أن أصلبك وسلطانًا أن أطلقك؟» أجاب يسوع: «لم يكن لك علي سلطان البتة، لو لم تكن قد أعطيت من فوق. لذلك الذي أسلمني إليك له خطية أعظم". (يوحنا ١٩: ١ـ ١١).

وهذا تكاذب قبيح؛ لأن أحدهما يقول: إن يسوع يُمَلَّك على بني إسرائيل، والآخر يصفه بصفة ضعيف ذليل.

موضع آخر: قال لوقا: "وظهر له ملاك من السماء يقويه. وإذ كان في جهاد كان يصلي بأشد

[1] . انخرام: افتقاد وضياع.

لجاجة، وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض". (لوقا ٢٢: ٤٣، ٤٤). ولم يذكر ذلك متى ولا مرقس ولا يوحنا وإذا تركوا ذلك لم يؤمن أن يتركوا ما هو أهم منه، فتضيع السنن وتذهب الفرائض، وترفع الأحكام، فإن كان ذلك صحيحًا فكيف تركه الجماعة؟ وإن لم يصح ذلك عندهم لم يؤمن أن يُدخل لوقا في الإنجيل أشياء أُخر أفظع من هذا، ولعل لوقا قد صدق في نقله، فإن ظهور الملك علامة دالة وأمارة واضحة على رفْع المسيح إلى السماء، وصونه عن كيد الأعداء.

ثم إنّ المسيح عند النصارى عبارة عن لاهوت اتحد بناسوت فصارا بالاتحاد شيئًا واحدًا، وإذا كان ذلك كذلك فظهور الملك ليقوى مَنْ منهما؟ فإن قالوا ليقوى اللاهوت، كان ذلك باطلًا، إذ لا حاجة بالإله إلى مساعدة عبده وتقويته. وإن قالوا ليقوى الناسوت، أبطلوا الاتحاد إذ لم يبق ناسوت متميز عن لاهوت حتى يفتقر التقوية والنصرة، ثم ذلك يشعر بضعف اللاهوت عن تقوية الناسوت المتحد به، حتى احتاج إلى التقوية، وكيف يحتاج الإله إلى عبد من عبيده ليُقوِّيه، وكل عباد الله إنما قُوَّتُهم بالله ﷻ؟

موضع آخر: ذكر متى: "وجعلوا فوق رأسه علته مكتوبة: «هذا هو يسوع ملك اليهود». حينئذ صلِب معه لصان، واحد عن اليمين وواحد عن اليسار. وكان المجتازون يجدفون عليه وهم يهزون رءوسهم قائلين: «يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام، خلص نفسك! إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب!»". (متى ٢٧: ٣٧ـ ٤٠).

وذكر لوقا خلاف ذلك؛ حيث قال: "وكان الشعب واقفين ينظرون، والرؤساء أيضا معهم يسخرون به قائلين: «خلص آخرين، فليخلص نفسه إن كان هو المسيح مختار الله!». والجند أيضًا استهزءوا به وهم يأتون ويقدمون له خلًّا، قائلين: «إن كنت أنت ملك اليهود فخلص نفسك!». وكان عنوان مكتوب فوقه بأحرف يونانية ورومانية وعبرانية: «هذا هو ملك اليهود». وكان واحد من المذنبين المعلقين يجدف عليه قائلا: «إن كنت أنت المسيح، فخلص نفسك وإيانا!» فأجاب الآخر وانتهره قائلا: «أولا أنت تخاف الله، إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه؟ أما نحن فبعدل، لأننا ننال استحقاق ما فعلنا، وأما هذا فلم يفعل شيئا ليس في محله». ثم قال ليسوع: «اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك». فقال له يسوع: «الحق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس»". (لوقا ٢٣: ٣٥ ـ ٤٣).

وهذا تكذيب لقول متى بأنهما معًا كانا يعيران المسيح، ويهزءان به، وأغفل هذه القصة مرقس ويوحنا.

ومن المحال أن يحدث مثل هذا في ذلك الوقت، ولا يكون شائعًا ذائعًا. فإن كان صحيحًا فلم تركاه؟ وإن أهملاه سهوًا لم يُؤْمَن أن يهملا شيئًا كثيرًا من الإنجيل ولعلهما لم يصح عندهما، والدليل على عدم صحته تناقض متى ولوقا فيه، فإن اللصين عند متى كافران بالمسيح، وعند لوقا أحدهما كافر والآخر مؤمن وذلك قبيح جدًّا.

٢. **التناقض الواضح بين هذه الأناجيل:**

قال لوقا: "قال يسوع: لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس، بل ليخلِّص. فمضوا إلى قرية أخرى". (لوقا ٩: ٥٦) وخالفه أصحابه فقالوا: بل

قال: "لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض. ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا". (متى ١٠: ٣٤)، وهذا تناقض وتكاذب لا خفاء فيه، ونحن نُنَزِّه التلاميذ عن هذا التناقض القبيح، والنقل غير الصحيح، إذ بعضهم يجعله جاء رحمة للعالمين، والآخرون يقولون: بل جاء نقمة على الخلائق أجمعين"[١].

هذا، ولم يقتصر التحريف على العهود الغابرة[٢]، بل امتد للعصر الحاضر على يد الصهاينة، يقول الأستاذ أحمد عبد الوهاب: "رأينا فيما سبق أن العقيدة الصهيونية التي تدعو اليهود للسيطرة على العالم، والتحكم في مقدَّراته، قد حددت وسائلها لتنفيذ ذلك المخطط الصهيوني الرهيب.

ومن أخطر هذه الوسائل ما يتعلق بالخطة الخاصة بهدم العقائد الدينية، والتشكيك فيها عن طريق العبث بتراثها الديني وكتبها المقدسة.

ولما كان المؤتمر الديني العالمي الذي عقد بالفاتيكان في الستينات من هذا القرن، قد أقر ــ بعد مجادلات وانقسامات لأسباب مختلفة ـ ما أصبح يعرف باسم "وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح"، فقد أثبتت تلك الوثيقة صدق توقعات معارضيها، من رجال الدين المسيحي، فقد كان رأي أولئك العلماء أن اعتراف المسيحية بما جاء بوثيقة التبرئة إنما يعني بالضرورة إعادة كتابة الأناجيل والأسفار المسيحية المقدسة، حتى تتطابق عقائد الكنيسة في القرن العشرين مع عقائدها في القرن الأول للمسيحية.

وهذا ما حدث بالفعل، فقد تكفلت إسرائيل ـ التي تمثل تجسيد العقيدة الصهيونية ـ بذلك، فقامت بإعادة كتابة الأناجيل والرسائل المقدسة وحرفتها بأن غَيّرت فيها وبدلت؛ حتى تقترب في صورتها المحرفة مع ما جاء في وثيقة التبرئة. ولقد صدرت هذه الطبعة المحرفة لأسفار العهد الجديد عن "دار النشر اليهودية" بالقدس في عام ١٩٧٠م، وتقوم بتوزيع نسختها الإنجليزية ـ التي نعتمد عليها في هذه الدراسة ـ وكالة ريد بلندن.

تقول مقدمة الترجمة المحرفة لأسفار العهد الجديد ـ أو ما سوف نصطلح على تسميتها باسم "النسخة الإسرائيلية" وذلك للتمييز بينها وبين الترجمة المسيحية المعتمدة التي سنشير إليها باسم النسخة المعتمدة ـ ما يلي: إن هذه الترجمة اليهودية والمعتمدة للعهد الجديد يمكن وصفها بأنها: العهد الجديد خاليًا من معاداة السامية.

إن التعديلات التي أُدْخِلَت هنا على ترجمة عام ١٦١١م الإنجليزية المعتمدة، يمكن إثباتها من المصادر الأولى، وقد اختيرت جميعها لهدف واحد هو: التخلص ـ بقدر ما تسمح به الحقيقة ـ مما تحويه تلك الكلمة النكدة والتي تهدف إلى بذر العداوة بين المسيحيين واليهود.

إن تعاليم العهد الجديد الحقيقي تتضمن المحبة، بدلًا من تلك الكراهية القاتلة، وعلى هذا الأساس فإن هذه الترجمة اليهودية يحق لها أن يقال بأنها الترجمة المسيحية الصادقة، وفيما عدا ذلك من تعديلات، فإن

١. تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، أبو البقاء الهاشمي، تحقيق: د. محمود قدح، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٨م، ج١، ص٢٨٣ وما بعدها.
٢. الغابرة: القديمة.

نصوص هذه الترجمة تبقى كما هي في ترجمة ١٦١١م، ولتجنب أي لبس فإن الحواشي المذكورة في نهاية الصفحات تبين في كل لحظة موضع الانحراف الذي حدث للترجمة المعتمدة، بحيث يمكن القول بأن هذا الكتاب يعتمد على الترجمة المعتمدة والترجمة اليهودية على السواء. إن هذه الترجمة تمثل إعلانًا - تأخر كثيرًا عن موعده - للتقارب بين المسيحية واليهودية.

من هذا يتبين لنا بوضوح نظرة الترجمة الإسرائيلية المحرفة لمحتويات العهد الجديد الذي قبلته الكنيسة وعلمت به وعملت من أجله طوال تسعة عشر قرنًا مضت، كذلك تتحدد الخطة العامة للتحريف التي يستطيع القارئ حين يتصفح النسخة الإسرائيلية المحرفة أن يقرر أنها قد سارت على النحو الآتي:

- مَحْو كلمة "اليهود" من أسفار العهد الجديد - وهي الكلمة التي تكرَّر ذكرها ١٥٩ مرة - ثم استبدال كلمات مختلفة بها؛ في محاولة لتمييع المسئولية التي تكون قد عُلِّقت باليهود من جرَّاء قول أو فعل نَسَبَته إليهم تلك الأسفار، لذلك نجد كلمة "اليهود" قد مُحِيت ثم استُبْدِلت بها كلمات أخرى؛ مثل: مواطني ولاية اليهودية، وفيهم اليهود وغير اليهود، وهؤلاء قد أُطلق عليهم "أهل اليهودية".
- محو ما يتعلق بالشعب اليهودي باعتباره جماعة دينية ترتبط بـ "الناموس" و "المجمع" ويقوم على رأسها "الشيوخ"، و "رؤساء الكهنة" وتعرف بينها طوائف "الفريسيين" وجماعة "اللاويين"، ففي النسخة الإسرائيلية المحرفة نجد "الناموس" قد استبدل به "الكتاب المقدس"، واستبدل بالمجمع "الحكمة"، وبالشيوخ "المتشرعين،" وبرؤساء الكهنة "القسس والكهنة"، وبالفريسيين "المنعزلين" وباللاويين "المساعدين،" كذلك استبدل بمشيخة الشعب اليهودي "مثيري الرعاع"، وبالجمع أو الجميع أو المجموع من اليهود الغوغاء أو الرعاع، و "بخدام اليهود" الخدام، فقط مع إسقاط كلمة "اليهودية".
- التخلص من كلمة "الصلب" وما يشتق منها، وذلك بتحريفها إلى كلمات أخرى قد تقترب منها في المعنى، أو لا تقترب على الإطلاق؛ مثل استبدالهم بكلمة "اصْلُبْه" كلمات أخرى؛ نحو: "خُذْه" أو "أَبْعِدْه"، أو "انْفِه"، أو "اشْنُقْه".
- تجنب كلمة القتل وما يشتق منها، وذلك باستبدال كلمات أقل حدة بها؛ ككلمات: يَدِيْن أو يَنْفِي أو يأخذ أو يُضايِق أو يُنْكِر أو يُقاوِم.
- محو الفقرات التي تلقى مسئولية دم يسوع على اليهود وأولادهم من بعدهم، واستبدال فقرات أخرى بها تُحَمِّل المصلوب وِزْر[1] دَمِه المُراق.
- تحميل الرومان مسئولية حادثة الصَّلْب بعد تخليص اليهود منه، وذلك بتحريف الفقرات التي تلصق تلك المسئولية باليهود، أو بالشعب اليهودي، وإلصاقها بالحاكم الروماني بيلاطس، رغم ما تقرره أسفار العهد الجديد بوضوح لا يحتمل اللبس من أن بيلاطس حاول إنقاذ يسوع، وإطلاق سراحه، هدية من السلطة الرومانية الحاكمة للشعب اليهودي في عيده، فلم يصلح حتى اضطر إلى أن أخذ ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلًا: إني بريء من دم هذا البار.

---

١. الوِزْر: الذنب.

• تحريف الفقرات التي خاطب بها تلاميذ المسيح اليهود مباشرة، وأدانوهم فيها لمواقفهم الإجرامية من المسيح، وذلك بتحويلها من صيغة ضمير المخاطب الحاضر إلى صيغة ضمير الغائب، فاستبدل بالضمير "أنتم"؛ الضمير "هو" حتى تضيع المسئولية في تحديد مَنْ "هم".

هذا، ولسوف نعرض فيما يلي نماذج لما أصاب أسفار العهد الجديد من تحريف على يد المحرِّفين الإسرائيليين، وقد بلغت جملتها ٦٣٦ تحريفًا، مع الإشارة إلى أن الأعداد ـ التي تُبَيِّن مقدار ما أصاب أي سِفْر من التحريف ـ قد أُحصيت من الهوامش المذكورة في النسخة الإسرائيلية المحرفة، وهي لذلك تعتمد على أمانة القائمين على التحريف في رصد تلك الحواشي، إن كان لهم بقية من أمانة يمكن الإشارة إليها في حديث.

ثم يورد الأستاذ أحمد عبد الوهاب نماذج التحريف، التي نقتبس منها ما يلي:

١. تشتمل الترجمة المحرفة **لإنجيل متى** على ٩١ تحريفًا موزعة على إصحاحاته الثماني والعشرين، لكن أكثر هذه التحريفات وأخطرها ـ ولا شك ـ هو ما حدث للإصحاحات الأخيرة، وخاصة الإصحاح السادس والعشرين والإصحاح السابع والعشرين، وهما اللذان يرويان أحداث الصلب، وما سبقها من دسائس ومؤامرات وفيما يلي نماذج لبعض ما عاناه هذا الإنجيل من تحريف.

تقول النسخة المعتمدة: "ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية، في أيام هيرودس الملك، إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود؟ فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له". (متى٢: ١، ٢)[1]. وفي هذا تقول النسخة الإسرائيلية: "قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهودية". ونقرأ في النسخة المعتمدة: "ولكن احذروا من الناس، لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس، وفي مجامعهم يجلدونكم ". (متى١٠: ١٧). وهذه تقرأ في النسخة الإسرائيلية: "وفي محاكمهم يجلدونكم".

وتقول النسخة المعتمدة: "من ذلك الوقت ابتدأ يسوع يظهر لتلاميذه أنه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيرًا من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة، ويقتل، وفي اليوم الثالث يقوم ". (متى١٦: ٢١). وهذه يناظرها في النسخة الإسرائيلية: "يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيرًا من المتشرعين الكهنة والكتبة".

وفي نذير المسيح إلى الكتبة والفريسيين ـ فرق يهودية ـ تقول النسخة المعتمدة: "أيها الحيَّات أولاد الأفاعي! كيف تهربون من دينونة جهنم؟ لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة، فمنهم تقتلون وتصلبون، ومنهم تجلدون في مجامعكم، وتطردون من مدينة إلى مدينة". (متى٢٣: ٣٣، ٣٤). لكن النسخة الإسرائيلية تحاول الهرب من كلمة "الصلب" ولذلك تقول: "ها أنا أرسل إليكم أنبياء، فمنهم تقتلون وتشنقون، ومنهم تجلدون في محاكمكم".

ولما قررت العصابة التي تحكم الشعب اليهودي التخلص من المسيح، تجد النسخة المعتمدة تقول: "حينئذ اجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب

---

١. إسرائيل حرفت الأناجيل، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م، ص٤١ وما بعدها.

إلى دار رئيس الكهنة الذي يُدعى قيافا، وتشاوروا لكي يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه". (متى٢٦: ٣، ٤). لكن النسخة الإسرائيلية تحاول التخفيف من هدف المؤامرة على المسيح فتحرف كلمة القتل إلى النفي أو الإبعاد، ولذلك نقرأ فيها الفقرة السابقة هكذا: "وتشاوروا لكي يمسكوا بيسوع بمكر وينفوه".

لقد تظاهر جمع كثير من الشعب اليهودي ضد المسيح ساعين للقبض عليه توطئة لقتله. وفي هذا تقول النسخة المعتمدة: "وفيما هو يتكلم، إذا يهوذا أحد الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب. والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلًا: الذي أقبله هو هو. أمسكوه". (متى ٢٦: ٤٧، ٤٨).

ولما كانت النسخة المعتمدة تقرر أن تلك الجموع الثائرة ضد المسيح هي جموع يهودية كانت تلتقي به في الهيكل وتستمع إلى تعليمه، وذلك حين تقول: "في تلك الساعة قال يسوع للجموع: كأنه على لصٍّ خرجتم بسيوف وعِصِي لتأخذوني! كل يوم كنت أجلس معكم أُعلِّم في الهيكل ولم تمسكوني". (متى٢٦: ٥٥).

لذلك لجأت النسخة الإسرائيلية - في محاولة لتمييع القضية ومنع تحديد المسئولية - إلى استبدال كلمة "رعاع" بكلمة "جمع" مع إسقاط كل ما يشير إلى أن هذا الجمع الكثير من الشعب اليهودي، قد جاء من عند قادته، وذلك بحذف الفقرة التي تقول: "من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب"، وبهذا صارت النسخة الإسرائيلية تُقْرَأ هكذا: "وفيما هو يتكلم إذا يهوذا أحد الاثني عشر قد جاء ومعه رعاع كثير بسيوف وعصي، والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلًا: الذي أقبل هو هو، أمسكوه".

وأخيرًا - وليس آخرًا - ونحن نأتي إلى المثل الأخير لما أصاب إنجيل متى من تحريف، فإننا نأتي كذلك إلى بيت القصيد الذي من أجله نُسِجَت - ولا تزال تنسج إلى الآن - المؤامرات الدينية والسياسية، ألا وهو تقرير أن دم يسوع يتحمل إثمه يسوع نفسه وليس أحد سواه، ولئن صح ذلك فلا بد أن تزول عن اليهود، وعن أولادهم من بعدهم كل مسئولية تتعلق بتلك الجريمة النكراء، وما على العالم المسيحي - بعد هذا التحريف - إلا أن يبكي على المآسي والنكبات التي ذاقتها اليهود من جراء خطيئة تَقَرَّرَ خطأ - منذ ما يقرب من ألفي عام - تحميلهم تَبِعَتَها!!

ففي محاولة من الوالي الروماني لفك أسر يسوع وتخليصه من القتل، تذكر النسخة المعتمدة ما جرى بينه وبين اليهود من محاولات كان آخرها حين قال الوالي: "وأي شر عمل؟ فكانوا يزدادون صراخا قائلين: «ليصلب!» فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئا، بل بالحري يحدث شغب، أخذ ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلًا: «إني بريء من دم هذا البار! أبصروا أنتم!». فأجاب جميع الشعب وقالوا: «دمه علينا وعلى أولادنا». حينئذ أطلق لهم باراباس، وأما يسوع فجلده وأسلمه ليصلب". (متى٢٧: ٢٣ - ٢٦). أما النسخة الإسرائيلية فإنها تقول: "قال الوالي: وأي شر عمل، فكانوا يزدادون صراخًا قائلين: ليمت، فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئًا بالحري يحدث شغبًا، أخذ ماء وغسل يديه قدام الرعاع، قائلًا: إني بريء من دم هذا

البار، أبصروا أنتم، فأجاب الرعاع وقالوا: دمه عليه".

٢. وبلغت تحريفات **إنجيل مرقس** ٥٢ تحريفًا، وكما حدث لإنجيل متى، فقد تركَّزت هذه التحريفات في كل ما يتعلق بأحداث الصلب، وفيما يلي عرض لبعض منها:

تقول النسخة المعتمدة: "وكانوا في الطريق صاعدين إلى أورشليم ويتقدمهم يسوع، وكانوا يتحيرون. وفيما هم يتبعون كانوا يخافون. فأخذ الاثني عشر أيضًا وابتدأ يقول لهم عما سيحدث له: ها نحن صاعدون إلى أورشليم، وابن الإنسان يسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة، فيحكمون عليه بالموت، ويسلمونه إلى الأمم". (مرقس ١٠: ٣٢، ٣٣). لكن النسخة الإسرائيلية خففت الحكم بالموت، وجعلته مجرد إدانة، وفي هذا تقول: "ها نحن صاعدون إلى أورشليم وابن الإنسان يسلم إلى الكهنة والكتبة فيدينونه".

٣. وبلغت تحريفات **إنجيل لوقا** ٧٣ تحريفًا أُدْخِل أغلبها على قصة الصلب؛ بهدف إبعاد المسئولية عن اليهود، وإلقاء الشبهة على رعاع ذلك الشعب والطبقة الدنيا منه، مع بيان أن ثورة أولئك الرعاع ضد المسيح لم تكن تبغي صلبه، وإنما كانت تطالب بإبعاده أو التخلص منه بصورة أو بأخرى. وفيما يلي عرض لبعض ما تقوله كل من النسختين - المعتمدة والإسرائيلية - في هذا المجال.

تقول النسخة المعتمدة: "وقرب عيد الفطير، الذي يقال له الفصح. وكان رؤساء الكهنة والكتبة يطلبون كيف يقتلونه، لأنهم خافوا الشعب". (لوقا ٢٢: ١، ٢). وتقول النسخة الإسرائيلية: "وكان الكهنة والكتبة يطلبون كيف يضايقونه". وفي بدء أحداث الصلب، تقول النسخة المعتمدة: "وبينما هو يتكلم إذا جمع، والذي يُدعى يهوذا، أحد الاثني عشر، يتقدمهم، فدنا من يسوع ليقبله". (لوقا ٢٢: ٤٧). وتقول النسخة الإسرائيلية: "وبينما هو يتكلم إذا رعاع والذي يُدعى يهوذا"، وتقول النسخة المعتمدة: "ولما كان النهار اجتمعت مشيخة الشعب: رؤساء الكهنة والكتبة، وأصعدوه إلى مجمعهم". (لوقا ٢٢: ٦٦). بينما تقول النسخة الإسرائيلية: "ولما كان النهار اجتمع مثيرو الرعاع والكهنة والكتبة وأصعدوه إلى مجمعهم". ونقرأ في النسخة المعتمدة: "فقام كل جمهورهم وجاءوا به إلى بيلاطس". (لوقا ٢٣: ١). بينما تقرأ ذلك في النسخة الإسرائيلية: "فقام كل رعاعهم، وجاءوا به إلى بيلاطس".

٤. ويُعدُّ **إنجيل يوحنا** أكثر الأناجيل تحريفًا، فقد بلغت جملة تحريفاته ١٣٥، وما ذلك إلا لأن الخط العام الذي سار عليه المحرفون هو محو كلمة "اليهود" التي تكررت فيه ١٥٣ مرة، وهو رقم يزيد عن عشرة أمثال ورودها في أي من الأناجيل الثلاثة السابقة؛ لذلك فاز إنجيل يوحنا بأكبر عدد من التحاريف. وفيما يلي عرض لبعض ما تذكره كل من النسختين - المعتمدة والإسرائيلية - في مختلف المواقف والروايات:

تقول النسخة المعتمدة: "وهذه هي شهادة يوحنا، حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه: «من أنت؟». فاعترف ولم ينكر، وأقر: «إني لست أنا المسيح»". (يوحنا ١: ١٩، ٢٠). وتقول النسخة الإسرائيلية: "وكان الفصح اليهودي قريبًا، فصعد

يسوع إلى أورشليم". وتقول النسخة المعتمدة: "كان إنسان من الفرِّيسيِّين اسمه نيقوديموس، رئيس لليهود". (يوحنا ٣: ١). وتقول النسخة الإسرائيلية: "كان إنسان من المنعزلين اسمه نيقوديموس رئيسًا للعبريين".

وحين شفى المسيح مريضًا في السبت، تقول النسخة المعتمدة: "ولهذا كان اليهود يطردون يسوع، ويطلبون أن يقتلوه، لأنه عمل هذا في سبت. فأجابهم يسوع: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل». فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه، لأنه لم ينقض السبت فقط، بل قال أيضًا: إن الله أبوه، معادلًا نفسه بالله". (يوحنا ٥: ١٦ـ ١٨). لكن النسخة الإسرائيلية تقول في ذلك: "لهذا كان أهل اليهودية يطردون يسوع ويطلبون أن يضايقوه؛ لأنه عمل هذا في السبت، فمن أجل هذا كان أهل اليهودية يطلبون أكثر، أن يضايقوه".

كذلك تقول النسخة المعتمدة: "وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل، لأنه لم يرد أن يتردد في اليهودية لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه". (يوحنا ٧: ١). بينما تقول النسخة الإسرائيلية: "وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل؛ لأنه لم يرد أن يتردد في ولاية اليهودية؛ لأن أهل اليهودية كانوا يطلبون أن يضايقوه".

٥. وأُصيب **سفر أعمال الرسل** بأكبر عدد من التحريفات، فقد بلغت جملتها ١٦٥ تحريفًا، وترجع الزيادة في هذا الرقم لنفس السبب الذي ذكر عند الكلام على التحريف في إنجيل يوحنا، ألَا وهو كثرة ذكر هذا السفر لكلمة "اليهود"، فقد تكررت ٦٤ مرة، بالإضافة إلى سرده للمحاورات والمواجهات التي حدثت بين تلاميذ المسيح وبين اليهود، وما تطلبه ذلك من تسجيل هذا السفر لما كان يُوَجَّه من كلام إلى اليهود بطريق مباشر، أو ما كان يقال عنهم، بطريق غير مباشر.

تقول النسخة المعتمدة: "فوقف بطرس مع الأحد عشر ورفع صوته وقال لهم: أيها الرجال اليهود والساكنون في أورشليم أجمعون، ليكن هذا معلومًا عندكم وأصغوا إلى كلامي... أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم، كما أنتم أيضًا تعلمون. هذا أخذتموه مسلَّمًا بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق، وبأيدي أثمة صلبتموه وقتلتموه". (أعمال الرسل ٢: ١٤ـ ٢٣). لكن النسخة الإسرائيلية تقذف بهذا الاتهام الصريح بعيدًا عن الإسرائيليين وتلصقه بالرومان، وذلك حين تقول: "وقف بطرس مع الأحد عشر ورفع صوته وقال: هذا أخذتموه مسلَّمًا بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق، وقد صلبته أيدي الرومان وقتلته".

واستمرارًا لحديث بطرس السابق إلى الإسرائيليين، تقول النسخة المعتمدة: "فليعلم يقينًا جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا، الذي صلبتموه أنتم، ربًّا ومسيحًا". (أعمال الرسل ٢: ٣٦). بينما تقول النسخة الإسرائيلية: "ليعلم يقينًا أن الله جعل يسوع هذا المصلوب، ربًّا ومسيحًا".

هل ـ بعد كل هذا ـ لا يزال هناك موضع ومبرر لعاقل يحترم عقول الناس وأفهامهم لأن يدعوهم إلى تقديس الإنجيل ـ بوضعه الحالي ـ والتبرك بقراءته؟!!

صدق من قال: اكذب ثم اكذب ثم اكذب حتى يصدّقك الناس، وربما تصدِّق أنت نفسك من طول تعهدك الكذب وإلفك إياه.

يا الله يا حي يا قيوم يا واهب الإنسان العقل ومكرم بني آدم به من بين خلقك، أهذا مضمون كتاب ـ فيه ما فيه من دسّ وتحريف وخداع وتمويه ـ يستحق أن يُنْسَبَ لبشر عاقل. فضلًا عن أن يعد كتابًا سماويًّا مقدسًا يستأهل من الناس التقديس والاحترام، أم هو مجرد إثبات وجود، وحفاظ على مكاسب، تحققت لفئة من السدنة عبر التاريخ؟!!

ثالثًا. الإنجيل الصحيح بشّر بمحمد ﷺ نبيًّا خاتمًا وبالقرآن ناسخًا:

لو كان الإنجيل حقًّا ـ بحالته الآن ـ سليمًا من عبث العابثين ويستحق التقديس، لآمن أهله بمحمد ﷺ نبيًّا خاتمًا ورحمة للعالمين، وبالقرآن كتابًا سماويًّا مهيمنًا على ما سبقه من رسالات السماء، وناسخًا لما نزل قبله من كتب وصحائف. كما في البشارة عندهم بذلك، وهذا ما لم تستطع يد التحريف إخفاءه إخفاءً تامًّا.

تحت عنوان "ابن الإنسان من هو" يقول محمد فاروق الزين بعد أن يذكر قوله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (المؤمنون)، وقوله ﷻ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ (الحديد).

تكررت الإشارة إلى ابن الإنسان في العهد الجديد نحو ثلاث وثمانين مرة في الكلام المنسوب إلى عيسى، فمن هو ابن الإنسان الذي كان يقصده عيسى في كلامه؟ ورد في سفر المزامير بالعهد القديم أنه ابن آدم؛ أي بني آدم، كما يقول مجازًا عن جنس البشر؛ ففيه: "فمن هو الإنسان حتى تذكره؟ وابن آدم حتى تفتقده؟ وتنقصه قليلًا عن الملائكة، وبمجد وبهاء تُكلِّله. تسلطه على أعمال يديك. جعلت كل شيء تحت قدميه: الغنم والبقر جميعًا، وبهائم البر أيضًا، وطيور السماء، وسمك البحر السالك في سبل المياه". (المزامير ٨: ٤ـ٨).

غير أن هنالك تعريفًا محددًا لابن الإنسان ورد في سفر دانيال بالعهد القديم: "كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام، فقربوه قدامه. فأعطي سلطانًا ومجدًا وملكوتًا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة". (دانيال ٧: ١٣، ١٤).

وهذا التعريف هو الأساس لفهم شخص ابن الإنسان في الكتاب المقدس، فهو المنقذ من الضلال المخلص، الذي يُغيِّر ـ عند مجيئه ـ الأوضاع القائمة.

وعمومًا، فإننا نجد تركيزًا في تعاليم اليهود، وكتبهم ونبوءاتهم على مجيء النبي ـ المنقذ، الذي بزعمهم يجب أن يكون من سلالة داود النبي ـ الملك، وأنه عند مجيئه سوف يحرر اليهود من مضطهديهم؛ لأن ظفر المنقذ بوصفه نبيًّا قائدًا سيكون دنيويًّا دينيًّا في الوقت نفسه.

أمّا معلقو الكنيسة فيودون إعطاء الانطباع المباشر أو غير المباشر، أن عيسى في أحاديثه المتكررة عن ابن الإنسان كان يشير إلى نفسه من طرف خفي، هذا على الرغم من أنه كان على ابن الإنسان المنقذ عند مجيئه، أن يفكك الأوضاع والأنظمة القائمة، وينشئ مكانها نظامًا جديدًا يكون فيه ابن الإنسان منقذًا نبيًّا ملكًا، أي ذا

سلطة دنيوية، وليست سلطته سلطة دينية فقط، فالمفترض أن تنهار عند مجيئه السلطات الدنيوية بكل ما فيها من شرك ومن وثنية، وبكل ما فيها من إباحية لا أخلاقية وإباحية جنسية. ومن الواضح أنه ـ خلافًا لتوقعات العامة ـ لم يتحقق شيء من ذلك في زمن عيسى، ولا حتى في زمن أتباعه، فاليهود الذين كانوا وقتها يمثلون الديانة التوحيدية الوحيدة لم يحققوا النصر على إمبراطورية روما، مع أنهم كانوا يتطلعون إلى قدوم المخلص المنتظر؛ كي ينقذهم من جيوش روما ومن إمبراطوريتها.

ومع ذلك تلهف مؤلفو أسفار العهد الجديد على تصوير عيسى المسيح بأنه ابن الإنسان، المنقذ المظفر، لدرجة أنهم ابتدعوا في قصة دخوله الأخير إلى القدس لقبًا مصطنعًا محيرًا ومربكًا؛ إذ أطلقوا عليه صفة "الدخول المظفر إلى القدس". (يوحنا ٦: ١٠).

رغم أن دخول عيسى إلى القدس، لم يكن له علاقة بأي ظفر ولا نوايا من جانبه لقيادة اليهود ضد إمبراطورية روما، ولا إنشاء نظام سياسي جديد، ولا القيام بأي مهمة من المهام المفترض على ابن الإنسان أن ينجزها. وإذا لم يكن ممكنًا الادعاء أن المسيح هو ابن الإنسان الذي تنبأ به دانيال، لذا فَقَدَ اللقبُ ـ في أذهان مؤلِّفي الأسفار ـ أي مفهوم وأي مغزى عسكري له، وبالتالي حاولوا تجريده من أي مغزى أو دلالة سلطة دنيوية، وحولوه إلى مفهوم رمزي داخلي بحت، فأصبح اللقب عندهم رمزيًّا بحتًا مختلفًا عن صلة النبي ذي السلطة الدنيوية المشار له في سفر دانيال، وقد وجد بولس لنفسه المخرج من هذه المعضلة بأن دخل في روعه أن المسيح في مجيئه المظفر الثاني سوف يحقق ما لم يستطع تحقيقه في المجيء الأول، وبحيث تطابق أوصافه في المجيء الثاني ما تنبأ به دانيال لابن الإنسان من القوة والسلطان والمجد، وزاد بولس أن المجيء الثاني لن يكون في المستقبل البعيد بل قريبًا جدًّا، قبل أن تدرك المنية بولس الثاني.

غير أن عيسى في أحاديثه كان يتكلم عن ابن الإنسان دومًا بصيغة الغائب مشيرًا بشكل خفي إلى شخص آخر غيره هو شخصيًّا، وهذه الصيغة وحدها هي التي يمكن أن تجعل أحاديثه منطقية، ولا بد أنه كان يشير إلى النبي الأحمد، خاتم الأنبياء والرسل ﷺ؛ لأنه في هذه الحالة فقط تتحقق النبوءة عن ابن الإنسان المذكورة في سفر دانيال، إذ محمد ﷺ وحده حقق صفة النبي ذي السلطة الدنيوية، فجمع بين صفات النبوة والدين، وصفات السلطة الدنيوية والقوة الظافرة.

أجاب عيسى عن سؤال رسل يحيى قائلًا لهم: "فأجاب يسوع وقال لهما: «اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران: العُمْيُ يُبْصِرون، والعُرْجُ يمشون، والبُرص يَطْهُرُون، والصُّم يَسْمَعُون، والموتى يقومُون، والمساكين يُبشَّرون»". (متى ١١: ٤، ٥).

غير أن يحيى كان يدرك ولا شك أن هذه المعجزات الخارقة، مهما كانت باهرة، ليست كل ما هو متوقع من النبي المنتظر، كان سؤال يحيى ليس واضحًا كل الوضوح: هل أنت ذلك النبي أو لا؟ هل أنت المنقذ المخلص؟ هل أنت النبي المنتظر ذو السلطة الدينية والدنيوية معًا؟ وكان جواب عيسى بدوره واضحًا في مغزاه: المسيح النبي ولكني لست المنقذ المخلص، لست

النبي المنتظر ذا السلطة الدنيوية.

لقد نفى عيسى أن يكون هو المُخَلِّص وفي الواقع لو كان يحيى يعتقد أن عيسى هو النبي المخلص، حقًّا لما اضطر إلى سؤاله، ولكنه كان يتوقع ويأمل أن يكون عيسى شخصًا أكثر من المسيح، كان يتمنى لو كان عيسى هو النبي المنتظر ذا السلطة الدينية والدنيوية معًا، ولم يكن يحيى وحده الذي يحتضن هذا الأمل والرجاء، حتى الحواريون أنفسهم بدا عليهم الالتباس، مع أن عيسى كان يؤكد لهم باستمرار وفي أكثر من مناسبة وبلباقة، ويعرض لهم ألّايتوقعوا منه القيام بالدور الذي لم يكن مقدرًا له أن يلعبه، الدورِ الذي كان مقدّرًا لغيره، كان طبيعيًّا ألا يقوم عيسى بمهام المُخَلِّص؛ لأنه هو نفسه لم يكن المخلص، لقد علّم عيسى الناس أن يقبلوا ويتحملوا الاضطهاد، أن يقبلوا الأوضاع الراهنة، علمهم الحلم والخضوع والتوبة والاستقامة، وأن يسعوا وينشدوا مملكة الله القادمة، إذ لم يكن عصره جاهزًا لقيام مملكة الله على الأرض التي يُعْبَد فيها الله وحده والتي تُمْحَى منها الأوثان والوثنية. كان عيسى في صلواته يدعو الله قائلًا: "ليأت ملكوتك" وكان تعبير "مملكة الله" مألوفًا في العهد القديم، ولا شك أن عيسى علّم أتباعه أن مملكة الله سوف تتحقق فعلًا لا مجازًا، ولكن ليس في زمنه هو.

كان عيسى يعلم أنه بصفته المسيح يستطيع أن يجترح المعجزات، أما النبي المنتظر فكان يتوقع منه غير ذلك، النبي المنتظر يجب أن يكون ابن الإنسان المذكور في سفر دانيال، النبي المخلص الذي يفتتح عصرًا جديدًا في تاريخ البشرية، الذي يقهر أعداءه ويقضي على الشرك، وينشئ مملكة الله على الأرض التي لا يُعْبَد فيها إلا الله ﷺ، إنه النبي الأحمد العلم الذي بشّر به عيسى بالاسم، وكان مقدّرًا له أن يُبْعَث بعده بستة قرون.

في بداية بعثته اتخذ عيسى لنفسه مقرًّا في "كفر ناحوم" وهي قرية على الشاطئ الشمالي لبحر الجليل - بحيرة طبريا - سكانها خليط من الأهالي والرومان والرسميين من الحكام، فلم تكن القرية من هذه الناحية مناسبة لمتمرد أو لثائر أن يتخذها مقرًّا له، بل على العكس كانت مناسبة لمن أراد التهدئة والدعوة إلى ضبط النفس.

لم يدَّع عيسى قط أنه النبي المنقذ، إذ لم يكن مقدّرًا له إنقاذ شعبه من إمبراطورية روما ولا إعادة بناء مملكة داود، وهو طيلة مدة بعثته القصيرة لم يُبْدِ من جانبه أدنى ملاحظة أو تلميح في خطاباته وأحاديثه، ولا في أفعاله وتخطيطه ما يوحي بأي دلالة يمكن أن يُفْهَم منها أنه النبي المنقذ، وهو لهذا السبب بالذات تجنب أن يدعو الناس للمواجهة، بل على النقيض من ذلك نرى كل تعاليمه تتركز على المسالمة والتهدئة، وخاصة عند لقائه مع ثوار الجليل، ومع المتحمسين لطرد الرومان من فلسطين، فكان يحذرهم مرة بعد أخرى من الثورة والعصيان المسلح، ومن أقواله: "أَحِبَّ عدوك ولا تجابه[1] الشر" و "من صَفَعَك على خدِّك الأيمن فأَدِرْ له الأيسر، ومن أَكْرَهَك على السير معه ميلًا سر معه ميلين".

لقد أنذر اليهود صراحة وعمدًا ألا يسلكوا سبيل العنف، والثورة ولا الرد على الشر بالمثل.

---

١. تجابه: تواجه.

ولا يمكن أن يفوتنا في أحاديث عيسى وخطاباته إنكاره المتكرر لمن اعتقد فيه شخصية المنقذ. وفي حادثة مهمة من هذا القبيل حاول تهدئة مجموعة من الثُّوَّار قوامها نحو خمسة آلاف تبعوه إلى الجليل؛ كي يجعلوا منه قائدًا لهم، معتقدين أنه النبي المنقذ، وهي الحادثة التي قام خلالها بمعجزة أرغفة الخبز؛ ففي إنجيل يوحنا: "فرفع يسوع عينيه ونظر أن جمعًا كثيرًا مُقبِل إليه، فقال لِفِيلُبُّس: «من أين نبتاع خبزًا ليأكل هؤلاء؟» وإنما قال هذا ليمتحنه، لأنه هو علم ما هو مزمع أن يفعل. أجابه فيلبس: «لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئًا يسيرًا». قال له واحد من تلاميذه، وهو أَنْدَراوُس أخو سمعان بطرس: «هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان، ولكن ما هذا لمثل هؤلاء؟» فقال يسوع: «اجعلوا الناس يتكئون». وكان في المكان عشب كثير، فاتَّكأ الرجال وعددهم نحو خمسة آلاف. وأخذ يسوع الأرغفة وشكر، ووزع على التلاميذ، والتلاميذ أعطوا المتكئين. وكذلك من السمكتين بقدر ما شاءوا. فلما شبعوا، قال لتلاميذه: «اجمعوا الكِسَر الفاضلة لكي لا يضيع شيء». فجمعوا وملئوا اثنتي عشرة قُفَّة من الكسر، من خمسة أرغفة الشعير، التي فضلت عن الآكلين. فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا: إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم". (يوحنا ٦: ٥ ـ ١٤).

ومغزى هذه القصة شديد الأهمية، ويتمحور حول قول عيسى للثوار اليهود "ليجلس الرجال"؛ فقد كان هناك مغزى عملي في كلامه شديد الوضوح، لقد أنذر الرجال كي لا يستولي عليهم الوهم، بأن الوقت قد حان لثورة أخرى ضد روما، وكي لا يظنوا أن عيسى جاءهم قائدًا عسكريًّا، أو منقذًا لهم من الاضطهاد، فأمرهم أن يجلسوا وأطعمهم من خمسة أرغفة، وسمكتين، أرادهم أن يفهموا أن الوقت لم يحن بعد لمجيء النبي المخلص، وأفهمهم ألَّا يسلكوا طريق العنف؛ لأنه لا يفيدهم سوى الدمار، وبينما هو يعظهم بمملكة الله القادمة التي لم يكن مقدرًا له أن يقودها، كانوا بالمقابل لشدة حماسهم يَتُوقون[1] أن يكون هو مُنْقِذهم ومُخَلِّصهم، يتشوَّقون أن يقودهم ضد إمبراطورية روما دون انتظار، لقد سيطر عليهم الوهم بأنه النبي المنتظر، وهو ما أراد عيسى أن ينفيه عن نفسه.

كانت رسالته إلى بني إسرائيل مختصرة ومفهومه، قال لهم: "ليجلس الرجال"، فلم يكن عيسى المخلص، ولم يدَّع أنه المخلص، لقد بشرهم بمملكة الله التي سوف تنشأ في المستقبل، ومن هنا فقط نستطيع أن نفهم دعاءه المتكرر في الصلاة "ليأت ملكوتك" بصيغة المستقبل.

كانت مجموعة الرجال التي حاول عيسى تهدئتها في الجليل نموذجًا لشعب إسرائيل المتمرد، ولشدة عنادهم لم يفهموا الرسالة، ولم يستوعبوا كلام عيسى، ولا المغزى من معجزة أرغفة الخبز، وربما فهموا النقيض من ذلك؛ إذ قالوا: "فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا: «إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم» ، "وأما يسوع فإذ علم أنهم مُزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه مَلِكًا، انصرف أيضًا إلى الجبل وحده". (يوحنا ٦: ١٥). أي عندما فشل في إقناع ذوي

١. يَتُوقون: يتشوَّقون.

العقول العنيدة بحقيقة مهمته وبحقيقة بعثته، وخوفًا أن يظنوا أنه مَلِك دنيوي، توارى عنهم نحو الجبل، واختفى عن ناظرهم.

فمن المحزن أن إيضاح عيسى المتكرر لجمهوره عن طبيعة مهمته، وتحذيره لهم ألا يسيئوا فهم بعثته وألّا يعلقوا عليها آمالًا للخلاص من روما عسكريًّا، ومحاولته أن يوازن تطلعاتهم بشتى الوسائل ـ كل ذلك لم يفلح لا على المستوى المحلي بين أفراد شعبه اليهود، ولا بعد وفاته على المستوى الهلنستي في العالم اليوناني الروماني، فلم يكتف اليهود بأن أساءوا فَهْمَ رسالة عيسى، بل أصروا على تمردهم وعصيانهم المسلح ضد روما حتى سَبَّبَ ذلك الكوارث لهم في عام ٧٠م، وعام ١٣٥م، ومن جهة أخرى في العالم الهلنستي أصر بولس على الاعتقاد أن عيسى كان مخلّصًا فعلًا، ولكن بشكل خفي وغامض وميثولوجي، من حيث إنه خَلَّصَ العالم من الخطايا، أما الخلاص على الأرض، فكان المفترض أن يتحقق قبل أن يموت بولس ـ حسب نبوءة بولس نفسه ـ عندما يعود عيسى في مجيئه الثاني بصورة ابن الإنسان فيهزم روما عسكريًّا وينشئ مملكة الله على الأرض بزعامته، ثم إن هذا النمط من التنبؤات ـ رغم فشله ـ تكرر من قبل يوحنا العراف اللاهوتي في كتابه سفر الرؤيا، الذي صار فيما بعد سفرًا من أسفار العهد الجديد.

وهكذا أدى إصرار معاصري عيسى على الخلط بين شخصية المسيح، وشخصية "النبي المنتظر المنقذ" وعدم فهمهم لطبيعة بعثته، بل رفضهم لها ـ إلى عواقب وخيمة على كل الجهات، ففي فلسطين هُزم اليهود والذين رفضوا الإيمان بعيسى على يد الرومان وتشتتوا في أنحاء الأرض، وفي الوقت نفسه تشتت معهم النصارى الذين آمنوا بعيسى على حقيقته، وبسبب تشتت النصارى وظهور بولس على مسرح الأحداث فقد النصارى السيطرة على مجريات الأمور، ففي العالم الهلنستي انحرفت رسالة عيسى عن هدفها الأساسي بالكامل، وحلت محلها ديانة غامضة من صنع بولس، ثم كان على العالم الانتظار ستة قرون لإعادة الأمور إلى نصابها بظهور الإسلام.

ومما يلفت النظر في دخول عيسى المظفر إلى القدس ـ كما يحلو للكنيسة أن تصفه ـ بعد معجزة أرغفة الخبز في الجليل ببعض الوقت ـ نقطة ذات شقين:

١. أن دخول القدس تم بعد أن توارى عيسى عن أنظار ثُوَّار الجليل ـ خمسة آلاف ـ الذين حاولوا تنصيبه ملكًا، بمعنى أن الذي رفض من الجماهير تنصيبه ملكًا لا يدخل القدس بهذه الصفة.

٢. أن عيسى تعمد أن يدخل القدس وهو يركب حمارًا ـ وليس حصانًا ـ مما يعني أنه لم يأت فاتحًا لتأسيس مملكة دنيوية، ومع ذلك توهمت الجماهير أنه المخلص النبي المنتظر، فتجمع الناس حوله، وجعلوا يهتفون "أوصنا! مبارك الآتي باسم الرب! مباركة مملكة أبينا داود الآتية باسم الرب! أوصنا في الأعالي". (مرقس ١١: ٩، ١٠). "والجموع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين: أوصنا لابن داود! مبارك الآتي باسم الرب! أوصنا في الأعالي". (متى ٢١: ٩). ذلك بالرغم من نفيه القاطع أن يكون ابنًا لداود "ثم أجاب يسوع وقال وهو يعلِّم

في الهيكل: «كيف يقول الكَتَبَة: إن المسيح ابن داود؟ لأن داود نفسه قال بالروح القدس: قال الرب لربي: اجلس عن يميني، حتى أضع أعداءك موطئًا لقدميك. فداود نفسه يدعوه ربًّا. فمن أين هو ابنه؟» وكان الجمع الكثير يسمعه بسرور". (مرقس ١٢: ٣٥ ـ ٣٧، متى ٢٢: ٤١ ـ ٤٥، لوقا ٢٠: ٤١).

أراد عيسى بدخوله القدس على حمار أن يفهم اليهود أنه لم يأت فاتحًا، أراد منهم أن يتخلصوا من الأوهام، وأعلمهم أنهم يجلبون الدمار إلى أنفسهم بعقليتهم العنيدة وسلوكهم الطائش، وهي الرسالة نفسها التي حاول إيصالها لعقولهم يوم اجتمع عليه في الجليل خمسة آلاف من الثوار فأمرهم بالجلوس وأطعمهم خبزًا وسمكًا.

وزيادة في الإيضاح فإنه بعد أن دخل القدس لم يزد على أن ذهب إلى المعبد فنظر حوله، ثم غادر مع الحواريين الاثني عشر "فدخل يسوع أورشليم والهيكل، ولما نظر حوله إلى كل شيء إذ كان الوقت قد أمسى، خرج إلى بيت عنيا مع الاثني عشر". (مرقس ١١: ١١)؛ فلم يكن دخوله إلى القدس سوى بادرة رمزية توحي بالسلام، لا الحرب.

وقد نسبوا إلى عيسى القول: "الحق أقول لكم: لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المِعْمِدان، ولكن الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه". (متى ١١: ١١، لوقا ٧: ٢٨). وقد أعيت هذه العبارة معلقي الكنيسة لقرون طويلة وحيرتهم، فمنهم من قال هي مقارنة بين مستقبل النخبة وبين عظمة يحيى، وآخرون فهموا مملكة الله، بأنها تشمل أرواح المؤمنين بعيسى بالمقارنة مع حياة يحيى على الأرض، وآخرون اعتقدوا أن عيسى هو الأصغر لجهة كونه عبد الله. وعلى أية حال لا يمكن القبول أن عيسى كان يقصد نفسه؛ لأن مملكة الله لم تتحقق في أيامه، وحتى لو تحققت ـ كما يزعم البعض ـ لاستحال أن يكون هو أصغر من فيها؛ إذ يكون عندئذ مؤسسها.

يكمن مفتاح تفسير هذا القول في كلمة "الأصغر"؛ ففي اللغة الآرامية والعربية والعبرية تحمل الكلمة معنى: "الأخير زمنيًّا" أو "الأصغر في مجموعة مسلسلة". والترجمة الآرامية السريانية للعهد الجديد ـ الطبعة البسيطة ـ تستخدم كلمة "زغيرا" التي تقابل كلمة "صغير" بالعربية بمعنى: الأصغر سنًّا، ولا بد للكنيسة أن تعترف أن عيسى لم يكن آخر الأنبياء، وبالتالي فهو ليس أصغرهم زمنيًّا، فمن يكون إذن آخر الأنبياء، وخاتمهم سوى محمد ﷺ؟ إنه قطعًا وبلا جدال آخر الأنبياء، فهو بالتالي أصغرهم زمنيًّا، ومع ذلك فهو أعظمهم، مقارنة مع أي منهم؛ لأن العمل الضخم الذي أنجزه أعظم من الأعمال التي قام بها الأنبياء قبله مجتمعين"[1] ®.

فإذا كان الإنجيل الموجود حاليًّا على هذه الصورة التي تابعناها تفصيلًا، من التحريف والتزييف والتبديل والتغيير لفظًا ومعنى بشهادات شهود من أهله قبل أهلنا، وإذا كان هذا الإنجيل نفسه ـ في أصله الصحيح قبل التحريف وفيما لم تستطع الأيدي المزيفة

١. المسيحية والإسلام والاستشراق، محمد فاروق الزين، مرجع سابق، ص١٩٣ وما بعدها.

® في **"البشارة بمحمد في التوراة"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء.

إطفاءه تمامًا - قد بشر بالإسلام رسالة خاتمة ناسخة وبمحمد ﷺ نبيًّا خاتمًا - فهل هناك مجال للقول الآن بأن هذا الإنجيل، بوضعه الحالي، محل للتقديس والتعبد به من قِبَل النصارى وغير النصارى؟!

الخلاصة:

- القرآن يقرُّ الإنجيل في أصله السماوي الصحيح، أي الذي أُنزل على عيسى ؑ، قبل أن يدخله التحريف.
- الإنجيل بمضمونه الحالي ليس كتابًا سماويًّا صحيحًا؛ فللكتاب السماوي الصحيح مواصفات غير متحققة في الأناجيل الحالية.
- الأناجيل الحالية أصابها التحريف لفظًا ومعنى، وقد اعترف بذلك شهود من أهلها، وأقام علماء المسلمين الشواهد عليه من نصوص الأناجيل، والرسائل في العهدين القديم والجديد.
- لم يقتصر التحريف على الأزمنة القديمة، بل امتد للعصر الحديث؛ إذ طَبَعَت إسرائيل طبعة محرَّفة منها، حذفت منها كثيرًا مما يمس اليهود، بعد تبرئة الكنيسة لهم من دم المسيح، ولم ترفع الكنيسة صوتًا بالاعتراض.
- الإنجيل الصحيح بَشّر بمحمد ﷺ نبيًّا خاتمًا، وبالقرآن ناسخًا، وما زال وميضٌ خافتٌ من هذه البشارة يتردد صداه في ثنايا الأناجيل الحالية؛ إذ لم تستطع يد التحريف طَمْس الحقيقة تمامًا، فالأولى بالآخرين اتباع القرآن، لا دعوتنا إلى الإيمان بهذا الإنجيل المحرف المزيف.

الشبهة الرابعة عشرة

دعوى إقرار القرآن بأن النصارى على حق(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن القرآن أقرَّ أن النصارى على حق، ويستدلون على هذا بقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، حيث أمر بجدالهم وليس بمخالفتهم، وهذا يدل على الاتفاق مع شيء من الاختلاف في الرأي.

وجها إبطال الشبهة:

١) الحوار في الإسلام أصلٌ ومبدأ، وله حدود وفيه محاذير.

٢) لو كان أهل الكتاب على حق لما كان الجدال من أساسه.

التفصيل:

أولا. الحوار في الإسلام أصلٌ ومبدأ، نظرٌ وتطبيق:

الحوار وسيلة التفاهم الإنساني عامة، والعقائد السماوية ينبغي توصيلها لبني البشر عن طريق الحوار والمناقشة والمجادلة بالحسنى، وهذا هو الأصل في الدعوة إلى الإسلام.

(*) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة. حضارة الإسلام، جوستاف جرونبياوم، ترجمة: عبد العزيز جاويد، وعبد الحميد العبادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م. الإسلام بين الحقيقة والادعاء، مجموعة علماء، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٦م. موقع الكلمة.

www.alkalema.us

تحت عنوان "الحوار كأصل ومبدأ في الإسلام" كتب د. سعود المولى يقول: "الحوار بالنسبة إلينا هو في صلب العقيدة.. الحوار تعبير عن قيمة عظيمة، بل القيمة الكبرى في التكوين الأساسي للإنسان والبشرية والفطرة، فالدين هو الفطرة: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الروم). فطرة الله هذه، دين الإنسانية هذا، تكرر ذكره في الكتب السماوية فحمل تعابير: المحبة والتوبة والندامة والنور والكلمة والبشارة والقلم والقلب واللسان والمغفرة والتسامح والشفقة والرأفة وملح الأرض والمصلحة والفرح والعناية والغفران والبر والتقوى والحكمة والرشد والكرامة والهداية واللطف والحسنة والصدقة وسواء السبيل والصراط المستقيم والعمل الصالح والعبادة والقيام، وكلها هي الحوار: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، والحوار هو الدين ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥)، وقد وردت مادة "حوار" في القرآن في ثلاثة مواضع: ﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (الكهف)، ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (الكهف)، ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ (المجادلة).

ولكن معنى "الحوار والمحاورة والتحاور" ورد في عشرات المواضع خصوصًا في صيغ المجادلة بالتي هي أحسن، ولعل الحوار الأول هو ذلك الذي دار بين الله ﷻ وملائكته في خلق آدم، فجاءت المحاورة بصيغة "قال، وقالوا": ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (البقرة).

ثم كان الحوار الثاني بين الله ﷻ وإبليس، وتنقل لنا آيات القرآن الكريم صورًا عدة لهذا الحوار الذي شكل مادة خصبة للتأملات الفكرية والتفسيرات الفقهية.

ثم كان الحوار بين الله ورسله وأنبيائه: آدم ونوح ولوط وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، والحوار بين هؤلاء الرسل والأنبياء وبين قومهم وأهلهم.

وهي كلها حوارات غنية تغطي مساحة كبيرة من متون الكتاب، وشكلت مادة تاريخية وأخلاقية وحكمية وسياسية واجتماعية لاتنضب.

ويمكن الإجمال والقول بأن هذه الحوارات التي ينقلها لنا القرآن الكريم تحمل في مضامينها وأبعادها المعاني الآتية:

١. إن الاختلاف سنة إلهية قال ﷻ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ (المائدة: ٤٨).

٢. وهو رحمة للناس: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (البقرة).

٣. وهو ركن المعرفة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات).

٤. إن الفطرة هي قبول الآخر والحوار معه: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (يونس).

٥. إن الحكم الأخير هو لله ﷻ وإليه المصير، في حين أن الحقيقة نسبية وهي ضالة المؤمن يأخذها أنّى وجدها وليست في يده: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (المائدة). ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾ (الأنعام). ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (الحج). ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ (الشورى).

٦. إن شروط الحوار هو الإسلام لرب العالمين، أي الوقوف على أرض واحدة: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ (سبأ)، ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (آل عمران).

٧. من مستلزمات الحوار الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (البقرة)، ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ (العصر).

الحوار إذن هو جوهر ولب الرسالات السماوية والفطرة الإنسانية، وهو طريق الرشد والرشاد في الدنيا والآخرة. ذلك بأن الله ﷻ غني عن الناس، ولو شاء لما خلقهم أصلًا، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة، ولكن حكمة الله في الخلق وفي اختلاف الناس نعمة ورحمة ولطف إلهي وسنة لا تبديل لها.

إن سنة التدافع، أي الحوار الدائم بالتي هي أحسن، بالكلمة الطيبة: ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (إبراهيم)، بالحسنى والموعظة والحكمة، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بجهاد النفس وهو الجهاد الأكبر: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (فصلت). ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (البقرة). هذا الحوار هو السنة الإلهية الكونية، ملح الأرض، هو حوار الحياة، حوار التدافع والمدافعة، المجادلة والحكمة، المشاركة والعيش، إنه حوار النضال المشترك من أجل الإنسان وقضاياه، من أجل الحرية والعدل والاستقلال والأمن

والسلام والكرامة والخير للجميع. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ ﴾ (الانشقاق).

والحوار مع الآخر شرط لبناء الذات؛ نظرًا إلى ما تنطوي عليه الذات الإلهية من أنانية وفردية. فبناء الإنسان الحر والشخصية القرآنية، يمران عبر الحوار مع الآخر ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ ﴾ (العلق)، ﴿ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ ﴾ (الرحمن).

والحكم الأخير والحقيقة المطلقة هي الله ﷻ، فهو الحجة وهو النبأ العظيم، وهو الهادي، وهو الذي يخبر الجميع يوم القيامة بما كانوا فيه يختلفون ويحكم بينهم: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ۝٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٦٩ ﴾ (الحج).

إن منطق الرسالات السماوية ودليل الفطرة الإنسانية وسنة الحياة والعصر - ترشدنا جميعًا إلى اعتبار الأولوية والأهمية المطلقة لحوار الحياة وشهادة التاريخ والحاضر والمستقبل، أي لصوغ مشروع حضاري إنساني مشترك لخير البشرية جمعاء ولمجد الله على الأرض؛ لنكون قوامين بالقسط ولنكون شهداء على الناس؛ ولتكون منا أمة وسط تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر[1].

لقد بدأ الإسلام الحوار، وهذا أمر طبيعي، فهو الدين الذي أنزله الله بعد النصرانية، فواجه - حين بعث به النبي محمد ﷺ - وضعًا دينيًّا سائدًا في العالم يتمثل في النصرانية، وقد تجلى هذا الحوار أول تجلياته في القرآن الكريم، وكان حوار الإسلام ذا اتجاهين وهما:

١. دعوة المسيحية إلى الإيمان به باعتناقه والاعتراف له بأنه يمثل الكلمة الأخيرة والكاملة في التاريخ الديني للإنسانية.

دعوة المسيحية - إذا رفضت الإيمان به - إلى التعايش معه بعد الاعتراف به - إذ لا يمكن التعايش مع الرفض والإنكار المطلق - ولكن هذا الحوار باتجاهَيْه بقي وحيد الجانب، فلم تستجب المسيحية كنظام ثقافي ومؤسسة عقدية، للاتجاه الأول في الحوار، كما أنها لم تستجب كسلطة سياسية للاتجاه الثاني في الحوار. لقد كان رد فعل المسيحية على نداءي الحوار اللذين وجههما الإسلام نحوها كمؤسسة ثقافية ونظام سياسي هو الحرب ثم علم الكلام، وشهد التاريخ - بعد توسع الإسلام السياسي - التعايش المسيحي الإسلامي داخل عالم الإسلام.

وهكذا ولد - نتيجة لرفض المسيحية لواء الحوار الإسلامي - ثلاثة أشكال من الحوار بين المسيحية والإسلام:

الأول: حوار السلام والحرب: وقد بدأ هذا منذ استشهد الرسول الذي بعث به النبي محمد ﷺ إلى حاكم بُصرى في سوريا، حيث فتكت به حامية بيزنطية.

الثاني: حوار اللاهوت وعلم الكلام: بدأ هذا في اللاهوت المسيحي بهجوم على النبي محمد ﷺ، والدين الإسلامي، أهون ما يقال فيه أنه كان بعيدًا تمامًا عن العلم والموضوعية وآداب الحوار، ونجد الانعكاسات

---

١. الحوار الإسلامي المسيحي ضرورة المغامرة، د. سعود المولى، دار المنهل، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٢: ٣٦.

الإسلامية الأولى لهذا الهجوم في القرآن الكريم[١].

الثالث: حوار التعايش بين أتباع الديانتين في مجتمع واحد، والتعاون المستمر بينهما على صعيد الثقافة والحياة اليومية: وهذا الشكل من الحوار كان وحيد الجانب مدة طويلة من الزمان، فحيث كان الإسلام ذا سلطان ونفوذ، كان يعيش النصارى وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى، ولم يتح للمسلمين أن يمارسوا - في الماضي - حياة مستقرة آمنة حيث كان للمسيحية سلطان.

وقد كان الشكل الأول للحوار - حوار الحرب - يستهدف التغيير من الخارج، ووسيلته إلى ذلك الإخضاع بالقوة لسلطة سياسية تمثل الدين الآخر، أما الشكل الثاني من أشكال حوار اللاهوت وعلم الكلام، ووسيلته الإقناع العقلي - فقد كان يستهدف له كل واحدة من الديانتين تغيير الديانة الأخرى من الداخل، وذلك لتحقيق مكسبين وهما:

١. تعزيز مركز كل واحدة من الديانتين أمام أتباعها، وتوفير القناعات الكافية لديهم بأن عقيدتهم تمثل الحق المطلق.

٢. اجتذاب أتباع الدين الآخر وحملهم بالإقناع العقلي على اعتناق الدين الجديد، والتخلي عن صيغة إيمانهم القديمة.

١. وقد ازداد هذا الهجوم الشرس على الإسلام ونبي الإسلام سوءًا ووقاحة في الآونة الأخيرة، بدءًا بسلسلة التطاولات السخيفة في وسائل الإعلام المختلفة، وانتهاءً برأس الكنيسة الغربية والبابا، مرورًا بكل أشكال العداء من قِبَل ما يُسمَّى حديثًا "التيار الصهيومسيحي" المتحكم في صنع القرار في الغرب الآن، وما ترتب عليه من اعتداء واحتلال لأقطار إسلامية؛ كالعراق وأفغانستان... إلخ.

ولسنا الآن في صدد بيان مدى نجاح هذا الدين أو ذاك في الحوار اللاهوتي الكلامي، ولا في صدد بيان الأهداف التي تحققت أو لم تتحقق نتيجة لهذا اللون من الحوار.

وأما الشكل الثالث من أشكال الحوار - حوار التعايش، فقد وجد على أرض الإسلام حيث عاش المسيحيون، وأثَّروا في المجتمع الإسلامي وتأثروا به، وقد ساهم هذا العيش المشترك - بلا ريب - في إنماء الحضارة والثقافة وإغنائها، وقد كان هذا اللون من الحوار في الماضي وحيد الجانب، فلم يكن ثمة مسلمون يعيشون بحرية وأمان، ويتمتعون بهوية دينية وثقافية مميزة داخل العالم المسيحي[٢]، أما الآن فيوجد ذلك على نطاق ملموس، وإن كان هذا النوع من الحوار يعاني مصاعب ومتاعب التمييز والعنصرية بالنسبة للأقليات المسلمة في معظم المجتمعات الغربية.

هذا هو الأصل النظري والتأصيل الشرعي، ثم التطبيق التاريخي الواقعي العلمي لمبدأ الحوار من وجهة النظر الإسلامية، يشهد للمسلمين بالإخلاص والتجرد والتسامح - في الغالب، بينما يتصف فكر وسلوك الجانب الآخر بالاستحواذ والتعدي والتحيز والغرض.

فما الموقف من هذه المسألة - الحوار والمناقشة والجدال واختلاف وجهات النظر - في الوقت الراهن[٣]؟

٢. الحوار الإسلامي المسيحي ضرورة المغامرة، د. سعود المولى، مرجع سابق، ص٩: ١١.

٣. الراهن: الحالي.

للحوار حدود وفيه محاذير:

للحوار أطرٌ لا يتعداها، فليس الأمر مطلقًا ولا المبدأ منسحبًا على مختلف الموضوعات - خصوصًا الدينية - فمن وجهة نظر المسلمين أن لديهم ثوابت وأصولًا لا يتزحزحون عنها ولا يديرون حوارًا حولها، إنما ساحة الحوار لديهم منحصرة فيما قد يكون وقع من لبس وسوء فهم لموضوعات وأحداث تاريخية واجتماعية عبر مسيرة احتكاك الإسلام والمسلمين الطويلة بأهل الكتاب؛ لإيضاح وجهة النظر الشرعية الصحيحة حيالها، لتتجلى للآخرين روح الإسلام وطبيعة المسلمين على الوجه الصحيح.

أما غير هذا فلا، فمحاولة الآخر التي تتعدَّى هذه الأطر وتهدف إلى الاستحواذ وفرض الهيمنة[1] الفكرية والثقافية والعقدية، فإن ذلك مرفوض، وهذا ما تحذر منه أقلام كثيرة لمفكرين مسلمين في اللحظة الراهنة؛ مستشهدين بما يعزز مخاوفهم من محاولات الآخر وتصرفاته ومنحى أهدافه خلال منتديات الحوار المتعددة، ورغم أن القرآن قد أمر بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن؛ لأنهم أقرب لحمة من المشركين لكونهم - في الأصل السماوي الصحيح لدياناتهم - أهل عقائد توحيدية كالإسلام، إلا أن التجارب التاريخية والمحاولات العصرية لا تعطي الانطباع نفسه عن تفكير وسلوك الطرف الآخر، ولهذا فلا يزال الحذر قائمًا والتشكك متمكنًا من نفسية الجانب الإسلامي تجاه نوايا الطرف المقابل.

في هذا الشأن يقول د. محمد نبيل غنايم، معبرًا عن المخاوف المشار إليها سلفًا: "والقرآن الكريم مليء بمثل هذه الحوارات أو التدريب عليها، وعلى الموقف منها، والإجابة عما يطرحه المحاور من أسئلة من هذا القبيل أو غيره، وجميع النماذج - كما رأينا - تبين وتؤكد أنه لا تنازل عن الحق ولا تهاون في الدعوة إليه، ولا خوف من الطرف الآخر مهما كانت قوته، فالحق أقوى من الباطل، والموت في سبيل الحق أو الجوع في سبيله خير من الحياة والغنى والشبع مع الباطل والهوى، ونختتم هذه الفقرة بذلك المبدأ الإلهي الكريم في الحوار مع أهل الكتاب... وهو مبدأ لأي حوار مع غيرهم، قال ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (٤٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ (٤٨) بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٩) وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٥١) قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (٥٢)﴾ (العنكبوت). وقد قال تعالى في غير أهل الكتاب: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ (النحل: ١٢٥).

ومن هذه النصوص التي ذكرناها ومن أمثالها - وهي كثيرة في القرآن الكريم - يتبين لنا أن الحوار

---

١. الهيمنة: السيطرة.

والنقاش بهدف الوصول إلى الحق ومعرفته، والاقتناع به أمر إسلامي بينه الله ﷻ في كتابه الكريم، وحكى لنا نماذج عديدة منه، بدأها بنفسه ﷻ مع ملائكته ومع الشيطان ومع المرسلين ومع المشركين ومع أهل الكتاب، كما تبين لنا أن للحوار حدودًا لا يجوز أن يتعداها المحاور، فما دامت الإجابة واضحة وما دام الحق ظاهرًا فلماذا الجدال؟ إمّا التسليم بالحق والإيمان به، وإمّا البقاء على الكفر وإغلاق باب الحوار.

وعلى أهل الحق أن يتمسَّكوا به ويدافعوا عنه ولا يَحِيدوا[1] عنه ولا يتهاونوا فيه مهما كانت المغريات ومهما كانت التهديدات، فالموت في سبيل الحق خير من اتباع الباطل، والجوع والفقر في سبيل الحق خير من الشبع والغنى مع الباطل، قال ﷻ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ (الحج). وإذا كان أهل الباطل متمسكين به فأهل الحق أولى بالتمسك بالحق"[2].

وتتصاعد مخاوف د. غنايم من طبيعة دوافع الحوار من جهة الطرف المقابل للمسلمين، فيقول تحت عنوان "الحوار عند الآخرين": "ونعني بهم أولئك الذين يدعون الآن ومنذ مدة في العصر الحديث إلى الحوار مع المسلمين، ويسمون ذلك حينًا "حوار الأديان"، وحينًا آخر "حوار الحضارات" وحينًا آخر "التقريب" أو "التقارب بين الأديان"، وحينًا تعاون الحضارات، إلى نحو ذلك من المسميات التي لا تخرج في جملتها عن الدعوة إلى التفاهم والتعاون، ولكن على ماذا؟ هذا هو المهم.

والذي يبدو من مضامين المؤتمرات والندوات والدعوات أن الغاية منها إضعاف الإسلام وتشويه صورته، وإثارة الشبهات حوله وحول محتواه ودعوته؛ لتبغيض الناس فيه وتهوين شأنه عند أهله والمتمسكين به والمقبلين عليه، والترويج للثقافة العلمانية التي تقوم على عزل الدين وإبعاده عن السياسة والمجتمع وشئون الحياة، ثم العمل على نشر القيم والمبادئ العامة التي تزيل الحدود الثقافية وتقضي على الشخصية، وتغرس قيم ومبادئ العولمة والنظام العالمي الجديد، وحينئذ لا يبقى للإسلام شأن، وإذا بقي كان ممسوخًا ضعيفًا لا يُؤْبَه له[3].

ذلك أن اليهودية والمسيحية وغيرها تعتبر الإسلام هو العدو الأكبر لها، وقد حاولت إجهاضه قديمًا بالقوة العسكرية كما حدث في صدر الإسلام ثم في الحروب الصليبية ثم في الاستعمار الحديث، فلم تتمكن من ذلك، فبدأت أسلوبًا جديدًا هو الحوار لعله يحقق ذلك، وهو دعوة قد يبدو من ظاهرها وعنوانها الرغبة في التعاون والتفاهم واحترام الآخر وتقديره، إلا أن باطنها وحقيقتها وغايتها هو القضاء على الإسلام وتشويه مبادئه وصورته عند أهله وغيرهم، فلا يبقى على الساحة الدولية إلا العولمة والعلمانية"[4].

ويضرب الباحث مثالًا تطبيقيًّا لهذه النوايا والتوجهات لدى الآخرين من إجراء الحوارات، بقوله:

---

١. يحيدوا: يميلوا.

٢. قضايا معاصرة، د. محمد نبيل غنايم، دار الهداية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، ص٧٣، ٧٤.

٣. يُؤْبَه: يُنتبَه.

٤. قضايا معاصرة، د. محمد نبيل غنايم، مرجع سابق، ص٩٣.

"وأخيرًا نختتم تلك الأدلة على حوار الآخرين وأهدافهم ضد الإسلام والمسلمين ودعوة الكنيسة والتبشير بتلك الكلمات التي جاءت على لسان بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني، وهو أكبر سلطة ومنزلة دينية عند المسيحيين في العالم على اختلاف طوائفهم، يقول في خطابه الموجه إلى أعضاء الجمعية العمومية للمجلس البابوي للحوار بين الأديان المنعقد في عام ١٩٧٨م كلامًا لا يَدَع مجالًا للشك في أغراض الحوار ونوايا المحاورين: "كما أن الحوار بين الأديان هو مادة من مواد رسالة الكنيسة، فإن إعلان عمل الله الخلاصي في سيدنا يسوع المسيح هو أيضًا مادة أخرى. وإنه من غير الجائز أن يختار الواحد ويتجاهل الآخر أو يطرح. إن الحوار بين الديانات يُشكِّل جزءًا من رسالة الكنيسة التبشيرية، فهو باعتباره طريقة ووسيلة لمعرفة وإغناء متبادلين، لا يتعارض مع الرسالة إلى الأمم، إنه بالعكس مرتبط بها بنوع خاص، وهو تعبير عنها. إن الخلاص يأتي من المسيح، وإن الحوار لا يعفي من التبشير بالإنجيل".

وفي خطاب يوحنا بولس الثاني للشباب الإسلامي في المدينة المغربية الدار البيضاء سنة ١٩٨٥م قال: "فالاحترام والحوار يتطلبان إذن المعاملة بالمِثْل في جميع الميادين، ولا سيما في ميدان الحُرِّيَّات الأساسية، وبالأخص الحرية الدينية، وهما يُعزِّزان السلام والوئام بين الشعوب ويساعدان على الحل المشترك لمشاكل الرجال والنساء في هذه الأيام، وبالأخص لمشاكل الشبان والشابات. أيها الشبان والشابات، إنني على يقين من كونكم قادرين جميعًا على هذا الحوار، فأنتم لا ترضون أن تتقيدوا بالأحكام المسبقة. إنكم مستعدون لبناء صرح حضارة قوامها المحبة، وبإمكانكم أن تعملوا على هدم الحواجز التي شيدها كبرياء الناس في بعض الأحيان وضعفهم وخوفهم في أغلب الأحيان، وإنكم تريدون أن تحبوا الآخرين بصرف النظر عن أيَّة حدود أمة أو عِرْق أو دين". وينهي بابا الفاتيكان خطابه ذلك في الشباب المسلم في الدولة المسلمة بدعاء وابتهال تؤمن عليه الجموع المحتشدة.

وهكذا تحوَّل خطاب الاثنين إلى موعظة الأحد! وانقلب أسلوب الحوار المزعوم واحترام الآخر إلى قُدَّاس كَنَسِي وتبشير بالنصرانية ودعوة للتَّمرُّد على الثوابت الإسلامية باسم "الحرية"، وإلى الفسق والفجور باسم "حل المشكلات"، وإلى التغاضي عن التباينات كعقيدة التثليث باسم "محبة المسيح والتسامح".

فأيُّ حوار هذا الذي تحمله الكنيسة ورجالها وأكبر رءوسها إلى المسلمين؟! وأي خير يُرْتَجَى من وراء حوار يدعونا إلى النصرانية والخلاص على يد المسيح، أو غض النظر عن التباين في العقيدة؟! وأي حوار هذا الذي يدعو إلى حرية التدين بين المسلمين وكسر الحواجز القائمة والأحكام المسبقة؟! وأي حرية تلك التي تدعو إلى الانسلاخ من هويتنا وشخصيتنا وقيمنا الغالية؟!

ذلك هو الحوار الذي تريده الكنيسة وتدعو إليه ويفتَتِن به بعضُ المسلمين ويتحمَّسون له ويشاركون فيه!

وقد تبين لنا من تأصيل الحوار في الإسلام وتطبيقه أنه غير ذلك، فحوار الإسلام دعوة إلى الحق وهو

التوحيد الخالص لله رب العالمين، وإلى الإسلام الذي جاء به الرسول ﷺ مكمِّلًا لرسالات السابقين ومُبِّينًا لما أصاب الدعوة الواحدة من التحريف والباطل، وناسخًا لبعض ما كان فيها من الأحكام، وعامًّا لكل الناس في مشارق الأرض ومغاربها، فمن آمن به فقد فاز، ومن كفر به خسر الدنيا والآخرة، وهو لا يحمل أحدًا على الإسلام كرهًا وقسرًا: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ (الكهف: ٢٩)، ومن آمن باختياره لايجوز أن يرتد عن الإسلام وإلا أقيم عليه حد الردة، ومن أسلم عليه أن يقوم بأوامر الإسلام واجتناب نواهيه وإلا عوقب بعقوبات بعضها مقدر وهي (الحدود)، وبعضها غير مقدر وهو (التعزير)، ومن بقي على كفره ورفض الإسلام فإن كان من أهل الشرك حُورب[1]، وإن كان من أهل الكتاب وأقام في بلاد المسلمين فله الذمة، وهي تفرض له حقوقًا وتفرض عليه واجبات يجب احترامها وإلا نُقِض العهد.

والحرية في الإسلام لها ضوابط وقيود فليست مطلقة؛ حتى لا يصبح الأمر فَوْضَى، وكذلك المساواة بين المسلم وغير المسلم أو بين الرجل والمرأة لها مجالات تتحقق فيها ومجالات أخرى لا توجد فيها ولا تجوز؛ لأن الشارع ضبطها وحدد ما تجوز فيه وما لا تجوز، وهكذا كل شيء مقرر ومنضبط في التشريع الإسلامي كما قال الله ﷻ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ (المائدة: ٣)، وكما قال ﷺ: "إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتَّقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام"[2].

والإسلام بعد ذلك لا يمانع ولا يعارض في الحوار مع الآخرين في حدود ذلك، كما قال ﷻ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، وقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧﴾ (العنكبوت).

فيجب أن نبتعد عن الثوابت، ونتحاور في العلوم والصناعات والتكنولوجيا وشئون الزراعة والتجارة، في المباح، وتبادل التمثيل السياسي والزيارات مع المسالمين، وذلك كله داخل في قوله ﷻ: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾ (الممتحنة)، أما غير المسالمين أو من يوالون غير المسالمين فهم أهل حرب

1. وقع الخلاف بين الفقهاء في حُكْم المشركين والكفار كما يأتي:

- ترى المالكية أخذ الجزية من جميع الكفار إذا رضوا بذلك، وإلا القتال حتى يدفعوا الجزية أو يسلموا.
- ترى الحنفية أخذ الجزية من مشركي العجم دون العرب، ووافقهم أبو عبيد صاحب كتاب "الأموال".
- ترى الشافعية والحنابلة أن الجزية لا تؤخذ منهم عربًا أو عجمًا، فإما الإسلام وإلا السيف.

2. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (٤١٧٨)، واللفظ له.

ولا يجوز التعامل ولا الحوار معهم إلا في حدود عقد الصلح والمعاهدة، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ (الممتحنة)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ (الممتحنة).

وأما الحوار الذي يريده الآخرون وتتبناه الكنيسة الغربية الكاثوليكية فلا يتناسب مع الإسلام والمسلمين؛ لأنه يتعارض مع الثوابت الإسلامية، بل لا يترك المسلمين وثوابتهم وأحكامهم وتشريعهم، بل يدعوهم باسم الحرية والمحبة والحوار إلى ترك دينهم واتباع النصرانية والبشارة اليسوعية والخلاص المسيحي والتمرد على كل الثوابت والأحكام المسبقة والحواجز، وحل مشكلات الشباب والشابات والرجال والنساء.

إن الحوار عندهم جسر لنقل الثقافة الإنجيلية إلى الآخرين أو ما صار يعرف بالغرس الثقافي، إنه الحوار الذي يكثف النشاط التنصيري باستخدام كافة وسائل التنقية الحديثة، ومن أخطرها مشروع القمر الصناعي (نور ألفين) المخصص لبث برامج التنصير عبر القنوات الفضائية، لقد طالب البابا وأعلن ضرورة تنصير العالم وهو وأعوانه ماضون في ذلك بشتى الطرق ومنها الحوار"[1].

تلك هي أسس الحوار ومنطلقاته لدى المسلمين والآخرين، وهذه هي حدوده ومحظوراته لديهم، والأهم أن هذه هي مراميه وأهدافه عند الآخرين، بانت الحقيقة وانكشف المستور وظهر أن الغرض هو الاستيعاب والاستئثار والهيمنة وبسط النفوذ الديني وما يصاحبه، فليس لدى الآخر استعداد لتصحيح انحرافاته العقدية وتخبطاته الإيمانية، وإنما القصد هو إدخال المسلمين خاصة في زمرته حتى ولو كان على يقين بفساد عقيدته وأحقية عقيدة المسلمين وصلاحها.

ثانيًا. لو كان أهل الكتاب على حق لما كان الجدال من أساسه:

إن قوله ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا أَهْلَ الْكِتَٰبِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦) لا يدل على أن أهل الكتاب على الحق، ولو كانوا على الحق لأمر القرآن باتباعهم والاستجابة لهم وعدم مخالفتهم في دعوتهم، فهذا فهم خاطئ واستدلال لا وجه له، بل هو تحريف للكلم عن مواضعه، إنما الذي تأمر به الآية، هو جدال أهل الكتاب بالتي هي أحسن؛ لأنهم قد يكونون أقرب إلى الإسلام من غيرهم من المشركين، وأقرب فهمًا لطبيعته، وأعلم بحقيقته من غيرهم، لما عندهم من بقايا دياناتهم، وإن كتموا وحَرَّفوا؛ ولأن القرآن يسعى إلى الارتقاء بأسلوب الحوار وعملية الجدال إلى أعلى مستوى ـ أمر بأن يكون الحوار بالتي هي أحسن معتمدًا على الحجة والبرهان، ومتجنبًا الإساءة والخداع

---

١. قضايا معاصرة، د. محمد نبيل غنايم، مرجع سابق، ص١٠٧: ١٠٩.

والادعاء الباطل، وسائر أدوات ووسائل الجدل العقيم والنقد الهدام، فتلك دعوة قرآنية لإقامة الحق وإظهاره، والكشف عن الباطل وبيان ضعفه وتفاهته دون سب أو تجريح، أو إساءة.

الأمر بالجدال في الآية لا ينفي بطلان ما هم عليه، ولا يعني أن الاختلاف مجرد اختلاف في الرأي:

إن القرآن وقف من أهل الكتاب موقف الناقد البصير، والمعلم الذي يصوب لهم أخطاءهم، ويصحح لهم عقائدهم، ويبين لهم إثم كتمان الحق وجريمته، وشناعة تحريف الكلم عن مواضعه وقُبْحه، وخصوصًا في الأمور الجوهرية عند أهل الكتاب، وهي الأمور التي تمس صلب العقيدة، إذ أظهر القرآن في صراحة ووضوح بطلان ما يعتقده أهل الكتاب من العقائد الفاسدة، وشدد النكير وأكد الرفض لكل عقائدهم الشركية الفاسدة في مواضع عديدة، منها قوله ﷻ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (التوبة). وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ (المائدة).

وقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ (آل عمران). وقال عن النصارى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (المائدة)، وقال تعالى أيضًا: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ (المائدة: ١٥).

والآيات التي تنتقد أهل الكتاب في صلب عقائدهم وتشنع عليهم جرائمهم وضلالاتهم - سواء تحريفهم الكلم عن مواضعه أو كتمانهم الحق وإخفائهم إياه عن الناس - كثيرة كثرة ظاهرة، فالخلاف مع أهل الكتاب خلاف جوهري مبدئي، باتساع الفجوة بين عقائد المسلمين وعقائدهم الفاسدة التي حرفوها وغيروها.

فالبَوْن[1] في التصورات الدينية بين الديانة الإسلامية - ودياناتهم بعد تحريفها - بون شاسع، فكيف يَدَّعي هؤلاء المُدَّعون أن القرآن يُثبت أن النصارى على حق، وأن الخلاف معهم مجرد خلاف في الرأي؛ مستدلين بآية العنكبوت: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت: ٤٦)؛ زاعمين أنه لم يأمر بقتالهم طالما أنه قد أمر بجدالهم بالتي هي أحسن، فلماذا يكون الجدال إذن ما داموا على حق؟ وهل تعني مجادلتهم بالتي هي أحسن عدم قتالهم، عندما يعتدون أو يخونون العهود والمواثيق؟ وبماذا يُسَوِّغ هؤلاء قتال النبي ﷺ لليهود في المدينة عندما خانوا العهود ونبذوا المواثيق، وإخراجهم فرقة تلو الأخرى ثم قتاله لهم في خيبر؟ وماذا يقول هؤلاء عندما يسمعون أو يقرءون

١. البون: المسافة بين الشيئين.

الآيات التي تحض على قتال المشركين من أهل الكتاب وغيرهم إذا استلزم الأمر ذلك، ومنها قوله ﷻ: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ (٢٩) ﴾ (التوبة).

وبهذا البيان بطل زعم هؤلاء المدعين أن القرآن يثبت كون النصارى على حق، فذلك زعم لا سند له ولا دليل عليه، بل هو وَهْم من بنات خيال مَن افتراه.

الخلاصة:

- الحوار في الإسلام مبدأ أصيل يبتغي هداية الآخرين للحق، وعلى هذا الأصل قامت الدعوة الإسلامية. والحوار المطروح اليوم مع غير المسلمين يجب أن تحده حدود ـ فليس مجاله مطلقًا ـ وتحفه محاذير لا يتخطاها، كالثوابت الاعتقادية والشرعية عند المسلمين، أما مرامي الحوار من جهة الآخرين، الهادفة إلى فتح الأبواب على مصراعيها وعدم التقيد بالضوابط والأحكام الشرعية، وإطلاق المساواة حيث لا محل للمساواة، فهذا أمر مرفوض مردود.
- لو كان أهل الكتاب على حق لما أمر القرآن بجدالهم ومحاورتهم ابتداءً، فكيف يجادل صاحب الحق والمجادل يعترف بذلك، إنما أمر القرآن بجدالهم بالتي هي أحسن ارتقاءً بالحوار وبعدًا به عن التعصب الأعمى؛ ولأنهم قد يكونون أقرب إلى الإسلام من غيرهم من المشركين لما عندهم من بقايا دياناتهم.
- الأمر بالجدال بالتي هي أحسن لا ينفي بطلان ما عليه أهل الكتاب من عقائد فاسدة، ولا يعني أن الاختلاف معهم هو مجرد اختلاف في الرأي، بل إن القرآن شنع عليهم جرائمهم، من تحريفهم للعلم وكتمانهم للحق، ونقد فساد عقائدهم المحرفة نقدًا لاذعًا، وأمر بقتالهم إذا غدروا أو خانوا، وهذا ما حدث مع اليهود في المدينة وفي خيبر، فكيف يقال إن القرآن أثبت أنهم على حق بعد ذلك، وهو يرفض كل معتقداتهم وينكرها عليهم؟!

الشبهة الخامسة عشرة

دعوى تودد القرآن إلى اليهود والنصارى، ثم عدوله عن ذلك(*)

مضمون الشبهة:

يرفض بعض المشككين مراحل نزول القرآن المكي المدني، ويزعمون أن القرآن مرَّ بثلاث مراحل في نزوله توافقت معها مراحل الدعوة المحمدية، وهي:

الأولى: التَّودُّد إلى النصارى بكلام طيِّب عن المسيح وأمه، ودليل ذلك علاقة النبي ﷺ الطيبة مع ورقة بن نوفل النصراني.

الثانية: لـمَّا لم يجد محمد ﷺ نصرة عند النصارى لجأ إلى اليهود، من خلال ذكره للقصص القرآني، وكأنه يقرأ العهد القديم.

الثالثة: فلمَّا لم يجد نصرة عند اليهود لجأ إلى الأمة الوسط، فكان تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة.

(*) محاضرة عن "ألوهية المسيح في كتاب الآخرين".

وجوه إبطال الشبهة:

١) لم ينزل القرآن على مراحل حددتها علاقة النبي ﷺ بيهود الجزيرة ونصاراها كما زعموا، بل نزل منجمًا مفرقًا لحكم ومقاصد شرعية.

٢) سار القرآن على منهج بيِّن في معاملة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهو منهج يشهد له غير المسلمين بالعدالة والتسامح.

٣) لم يتودَّد الإسلام في شيء من نصوصه إلى أهل الكتاب، بل شنَّع عليهم تحريفهم لوحي الله وقولهم على الله ما لا يعلمون، وتشابه القصص في القرآن وكتب أهل الكتاب لا دلالة له على الاقتباس منهم.

التفصيل:

أولا. نزول القرآن منجما[١]:

نزل القرآن الكريم منجّمًا، قال ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الفرقان)، وهذا جانب من افتراضاتهم واقتراحاتهم الدالة على شرودهم عن الحق، وتجافيهم عن اتباعه، قالوا: هلَّا أُنزِل عليه دفعة واحدة في وقت واحد، كما أُنزلت الكتب الثلاثة، وما له أنزل مفرقًا؟

والقائلون هم قريش، وقيل: اليهود، وهذه مُماراة[٢] بما لا طائل منه؛ لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفرقًا، والحكمة من نزوله كذلك أن يُقوّي الله ﷻ قلب نبيه حتى يعيه ويحفظه؛ لأن المتلقي إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئًا بعد شيء، ولو ألقي إليه جملة واحدة لشق حفظه، والرسول ﷺ فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى ـ عليهم السلام ـ، فإنَّه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن له بُدٌّ من التَّلقُّن والحفظ، فأنزل عليه مُنَجَّمًا[٣] في عشرين سنة، وقيل: في ثلاث وعشرين سنة، وقد كان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين.

وكذلك من حكمة نزوله منجّما أن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقًا، وذلك ينفي ادِّعاءَهم أن القرآن نزل على مراحل لوحِظَ فيها صلته باليهود والنصارى وتطوّر علاقته بهم؛ فقد تبيَّن مما تقدم أن نزول القرآن مفرَّقًا له حكم ومقاصد مستقلة عن علاقة النبي ﷺ بيهود الجزيرة ونصاراها، وأن منها ما يتعلق بشخص النبي ﷺ ليثبِّت الله فؤاده، أو لِيُيسِّر عليه حفظه وتلقِّيه، ومنها ما يتعلق بطبيعة القرآن ذاته واشتماله على ناسخ ومنسوخ، وهو ما لايتأتى في كتاب ينزل جملة واحدة®.

خصائص القرآن المكي والمدني:

من خلال خصائص القسمين المكي والمدني، يتبين لنا أن عقيدة التوحيد التي رسَّخَها القرآن المكي لا

١. انظر: الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت، ج٣، ص٩١.

٢. المُمارة: المجادلة.

٣. المُنجَّم: المُفرَّق.

® في **"حكمة نزول القرآن مُنجَّمًا"** طالع: الوجه السادس، من الشبهة الأولى، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم). وفي **"جواب القرآن عمن سأل نزول القرآن جملة واحدة"** طالع: الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

تحوي مُداهنة[1] لأحد، لا يهود ولا نصارى ولا غيرهم، وهذه جملة من خصائص القرآن في العهد المكي:

- الدعوة إلى التوحيد، وإثبات الرسالة، وإثبات اليوم الآخر، والوعد والوعيد، وجدال المشركين بالبراهين العقلية والآيات الكونية.
- وضع القواعد العامة للتشريع في الحلال والحرام، والتركيز على تثبيت مكارم الأخلاق، كالعدل، والإحسان، وإبطال ما ينافيها من مَساوِئ الأخلاق كالظلم والفجور والأذى مما كان يفعله أهل الجاهلية.
- ذكر قصص الأنبياء والأمم السالفة للعبرة والقياس، وتثبيت النبي ﷺ والمؤمنين فهو الكتاب الخاتم.
- قِصَر الفواصل بين الآي، مع قوة الوقع في الألفاظ، والإيجاز في العبارة®.

أما القرآن المدني:

فله ـ كذلك ـ جملة خصائص تميِّزه عما نزل بمكة، ومنها:

- تفصيل العبادات والمعاملات والحدود، وقانون الدولة الإسلامية، وسائر شرائع الإسلام مما يُناسِب التكليف به واقع التمكن للمجتمع المسلم.
- التركيز على دعوة أهل الكتاب، وشرح أحوالهم وبيان ضلالهم، حيث كانوا يوجدون في مجتمع المدينة بعد الهجرة.
- الكشف عن حقيقة النفاق وشرح صفات المنافقين وأحوالهم، والنفاق لم يظهر في عهد النبي ﷺ حتى مكن الله لهذا الدين، فصار بعض الناس يستَتِرون بالإسلام في الظاهر خوفًا من سلطان الحق وأهله، وهم يُسِرُّون له العداوة والكيد والتآمر، ولم يظهر النفاق في مكة وإنما ظهر في المدينة.
- وأخيرًا طول الآيات بما يتناسب مع الشرح والبيان لشرائع الإسلام[2].

وبذلك يتضح لنا أن الإسلام لم يجامل اليهود ولا النصارى، ولا حتى المسلمين أنفسهم، من باب إحقاق الحق وإقامة العدل.

ثانيًا. تسامح الإسلام مع أهل الكتاب:

لقد عامل رسول الله ﷺ اليهود بالإحسان[3] والتسامح ثم زاد من جانبه في حسن معاملتهم أنه بدأ يتبادل معهم المنافع، فعقد بينه وبينهم معاهدة أمَّنهم فيها على أنفسهم وأموالهم وعقائدهم، وضَمَّنها ما يحقق لهم كل خير.

نَصَّت هذه المعاهدة على الكثير من المبادئ السامية التي تصلح للتطبيق في كل زمان ومكان، كإقرار التعايش السلمي واحترام عقيدة الآخر، وكفالة الحرية الدينية لليهود، وأباحت لهم أن يقوموا بأداء شعائر

---

١. المُداهنة: المجاملة.

® في "**خصائص القرآن في العهد المكي**" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة والثلاثين، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

٢. المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف الجديع، مرجع سابق، ص٥٦، ٥٧.

٣. القرآن واليهود، الشيخ منصور الرفاعي عبيد، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.

دينهم، كما أن المعاهدة تنطق برغبة المسلمين في التعاون الصادق مع اليهود من أجل نشر الطمأنينة والأمن في المجتمع، ومحاربة مثيري الفتن أيًّا كان دينهم أو جنسهم، والتعاون التام بين المسلمين واليهود في صد أي عدوان خارجي على المدينة.

كما أن المعاهدة اشتملت على كثير من المبادئ الإنسانية السامية، كنصرة المظلوم، وحماية الجار، ورعاية الحقوق الخاصة والعامة، ومساعدة المَدِين... إلخ، وكذلك نصت الصحيفة على أن من ارتكب إثمًا يوجب عقوبة نفذت عليه[1].

هذا عن الجانب الإسلامي، أما ما عُرِف عن اليهود من أنهم ليسوا بأوفياء للعهود، فقد كان وسيستمر أبد الدهر، فدائمًا ما ينقضون عهودهم ومواثيقهم مع الله على مر العصور، فلا نتعجب أن ينقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ وغيره من أنبياء الله.

فقد أمرهم ﷻ بعد أن نجّاهم من التِّيه أن يدخلوا القرية سُجّدًا وشكرًا لله، وأن يقولوا في سجودهم "حِطَّة"؛ أي: غفرانًا، فغيّروا وبدّلوا فيها على حسب أهوائهم، كما فعلوا يوم سبتهم، فمَسَخهم الله قِردة؛ لأنهم دائمًا ما يُقلِّدون دون وَعْي، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾ (البقرة)، كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾ (البقرة)[2].

ثالثًا. الاستدلال بالقصص القرآني على عدم تودُّد النبي ﷺ إلى أهل الكتاب:

أما القصص الذي يزعمون أنه مقتبس من العهد القديم، فقد ورد في القرآن الكريم لأنه هو الكتاب الخاتم الذي لا بد من وجود العبر والعظات فيه، وذلك بذكر أخبار الأمم السابقة، وقصص الأنبياء والصالحين، على أنه ذكر كل ذلك مصوِّبًا ومضيفًا لما ورد في التوراة والإنجيل لا مقتبِسًا عنهما، والمتتبع لقصة سيدنا آدم وولديه قابيل وهابيل، وقصة سيدنا يوسف، وزكريا وابنه يحيى، والسيدة مريم، وغيرها يجد أن التناول مختلف تمامًا في طريقة العرض والأسلوب والأحكام.

بل إن القرآن الكريم إذا وافق الكتب السماوية السابقة عليه في أصل الحادثة، فإنه يحق الحق ويبين وجه الحقيقة فهو يضيف ويصوب وينقِّح ويصحح، ويبين الحكمة والعظة من وراء القصة تبصرة لأولي الألباب.

أما توراتهم وأناجيلهم المحرَّفة، فتَحوِي العديد من الأكاذيب والافتراءات على أنبياء الله؛ كزعمهم أن سيدنا نوحًا عليه السلام شرب الخمر حتى ترنح سكرًا، وسيدنا لوطًا زنى بابنتيه، وسيدنا إبراهيم يكذب، وسيدنا موسى قتل أخاه هارون، وغيرها الكثير من الافتراءات®.

أما قولهم إن ذكر قصص السالفين في القرآن الكريم

---

١. المرجع السابق، ص١٢٥ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص١٣٥: ١٤٣ بتصرف.

® في **"عدم دلالة التشابه بين قصص القرآن والتوراة على اقتباس القرآن عنها"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثالثة والعشرين، من هذا الجزء.

من باب التودد والمحاباة لليهود فلا أصل له؛ لأن القرآن ذكر المحسن من أهل الكتاب والمسيء كما في قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾ (آل عمران)، وذم فسادهم، وجدالهم وتطاولهم على أنبياء الله، كما في قوله ﷻ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾ (آل عمران). وقال ﷻ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾ (البقرة). وهنا يتضح إنكارهم للحق وهم يعرفونه.

وقال ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ (البقرة: ١١١)، وقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)﴾ (المائدة). كما قال: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)﴾ (البقرة).

وقال ﷻ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ (المائدة: ٦٤). ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ (آل عمران: ١٨١). وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١)﴾ (النساء). وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ (المائدة: ١٣)، فالخيانة شيء متأصل فيهم. وقال ﷻ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ (البقرة: ٧٤) فقلوبهم شديدة القسوة. وقال ﷻ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ (المائدة: ٨٢). فيتضح شدة كراهيتهم للمسلمين.

وغيرها العديد من الصفات الذميمة التي سجّلها عليهم القرآن الكريم، وعرّفها المسلمين ليحذروا عدوهم، والوقوف على هذه الآيات يكفي وحده لردِّ ادعاء أن محمدًا ﷺ جاملهم أو داهنهم في بعض أطوار[1] دعوته.

علاقة القرآن بالنصارى:

والنصارى هم من جملة أهل الكتاب الذين يعيشون في الدولة الإسلامية، رعايا كالمسلمين لهم حقوق وعليهم واجبات، من باب الإنصاف والعدل، فالإسلام أمرنا ألا نُسيء إليهم، ولكن لا يقال: إن هذا ضعفٌ أو تودّد؛ فقد أثبت القرآن الكريم ما فيهم من مَساوٍ ولكن لم يرغمهم يومًا على ترك دينهم أو تغيير معتقداتهم.

١. الأطوار: المراحل، جمع طَور.

أما صورتهم في القرآن فتحددها الآيات التالية:

قال ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (العنكبوت).

فهنا أمر من الله ﷻ بحسن معاملة أهل الكتاب عامة إلا من يؤذي المسلمين منهم فقد ذمهم القرآن الكريم، وهذا من محكم العدل والإنصاف، وقد أوصى الرسول الكريم بأقباط مصر خيرًا، فقال: "إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يُسمَّى فيها القيراط، فإذا فتحتموها، فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذِمَّة ورحِمًا"[1].

ولعل تطبيق هذه الوصية كان سببًا في دخول الكتابيين من نصارى مصر في دين الإسلام، حتى أصبحت مصر دار الإسلام وحصنه الحصين، وفي المقابل قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ (المائدة).

وقال تعالى أيضًا: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾﴾ (المائدة).

قال وهو الأحد الصمد: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ (المائدة).

وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ (التوبة). وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ (آل عمران).

وقد دعا القرآن أهل الكتاب جميعًا إلى كلمة سواء؛ فقال ﷻ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤)، وهي دعوة لا يناقضها الإقرار بتحريف الكتب المقدسة لليهود والنصارى؛ فإن الحديث عن تحريفها ليس فيه إساءة ألبتة لمشاعر أهل الكتاب، بل فيه شحذ لأذهانهم، ليسلكوا السبيل الموصلة للحق، والذي ينتهي بهم إلى رضوان الله، وإلى جنة عرضها السماوات والأرض، فنحن منهيون عن سب ما يعبده الآخرون، أو إثارة مشاعرهم، ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي بأهل مصر (٦٦٥٨).

﴿دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

ولكننا نقول الحق وبيانه للناس كافة، ودعوتهم إليه، فنحن ـ المسلمين ـ كما قال ربعي بن عامر: "ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة".

ثناء القرآن الكريم على المسيح عليه السلام وأمه:

أما عن زعمهم بتودُّد القرآن الكريم للنصارى عن طريق ذكر المسيح عليه السلام وأمه بكلام طيِّب، فهو زَعْم باطل مردود؛ لأن القرآن حينما أثنى على المسيح عليه السلام وأمّه لم يكن يهدف إلى التودد إلى النصارى كما يزعمون، وإنما كان تكريمًا لرسول عظيم من أُولي العَزْم من الرسل، ولأمه السيدة البَتُول العابدة، والمتأمل لهذه الآيات التي ورد فيها الثناء على المسيح يجد أنها قد ذكرته بألقاب متعددة تحمل كلها أروع معاني الإجلال والتقديس، وفي هذا تقدير من العزيز الحكيم ليحدد هوية هذا الإنسان وصفته الذي خُلق بمعجزة؛ فهو ابن مريم فقط، وليس ابنًا لله ـ تعالى الله عما يقولون ـ ولا ليوسف النجار كما تنسبه الأناجيل، وإنما هو "عبد الله" و "رسول الله" و "كلمة الله" و "روح من الله" و "آية الله"، ولم يكن أبدًا ـ ولا ينبغي له أن يكون ـ ابنًا لله، أو صورة لله كما يزعم النصارى[1]، وأمه السيدة مريم هي العابدة البتول الصديقة، وخير نساء العالمين، ولم تكن أبدًا أم الإله كما يقول النصارى. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فقد أثنى القرآن الكريم على سائر الأنبياء والرسل الكِرام، وكذلك أثنى على نساء صالحات؛ كأم موسى، وامرأة فرعون، فأين المحاباة؟! وأين هذا التودد المزعوم للنصارى؟!

علاقة النبي ﷺ بورقة بن نوفل:

أما عن علاقة النبي ﷺ بورقة بن نوفل، فقد بالغ فيها هؤلاء المدعون مبالغة عظيمة؛ إذ إنه في حقيقة الأمر لم يكن هناك أية علاقة بين النبي ﷺ وبين ورقة بن نوفل، سوى هذا اللقاء الوحيد الذي تم بينهما بعد أول لقاء للنبي ﷺ مع جبريل عليه السلام في غار حِراء؛ إذ انطلقت به خديجة ـ رضي الله عنها ـ إلى ابن عمِّها ورقة، وكان ممَّن تنصَّر في الجاهلية، وعنده عِلْم بالتوراة والإنجيل، وكان ممن يعبد الله ويوحده، فقصَّ عليه النبي ﷺ قصته فبشَّره بالنبوة، وتمنَّى لو أدركته الرسالة لينصره نصرًا مؤزرًا[2]، والمتأمل في هذا اللقاء يجد أنه تم بواسطة السيدة خديجة؛ أي: لم تكن هناك علاقة سابقة بين النبي ﷺ وبين ورقة، كما أن ورقة بن نوفل تُوُفِّي بعد هذا اللقاء بفترة قصيرة، ولم تذكر كتب السيرة أي لقاء بين النبي ﷺ وبين ورقة غير هذا اللقاء، مما يبطل أيَّة دعوى تتَّهم النبي ﷺ والإسلام بالمداهنة لأحد ـ يهوديًّا كان أو نصرانيًّا ـ في أية مرحلة من مراحل دعوته ﷺ.

الخلاصة:

- أن الإسلام ما تودد إلى اليهود، ولا النصارى ولا غيرهم، إنما عاملهم بالإنصاف والتسامح، بصفتهم

---

١. انظر: أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، مرجع سابق، ص٤٥.

٢. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١، ص٢٦١ بتصرف.

رعايا يعيشون في الدولة الإسلامية لهم ما لنا من حقوق، وعليهم ما علينا من واجبات.

- والقرآن كذلك لم يتعرض لهم بالذم دائمًا، بل ذكر محسنهم ومسيئهم، ولذلك حذَّر المسلمين من بعض أفعالهم التي قد تسبب الأذى للمجتمع ككل.
- إن القرآن المكي يرسخ عقيدة التوحيد، في غير تودُّد ولا مجاملة، أما بعد الاحتكاك الفعلي بيهود المدينة، فلم يكن بُدّ من إرساء بعض الأحكام لضبط التعامل معهم، لذلك جاء القرآن المدني مبينًا لتلك الضوابط.
- كما عقد الرسول ﷺ معاهدة معهم تنص على العديد من المبادئ الإسلامية الراقية، التي تنصفهم باعتبارهم آدميين، لهم حق الحياة، والعدل، والحماية وغير ذلك.
- إن الثناء الوارد في القرآن الكريم عن المسيح وأمه السيدة مريم، هو في حقيقته ثناء على نبي كريم، ورسول عظيم من أولي العزم من الرسل، وثناء على أمه السيدة الصِّدِّيقة العابدة البَتُول، ووصفها بما يستحقان من صفات جليلة، وليس فيه أي تودُّد أو مداهنة للنصارى، بل إنه يوضح حقيقة المسيح عليه السلام وأمه، وأنه عبد الله ورسوله، وليس إلهًا أو ابن إله كما يزعم النصارى.
- لم تكن هناك أية علاقة بين النبي ﷺ وبين ورقة بن نوفل، سوى في هذا اللقاء الوحيد الذي تم بينهما، وذلك بعد أول تجربة للنبي ﷺ مع الوحي، وقد تُوُفِّي ورقة بعد هذا اللقاء بوقت وجيز، فأين العلاقة التي كانت بينهما؟!
- إن القرآن الكريم لم ينزل على مراحل مرتبطة بعلاقة النبي ﷺ باليهود والنصارى في الجزيرة، ولكنه نزل منجمًا مفرقًا لحكم ومقاصد معلومة، فقد كان ينزل وفق الحوادث، وإجابات السائلين، كما أن ذلك أدعى لسهولة حفظه وتطبيق أحكامه.

الشبهة السادسة عشرة

ادعاء أن القرآن في حديثه عن أهل الكتاب يدعو إلى إرهابهم والتحقير من شأنهم (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن حديث القرآن عن اليهود والنصارى، يتمحور حول شنِّ حربٍ لا هَوادة[1] فيها على أهل الكتاب، ويستدلون على ادعائهم بقوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ (التوبة). كما يزعمون أن القرآن الكريم قد نبذ اليهود والنصارى، وحقَّر من شأنهم، مستدلين على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ (المائدة). هادفين من وراء ذلك إلى وصم الإسلام بأنه دين إرهاب واعتداء على الآخرين.

(*) أسئلة بلا أجوبة، صموئيل عبد المسيح، موقع الكلمة.

١. هَوادة: لِين ورِفْق.

وجوه إبطال الشبهة:

١) المراد من الآية الأولى هم المشركون لا أهل الكتاب، بدلالة السياق قبلها.

٢) أما المراد من الآية الثانية فهو النهي عن موالاة أهل الكتاب من اليهود والنصارى وذلك لا يعني ظلمهم أو اضطهادهم أو عدم اتباع سماحة الإسلام في معاملتهم.

٣) ليس معنى أن القرآن ينهى عن موالاة أهل الكتاب، أنه يحقِّر من شأنهم أو يستهزئ بهم، بدليل تعامل المسلمين معهم بالرحمة والتسامح.

التفصيل:

أولا. مراد الآية الأولى هم المشركون لا أهل الكتاب:

إن القرآن الكريم بما فيه من تعاليم سامية يدعو الناس جميعًا إلى احترام المبادئ الأساسية بينهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات)، فالقرآن لا يدعو أتباعه إلى إرهاب غيرهم أو الاعتداء عليهم، وإنما يدعوهم إلى حُسن معاملتهم، وإن خالفوهم في العقيدة والدين طالما أنهم مسالمون غير معتدين، أما إذا اعتدوا وبدءوا بالقتال والحرب فالقرآن يدعو أتباعه إلى رد العدوان عن أنفسهم: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٤).

أما الذين يدعو القرآن إلى قتالهم في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ (التوبة: ٨)، إنما هم مشركو قريش وحلفاؤهم من المشركين، وهذا ما يدلل عليه سياق الآيات قبلها، يقول الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ (التوبة).

فالحديث في هذه الآية عن المشركين الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ (يوم الحديبية)، حيث أعانوا بني بكر ـ حلفاء قريش ـ على خزاعة، حلفاء النبي ﷺ؛ فقد وصفت الآية الكريمة هؤلاء المشركين وصفًا في غاية الذَّم والقُبح؛ لأنهم إن كانوا أقوياء فَجَرُوا وأسرفوا في الإيذاء، نابذين[1] كل عهد وقرابة وعُرْف، "أما إذا شعروا بالضعف فإنهم يقدِّمون للمؤمنين الكلام اللَّيِّن الذي تنطق به ألسنتهم وتأباه قلوبهم الحاقدة الغادرة"[2].

ومما يزيد الأمر وضوحًا ما فصله الشيخ الغزالي قائلًا: المعنى المقصود بالآية الوثنيون المهاجمون للإسلام، الناكثون عهدهم معهم، فكيف يدَّعون أنها نزلت في أهل الذمة، مع أنها وردت في المشركين الناقضين للعهود؟!!

كما أن الآية بها أدلة بطلان يرد فهمهم الخاطئ لها، وذلك لأنهم لم يفهموا مَنِ المخاطب في الآية، وعلى مَنْ يعود ضمير الغائب، فالمخاطب في الآية هم المسلمون، حيث يحذرهم القرآن من تربُّص المشركين بهم، وهم من قصدهم القرآن في ضمير الغائب في قوله "يظهروا"

١. نابذين: تاركين.

٢. التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج٦، ص٦١ بتصرف يسير.

و "يرقبوا"، و "يرضونكم"، "أفواههم"، "وقلوبهم"، كما يحذرهم من خيانة العهد[1].

وبهذا البيان اتضح أن المراد بالآية هم مشركو قريش وحلفاؤهم وليس أهل الكتاب من النصارى واليهود، مما يبطل زعمهم الفاسد من أن الإسلام يدعو أتباعه إلى إرهاب أهل الكتاب وتحقيرهم، فالحقيقة أن هذا إسقاط منهم، فهم الذين يُحرِّضون دائمًا الأمم ويُؤلِّبونها ضد المسلمين، ويحاولون إرهاب المسلمين وإخضاعهم لسلطانهم.

ثانيًا. المراد بالموالاة والنهي عنها لا يعني الاعتداء أو عدم اتباع سماحة الإسلام في معاملتهم:

معنى الموالاة: تقوم معاني الولاية في الإسلام على مفهوم النصرة، والمودة والتعاهد، والتناصح والبذل في سبيل دفع الأذى وتحقيق النفع، ولذلك فقد منع القرآن المؤمنين من ولاية الكافر "فريق المحاربين": ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ (الممتحنة). وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ (المائدة: ٥٧).

بل منع القرآن من موالاة المؤمنين أنفسهم ما لم يحترموا مقتضيات الدين، وتكاليف الإيمان، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ (الأنفال: ٧٢).

والقرآن يؤكد على أن الولاية من المعاني الإنسانية العامة التي يحرص على تحقيقها كل مجتمع إنساني مع من يماثله في الفكر والمصلحة، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ (الأنفال: ٧٣)، ومن ثم حضَّ المؤمنين على إقامتها مبينًا ما يترتب على غيابها من مفسدة وشر: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١).

فبعد هذا لا يصح القول أن الإسلام يحقِّر من شأنهم؛ لأن استبعاد الموالاة شيء، والاحتقار شيء آخر، والاستشهاد بالآية السابقة كدليل إدانة ليس في محلّه على الإطلاق.

وعلى هذا فإن دعواهم أن القرآن في غالب حديثه ينبذ اليهود والنصارى ويحقِّر من شأنهم لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ (المائدة: ٥١)، تلك الدعوى ناتجة عن فهم خاطئ وتفسير للقرآن بدون علم، إذ إننا إذا رجعنا إلى سبب نزول هذه الآية تبَدَّد الوهم وزال الإشكال فقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي، وغيرهم عن عبادة بن الوليد: أن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ، تشبث بأمرهم عبد الله بن سلول، وقام دونهم، ومشي عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله ورسوله من حِلْفِهِم، وكان أحد بني عوف بن الخزرج، وله من حِلْفِهِم مثل الذي كان لهم من عبد الله بن أُبي، فخلفهم إلى الرسول ﷺ وقال: أتولى

---

١. التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، د. محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٤٠ بتصرف.

الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ إلى الله ورسوله من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم، وفيه، وفي عبد الله بن أُبي نزلت الآيات في المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ (المائدة: ٥١)، إلى قوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (المائدة)، فلا حرج على الإسلام أن يحذِّر أتباعه من الأعداء المحاربين له المتربصين بأهله الدوائر إذ إن تنفير أفراد الأمة من مهادنة خصومها واجب يتجدد في كل عصر، فعندما تحرم الحكومة المصرية مثلًا التعاون مع القوات الأجنبية، فهل يُفهَم من ذلك أن مصر تُكِنُّ البغضاء للعالم أجمع؟

فحينئذ هذه خصومة لها ما يبررها، وقد وردت أشياء من هذا القبيل في الإنجيل. فقد قال المسيح: "لا تظنوا أني جِئْتُ لألقي سلامًا على الأرض. ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا"! (متى ١٠: ٣٤)، ولكننا كمسلمين نؤمن بمفهوم السلام في كل الرسالات السماوية - غير المحرفة طبعًا - لا نعتقد أن رسالة المسيح تسعى لإفساد الأرض، ولا تحيا إلا لسفك الدماء، فهذا فهم أخرق.

وعلى هذا فإن المعنى الصحيح لما ورد في الآية القرآنية السالفة الذكر، أنها نزلت تطهيرًا للمجتمع الإسلامي من ألاعيب المنافقين، وما يدبرونه في الخفاء من مؤامرات لمساعدة فريق من أهل الكتاب أعلنوا على المسلمين حربًا شعواء، واشتبكوا مع الدين الجديد في قتال عنيف، ليس له من أسباب سوى مخالفته دينهم المحرف.

فاليهود والنصارى في الآية قوم يحاربون المسلمين فعلًا، وقد بلغوا في حربهم منزلة من القوة جعلت ضعاف الإيمان يناصرونهم ويتقربون إليهم، قال ﷻ: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ (المائدة).

ومن ثم جاء التحذير للمسلمين؛ لأن في ذلك ردًّا للعدوان المتحقق فعلًا من اليهود والنصارى، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ (المائدة)[1]. وإذا كان هذا سبب نزول الآية وهو بخصوص تلك الوقائع والأحداث إلا أن العبرة بعموم اللفظ هنا لا بخصوص السبب، فلا تجوز موالاة اليهود والنصارى لا في حرب ولا في سلم في كل زمان ومكان، إذ الولاية هنا تعني التناصر والتحالف، وسماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء واتخاذهم أولياء شيء آخر، فيجب ألا يختلطان، وكذلك فإن التسامح يكون في المعاملات الشخصية والحياة الإنسانية لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي، لذلك فنحن نُنبِّه على أمر مهمٍّ، وهو أنه ليس معنى أن الإسلام ينهى عن موالاة أهل الكتاب، أنه يحقِّر من شأنهم ويستهزئ بهم، بدليل تعامل المسلمين معهم بالرحمة والتسامح.

ثالثًا. موقف الإسلام من اليهود والنصارى:

لم يقف الإسلام من أصحاب العقائد والديانات

١. المرجع السابق، ص٣٩، ٤٠ بتصرف.

المخالفة موقف الرفض المطلق، كما يدعي البعض، بل إننا نجد في القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة ما يزخر بقيم العدالة والمساواة في معاملة المخالفين؛ ومنها:

- الإسلام لم يكره أحدًا على اعتناقه، بل سمح لأصحاب الأديان الأخرى بالبقاء على دينهم دون أن يسلبهم حقوقهم، أو يكون ذلك سببًا في التقليل من شأنهم، أو سلبهم حقوقهم الكاملة في المواطنة مع المسلمين، إذ إنه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، أيضًا: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ (الكافرون)، بل إن القاعدة الإسلامية في هذا الصدد تنص على "أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا" أي: حقوق مواطنة كاملة.

- دعا الإسلام لإقامة جسور الحوار والتفاهم والتعاون والمودة مع غير المسلمين من أهل الكتاب ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦٤)، بل نحن مأمورون بالرفق معهم. ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

- رفض الإسلام إصدار أحكام عامة مطلقة بشأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى من مثل: كلهم سواء، كلهم أعداء، مراعاة للعدل في الحكم عليهم، وذلك في آيات القرآن التي تفرق بين قوم اقتربوا من الحق وتمثلوه في بعض صوره، وآخرين نأوا عنه وصدوا عن سبيله وحاربوا أصحابه.

- قال تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (آل عمران)، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (آل عمران)، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ (البقرة: ١٠٩). وقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ (المائدة: ٨٢).

إذن فقد فرق الإسلام بين أهل الكتاب في الوصف على حسب معاملاتهم مع المسلمين، فهناك الطيب والخبيث في كل آن ومكان.

ولقد حثَّ الإسلام على كثيرٍ من الأخلاق الراقية في معاملة المخالفين من اليهود والنصارى، كالعفو والصفح في مواجهة والمؤامرات: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ (البقرة: ١٠٩)، والبر والعدل: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ (الممتحنة)، والحوار الهادئ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، مع تأكيده على خلق مساحات مشتركة من الحوار: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (العنكبوت: ٤٦).

- ثبت عن النبي ﷺ أنه حذر من إيذاء وظلم أهل

الذمة من اليهود والنصارى المسالمين، المحافظين على نظام الدولة وقوانينها، قال ﷺ: "من قتل معاهدًا لم يُرِح رائحة الجنة، وإن رِيحها توجد من مسيرة أربعين عامًا"[1].

وقد سار الصحابة ﷺ على النهج نفسه بعد وفاة الرسول ﷺ، فهذا عمر بن الخطاب يرفع ضريبة الجزية - وهي الضريبة الإسلامية المفروضة على غير المسلمين في مقابل توفير الحماية العسكرية لهم، دون إلزامهم بالانضمام في جيوش الدولة - عن غير القادرين منهم، بل زاد على ذلك بأنه أمر للمحتاجين من شيوخهم، وفقرائهم بعطاءٍ كافٍ من بيت مال المسلمين، يحفظ عليهم كرامتهم ويرد الفاقة[2] عنهم، ولا يتنافى هذا الموقف مع ردود الأفعال الحاسمة للإسلام من رفض العقائد والمبادئ التي تَسرَّبت إلى الأديان الكتابية، كعقيدة التثليث، والقول في طبيعة المسيح، ومبادئ الصلب والخلاص والفداء، وغيرها من المعتقدات الخاطئة التي حكى القرآن بعضها مناقشًا إياها بالحجة والبرهان، ومبطلًا لها بكل دليل وبيان.

- وموقف المسلمين المتسامح هنا لا يتنافى مع حِدَّتهم بالنسبة للمُناوئين والمحاربين من أهل الكتاب، الذين يتربَّصون بالمؤمنين ودولتهم الدوائر، فيكيدون لهم ويتحالفون مع أعدائهم، إذ إنه لا ضرر ولا ضرار في الإسلام.

تعامل المسلمين مع غيرهم على أساس من الرحمة والتسامح:

كما أن الحديث عن النبذ والاحتقار له ما يرده من سيرة الرسول ﷺ أيضًا، إضافة إلى آيات القرآن الكريم التي ذكرناها، فحينما مَرَّت جنازة أمام النبي ﷺ وأصحابه قام لها، فقيل له: إنها ليهودي، فقال ﷺ: "أليست نفسًا"[3]؟ وموقف الرسول ﷺ من وفد نصارى نجران الذي جاء لمقابلة الرسول في المدينة ومحاورته، فقابلهم في مسجده الشريف، وسمح لهم بالصلاة فيه، ثم جادلهم وحاورهم بالحجة والبرهان وتحداهم فرفضوا.

كما أن القرآن مليء بالآيات التي تُوصِي بأهل الكتاب خيرًا، وليس أدل على ذلك من قصة طُعْمَة بن أُبَيْرِق المسلم - الذي سطا على أهل بيت من المسلمين وسرق منهم درعًا، ثم خبأها عند يهودي، وكانت كل الدلائل تشير إلى اتهام اليهودي، فأنزل الله براءته من فوق سبع سماوات، يقول ﷻ: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ (النساء)[4].

وهكذا فقد نزلت الآيات لتنصر اليهودي على المسلم، فكيف يأتي من يدعي أن القرآن هضم حقوقهم باعتبارهم أقليات في الدولة الإسلامية، مخالفين

1. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم (٢٩٩٥).
2. الفاقة: الفقر والحاجة.
3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنازة، باب من قام لجنازة يهودي (١٢٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة (٢٢٦٩).
4. التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، د. محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٦٢، ٦٣ بتصرف.

للدين الرسمي؟! فقد وضع القرآن والسنة النبوية ميثاقًا يتعامل به المسلمون مع غيرهم - كما أسلفنا بدءًا من الجدال معهم: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، نهاية بتركهم على دينهم أحرارًا: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، مرورًا بالدعوة إلى عدم ظلمهم وحماية معابدهم، وكنائسهم، والاستعانة بهم - في الجيوش وإدارة الدولة، وإعطائهم حرية الحكم فيما بينهم مما عندهم من كتب، وجعل لهم من الحقوق والواجبات ما للمسلمين.

وبهذا يتضح أن الإسلام لا يدعو في تعاليمه السامية إلى إرهاب اليهود والنصارى أو الاعتداء عليهم أو التحقير من شأنهم كما يزعم هؤلاء، إنما أمر بمعاملتهم بالحسنى وجدالهم بالتي هي أحسن وبرهم والإنصاف معهم والإحسان إليهم ما لم يكونوا محاربين.

الخلاصة:

- ما يدفع المستشرقين إلى مثل هذه الأقوال هو فهمهم الخاطئ لآيات القرآن الكريم، إذ إنهم لو أمعنوا النظر قليلًا في الآية التي يستدلون بها من خلال سياقها التي وردت فيه دون بَتْرها[1] عما سبقها وما بعدها من آيات - لو فعلوا ذلك، لوجدوا أن الحديث هنا عن المشركين الناقضين لعهدهم مع المسلمين، والذين يهاجمون المسلمين، لا لسبب غير مرض قلوبهم، ودور المسلمين في تلك الحالة هو التأديب، ورد العدوان فقط، وليس المبادرة بمناصبة العداء، فالملاحظ أن الإسلام منح أهل الكتاب في الدولة كما قررت القاعدة الإسلامية العظيمة في هذا الشأن "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" كما ظهر التسامح معهم واضحًا زمن الرسول ﷺ، واقتدى به صحابته رضوان الله عليهم من بعده في هذا الشأن، فكان لهم حرية الاعتقاد، وإظهار شعائرهم، وتأمين حياتهم وحفظ كرامتهم، بل إعطاء فقرائهم ما يكفيهم من بيت مال المسلمين، وليس أدل على ذلك من روح الإسلام السمحة حتى في المجادلة والحوار.
- أما اعتراضهم على مسألة الولاية، فما من قوم يوالون من يُكِنُّ لهم البغضاء، فالآية الكريمة تتحدث عن الكفار المحاربين الذين نكثوا عهدهم مع المسلمين، فهل يُفرض عليهم في تلك الحال أن يتركوا إيذاءهم دون أدنى اعتراض، بل يتخذوهم أولياء، وهم يعادون الله ورسوله والمؤمنين. أي عقل يسمح بهذا؟!
- إضافة إلى هذا ما نراه في كتبهم المقدسة (الإنجيل والتوراة المحرفين) من أعمال وحشية ونبذ السلام، والذي يعدونه قربى إلى الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.
- ليس هناك أي وجه لصحة هذا الادِّعاء القائل: إن القرآن في حديثه عن أهل الكتاب يدعو إلى إرهابهم والتحقير من شأنهم، وذلك للآتي:
  - المراد بالآية الأولى المشركون أهل الكتاب، بدليل السياق قبلها، حيث تحدثت الآيات التي قبلها عن المشركين الذين نقضوا عهدهم يوم الحديبية مع رسول الله ﷺ، وأعانوا بني بكر حلفاء قريش على خزاعة حلفاء النبي ﷺ.
  - المراد بالآية الثانية النهي عن موالاة المحاربين

---

١. البَتْر: الفَصْل والقَطْع.

من أهل الكتاب أثناء الحرب بين المسلمين وبينهم، وهذا شيء يقره العقل، فكيف تتعاون الأمة مع عدوها على نفسها، ومع ذلك تبقى دلالة الآية معمولًا بها في كل زمان ومكان على كل حالٍ من حرب أو سلم؛ لأن الموالاة التي تعني النُّصرة والتحالف شيء، والمعاملة الإنسانية الحسنة شيء آخر.

- ليس معنى أن القرآن الكريم ينهى عن موالاة المحاربين من أهل الكتاب، أنه يحقرِّ من شأنهم، ويستهزئ بهم، فالأحداث التاريخية حافلة بالمواقف التي تثبت مدى العدل والإنصاف الذي تعامل به المسلمون مع غيرهم من أهل الكتاب، ومدى التسامح والرحمة معهم.

الشبهة السابعة عشرة

دعوى نزاهة التوراة والإنجيل عن التحريف والتزييف(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض الجاهلين نزاهة التوراة والإنجيل عن التحريف والتزييف، ويتساءلون: إذا كان الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) مُحرَّفًا، فمتى حُرِّف؟ كيف يكون قبل مجيء محمد ﷺ والله تعالى يقول: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ (يونس: ٩٤) وكيف يكون بعد مجيئه محمد ﷺ والله يقول: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (يونس: ٦٤)، ثم أين حدث التحريف؛ هل في أوربا، أم في إفريقيا، أم في آسيا! ثم من الذي أوقع التحريف؛ أهم اليهود، أم النصارى، أم هم جميعًا؟ وبأية لغة حُرِّف الكتاب المقدس؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) اعتراف اليهود والنصارى أنفسهم بتحريف الكتاب المقدس يكفي دليلا على ردِّ هذه النزاهة المُدَّعاة. وقد نصَّ القرآن الكريم على تحريف أهل الكتاب لكتبهم.

٢) إن التفسير الصحيح لآيتي سورة يونس - الذي نصَّت عليه كتب التفسير قديمها وحديثها - يؤكد زَيْف التفسيرات التي ذكرها مَنْ أثار هذه الشبهة.

٣) إن التساؤلات التي أثارها هؤلاء لا تُغيِّر من الحقيقة شيئًا، الحقيقة التي تؤكد أن التوارة والإنجيل المتداولين الآن يختلفان عن التوارة والإنجيل السماويين الصحيحين.

التفصيل:

أولا. اعتراف اليهود والنصارى أنفسهم بتحريف الكتاب المقدس:

ها هم أساتذة المسيحية يعترفون بتحريف الكتاب المقدس، يقول شارل جنيبير - أستاذ المسيحية ورئيس قسم تاريخ الأديان بجامعة باريس - وهو يتحدث عن الصِّعاب التي تواجه الباحث في تاريخ المسيحية: "وأول الصعاب التي تعترضها، نجدها في النصوص نفسها، التي تمتاز عن سائر النصوص بضعف السند، وبالاضطراب، وعسر التحقيق، وأقدم هذه النصوص وأهمها - لأنها تتناول حياة المسيح، والزمن الأول

(*) قناة الحياة، زكريا بطرس.

للعقيدة ـ هي تلك التي احتواها "العهد الجديد" والتي استلزمت قبل إمكان الاعتماد عليها، تحقيقًا نقديًّا يوشك بعد على الانتهاء"[1].

وحمَّل د. موريس بوكاي البَشَر مسئولية المتناقضات التي تضمَّنتها الأناجيل، وليس الإيمان، فقال: "غير أن وجود هذه الأمور المتناقضة، وتلك التي لا يحتملها التصديق، وتلك الأخرى التي لا تتفق والعلم ـ لا يبدو لي أنها تستطيع أن تضعف الإيمان بالله، ولا تقع المسئولية فيها إلا على البشر... وأن ما يصدر منا حقًّا في أيامنا هذه أن نرى المتخصصين في دراسة النصوص، يتجاهلون ذلك التناقض والتعارض مع الحقائق العلمية الثابتة، أو يكشفون عن بعض نقاط الضعف؛ ليحاولوا بعد ذلك التستر عليها مستعينين في ذلك ببهلوانات جدلية" [2].

إن الثابت أن الكتاب المقدس كُتِبَ بأقلام بشر[3]، وما دعوى أن الرب ألهمهم إياها إلا دعوى لا دليل عليها. يقول موريس بوكاي عن أصل الكتاب المقدس: "كان الكتاب المقدس ـ قبل أن يكون مجموعة أسفار ـ تراثًا شعبيًّا، لا سند له إلا الذاكرة"[4].

فكَوْن التوراة والأناجيل المتداولة الآن لم تكن نازلة على موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ هذه حقيقة يعرفها علماء اليهود والنصارى، ولكنهم يخفونها عن عوامِّ اليهود والنصارى ليُضَلِّلُوهم.

لم يسلم الكتاب المقدس من التحريف والتبديل:

ما الفائدة المَرْجُوَّة وراء معرفة الوقت الذي حُرِّف فيه الكتاب المقدس؟ المهم أنه قد حُرِّف، ومن المقطوع به أنه حُرِّف قبل مجيء النبي ﷺ، وهذا الواقع عبر عنه القرآن فقال فيهم: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ (النساء: ٤٦)، ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (البقرة)، وأكد ذلك الباحثون، فقال موريس بوكاي، بعد أن استعرض دراسات أدموند جاكوب للعهد القديم: "بهذا تتضح ضخامة ما أضافه الإنسان إلى العهد القديم، وبهذا أيضًا يتبين للقارئ التحولات التي أصابت نصَّ العهد القديم الأول، من نقل إلى نقل آخر، ومن ترجمة إلى ترجمة أخرى، بكل ما ينجم ـ حتمًا ـ عن ذلك من تصحيحات جاءت على أكثر من ألفي عام[5].

ثانيًا. التفسير الصحيح لآيتي سورة يونس:

وأمَّا عن استدلالهم بقوله ﷻ: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (يونس: ٩٤)، فلا تقوم الآية لهم دليلًا على استدلالهم، وليس فيها اعتراف من قِبَلِ النبي ﷺ بصحة الكتاب المقدس، كما يزعمون؛ وذلك لأن الآية تحتكم إلى أهل الكتاب في ثبوت وحي نزل من عند الله جملة؛ نظرًا لأنهم يؤمنون بوحي من الله إلى رسله، فالله يقول لنبيه: إن كنت في شك من الوحي المُوحَى إليك به من عند

---

١. المسيحية: نشأتها وتطورها، شارل جنيبير، مرجع سابق، ص١٧.
٢. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، دائرة المعارف الأمريكية، ص١٣.
٣. المرجع السابق، ص١٧.
٤. المرجع السابق، ص٢٠.
٥. المرجع السابق، ص١٩.

الله، فاسأل من يعرف ذلك من أهل الكتاب.

و "إنْ" في الآية أداة من أدوات الشرط تفيد الشك، أي أن الشك لم يقع في قلب النبي ﷺ، كما أن قوله ﷻ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ (يونس: ٦٤) ليس دليلًا على حفظ الكتاب المقدس من التحريف كما يزعمون، بل ليس دليلًا على حفظ القرآن أيضًا، وإنما جاءت الآية في سياق الحديث عن المؤمنين المتقين الذين وعدهم الله تعالى بأن لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ (يونس). يقول القرطبي: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، أي: لا خُلْف لوعده. وقيل: لا تبديل لأخباره، أي: لا ينسخها بشيء، ولا تكون إلا كما قال[1].

ثالثًا. تساؤلات لا تغير من الحقيقة شيئًا:

لقد أثار هؤلاء تساؤلات لا تغير شيئًا من الحقيقة التي تؤكد الاختلاف بين التوارة والإنجيل السماويين الصحيحين، والتوارة والإنجيل المتداولين في العصر الحديث.

أما عن مكان التحريف، فهذا أمر لا يعنينا ولا يفيدنا لا من قريب ولا من بعيد، وهم أعرف الناس بمواضع التحريف، وبأماكن وقوعه، وأهدافه والغاية منه، ومن أراد أن يتتبع أطوار كتابة العهد القديم والعهد الجديد، فليرجع إلى كتاب موريس بوكاي "دراسة الكتب المقدسة"، صـ٢٣ وما بعدها، وص ٦٥ وما بعدها.

وأمَّا عمَّن فعل التحريف؛ أَهُم اليهود، أم النصارى، أم هم جميعًا تعاونوا على ذلك؟ فإنا نقول: إن اليهود لا يعترفون بالأناجيل، ولا العهد الجديد بكامله، حتى يقتربوا منه بتحريف أو غيره، وكذلك لا يعترفون بالعهد القديم على صورته عند النَّصارى، وتحريفهم للتوراة - بل كتابتهم لها بالكامل - بعد موت موسى بعِدَّة قرون أمر لا جدال فيه.

وأمَّا النصارى فقد حرَّفوا الكتاب المقدس بعَهْدَيْه، ويكفي دليلًا على ذلك أن من نُسِبَتْ إليهم الأناجيل غير موثوق بالنسبة إليهم، وأن النسخة الأصلية لكل إنجيل غير معروفة، فأين هي؟ ومن الذي قام بترجمتها؟ وكيف تحفظ، مع استحالة نقل جملة واحدة من لغة إلى لغةٍ أخرى حرفيًا، بل لا بد من إحداث تغيير؟ ومعرفة اللغة التي تم بها التحريف أمر غير ذي بالٍ، وهذا سؤال يجب أن يسألوه لأنفسهم ولا يسألونا عنه، فهم أعرف بذلك منّا، ويكفي أن نعرف أن توالي الترجمات، وكثرة النقل من لغة إلى لغة كفيل بأن يُبعِدَ الكتاب المقدس المنقول عن لغته الأصلية، ويحدث به التبديل والتغيير، وكل ذلك بعض عوامل التحريف والتبديل.

الخلاصة:

- إن تحريف الكتاب المقدس - بعَهْدَيْه - أمرٌ لا جدال فيه، وذلك باعتراف اليهود والنصارى أنفسهم، فضلًا عن الأدلة الواضحة في كُتُبهم الموجودة بين أيديهم الآن.
- لا يحمل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٨، ص٣٥٩.

شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ﴾ (يونس: ٩٤)، وقوله ﷻ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (يونس: ٦٤) دليلًا على صحة الكتاب المقدس؛ فالآية الأولى جاءت في إثبات النبوة أو إمكانيَّة حدوثها، والثانية جاءت في سياق الكلام عن تحقيق الله لوعده على كل حال.

- التواتر التاريخي على تحريف الكتاب المقدس يقطع بتحريفه، وتضافر الأدلة على ذلك التحريف لا يترك فرصة للدفاع عن الكتاب المقدس، وإن جاء في القرآن ما يمدح التوراة والإنجيل، فإن المقصود بالتوراة في هذا السياق التوارة التي نزلت على موسى عليه السلام من عند الله، وليست التوراة التي كتبها اليهود، وكذلك المقصود بالإنجيل، هو الذي أوحى به الله إلى عيسى عليه السلام، وليس الإنجيل الذي كتبه الباباوات.

الشبهة الثامنة عشرة

دعوى اقتباس القرآن بعض التعابير من الإنجيل(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن القرآن الكريم قد اقتبس بعض التعابير من النصوص الإنجيلية، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (الأعراف)، متوهِّمين أن التعبير القرآني: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ مُقتبس من النصِّ الإنجيلي "مرورُ جَمَلٍ من ثَقْب إبرة أيسرُ من دخول غَنِيٍّ إلى ملكوت الله". (مرقس ١٠: ٢٥).

وجوه إبطال الشبهة:

١) الموضوع الذي سيق لأجله النص الإنجيلي هو عدم دخول الغني ملكوت الله، وهذا حكم كاذب، أما الحكم في الآية القرآنية فيعبر عن عدالة الله وحكمته.

٢) ما الذي يمنع أن يكون الحكم الإنجيلي هو المستفاد من القرآن الكريم، والمقتبس من الآية الكريمة بعد تشويهه ووضعه في غير موضعه؟! وما الذي يمنع أن يكون الحكم واحدًا في أصل الكتابين خصوصًا وأن هذا من أمور العقيدة التي لا تختلف من رسالة لأخرى، ولكن النصارى حرَّفوها كعادتهم إلى هذا المعنى الجديد.

٣) إذا كان دين النصارى يحارب الغنى بهذه الصورة، فلماذا يرفلون في الغنى والثراء؟!

التفصيل:

أولا. الموضوع الذي سيق لأجله النص الإنجيلي هو عدم دخول الغني ملكوت الله، وهذا حكم كاذب، أما الحكم في الآية القرآنية فيعبر عن عدالة الله وحكمته:

إن الموضوع الذي سِيْق لأجله النص الإنجيلي هو عدم دخول الغني ملكوت الله، فإن كان المراد بـ "ملكوت الله" "ملكه" ﷻ وهو المتبادر إلى الذهن من "ملكوت الله" فالحكم الإنجيلي كاذب؛ لأن جميع الخلق جزء من "ملكوت الله" وفي "ملكوت الله" ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ (المائدة: ١٢٠).

(*) مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق.

وإن كان المراد ـ في زعمهم ـ بـ "ملكوت الله" الحياة الأبدية، أي الفوز بالسعادة يوم القيامة، فالعبارة غير دقيقة، وعلى أية حال، فلماذا يُسْتَبْعَد الغني لمجرد غناه عن السعادة الأخروية، هل ذنبه أن الله رزقه مالًا كثيرًا؟! إن السعادة مرهونة بالإيمان والعمل الصالح، والغني والفقير سواءٌ في الحصول عليها، كما أن الشقاوة الأُخْرَويَّة ثمرة للكفر والتكذيب والطغيان والتَّكبُّر، سواء صدر ذلك من غني أو فقير، فلا الفقر لذاته مَنْقَبة،[1] ولا الغني لذاته مَثْلَبة،[2] فالمؤمن راضٍ بقضاء الله وقدره، فهو شاكر إذا اغتنى، صابر إذا افتقر، وكم من غني شاكر يفوق ملء الأرض من فقراء جزعين، وهذا هو حكم الآية القرآنية الذي يعبر عن عدالة ربنا وحكمه وحكمته.

ثانيًا. ما المانع أن يكون الحكم الإنجيلي هو المستفاد من القرآن الكريم؟!

لو أخذنا هذا الحُكْم الإنجيلي على عِلَّاته[3]، فما المانع أن يكون هو المستفاد من القرآن الكريم، أو أنه مقتبسٌ من الآية الكريمة بعد تشويهه ووضعه في غير موضعه، فإنَّ تعاقب الترجمات المختلفة على الأناجيل من لغة إلى لغة، ومن اللغة الثانية إلى الثالثة، وهكذا دواليك على مر القرون والأزمان المتباعدة ـ يرجح أن يكون مستفادًا من التعبير القرآني، إلا إذا أثبت النصارى أن هذا التعبير مثلٌ سائر، وكلمة مأثورة في ثقافة أمة سبقت أمة العرب التي نزل بلغتهم القرآن.

ثالثًا. إذا كان دين النصارى يحارب الغنى بهذه الصورة، فلماذا يرفلون في الثراء؟!

إذا كان دين النصارى يحارب الغنى بهذه الصورة المنكرة، فهل اتبعوا دينهم وتركوا المال؟ هذا "النَّجَس" الذي يحجب عن ملكوت الله؟! إن واقع الدين عندهم على النقيض من ذلك، فهم يرفلون في الغنى والثراء، لا من عرق جبينهم، ولكن مما فرضوه على أغنيائهم وكنائسهم، فمجالس الكنائس العالمية أغنى المؤسسات في العالم بفضل ما تبتزه من أموال الناس، ولا هَمّ للكنيسة إلا جباية الأموال. يقول أحد كبار موظفي حكومة غانا: "بعد تفكير عميق قررت ألا تكون لي صلة بأية كنيسة، فالكنائس لا تكاد تساعدني في حل مشكلات غانا الروحية، وكل ما يلوح أن يهمها هو جمع المساعدات المالية"[4].

لا ريب إذن أن زعم اقتباس القرآن من الإنجيل لمجرد التشابه بين كلمتين لهو زعم لا يصدقه العقل، ولا يطمئن إليه قلب أو يقره الضمير، فليبحثوا عن عقول تصدق هذه المزاعم، كتابٌ كامل شامل بعقائده وأحكامه وكذلك ما فيه من العبادات والمعاملات والسياسات المختلفة، والأخبار الصحيحة وكل شيء فُصِّل فيه تفصيلًا، وأعجز العالمين بلغته وشكله ومضامينه ـ يُحكم عليه بأنه مقتبس لمجرد تشابه بين كلمتين، مع أن استخدامها كان في غرض غير الغرض الذي استخدمه كتابهم، أي عقل يصدق هذا؟!

---

١. المَنْقَبة: الميزة.

٢. المَثْلَبة: العيب.

٣. العِلات: جمع علة، وهي المرض أو الضعف.

٤. الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، د. سعيد صالح، ص٥٧.

الخلاصة:

- ما أبعد الفارق بين التعبير القرآني والتعبير الإنجيلي، فتعبير القرآن: ﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ (الأعراف: ٤٠) دقيق رفيع، أما تعبير الإنجيل: "مرور جمل في ثقب إبرة" فهو تعبير سوقي ركيك، وهذا يدركه من له أدنى ذوق أدبي.
- حكم الإنجيل على "مرور الجمل من ثقب الإبرة" بالإمكان وليس بالاستحالة؛ لأنه قال "أيسر" فهو ممكن الحدوث، والآية القرآنية حكمها على "ولوج الجمل في سم الخياط" مستحيل، فإنها علقت دخول المكذبين الجنة على أمر مستحيل.
- الموضوع الذي سيق لأجله النص الإنجيلي هو عدم دخول الغني ملكوت الله، فهذا حكم كاذب، فإن السعادة مرهونة بالإيمان والعمل الصالح، والغني والفقير سواء في الحصول عليها، أم حكم الآية القرآنية فهي تعبر عن عدالة ربنا وحكمه وحكمته ﷻ.
- لو أخذنا هذا الحكم الإنجيلي على علاته، فما المانع أن يكون هو المستفاد من القرآن الكريم، والمقتبس من الآية الكريمة بعد تشويهه ووضعه في غير موضعه.
- مجالس الكنائس العالمية أغنى المؤسسات في العالم، بفضل ما تبتزه من أموال الناس، فأين اتباعهم لدينهم الذي يحارب الغنى بهذه الصورة المنكرة.

الشبهة التاسعة عشرة

ادّعاء أن الكتاب الذي لا ريب فيه هو الإنجيل وليس القرآن(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض الجاحدين أن الكتاب الذي لا ريب فيه هو الإنجيل وليس القرآن، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ (البقرة)، ويتعللون بأنه لو كان المقصود بالكتاب الذي لا ريب فيه القرآن لقال الله تعالى: (هذا الكتاب لا ريب فيه)، ولما قال: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ﴾، فاسم الإشارة للبعيد (ذلك) يشير إلى الإنجيل لا القرآن، الذي لو كان هو المقصود لأشير إليه بـ (هذا).

وجها إبطال الشبهة:

١) القرآن نزل على لغة العرب، واللغة تقرر أن المقصود بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ﴾ (البقرة: ٢) هو القرآن، فالإشارة هنا لبعد المنزلة وعظيم الشرف، وليست للبعد التاريخي.

٢) اتفاق العلماء والمفسرين على أن اسم الإشارة في آية سورة البقرة يعود على القرآن الكريم - يبطل ما ذهب إليه هؤلاء المدلِّسون.

التفصيل:

أولا. تجاهلٌ لما هو معلوم من اللغة العربية بالضرورة:

في اللغة العربية اسم الإشارة "ذا" للقريب، واسم

(*) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، مرجع سابق.

الإشارة "ذاك" للمتوسط في البعد، واسم الإشارة "ذلك" للبعيد، ولكن البعد والقرب يكونان تارة بالزمان، وتارة بالمكان، وتارة بالشرف، وتارة بالاستحالة، ومن قبيل ذلك قول امرأة العزيز في حقِّ يوسف: ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِ ﴾ (يوسف: ٣٢)، فـ ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ﴾ اسم إشارة للبعيد مع قُرْب يوسف منها، ولكنه إن كان قريبًا بالمكان فهو بعيد في شرف الحسن خُلُقًا وخِلْقةً.

وكذلك القرآن الكريم، لما عَظُمَتْ رتبته في الشرف، أُشير إليه بـ (ذلك) وقيل لبعد زمانه؛ لأنه وُعد به في الكتب المنزلة قديمًا، وأنّه بعيد الزمان؛ لأنه كلام الله، وكلام الله قديم، فأشير إليه بذلك توضيحا لقدمه وعدم حدوثه.

ونضيف إلى ردّ القرافي السابق - رحمه الله - وهو يستند إلى فهم لغة القرآن، أن (ذلك) في قوله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ لو كان معناها الإشارة إلى البعد تاريخيًّا، لكان الأولى أن يشار بها إلى التوراة فهي أبعد تاريخيًّا من الإنجيل، أو يشار بها إلى صحف إبراهيم، فهي أبعد زمنًا منهما، لكن لفظة (ذلك) في الآية، لا تشير إلى هذا ولا إلى ذاك، ولكنها تشير إلى القرآن، كما بين القرافي.

وهذه الجملة، تُعَدُّ أول جملة تقابلنا في القرآن الكريم، إذا أخذنا في الاعتبار أن سورة البقرة، التي صُدِّرَتْ بهذه الجملة أوّل سورة مفصّلة من سور القرآن، فسابقتها هي فاتحة الكتاب، وهي كالمقدمة له، فكأن الله ﷻ يشير إلى الكتاب الذي بين يدي الإنسان المخاطَب به، ليبدأ التعريف به، وهذا كأنْ تقدّم تلميذك الذي تعتز به للآخرين، فتقول: ذلك التلميذ، لا شك في نجابته.

ولهذا نظير في القرآن الكريم، فقد ابتدئت سورة النور بقوله ﷻ: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا ﴾ (النور: ١) إشارة إلى السورة نفسها، وقد افتتحت سورة لقمان والسجدة، بمثل هذه الافتتاحية، فقال ﷻ: ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ ﴾ (لقمان)، وقال ﷻ: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ (السجدة).

وقد جاءت افتتاحية سورة البقرة، ولقمان، والسجدة، وبداية سورة يس، وص، والزمر، وجميع الحواميم - بذكر الكتاب، فكل هذه السور مفتتحة بذكر الكتاب، والمقصود بها قطعًا وصراحة القرآن الكريم.

ذلك وقد سُمِّي القرآن بـ "الكتاب" كثيرًا في القرآن الكريم، فمن ذلك قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ (النساء: ١٠٥)، وقوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٌ ﴾ (ص: ٢٩)، وسُمِّي "كتابًا"؛ لأنه يُحفظ عن طريق كتابته، كما سُمِّي "قرآنًا"؛ لأنه يحفظ عن طريق قراءته.

ثانيًا. عوْدُ (ذلك) على القرآن باتفاق المفسرين:

لقد اتفق المفسرون على عَوْد اسم الإشارة (ذلك) على القرآن الكريم، في مفتتح سورة البقرة يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: وعلى الأظهر تكون الإشارة إلى القرآن المعروف لديهم يومئذ. اسم الإشارة مبتدأ، و(الكتاب) بدل، وخبره ما

بعده، فالإشارة إلى الكتاب النازل بالفعل، وهي السور المتقدمة على سورة البقرة؛ لأن كل ما نزل من القرآن فهو المعبّر عنه بأنه القرآن وينضم إليه ما يلحق... ويجوز أن تكون الإشارة إلى جميع القرآن: ما نزل منه وما سينزل؛ لأن نزوله مترقب، فهو حاضر في الأذهان، فشُبّه بالحاضر في العيان، فالتعريف فيه للعهد التقديري"[1].

الخلاصة:

- اللغة العربية - لغة القرآن - تشهد أن المراد بـ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ هو القرآن الكريم، ولا يصح صرف المعنى إلى الإنجيل.
- إن هؤلاء المدّعين يستدلون على زعمهم بأن (ذلك) اسم إشارة للبعيد، وهذا صحيح، والقرآن بعيد؛ لأن الرسل وعدوا به، وهو كلام الله، وكلام الله قديم. ثم إن القرآن بعيد الشرف والمكانة، ولا يستطيع أحد أن يقترب منه بتحريف أو تزييف.
- كان من الأولى بالمشككين في القرآن، أن يُرْجعوا معنى اسم الإشارة (ذلك) إلى التوارة أو صحف إبراهيم، وغيرها من الكتب السماوية؛ فهي أبعد من الإنجيل زمنًا.
- إن استظهار المفسرين وترجيحهم عَوْد اسم الإشارة في آية سورة البقرة على القرآن الكريم - يبطل ما زعمه هؤلاء الطاعنون.

[1]. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، ج١، ص٢١٩.

الشبهة العشرون

ادعاء أن القرآن شهد لليهود والنصارى بالأمان والتواضع، وشهد للدين المسيحي بالدوام والخلود(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن القرآن شهد لليهود والنصارى بأنهم كانوا أمناء على الكتاب المقدس، ويستدلون على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ (البقرة: ١١٣)، كما شهد لأحبارهم ورهبانهم بالورع والتقوى والتواضع، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (المائدة)، وأقرّ الدوام والخلود للدين المسيحي وأتباعه إلى يوم القيامة، فقال: ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (آل عمران: ٥٥).

وجوه إبطال الشبهة:

١) الفهم الصحيح لآية سورة البقرة يؤكد أن اليهود والنصارى ليسوا أمناء على الكتاب المقدس كما يزعمون.

٢) لقد شهد القرآن للقسيسين والأحبار بالتقوى والورع والتواضع، ولكن أي القسيسين وأي الرهبان؟

٣) إن الله جعل الذين اتبعوا عيسى ﵇ فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، ولكن من هم الذين اتبعوا عيسى ﵇ حقًّا؟

(*) استحالة تحريف الكتاب المقدس، مرقس عزيز خليل، كنيسة القديسة مريم العذراء والشهيدة دميانة المعلقة، مصر، ٢٠٠٣.

التفصيل:

أولا. اليهود والنصارى ليسوا أمناء على الكتاب المقدس كما يزعمون:

جاء بعض اليهود وبعض النصارى إلى النبي ﷺ فقالت اليهود: ليست النصارى على شيء من الحق، وهم ضالون، وكفر هؤلاء اليهود بعيسى، وجحدوا نبوته ﷺ، وأنكروا ما جاء في التوراة بشأنه ﷺ.

فقام بعض النصارى، وقال: بل ليست اليهود على شيء من الحق، وكفروا بموسى وجحدوا نبوته، وأنكروا ماجاء بشأن موسى ﷺ في الإنجيل، كذلك أنكروا وجوب الإيمان والتصديق به، وقد وافق قول هذين الفريقين قولَ الذين لا علم لهم بالكتاب، وهم أمة كانت قبل اليهود والنصارى، فجاء قول اليهود والنصارى على نسق قول هؤلاء الجهّال. وقيل هم مشركو قريش الذين كانوا يعبدون الأصنام، تاركين عبادة الله ﷻ فجاء كلامهم وفق كلام اليهود والنصارى، وقد وصفهم الله بالجهل، أو بعدم العلم، فأنزل ﷻ قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ (البقرة).

فالآية لا تحتمل أي وجه من وجوه المدح، أو الثناء على اليهود أو النصارى، وكل ما تحتمله الآية، كشف الزيف الذي وصل إليه اليهود والنصارى، وما كان منهم من تحريف لكتبهم، حتى وصل الأمر لأن يفضح بعضهم بعضًا، بلا مواربة ولا خجل، وذلك التضارب في الكتاب المقدَّس أوّل علامات التحريف.

فكان الأولى بهؤلاء بدلًا من أن يستدلوا بالآية على أمانتهم أن يخجلوا من أنفسهم ومن سفاهتهم وضلالهم، ويكتموا حقدهم وحسدهم للمسلمين، ثم يراجعوا أنفسهم، ويسلموا القيادة والزعامة للمسلمين، ولدينهم الحنيف مُعلنين إسلامهم واتباعهم لنبي آخر الزمان ﷺ، الذي أخبرت عنه كتبهم، بل والذي تمنت رسلهم أن يكونوا أتباعًا له؛ لفضله وشرفه ومكانة أمته قال ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣) وقال تعالى على لسان عيسى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ (الصف: ٦).

ثانيًا. أي القسيسين وأي الرهبان الذين شهد لهم القرآن بالتقوى والورع؟

نعم شهد القرآن لهؤلاء القسيسين والرهبان، ولكنه شهد للرهبان والقسيسين الذين لا يستكبرون، والذين إذا سمعوا آيات القرآن، وأحاديث النبي ﷺ فاضت أعينهم من الدمع لما عرفوا من الحق، ونادوا بصوت عالٍ: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (المائدة).

فإن أرادوا أن يستدلوا بالقرآن على صدقهم وأمانتهم وعدلهم وتقواهم، فلا ينبغي لهم أن يقطعوا النصوص عن سياقاتها، ويفهموا الألفاظ على ما يتناسب مع أهوائهم، فليس ذلك من الأمانة العلمية في شيء.

وأما القسيسون والرهبان الذين أخفوا الحق في كتبهم وأظهروا الباطل، غيروا الحق باطلًا، وبدَّلوا

الدين بالأساطير والخرافات، مسخوا عقول أتباعهم، وألغوها، حتى قالوا لهم: "اعتقد وأنت أعمى" فلا خير فيهم، ولا في اتباعهم، وقد هاجمهم القرآن أشدَّ الهجوم، وأظهر عيوبهم وضلالاتهم وافتراءاتهم، ولم يمدح منهم أحدًا.

فآيات سورة المائدة: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (المائدة)، آيات مادحة لا شك، ولكنها مادحة للذين اعترفوا بالحق، وسلموا أمرهم للصواب، وأمّا هؤلاء الضالون والمضللون فقد شنَّع عليهم، فقال: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ (المائدة: ٧٣)، وقال: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة: ١٧).

ثالثًا. من الذين اتبعوا عيسى ﷺ حقًّا؟

أهم أولئك الذين قالوا: ﴿اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾؟ أم هم الذين قالوا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ أم هم الذين قالوا: ﴿وَلَدَ اللَّهُ ﴾ (الصافات: ١٥٢)؟ أم هم الذين اعتقدوا صلب المسيح، واتخذوا لتلك العقيدة رمزًا، يدقونه على أيديهم، ويعلقونه على صدورهم؟ أم هم الذين قالوا على مريم بهتانًا عظيمًا؟ أم هم الذين حرفوا وبدلوا الدين المسيحي الحنيف بالأساطير والخرافات؟!

أي هؤلاء أتباع المسيح ﷺ؟ وأيهم يستحق اتباع الدين المسيحي؟ لا يصلح أن يكون حاملًا لكتاب قانون يخصّ دولة من الدول، فكيف يصلحون لحمل رسالة من الله ﷻ؟ كيف يصلحون لتبليغ دعوة أو منهج رباني؟ إن هؤلاء انقسموا إلى طوائف مختلفة، كل طائفة تسفِّه أحلام الأخرى؟ وتكذب أقوالها ومعتقداتها، فهل يُعْقَل أن تكون طائفة من هذه الطوائف على الحق الذي يدعونه؟ إن تضارب الأناجيل لدليل على تحريفها وزيفها، فأولى لهم أن يسلموا للحق زمامهم وأن يذعنون لما كان في كتبهم قبل تحريفها من البشارة بالنبي الخاتم.

فأتباع المسيح ﷺ حقًّا، هم الذين اتبعوا محمدًا ﷺ لما جاءتهم البينات، الذين لا يستكبرون وإذا سمعوا آيات الله تتلى فاضت أعينهم من الدمع قائلين: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (المائدة) الذين سمعوا كلام المسيح؛ فحفظوه في صدورهم، حتى جاء محمد ﷺ - بشارة عيسى ﷺ، والمكتوب عندهم في الإنجيل، باعتراف النصارى أنفسهم - فاتبعوا النور الذي أُنزِل عليه ﷺ.

والآية التي استدلوا بها على أفضليتهم: ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ لم تشهد لهم بذلك، وإنما شهدت لمن استمسك بالدين السماوي الذي أُنزِل على عيسى ﷺ، وأما غيرهم ممن بدَّلوا وغيَّروا فقد أعلن القرآن كفرهم، وبرَّأ عيسى من رجسهم، فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ (المائدة: ٧٣)، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة: ٧٢) هذا هو رأي القرآن أو حكمه في هؤلاء النصارى.

يقول الشيخ ابن عاشور في سياق تفسيره لآية سورة المائدة: "والمراد بـ (الذين اتبعوه) الحواريون، ومن

اتبعه بعد ذلك، إلى أن نُسِخَتْ شريعته بمجيء محمد ﷺ".[1] هذا وقد ذكر الشيخ رأيا آخر في تفسير من وُجِّه إليه الخطاب في هذا الصدد، يقول: "ويجوز أن يكون خطابًا للنبي ﷺ والمسلمين"[2].

الخلاصة:

- الآية الكريمة: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾ (البقرة) نزلت في جحود اليهود للإنجيل، وجحود النصارى للتوراة، وهي لا تحمل أي مدح لليهود ولا للنصارى.
- لقد شهد القرآن للأحبار والرهبان الذين لا يستكبرون عن اتباع الحق بالتواضع والورع، فهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ وأشهدوا الله على إيمانهم ابتغاء أن يقبلهم الله ﷻ في عباده الصالحين: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤﴾ (المائدة).
- أتباع المسيح عيسى هم الذين أقاموا الإنجيل السماوي وآمنوا به، بحقه ولما جاءهم محمد ﷺ اتبعوه.

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٣، ج٣، ص٢٦٠.

٢. المرجع السابق، ص٢٦٠.

فهؤلاء هم المقصودون بقوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ (آل عمران: ٥٥)، فالذين اتبعوا عيسى عليه السلام هم الذين يؤمنون بدين الله الصحيح... الإسلام... الذي عرف حقيقته كل نبي وجاء به كل رسول، وآمن به كل من آمن بدين الله حقًّا: وهؤلاء فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة في ميزان الله... كما أنهم كذلك في واقع الحياة كلما واجهوا معسكر الكفر بحقيقة الإيمان وحقيقة الاتباع، ودين الله واحد، وقد جاء به عيسى بن مريم كما جاء من قبله ومن بعده كل رسول، والذين يتبعون محمدًا ﷺ هم في الوقت ذاته اتبعوا موكب الرسل كلهم، من لدن آدم عليه السلام إلى آخر الزمان.

الشبهة الحادية والعشرون

الزعم أن القراءات القرآنية أشدُّ اختلافًا من تعدُّد الأناجيل(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض الطاعنين أن ما عليه القرآن من قراءات يُعدُّ أعمق اختلافًا من تعدُّد الأناجيل الأربعة، ويستدلون بهذا على أن القرآن ليس وحيًا من عند الله كما يدعي المسلمون، وإنما طالته يد التحريف واللحن، حتى تجلَّت فيما هو عليه الآن من قراءات وحروف تطعن في عصمته وفي تواتره.

(*) الأجوبة الفاخرة، القرافي، مرجع سابق.

وجه إبطال الشبهة:

تعدد القراءات لا يعني تعدد القرآن - كما هو الشأن في الأناجيل - وذلك للآتي:

- القرآن كلام الله قرئ باختلاف يسير ليسهل على الناس، أمَّا الأناجيل فهي مسماة بأسماء مؤلفيها، وهم من كتبوها بأيديهم.
- لم يثبت في القرآن إلا ما ورد عن النبي ﷺ أنه وحي من عند الله ﷻ، أما الأناجيل فقد أُثبت فيها كلام الرسل، وكلام البشر، وجعلوه من الكتاب المقدس.

التفصيل:

أولا. تعدد القراءات لا يعني تعدد القرآن:

إن تعدد القراءات القرآنية لايعني تعدد القرآن، كما هو الشأن في الأناجيل المختلفة؛ وذلك للآتي:

١. القرآن كلام الله قرئ باختلاف يسير ليسهل على الناس، أمَّا الأناجيل فإنها مسماة بأسماء مؤلفيها، وهم من كتبوها بأيديهم.

لقد أنزل الله القرآن على خير رسله ﷺ بلغة قريش، وقبائل العرب مختلفة اللغات في الإمالة والتفخيم، والمدِّ والقصر، والجهر والإخفاء، وإعمال العوامل الناصبة والرافعة والجارة، فلو كُلِّفوا كلهم الحمل على لغة واحدة لشُقَّ عليهم ذلك، فسأل ﷺ ربه أن يجعله على سبع لغات (لهجات) ليتسع ويذهب الحرج، وكان بالمؤمنين رءوفا رحيمًا، فأنزلت القراءات بذلك، فكلها مَرْوِيَّة عنه ﷺ متواترة، فنحن على ثِقَة في جميعها، وفي أنها عن الله ﷻ، متلقاة عن خير رسله ﷺ، فليس عندنا أدنى لَبْس في كتابنا وأنه من عند ربنا، بل نحن على يقين جازم لا يزعزعه شيء بأن القرآن وصل إلينا محفوظًا بحفظ الله له.

وأما الأناجيل، فليس فيها رواية العَدْل عن العدل، وقد صرَّح مؤلِّفو أناجيلكم بكلمة واحدة، يقول متَّى فيها (أو غيره): قال لي المسيح: إن الله أنزل عليه كذا، بل غاية ما في بعضه: قال يسوع المسيح كذا، وهلمُّوا إلى أناجيلكم تحكم بيننا وبينكم، فهي تواريخ وحكايات وأخبار، وبينها أقوال يسيرة مَعْزُوَّة للمسيح عليه السلام ولم يصرح فيها بأنها من الإنجيل أو من غيره، وهذا عندكم أشد وأصعب من التوراة، فإن التوراة كُتِبَت في الألواح وتميَّزت وتعيَّنت، ثم طرأ عليها ما طرأ، وأما الإنجيل فلم يتميَّز قط، ولم يُعرف له صورة، ولا سُمِعَتْ منه كلمة، غايته أن التلاميذ أَمْلوا هذه الأناجيل بعد رَفْع المسيح بمُدَّة طويلة، ولم يُصرِّحوا بأن هذا مُنَزَّل ولا غير منزل، فسقطت الثقة من الجميع حتى يتعين المنزَّل.

القرآن يستحيل فيه التضارب والانتكاس، مما يؤيد أنه من الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء)، فالروايات عندنا يستحيل أن تشمل آية كاملة، فهي ضبط يسير تحتمله قواعد اللغة كأن يُغَيَّر جَمْع أو تُقْرَأ كلمة بوجه آخر هو عين معناها، فليست (تثبتوا) بمختلفة عن (تبينوا)، بل هي هي.

أما إمالة الحرف، وتفخيمه، وإشباعه فليس من التغيير بقدر ما هي مناسبة للقدرة الإنسانية على النطق.

٢. لم يثبت في القرآن إلا ما ورد عن النبي ﷺ أنه وحي من عنده ﷻ، أما الأناجيل فقد ثبت فيها كلام الرسل، وكلام البشر، وجعلوه من الكتاب المقدس.

إن المسلمين لم يجعلوا شيئًا من الأحاديث النبوية مع صحتها من الكتاب المنزل، ولا قول أحد من الصحابة،

بل متى قال صحابي قولًا نُسِب لـه فقـط، ولا يجـوز أن يقال: هذا مـن قـول النبـي ﷺ، فـضلًا عـن كونـه مـن القرآن، وأنتم أيها المدلِّسون جعلتم الجميع من الكتـاب المنزل، وسميتموه كتاب الله.

ولا يقول أحد من المسلمين: هـذا قـرآن ورش، أو حفص، أو قالون، فـالقرآن كـلام الله قـرئ بـاختلاف يسير ليَسْهُل على الناس، أما عندهم فالأناجيـل مـسماه بأسماء مؤلفيها، وهـم الـذين كتبوهـا بأيـديهم فـالأمر مختلف، وهم مقتنعون بهذا، ولكن الظالمين يجحدون.

إن تعدد القراءات لا يعني تعـدد القـرآن، كـما هـو الشأن في الأناجيل، وإن العلماء الـذين نقلـوا روايـات القرآن التي قرأ بهـا رسـول الله ﷺ يرفعـون القـراءة إلى رسول الله ﷺ. بينما أصحاب الأناجيل، هم الذين كتبوا الأناجيل، استنادًا إلى روايات شفهية ممن لم ير المـسيح، وهم يصرحون بأنهم كتبوها ولا دليل على أنهـا وحـي، ويقولون: إنهـا وحـي مـن المـسيح لكُتَّـاب الأناجيـل، والمسيح عبد مُوْحَى إليه، وليس إلهًا يوحِي إلى غيره.

والأناجيل مليئة بالاختلافـات والمتناقـضات التـي يستحيل معها أن تكون من عند الله أو من عند المسيح؛ مثـل: تنـاقض الأناجيـل في ذِكْـر نَـسَب المـسيح، وفي توقيت عَشاء المسيح الأخير مع الحـواريين، وفي ظهـور المـسيح بعـد قيامتـه، وفي روايـات صـعود المـسيح... وغيرها[1].

الخلاصة:

- تعدد القراءات لا يعني تعدد القـرآن؛ فـالقرآن الكريم كلام الله قـرئ بـاختلاف يـسير، ليـسهل عـلى الناس، ويتسع للعرب، ويذهب الحرج، وكلهـا مرويـة عن النبي ﷺ متواترة، وأما الأناجيل فإنها مسماة بأسـماء مؤلفيها، وهم من كتبوها بأيديهم، ولـيس فيهـا روايـة العـدل عـن العـدل إلى مؤلـف، ولم يـصرح مؤلفـو الأناجيل بكلمة واحدة يقولون فيها: إن الله أنـزل عـلى المسيح كذا.
- لم يثبـت في القـرآن الكـريم إلا مـا ورد عـن النبي ﷺ أنه وحي من عند الله ﷻ، ولا يقول أحد: هذا قـرآن وَرْش، أو حَفْـص، أو قـالون. أمَّـا الأناجيـل فأصحابها هم الذين كتبوها استنادًا إلى روايات شـفهية ممن لم يَرَ المـسيح ؑ، فلـذلك نجـد الأناجيـل مليئـة بالاختلافات والمتناقضات التي يستحيل معها أن تكون من عند الله.

الشبهة الثانية والعشرون

دعوى تفرُّد القرآن بالنسخ دون غيره من الكتب السماوية الأخرى(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغرضين أن حُكم النسخ جـرى فقـط على القرآن الكـريم دون سـواه مـن الكتـب الـسماوية، ويستدلون على هذا بقوله ﷻ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.
www.Eslameyat.com.

1. دراسة الكتب المقدسة في ضـوء المعـارف الحديثـة، مـوريس بوكاي، مرجع سابق، ص١٠٨: ١٢١.

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ (البقرة)، ويتوهمون أن النسخ لا يجوز في كلام الله الحق؛ لأنه يتعارض مع حكمته تعالى وصدقه وعلمه، ويعللون ما في القرآن من ناسخٍ ومنسوخٍ بأنه من فعل محمد ﷺ وفقًا لهواه وأطماعه الشخصية.

وجوه إبطال الشبهة:

١) النسخ ليس قاصرًا على القرآن الكريم وحده، وإنما وقع في الكتب الدينية السابقة، فقد جاء في التوراة بين أحكامها، ووقع في الإنجيل بين أحكامه.

٢) ليس في النسخ منافاة لحكمة الله ﷻ وصدقه وعلمه، بل فيه تحقيق لكل ذلك، فهو بيان بالنسبة لله ﷻ ورفع بالنسبة لنا لأنه تعالى سبق علمه بأن هذا الحكم مؤقت لا مُؤَبد.

٣) إذا كان النبي ﷺ قد ثبت صدقه قبل أن تُنَزَّل عليه الأحكام، ثم ثبت صدقه فيما بلَّغ من الوحي، فهل ينتفي عنه الصدق في النسخ؟! أي إذا صدق في الأصل فهل يكذب في الفرع؟!

٤) اللوح المحفوظ جامع لكلٍّ من الناسخ والمنسوخ، فلا يهمل اللوح المحفوظ شيئًا ولا يزول منه شيء.

٥) إن الآيات التي تضمنت النسخ، سواء أكانت متضمنة الحكم الناسخ أم المنسوخ، فهي قرآن يأخذ خصائص القرآن كلها من إعجاز وتعبد بتلاوته.

٦) الله ﷻ يقلب الأحكام على المكلفين بوجوه النسخ الثلاثة؛ ليختبرهم في إيمانهم به وعبوديتهم وامتثالهم له، كما يبتلي الله عباده بالمحن والمنح، والرخاء والشدة.

٧) الأمثلة التي ذكروها للنسخ لا تمتُّ للنسخ بصلة، وما ذلك إلا نوع من التشويش على القرآن.

التفصيل:

أولا. وقوع النسخ في الشرائع السماوية السابقة للإسلام:

وأمثلة ذلك كثيرة، نقتصر منها هنا على بعض ما ورد في العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الإنجيل)؛ حتى يكون ذلك حجة على ما نقوله.

أمثلة ما وقع من النسخ في العهد القديم (التوراة):

- تزوج الإخوة بالأخوات في عهد آدم ؈، وسارة زوجة إبراهيم ؈ كانت أختًا علانية له كما يُفهم من قوله في حقِّها، يقول سفر التكوين: "وبالحقيقة أيضًا هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي، فصارت لي زوجة". (التكوين ٢٠: ١٢)، والنِّكاح بالأخت حرام مطلقًا في الشريعة المُوسَوِيَّة، سواء كانت الأخت أو علانية، أو خَفِيَّة، ومساوٍ للزنا، والناكح ملعون، وقَتْل الزوجين واجب، ففي سفر اللاويين: "عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك، المولودة في البيت أو المولودة خارجًا، لا تكشف عورتها". (اللاويين ١٨: ٩)، وفي تفسير دوالي ورجرد مينت في ذَيْل شرح هذه الفقرة: "مثل هذا النكاح مساوٍ للزنا". وفي سفر اللاويين أيضًا: "وإذا أخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت أمه، ورأى عورتها ورأت هي عورته، فذلك عارٌ. يُقطَعان أمام أعين بني شعبهما. قد كشف عورة أخته. يحمل ذنبه". (اللاويين ٢٠: ١٧)، وفي التثنية: "ملعون من يَضْطَجع مع أخته بنت أبيه أو بنت أمه. ويقول جميع الشعب: آمين". (التثنية ٢٧: ٢٢).

فلو لم يكن هذا النكاح جائزًا في شريعة آدم، وإبراهيم - عليهما السلام - للزم أن يكون الناس كلهم أولاد الزنا، والناكحون زانين، وواجبي القتل وملعونين، فكيف يظن هذا في حق الأنبياء - عليهم السلام - فلا بد من الاعتراف بأنه كان جائزًا في شريعتها ثم نُسِخَ.

- خطاب نوح وأولاده في سفر التكوين: "كل دابة حيَّة تكون لكم طعامًا. كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع". (التكوين ٩: ٣)؛ فكان جميع الحيوانات حلالًا في شريعة نوح كالبقولات، وحُرِّمت في شريعة موسى الحيوانات الكثيرة، منها الخنزير أيضًا، كما هو مُصَرَّح في سفر التثنية الذي جاء فيه: "لا تأكل رجسًا ما. هذه هي البهائم التي تأكلونها: البقر والضَّأن والمَعْز والإيَّل والظَّبْي واليَحْمُور والوَعْل والرِّئم والثَّيْتَل والمَهاة. وكل بهيمة من البهائم تَشُقُّ ظِلْفًا وتَقْسِمه ظِلْفَين وتَجْتَرُّ فإياها تأكلون. إلا هذه فلا تأكلوها، مما يجتر ومما يشق الظلف المنقسم: الجمل والأرنب والوَبَر، لأنها تجتر لكنها لا تشق ظلفًا، فهي نجسة لكم. والخنزير لأنه يشق الظلف لكنه لا يجتر فهو نجس لكم. فمن لحمها لا تأكلوا وجُثَثها لا تلمسوا. وهذا تأكلونه من كل ما في المياه: كل ما له زعانف وحَرْشَف تأكلونه. لكن كل ما ليس له زعانف وحرشف لا تأكلوه. إنه نجس لكم. كل طير طاهر تأكلون. وهذا ما لا تأكلون منه: النَّسْر والأَنُوق والعُقَاب والحِدَأة والبَاشِق والشَّاهِين على أجناسه، وكلُّ غُراب على أجناسه، والنَّعامة والظَّلِيم والسَّأف والبَاز على أجناسه، والبُوم والكُرْكِي والبَجَع والقُوق والرَّخَم والغوَّاص واللَّقْلَق والبَبْغاء على أجناسه، والهدهد والخُفَّاش. وكلُّ دَبِيب الطير نَجِسٌ لكم. لا يؤكل. كل طير طاهر تأكلون".

- جمع يعقوب بين الأختين لَيْئَة وراحيل ابنتي خالة كما هو مُصرَّح به في سفر التكوين: "ثم قال لابان ليعقوب: «ألأنك أخي تخدمني مجانًا؟ أخبرني ما أُجْرَتك». وكان للابان ابنتان، اسم الكبرى لَيْئَة واسم الصغرى راحيل. وكانت عَيْنَا ليئة ضعيفتين، وأما راحيل فكانت حسنة الصورة وحسنة المنظر. وأحب يعقوب راحيل، فقال: «أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى». فقال لابان: «أن أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر. أقم عندي». فخدم يعقوب براحيل سبع سنين، وكانت في عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها. ثم قال يعقوب للابان: «أعطني امرأتي لأن أيامي قد كَمُلَت، فأدخل عليها». فجمع لابان جميع أهل المكان وصنع وليمة. وكان في المساء أنه أخذ ليئة ابنته وأتى بها إليه، فدخل عليها. وأعطى لابان زِلْفَة جاريته لليئة ابنته جارية. وفي الصباح إذا هي ليئة، فقال للابان: «ما هذا الذي صنعت بي؟ أليس براحيل خدمت عندك؟ فلماذا خدعتني؟». فقال لابان: «لا يفعل هكذا في مكاننا أن تعطي الصغيرة قبل البكر. أكمل أسبوع هذه، فنعطيك تلك أيضًا بالخدمة التي تخدمني أيضًا سبع سنين أخر». ففعل يعقوب هكذا. فأكمل أسبوع هذه، فأعطاه راحيل ابنته زوجة له. وأعطى لابان راحيل ابنته بِلْهة جاريته جارية لها. فدخل على راحيل أيضًا، وأحب أيضًا راحيل أكثر من ليئة. وعاد فخدم عنده سبع سنين أخر". (التكوين ٢٩: ١٥ - ٣٠)، وهذا الجمع حرام في

شريعة موسى ﷺ؛ ففي سفر اللاويين: "ولا تأخذ امرأة على أختها للضِّر لتكشف عورتها معها في حياتها". (اللاويين ١٨: ١٨)، فلو لم يكن الجمع بين الأختين جائزًا في شريعة يعقوب لَلَزِمَ أن يكون أولادهما أولاد زنا.

- جاء في الكتاب المقدس أن زوجة عمران كانت عمته: "وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له. فولدت له هارون وموسى". (الخروج ٦: ٢٠)، وقد حرَّف المترجمون للترجمة العربية تحريفًا قصديًّا لإخفاء العيب، وهذا النكاح حرام في شريعة موسى ﷺ؛ ففي سفر اللاويين: "عورة أخت أبيك لا تكشف. إنها قريبة أبيك". (اللاويين ١٨: ١٢)، وجاء فيه أيضًا: "عورة أخت أمك، أو أخت أبيك لا تكشف. إنه قد عرى قريبته. يحملان ذنبهما". (اللاويين ٢٠: ١٩)، فلو لم يكن هذا النكاح جائزًا قبل شريعة موسى، لزم أن يكون موسى وهارون ومريم أختهما من أولاد الزنا، ولزم ألَّا يدخلوا جماعة الرب إلى عشرة أحقاب، كما هو مُصرَّح به في سفرالتثنية: "لا يدخل ابن زنا في جماعة الرب حتى الجيل العاشر". (التثنية ٢٣: ٢)، ولو كانوا هم قابلين للإخراج عن جماعة الرب فمن يكون صالحًا لدخولها.

- في سفر إرميا: "ها أيام تأتي، يقول الرب، وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدًا جديدًا. ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر، حين نقضوا عهدي فرفضتهم، يقول الرب". (إرميا ٣١: ٣١، ٣٢). والمراد من العهد الجديد الشريعة الجديدة. فيفهم أن هذه الشريعة الجديدة تكون ناسخة للشريعة الموسوية. وادَّعى بولس في رسالته إلى العبرانيين أن هذه الشريعة شريعة عيسى، فعلى اعترافه هذا تكون شريعة عيسى ﷺ ناسخة لشريعة موسى ﷺ.

وهذه الأمثلة الخمسة لإلزام اليهود والمسيحيين جميعًا، ولإلزام المسيحيين أمثلة أخرى منها:

- يجوز في الشريعة الموسوية أن يطلِّق الرجل امرأته بكل عِلَّة، وأن يتزوج رجل آخر بتلك المُطلَّقة بعدما خرجت من بيت الأول، كما هو مُصرَّح به في سفر التثنية: "إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها، فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته، ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر، فإن أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته، أو إذا مات الرجل الأخير الذي اتخذها له زوجة، لا يقدر زوجها الأول الذي طلَّقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تَنَجَّست. لأن ذلك رجس لدى الرب. فلا تجلب خطية على الأرض التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا". (التثنية ٢٤: ١ ـ ٤)، ولا يجوز الطلاق في الشريعة العيسوية إلا بعِلَّة الزنا، هكذا لا يجوز لرجل آخر نكاح المطلقة، بل هو بمنزلة الزنا، كما جاء في إنجيل متى، ولما اعترض الفَرِّيسِيُّون على عيسى ﷺ في هذه المسألة قال في جوابهم: "قد سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تَزْنِ. وأما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه. فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك

كله في جهنم. وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم. وقيل: من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق. وأما أنا فأقول لكم: إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزني، ومن يتزوج مُطلَّقة فإنه يزني". (متى ٥: ٢٧ ـ ٣٢، متى ١٩: ٧ ـ ٩)؛ نعلم من جوابه أنه ثبت النسخ في هذا الحُكْم مرتين، مرة في الشريعة الموسوية ومرة في شريعته، وأنه قد ينزل الحكم تارة موافقًا لحال المُكلَّفين وإن لم يكن حسنًا في نفس الأمر.

- كانت الحيوانات الكثيرة مُحرَّمة في الشريعة الموسوية، ونُسِخَتْ حرمتها في الشريعة العيسوية وثبتت الإباحة العامة بفَتْوَى بولس؛ ففي رسالة بولس إلى أهل الرومية: "إني عالم ومتيقن في الرب يسوع أن ليس شيء نجسًا بذاته، إلا من يحسب شيئًا نجسًا، فله هو نجس". (رسالة بولس إلى أهل رومية ١٤: ١٤)، وفي رسالته إلى تيطس هكذا: "كل شيء طاهر للطاهرين، وأما للنجسين وغير المؤمنين فليس شيء طاهرًا، بل قد تنجس ذهنهم أيضًا وضميرهم". (رسالة بولس إلى أهل تيطس ١: ١٥).

إن كل شيء نجس لم يحسبه نجسًا، وجميع الأشياء طاهرة للطاهرين، عجيبتان في الظاهرة، لعل بني إسرائيل لم يكونوا طاهرين فلم تحصل لهم هذه الإباحة العامة، ولما كان المسيحيون طاهرين حصل لهم الإباحة العامة، وصار كل شيء طاهرًا لهم، وكان مقدسهم جاهدًا في إشاعة حكم الإباحة العامة، ولذلك كتب إلى تيموثاوس في الإصحاح الرابع من رسالته الأولى: "لأن كل خليقة الله جيدة، ولا يرفض شيء إذا أخذ مع الشكر، لأنه يقدس بكلمة الله والصلاة. إن فكرت الإخوة بهذا، تكون خادمًا صالحًا ليسوع المسيح، متربيًا بكلام الإيمان والتعليم الحسن الذي تتبعته". (رسالة بولس الأولى إلى أهل تيموثاوس ٤: ٤ ـ ٦).

- كان تعظيم السبت حكمًا أبديًّا في الشريعة الموسوية، وما كان لأحد أن يعمل فيه أدنى عمل، وكان من عمل فيه عملًا ومن لم يحافظه واجبي القتل، وقد تكرر بيان هذا الحكم والتأكيد عليه في كتب العهد القديم في مواضع كثيرة، منها: "بارك الله اليوم السابع وقدَّسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقًا". (التكوين ٢: ٣)، "اذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك. لا تصنع عملًا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك. لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح في اليوم السابع. لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه". (الخروج ٢٠: ٨ ـ ١١)، وكذا في: (الخروج ٢٣: ٢، الخروج ٣٤: ٢١، إشعياء ٥٨: ١٣).

وفي سفر الخروج هكذا: "وكلم الرب موسى قائلًا: وأنت تكلم بني إسرائيل قائلًا: سبوتي تحفظونها، لأنه علامة بيني وبينكم في أجيالكم لتعلموا أني أنا الرب الذي يقدسكم، فتحفظون السبت لأنه مقدس لكم. من دنسه يقتل قتلًا. إن كل من صنع فيه عملًا تقطع تلك النفس من بين شعبها. ستة أيام يصنع عمل، وأما اليوم السابع ففيه سبت عطلة مقدس للرب. كل من

صنع عملًا في يوم السبت يقتل قتلًا. فيحفظ بنو إسرائيل السبت ليصنعوا السبت في أجيالهم عهدًا أبديًا. هو بيني وبين بني إسرائيل علامة إلى الأبد. لأنه في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض، وفي اليوم السابع استراح وتنفس". (الخروج ٣١: ١٢ـ١٧).

وفي سفر الخروج: "ستة أيام يعمل عمل، وأما اليوم السابع ففيه يكون لكم سبت عطلة مقدس للرب. كل من يعمل فيه عملًا يقتل. لا تشعلوا نارًا في جميع مساكنكم يوم السبت". (الخروج ٣٥: ٢، ٣)، وفي سفر العدد: "ولما كان بنو إسرائيل في البرية وجدوا رجلًا يحتطب حطبًا في يوم السبت. فقدمه الذين وجدوه يحتطب حطبا إلى موسى وهارون وكل الجماعة. فوضعوه في المحرس لأنه لم يعلن ماذا يفعل به. فقال الرب لموسى: «قتلًا يقتل الرجل. يرجمه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة». فأخرجه كل الجماعة إلى خارج المحلة ورجموه بحجارة، فمات كما أمر الرب موسى". (العدد ١٥: ٣٢ـ٣٦).

وكان اليهود المعاصرون للمسيح ﷺ يؤذونه ويريدون قتله لأجل عدم تعظيم السبت، ففي إنجيل يوحنا: "فقال قوم من الفرِّيسيين: هذا الإنسان ليس من الله، لأنه لا يحفظ السبت". (يوحنا ٩: ١٦). وإذا علمت هذا أقول: إن مقدسهم بولس نَسَخ هذه الأحكام، وبيّن أن هذه الأشياء كلها كانت إضلالًا، وذلك في رسالته إلى أهل كولوسي: "فلا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب، أو من جهة عيد أو هلال أو سبت، التي هي ظل الأمور العتيدة، وأما الجسد فللمسيح". (رسالة بولس إلى أهل كولوسي ٢: ١٦، ١٧). وفي تفسير دوالي ورجرد مينت ذيل شرح الفقرة السادسة عشرة هكذا: "قال بركت وداكتروت بي" كانت ـ أي الأعياد ـ في اليهود على ثلاثة أقسام في كل سنة، وفي كل شهرٍ شهرٌ وفي كل أسبوعٍ أسبوعٌ، فنسخت هذه كلها، بل يوم السبت أيضًا، وأقيم سبت المسيحيين مقامه.

وقال بشب هارسلي ذيل شرح الفقرة المذكورة: "زال سبت كنيسة اليهود وما مشي المسيحيون في عمل سبتهم على رسوم طفولية الفريسيين". وفي تفسير هنري واسكات: "إذ نسخ عيسى شريعة الرسومات، ليس لأحد أن يلزم الأقوال الأجنبية بسبب عدم لحاظها". قال ياسونر وليا: "فإنه لو كانت محافظة يوم السبت واجبة على جميع الناس، وعلى جميع أقوام الدنيا، لما أمكن نسخها قط، كما نسخت الآن حقيقة، ولكان يلزم على المسيحيين أن يحافظوه طبقة بعد طبقة، كما فعلوا في الابتداء لأجل تعظيم اليهود ورضاهم"، وما ادَّعى مقدسهم بولس من كون الأشياء المذكورة إضلالًا لا يناسب عبادة التوراة؛ لأن الله بيَّن عِلَّة حُرْمة الحيوانات: "لا تُدنِّسوا نفوسكم بالبهائم والطيور، ولا بكل ما يدبُّ على الأرض مما ميَّزته لكم ليكون نجسًا. وتكونون لي قِدِّيسين لأني قدوس أنا الرب، وقد ميَّزتكم من الشعوب لتكونوا لي". (اللاويين ٢٠: ٢٥، ٢٦)، وبين عِلَّة عيد الفطير "بأني أخرج جيوشكم من أرض مصر فاحفظوا هذا اليوم إلى أجيالكم سنة إلى الدهر" كما هو مُصرَّح به في الإصحاح الثاني عشر من سفر الخروج، وبين علة عيد الخيام هكذا: "لتعلم أجيالكم أني أجلست بني إسرائيل في

الخيام إذ أخرجتهم من أرض مصر" كما هو مصرح به في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر الأخبار، وبين في مواضع متعددة علة تعظيم السبت: "فأُكْمِلت السماوات والأرض وكل جندها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدَّسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالق". (التكوين ٢: ١ ـ ٣).

- حكم الختان كان أبديًّا في شريعة إبراهيم عليه السلام كما هو مصرَّح به في سفر التكوين: "وقال الله لإبراهيم: «وأما أنت فتحفظ عهدي، أنت ونَسْلُك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم، وبين نسلك من بعدك: يُخْتَن منكم كل ذكر، فتختتنون في لَحْم غُرْلَتِكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم. ابن ثمانية أيام يُخْتَن منكم كل ذَكَر في أجيالكم: وليد البيت، والمُبْتاع بِفِضَّة من كل ابن غريب ليس من نسلك. يُختن ختانًا وليد بيتك والمبتاع بفضتك، فيكون عهدي في لَحْمِكم عهدًا أبديًّا. وأما الذَّكر الأغْلَف الذي لا يُخْتَن في لحم غرلته فتُقْطع تلك النفس من شَعْبها. إنه قد نَكَث عهدي»". (التكوين ١٧: ٩ ـ ١٤)، ولذلك بقي هذا الحكم في أولاد إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، وبقي في شريعة موسى عليه السلام؛ ففي سفر اللاويين: "وكلَّم الرب موسى قائلًا: كلِّم بني إسرائيل قائلًا: إذا حبلت امرأة وولدت ذكرًا، تكون نجسة سبعة أيام. كما في أيام طَمْث عِلَّتها تكون نجسة. وفي اليوم الثامن يُخْتَن لَحْم غُرْلَته". (اللاويين ١٢: ١ ـ ٣)، وخُتِنَ عيسى عليه السلام أيضًا كما هو مصرح به في إنجيل لوقا: "ولما تَمَّت ثمانية أيام لِيَخْتِنوا الصبيَّ سُمِّي يسوع، كما تَسَمَّى من الملاك قبل أن حُبِل به في البطن". (لوقا ٢: ٢١). وفي المسيحيين إلى هذا الحين صلاة معينة يؤدونها في يوم ختان عيسى عليه السلام تذكرةً لهذا اليوم، وكان هذا الحكم باقيًا إلى عروج عيسى عليه السلام وما نُسِخ، بل نسخه الحواريون في عهدهم كما هو مشروح في الإصحاح الخامس عشر من أعمال الحواريين، ويُشدِّد مقدسهم بولس في نسخ هذا الحكم تشديدًا بليغًا في رسالته إلى أهل غلاطية هكذا: "ها أنا بولس أقول لكم: إنه إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئًا! لكن أشهد أيضًا لكل إنسان مُخْتَتِن أنه ملتزم أن يعمل بكلِّ الناموس. قد تَبَطَّلْتم عن المسيح أيها الذين تتبررون بالناموس. سقطتم من النعمة. فإننا بالروح من الإيمان نتوقع رجاء بر. لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئًا ولا الغُرْلَة[1]، بل الإيمان العامل بالمحبة". (رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٥: ٢ ـ ٦)، وفيها أيضًا: "لأنه في المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئًا ولا الغُرْلة، بل الخليقة الجديدة". (رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٦: ١٥).

- أحكام الذبائح كانت كثيرة وأبدية في شريعة موسى، وقد نسخت كلها في الشريعة العيسوية.
- الأحكام الكثيرة المختصة بآل هارون من الكهانة واللباس ووقت الحضور للخدمة، وغيرها كانت أبدية، وقد نُسِخَتْ كلها في الشريعة العيسوية.
- نسخ الحواريون بعد المشاورة التامة جميع الأحكام العملية للتوراة إلا أربعة: ذبيحة الصنم والدم والمخنوق والزنا فأبقوا حرمتها وأرسلوا كتابًا إلى

١. الغُرْلَة: جلدة الصبي التي يُقطع في الختان، والجمع غُرَل.

الكنائس، وهو منقول في أعمال الرسل هكذا: "إذ قد سمعنا أن أناسًا خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال، مقلبين أنفسكم، وقائلين أن تختتنوا وتحفظوا الناموس، الذين نحن لم نأمرهم. رأينا وقد صرنا بنفس واحدة أن نختار رجلين ونرسلهما إليكم مع حبيبينا برنابا وبولس، رجلين قد بذلا نفسيهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح. فقد أرسلنا يهوذا وسيلا، وهما يخبرانكم بنفس الأمور شفاها. لأنه قد رأى الروح القدس ونحن، أن لا نضع عليكم ثقلا أكثر، غير هذه الأشياء الواجبة: أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام، وعن الدم، والمخنوق، والزنا، التي إن حفظتم أنفسكم منها فنعما تفعلون. كونوا معافين". (أعمال الرسل ١٥: ٢٤ـ ٢٩). وإنما أبقوا حُرْمَة هذه الأربعة لئلَّا يتنفَّر اليهود الذين دخلوا في المِلَّة المسيحية عن قريب ـ وكانوا يحبون أحكام التوراة ورسومها ـ تنفرًا تامًّا، ثم لما رأى مقدسهم بولس بعد هذا الزمان أن هذه الرعاية ليست بضرورية نسخ حُرْمة الثلاثة الأولى بفتوى الإباحة العامة، وعليه اتفاق جمهور البروتستانت، فما بقي من أحكام التوراة العملية إلا الزنا، ولما لم يكن فيه حد في الشريعة العيسوية، فهو منسوخ من هذا الوجه أيضًا، فقد حصل الفراغ من هذه الشريعة من نسخ جميع الأحكام العملية التي كانت في الشريعة الموسوية أبدية كانت أو غير أبدية.

- في رسالة بولس إلى أهل غلاطية: "مع المسيح صُلِبْتُ، فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ. فما أحياه الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي أحبَّني وأسلم نفسه لأجلي. لستُ أُبْطِل نعمة الله. لأنه إن كان بالناموس بِرٌّ، فالمسيح إذًا مات بلا سبب!". (رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٢: ٢٠، ٢١). قال داكتر همند في ذيل شرح الفقرة العشرين: "خلَّصَني ببذل روحه لأجلي عن شريعة موسى"، وقال في شرح الفقرة الحادية والعشرين: "استعمل هذا العتق لأجل ذلك، ولا أعتمد في النجاة على شريعة موسى، ولا أفهم أن أحكام موسى ضرورية؛ لأنه يجعل إنجيل المسيح كأنه بلا فائدة"، وقال داكتروت بي في ذيل شرح الفقرة الحادية والعشرين: "ولو كان كذا فاشترى النجاة بموته ما كان ضروريًا، وما كان في موته حس ما"، وقال يايل: "لو كان شريعة اليهود تعصمنا وتنجينا فأية ضرورة كانت لموت المسيح، ولو كانت الشريعة جزاء لنجاتنا فلا يكون موت المسيح لها كافيًا"، فهذه الأقوال كلها ناطقة بحصول الفراغ من شريعة موسى ونسخها.

- في رسالة بولس إلى أهل غلاطية: "لأن جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة، لأنه مكتوب: «ملعون كل من لا يثبت في جميع ما هو مكتوب في كتاب الناموس ليعمل به». ولكن أن ليس أحد يتبرر بالناموس عند الله فظاهر، لأن «البار بالإيمان يحيا». ولكن الناموس ليس من الإيمان، بل «الإنسان الذي يفعلها سيحيا بها». المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة لأجلنا، لأنه مكتوب: «ملعون كل من علق على خشبة»". (رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣: ١٠ـ ١٣)، وقد قال لارد معلِّقًا على هذه الفقرات: "الظن أن مراد الحواري ههنا المعنى الذي يعلمه كثير، يعني: نُسِخَت الشريعة أو صارت بلا فائدة بموت المسيح وصَلْبه"، ثم قال أيضًا: "بيَّن الحواري

صراحة في هذه المواضع أن منسوخية أحكام الشريعة الرسومية نتيجة موت عيسى".

وجاء في هذه الرسالة أيضًا: "ولكن قبلما جاء الإيمان كنا محروسين تحت الناموس، مغلقًا علينا إلى الإيمان العتيد أن يعلن. إذا قد كان الناموس مؤدبنا إلى المسيح، لكي نتبرر بالإيمان. ولكن بعدما جاء الإيمان، لسنا بعد تحت مؤدب". (رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣: ٢٣ـ ٢٥)، فصرَّح مقدسهم "أنه لا طاعة لأحكام التوراة بعد الإيمان بعيسى عليه السلام". وفي تفسير دوالي ورجرد مينت قول دين استان هوب هكذا: "نسخ رسومات الشريعة بموت عيسى وشيوع إنجيله".

- في رسالة بولس إلى أهل أفسس: "أي العداوة. مبطلًا بجسده ناموس الوصايا في فرائض، لكي يخلق الاثنين في نفسه إنسانًا واحدًا جديدًا، صانعًا سلامًا". (رسالة بولس إلى أهل أفسس ٢: ١٥).
- جاء في الرسالة إلى العبرانيين: "لأنه إن تغير الكهنوت، فبالضرورة يصير تغيرًا للناموس أيضا". (الرسالة إلى العبرانيين ٧: ١٢)، ففي هذه الفقرة إثبات التلازم بين تبدل الإمامة وتبدل الشريعة، فإن قال المسلمون أيضًا ـ نظرًا إلى هذا التلازم ـ بنسخ الشريعة العيسوية فهم مصيبون في قولهم لا مخطئون، في تفسير دوالي ورجرد مينت ذيل شرح هذه الفقرة قول داكتر سيكنائت هكذا: "بدلت الشريعة قطعًا بالنسبة إلى أحكام الذبائح والطهارة وغيرها"؛ أي: رفعت.
- جاء في الرسالة السابقة أيضًا: "فإنه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها". (الرسالة إلى العبرانيين ٧: ١٨)، فهذه الفقرة تُصرِّح بأن نسخ أحكام التورة لأجل أنها كانت ضعيفة بلا فائدة في تفسير هنري واسكات: "رفعت الشريعة والكهانة اللتان لا يحصل منها التكميل، وقام كاهن وعفو جديد يكمل منهما المصدقون الصادقون".
- وجاء فيها أيضًا: "لأني أكون صفوحًا عن آثامهم، ولا أذكر خطاياهم وتعدياتهم في ما بعد». فإذ قال «جديدًا» عتق الأول. وأما ما عتق وشاخ فهو قريب من الاضمحلال". (الرسالة إلى العبرانيين ٨: ١٢، ١٣)، ففي هذا القول تصريح بأن أحكام التوراة كانت مَعِيبة، وقابلة للنسخ لكونها عتيقة بالية، في تفسير دوالي ورجرد مينت في ذيل شرح الفقرة الثالثة عشرة قول يايل هكذا: "هذا ظاهر جدًّا أن الله عز وجل يريد أن ينسخ العتيق الأقصر بالرسالة الجديدة الحسنى، فلذلك يرفع المذهب الرسومي اليهودي ويقوم المذهب المسيحي مقامه".
- وجاء فيها أيضًا: "ثم قال: «هنذا أجيء لأفعل مشيئتك يا الله». ينزع الأول لكي يثبت الثاني". (الرسالة إلى العبرانيين ١٠: ٩). وفي تفسير دوالي ورجرد مينت في شرح الفقرة الثامنة والتاسعة قول يايل هكذا: "استدل الحواري في هاتين الفقرتين وفيهما إشعار بكون ذبائح اليهود غير كافية؛ ولذا تحمل المسيح على نفسه الموت ليجبر نقصانها، ونسخ بفعل أحدهما استعمال الآخر".

فظهر للبيب من الأمثلة المذكورة أمور هي:

١. نسخ بعض الأحكام في الشريعة اللاحقة ليس مختصًّا بشريعتنا، بل وجد في الشرائع السابقة أيضًا.

٢. أن الأحكام العملية للتوراة كلها ـ أبدية كانت

أو غير أبدية ـ نسخت في الشريعة العيسوية.

٣. أن لفظ النسخ أيضًا موجود في كلام مقدسهم بالنسبة إلى التوراة وأحكامها.

٤. أن مقدسهم أثبت الملازمة بين تبدل الإمامة وتبدل الشريعة.

٥. أن مقدسهم يدعي أن الشيء العتيق البالي قريب من الفناء، فأقول لما كانت الشريعة العيسوية بالنسبة إلى الشريعة المحمدية عتيقة فلا استبعاد في نسخها، بل هو ضروري على وفق الأمر الرابع.

وقد عرفت في الأمثلة السابقة أن مقدسهم ومفسريهم استعملوا ألفاظًا غير ملائمة بالنسبة إلى التوراة بالمعنى المصطلح عندنا، إلا في الأحكام التي صرح فيها أنها أبدية، أو يجب رعايتها دائمًا طبقة بعد طبقة، لكن هذا الإشكال لا يرد علينا؛ لأنا لا نسلم أولًا أن هذه التوراة هي التوراة المنزلة أو تصنيف موسى، ولا نسلم ثانيًا أنها غير مصونة عن التحريف، ونقول ثالثًا إلزامًا بأن الله قد يظهر له بدءًا وندامة عما أمر أو فعل فيرجع عنه، كذلك يعد وعدًا دائمًا ثم يخلف وعده، وهذا الأمر الثالث نقوله إلزامًا فقط؛ لأنه يفهم من كتب العهد العتيق هكذا من مواضع كما ستعرف عن قرب.

ونحن وجميع علماء أهل السنة بريئون ومتبرئون من هذه العقيدة الفاسدة، نعم يرد هذا الإشكال عن المسيحيين الذين يعترفون بأن هذه التوراة كلام الله، ومن تصنيف موسى ولم تحرف، والندامة والبدء محالان في حق الله، والتأويل الذي يذكرونه في الألفاظ المذكورة بعيد عن الإنصاف وركيك جدًا؛ لأن المراد بهذه الألفاظ في كل شيء يكون بالمعنى الذي يناسبه، مثلًا: إذا قيل لشخص معين إنه دائمًا يكون كذا، فلا يكون المراد بالدوام ههنا، إلا المدة الممتدة إلى آخر عمره؛ لأنا نعلم بديهة أنه لا يبقى إلى فناء العالم وقيام القيامة، وإذا قيل لقوم عظيم يبقى إلى فناء العالم، ولو تبدلت أشخاصه، في كل طبقة بعد طبقة، أنهم لا بد أن يفعلوا كذا دائمًا طبقة بعد طبقة أو إلى الأبد، أو إلى آخر الدهر، فيفهم منه الدوام إلى فناء العالم بلا شبهة، وقياس أحدهما على الآخر مستبعد جدًا، ولذلك علماء اليهود يستبعدون تأويلهم سلفًا وخلفًا، وينسبون الاعتساف والغواية إليهم.

ما جاء من النسخ في العهد الجديد (الإنجيل):

- أن الله أمر إبراهيم ﷺ بذَبْح إسحاق ﷺ، ثم نُسخ هذا الحكم قبل العمل، كما هو مُصرَّح به في سفر التكوين: " وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم، فقال له: «يا إبراهيم!». فقال: «هأنذا». فقال: «خُذْ ابنك وحيدك، الذي تحبه، إسحاق، واذهب إلى أرض المُرِيَّا، وأَصْعِده هناك مُحْرَقة على أحد الجبال الذي أقول لك». فبكَّر إبراهيم صباحًا وشد على حماره، وأخذ اثنين من غِلمانه معه، وإسحاق ابنه، وشقَّق حَطَبًا لُمحْرِقة، وقام وذهب إلى الموضع الذي قال له الله. وفي اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد، فقال إبراهيم لغلاميه: «اجلسا أنتما ههنا مع الحمار، وأما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد، ثم نرجع إليكما». فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على إسحاق ابنه، وأخذ بيده النار والسكين. فذهبا كلاهما معا.

• وكلَّم إسحاق إبراهيم أباه وقال: «يا أبي!» فقال: «هأنذا يا ابني». فقال: «هوذا النار والحطب، ولكن أين الخروف للمحرقة؟» فقال إبراهيم: «الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابني». فذهبا كلاهما معا. فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله، بني هناك إبراهيم المذبح ورتَّب الحطب وربط إسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب. ثم مدَّ إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء وقال: «إبراهيم! إبراهيم!». فقال: «هأنذا» فقال: «لا تَمُدَّ يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئًا، لأني الآن علمت أنك خائف الله، فلم تمسك ابنك وحيدك عني». فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه مُمْسكًا في الغابة بقَرْنَيه، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عِوَضًا عن ابنه. فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع «يَهْوَهْ يِرْأه». حتى إنه يقال اليوم: في جبل الربِّ يُرَى". (التكرين ١ ـ ١٤).

• أنه نُقِل قول نبي من الأنبياء في حق عالي الكاهن في سفر صموئيل الأول: "لذلك يقول الرب إله إسرائيل: إني قلت إن بيتك وبيت أبيك يسيرون أمامي إلى الأبد. والآن يقول الرب: حاشا لي! فإني أكرم الذين يكرمونني، والذين يحتقرونني يصغرون. هوذا تأتي أيام أقطع فيها ذراعك وذراع بيت أبيك حتى لا يكون شيخ في بيتك. وترى ضيق المسكن في كل ما يحسن به إلى إسرائيل، ولا يكون شيخ في بيتك كل الأيام. ورجل لك لا أقطعه من أمام مذبحي يكون لإكلال عينيك وتذويب نفسك. وجميع ذرية بيتك يموتون شبانا. وهذه لك علامة تأتي على ابنيك حفني وفينحاس: في يوم واحد يموتان كلاهما".

فكان وعد الله أن منصب الكهانة يبقى في بيت عالي الكاهن وبيت ابنه، ثم أخلف وعده ونَسَخه، وأقام كاهنًا آخر، في تفسير دوالي ورجرد مينت قول الفاضل باترك هكذا: "ينسخ الله ههنا حكمًا كان وعده وأقر به بأن رئيس الكهنة يكون منكم إلى الأبد، أعطى هذا المنصب لعازار الولد الأكبر لهارون: ثم أعطى تامار الولد الأصغر لهارون، ثم انتقل الآن بسبب ذنب أولاد عالي الكاهن إلى أولاد العازار، فوقع الخلف في وعد الله مرتين إلى زمان بقاء الشريعة الموسوية، وأما الخلف الذي وقع في هذا الباب عند ظهور الشريعة العيسوية مرة ثالثة، فهذا لم يبق أثرًا ما لهذا المنصب، لا في أولاد العازار، ولا في أولاد تامارا، الوعد الذي كان للعازار، وهو مصرح به في سفر العدد هكذا: "لذلك قل: هأنذا أعطيه ميثاقي ميثاق السلام، فيكون له ولنسله من بعده ميثاق كهنوت أبدي، لأجل أنه غار لله وكفر عن بني إسرائيل". (العدد ٢٥: ١٢، ١٣). ولا يتحير الناظر من خلف وعد الله على مذاق أهل الكتاب؛ لأن كتب العهد العتيق ناطقة به، وبأن الله يفعل أمرًا ثم يندم، فقد جاء في المزمور التاسع والثمانين قول داود ﷺ في خطاب الله ﷻ هكذا: "نقضت عهد عبدك نجست تاجه في التراب". (المزمور ٨٩: ٣٩)، فيقول داود ﷺ: "نقضت عهد عبدك".

وفي سفر التكوين هكذا: "فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسَّف في قلبه. فقال الرب: «أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم»". (التكوين ٦: ٦، ٧)، وفي المزمور هكذا:

"فأخرج شعبه بابتهاج، ومختاريه بترنم. وأعطاهم أراضي الأمم، وتعب الشعوب ورثوه، لكي يحفظوا فرائضه ويطيعوا شرائعه". (المزمور ١٠٥: ٤٣ ـ ٤٥). وفي سفر صموئيل الأول قول الله هكذا: "ندمت على أني قد جعلت شاول مَلِكًا، لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي». فاغتاظ صموئيل وصرخ إلى الرب الليل كله". (صموئيل الأول ١٥: ١١)، وفيه أيضًا: "ولم يعد صموئيل لرؤية شاول إلى يوم موته، لأن صموئيل ناح على شاول. والرب ندم لأنه ملك شاول على إسرائيل". (صوئيل الأول ١٥: ٣٥).

وههنا خدشة يجوز لنا أن نوردها إلزامًا فقط: وهي أنه لما ثبتت الندامة في حق الله، وثبت أنه ندم على خلق الإنسان، وعلى جعل شاول ملكًا، فيجوز أن يكون قد ندم على إرسال المسيح عليه السلام بعدما أظهر دعوى الألوهية، على ما هو زعم أهل التثليث؛ لأن هذه الدعوى من البشر الحادث أعظم جرمًا من عدم إطاعة شاول أمر الرب، وكما لم يكن الله واقفًا على أن شاول يعصي أمره، فكذا يجوز أن يكون واقفًا على أن المسيح عليه السلام يدعي الألوهية، وإنما قلت هذا إلزامًا فقط؛ لأنا لا نعتقد ـ بفضل الله ـ ندامة الله ولا ادعاء المسيح عليه السلام الألوهية، بل عندنا ساحة الألوهية، وكذا ساحة نبوة المسيح عليه السلام صافيتان عن قمامة هذه الكدورات والمنكرات.

- جاء في حزقيال: "وطعامك الذي تأكله يكون بالوزن. كل يوم عشرين شاقلًا. من وقت إلى وقت تأكله. وتشرب الماء بالكيل، سُدْس الهِين، من وقت إلى وقت تشربه. وتأكل كَعْكًا من الشعير. على الخُرْء الذي يخرج من الإنسان تخبزه أمام عيونهم». وقال الرب: «هكذا يأكل بنو إسرائيل خبزهم النجس بين الأمم الذين أطردهم إليهم». فقلت: «آه، يا سيد الرب، ها نفسي لم تتنجس. ومن صباي إلى الآن لم آكل ميتة أو فريسة، ولا دخل فمي لحم نجس». فقال لي: «انظر. قد جعلت لك خِثْي البقر بدل خُرْء الإنسان، فتصنع خبزك عليه»". (حزقيال ٤: ١٠ ـ ١٥)، أمر الله أولًا بأن "تلطخه بزبل[1] يخرج من الإنسان"، ثم لما استغاث حزقيال عليه السلام نسخ هذا الحكم قبل العمل، فقال: "أعطيتك زبل البقر عوض رجيع الناس".

- في سفر اللاويين: "وكلم الرب موسى قائلًا: «كلِّم هارون وبنيه وجميع بني إسرائيل وقل لهم: هذا هو الأمر الذي يوصي به الرب قائلًا: كل إنسان من بيت إسرائيل يذبح بقرًا أو غنمًا أو معزى في المحلة، أو يذبح خارج المحلة، وإلى باب خيمة الاجتماع لا يأتي به ليقرب قربانا للرب أمام مسكن الرب، يحسب على ذلك الإنسان دم. قد سفك دمًا. فيقطع ذلك الإنسان من شعبه". (اللاويين ١٧: ١ ـ ٤)، وفي سفر التثنية: "فأما إن شئت أن تأكل وتستلذ بأكل اللحم فاذبح وكل بالبركة التي أعطاك الرب إلهك في قراك... إلخ، وإذا أوسع الرب إلهك تخومك مثل ما قال لك وأردت أن تأكل اللحم ما تشتهيه نفسك، وكان بعيد المكان الذي اصطفاك الرب إلهك ليكون اسمه هناك فاذبح من البقر والغنم الذي لك كما أمرتك وكل في قراك، كما تريد كما يؤكل من الظبي والإبل هكذا فتأكلون منها جميعًا طاهرًا كان أو غير طاهر"؛ فنُسِخ حُكْم سفر

١. الزِّبل: الرَّوث.

اللاويين بحكم سفر التثنية، وقد علّق هورن على هذه الفقرات قائلًا: "في هذين الموضعين تناقض من الظاهر، لكن إذا لوحظ أن الشريعة الموسوية كانت تزداد وتنقص على وقف حال بني إسرائيل، وما كانت بحيث لا يمكن تبديلها فالتوجيه في غاية السهولة".

ثم قال: "نَسَخ موسى في السنة الأربعين من هجرتهم قبل دخول فلسطين ذلك الحُكْم - أي حكم سفر اللاويين - بحكم سفر الاستثناء نسخًا صريحًا، وأمر أنه يجوز لهم بعد دخول فلسطين، أن يذبحوا البقر والغنم في أي موضع شاءوا ويأكلوا.

فاعترف بنسخ الحكم المذكور، وأن الشريعة الموسوية كانت تزاد وتنقص على وفق حال بني إسرائيل، فالعجب من أهل الكتاب أنهم يعترضون على مثل هذه الزيادة والنقصان في شريعة أخرى، ويقولون إنه مستلزم لجهل الله.

- ينصُّ سفر العدد على أن خُدَّام قُبَّة العهد لا بد ألَّا يكونوا أنقص من ثلاثين، وأزيد من خمسين: "من ابن ثلاثين سنة فصاعدًا إلى ابن خمسين سنة، كل داخل في الجند ليعمل عملًا في خيمة الاجتماع... من ابن ثلاثين سنة فصاعدا إلى ابن خمسين سنة، كل الداخلين ليعملوا عمل الخدمة وعمل الحمل في خيمة الاجتماع". (العدد ٤: ٣ - ٤٧)، وجاء في هذا السفر أيضًا ألَّا يكونوا أنقص من خمس وعشرين وأزيد من خمسين: "هذا ما للاويين: من ابن خمس وعشرين سنة فصاعدًا يأتون ليتجندوا أجنادًا في خدمة خيمة الاجتماع. ومن ابن خمسين سنة يرجعون من جند الخدمة ولا يخدمون بعد". (العدد ٨: ٢٤، ٢٥).

- في سفر اللاويين أن فداء خطأ الجماعة ثور واحد: "وكلَّم الرب موسى قائلًا: «كلِّم بني إسرائيل قائلًا: إذا أخطأت نفس سهوًا في شيء من جميع مناهي الرب التي لا ينبغي عملها، وعملت واحدة منها، إن كان الكاهن الممسوح يخطئ لإثم الشعب، يُقرِّب عن خَطِيَّته التي أخطأ ثورًا ابن بقر صحيحًا للرب، ذبيحة خَطِيَّة. يُقدِّم الثور إلى باب خيمة الاجتماع أمام الرب، ويضع يده على رأس الثور، ويذبح الثور أمام الرب". (اللاويين ٤: ١ - ٤)، وفي سفر العدد أنه لا بد أن يكون ثورًا مع لوازمه وجديًا: "وفي رءوس شهوركم تُقرِّبون مُحْرَقة للرب: ثَوْرَين ابني بقر، وكبشًا واحدًا، وسبعة خراف حولية صحيحة، وثلاثة أعشار من دقيق مَلْتُوت بزيت تَقْدِمة لكل ثور. وعُشْرَين من دقيق ملتوت بزيت تقدمة للكبش الواحد. وعُشْرًا واحدًا من دقيق ملتوت بزيت تقدمة لكل خروف. محرقة رائحة سرور وقودًا للرب. وسَكائِبُهُنَّ تكون نصف الهِيْن للثور، وثلث الهين للكبش، وربع الهين للخروف من خمر. هذه محرقة كل شهر من أشهر السنة. وتيسًا واحدًا من المعز ذبيحة خَطِية للرب. فضلًا عن المحرقة الدائمة يُقَرَّب مع سَكِيْبه. (العدد ٢٨: ١١ - ١٥)، فنَسَخ سفرُ العدد سفرَ اللاويين.

- أمر الله ﷻ في سفر التكوين أن يدخل في الفُلْك اثنان اثنان من كل جنس الحيوانات طيرًا كان أو بهيمة مع نوح عليه السلام: "ولما كان نوح ابن سِتِّمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض، فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان. ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة، ومن

الطيور وكل ما يَدِبُّ على الأرض: دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك، ذكرًا وأنثى، كما أمر الله نوحًا". (التكوين ٧: ٦ـ ٩). ويُعْلَم من السفر المذكور أيضًا أنه يدخل سبع سبع ذكر وأنثى من البهائم الطاهرة، ومن الطيور مطلقًا ومن البهائم غير الطاهرة اثنان اثنان: "وقال الرب لنوح: «ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفُلْك، لأني إياك رأيت بارًّا لديَّ في هذا الجيل. من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكرًا وأنثى. ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين: ذكرًا وأنثى. ومن طيور السماء أيضًا سبعة سبعة: ذكرًا وأنثى. لاستبقاء نَسْل على وجه كل الأرض". (التكوين ٧: ١ـ ٣)، ثم يُعْلَم من الإصحاح المذكور أنه دخل من كل جنس اثنان اثنان، فنُسِخ هذا الحُكم مرتين.

- في سفر الملوك الثاني: "في تلك الأيام مَرِض حَزَقِيًّا للموت، فجاء إليه إشعيا بن آموص النبي وقال له: «هكذا قال الرب: أَوْصِ بيتك لأنك تموت ولا تعيش». فوجَّه وجهه إلى الحائط وصلَّى إلى الرب قائلًا: «آه يا رب، اذكر كيف سِرْتُ أمامك بالأمانة وبقلب سليم، وفعلت الحسن في عينيك». وبكي حزقيا بكاء عظيمًا. ولم يخرج إشعيا إلى المدينة الوسطى حتى كان كلام الرب إليه قائلًا: «ارجع وقل لحزقيا رئيس شعبي: هكذا قال الرب إله داود أبيك: قد سمعت صلاتك. قد رأيت دموعك. هأنذا أشفيك. في اليوم الثالث تصعد إلى بيت الرب. وأزيد على أيامك خمس عشرة سنة»". (الملوك الثاني ٢٠: ١ـ ٦)، فأمر الله حزقيا على لسان إشعياء بأن أَوْصِ على بيتك لأنك ميت، ثم نُسِخ هذا الحكم قبل أن يصل إشعياء إلى وسط الدار بعد تبليغ الحكم، وزاد على عمره خمس عشرة سنة.

- في إنجيل متى: "هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلًا: «إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا. بل اذهبوا بالحَرِيِّ إلى خِراف بيت إسرائيل الضالة»". (متى ١٠: ٥، ٦)، وجاء فيه أيضًا: "لم أُرْسَل إلا إلى خِراف بيت إسرائيل الضالة". (متى ١٥: ٢٤). وبناءً على هذه النصوص كان عيسى عليه السلام يُخَصِّص رسالته إلى بني إسرائيل، وجاء على لسانه في إنجيل مرقس: "وقال لهم: «اذهبوا إلى العالم أجمع واكرِزُوا بالإنجيل للخليقة كلها". (مرقس ١٦: ١٥)؛ فالحُكْم الأول منسوخ بالثاني.

- في إنجيل متى: "حينئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه قائلًا: «على كرسيِّ موسى جلس الكَتَبَة والفرِّيسِيُّون، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه". (متى ٢٣: ١ـ ٣)؛ فحَكَم بأن كل ما قالوا لكم فافعلوه، ولا شك أنهم يقولون بحفظ جميع الأحكام العملية للتوراة، لا سيما الأبدية على زعمهم، وكلها منسوخة في الشريعة العيسوية، فهذا الحُكْم منسوخ ألبتَّة، والعجب من علماء البروتستانت أنهم يُوردون في رسائلهم هذه الآيات تغليطًا لعوامِّ أهل الإسلام، مستدلين بها على بُطلان النسخ في التوراة، فيلزم أن يكونوا واجبي القتل؛ لأنهم لا يُعظِّمون السبت، وناقِضُ تعظيمه ـ على حُكْم التوراة ـ واجب القتل.

- في إنجيل لوقا قول المسيح عليه السلام: "لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس، بل ليخلص.

فمضوا إلى قرية أخرى". (لوقا ٩: ٥٦)، ومثله في إنجيل يوحنا: "لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلص به العالم". (يوحنا ٣: ١٧)، "وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه، لأني لم آتِ لأدين العالم، بل لأخلص العالم". (يوحنا ١٢: ٤٧)، ووقع في رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي: "وحينئذ سيُسْتَعْلَن الأثيم، الذي الرب يُبِيده بنفخة فمه، ويبطله بظهور مجيئه". (رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي ٢: ٨)؛ فالقول الثاني ناسخ للأول.

وقد عُلِم من هذه الأمثلة السابقة أن نسخ أحكام الإنجيل واقع بالفعل، وظهر أيضًا أن ما نُقِل عن المسيح عليه السلام في قوله: "السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول. (متى ٢٤: ٣٥، ولوقا ٢١: ٣٣) ليس المراد به أن قولًا من أقوالي وحُكْمًا من أحكامي لا يُنْسَخ، وإلّا يلزم تكذيب إنجيلهم. بل المراد بقوله "كلامي" هو الكلام المعهود الذي أخبر عن الحادثات التي تقع بعده، وهي مذكورة قبل هذا القول في الإنجيلين، فالإضافة في قوله "كلامي" للعهد لا للاستغراق، وحَمَل مفسروهم أيضًا هذا القول على ما قلت في تفسير دوالي ورجرد مينت في ذيل شرح عبارة إنجيل متى هكذا: "قال القسيس بيروس: مراده أنه تقع الأمور التي أخبرت بها يقينًا"، وقال دين استاين هوب: "إن السماء والأرض وإن كانتا غير قابلتين للتبديل بالنسبة إلى الأشياء الأخرى، لكنهما ليستا بمحكمتين مثل إحكام إخباري بالأمور التي أخبرت بها فتلك كلها تزول، وإخباري بالأمور التي أخبرت بها لا تزول، بل القول الذي قلته الآن لا يتجاوز شيئًا عن مطلبه"، فالاستدلال بهذا القول ضعيف جدًّا.

وإذا عرفت أمثلة القسمين ما بقي لك شك من وقوع النسخ بكلا قسميه في الشريعة الموسوية والعيسوية، وظهر أن ما يدعيه أهل الكتاب من امتناع النسخ باطل لا ريب فيه، فكيف لا والمصالح قد تختلف باختلاف الزمان والمكان والمكلفين، فبعض الأحكام يكون مقدورًا للمكلفين في بعض الأوقات، ولا يكون مقدورًا في بعض آخر، ويكون بعضها مناسبًا لبعض المكلفين دون بعض، ألا ترى أن المسيح عليه السلام قال مخاطبًا للحواريين: "إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية". (يوحنا ١٦: ١٢، ١٣)، وقال للأبرص الذي شفاه: "لا تقول لأحد. بل اذهب أَرِ نفسك للكاهن، وقدِّم القُرْبان الذي أمر به موسى شهادة لهم". (متى ٨: ٤)، "ولما جاء إلى البيت تقدَّم إليه الأعميان، فقال لهما يسوع: «أتؤمنان أني أقدر أن أفعل هذا؟» قالا له: «نعم، يا سيد!» حينئذ لمس أعينهما قائلًا: «بحسب إيمانكما ليكن لكما». فانفتحت أعينهما. فانتهرهما يسوع قائلًا: «انظرا، لا يعلم أحد! »". (متى ٩: ٢٨ ــ ٣٠)، "أخرج ـ عيسى عليه السلام ـ الجميع خارجًا، وأمسك بيدها ونادى قائلًا: «يا صَبِيَّة، قومي!». فَرَجَعَت روحها وقامت في الحال. فأمر أن تُعطى لتأكل. فبُهِت والداها. فأوصاهما أن لا يقولا لأحد عما كان". (لوقا ٨: ٥٤ـ٥٦)، وأمر الرجل الذي أخرج الشياطين منه أن يرجع إلى بيته ويخبر بما صنع الله به: "أما الرجل

الذي خرجت منه الشياطين فطلب إليه أن يكون معه، ولكن يسوع صرفه قائلًا: «ارجع إلى بيتك وحَدِّث بكم صنع الله بك». فمضى وهو ينادي في المدينة كلها بكم صنع به يسوع". (لوقا ٨: ٣٨، ٣٩)[1].

ويستدلون على نفي النسخ بقول المسيح: "لا تظنُّوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأُكَمِّل. فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل". (متى ٥: ١٧، ١٨)، ونردُّ عليهم بالآتي: إن هذا الكلام منه ﷺ محمول على أن رسالته جزء لا يتجزأ من رسالات الرسل، فهو جاء مُتمِّمًا ومكملًا، فالرسل جميعًا أصحاب دعوة واحدة، والعقائد وأصول العبادات، ومكارم الأخلاق وتجنب الفواحش ورذائل الأخلاق - كل هذه التقت عليها جميع الشرائع، وكل رسول جاء ليكمل ما بناه السابقون.

ولهذا الكلام نظائره في القرآن الكريم والسنة، مثل قول الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ (الشورى: ١٣)، وقوله: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (البينة: ٥)، وقول رسول الله ﷺ: "إن مَثَلي مَثَل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا، فأحسنه وأجمله إلا مَوْضِع لَبِنَة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلَّا وُضِعَت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين".[2] وقوله ﷺ: "إنما بُعثتُ لأُتمِّم مكارم الأخلاق"[3].

وهذا الناموس الإلهي قانون لا يتبدل، كما قال ﷻ: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (فاطر). أما تغيير الأحكام العملية التي تقبل التغيير تبعًا لاختلاف أحوال الناس واختلاف حاجاتهم فليس في ذلك نقضًا لسنن الله ونواميس كونه، سواء كانت هذه الأحكام بين شريعة وأخرى أم في شريعة واحدة، وقد جاء على لسان عيسى ﷺ في القرآن: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ (آل عمران: ٥٠).

ثانيًا. ليس في النسخ منافاة لحكمة الله ﷻ وصدقه وعلمه، بل فيه تحقيق لكل ذلك:

من العيوب التي رتَّبها الزاعمون على النسخ: الزعم أن الناسخ والمنسوخ ضد حكمة الله ﷻ وصدقه وعلمه، فالإنسان القصير النظر هو الذي يضع قوانين ويغيرها ويبدلها، بحسب ما يبدو له من أحوال وظروف، لكن الله يعلم بكل شيء قبل حدوثه، فكيف يقال إن الله يغير كلامه ويبدله، وينسخه ويزيله، أليس من الأوفق أن ننزِّه الله فنقول: "ليس في النَّسخ منافاة لحكمته وصدقه وعلمه تعالى، بل فيه تحقيق لكل ذلك:

١. نظرية النسخ في الشرائع الإسلامية، د. شعبان محمد إسماعيل، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م، ص٤٣: ٦٠ بتصرف.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٣٣٤٢)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه خاتم النبيين (٦١٠١).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٨٩٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب حسن الخلق، باب حسن الخلق (٢٧٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥).

فالنسخ: عبارة عن استبدال حكم شرعي، بحكم شرعي آخر، اقتضى ذلك مراعاة أحوال الناس؛ لتكون الأحكام الشرعية مواكبة لأحوال الناس المختلفة. وكلا الحكمين الناسخ والمنسوخ في علم الله ﷻ، فالله حينما شرع السابق، علم أزلًا أنه سيستمر إلى أن ينسخه بحكم لاحق، وإن لم يخبر عباده بذلك، وقد عرفنا أن النسخ لا يتناول القوانين والسُّنن التي لا تتبدل ولا تتحول.

هَبْ أن طبيبًا كتب لمريضه دواء يتناوله إلى أن يأتيه في زيارة لاحقة، فأعطاه لاحقًا ما يتناسب مع حالته المتغيرة، فالطبيب بهذا مُحقِّق لقانون كلي وهو أن لكل داءٍ دواء، فلكل حالة ما يناسبها من الدواء.

وإن كان الطبيب بالنسبة لمريضه يحدث له علم مُتجدِّد بتغير حالة مريضه، فإن الأمر بالنسبة لله ﷻ مختلف، فهو يعلم أزلًا تغير الأحوال وتعاقبها على عباده، ولكل حالة ما يناسبها من الأحكام، فالنسخ "تبديل في المعلوم لا في العلم، وتغيير في المخلوق لا في الخالق، وكشف لنا، وبيان عن بعض ما سبق به علم الله القديم المحيط بكلِّ شيء"[1].

ثالثًا. النبي ﷺ أبعد ما يكون عن الكذب، فقد ثبت صدقه ﷺ قبل أن تنزل الأحكام المتضمنة الناسخ والمنسوخ:

يزعم المتوهم أن الناسخ والمنسوخ يفتح باب الكذب والادعاء، فإذا قال مدّعي النبوة قولًا وظهر خطؤه، أو إذا اعترض سامعوه عليه قال: إنه منسوخ، ويأتي بقول آخر: ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ (الحج: ٥٢)، كما ينسخ إله محمد ما يلقيه عليه من قرآن، يقصد قوله ﷺ: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ (البقرة: ١٠٦).

وللرد على هذه الفرية نقول: إن النبي ثبت صدقه قبل أن تنزل عليه الأحكام المتضمنة الناسخ والمنسوخ، ثبت صدقه بكل دلائل الصدق: بسيرته بين الناس، واعتراف الكفار بصدقه، وأمانته، وبالمعجزات التي أجراها الله على يديه، وبالآية الخالدة ـ القرآن العظيم، فهو أبعد ما يكون عن الكذب، والناسخ والمنسوخ من الأحكام موجه لمن آمن به لا للمكذب، فالناسخ والمنسوخ لا يردُّ من استقر في قلبه الإيمان عن إيمانه، وعدم مجيء الناسخ والمنسوخ لا يردُّ من أصرَّ على الكفر عن كفره: ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ (البقرة: ١٤٣).

ومدّعي النبوة كَذِبًا كذاب بما شُرِعَ قبل الناسخ والمنسوخ، وبما جاء بعدهما.

والنبي ﷺ وهو الصادق الأمين المبلِّغ عن ربه لا ينطق عن الهوى، فهو يبلغ عن الله الحكم الناسخ كما بلغ عنه قبلُ الحكم المنسوخ، ولو كان النبي ﷺ يفتري ذلك على الله لحقَّق بكل حكم منسوخ مصلحة شخصية له سعى إليها، وسوَّغ بذلك لكنه لم يُعرف عنه ذلك حتى من قبل أعدائه.

رابعًا. إن اللوح المحفوظ جامع لكل من الناسخ والمنسوخ، فلا يُهمِل اللوح المحفوظ شيئًا، ولا يزول منه شيء:

يثير بعض المشككين إشكالًا متوهمًا وهو أن محمدًا

---

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠١م، ج٢، ص١٨٣.

اعتبر الناسخ والمنسوخ من نفس كلام الله، فهل كان المنسوخ كلامًا إلهيًّا مكتوبًا في اللوح المحفوظ؟ وكيف يسمح الله لكلامه العزيز بالزوال والإهمال؟ وإلا فلماذا كُتِبَ؟

إن اللوح المحفوظ جامع لكلٍّ من الناسخ والمنسوخ، فلا يهمل اللوح المحفوظ شيئًا، ولا يزول منه شيء: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ (الرعد)، وهذا يشبه ما يضمُّه اللوح المحفوظ من تقلبات الكون من ليل ونهار، وصيف وشتاء، وحرارة وبرودة، وتعاقب الأقدار على الناس من غنى وفقر، وقوة وضعف، وصحة ومرض: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨).

خامسًا. إن الآيات التي تضمنت النسخ سواء أكانت متضمنة الحكم الناسخ أم المنسوخ فهي قرآن يأخذ خصائص القرآن كلها من إعجازه والتعبد بتلاوته:

يتوهم بعضهم أن القرآن الكريم بعد استبعاد السور التي شملها النسخ، سواء ما حمل منها ناسخًا دون المنسوخ أو العكس، أو ما شملهما معًا يئول أمره إلى كراسة صغيرة، ومع هذا يدَّعون أنه المعجزة الكبرى.

ونقول لهذا ولأمثاله: إن وجود نسخ في سورة لا يجردها من قرآنيتها، فالسورة التي ورد بها آية أو آيتان أو آيات فيها نسخ - لا يلغيها ورود ذلك من حسبانها قرآنًا، بل الآية والآيات التي تضمنت النسخ سواءً أكانت متضمنة الحكم الناسخ أم المنسوخ؛ فهي قرآن يأخذ خصائص القرآن كله، من إعجاز وتعبُّد بتلاوتها وتحدٍّ بها، فيبقى القرآن قرآنًا بكل آياته وسوره، ما دخله النسخ منه وما لم يدخله، وهذه الآيات المنسوخ حكمها أمامه تتحدى المتوهم وأمثاله من المعاندين المكابرين، فليأتوا بمثلها إن كانوا صادقين.

سادسًا. الله ﷻ يقلب الأحكام على المكلفين بوجوه النسخ الثلاثة؛ ليختبرهم في إيمانهم بالله وعبوديتهم له، كما يبتلي الله عباده بالمحن والمنح، والرخاء والشدة:

يتساءل بعضهم عن النوع الثالث من النسخ، وهو نسخ التلاوة وبقاء الحكم قائلًا: لماذا يكلفنا الله أن نعمل بآية غير موجودة؟ ألم يكن الأَوْلَى أن تبقى في كتابه حتى يحاسبنا بمقتضاها؟

وردًّا على ذلك نقول: إن الآية المنسوخ تلاوتها الباقي حكمها - لا تكون كذلك إلا إذا قامت قرينة على بقاء الحكم ونسخ التلاوة، مثل رجم الزُّناة المحصنين، فكانت سُنَّة النبي العملية دليلًا على بقاء الحكم، وكفاها قرينة ودليلًا.

وفي وجود الأنواع الثلاثة من النسخ، بما فيها نسخ التلاوة مع بقاء الحكم - تقليب وجوه البلاء على العبد حتى يُختبر في عبوديته لله، فالوجوه الثلاثة: ما نُسِخ حكمًا وتلاوة أو حكمًا فقط - أو تلاوة فقط هي كل الوجوه المحتملة عقلًا، فهي تتقلب على المكلفين حتى يُختبروا في إيمانهم بالله وعبوديتهم وامتثالهم له، كما يبتلي الله عباده بالمحن والمنح، والرخاء والشدة، فالمؤمن يتمثل في كل الأحوال وتظهر عبوديته لله ربِّ العالمين، كما قال تعالى في شأن تحويل القبلة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ (البقرة: ١٤٣)".

سابعًا. الأمثلة التي ذكرها الزاعمون عن النسخ لا تمتُّ للنسخ بصلة، وإنما اتخذوها مطعنًا ومدخلا لترويج إفكهم:

مما لا يتفق ومنهجية البحث العلمي السليم - أن يُمَحْوِرَ الباحث فكرة في عقله مسبقة لا تستند إلى دليل يُعتمد عليه، ثم يذهب يصدر أحكامًا باطلة ويلتمس أدلة واهية[1] بناء على هذه الفكرة المسبقة الفاسدة هذه، والحال التي ذكرناها هي التي نحن بصددها الآن، فقد ذهب بعض الواهمين يذكر أمثلة لآيات ناسخة لآيات منسوخة، وعندما لم يجد مغمزًا في هذه الآيات يلجأ إلى آيات أخرى يتخذ منها مطعنًا ومدخلًا لترويج إفكهم تحت ما يُسمُّونه الأسباب الحقيقية.

فمثالهم الأول: يذكرون فيه قوله ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢١٧):

فيتوهمون أن هذه الآية ناسخة دون أن يذكروا الآية المنسوخة؛ ولأنهم فهموا منها أنها تأذن بالقتال في الشهر الحرام، لنزولها بعدما ذكروه من حدث سريَّة عبد الله بن جحش الأسدي، ظنوا أنها ناسخة لتحريم القتال في الشهر الحرام. بينما الآية تنصُّ على تحريم القتال في الشهر الحرام، ومعنى قوله ﷻ: ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾، أي من المعاصي والكبائر، وكلام العلماء في كونها منسوخة، لا كونها ناسخة[2].

أما تصويرهم لحدث سريَّة عبد الله بن جحش على أنه أعطى خُمَسَ ما استلبه من القرشيين للنبي ﷺ وكأن النبي ﷺ لا همَّ له إلا قطع الطريق على الناس، ببعث أعوانه ليحملوا إليه حِصَّته!! ثم لما عيَّر القرشيون المسلمين بارتكاب القتال في الشهر الحرام أسكتهم وأرضى أصحابه، وسَوَّغ سلبه أموال القرشيين بهذه الآية - فهذا تصوير فاحش، وتلفيق غريب لا يستند إلى دليل ولا يحتكم إلى برهان.

إن فهم هذا وغيره للآية مُضْحِك، وتفسيرهم للحديث مُضِحك أكثر، فهم فهموا كلمة "كبير" التي وصف بها "قتال" أو أخبر عنه بها على أنه قتال ضَخْم!! ولم يلتفتوا إلى أن الآية تقول: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ (البقرة: ٢١٧) أي: ما ارتكبه القرشيون من عظائم أكبر مما ارتكبه المسلمون، فهم صدوا عن سبيل الله، وكفروا بالله وأخرجوا أهله وهم المسلمون منه.

وخلاصة القصة التي نزلت الآية بسببها، والتي يستخدمها هؤلاء المتوهمون للغمز والهمز خلاصتها: أن رسول الله ﷺ أرسل عبد الله بن جحش على رأس سرية من أصحابه إلى وادٍ بين مكة والطائف، يُسَمَّى نخلة، فلما وصلوا اعترضوا قافلة لقريش محملة بالطعام والتجارة، وهم مع قريش في حالة حرب منذ أن أُخْرِجُوا من ديارهم وأموالهم، فالاعتراض على القافلة وأخذ ما فيها - ما هو إلا استرداد لبعض حقهم المسلوب، وليس سلبًا ولا نهبًا كما يُصوِّر هؤلاء.

هنالك تشاور المسلمون، وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب، لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلُنَّ الحرم، فليمتنعنَّ منكم به، فترددوا ثم أجمعوا على مقاتلتهم،

---

١. الواهية: الضعيفة والساقطة.

٢. انظر: الناسخ والمنسوخ، أبو عبيد بن سلام، ص٢٠٧.

وقتلوا وأسروا وغنموا، وعزلوا الخُمُسَ حتى قدموا على رسول الله ﷺ، فأنكر رسول الله ما فعلوا، وعابت قريش ذلك وأنكرته، وزعموا أنهم قد وجدوا فيما فعله المسلمون مقالًا، فقالوا: قد أحلَّ محمد الشهر الحرام، واشتد ذلك على المسلمين حتى أنزل الله تعالى الآية: ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ (البقرة: ٢١٧)[1].

ومثالهم الثاني: هو تحوُّل النبي ﷺ عن بيت المقدس إلى المسجد الحرام:

فيزعمون أنه فعل ذلك لكي يستميل العرب إليه، ولكي لا يتحولوا إلى اليهودية التي كان يُقَدِّس قبلتها، فحكم النسخ هنا ليس حسب المشيئة الإلهية الثابتة، بل حسب هوى محمد ورضاه.

نردُّ على هذا فنقول: إن الثابت من سيرته ﷺ أنه رفض الاستجابة لقريش عندما أرادوا إثناءه[2] عن دعوته، وعرضوا عليه من العروض ما لو كان هدفه استمالتهم لاستجاب لهم من أول الأمر، وإذا كان هدفه مجرد استمالتهم فَلِمَ لم يتوجه إلى المسجد الحرام من أول الأمر؟!! أما كان يخشى على العرب من البداية أن يتحولوا إلى اليهودية من أول ما اتَّجه إلى بيت المقدس، وقد مضى على ذلك ستة عشر شهرًا بعد هجرته؟

وقد كان النبي ﷺ وهو بمكة يجمع بين القبلتين: الكعبة وبيت المقدس، حيث صلى بين الركنين، فلما هاجر تَعَذَّر عليه ذلك، وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يتوجَّه إلى الكعبة قبلة إبراهيم عليه السلام فاستجاب الله له[3].

ومثالهم الثالث: هو قصة زيد بن حارثة، وزينب بنت جحش:

والآية التي تتحدث عن هذا الموضوع هي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (الأحزاب)، لا تدخل في عداد الناسخ والمنسوخ، فليست ناسخة لآية سابقة.

ولكن الله عز وجل لما أبطل التبنِّي بقوله عز وجل: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾ (الأحزاب)، وقوله: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ (الأحزاب: ٥)، أراد عز وجل أن يبطل الآثار المترتبة عليه، ومنها تحريم الزواج من زوجة الابن بالتَّبني، فشرع الله عز وجل إباحة الزواج من زوجة المُتبنَّى؛ لأنه ليس ابنًا على الحقيقة، وكان ذلك في صورة عملية في شخص النبي ﷺ فلم يَعُدْ زيد بن حارثة الذي كان يُنْسَب إليه فيُقال: زيد بن محمد ابنًا له، ومن ثَمَّ تحِلُّ له زوجته زينب.

أما قوله عز وجل عن رسوله ﷺ: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ

1. محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج٣، ص٥٣٩.
2. الإثناء: الإبعاد.
3. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، علَّق عليه: هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ج١، ص٢٦٠ بتصرف يسير.

﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ (الأحزاب: ٣٧)، فإن معناه أن زيدًا الذي زوجه النبي بابنة عمته زينب، وهي من الأشراف وزيد من الخدم، فكان زيد يشعر بالجفوة من زينب بسبب عدم التكافؤ الاجتماعي، فكان يشكو لرسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ أُوْحي إليه أنه سيتزوج بزينب تحقيقًا لحكمة إبطال التبني وآثاره، وقد حدد الله ﷻ السبب في الآية بما لا يدع مجالًا للتَّخرُّص[1] والظن فقال ﷻ: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ (الأحزاب: ٣٧).

ولكن رسول الله ﷺ يُخفي هذا الأمر ولا يجاهر به لأحد، ولا عيب أن يحافظ النبي ﷺ على سمعته أن يخدشها أحد في مجتمع يتربَّص به الدوائر ويتتبع له العثرات، فهو يحاول أن يُفوِّتَ على الانتهازيين أي فرصة للتشويه والتشويش، ولكن الله ﷻ يردُّه إلى أنه ﷻ سيظهر هذا الأمر مهما حاول النبي ﷺ كتمانه، وأن الله ﷻ أحق بالخشية، وهو توجيه وتثبيت لرسول الله ﷺ وتقوية له.

وما لفَّقه الكذَّابون من أن رسول الله ﷺ أخفى رغبة الزواج من زينب حين رآها واشتهاها فهذا افتراء على رسول الله ﷺ يُكذِّبه الواقع.

فهل كانت زينب غائبة عنه، وهي التي تعيش معه في مكة في قريش، وهي ابنة عمته، ولو كان النبي ﷺ يرغب فيها لرغب فيها وهو شاب يبحث عن الزواج لا في شيخوخته، ولو كان قد تقدم للزواج منها في شبابه لما رفضت وهو يشبهها في الشرف ونضارة الشباب، لكنه آثر أن يُزوِّجها لمولاه وخادمه على شرفها ليقاوم

١. التَّخرُّص: الظن.

هذه الفوارق الطبقية، ولينشر تعاليم الإسلام التي تسوي بين أبناء آدم، ولا تفرق بينهم إلا على أساس العمل الصالح: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣). بطريقة عملية[2].

ومثالهم الرابع: هو قوله ﷻ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧)، التي فهموها ناسخة لحكم سابق هي بدورها ليست ناسخة، فإذا كانت ناسخة فأين الآية المنسوخة؟

إن الآية تقضي بإباحة المعاشرة الزوجية في ليلة الصيام، والسبب في النص على إباحة ذلك - أن الصحابة بعد أن شُرِعَتْ فريضة الصوم كانوا يتحرجون من إتيان النساء في ليالي رمضان، ظنًّا منهم أن ذلك من تتمة الصوم، وكان ذلك شاقًّا على بعضهم، مما جعلهم يخالفون ما أخذوا أنفسهم به، فالآية جاءت تذكر لهم إباحة ما ظنوه محرمًا، فأزالت من نفوسهم التحرُّج والتأثم[3].

ومثالهم الخامس هو: قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ①﴾ (التحريم):

هذه الآية لا علاقة لها بالناسخ والمنسوخ، ولكنهم يؤلفون ناسخًا ومنسوخًا على هواهم، ليقولوا: إن

٢. يُراجع لفهم الآية والقصة: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ج٦، ص٢٥٧ وما بعدها.

٣. انظر: تفسير القاسمي، محمد جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، ج٣، ص٤٥١.

محمدًا ﷺ يبيح لنفسه وأصحابه ما شاء، ويتقلب في تصرفاته، والتسويغ حاضر جاهز؛ لأن هذا التحليل من الله، وأن اللاحق نسخ السابق.

إن آيات سورة التحريم تنقل صورة حيَّة من بيت النبوة، الذي يمتلئ بالزوجات الضرائر، والنبي ﷺ يدرك ببصيرته النافذة الاعتبارات الفطرية والاجتماعية التي لها أثر على نسائه، مهما كان موقعهن كزوجات للنبي وأمهات للمؤمنين، فهن في نهاية الأمر وقبل كلِّ شيء نساء ضرائر، وينظرن إلى مارية على أنها مِلْكُ يمين وليست زوجة، وهُنَّ الحرائر الزوجات النسيبات الحسيبات، فإذا استرضى النبي حفصة ليُخفِّف حدة التوتر في بيته؛ فذلك يبرهن على حكمته ﷺ في معالجته الأزمات.

لكن الأمر إذا تجاوز حدود حفصة ومارية إلى بقية أزواجه ﷺ، فعلى النبي ﷺ أن يتخذ موقفًا حاسمًا رادعًا، وهذا ما حدث، فقد آلى على نفسه ألَّا يقرب زوجاته اللائي اشتركن في توسيع دائرة هذه الأزمة، وبعد أن أخذت الحكمة البشرية في شخص النبي حظَّها وحقَّها في معالجة الموقف، تدخلت العناية الإلهية بتشريع للنبي ﷺ ولأمته فيما لو وُجِدَ مثل ذلك الأمر من الإيلاء[1] بأن يُكَفِّر عن يمينه ويراجع زوجته: ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَنِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَنكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٢ ﴾ (التحريم)[2].

ومثالهم السادس: هو قوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَسِقِينَ ۝٥ ﴾ (الحشر):

هذه الآية أيضًا ليست من قبيل الآيات الناسخة كذلك، ولكنها قضت بحكم استثنائي يتناسب مع هذا الحدث، ولا يخلو قانون دولة من أحكام استثنائية تفرضها حالات استثنائية خاصة. وفي حصار بني النَّضير أراد النبي ﷺ أن يوقِعَ الضعف في نفوسهم، وهو يعرف - من حالهم - حبَّهم الشديد للمال، فأمر بقطع بعض نخيلهم وترك بعضها، وهي أجود النخيل "وقطع النخيل يخزيهم بالحسرة على قطعه، وتركه يخزيهم بالحسرة على فوته وإرادة الله وراء هذا وذاك على السواء"[3]. ولما قال يهود بني النضير لرسول الله: إنك تنهى عن التخريب والتحريق فكيف تفعل ذلك؟

يقولون هذا وهم يتجاهلون التخريب والتدمير والتآمر الذي يحاولون به اجتثاث الإسلام والمسلمين[4]، بدءًا من نبي الإسلام وانتهاءً إلى كل ما يمتُّ[5] إليه بسبب، فلما سمع بعض المسلمين ذلك من اليهود ساورهم[6] بعض الشك والتردد فيما فعلوه فثبتهم الله على الحق بنزول قوله ﷻ: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن

١. الإيلاء لغةً: الحَلْف مطلقًا، سواء أكان على تَرْك قُرْبان زوجة، أم على شيء آخر، مأخوذ من "آلى على كذا يُولي إيلاءً": إذا حَلَف على فعل شيء أو تَرْكه. كان الرجل في الجاهلية إذا غضب من زوجته حلف ألا يَطَأَها السَّنة والسنتين، ويمضي في يمينه من غير لَوْم أو حرج، حتى جاء الإسلام ووضع للإيلاء أحكامًا خفَّفت من أضراره، وحدَّد له المولى أربعة أشهر، وألزمه إما بالرجوع إلى معاشرة زوجته، وإما بالطلاق.

٢. لمراجعة تفاصيل أسباب نزول الآيات وتفهُّم موقف النبي ﷺ الصحيح انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٦، ص٣٦١٣.

٣. المرجع السابق، ص٣٥٢٣.

٤. اجتثاث الإسلام والمسلمين: القضاء عليهم.

٥. يَمُتُّ: يتصل ويرتبط.

٦. ساور: تملَّك.

﴿ لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ (الحشر).

المتوهمون يدافعون عن اليهود، شأن النصارى الذين ارتموا في أحضان اليهود وخَطَبوا ودَّهم، ولو كان على حساب الحق، وأغفلوا عيونَهم عن كل ما ارتكبوه من جرائم من أول تاريخهم وحتى اليوم يصِفُون هذه الأفعال ـ قطع النخيل ـ بأنها فاسدة ويغمضون عيونهم عن فساد اليهود وإفسادهم، ونقضهم للعهود وتآمرهم على النبي ﷺ لقتله؛ لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين!!

ومثالهم السابع: هو قول الله ﷻ لنبيه: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ (التوبة: ٨٤):

هذه الآية ليس فيها نَسْخ لحُكْم سابق، وإنما هو ابتداء حكم، وهو النهي عن الصلاة على كافر؛ لأن الصلاة دعاء واستشفاع، ولا يكون ذلك لغير المؤمن، ولذلك علَّل الله ﷻ النهي بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (التوبة)، وليس في امتناع النبي ﷺ بعد ذلك عن الصلاة على منافق إرضاءً لعمر ﷺ، ولكنه امتثال لنهي الله ﷻ أن يصلِّي على أحد منهم، ولو كان النبي ﷺ يسترضي بفعله عمر ﷺ لما صلَّى على عبد الله بن أُبَيٍّ بن سَلُول، فقال رسول الله: "إني خُيِّرت فاخترت"، وقد قيل: إنه ﷺ استغفر لهم سبعين مرة، فأنزل الله ﷻ: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (التوبة)، فقال ﷺ: "لو أعلم أني إن زدت على السبعين يُغْفَر له لزدت عليها"، فقال عمر ﷺ: ثم صلَّى عليه ومشى معه، وقام على قبره حتى فرغ منه، فعجبت بَعْدُ من جُرْأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم[1][2].

الخلاصة:

- دعوى أن القرآن تفرَّد بوقوع النسخ فيه دعوى باطلة، فالتوراة والإنجيل تضمنتا النسخ باعتراف اليهود والنصارى أنفسهم.
- النسخ إذا فهمت حقيقته سقطت كل المزاعم التي ذكرها هؤلاء المتوهمون، فهو لا يدخل في العقائد والأخبار والقصص وأصول العبادات ومكارم الأخلاق والفضائل والرذائل، ولكن النسخ يأتي في الأحكام العملية التي تختلف باختلاف أحوال الناس.
- النسخ لا يتنافى مع حكمة الله وصدقه وعلمه، بل يحقِّقها، فالله ﷻ يعلم أزلًا أن الحكم المنسوخ يستمر الخطاب به إلى أن يُخَاطب المكلفون بالحكم الناسخ، فالأول المنسوخ مناسب لأحوال المكلفين في مدة الخطاب به، والناسخ مناسب لهم في أثناء الخطاب به، وذلك يحقق حكمته وعلمه وصدقه تعالى.
- مجيء الناسخ والمنسوخ في شريعة نبي لا يفتح باب الكذب، والتلاعب بالأحكام باسم الناسخ؛ لأن النبي ﷺ ثبتت نبوَّته قبل نزول الأحكام عليه، فهو أبعد ما يكون عن الكذب.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين والاستغفار للمشركين (١٣٠٠)، وفي موضع آخر.

٢. انظر: تفسير القاسمي، مرجع سابق، ج٥، ص٤٨٥ وما بعدها.

- وجود الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم لا يُلْغي قرآنيته، ولا يذهب بخصائصه القرآنية من الإعجاز والتحدِّي به والتعبد به.
- ما نسخت تلاوته وبقي حكمه - قامت أدلة عليه، فأصبح معلومًا للمكلفين، كرجم المُحْصَن، وفي وجود أنواع النسخ كلها تمام الابتلاء للعبد، ليكمل امتثاله وعبوديته لربه.
- الأمثلة التي ذكروها لا تمتُّ للنسخ بصلة، ولكنهم وجدوها فرصة للتشويه، فهم يُرَدِّدُون أكاذيب مَن سَبَقَهم حول تلك الآيات.

الشبهة الثالثة والعشرون

إنكار القصص القرآني بدعوى تناقضه مع نصوص الكتاب المقدس(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المشككين كثيرًا مما ورد في القرآن الكريم من قصص؛ بدعوى أنها تتناقض مع نصوص الكتاب المقدس، ويمثلون لهذا بما جاء في القرآن الكريم من:

- تعليم الغراب لقابيل كيف يواري سوءة أخيه.
- رفض أحد أبناء نوح عليه السلام الركوب معه في السفينة.
- استقرار سفينة نوح عليه السلام على جبل الجودي.
- نسب إبراهيم عليه السلام إلى آزر، وعدة أبنائه اثنان، ومعيشة نسله في مكة، وعدد زوجاته اثنتان، وبناؤه للكعبة.
- تبني زوجة فرعون لموسى عليه السلام.
- معيشة هامان في مصر.
- أخوَّة هارون لمريم - عليهما السلام.
- ولادة مريم لعيسى عليه السلام تحت جذع النخلة، وتكلمه في المهد، وإجراء المعجزات على يديه.
- عدد الأيام التي صامها زكريا عليه السلام عن الكلام ثلاثة أيام.

في حين لم تذكر التوراة، قصة تعليم الغراب لقابيل، كما لم تذكر قصة بناء إبراهيم الكعبة، وقصة ابن نوح الهالك غرقًا، وحدث كلام عيسى وإجراء المعجزات على يديه في المهد.

وتذكر التوراة أن الجبل الذي استقرت سفينة نوح عليه جبل " أراراط "، وأن أبا إبراهيم هو تارح، وعِدَّة أبنائه ثمانية، وأن ذريته عاشت في حيرون، وأن لإبراهيم ثلاث زوجات، وأن التي تبنت موسى هي ابنة فرعون، وأن هامان عاش في بلاد فارس، وأن هارون عاش قبل مريم بـ ١٣٠٠ عام، وأن مريم ولدت المسيح في مزود البقر، وأن زكريا لم يتكلم حتى وُلد الطفل يحيى، أي عدة تسعة أشهر، ويستدلون بذلك على أن القرآن الكريم ليس من عند الله؛ ما دام فيه مثل هذا الخطأ وهذا التناقض مع الكتاب المقدس.

وجوه إبطال الشبهة:

١) تفرُّد القرآن الكريم بما لم يذكر في الكتاب المقدس يعتبر حجة للقرآن الكريم، وليس حجة عليه، ومما تفرَّد القرآن بذكره، ما جاء من تفاصيل عن قصة هابيل وقابيل، وذكره قصة ابن نوح الهالك، وقصة بناء

(*) www.islameview.com

إبراهيم الكعبة، ومعجزة كلام عيسى عليه السلام في المهد.

٢) لا تناقض بين القرآن والتوراة التي نزلت على موسى دون تحريف أو تزييف في كثير من الأمثلة التي ساقها المنكرون، فالتناقض هو إثبات الشيء ونفيه في آن واحد، وهذا ما لم نجده بين النصوص في الكتابين، ومن ذلك ما يتصل باسم الجبل الذي رست عليه سفينة نوح، وما يتعلق باسم والد إبراهيم عليه السلام، وما يتعلق بعدد زوجات إبراهيم عليه السلام، وما يتعلق بقضية تبني موسى عليه السلام، وما يتعلق بالمكان الذي عاش فيه هامان زمن موسى عليه السلام، وما يتعلق بهارون أخي مريم - عليهما السلام، وما يتعلق بالمكان الذي وَضَعَت فيه مريم عليها السلام.

٣) يتضح بالمقارنة بين النصوص الواردة في القرآن، وفي الكتاب المقدس، صدقُ القرآن ونزاهته ودقته وإحكامه؛ وذلك لموافقته للمنطق ومطابقته للواقع، ونرى ذلك في ذكر عدد أولاد إبراهيم عليه السلام، وعدد الأيام التي صامها زكريا عليه السلام، والمكان الذي عاشت فيه ذرية إبراهيم عليه السلام.

٤) وما ورد من تشابه في القصص بين الكتابين الكريمين، يدل على أن مصدرها واحد والغاية منها واحدة، ولا يدل على اقتباس القرآن قصصه من التوارة.

التفصيل:

أولا. تفرد القرآن الكريم بما لم يُذكر في الكتاب المقدس، حجة له لا عليه:

إن عدم ذِكْر الكتاب المقدس لقصة تفرَّد بذكرها القرآن الكريم لا يعني عدم وقوعها أو عدم صحتها، بل لا يدعي ذلك علماء التاريخ أنفسهم؛ لأن المؤرخين لا يزعمون أن التاريخ الذي دونّوه عن الإنسانية، وعن الكون حوى كل شيء حتى يزعموا أن ما لم يذكروه لا وجود له، وهكذا الأمر بالنسبة للكتاب المقدس، فلا يستطيع عاقل أن يحكم بأنه يتضمن كل أخبار الكون والإنسان حتى ينتفي كل حديث، وكل قضية لم تُذْكر فيه.

بل إن تفرد القرآن الكريم بقصة لم تذكر في الكتاب المقدس، يعتبر حجة للقرآن الكريم، وليس حُجَّة عليه؛ لأن هذا ينفي أن يكون القرآن مُقتبسًا من الكتاب المقدس، كما يزعمون، ويُثْبت أن النبي ﷺ تلقاه من لدن حكيم عليم، ومما تفرد القرآن بذكره ما يأتي:

- يذكر الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء أن قصة هابيل وقابيل، ذكرت في التوراة، وهي لا تخالف ما جاء في القرآن تقريبًا. وتفرد القرآن الكريم ببعض تفاصيلها يكون حُجَّة للقرآن، ولصدق النبي ﷺ؛ لأن كل عاقل يلح عليه سؤال آنذاك: من أين تعلم النبي ذلك ولم يعرف عن أي مصدر سبقه.

- أما ذكر التوراة أن أبناء نوح الثلاثة ركبوا في السفينة، وعدم ذكرها لقصة ابن نوح الهالك غرقًا، وهي القصة التي تفرَّد بها القرآن الكريم، فليس ذلك حُجَّة لصحة الكتاب المقدس، ولا حجة على عدم صحة القرآن الكريم، ولا حجة كذلك على تناقض الكتابين في هذه المسألة. إنْ سلَّمنا بصحة ما جاء في الكتاب المقدس، فيحتمل أن يكون لنوح ابن رابع غير الثلاثة المذكورين في التوراة الذين ركبوا في السفينة إذ لم

تنف التوراة وجود ابن رابع.

كذلك يتفق ما جاء به القرآن مع منطق الهداية الذي جاء به الرسل، ومن بينهم نوح عليه السلام فالانتماء إيمان، وعمل قبل أن يكون انتماء نسب، ولا جدوى لانتماء النسب إذا لم يكن مشفوعًا بانتماء الإيمان والعمل الصالح، وهو درس يلقنه الله عز وجل للإنسانية؛ حتى لا تكون محاباة على حساب الحق، فقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ (٤٦)﴾ (هود)، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ (المجادلة: ٢٢).

- عدم ذكر قصة بناء الكعبة في التوراة ليس حجة، بل هذا أمر متوقع من قوم، هم اليهود؛ إذ تدور التوراة التي ألفوها حول إعادة بناء مجد بني إسرائيل الزائل، وقصر كل فضل عن الأمم الأخرى وخاصة العرب وتجريدهم من كل فضل.

وليس بعد خبر القرآن الكريم عن الكعبة ومن بناها خبر يُعْتَدُّ به، حيث تواترت الأخبار على مر الأجيال بنسبة الكعبة إلى بانيها إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - كتواتر البلاد والبقاع، والتواتر حجة قطعية لا تقبل الشك، والتوراة تشير إلى رحلة إبراهيم نحو الجنوب، وهي إشارة إلى الجزيرة العربية حيث بلد البيت الحرام®.

- إن عدم ذكر الأناجيل ما جاء في القرآن الكريم من كلام عيسى عليه السلام في المهد لا يدل على صحة الأناجيل، وعدم صدق القرآن، بل العكس هو الصحيح، فإن ذلك يدل على صدق القرآن الكريم، وعدم صدق الأناجيل، فقد جاء في القرآن ما لم يأت في الأناجيل، فكانت الأناجيل ناقصة والقرآن كاملًا.

والقرآن الكريم ينص على أن عيسى عليه السلام تكلم في المهد، تبرئة لأمه، وإخبارًا بمستقبل أمره، قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا (٣١) وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا (٣٢) وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا (٣٣) ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ (٣٤)﴾ (مريم).

ولم ينص القرآن الكريم على معجزات حدثت لعيسى عليه السلام في طفولته، والمعجزة لا تحدث على يد النبي إلا مصحوبة بدعوى النبوة، وما يحدث للنبي قبل نبوته من خوارق يسمى: إرهاصًا وليس معجزات، وعلى كلٍّ فليس في القرآن نصٌّ على أن الخوارق التي ذكرتها الآيات القرآنية كانت في طفولته، بل الأقرب إلى الصواب أنها حدثت في أثناء قيامه بالدعوة إلى بني إسرائيل، قال الله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ

® في "ثبوت ذهاب إبراهيم إلى مكة وبنائه الكعبة" طالع: الشبهة العشرين، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل ١).

﴿مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (آل عمران).

فيفهم من الآيات السابقة أن عيسى عليه السلام يخاطب بني إسرائيل برسالته، مستدلًا بالآيات التي أجراها الله على يديه أمامهم تصديقًا له في دعواه النبوة، فاختلفوا بين مصدق ومكذب®.

ثانيًا. لا تناقض بين القرآن الكريم والكتاب المقدس في بعض ما ذُكر فيهما، إذ التناقض: هو إثبات الشيء ونفيه في آن واحد، وهذا لم يحدث بين الكتابين في غالب أحوالهما:

إن هذا الذي يزعم التناقض بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم ـ استنادًا إلى قصص ذكرت في القرآن ولم تذكر في الكتاب المقدس ـ لا يفهم معنى التناقض، فالتناقض إثبات الشيء ونفيه في آن واحد. فلو نفى الكتاب المقدس شيئًا، وأثبته القرآن الكريم، لقلنا إن هذا تناقضٌ فلا يَثْبُتان معًا ولا يَنْتَفِيان معًا، بل لا بد أن يَثْبُت أحدُهما ويُنْقَضُ الآخر، أما أن يسكت أحدُ الكتابين عن أمر ويذكره الآخر، فلا يسمى ذلك تناقضًا، ومن تلك النصوص ما يأتي:

- ما يتصل باسم الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح، فلا مانع أن يكون للجبل اسمان، يسمى في التوراة بأحدهما وهو (أراراط)، وفي القرآن الكريم بآخر وهو (الجودي)، وقد يكون الاسمان أطلقا على الجبل في فترتين متعاقبتين، وهذا مألوف في إطلاقات الأسماء المختلفة على الشيء الواحد الذي تمضي عليه مئات السنين، فربما كان في عهد تأليف التوراة يُسمى باسم (أراراط) وفي عهد نزول القرآن يسمى بـ (الجودي)، هذا بالطبع على فرض تسليم صحة ما في التوراة.

وقد يكون الجودي الذي ذُكر في القرآن الكريم جبل من جبال أراراط المذكورة في التوراة، فهي تنص على أن الفلك استقرت على جبال أراراط: "ورجعت المياه عن الأرض رجوعًا متواليًا. وبعد مئة وخمسين يومًا نقصت المياه، واستقر الفلك في الشهر السابع، في اليوم السابع عشر من الشهر، على جبال أراراط". (التكوين ٨: ٣، ٤)، وهو تعبير غير دقيق؛ إذ إن السفينة استقرت على جبل واحد، وليس على جبال متعددة، هذا هو الأقرب إلى الواقع، وهو ما جاء في القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (هود).

- ما يتعلق باسم أبي إبراهيم عليه السلام الذي ذُكِر في التوراة أنه "تارح" وفي القرآن الكريم أنه "آزر" ـ على فرض صحة ما جاء في التوراة ـ لا منافاة بين الأمرين، فيُحتمل أن يُسمَّى بالاسمين، أو أن أحدهما اسم والآخر لقب، أو وصف بمعنى: القوة، ويؤيد الأخير أن "آزر" من "الأزر" أي: النصر والقوة، ومنه الوزير أي: المُعين، وهي كذلك في اللغات السامية التي منها لغة إبراهيم، ومن ذلك عازر وعزير وعازر في العبرية.

ومن العلماء من يرى أنه اسم صنم كان يعبده والد إبراهيم، وهو قول مجاهد ورجحه الشيخ عبد الوهاب النجار، مستأنسًا بوجود آلهة المصريين القديمة باسم

® في "كلام عيسى في المهد" طالع: الشبهة الثالثة والثمانين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢).

"أزوريس" ومعناه: الإله القوي المعين، وقد كانت الأمم السابقة يُقلِّد بعضهم بعضًا في أسماء الآلهة[1].

- لم يحدد القرآن أن لإبراهيم عليه السلام زوجتين، والقرآن الكريم الذي جاء لهداية البشر ما كان يعنيه ذكر هذه التفاصيل المملة، التي جاءت في التوراة، ولكنه أشار إلى أم إسماعيل وإلى أم إسحاق، ووجود من عداهما من زوجات أو سراري (ملك يمين) أمر مسكوت عنه في القرآن الكريم، وهو أمر يحتمل الصدق والكذب، وقد يصح ما جاء في التوراة من وجود زوجة ثالثة، وقد لا يصح، وقد يكون له من السراري واحدة أو أكثر.

لم يذكر القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام تبنيًا له عليه السلام من قبل امرأة فرعون أو ابنته، ولكنه قال: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ (القصص: ٨)، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ (القصص: ٩).

وما جاء في القرآن الكريم هو ما يتفق مع الواقع، فالتقاط موسى يأتي من قبل آل فرعون، أمر متوقع، فهم يسعون في خدمة القصر وقاطنيه، وطلب امرأة فرعون من زوجها أن يكون لها قرة عين، وألا يقتلوه أمر متوقع، فهي التي تقاسمه الحياة والولد، ولعلهما لم ينجبا فيكون هذا الوليد عوضًا عمّا افتقداه.

- يفهم من آيات القرآن أن هامان كان وزيرًا لفرعون موسى بمصر، قال تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ (القصص: ٣٨)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ (غافر: ٣٦)، وأن موسى عليه السلام أرسل رسولًا إلى فرعون وهامان وقارون ثلاثتهم، ورءوس الكفر في عصره، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)﴾ (غافر).

وإن صح ما ذكر في الكتاب المقدس، فيحمل على أن هامان شخص آخر في أمة أخرى، وكم من اسم في أمة واحدة أو في أمم كثيرة، يتكرر لأشخاص كثيرين.

- وما جاء في سورة مريم حكاية عن قومها مخاطبين لها قائلين: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)﴾ (مريم)، يحتمل أن يكون هارون أخاها حقيقة، ويحتمل أن يكون هارون شخصًا معاصرًا لها معروفًا بالعبادة والطهر والعفاف، ويحتمل أن يكون المراد بهارون أخا موسى - عليهما السلام - وعلى الاحتمالين الأخيرين يكون إطلاق "أخت" إطلاقًا مجازيًّا، لشبهها في العفة والطهر، والتنسك، ذكر قتادة السهيلي أن هارون كان رجلًا صالحًا في بني إسرائيل مشهورًا بالصلاح فشبَّهوها به، وليس بهارون أخي موسى، فإن بينهما أكثر من ألف عام[2] ®.

- يقول الحق عز وجل: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ (مريم: ٢٣)، فمريم - عليها السلام - ألجأها

---

١. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م، ص٩٤: ٩٩ بتصرف.

٢. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ج٢، ص٧٩٩ بتصرف.

® في "تسمية مريم: أخت هارون" في القرآن الكريم" طالع: الشبهة الثالثة والثلاثين، من الجزء الثاني (لغة القرآن الكريم). والشبهة الثامنة والسبعين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢).

المخاض إلى جذع النخلة؛ لتعتمد عليه أثناء ولادتها، حيث لم يكن معها أحد من النساء تُعينها على الولادة، وبعد ولادتها لجأت إلى المذود الذي يتحدث الإنجيل عنه.

يقول الشيخ عبد الوهاب النجّار: "إن وجود النخل ببيت لحم - وهي البلدة التي كانت بها مريم يوم ولادة المسيح - نادر، وقد رأيت بكنيسة بيت لحم المبنية على موضع ولادة المسيح مكانًا قد قُوِّر[1] البلاط فيه، يقولون: إن في موضع هذا التقوير كانت النخلة التي ولدت عندها مريم، وهناك مذود الماشية[2] الذي وضعت طفلها فيه عقب ولادته"[3].

وهكذا نرى الطاعنين في القرآن من النصارى ينكرون ما يثبتونه ويحتفظون بآثاره، لا لشيء إلا لأنه ذُكِرَ في القرآن؛ ليكذِّبوا القرآن وما جاء فيه حتى ولو ثبت عندهم، فهل بعد هذا البهتان من بهتان؟! قال ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ (النور).

ثالثًا. بالمقارنة بين النصوص الواردة في القرآن الكريم والكتاب المقدس، نجد صدق القرآن ونزاهته ودقته وإحكامه، وذلك لموافقته للمنطق ومطابقته للواقع:

إن الأقرب إلى المنطق - وهو الذي يوافق الواقع - ما جاء في القرآن الكريم أن الله ﷻ رَزَقَ إبراهيم بإسماعيل على الرغم من تقدم سنِّه من زوجه هاجر، ورزقه من زوجه سارة - على الرغم من تقدُّمها في السن - بإسحاق، وقد عهدنا مثل هذه الخارقة في زكريا، حيث وهبه الله تعالى يحيى رغم تقدمه في السن وعقم زوجته، وتحققت المعجزة والبشرى بواحد، فلم تكن هناك إلى حاجة أكثر من ذلك.

وما ذُكِرَ في التوراة يُفسَّر على أنه خلط من واضعها بين أبناء إبراهيم وأحفاده، فأحفاد الرجل يوصفون بأنهم أبناؤه على اعتبار أنهم ينسبون إليه، قال ﷻ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ (هود)، على أن يعقوب هو ابنٌ لإسحاق، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ (الأنبياء: ٧٢).

يذكر القرآن الكريم أن إبراهيم أودع وأسكن من ذريته عند البيت الحرام، إشارة على إسماعيل ﷺ وهو معنى قوله ﷻ: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ فلم يسكن ذريته كلها، ولكن منها: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ إشارة إلى مكة.

ولكن الإنجيل يتابع التوراة التي يعمد كتّابها إلى تجريد العرب وجدِّهم إسماعيل من كل فضل، ونسبة كل مَنْقَبة[4] إلى بني إسرائيل، كما زعموا أن الذبيح هو إسحاق مناقضين بذلك نصوص التوراة نفسها.

على أن التوراة تحمل إشارة إلى ذهاب إبراهيم إلى مكة، حيث تذكر أن إبراهيم ﷺ انتقل إلى أرض الجنوب[5].

- أما عن تحديد المدة التي صامها زكريا، فإن القرآن أصدق من غيره في ذلك، قال ﷻ: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ (آل عمران: ٤١)،

١. قَوَّر الشيء: جعل في وسطه خَرْقًا مستديرًا.
٢. مِذْوَد الماشية: المَعْلَف، أو المكان الذي يُوضع فيه العلف للماشية.
٣. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٤٥٤، ٤٥٥ بتصرف يسير.
٤. المَنْقَبة: الفضيلة.
٥. قصص الأنبياء: عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص١٣١.

وقال تعالى أيضًا: ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ ﴾ (مريم)، ويجمع بين الآيتين أن الله تعالى طلب من زكريا عليه السلام في الآية الأولى ألا يكلم الناس ثلاثة أيام بلياليهن، وهي كافية في إقامة الآية على أن زوجه حامل، ولكن إمساكه عن الكلام لمدة تسعة أشهر، وهي فترة الحمل كلها يُفَوِّت مقاصد كثيرة، وهو الرسول الذي يقود قومه إلى دين الله، فهو بحاجة إلى مخاطبتهم ومخالطتهم، فإذا كانت المقاصد تَتَعطَّلُ بهذه المدة الطويلة، والمقصود من هذه الآية يتحقق بمدة أقل، فلم يمنعه الله هذه المدة الطويلة؟! إن هذه المقارنة تثبت للعاقل صدق القرآن وكذب الإنجيل.

رابعًا. ما ورد من تشابه في قصص القرآن الكريم والتوراة، يدل على أن مصدرهما واحد، ولا يدل على اقتباس القرآن من التوراة:

الحق أنه ليس كل ما شابه الشيء مأخوذ منه، والقرآن جاء ليصحح أخطاء الكتب السابقة، ويمحو الخرافات والأساطير.

وجاءت الدعوة الإسلامية مصححة لما جاء في الكتب السابقة من الخرافات والأساطير، والقضاء على الوثنية والشرك، وتصليح مفهوم العبادة لله وحده لا شريك له، فاليهود قالوا: ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣٠)، والنصارى قالوا: ﴿ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾، بل قالوا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة: ١٧)، والكفار في مكة كانوا يعبدون الأصنام لتقربهم من الله زُلْفَى[1]، فجاء القرآن ناسخًا تلك العقائد الفاسدة، مثبتًا عقيدة واحدة صحيحة، العقيدة التي جاءت بها التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام عقيدة التوحيد الخالص لله وحده لا شريك له: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ (الإخلاص).

هذه هي العقيدة الصحيحة التي ينبغي أن يؤمن بها اليهود والنصارى والمسلمون، إذ إنه: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢). وليس القرآن في حاجة إلى الاقتباس من أساطير وخرافات توراتية، كتبها كاتبو الكتاب المقدس، وما جاء القرآن إلا ليقضي عليها، والتشابه القائم بين بعض القصص في التوراة، وبين ما جاء في القرآن، لا يعني الأخذ من هذه الأساطير السابقة، فالله تعالى هو الذي أخبر بعض رسله السابقين، كموسى عليه السلام بما سيأتي في القرآن؛ لأن القرآن كلام الله، وكلام الله قديم.

إلا أن بعض الأتباع ـ أتباع التوراة ـ أدخلوا بمرور الزمن ما شاء لهم أن يدخلوه، وما سولته لهم أنفسهم من الخرافات والأساطير، وجاء القرآن لإزالتها وتصحيحها، ثم إننا نتساءل: هل كان محمد يجيد اللغات الأخرى، لكي يترجم عنها تلك القصص إلى اللغة العربية، وبهذا الأسلوب الذي تحدى به العرب، وهم ـ العرب ـ أساس اللغة العربية؟ ولو كان محمد ﷺ قد أخذ أساطير التوراة وترجمها فكيف يشهد لها العرب أهل البيان واللغة؟

إن دعواكم ليس لها دليل، ولم تقم على برهان، وأولى بكم أن تسلموا القيادة للمسلمين وتتبعوهم، فاتباعهم فيه الرشاد والفلاح، وتركهم فيه الخسران المبين.

١. الزُّلفَى: القُربَى والمنزلة.

ثم إنَّ مصدر التوراة والقرآن واحد، والغاية منهما واحدة، فتشابه القصص في القرآن والتوراة لأخذ العِبْرة لا مُشاحَّة فيه.

فالله هو مصدر القصص التوراتي الصحيح، كما أنه تعالى مصدر القصص القرآني، فالقصص القرآني، والتوراتي من مصدر واحد، وكذلك الغاية الأساسية - وإن تعددت غايات القرآن وكثرت - واحدة.

فكل القصص قد تجتمع غايتها في العبرة وتثبيت قلوب الأنبياء وأتباعهم، وتثبيت العقائد الصحيحة، ونفي الخرافات التي دخلت على الكتب السماوية قبل الإسلام لعدم تدوين تلك الكتب لفترة طويلة بعد الرسل.

فالقرآن الكريم - مثلًا - أتى بعد التوراة، وأقر ما فيها من عقائد صحيحة، ونفى كل ما نالها من التحريف والتبديل، وجاء يُرسي دعائم الإيمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة والكتب السماوية، والرسل، والقدر خيره وشره، وذلك بذكر أقوال المرسلين، وأفعالهم، ونبل سلوكهم، وسموّهم في الخلق. ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنبياء).

فهل يكون عيبًا إذا شابه بعض قصص التوراة، لا سيما والمصدر واحد، والغايات متشابهة، والله أرسل الرسل برسالاتهم لهدف واحد. ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (النحل)، فما الفرق بين رسالة موسى في غايتها والهدف منها، وبين رسالة محمد ﷺ في النقطة نفسها؟

الخلاصة:

- عدم ذكر الكتاب المقدس لقصةٍ تَفَرّد بذكرها القرآن الكريم، لا يعني عدم صدق وقوع هذه القصة، وعدم صحتها، بل إن ذلك يعتبر حجة للقرآن الكريم، وليس حجة عليه، مثل تفصيل قصة قابيل وهابيل التي وردت في القرآن، وتعليم الغراب لقابيل كيف يواري سوءة أخيه، وقصة بناء سيدنا إبراهيم البيت الحرام، وقصة هلاك ابن نوح مع الهالكين عند الطوفان، وقصة تحدث المسيح وولادته تحت النخلة، كل هذه الأشياء لم يرد ذكرها إلا في القرآن، دلالة على شموله وسعته وتفصيله لكل ما سبق.
- لا تناقض بين القرآن، والكتاب المقدس، في كثير من الأمثلة التي ساقوها، فالتناقض يتطلب نفي الكتاب المقدس شيئًا أثبته القرآن الكريم، وهذا ما لا نجده بين تلك النصوص.
- النصوص الواردة في القرآن الكريم هي الصدق والحق، وذلك لقربها إلى المنطق، ومطابقتها للواقع.
- التشابه الموجود في بعض القِصص في التوراة والقرآن يدل على أن مصدرهما واحد، وهو الله سبحانه وتعالى، ويدل كذلك على وضوح الغاية منهما، وهو العبرة والعظة، والتسلية للأنبياء بقص قصص مَنْ سبق عليهم، ولا يدل بحال من الأحوال على اقتباس القرآن قصصه من التوارة، لأن القرآن يخالف ما جاء في التوراة في كثير من التفاصيل، بل يرد ما وقع في التوراة من تحريف وتزييف للحقائق.

الشبهة الرابعة والعشرون

تخطئة القرآن لمخالفته التوراة فيما رُوي عن كفالة زكريا لمريم(*)

مضمون الشبهة:

يُخطِّئ بعض المغرضين ما ورد في القرآن الكريم بشأن كفالة زكريا عليه السلام لمريم العذراء، ويدَّعون صدق ما ورد في التوراة من أن مريم ابنة عمران لم تتزوج ولم تلد، وهي أخت هارون، يستدلون على ذلك بمجموعة من الأدلة التي تنقض هذه الكفالة، منها: أن المرأة الوحيدة التي نذرت ما في بطنها هي جنة أم النبي صموئيل.

وجها إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم ثبتت صحته تاريخيًّا، وليست الكتب الأخرى يقينية الثبوت، وما ثبتت صحته حجة على ما لم تثبت صحته وليس العكس.

٢) لم يخطئ القرآن حين ذكر أن مريم أخت هارون؛ لأنها نوديت باسم من نُسبت إليه ومن كانت تتبعه في الطريقة والمذهب، وهذه عادة من عادات السابقين ما زالت موجودة حتى اليوم.

التفصيل:

أولا. التاريخ يثبت حجيَّة القرآن الكريم على الكتب المقدسة:

كفالة زكريا لمريم مع أنها لم تُذكَر عند أهل الكتاب، إلا أنها من أقوى الأدلة على أن القرآن وحي من الله:

(*) هل القرآن معصوم، عبد الله عبد الفادي. موقع الكلمة. www.alkalema.us.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (آل عمران).

وليست كتبهم المقدسة يقينية الثبوت حتى يَصْلُحَ ما تضمنته لأن يكون حجةً تاريخية ويُنْكَر ما خالفها، والذي ثبت صحته حجة على من لم يثبت صحته وليس العكس، ونحن المسلمين نوقن أن ما جاء به القرآن هو الحق، بما قام من الأدلة على نبوة النبي محمد ﷺ، مع حفظ كتابه ونقله بالتواتر الصحيح، ومن تلك الأدلة ما يشتمل عليه القرآن من قصص الأنبياء مع كونه ﷺ أميًّا، فهذا دليل على صحته، وما جاء فيها مخالفًا لما في الكتب السابقة - نعده مصححًا لما وقع فيها من الغلط والنسيان بانقطاع أسانيدها؛ إذ إن أعظمها وأشهرها - كالأسفار المنسوبة إلى موسى عليه السلام - لا يُعرف كاتبها، ولا زمن كتابتها، ولا اللغة التي كتبت بها أولًا[1].

ومريم التي ذكرت في القرآن الكريم هي أم عيسى عليه السلام والنصارى يثبتونها ويقولون: هي مريم العذراء، وليست أخت هارون أخي موسى، ولا بنت عمران والد موسى، وتكرار الأسماء المتداولة في الأمة الواحدة أمر معتاد.

فلا مانع أن يكون لدى اليهود أكثر من مريم وأكثر من هارون وأكثر من عمران، فمريم العذراء أم عيسى هي التي كَفَّلَها زكريا، وهي ابنة عمران العبد الصالح الذي جاء ذكره في القرآن؛ إذن لا عبرة بما جاء في كتبهم التي كذَّبها الواقع والعلم والتاريخ، ولم تثبت بأي وجه من وجوه الإثبات.

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا في "تفسير المنار":

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٣، ص٣٠٢.

"أما الجاحدون من أهل الكتاب، وغيرهم في هذا الزمان، يقولون فيما وافق القرآن فيه كُتبهم: إنه مأخوذ منها بدليل موافقته لها، وفيما خالفها: إنه غير صحيح بدليل أنه خالفها، وفيما لم يوافقها ولم يخالفها: إنه غير صحيح؛ لأنه لا يوجد عندهم، وهذا منتهى ما يكابر به مناظرٌ مناظرًا وأبطل ما يرد به خصم على خصم"[1].

وللرد على هذه المكابرة نقول: إن الفَيْصَلَ فيما تختلف فيه الكتبُ المنسوخة الرُّسلُ، وفيما تنفرد به بعضها إلى أوثقها وأصحها، فما وافق أصحها كان صحيحًا، وما خالفه كان باطلًا، وما تفرد به الصحيح كان هو الحق، وما سُكِتَ عنه كان محتملًا للخطأ والصواب.

وعند المقارنة بين الكُتب الثلاثة ـ التوراة والإنجيل والقرآن ـ يثبت أن أصحها هو القرآن الكريم[2]، فهو المعوَّل عليه في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (آل عمران). عقب قصة كفالة زكريا لمريم التي لم تذكر في الإنجيل ـ من أكبر الدلائل على صدق النبي ﷺ وكون القرآن الكريم من عند الله، فلم ترد هذه الواقعة في الإنجيل حتى يفتروا أنه ﷺ أخذها منه، وكون زكريا من نسب يختلف عن نسب مريم ـ إن صح زعمهم، وهذا لم يصح كما سنرى ـ لا يمنع كفالته لها، وليس بلازم أن يكون الكافل قريبًا للمكفول، والاقتراع على كفالتها يوحي بأن أباها قد مات في صغرها أو قبل ولادتها[3].

إذن الكفالة جرى فيها تنازع، ودليل ذلك أنهم اتفقوا على إِجْراءِ قُرْعَةٍ بالنسبة لِكَفَالَةِ مَرْيم، ولا يمكن أن يلجئوا إلى هذه القرعة إلا إذا كان قد حدث تنازع بينهم على: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ﴾ (آل عمران: ٤٤) ومن فضل الله أن زكريا عليه السلام كان متزوجًا من أشياع أخت حنة التي هي أم مريم، فهو زوج خالتها، وفي قوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (آل عمران: ٣٧) يرشدنا إلى أن[4] زكريا عليه السلام هو الذي كان يقوم برعاية شئون مريم ـ عليها السلام، وأن ذلك كان بأمر من الله.

وإذا نظرت في خريطة فلسطين تجد حبرون أسفل أورشليم وقريبة منها، وتجد الناصرة على نفس الخط، وتكون أورشليم غَرْبَ النَّاصرة وشرق حبرون، ويحتمل تقاربُ المكانين على فرض صحة ذلك، ولو ثبت بُعْدُ ما بين البلدين الآن فهذا لا ينفي ما جاء به القرآن، وهو حجة فيما قال؛ لأن ألفي سنة أو يزيد كفيلة بأن تغير من المواقع والبلاد والأسماء، مما يجعل الواقع الآن غير كافٍ للاستدلال به على وقائع حدثت منذ أكثر من ألفي سنة إثباتًا ولا نفيًا.

ثانيًا. القرآنُ لم يُخطِئ في جَعْلِ مَرْيم أختَ هارون:

أمَّا ما أثارها المشككون حول قوله تعالى عن مريم: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ (مريم: ٢٨) واعتبارهم أن ذلك خطأ

---

١. المرجع السابق، ص٣٠٢.

٢. للمزيد انظر: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، د. موريس بوكاي، مرجع سابق.

٣. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٣٧٤.

٤. قصص الأنبياء، الشيخ محمد متولي الشعراوي، دار القدس للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ص٤٠٩، ٤١٠.

تاريخي وقع فيه القرآن؛ إذ إن ما بين مريم وبين أخت هارون أمدٌ بعيد!! ولم يكن جديدًا ما قاله الزاعمون والمشككون.

فقد أثار آخرون مثله في حياة النبي ﷺ واعتبروا هذه الآية زَلَّة تاريخية من النبي ﷺ، ولهذا شنَّع بها أقطاب الكنيسة على النبي؛ أمثال: يوحنا الدمشقي، ونيغولا القوساوي، ويوحنا أندرياس... وآخرون، وأَرْجَعُوا الخطأ إلى أن النبي ﷺ كان أميًّا، وجهل لهذا السبب الفرق في الزمن بين موسى وعيسى!! ولم يأت في الأناجيل أن مريم - أم المسيح - كانت أختًا لمن يُدْعَى هارون؟ أو أن لها أخًا يُدْعَى هارون، وفي صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة، قال: لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرءون: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ (مريم: ٢٨) مع أن موسى كان قبل عيسى بكذا وكذا!! وقال: فلما قدمتُ على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: "إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم"[(١)].

وفي رواية أخرى أنهم قالوا للمغيرة: إن صاحبك يزعم أن مريم أخت هارون، مع أن بينهما في المدة ستمائة سنة؟! قال المغيرة: فلم أدر ما أقول! إلى أن جاء المغيرة إلى النبي ﷺ، وقال له وردَّ عليه بالقول السابق - بما يعني: أن مريم كانت من ولد هارون أخي موسى - أي من نسله فنسبتها إليه بالأخوة؛ لأنها من ولده، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللعربي يا أخا العرب - وفي القرآن يأتي: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًا﴾ (الأعراف: ٦٥)، ولم يكن هود أخاهم فعلًا، ولكن التقاليد تجعلهم ينادونه هكذا، وكذلك: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا﴾ (الأعراف: ٧٣)، وكذلك: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبًا﴾ (الأعراف: ٨٥) وفي الريف في بلادنا شيء من ذلك، فينادون الناس احترامًا: "يا خال" أو "يا عم" أو "أبونا فلان" وهم ليسوا كذلك فعلًا، ولكنها التقاليد احترامًا للناس.

بل إنه في إنجيل متى: "وفيما كان الفرِّيسِيُّون مجتمعين سألهم يسوع قائلًا: «ماذا تظنون في المسيح؟ ابن من هو؟» قالوا له: «ابن داود»". (متى ٢٢: ٤١، ٤٢)، والمسيح لم يكن ابنًا لداود! وبينه وبين داود أَمَدٌ بعيد! إلا أنها التقاليد، ينسبون إلى الأصول، وكذلك في آية مريم في القرآن، قالوا: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ يعني: "يا من تنتمين إلى بيت هارون"، مع ملاحظة أن مريم كانت قد وُهِبَت للخدمة، أي أنها اعْتُبِرَتْ ضمن الكهنوت كالأحبار، ورئيس الأحبار الأول أو الكاهن الأول هو هارون، وسُمِّي باللاوي، وموسى هو الذي نَصَّبهُ كذلك، وجعل في أولاده خدمة الهيكل، فيمكن لذلك أن تُنَادَى مريم باسم من تُنْسَب إليه وتتبعه على الطريقة والمذهب.

وفي الإسرائيليات عن كعب الأحبار أنه كان يتكلم بحضرة عائشة فقال: إن مريم ليست بأخت هارون أخي موسى، فقالت عائشة: كذبت! فقال لها: يا أم المؤمنين، إن كان رسول الله ﷺ قاله فهو أصدق وأخبر، وإلا فإني أجد بينهما من المدة ستمائة سنة!! قال: فسكتت، بمعنى أنه أفحمها، غير أن عائشة لم تكذب، ولم يكذب رسول الله ﷺ ولا القرآن؛ لأن مريم فعلًا أخت هارون، أي من بيت هارون، نَسَب دين أو نَسَب

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب النهي عن التَّكَنِّي بأبي القاسم وبيان ما يُستحبُّ من الأسماء (٥٧٢١).

دنيا، وإلا فما بين مريم أم المسيح وبين مريم أخت هارون وموسى زمان مديد، قيل: ستمائة سنة، وقيل: ألف سنة أو أكثر، فلا يُتَخَيَّل أن مريم أم عيسى كانت أخت موسى وهارون، والذهاب إلى أنها أخت موسى وهارون هو الحُمق بعينه، وإنما التفسير السليم أنها كانت هارونية، أي من طائفة هارون ـ الطائفة الكهنوتية، أو كانت من نسل بيته وذريته.

والثابت في الإنجيل: أن مريم من عائلة عمران أو عمرام والد موسى وهارون، وأنها تنحدر من جهة أمها من عائلة هارون، والثابت أنها قريبة لليصابات زوجة زكريا، واليصابات من بيت هارون شقيق موسى، ومن ثم كانت مريم من بيت هارون "فظهر له ملاك الرب واقفًا عن يمين مذبح البخور. فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك: لا تخف يا زكريا، لأن طِلْبَتك قد سمعت، وامرأتك أَلِيصابات ستلد لك ابنًا وتُسمِّيه يوحنا. ويكون لك فرح وابتهاج، وكثيرون سيفرحون بولادته، لأنه يكون عظيمًا أمام الرب، وخمرًا ومسكرًا لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس". (لوقا ١: ١١ـ ١٥)، ولذلك لا يستغرب أن ينسبها القرآن إلى عائلة هارون، كما ينسب الإنجيل المسيح إلى داود ويسميه أباه، فقال: "هذا يكون عظيمًا، وابن العَلِي يُدْعَى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية". (لوقا ١: ٣٢، ٣٣)، فهل كان داود أبًا للمسيح؟ أم المقصود أنه ينحدر منه؟ ثم إن قول بولس في رسالته إلى أهل رومية عن المسيح: "بولس، عبدٌ ليسوع المسيح، المَدْعُوُّ رسولًا، المُفْرَز لإنجيل الله، الذي سبق فوعد به بأنبيائه في الكتب المقدسة، عن ابنه. الذي صار من نسل داود من جهة الجسد، وتعين ابن الله بقوة من جهة روح القداسة، بالقيامة من الأموات: يسوع المسيح ربِّنا". (رسالة بولس إلى أهل رومية ١: ١ـ ٤).

لا يعني أن المسيح ابن الله على الحقيقة ولكن بالقوة، بحسب روح القداسة يعني أن النبوة مسألة روحية؛ لأنها تعني التبعية الروحية، فكذلك قول القرآن: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ قد يعني بمنطق بولس أن مريم ليست أخت هارون بحسب الجسد، وإنما بالتبعية الروحية والصفة الكهنوتية! فأنَّى لهؤلاء المستشرقين ولما يعبدون من دون الحق أفلا يعقلون[1]؟

ومن خلال هذا البيان يتضح لنا أن زكريا عليه السلام من نَسْل هارون ومن سِبْط[2] لاوي وتزوج أَلِيصابات، وكانت هي أيضًا من نسل هارون، وكانت مريم قريبة أليصابات، إذن كانت مريم هارونية من سِبْط لاوي ولا عجب من كفالة زكريا لها.

فالحق أن مريم ابنة عمران الأب المباشر لموسى عليه السلام وهو أب مباشر لموسى، وهو أب لمريم؛ لأنه رئيس العائلة التي تناسلت هي منها، وهارون ابن عمران، وهي من نسل هارون عليه السلام، فيكون هو أخوها على معنى أنها من نسله، أما أبوها المباشر فاسمه "يهويا قيم" وأمها اسمها "حنة" كما جاء في إنجيل يعقوب الذي لا يعترف به النصارى، والنَّسَب هكذا: إبراهيم ـ إسحاق

---

١. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ج١، ص١١٤، ١١٥ بتصرف يسير.

٢. السِّبْط: السبط عند اليهود كالقبيلة عند العرب، أي: النسل والذُّرِّيَّة.

ـ يعقوب ـ لاوي، وهو الابن الثالث ليعقوب، وأنجب لاوي ثلاثة، هم: جرشون وقهات ومراري، وبنو قهات: عمرام ويصهار وحبرون وعزئيل، وبنو عمرام: هارون وموسى ومريم.

وقد وصَّى موسى عن أمر الله ﷻ أن تتميز الأسباط التي تريد الإرث في بني إسرائيل، وذلك بأن تتزوج كل بنت في سبطها، ففي سفر العدد: "وكل بنت ورثت نصيبًا من أسباط بني إسرائيل تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها، لكي يرث بنو إسرائيل كل واحد نصيب آبائه". (العدد ٣٦: ٨)، ووصَّى بأن يتفرَّغ سبط لاوي للعلم والدين، ولا يكون له نصيب في الأرض، وإنما يسكن بين الأسباط في مدنهم، ووصى بأن تكون الإمامة في نسل هارون وحده، وعلى هذه الشريعة نجد في بدء إنجيل لوقا أن أليصابات زوجة زكريا عليه السلام كانت من نسل هارون من سبط لاوي، وكان زكريا من نسل هارون من سبط لاوي، وتزوجت أليصابات زكريا، وأن مريم العذراء كانت قريبة أليصابات، وإذا ثبت أنها قريبة لها، يثبت أن مريم هارونية من سبط لاوي. يقول لوقا: "كان في أيام هِيرُودُس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فِرْقَة أَبِيَّا، وامرأته من بنات هارون واسمها أليصابات. وكانا كلاهما بارَّيْنِ أمام الله، سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم. ولم يكن لهما ولد، إذ كانت أليصابات عاقرًا. وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما... فقال له الملاك: «لا تخف يا زكريا، لأن طِلْبَتَك قد سُمِعَت، وامرأتك أليصابات ستلد لك ابنًا وتسميه يوحنا. ويكون لك فرح وابتهاج، وكثيرون سيفرحون بولادته، لأنه يكون عظيمًا أمام الرب، وخمرًا ومسكرًا لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس»". (لوقا ١: ٥ ـ ١٥)، قال لها الملاك ذلك وهو يبشرها بالحمل بعيسى عليه السلام، فإذا صح أنها قريبة لها ونسيبة لها، فكيف يُخطِّئ الزاعمون القرآن في نسبتها إلى هارون عليه السلام؟!

وفِرْقة أَبِيَّا هي فرقة من بني هارون، وهي الفرقة الثامنة من الفِرَق التي عدَّها داود عليه السلام للعلم في المناظرة على بيت الرب[١] ®.

الخلاصة:

- القرآن الكريم ذكر قصة كفالة زكريا لمريم، والقرآن ثبت صحته وأن الكتب السابقة الأخرى ليست يقينية الثبوت، فهي لا تصلح حجة تاريخية يعتمد عليها، والذي ثبت صحته حجة على ما لم يثبت صحته وليس العكس.
- لم يخطئ القرآن الكريم في أن جعل مريم أخت هارون على سبيل الأخوة في الدين، فقد نوديت مريم باسم من نُسبت إليه وتتبعه في الطريقة والمذهب، وهذه عادة من عادات بني إسرائيل منذ القدم وحتى يومنا هذا.
- المقصود بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ أي من نسله كما نقول: يأخا تميم أي من بني تميم، فمريم

---

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٤٦٦: ٤٦٨ بتصرف يسير.

® في "تسمية مريم: أختَ هارون" في القرآن الكريم" طالع: الشبهة الثالثة والثلاثين، من الجزء الثاني (لغة القرآن الكريم). والشبهة الثامنة والسبعين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢).

بنت عمران، وعمران هذا هو الأب المباشر لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ ولكنها قد نُسبت إلى عمران لأنها من نسله، إذ إنها تنحدر من جهة أمها، ولذلك لا يستغرب أن ينسبها القرآن إلى عائلة هارون كما ينسب الإنجيل المسيح إلى داود ويُسمِّيه أباه، فهل كان داود أبا المسيح؟ أم أنه ينحدر من نسله؟!

الشبهة الخامسة والعشرون

الزعم أن القرآن الكريم زيف قصة مائدة عيسى عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن القرآن من عند محمد ﷺ وأنه نقله من الإنجيل، ويستدلون على ذلك بقصة المائدة التي نزلت من السماء، والواردة في سورة المائدة، ويذكرون نصوصًا من الإنجيل تنفي نزول مائدة من السماء، وتنفي طلب الحواريين من المسيح آية من السماء.

وجوه إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم لم يُنْقَل عن الإنجيل، ولو سلَّمنا جدلا أنه منقول عنه لنَقَل ما في الإنجيل من خُرافات لا تتَّفق مع العقل، وهذا لم يحدث، وأن ما ثبتت حجته كالقرآن حجة على ما لم تثبت حجته كالإنجيل.

٢) الأناجيل والتوراة تُثْبِتُ طَلَبَ الحواريين آية المائدة من السماء، فكيف ينكرها هؤلاء؟!!

٣) تفاصيل قصة المائدة، ونزول سورة باسمها دليل على صدق القرآن، وتزييف الكتب السابقة المحرفة، التي أثبت القرآن تحريفها وتبديلها بأيدي البشر.

التفصيل:

أولا. القرآن الكريم حجة على الإنجيل الذي لم تثبت حجته:

لم تأت في الأناجيل آية تثبت أن القرآن الكريم مأخوذ من مصدر آخر، إذ لو كان القرآن مقتبسًا من أي مصدر لنقل خرافاتهم كما هي، أو على الأقل لما تخلص مما تحمله من أمور لا يقبلها عقل عاقل، وإلا فأي الأمرين أبعد في الاستحالة العقلية: أن يتحول الخبز إلى جسد المسيح، والخمر إلى دمه، كما جاء في إنجيل متى: "وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخُبْز، وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال: «خذوا كلوا. هذا هو جسدي». وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلًا: «اشربوا منها كلُّكم، لأن هذا هو دَمِي»". (متى ٢٦: ٢٦ـ ٢٨)، هل هذا يقبله عاقل؟ أن يكون الخبز جسدًا، والخمر المُسْكِر دمًا؟!

إن المعترض غير دارس للإنجيل وغير دارس للتوراة؛ وذلك لأن في إنجيل يوحنا أن الحواريين طلبوا آية من السماء فقالوا له: "فأيَّة آية تصنع لنرى ونؤمن بك؟ ماذا تعمل؟ آباؤنا أكلوا المَنَّ في البَرِّيَّة، كما هو مكتوب: أنه أعطاهم خُبْزًا من السماء ليأكلوا". (يوحنا ٦: ٣٠، ٣١). إنهم طلبوا مائدة من السماء؛

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي. www.islameyat.com.

لأنهم قالوا: "آباؤنا أكلوا المن في البرية" بعد قولهم: "فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك"؟ واستدلوا على أكل آبائهم للمن بقولهم: "مكتوب - في التوراة - أنه أعطاهم خبزًا من السماء ليأكلوا"، وهذا يدل على أن آباءهم أكلوا المَنَّ والسَّلْوَى في سيناء. والنص هو: "وأمطر عليهم مَنًّا للأكل، وبُرَّ السماء أعطاهم". (المزمور ٧٨: ٢٤).

فهل نزل المن من السماء؟ وقد سمَّاه داود عليه السلام "مائدة" في قوله عنهم: "فوقعوا في الله. قالوا: هل يقدر الله أن يُرَتِّب مائدة في البَرِّيَّة"؟ (المزمور ٧٨: ١٩).

فمعنى نزوله من السماء: أنه من جهة الله لا من جهة إله آخر، ونصُّ إنجيل يوحنا يُبيِّن أنهم طلبوا مائدة من السماء، فقد قال: "أنه أعطاهم خبزًا من السماء ليأكلوا"؛ فإذا بارك الله في طعام من الأرض ليشبع خلقًا كثيرًا، فإنه يكون مائدة من السماء، كالمن النازل من السماء، وهو لم ينزل من السماء، وإنما كان على ورق الشجر، وكالسلوى.

ومن أعجب العجب: أن مؤلف الإنجيل قال كلامًا عن المسيح في شأن محمد رسول الله لا يختلف اثنان في دلالته عليه ﷺ، وقد استدل المسيح فيه عليه ﷺ بنص في الإصحاح الرابع والخمسين من سفر إشعياء.

ويقول المعترض: ولعلَّ قصة القرآن عن نزول مائدة من السماء نشأت عن عدم فهم بعض فقرات الإنجيل الواردة في متى ٢٦، ومرقس ٢٤، ولوقا ٢٢، ويوحنا ١٣. وغرضه من قوله هذا أن لا يعرف المسلمون موضع المائدة من الأناجيل؛ لأنها بصدد كلام من المسيح في شأن محمد رسول الله ﷺ، وموضعها الإصحاح السادس من إنجيل يوحنا[1].

ثانيًا. الأناجيل تثبت طلب الحواريين آية من السماء وهي المائدة:

المائدة لا تكون مائدة إلا إذا كان عليها طعام، فإن لم يكن عليها طعام، فهي طاولة، وخوان، تقول: ماد؛ أي: أطعم وأعطى، والمائدة تميد ما عليها؛ أي: تعرض ما عليها من أنواع الطعام، ويسمى الطعام أيضًا مائدة تجاوزًا؛ لأنه يؤكل على المائدة، وعن مائدة عيسى يأتي في إنجيل متى: "وأما يسوع فدعا تلاميذه وقال: «إني أشفق على الجمع، لأن الآن لهم ثلاثة أيام يمكثون معي وليس لهم ما يأكلون. ولستُ أريد أن أصرفهم صائمين لئلَّا يُخَوِّرُوا[2] في الطريق» فقال له تلاميذه: «من أين لنا في البَرِّيَّة خُبز بهذا المقدار، حتى يُشْبِع جمعًا هذا عدده؟» فقال لهم يسوع: «كم عندكم من الخبز؟» فقالوا: «سبعة وقليل من صغار السمك». فأمر الجموع أن يَتَّكِئُوا على الأرض، وأخذ السبع خُبْزَات والسمك، وشكر وكَسَّر وأعطى تلاميذه، والتلاميذ أعطوا الجمع. فأكل الجميع وشبعوا. ثم رفعوا ما فضل من الكِسَر سبعة سلال مملوءة، والآكلون كانوا أربعة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد. ثم صرف الجموع وصعد إلى السفينة وجاء إلى تُخُوم مَجْدَل". (متى ١٥: ٣٢ - ٣٩).

وفي إنجيل لوقا يشترط المسيح للمائدة، فيقول: "إذا صنعت غداء أو عشاء فلا تَدْعُ أصدقاءك ولا إخوتك ولا أقرباءك ولا الجيران الأغنياء، لئلا يدعوك هم

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٥١١، ٥١٢.
٢. يُخَوِّروا: يضعفوا ويسقطوا.

أيضًا، فتكون لك مكافاة. بل إذا صنعت ضيافة فادْعُ: المساكين، الجُدْع[1]، العُرْج، العُمْي، فيكون لك الطوبى إذ ليس لهم حتى يكافوك، لأنك تكافى في قيامة الأبرار". (لوقا ١٤: ١٢ ـ ١٤)[2].

وفي إنجيل يوحنا: "وكان الفِصْح، عيد اليهود، قريبًا. فرفع يسوع عينيه ونظر أنَّ جمعًا كثيرًا مُقْبِل إليه، فقال لِفِيلُبُّس: «من أين نبتاع خبزًا ليأكل هؤلاء؟» وإنما قال هذا ليمتحنه، لأنه هو علم ما هو مُزْمِع أن يفعل. أجابه فِيلُبُّس: «لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئًا يسيرًا». قال له واحد من تلاميذه، وهو أَنْدَراوُس أخو سمعان بطرس: «هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان، ولكن ما هذا لمثل هؤلاء؟» فقال يسوع: «اجعلوا الناس يَتَّكِئون». وكان في المكان عشب كثير، فاتَّكأ الرجال وعددهم نحو خمسة آلاف. وأخذ يسوع الأرغفة وشكر، ووزع على التلاميذ، والتلاميذ أعطوا المُتَّكِئين. وكذلك من السمكتين بقدر ما شاءوا. فلما شبعوا، قال لتلاميذه: «اجمعوا الكِسَر الفاضلة لكي لا يضيع شيء». فجمعوا وملئوا اثنتي عشرة قُفَّة من الكِسر، من خمسة أرغفة الشعير، التي فضلت عن الآكلين. فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا: إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم"! (يوحنا ٦: ٤ ـ ١٤)[3].

ومما يستفاد من هذه الروايات أنهم كانوا صيامًا، وأن المدعوين هم الفقراء والمحتاجون، والدرس المستفاد هو ما قاله الناس: "هذا حقًّا هو النبي الآتي إلى العالم".

ثالثًا. تفاصيل قصة المائدة التي نزلت من السماء في القرآن:

وأما رواية القرآن فتأتي في سورة المائدة، وتُسمَّى السورة باسم هذا الحدث الفريد، والمعجزة الخارقة، فلما آمن الحواريون وأشهدوا عيسى بإسلامهم، وكانوا في صيام، سألوه أن يدعوهم إلى طعام من عند الله، قالوا:

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ (المائدة).

وقولهم: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ ليس شكًّا في الله، ولكن بمعنى: هل يطيعك ربك إن سألته أن ينزِّل عليك مائدة؟ وما كان ينبغي أن يسألوه هذا السؤال؛ إنما لأنهم كانوا في ابتداء استنصارهم، ولذلك ردَّ عليهم عيسى: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ لـمَّا سمع غلطهم وتجويزهم على الله ما لا يجوز؛ لأنهم كحواريين خُلصاؤه وأنصاره، كما قال: ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٥٢).

فكان ينبغي عليهم وهم الذين بلغهم من نبيهم ما يجب لله وما لا يجب، ألا يقولوا ما قالوا، كقول بعضهم

١. الجُدْع: جمع أجدع، وهو من قُطِعَت أنفه أو طرف من أطرافه.

٢. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد العظيم الحفني، مرجع سابق، ج١، ص١١٣٤.

٣. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مرجع سابق، ج١، ص١١٣٤، ١١٣٥.

لمّا سألوا النبي ﷺ أن يجعل لهم ذات أنْواط[1]، كما كان للمشركين، وهي شجرة كان المشركون يُتبارَكون بها ويَنُوطون[2] بها سلاحهم، ويعكفون حولها، فسألوه أن يجعل لهم مثلها، وكذلك فعل قوم موسى لـمّا قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ (الأعراف: ١٣٨).

ولم يكن الحواريون يتعللون لعيسى، فهم مؤمنون عارفون عالمون، وإنما المعنى كما قد تسأل عزيزًا لك معروفًا، فتقول له: هل تستطيع أن تفعل هذا؟ وأنت تعلم أنه يستطيع، والحواريون علموا ذلك علم دلالة وخبر ونظر، فأرادوا أن يكون علمهم علم معاينة، كما قال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

وكان إبراهيم يعلم علم خبر ونظر، فأراد المعاينة التي لا يدخلها الريب والشك، ومثل ذلك قاله الحواريون: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ (المائدة: ١١٣) تمامًا، كما قال إبراهيم: ﴿وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ (البقرة: ٢٦٠).

ثم إن قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ تلطف في السؤال، وأدب مع الله تعالى، وكان رد عيسى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ (المائدة) لأنه لم يستبشر خيرًا بكثرة أسئلتهم واقتراحاتهم لآيات الله؛ لأنه تعالى لا يفعل إلا الأصلح لعباده، فلما نهاهم بينوا سبب سؤالهم، قالوا: "أن نأكل منها" فقد كانوا جوعى، وكما جاء بقصتي الإنجيل، كانوا بالآلاف، ولهم ثلاثة أيام لم يذوقوا طعامًا، وكان من ساروا خلفه من أصحابه يدركون حاجة الناس، وأن أكثرهم مرضى وزمنى وعميان، ولم يكن معهم نفقة لفقرهم، فأراد الحواريون سدَّ جَوْعَة الناس، ولتطمئن قلوبهم أنهم صاروا شعب الله، وأنه اجتباهم واختارهم لدعوته، وأن دعوتهم مستجابة عنده، وليستيقنوا قدرة عيسى، وليعلموا أنه قد صدقهم، وليشهدوا لله بالوحدانية ولعيسى بالرسالة والنبوة، واقتنع عيسى فدعا ربه، ونزلت المائدة، قيل كان نزولها يوم أحد وكانت عيدًا لأولهم وآخرهم، فَكَفَت أولهم وآخرهم، وكانت آية منه تعالى ودلالة وحجة.

واشترط عليهم أن يكون إيمانهم بعدها كاملًا، فإن شهدوا المائدة وعاينوها، وعرفوا المعجزة ولمسوها ونظروها، فما لهم حجة بعدها أن يداخلهم الريب، وإلا فمن يشك بعدها فله العذاب الشديد، قيل: له الدرك الأسفل من جهنم، وفيه العذاب الشديد، وُعِدَ به ثلاثة: المنافقون، وآل فرعون، ثم المكذبون لعيسى بعد نزول المائدة[3].

ونزول المائدة وطلب عيسى عليه السلام من ربه قائلًا: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (المائدة)، دليل على بشرية عيسى عليه السلام وأنه عبد الله ورسوله، قال ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ (المائدة)، كأن عيسى عليه السلام قد قال للحواريين: عليكم بتقوى الله ﷻ فلا تسألوه هذه الآية؛ لأنكم ما دمتم أعلنتم

---

١. الأَنْواط: العَلائِق.
٢. يَنُوطون: يُعَلِّقون.
٣. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مرجع سابق، ج١، ص ١١٣٦، ١١٣٥ بتصرف يسير.

الإيمان، فأنتم لا تقترحون على الله آية لإثبات صدق رسوله، وحسبكم ما أعطاه الله لي من آيات لصدق رسالتي، إذ عليكم أن تلزموا أنفسكم بالمنهج الذي أعلنتم إيمانكم به، ولكن الحواريين أجابوا: ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (المائدة).

وكأنهم أرادوا أن يتشبهوا بإبراهيم عليه السلام سأل الله تعالى عن كيفية إحياء الموتى، ليطمئن قلبه، لقد آمنوا بعلم اليقين ويريدون الآن الانتقال إلى عين اليقين، لذلك سألوا عن المائدة التي صارت من بعد ذلك حقيقة واضحة. وهكذا نعرف أن هناك فارقًا بين أن يؤمن الإنسان لذاته، وبين أن يشهد بالإيمان عن غيره.

ويقول الحق عن استجابة عيسى لطلب الحواريين: ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ (المائدة)، وقوله الحق: ﴿ مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ لا يعني أن هناك موائد منصوبة في الأرض، ذلك أن الكون كله مائدة فيها من الخير الكثير، والإنسان منا عندما يكد ويكدح، ويستخرج من الأرض الزرع، ويرعى أنعامه، فإنه يأتي إلى زوجه وأولاده بمخزون قد يكفيهم لمدة عام من دقيق وأرز وعسل وسكر وزيت. وقد تأتي الزوجة بشيء من الطير فتذبحه وتطهو معه الخضراوات.

إن قول عيسى عليه السلام هو قول ممتلئ بكل المعاني القيّمة، إنه يطلب أن تكون المائدة عيدًا يفرح له الأولون والآخرون، وآية من الحق عز وجل، ويعترف بفضل ربوبية الرَّازق، ويعترف بامتنان أن الحق عز وجل خير الرازقين، والمقارنة بين قول الحواريين، وقول عيسى تدلنا على الفارق بين إيمان المُبلِّغ عن الله وهو عيسى وإيمان الذين تلقوا البلاغ عنه وهم الحواريون، إن إيمان عيسى عليه السلام هو الإيمان القوي الناضج، وإيمان الحواريين إيمان لا يرقى لإيمان عيسى عليه السلام، ولقد كانت قوة إيمان عيسى عليه السلام نابعة من أنّه يتلقى عن الله عز وجل مباشرة، صحيح أن الحواريين آمنوا بالبلاغ عن الله عز وجل وتم ذلك بواسطة عبده ورسوله عيسى عليه السلام ولذلك يعلو الرسول عن المؤمنين ببلاغته؛ ولذلك صحح عيسى عليه السلام طلبهم من الله عز وجل وهو يدعو ربه، إنه رسول مصطفى مجتبى، لذلك يضع الأمور في نِصابها[1] فيقول:

﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ ﴾ وكلمة: ﴿ ٱللَّهُمَّ ﴾ في الأصل هي "يا الله" وعندما كثر النداء، بها حذفنا منها حرف النداء، وعوضنا عنه بميم في آخرها فصارت ﴿ ٱللَّهُمَّ ﴾، وكأن هذا اللفظ تتهيأ به نفس الإنسان لمناجاة الله عز وجل في تقديس وثقة في أن الحق يستجيب لعبده، وهو نداء يقوم على حب العبد لمولاه، فلا يوسط بينه وبين اسم ربه أي واسطة، حتى وإن كانت هذه الواسطة حرفًا من حروف النداء، ولنا أن نلحظ أن عيسى عليه السلام قدَّم كلام الله بصفة الألوهية، إنه نبي مرسل يعلم تجليات صفة الله عز وجل، وهي تجليات عبادة من عابد إلى معبود، أما تجليات كلمة ﴿ رَبَّنَآ ﴾ فهي تجليات مربوب وربّ، إنه يعلم الفارق بين عطاء الألوهية للخلق، وعطاء الربوبية، إن عطاء الألوهية تكليف من معبود إلى عابد، والعابد يطيع المعبود فيما

---

١. النِّصاب: المكان الصحيح.

يأمر به وفيما ينهى عنه.

أما عطاء الربوبية فهو ﷻ المتولي للتربية، التربية للأجسام والعقول والمواهب، والقلوب، والرب هو رب كل شيء، رب للمؤمن والكافر، والرب يتولى تربية الكافر رغم إنكاره للألوهية، إنه يربي الماديات التي تقيم حياته، ولذلك نجد الحق يقول عن هؤلاء الكافرين ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (لقمان).

ويجيب الحق دعاء عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ (المائدة)، وهو سبحانه أراد أن يعطينا معنى التوحيد فقال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، وذلك أن المائدة ستنزل من السماء، ولا يقدر على ذلك إلا الله ﷻ، ثم يقول الحق تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ (المائدة)[1].

وهكذا أنزل الله المائدة على الحواريين، ثم وعدهم أن من يكفر بعد ذلك فإنه سوف يعذبه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، فكيف بهؤلاء ينكرون هذه المعجزة لعيسى عليه السلام وهم يعلمون حقيقتها من إنجيلهم كما وضحنا؟!

الخلاصة:

- ما جاء في القرآن الكريم عن قصة المائدة ليس مقتبسًا من الكتب السابقة، ولو كان مقتبسًا منها لنقل خرافاتهم كما هي، ولوجدنا الخرافات التي لا تتفق مع العقل في القرآن وهذا لم يحدث، بل إن القرآن قد صحح عقيدة أصحاب الإنجيل وعلومهم ومعارفهم وأخطاءهم التي وقعوا فيها فكيف يكون مقتبسًا منها ثم يصححها؟!
- الدارس للأناجيل والتوراة، وخصوصًا في إنجيل يوحنا، يرى أن الحواريين قد طلبوا من المسيح مائدة من السماء. وهذا موجود في إنجيل متى الإصحاح الخامس عشر، وإنجيل لوقا الإصحاح الرابع عشر فكيف ينكر ما جاء في إنجيلهم؟! وما الهدف من إنكار هذا الحادث لهذا النبي الكريم؟!
- حديث القرآن عن المائدة عظيم، فقد أنزل الله سورة باسمها، وهذا يدل على أنها حدث فريد ومعجزة خارقة للمسيح عليه السلام كما حدث للأنبياء - عليهم السلام - وهذا الحديث يروي أن الحواريين كانوا في صيام، وسألوا عيسى عليه السلام أن يدعوهم إلى طعام من عند الله ﷻ، فقالوا: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ (المائدة)، وهذا دليل على حدوث المعجزة وأنهم لمسوها ولا حجة لهم بعدها، فمن كان في شك بعدها فله عذاب شديد، وهذا يدل على بشرية عيسى عليه السلام، حيث إنه دعا الله قائلًا: ﴿رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (المائدة) فأرجع الإرادة والقدرة والأمر لله الخالق القادر وحده.

---

١. قصص الأنبياء، الشيخ متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٤٥١: ٤٥٥ بتصرف.

الشبهة السادسة والعشرون

الزعم أن القرآن يناقض التوراة في روايته أحداثًا أسطورية في قصة يوسف عليه السلام (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن رواية القرآن لقصة سيدنا يوسف عليه السلام تتضمن أحداثًا أسطورية لم ترد في التوراة، وأن صورة يوسف في التوراة تفضُل صورته في القرآن، ويتساءلون كيف يدعي محمد أن ربه قصَّ عليه أحسن القصص، والقرآن يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ (الشورى: ٥١).

وجوه إبطال الشبهة:

١) ليس كل ما لم يرد في التوراة غير حقيقي، وليس كل ما ورد في التوراة حقيقيًّا، فالتوراة التي بين أيديهم الآن ما هي إلا ضرب من الافتراءات.

٢) إن محاولة فرض مقاييس القصة الفنية على القصص القرآني محاولة غير سديدة وغير جائزة، وأن أهداف القصص القرآني هي: إظهار الحق والصدق، بخلاف القصص الفنية، فإن هدفها استلهام الخيال لإثارة اهتمام القارئ، وهذا غير حادث في القصص القرآني.

٣) قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ (الشورى: ٥١) هذه الآية تقرر أنواع الوحي بالنسبة للرسل جميعًا، فهي ليست خاصة بالنبي ﷺ وحده.

التفصيل:

أولا. واقعية كل ما جاء في القرآن عن قصة يوسف:

إن الزعم أن قصة يوسف عليه السلام تضمنت تفاصيل أسطورية زعم لا دليل عليه، وعدم وجود هذه التفاصيل في كتبهم لا يعني أنها أسطورية، فكتبهم وما تضمنته من التفاصيل المخالفة للواقع أولى بأن تُوصَف بالأساطير، بل إن التفاصيل التي جاءت في قصة يوسف في القرآن الكريم لهي الحق والصدق، وجاءت موافقة للواقع والتاريخ، بخلاف تفاصيل التوراة في قصة يوسف التي تعارضت مع الواقع، والتي صورت يوسف أسوأ صورة.

١. تذكر التوراة أن يوسف كان في مصر فرعون، وهذا يخالف الواقع؛ إذ ثبت أن الذي كان يحكم مصر في عهد يوسف هم الهكسوس، وليس المصريين الفراعنة، والقرآن الكريم تجنب هذا الخطأ، فلم يذكر فرعون، ولكنه ذكر "الملك".

٢. ذكرت التوراة أن امرأة مولاه أمسكته بثوبه قائلة: "اضطجع معي. فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج. وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج، أنها نادت أهل بيتها، وكلَّمتهم قائلة: «انظروا! قد جاء إلينا برجل عِبْراني لِيُداعبنا! دخل إلي ليضطجع معي، فصرختُ بصوت عظيم. وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت، أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج إلى خارج». فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيِّدُه إلى بيته". (التكوين ٣٩: ١٢ ـ ١٦).

وكأن يوسف في هذه التلفيقات المكشوفة يثبت

(*) الشبهات المزعومة حول القرآن الكريم من دائرتي المعارف الإسلامية والبريطانية، د. محمد السعيد جمال الدين.

الجريمة على نفسه، ويقدم بنفسه الحجة عل أنه الجاني، وأن امرأة مولاه هي البريئة، هل هذا أيها العقلاء يتفق مع الواقع؟

وأين هذا من قول الله ﷻ: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ (يوسف).

إن الذي يتفق مع واقع الأمر أن يحدث تجاذب وتدافع وأن يفر يوسف هاربًا إلى الباب لينجو من هذه الجريمة، بعد أن فزع منها قائلًا: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (يوسف)، وأن تسبق هي إلى الباب إصرارًا منها على تنفيذ ما تريد، وأن ينتج عن تسابقهما إلى الباب - كلٌّ حسبما يريد - جذب ثوبه وتقطيعه.

هذه تفاصيل القصة في سورة يوسف من القرآن تعلن عن الحق والصدق، الذي جاء به النبي ﷺ، فهي تؤيد بكل آية من آياتها صدق النبي ﷺ.

صورة يوسف في التوراة:

صورة يوسف عليه السلام في التوراة بالنسبة لقارئ مصري قاتمة شديدة السواد، بخلاف صورته في القرآن، كاختلاف الأسود والأبيض، وأخلاقه في أرض جاسان من مصر شديدة الغرابة، فقيل إنه بعد تفسير حلم فرعون عيّنه واليًا على البلد، حتى إنه نزع خاتم الملك الذي كان في إصبعه وجعله في إصبع يوسف، وأركبه مركبته الثانية، وأمر الناس أن تركع له، وأقامه على كل الأرض، وسماه "مُخلِّص العالم" وهذا الاسم دليل على أن الفرعون لم يكن مصريًّا، وكان بالأَحْرَى آشوريًّا؛ وذلك أن مصطلح "المخلِّص" أو "مخلص العالم" ليس من المصطلحات المصرية، وهو مصطلح آسيوي خالص، ويكثر عند الآشوريين والعبرانيين بخاصة، فملوك آشور اسمهم "المخلصون"، والمسيح في الثقافة العبرية هو المخلص: "أنه وُلِد لكم اليوم في مدينة داود مُخلِّص هو المسيح الرب". (لوقا ٢: ١١).

ولا يبدو يوسف عادلًا في أحكامه، فقد اتهم إخوته في مصر بأنهم جواسيس جاءوا ليتجسسوا ثغور الأرض، وحبسهم ثلاثة أيام، ودبر لهم تُهمة سرقة جامه الذي يشرب به "فتذكر يوسف الأحلام التي حلم عنهم، وقال لهم: «جواسيس أنتم! لتروا عورة الأرض جئتم» فقالوا له: «لا يا سيدي، بل عبيدك جاءوا ليشتروا طعامًا. نحن جميعنا بنو رجل واحد. نحن أُمناء، ليس عبيدك جواسيس». فقال لهم: «كلَّا! بل لتروا عورة الأرض جئتم». فقالوا: «عبيدك اثنا عشر أخًا. نحن بنو رجل واحد في أرض كنعان. وهوذا الصغير عند أبينا اليوم، والواحد مفقود». فقال لهم يوسف: «ذلك ما كلمتكم به قائلًا: جواسيس أنتم! بهذا تمتحنون. وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلَّا بمجيء أخيكم الصغير إلى هنا. أرسلوا منكم واحدا ليجيء بأخيكم، وأنتم تُحبسون، فيمتحن كلامكم هل عندكم صدق. وإلا فوحياة فرعون إنكم لجواسيس!». فجمعهم إلى حبس ثلاثة أيام". (التكوين ٤٢: ٩ - ١٧).

وكان دائم التذكير لإخوته بمنصبه، وكان يجامل إخوته على حساب الناس، فأعطاهم خير أرض مصر:

"وسُمِع الخبر في بيت فرعون، وقيل: «جاء إخوة يوسف». فحَسُن في عَيْنَي فرعون وفي عيون عبيده. فقال فرعون ليوسف: «قل لإخوتك: افعلوا هذا: حمِّلوا دوابكم وانطلقوا، اذهبوا إلى أرض كنعان. وخذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إلي، فأُعْطِيَكم خيرات أرض مصر وتأكلوا دَسَم الأرض. فأنت قد أُمِرْتَ، افعلوا هذا: خُذُوا لكم من أرض مصر عَجَلات لأولادكم ونسائكم، واحملوا أباكم وتعالوا. ولا تحزن عيونكم على أثاثكم، لأن خيرات جميع أرض مصر لكم»". (التكوين ٤٥: ١٦ـ ٢٠).

وهكذا أجرى لهم الطعام على حسب أعدادهم، ولم يكن خبز في جميع الأرض؛ لأن الجوع اشتد بالناس جدًّا حتى جهدوا، وجمع يوسف كل الفضة من الناس بما يبيعهم من الطعام، فلما نفدت الفضة، اشترى منهم كل ماشيتهم بالطعام، ثم اشترى جميع الأرض، وباع الناس له حقولهم، ثم باعوا له أنفسهم، فسخَّرهم على الأرض نظير أن يستولي على خُمس غَلَّتها، فيكون بذلك أول من أدخل في مصر النُّظم الاحتكارية، ونظام السُّخْرَة، وآليات ونظم السوق والإقطاع، ولم ينجُ من تخطيطه سوى أراضي الكَهَنة؛ لأنها كانت مِلْكِيَّة عامة، وذلك دليل على أن الملكية الفردية شر وسرقة، وأن الملكية العامة هي الحل لمشاكل الأرض.

ومنذ جاء يوسف صارت ضريبة الأطيان الزراعية الخمس، ومن الواضح أنه أعفى أهلها منها؛ لأنه ابتداءً أَقْطَعَ أهله أرضًا لم تكن لهم أصلًا، وعينهم في الوظائف المختلفة ليحكم قبضته بهم على البلد جميعها. ومن الغريب أن يوسف وهو المذكور في القرآن بأنه نبي كان يشرب الخمر طبقًا لرواية التوراة، فلما التقى إخوته واحتفل بهم ظل يشرب معهم حتى سكروا: "وقال: «قدِّموا طعامًا». فقدموا له وحده، ولهم وحدهم، وللمصريين الآكلين عنده وحدهم، لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعامًا مع العبرانيين، لأنه رجس عند المصريين. فجلسوا قُدَّامه: البِكْر بحسب بَكُورِيَّته، والصغير بحسب صغره، فبُهِتَ الرجال بعضهم إلى بعض. ورفع حِصَصًا من قُدَّامه إليهم، فكانت حِصَّة بنيامين أكثر من حصص جميعهم خمسة أضعاف. وشربوا وَرَوُوا معه". (التكوين ٤٣: ٣١ـ ٣٤)[1].

ثانيًا. القصص القرآني والقصص الفني:

إن محاولة فرض مقاييس القصة الفنية على القصص القرآني محاولة غير سديدة وغير جائزة؛ لأن القصص القرآني شيء، والقصص الفنية شيء آخر، فهذه لا تتقيد بالحقائق التاريخية، فلكاتب القصة الفنية مطلق الحرية في استلهام الخيال والأساطير، وله أن يثير اهتمام قارئه بما يشاء، وبما يملكه من قدرات أدبية على التحليق في الخيال أو استدعاء الحوادث الأسطورية أو غير ذلك، فلا بأس عليه إذا لم يتقيد فيما يكتبه بالحقائق والوقائع الثابتة، ولا بأس عليه إذا أسند إلى الشخصيات التاريخية كلامًا لم تقله، أو أفعالًا منه ولم تصدر عنه، وكل ذلك وغيره من ظواهر الحرية الفنية جائز في القصص الفنية.

أما القصة في القرآن الكريم، فإنها حقيقة ليست من الخيال والأساطير، ولا الخيال والأساطير منها، فكل ما

١. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مرجع سابق، ج١، ص٩٥٤ بتصرف يسير.

ورد في القرآن من قصص، إنما هو حقائق لا مراء فيها، وصدق لا يستطيع أحد من الناس قاطبة أن يجد فيه مطعنًا؛ لأن القرآن الكريم كتاب أنزله الله بالحق، وبالحق نزل؛ لأن القرآن الكريم لو اتسع لأية شبهة من شبهات الباطل، لانسحب ذلك على سائر ما يحمله من العقيدة والشريعة، ولما كان هناك مفهوم صحيح سَوِي لنزوله بالحق والصدق.

وما دام القرآن الكريم كتابًا أنزله الله بالحق، وبالحق نزل، فإنه بهذه السِّمَة يتنافى هو والمعنى المعروف للأساطير وخصائصها، فهما ضِدَّان لا يمكن اجتماعهما بحال من الأحوال في القرآن الكريم، فإن الأسطورة حكاية تعيش منذ القدم، تقاليد قبيلة، أو جنس، أو أمة، يتوارثها خلف عن سلف، وتدور حول الآلهة وأنصاف الآلهة والأحداث الخارقة.. والأسطورة تنتمي إلى أشكال الحضارة القديمة، وترجع إلى مرحلة سابقة على العلم والفلسفة، فهي تُفَسِّر بمنطق العقل البدائي ظواهر الكون والطبيعة والإنسان[1].

ومما سبق يتبين لنا أن الزعم بأن قصة يوسف عليه السلام أو أن القرآن الكريم تضمن أحداثًا أسطورية زعم لا دليل عليه.

إن القرآن الكريم ليس مصدرًا للتاريخ الإسلامي فحسب، بل هو أيضًا مصدر من أعظم المصادر للتاريخ العالمي، إذ نرى القرآن الكريم لا يتحدث عن تاريخ الماضين من الأنبياء السابقين وأقوامهم منذ خَلْق آدم عليه السلام إلى مبعث محمد ﷺ فحسب، وإنما يُعْنَى أيضًا بأحداث تاريخية لا ترتبط بتاريخ الأنبياء السابقين، مثل عنايته بأول حادث قتل في تاريخ البشرية، وقصة سبأ، وسَيْل العَرِم، وقصة أهل الكهف، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الجنة الذين أقسموا لَيَصْرِمُنَّها[2] مُصْبِحين، ومثل ما ورد من إشارات عن تاريخ المصريين من سياق قصة يوسف... كل ذلك ونحوه من أحداث التاريخ قصَّه القرآن الكريم في صدق تام وواقعية ليس لها مثيل؛ لتكون عبرة وعظة يتأسى بها الناس في كل زمان ومكان.

ولقد بلغ القرآن الكريم غاية الإعجاز في إيراد وعرض الأحداث التاريخية، وثمة شواهد عديدة تثبت ذلك، وحسبنا أن نذكر منها في هذا المقام أنه استقل بمنهج خاص في عرض الأحداث التاريخية في وضوح وإبانة تتفق مع وصف القرآن الكريم بالكتاب المبين، ومع وصف آياته بالآيات البينات.

إن القرآن الكريم وثيقة تاريخية من أعظم الوثائق؛ لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

الذي نخرج به من هذا العرض - أن القصص القرآني يخلو تمام الخلو من سائر ما زعمه المستشرقون، فليس فيه - إطلاقًا - مثقال ذرة من أخطاء التاريخ[3] ®.

1. أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، عبد الجواد محمد المحص، الدار المصرية، القاهرة، ص١٣٠، ١٣١.

2. لَيَصْرِمُنَّها: يقطعون ثِمارها.

3. أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، عبد الجواد محمد المحص، مرجع سابق، ص١١٢: ١١٤ بتصرف.

® في **"اختلاف القصص القرآني عن القصص الأدبي في الطبيعة والهدف"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة التاسعة والعشرين، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

ثالثًا. قوله ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ (الشورى: ٥١):

أما الزعم بأن آية: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ تفيد أن النبي ﷺ كلمه الله تعالى دون وسيط، فهو زعم باطل لا دليل عليه، ولا تؤيده أقوال المفسرين والعلماء، فليست الآية الكريمة خاصة بالنبي ﷺ، بل تقرر أنواع الوحي بالنسبة لجميع الأنبياء والرسل، وأبرز من تحقق فيهم كلام الله من وراء حجاب هو موسى عليه السلام، وكلام الله ﷻ لأنبيائه من وراء حجاب لتنزهه عن أن يرى بالأبصار في الدنيا، فليست هناك شبهة في هذه الآية أو غيرها، ولكنه ضيق الأفق عند هؤلاء القوم وجهلهم الفاضح، بحقيقة الأمور.

إن هذه الآية الكريمة تدل على أن تكليم الله ﷻ للبشر وقع على ثلاثة أوجه:

الأول: عن طريق الوحي، وهو الإعلام في خفاء وسرعة، عن طريق الإلقاء في القلب يقظه أو منامًا، فهو يشمل الإلهام والرؤيا المنامية.

الثاني: عن طريق الإسماع من وراء حجاب، أي: حاجز، وذلك بأن يسمع النبي كلامًا دون أن يرى من يكلمه، كما حدث لموسى عليه السلام عندما كلّمه ربه ﷻ، وهذا هو المقصود من قوله ﷻ: ﴿ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾.

الثالث: عن طريق إرسال ملك، وظيفته أن يبلغ الرسول ما أمره الله تعالى بتبليغه له من وحي، وهو المقصود من قول الله تعالى: ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾[1].

ومن هنا ثبت أن هذه الأنواع الثلاثة للوحي هي الكلام الذي يخاطب به الله تعالى عباده المصطَفَيْنَ، وليست خاصة بالنبي ﷺ، بل هي لجميع الرسل.

وأما قوله ﷻ: ﴿ أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ فذلك إن كان قد حدث مع محمد ﷺ، فهو كلام الله لنبيه عن طريق الإسماع من وراء حجاب، أي حاجز، فالمُكَلَّم لا يرى من يكلمه، وهذا لم يحدث مع النبي ﷺ إلا ليلة الإسراء والمعراج، وسورة يوسف كانت وحيًا من الله عن طريق إرسال جبريل عليه السلام، ولم تكن قصًّا من الله لرسوله مباشرة، فشيء من الفهم والتفكر والاعتبار!

الخلاصة:

- الزعم بأسطورية ما جاء عن يوسف عليه السلام في القرآن باطل لا دليل عليه؛ وذلك لأن ما ورد في قصة يوسف في القرآن الكريم لهو الحق والصدق، وصدق الله حيث يقول: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ ﴾ (يوسف) فكانت أحسن القصص لما اشتملت عليه من عبر متعددة، ومواعظ جليلة.
- إن الناظر إلى ما ورد في القرآن وما ورد في

---

١. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، مرجع سابق، ج١٣، ص٥٨، ٥٩. وانظر أيضًا: التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، ج١٢، ص١٤٠: ١٤٥. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٦، ص٥٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٣١٦٩، ٣١٧٠.

التوراة؛ يجد أن ما ورد في التوراة لهو بحق الأساطير، ومن ذلك تصوير يوسف عليه السلام في صورة سيئة للغاية، أما القرآن فقد أعطاه صورته الحقيقية كنبي عصمه الله وصرفه عن الفحشاء والمنكر.

- القصص القرآني يغاير وبشكل كبير القصص الفني المؤلَّف؛ لأن القصص القرآني لا يأتي إلا بالحق والصدق، بعكس القصص المؤلف الذي يستعمل فيه الكاتب خيالاته، ويحلق في كتاباته بكثير من المزايدات المبالَغ فيها، وكل هدفه هو جذب القارئ لا الوصول إلى الحق أو الحقيقة.

- أما بالنسبة إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ (الشورى: ٥١)، فإن هذه الآية تقرر أنواع الوحي بالنسبة لجميع الرسل، فهي ليست خاصة بالنبي ﷺ ولذلك فإن موسى عليه السلام كلم ربه بغير واسطة ولكن من وراء حجاب، أي: حاجز، بحيث لا يرى المتكلِّم من يكلمه.

الشبهة السابعة والعشرون

الزعم أن الإسلام يعترف بالشرائع الأخرى على صورها المحرَّفة ويدعو لاتباعها (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن الإسلام حين دعا إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر قد اعترف بالشرائع الأخرى على صورها المحرَّفة، ودعا لاتباعها، وأنه قد أقر الكتب الأخرى على صورتها المحرفة، ودعا لتقديسها، وهم بهذا يسوون بين الإسلام وهذه الأديان، مستدلين على ذلك بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (البقرة).

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإسلام اعترف بالآخر، بينما أنكر الآخرون غيرهم.

٢) الديانات السابقة أصابها التحريف، والتبديل، فكيف يُطالب الناس باتباعها.

٣) الكتب السماوية السابقة - قبل التحريف - بشرت بمحمد ﷺ وأوجبت اتباعه.

٤) كانت الحاجة إلى الرسالة الخاتمة العالمية حاجة ضرورية مُلِحَّة.

التفصيل:

أولا. الاعتراف بوجود الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام:

هل هذا الأمر قائم بين هذه الأديان الثلاثة على قدم المساواة؟

وهل يُجِلُّ كلٌّ منها نبي الآخر، ويحترم رسالته، وكتابه المقدس؟! أم أنَّ في الأمر تفاوتًا، وتمايزًا بينها في هذا الشأن؟

(*) الإسلام والغرب، دوم لاندو، مرجع سابق. الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، أبو الأعلى المودودي، تعريب: خليل أحمد الحامدي، دار القلم، الكويت، ط٤، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

يقول الشيخ محمد الغزالي: يرى اليهود أن موسى نبي الله وأن بني إسرائيل شعبه المختار، وأن عيسى ومحمدًا كليهما رجلان دَعِيَّان ليست لهما رسالة، وأن أتباعهما قطعان من المضللين لا يقام لأديانهم وزن، ولا يمنحون أية حرمة. والنصارى - في نظرهم - مخدوعون في لقيط حملت به أمه سفاحًا، والمسلمون - في نظرهم - مخدوعون في أعرابي جاء من الصحراء لا يَعقِلُ شيئًا.

والمسيحيون، وإن اعترفوا بموسى وتَوْراته، إلا أنهم ناقمون على اليهود وافترائهم على عيسى وأمه، ولذلك سنوا في معاملتهم قوانين الإذلال والاستئصال، وكما نقموا على اليهود موقفهم من المسيح، فهم كذلك ناقمون على المسلمين؛ لأنهم يرون الإسلام ديانة ملفقة، جاء بها من عند نفسه رجل كاذب في دعواه النبوة، والدين الذي نسخ ما قبله، وأنكر ما بعده هو المسيحية، التي يجب أن تنفرد وحدها بالحياة والسيادة.

أمَّا المسلمون ففي دينهم قاسم مشترك بين الديانات كلها، فهم يؤمنون بموسى ويوقرونه ويعتبرون التهجم على مكانته كفرًا بالإسلام. وهم بذلك يؤمنون بعيسى، ويكرمون مولده وينزهون نسبته، ويرون الطعن في عفاف أمه أو شرف ابنها كفرًا بالإسلام.

وهم يضمون إلى إيمانهم بموسى وتوراته، وعيسى وإنجيله، إيمانًا جديدًا بمحمد وقرآنه، على أساس أن النبوة الأخيرة جاءت تصديقًا لما قبلها، ومحوًا للفوارق والخلافات التي مزقت شمل العالم أجمع: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (النحل). فالإسلام هو يهودية موسى ونصرانية عيسى معًا، وهداية مَنْ قبلهما من رسل الله الأكرمين جميعًا: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (البقرة).

ومن هذا الشرح تجد أن الانكماش والتعصب والاتهام والتهجم ليس من طبيعة الإسلام وأهله، ولكنه طبيعة من يرون أن يؤمنوا بموسى فقط، ويتعبدوا لله بالطعن في عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ، أو يريدون الإيمان بعيسى فقط، ويعتبرون من جاء بعده دجالًا يحاربه النصارى بالسيف إن كانوا أكثرية، ويحاربونه بالدس والمؤامرات إن كانوا قلة. ومن هذا الشرح ترى لماذا اتسع صدر الإسلام للأديان الأخرى - فهو يعطيها حق الحياة معه، في الوقت الذي ضَنَّ فيه المسيحيون بحق الحياة، لا على المسلمين فحسب، بل على المذاهب المسيحية الأخرى.

ومن هذا الشرح تعرف السر في جحود صنيعنا الذي أَسْدَيْناه[1] طوال أربعة عشر قرنًا. إن إخواننا المسلمين الذين أوقعهم سوءُ الحظ بين جماهير المسيحيين في روسيا ويوغوسلافيا وأسبانيا وجنوب إيطاليا... إلخ؛ قد هلكوا جميعًا، أما الأقليات المسيحية في ربوعنا الفسيحة، فقد اغتنت وتكاثرت وعزَّت، ولكنها مع ذلك لا تستريح لما ترى، ولماذا؟ لأنها لا تقر عينًا إلا إذا طُمِسَت معالم الإسلام، وارتد عامره بَلْقَعًا[2]، إن المسلمين في نظرهم خوارج على المسيحية،

---

١. أَسْدَيْناه: أعطيناه.
٢. البَلْقَع: المكان الخالي من كل شيء.

وهم قوم يتبعون أميًّا أساء إلى الكنيسة وكهنوتها. وعندما تطوي قلبك على شعور التنقص والازدراء[1] لامرئ ما فإنك لن تقر له بإحسان، ولن تعترف له بجميل"[2].

ويقول البروفيسور سليمان شاهد مفسر الذي هداه الله للإسلام: "ورد اسم عيسى عليه السلام في القرآن والإنجيل، ولكن هناك اختلاف جذري بين دلالة هذا الاسم في الإسلام، وبين دلالته في المسيحية، فالمسلمون يؤمنون أن عيسى عليه السلام نبي من أنبياء الله، ويجلُّونه قَدْر إجلالهم لإبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام ومحمد ﷺ وغيرهم من الأنبياء، في حين أن الكنائس المسيحية تؤمن بأن عيسى ابن الرب، ويعبدونه على هذا الأساس.

ورغم أن المسلمين يحترمون جميع الأديان السماوية، إلا أنهم ينكرون إيمان النصارى بألوهية المسيح، وثمة خلاف جد كبير بين ما ذكره القرآن عن عيسى عليه السلام وهديه، وبين ما ذكره كتاب العهد الجديد. وأهم نقاط هذا الخلاف هو ما أقره القرآن من أن عيسى عليه السلام بريء كل البراءة من ادعاء الألوهية، وأنه لم يصلب، وأنه بشَّر بمحمد ﷺ خاتم الأنبياء.

كان عيسى عليه السلام نبيًّا مباركًا بعثه الله لكي يَثُوب[3] ببني إسرائيل إلى عبادة الله الواحد، وكان عبد الله ورسوله، وجيهًا في الدنيا والآخرة، ولدته مريم العذراء - عليها السلام - يقول ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ (آل عمران)، وكان مولده معجزة إلهية، ويذكر القرآن الكريم أن الله اصطفى مريم وطهرها، واصطفاها على نساء العالمين، وأن الملائكة بشروها بالمسيح عيسى، وأجمل وصف لهذا الحديث هو ما قاله الله تعالى في محكم آياته: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١)﴾ (آل عمران).

وعن ميلاد عيسى عليه السلام يقول القرآن: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ

---

١. الازدراء: التنقُّص والاحتقار.

٢. التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٦٥، ٦٦.

٣. يَثُوب: يرجع.

كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (مريم).

إن مريم ـ عليها السلام ـ اتخذت من دون أهلها حجابًا، فظهر لها الروح القدس ـ أي جبريل ـ في صورة إنسان يبشِّرها بغلام، وحملت مريم بمعجزة إلهية، واعتكفت بحملها في مكان قَصِيٍّ[1]، وبعد أن وضعت الغلام أتت به قومها، فاتهموها بالفاحشة، فما كان منها إلا أن أشارت إلى الغلام فتساءلوا منكرين، كيف يكلمون من كان في المَهْد[2] صبيًّا؟ ولكن هذا الذي في المهد أجابهم قائلًا: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (مريم).

يجدر بنا أن نذكر هنا أنه على الرغم من أن المسلمين يؤمنون أن عيسى عليه السلام قد أُوتي الإنجيل؛ فإنهم لا يُقرُّون أن الأناجيل الأربعة الحالية هي ما ورد على لسان عيسى عليه السلام، بل وحتى الكنيسة نفسها تعترف بأن الأناجيل الأربعة كتبها أربعة من الحواريين، ولكنها لا تزال تؤمن بأنها وحي سماوي، وهذا اعتقاد ينكره المسلمون، وربما كانت حجتهم أنه لا يتأتى أن تكون الأناجيل الأربعة وحيًا إلهيًّا وبينها ما بينها من تناقضات خطيرة وحذف وإضافة، فيما يتعلق بسيرة عيسى عليه السلام، هذا علاوة على أنها لم تدون في عهد المسيح عليه السلام، بل بعده بزمن يتراوح بين خمسة وثلاثين عامًا وخمسة وستين عامًا، وهي لا تمثل إلا جزءًا من تلك الكتب المسماة الأناجيل التي كتبت آنذاك، التي أنكرت الكنيسة بعضًا منها.

وكان على عيسى عليه السلام أيضًا أن يبشر الناس بنبي خاتم يأتي من بعده، وهذا مذكور صراحة في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ (الصف)[3].

١. القَصِي: البعيد.

٢. المَهْد: فراش الصبي.

٣. عيسى رسول الإسلام، سليمان شاهد مفسر، ترجمة: أبو إسلام أحمد عبد الله، بيت الحكمة، ط١، ١٩٩٣م، ص١٢: ١٦.

إذن هذه هي طبيعة موقف الإسلام المُقرِّ لما سبقه من ديانات السماء، الموقر لأنبيائها، المتعهد بحفظ جانب أتباعها، وهذا جزاء سِنِمّار[1] من قِبَل أهلها له ولأتباعه، فأين هو الاعتراف بل الاحترام المتبادل، والإقرار لكلٍّ بقيمته وفضله الذي نصت عليه الآية الكريمة محل زعمهم.

ثانيًا. تحريف المسيحية:

بما أن المسيحية الموحِّدة التي جاء بها عيسى عليه السلام قد انطمست[2] معالمها، ودَرَسَتْ[3] آثارها، فهل المطلوب الآن من الناس أن يتبعوا منها ـ أو من غيرها من الأديان كاليهودية ـ ما هي عليه حالها الآن من طبيعة معروفة تناقض جوهر التوحيد والنبوات؟ وهل يليق هذا بأهل دين ـ أقصد المسلمين ـ انبنى جوهر عقيدتهم على التوحيد الخالص وتنزيه الخالق؟!

حول طبيعة المسيحية المعاصرة، ومدى أحقيتها بأن تكون دينًا يُتَّبع، يقول الشيخ أحمد ديدات: "إن أصول العقيدة المسيحية تتلخص فيما يسمونه بالأمانة الكبيرة، وهذا نصها: نؤمن بالله الواحد الآب، ضابط الكل مالك كل شيء، صانع ما يرى، وما لا يرى، وبالرب الواحد يسوع بن الله الواحد بكر الخلائق كلها، الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أُتقن وصار إنسانًا وحبل به، وولد من مريم البَتُول[4]، وصلب أيام بيلاطس الملك، ودفن وقام في اليوم الثالث كما هو مكتوب، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأحياء والأموات، ونؤمن بروح القدس المحيي المنبثق من أبيه الذي هو بموقع الأب والابن، يسجد له ويمجد الناطق بالأنبياء وبكنيسة واحدة مقدسة رسولية، وبمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وترجى قيامة الموتى، والحياة والدهر العتيد[5] آمين.

لقد قرر هذه العقيدة ٣١٨ أَسْقُفًا اجتمعوا بمدينة نيقية في عهد قسطنطين عام ٣٢٥م، وفي عام ٣٨١م، زادوا فيها ما يلي: والآب والابن وروح القدس هي ثلاثة أقانيم، وثلاثة وجوه، وثلاثة خواص، توحيد في تثليث في توحيد، كيان واحد بثلاثة أقانيم، إله واحد، جوهر واحد، طبيعة واحدة.

ويجب أخي القارئ الكريم معرفة أن هذه المجامع التي أنشئت بعد ثلاثمائة سنة من حياة المسيح، ما هي إلا مصنع لإنتاج الآلهة وتحريف الدين ليرضي أهل الغنى والضلال من الملوك الوثنيين، فرضوا الوثنية على الديانة المسيحية، ووصموها بهذه الوثنية الإلحادية الكافرة، ويجب معرفة أن المسيحية الحقة لم تستمر إلا ثلاثمائة سنة بعد رفع نبيهم على عقيدة التوحيد الخالص والحنيفية السَّمْحَة، ثم بعد هذه الفترة عقدوا المجمع الأول، وألَّهُوا المسيح عليه السلام، وفي المجمع الثاني ألَّهُوا مريم ـ عليها السلام ـ وفي المجمع الثاني عشر منحوا الكنيسة حق الغفران والحرمان، ولها أن تمنح ذلك لمن تشاء من رجال الكهنوت والقساوسة، وفي المجمع

١. جزاء سِنِمّار: وهو مَثَلٌ يُضرب لمن يعمل عملا ثم يُبْخَس حقه، أو يُعاقَب بدلا من الإحسان إليه.

٢. انطمست: زالت ومُحيت.

٣. دَرَسَت: زالت ومُحيت.

٤. البَتُول: العذراء المنقطعة عن الزواج إلى الله.

٥. العتيد: المهيأ والحاضر.

العشرين قرروا عصمة البابا... إلخ.

لقد جاء في الأمانة الكبرى التي هي الركن الركين والمتين في العقيدة النصرانية أن الآب يعني الله الصانع لما يُرى وما لا يُرى، وجاء فيها أن الابن يعني عيسى عليه السلام خالق كل شيء، فإذا كان الله - خالق كل شيء - فما الذي خلقه عيسى عليه السلام؟ وإذا كان عيسى خالق كل شيء فما الذي خلقه الله؟

إنه التناقض العجيب الذي تذهل منه العقول، وكيف يكون عيسى قديمًا، لا أولية لوجوده مع أنه عندهم هو ابن الله، والابن لا بد من أن يكون أبوه أقدم منه؟ وهل يوجد الابن مع الأب؟ كيف؟!! وإذا كان المسيح عليه السلام هو الله بعينه فكيف يكون ابنًا، وفي نفس الوقت أبًا؟!

وإذا كان المسيح عليه السلام غير الله، فلماذا يتحمل خطيئة لم يفعلها هو؟ ألا يعتبر هذا ظلمًا من الخالق؟ ثم ألم يكن من العدل أن يحيي الله آدم ثم يجعله يصلب ليتحمل هو عقوبة خطيئته؟ ثم أما كان الله قادرًا على مغفرة ذنب آدم، دون الحاجة إلى تلك الخرافات المضحكة، ثم ما ذنب البشرية التي دخلت في سجن إبليس قبل صلب المسيح في شيء لم يفعلوه؟ ثم إذا كان الذي صُلب هو الله عن طيب خاطر - كما تقولون - فلماذا كان يصيح ويستغيث؟ وهل يكون إلهًا من يصيح ويستغيث ولا يستطيع تخليص نفسه من أعدائه ومخالفيه؟

ثم لماذا يستحق الصليب هذا التعظيم والعبادة، ولا يستحق الإهانة؛ لأنه كان الأداة في صلب إلهكم كما تزعمون؟ فإن قلتم؛ لأنه لامس جسد المسيح، قلنا لكم صليب لمس جسد المسيح؟ وهل ملايين الصلبان الحديدية التي تصنعونها اليوم لمست جسد المسيح؟ وإذا كانت الأمانة التي هي أصل عقيدتكم، تنص على أن الإله مات ثلاثة أيام، فمن الذي أحياه بعد ذلك؟ وإذا كان المسيح بيده أرزاق العالم، فمن الذي تولى شئون العالم خلال مدة موته؟

إنه يوجد لدينا العديد من الأسئلة لا يجاب عنها إلا بالفرار منها، وإلغاء العقل نهائيًّا، ولنا سؤال أخير: هل اليهود صلبوا الرب برضاه أم بغير رضاه؟ فإذا كان برضاه فيجب أن تشكروهم؛ لأنهم فعلوا ما يُرضي الرب، وإن كانوا صلبوه بغير رضاه فاعبدوهم؛ لأنهم غلبوا الرب وصاروا أقوى منه؛ لأن القوي أحق بالعبادة من الضعيف، كما قال الشاعر:

عَجَبًا للمَسِيحِ بَيْنَ النَّصارَى
وإلى أي والدٍ نَسَبُوه
أَسْلَمُوه إلى اليَهُودِ وقالوا
إنَّهم حِينَ غَفْلَةٍ صَلَبُوه
فإذا كان ما يقولون حقًّا
وصحيحًا فَأَيْنَ كان أَبُوه؟
حِيْنَ خَلَّى ابنه رَهْنَ الأعادِي
أَتَراهُم أَرْضُوه أَمْ أَغْضَبُوه؟
فإذا كان راضِيًا بأَذاهم
فاشكُرُوهم؛ لأنهم عَذَّبُوه
وإذا كان ساخِطًا فاترُكوه
واعبُدُوهم لأنهم غَلَبُوه

فهل بعد الحق والهُدَى إلا الضلال، وهل يُعقل لنا

أن نُنادي كما يُنادون اليوم بوحدة الأديان، وأن كل الأديان على حق، وأن يتحيَّر الإنسان فيمن منهم على صواب أو على باطل؟ وقد وضح الله ﷻ طريق المؤمن ومنهاج السالكين فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (الأنعام: ١٥٣)، وجاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا، ثم قال: "هذا سبيل الله"، ثم خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله ثم قال: "هذه سُبُل متفرِّقة، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه"، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[1].

فعليك أخي المسلم أن تعرف طرق الحق، وتترك السبل التي تفرق بك عن سبيل الله، إلى طريق الباطل والغي - وبعد أن عرفت أن دينك هو الدين الحق، وأن ما سواه هو الباطل"[2].

إذا كانت المسيحية الحقة رسالة عيسى عليه السلام اندثرت معالمها، فمن يتبع المسيحيون اليوم؟! ومن هو واضع مبادئ ديانتهم الحالية ومعالمها التي يَدْعُون الناس عامة والمسلمين خاصة لاتباعها واعتناقها إن لم يكن المسيح؟

بولس مؤسس المسيحية:

تحت عنوان "بولس وعالمية النصرانية، بداية الانحراف" كتب د. فرج الله عبد الباري يقول: "في أثناء تتبُّعنا لرسالة عيسى عليه السلام لاحظنا كيف كانت دعوته مُنْصَبَّة على بني إسرائيل لم تتعدَّاهم إلى غيرهم، وعلى نفس المنهاج سار التلاميذ على نحو ما أوضحنا، ولكن بعد رفع المسيح عليه السلام وُجِد من حمل رسالته إلى الرومان وغير الرومان، أي تجاوزوا بها بني إسرائيل مهدها الأول الذي نشأت فيه، ولكن من الحق أيضًا أن دعاتها الأولين لم يخطر ببالهم أن يجعلوها رسالة عامة للبشر جميعًا، وها هي حياتهم وسيرتهم تشهد على هذا.

فمن الذي حوَّل تلك الرسالة وخرج بها عن طبيعتها من جهة، وأضاف إليها ما ليس منها من جهة أخرى؟ إنه بولس أو شاول كما يُشار إليه أحيانًا في الأناجيل وسفر أعمال الرسل، لقد اعْتُبر مؤسس المسيحية فلا يزال يسود على اعتقاد المؤمنين ويقود عباداتهم في كل أقطار العالم.. كان بولس يهوديًّا متشددًا في يهوديته، ويقف بكل ما أوتي من قوة أمام رسالة المسيح وضد تعاليمه وتلاميذه، وقد أورد سفر أعمال الرسل الأعمال الشريرة التي كان يقوم بها، ولم يكتف بمهاجمتهم في أورشليم، بل لاحقهم في خارجها، وفي كل ذلك يظن أنه يؤدي خدمة الله والناموس، ولكن بعد كل هذه الأعمال سوف نجد له شأنًا آخر مع النصرانية، التي حولها من ديانة محلية خاصة لبني إسرائيل كما أرادها الله، وكما أرسل رسوله عيسى عليه السلام من أجلهم، إلى ديانة عالمية تشمل الرومان واليونان وغيرهم، ثم كان له شأن آخر حين أدخل عليها ما ليس منها من أفكار وثنية ممثلة في الصلب وتأليه المسيح"[3].

---

١. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٤١٤٢)، وحسنه الألباني في المشكاة (١٦٦).

٢. مكتبة ديدات، المجموعة الثانية، أحمد ديدات، ترجمة: محمد مختار، كتاب المختار، القاهرة، ص٢٠٩: ٢١٢.

٣. نقض دعوى عالمية النصرانية، د. فرج الله عبد الباري، مرجع سابق، ص٣٨، ٣٩.

وناقش دور بولس أيضًا الشيخ أحمد ديدات، فكتب تحت عنوان "بولس مؤسس المسيحية" يقول: "طبقًا لرأي هارت ـ صاحب كتاب العظماء مائة ـ فإن شرف تأسيس المسيحية يجب تقسيمه بين المسيح عليه السلام والقديس بولس، والأخير كما يعتقد هارت هو المؤسس الحقيقي للمسيحية، ولا أستطيع إخفاء موافقتي لهارت، فمن مجموع الأسفار السبعة والعشرين للعهد الجديد نجد أن القديس بولس قد كتب أكثر من نصفها، وخلافًا لبولس فإن السيد المسيح، لم يكتب كلمة واحدة في السبعة والعشرين سفرًا.

ولو أنك وجدت ما يُسمَّى بـ "إنجيل الأحرف الحمراء" فستجد أن كل كلمة زُعِمَ أن المسيح تَفَوَّه بها مكتوبة بالحِبْر الأحمر، والباقي بالحبر الأسود العادي، ولا تندهش حينما تجد في هذا الذي يُسمَّى الإنجيل (بشارة المسيح) أكثر من ٩٠ ٪ في السبعة والعشرين سفرًا للعهد الجديد مطبوعة بالحبر الأسود. هذا هو الاعتراف المسيحي النزيه على ما يسمونه الإنجيل، وفي أيَّة مواجهة مع المبشرين المسيحيين ستجدهم يستشهدون من بولس. قال يسوع "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي". (يوحنا ١٥: ١٤). وقال أيضًا: "فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا، يُدْعَى أصغر في ملكوت السماوات. وأما من عمل وعلم، فهذا يُدْعَى عظيمًا في ملكوت السماوات". (متى ٥: ١٩).

وإذا سألت أي مسيحي كثير المجادلة: هل تحفظ هذه الشريعة والوصايا؟ يجيب: لا.

فإن سألته بعدها: لماذا لا تفعل؟ سيجيبك بلا اختلاف إذا كان من مُرَوِّجِي الكتاب المقدس والناعقين[1] به: الشريعة سُمِّرت على الصليب، وهو يعني بذلك أن الشريعة قد انتهت وأُلْغِيَت، ويضيف: ونحن الآن نعيش تحت الرحمة والنعمة الإلهية.

وفي كل مرة تَسْتَحِثُّ المسيحي بما قاله سيده ومعلمه المسيح عليه السلام، فإنه يواجهك بشيء من الرسالتين الأولى والثانية إلى أهل كورينثوس، والرسالة إلى أهل غلاطية، والرسالة إلى أهل أفسس، والرسالة إلى أهل فيلبي... إلخ. فإذا سألته: من مؤلفها؟ فسيجيبك: بولس، بولس، بولس. ومن هو سيدك؟ سيجيبك: المسيح عليه السلام، ولكنه دائمًا سيناقض سيده المسيح عليه السلام بالقِدِّيس بولس، لن تجد مسيحيًّا متعلمًا يناقش حقيقة أن المؤسس الحقيقي للمسيحية هو القديس بولس، ولذلك كان على مايكل هارت ـ ليكون منصفًا ـ أن يُصنِّف المسيح عليه السلام في المرتبة الثالثة من كتابه، من حيث التأثير في مَجْرَى التاريخ البشري، وبهذا المقياس جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أولًا[2] ®.

فهل من العقل أن يُطلب من المسلم ـ صاحب الوحي السماوي الصحيح الذي لم يُحرَّف ولم يُبدَّل ولم تَمَسّه يد بشر ـ أن يتحوَّل عنه إلى هذا الغُثاء الذي لفَّقه هذا المُدَلِّس؟ أو أن يُقال ـ على الأقل ـ إن الطرفين متساويان.

---

١. النَّاعقين: جمع ناعق، وهو الصائح بصوت عالٍ.

٢. مكتبة ديدات، المجموعة الرابعة، أحمد ديدات، مرجع سابق، ص١٥: ١٧.

® في **"أثر بولس في تحريف العقيدة النصرانية"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثامنة، من هذا الجزء. و في **"دور بولس في تحويل النصرانية إلى دعوة عالمية"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السادسة، من هذا الجزء.

وقد عرض لسخافاتهم في التثليث والصلب وغيرهما الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ فقال في حِجاج واضح مستفيض: "ولقد كان يجب الله ﷻ لو سبق في حكمته أنه يبرز لعباده، وينزل عن كرسي عظمته، ويباشرهم بنفسه ـ أن لا يدخل في فرج امرأة، ويقيم في بطنها بين البَول والنَّجْو[١] والدم عِدَّة أشهر، وإذ قد فعل ذلك، لا يخرج صبيًّا صغيرًا، يرضع ويبكي، وإذ قد فعل ذلك، لا يأكل مع الناس ويشرب معهم وينام، وإذ قد فعل ذلك، فلا يبوِّل ولا يتغوَّط، ويمتنع من الخَراءة، إذ هي مَنْقَصة ابتُلِي بها الإنسان في هذه الدار لنقصه وحاجته، وهو تعالى المختص بصفات الكمال المنعوت بنعوت الجلال، الذي ما وسعته سماواته ولا أرضه، وكرسيه وسع السماوات والأرض، فكيف وسعه فرج امرأة، تعالى الله رب العالمين، وكلكم متفقون على أن المسيح كان يأكل ويشرب ويَبُول ويتغوَّط وينام.

فيا معشر المُثَلِّثة وعُبَّاد الصليب، أخبرونا من كان الممسك للسماوات والأرض حين كان ربها وخالقها مربوطًا على خشبة الصليب، وقد شدت يداه ورجلاه بالحبال، وسمرت اليد التي أتقنت العوالم، فهل بقيت السماوات والأرض خلوًا من إلهها وفاطرها وقد جرى عليه هذا الأمر العظيم؟ أم تقولون استخلف على تدبيرها غيره، وهبط عن عرشه لربط نفسه على خشبة الصليب، وليذوق حر المسامير، وليوجب اللعنة على نفسه حيث قال في التوراة: ملعون من تعلق بالصليب، أم تقولون كان هو المدبر لها في تلك الحال، فكيف وقد مات ودفن؟ أم تقولون ـ وهو حقيقة قولكم ـ لا ندري، ولكن هذا في الكتب، وقد قاله الآباء وهم القدوة والجواب عليهم؟ فنقول لكم وللآباء: معاشر المثلثة عباد الصليب، ما الذي دلكم على إلهية المسيح عليه السلام؟ فإن كنتم استدللتم عليها بالقبض من أعدائه عليه وسوقه إلى خشبة الصليب، وعلى رأسه تاج من الشوك، وهم يبصقون في وجهه، ويصفعونه، ثم أركبوه ذلك المركب الشنيع، وشدوا يديه ورجليه بالحبال ضربوا فيها المسامير، وهو يستغيث وتعلق ثم فاضت نفسه، وأودع ضريحه، فما أصحه من استدلال عند أمثالكم ممن هم أضل من الأنعام، وهم عار على جميع الأنام!!

وإن قلتم: إنما استدللنا على كونه إلهًا بأنه لم يولد من البشر، ولو كان مخلوقًا لكان مولودًا من البشر، فإن كان هذا الاستدلال صحيحًا، فآدم عليه السلام إله المسيح عليه السلام، وهو أحق بأن يكون إلهًا منه؛ لأنه لا أم له ولا أب، والمسيح عليه السلام له أم، وحواء أيضًا اجعلوها إلهًا خامسًا؛ لأنها لا أم لها، وهي أعجب من خلق المسيح. والله ﷻ قد نوع خلق آدم عليه السلام وبنيه إظهارًا لقدرته، وأنه يفعل ما يشاء، فخلق آدم عليه السلام لا من ذكر ولا من أنثى.

وإن قلتم: استدللنا على كونه إلهًا بأنه أحيا الموتى، ولا يحييهم إلا الله، فاجعلوا موسى إلهًا آخر، فإنه أتى من ذلك بشيء لم يأت المسيح بنظيره ولا ما يقاربه، وهو جعل الخشبة حيوانًا عظيمًا ثعبانًا، فهذا أبلغ وأعجب من إعادة الحياة إلى جسم كانت فيه أولًا، فإن قلتم هذا غير إحياء الموتى فهذا إليسع النبي أتى بإحياء الموتى، وهم يقرون بذلك، وكذلك إيلياء النبي أيضًا أحيا صبيًّا

١ . النَّجْو: ما يخرج من البطن من ريح وغائط.

بإذن الله، وهذا موسى قد أحيا بإذن الله السبعين الذين ماتوا من قومه، وفي كتبكم من ذلك كثير من الأنبياء والحواريين: فهل صار أحد منهم إلهًا بذلك؟

وإن قلتم: جعلناه إلهًا للعجائب التي ظهرت على يده، فعجائب موسى أعجب وأعجب، وهذا إيلياء النبي بارك على دقيق العجوز ودُهْنها، فلم ينفذها في جرابها من الدقيق وما في قارورتها من الدهن سبع سنين. وإن جعلتموه إلهًا لكونه أطعم من الأرغفة اليسيرة آلافًا من الناس، فهذا موسى قد أطعم أمته أربعين سنة من المنّ والسلوى! وهذا محمد بن عبد الله قد أطعم العسكر كله من زاد يسير جدًّا حتى شبعوا وملئوا أوعيتهم، وسقاهم كلهم من ماء يسير لا يملأ اليد حتى ملأ كل سقاء في العسكر، وهذا منقول عنه بالتواتر.

وإن قلتم: إنما جعلناه إلهًا؛ لأنه سمى نفسه ابن الله في غير موضع من الإنجيل كقوله: "لأني ماضٍ إلى أبي". (يوحنا ١٤: ١٢) ونحو ذلك وابن الإله إله، قيل: فاجعلوا أنفسكم كلكم آلهة في غير موضع، إنه سماه "أباه، أباهم" كقوله: "إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم". (يوحنا ٢٠: ١٧) وفيه: "ولا تدعوا لكم أبًا على الأرض، لأن أباكم واحد الذي في السماوات". (متى ٢٣ : ٩)، وهذا كثير في الإنجيل، وهو يدل على أن الأب عندهم: الرب.

وإن قلتم: إنما جعلناه إلهًا؛ لأنه صعد إلى السماء، فهذا أخنوخ وإلياس قد صعدا إلى السماء وهما حيان مكرمان لم تشكهما شوكة، ولا طمع فيهما طامع، والمسلمون مجمعون على أن محمدًا ﷺ صعد إلى السماء وهو عبد محض. وهذه الملائكة تصعد إلى السماء، وهذه أرواح المؤمنين تصعد إلى السماء بعد مفارقتها الأبدان ولا تخرج بذلك عن العبودية، وهل كان الصعود إلى السماء مخرج عن العبودية بوجه من الوجوه؟

وجماع الأمر، أن النبوات المتقدمة، والكتب الإلهية لم تنطق بحرف واحد يقتضي أن يكون ابن البشر إلهًا تامًّا، إله حق من إله حق، وأنه غير مصنوع ولا مربوب، بل لم يخصه إلا بما خص به أخوه وأولى الناس به محمد بن عبد الله ﷺ في قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا (١٧١)﴾ (النساء)، وكتب الأنبياء المتقدمة وسائر النبوات موافقة لما أخبر به محمد ﷺ، وذلك كله يصدق بعضه بعضًا. وجميع ما يستدل به المثلثة عباد الصليب على إلهية المسيح من ألفاظ وكلمات في الكتب، فإنها مشتركة بين المسيح وغيره"[1]®.

فهل يحق لمثل هؤلاء أن يدعو غيرهم لاتباع ما هم

---

١. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، مرجع سابق، ص٢٨٨ وما بعدها.

® في **"أكذوبة ألوهية عيسى"** طالع: الشبهة السابعة والثمانين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢). وفي **"إبطال القرآن الكريم ألوهية المسيح"** طالع: الشبهة السادسة. وفي **"إبطال القرآن الكريم لاعتقاد النصارى ألوهية عيسى ومريم"** طالع: الشبهة الحادية والستين؛ من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

عليه من تحريف وضلال؟! أم يجدر بهم هم أن يهتدوا ويؤمنوا بمن بشرت به كتبهم المقدسة، صراحة ــ قبل تحريفها ــ وإيماء ــ بعد التحريف والتحوير؟!

ثالثًا. البشارة بمحمد ﷺ:

البشارة بمجيئه ﷺ ووجوب اتباعه ــ لا تبعيته هو وأمته لغيره كما يزعمون ــ أمر ثابت ووارد عن إخوانه من أنبياء الله السابقين في كتبهم مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

في شأن هذه البشارة يقول سليمان مفسر: "يحتوي الكتاب المقدس على نبوءة قوية بمحمد ﷺ ورسالته، وهي نبوءة محددة وجَلِيَّة[١]، حتى إن كثيرًا من الخُلَّص من اليهود والنصارى آمنوا بمحمد ﷺ حين بُعث، ولكن عبر قرون من الجدل اللاهوتي الذي سبق وواكب طبع وإعادة تدوين أجزاء من الكتاب المقدس، وتحويل الآراء بها إلى عقائد، عبر تلك القرون طُمس وصف محمد ﷺ، وحين يرفع ركام[٢] عمره قرون من العقائد والتأويلات المتعصبة، سيجد الدارس الجاد معالم تتمثل في كثير من النصوص المشهورة التي لم تنل نصيبًا من الفهم السليم" [٣].

ويقول أيضًا: "والواقع أنه لم يكن هناك سوى رجل واحد، رجل بعينه هو الذي اجتمعت فيه كل هذه الصفات، وهو محمد بن عبد الله ﷺ، والتبشير به في التوراة والإنجيل واضح ولا يمكن إنكاره بالرغم من الأخطاء والمعتقدات الباطلة التي أدخلها طُغْمة[٤] من الكتبة في النصوص المقدسة" [٥] ®.

رابعًا. الحاجة الماسة إلى الرسالة الخاتمة:

مما سبق عرضه يبدو للعاقل أن الحاجة كانت ملحة ــ بعدما أصاب الأديان السابقة من تحريف ــ لمجيء الرسالة الخاتمة (الإسلام)، وليس لاتباع المسلمين أو غيرهم لهذه الأديان السابقة كما يزعم الزاعمون.

حول هذه الضرورة الملحة لمجيء النبي الخاتم برسالته الجامعة يقول محمد فريد وجدي: ما هو الدين الذي اتَّحد جميع الرسل على نشره، وتخليصه من شوائب ما وضعه الواضعون فيه وما شرحه الشارحون له، عند كل الأمم وفي جميع الأجيال؟ هو الإسلام.

هنا يجمل بنا أن نأتي على ترجمة ما كتبناه باللغة الفرنسية لمؤتمر الأديان الذي قيل إنه انعقد فيها سنة ١٩٠٦م، في موضوع الإسلام، فإنه أبين لما نقصده من الكلام على الإسلام من كل ما كتبناه عنه، وإليك تلك المقالة:

لم أجعل غرضي من مقالي هذا إلا أمرًا واحدًا، إذا فُهم حق الفهم كان أشد في جذب الناس إلى هذا الدين من كل البراهين المفحمة، والحجج الملزمة، ذلك الأمر هو أن الإسلام ليس بدين جديد لأمة معينة، وإنما هو الدين الذي أوحاه الله إلى جميع رسله، فحرفه أتباعهم، ثم أنزل إلى محمد ﷺ أخيرًا

---

١. الجَلِيَّة: الواضحة.

٢. الرُّكام: ما اجتمع من الأشياء بعضه فوق بعض.

٣. عيسى رسول الإسلام، سليمان مفسر، مرجع سابق، ص٢٤.

٤. الطُّغْمة: الحمقى.

٥. عيسى رسول الإسلام، سليمان مفسر، مرجع سابق، ص٤١.

® في "**البشارة بمحمد في الإنجيل**" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة عشرة، من هذا الجزء. وفي "**البشارة بمحمد في التوراة**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء.

لإحداث إصلاح ديني عام لسائر الملل شرقيها وغربيها، بعث الله به رسوله حيث تعارف الأمم واتصالها ليكون دينها العام الذي عليه يتم اتحادها، ويصفو لديه تعارفها، ولذلك جعل قاعدته الإيمان بسائر رسل الله، من نعرف أسماءهم ومن لا نعرف أسماءهم، وبجميع كتب الله بأي لغة كانت، فَهْم هذا الأمر الخطير يفيد المسلم وغير المسلم، فيفيد المسلم؛ لأنه يريه أنه تابع لا لدين من ضمن الأديان المتحاقدة المتعادية، ولكن للدين الأصلي الجامع لسائر الأديان، فهو بهذا الاعتبار يجد في نفسه قيمة لم يحس بها من قبل؛ لأنه يرى نفسه رجلًا عامًّا لا خاصًّا، متبعًا دينًا هو في نفسه دين الكل، وجامع أرواح الكل في أكمل شكل وأجمل حال.

فمن كان كذلك فلا يتحامل على الأديان؛ لأنه أُمِرَ بأن يؤمن بها كلها، وأن يكون منها بالمركز الوسط، وشعر أنه في مجتمع ميول الأمم وفي نقطة تلاقي مراميها، واتحاد أفئدتها في يوم من الأيام، فلا يهون على نفسه أن يميل عنه إلى نقطة متطرفة ولو سيق إليها بقوة قاهرة.

أما فائدة غير المسلم من هذا الأمر الجَلَل[1]، فهو لأنه يسهل عليه المخرج من ورطته والخلاص من شكوكه وشبهه، فإنه ما من عاقل من عقلاء الملل الأخرى، إلا وشعر بأن أيدي الخرافات قد امتدت إلى أصول عقائده، فيجد نفسه مضطرًّا للتَّأفُّف[2] منها، راجيًا إصلاحها على أي حال كان، فلو علم أن الإسلام إنما جاء بالإصلاح العام لسائر الأديان؛ لأنه ليس دينًا منفرًا مثل سائرها، لكان التفاته إليه يشبه الأمر الاضطراري؛ لأنه كلما آلمه أمر مما يكرهه في دينه وظنه محرفًا عن أصله، نزع إلى ذلك الدين الإصلاحي مضطرًّا لا مختارًا، ولا يزال يدفع ويندفع حتى يقع في دائرته. لهذا جعلنا غرضنا من هذه الرسالة هذا الأمر الخطير في أظهر أشكاله، تاركين الدلالة على فضائل الإسلام لغيرنا خوفًا من ألا يلتفت لهذه النقطة أحد منهم.

هذه النقطة التي حاولتُ تَجْلِيَتَها في هذه الرسالة، هي أظهر ما في القرآن من خصائص الإسلام، وهي السبب الأكبر في تهالك الأمم على هذا الدين في كل جيل؛ لأن الأمم وإن لم تدرِك هذا السر علميًّا، إلا أنها تحس به وتلمسه في الإسلام، فترى فيه صورة عقائدها الصحيحة منقحة خالصة، مما يثير الشكوك والشبه فتميل إليها بأرواحها، وتنقلب أشد تعصبًا لها من أهلها، ولا توجد هذه الخصيصة في أية ديانة من الديانات؛ لأن هذا المركز الوسط ليس لواحد منها، ولم يشرع واحد منها لأن يكون دينًا عامًّا أصلًا، فتراها كلها بما طرأ عليها من التحريف على أطراف متناقضة، لا محل للتوفيق بينها بوجه من الوجوه.

ولكن أتباعهم جميعهم يستطيعون أن يسلموا بلا حرج؛ لأن قاعدة دين الإسلام هي الإيمان بسائر الأنبياء ممن نعلمهم وممن لا نعلمهم، قال تعالى عن الأنبياء: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ (فاطر)، وقال ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر: ٧٨)، فالنصراني يرى أن الإسلام يذكر عيسى عليه السلام بالتبجيل

---

١. الجَلَل: العظيم.
٢. التَّأَفُّف: التَّضَجُّر.

والاحترام، ويضعه في مصاف الرسل الكرام، وكذلك يرى اليهود فيما يختص بموسى عليه السلام فيسهل على الجميع الاجتماع حول هذا الدين بلا كبير حرج، لا سيما إن أدركوا أنه جمع العقائد كلها بعد تنقيحها. وجعلها كلها دينًا واحدًا؛ لأنها كذلك كانت في مبدئها: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ (الشورى: ١٤).

لهذا السبب تهالكت الأمم على الإسلام لرؤيتها فيه صورة عقائدها منقحة مصححة، من هنا رأينا أن تجليتنا هذه النقطة الخطيرة علميًّا، ونظريًّا يفيد المسلمين والباحثين في الإسلام أكثر مما لو كتبنا في فضائله سفرًا كبيرًا.. إن هناك أمرًا خطيرًا يضع الدين الإسلامي في مستوى يعلو به عن سائر الأديان، ويلفت إليه النظر لفتًا خاصًّا، ويجعله دينًا عامًّا، تميل إليه النفوس لا بقوة البرهان، ومضاء الحجة، وسلامة أصوله من الخلل فقط، ولكن بقوة النواميس الاجتماعية القائدة للإنسانية إلى كمالها، وبتأثير الحركة الفكرية العامة التي تسوقها إلى باحات النور والمدنية.

هذا الأمر الخطير الذي يلفت الأنظار، وينبه الغافلين إلى هذا الدين، هو أن الإسلام كما نص عليه القرآن، ليس بدين جديد، ولكنه الدين الأول الذي أوحاه الله إلى المرسلين الأولين رحمة للعالمين، قال عز وجل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ (الشورى).

بناء على ما تقدم، فقاعدة الديانة الإسلامية هي قوله عز وجل: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ (البقرة).

هذه هي القاعدة التي بُني عليها دين الإسلام، وهي أن الإسلام ليس بدين جديد، ولكنه الدين الذي أرسل الله به كل رسول، ثم حرفه المحرفون من بعدهم، وأن الديانة الحَقَّة هي أن يؤمن الإنسان بجميع رسل الله من أولهم إلى آخرهم، لا فرق بين من أرسل لأمته ومن أرسل لغيرها، وأن يؤمن بسائر كتب الله إجمالًا، مما أوحاه الله إلى رسله بأي لغة كانت، وفي أي زمان أوحيت.

من هنا يَتَّضح أن الله أرسل لكل أمة رسولًا وكتابًا، وجمعهم على دينه قرونًا وأحقابًا. وها نحن في زمان أخذت فيه الأمم تتعارف لتتبادل الأفكار والعلوم

والمرافق الحيوية، وأخذت نواميس الحياة تسوقها سوقًا إلى وحدة العقائد، كما وحّدتها في المدركات العلمية والعملية، وهنا شعور عام بضرورة وجود دين عام، وكيف يمكن للإنسانية دين عام.

وجميع الأديان التي أمامنا تُكلِّف تلك الأمم بالانخلاع من شخصيتها التي اكتسبتها في عشرات القرون، والتَّقمُّص[1] بشخصية جديدة تكفر بسائر أنبيائها وتعدهم كذابين مزوِّرين، وتحتقر جميع مقدسيها وأقدميها، لا جرم أن أمثال هذه الأديان المحرفة لا يستطيع أحدها أن يكون دينًا عامًّا مطلقًا، ما دام لم ينظر لمجموع الإنسانية كلها بنظر أحوالها المراعي الحكمة في تكليفها.

على أن في محاولة هذه الأديان خلع من يتمسك بها من كل ما كان يعتقده قليلًا، ودفعه للكفر بجميع ما كان فيه يعد جورًا وميلًا عن الحق الظاهر؛ لأنه ما الذي يرجح للإنسان أن يعتقد بعيسى ويكفر بموسى مع العلم بأن الاثنين أسسا دينًا وجاءا بإصلاح كبير، واتبعهما خلق كثير، وكانا سواء في الصلاح والتقوى، وحب الإنسانية؟ وما الذي يرجح له أن يحترم الأناجيل والقديسين والنصارى، ويحتقر كل ما له علاقة بديانة موسى مثلًا؟

فالعدل كل العدل أن يعتقد الإنسان بكل رسول أرسله الله للأمم، مستدلًّا على رسالته بآثاره وأعماله وتاريخ حياته، فيؤمن بجميع رسل الله إجمالًا، وبجميع كتبه جملة، تاركًا التعصب الذميم والانتصار لأحد المرسلين دون الآخرين، جاعلًا دينه قوله ﷻ:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾ (البقرة).

هذا هو الدين الحق العادل العام الصالح لأن يجمع الشعوب والأمم كافة، ويؤاخي بينهم ويرضيهم جميعًا، وينزع من قلوبهم العداوة والبغضاء، والسَّخائم[2] القديمة الموروثة بسبب كفر بعضهم بأنبياء بعض، واحتقار بعضهم لكتب بعض.

هنا تنجم مشكلة تعوز حلًّا مقبولًا، وهي أن جميع الكتب الدينية التي بأيدي الأمم محرفة مبدلة. وقد تولاها رجال بالشروح، والتأويلات حتى خرجت به الأديان عن أصولها، وصارت كلها متناقضة تسمح للملحد بأن يقول: إذا كانت الأديان - كما تزعمون - وحيًا من الله، فلماذا تجدها متناقضة متعاكسة، فإما أنكم حرفتموها عن أصولها، وإما أنكم كذبتم على الله بنسبتها إليه؛ لأنه لا يقال إن الله يُنَزِّل على قوم دينًا يعلمهم فيه أنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، منزه عن الجسم والجسمانيات، لا تحيط به الأفكار ولا الظنون، ثم يوحي إلى آخرين دينًا يقرر لهم فيه أن له ثلاثة أقانيم، وأنه أرسل ولده ليفتدي العالم، ثم يوحي إلى أمة أخرى بأنه تجسد في جسد فلان وحلّ في جسم فلان... إلخ، مما لا يمكن التوفيق بينه بأي وجه من الوجوه.

هذه معضلة لا يحلها إلا أحد أمرين: إمّا الاعتقاد بأن هذه الأديان محرفة، أو بأنها ليست وحيًا من الله،

---

1. التَّقمُّص: التقليد والمحاكاة.
2. السَّخائم: جمع السَّخيمة، وهي الحقد والضغينة.

ولكنها من أفكار مِنْ وضعها مِنَ الأقدمين. أما القول بأنها من موضوعات الأقدمين فلا ينهض به دليل؛ لأن الرجال الفضلاء الكاملين الذين دلَّت حياتهم على فضل وتقوى وزهد وعبادة، الذين قالوا: نحن رسل الله جئنا بدين الله، يبعد أن يكونوا من الكاذبين؛ لأن التزوير لا يولّد فضيلة، ولا ينتج كمالًا ولا تقوى.. إذن لم يبق أمامنا إلا الغرض الثاني، وهو أن هذه الأديان حُرِّفت عن أصولها وأن أصلها كلها واحد.

إن وصلنا إلى هذا الحد قلنا: ها هو رسول كريم، أرسله الله رحمة للعالمين، دلنا بتاريخ حياته من أولها إلى آخرها في زهده وعبادته وتواضعه، وبعده عن زخارف الدنيا على أنه واحد من أولئك المرسلين، جاءنا يقول عن الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ (النساء).

جاء هذا الرسول ﷺ يقول عن ربه عز وجل: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ (الشورى).

هذا الرسول الكريم أمرنا بالإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين وبكتب الله أجمعين، وجعل ذلك قاعدة ديننا وعمدة إيماننا، ثم أمرنا بالخير كله، ونهانا عن الشر كله، وعرفنا سُبُلَ الكمال، وأمات فينا نزعة الحقد والتعصب المَمْقُوت[1]، وشرع لنا ناموس الأخلاق، ونهج لنا طريق الكمالات فأي ديانة غير هذه الديانة يمكن اتباعها والعمل بها في هذا العصر، الذي كثرت فيه الشكوك على الأديان، وأصبح فيه علم اللاهوت عدوًّا لتلك المقالات التي يوردها أصحاب الملل في الله، جهلًا وتقليدًا لأفكار السابقين[2].

لا شك أنه الإسلام لا غيره - حقًّا لا تعصبًا - هو الأولى والأجدر، والأحق بالاتباع من تلك الديانات السماوية المُحَرَّفة أو الوضعية الناقصة وأولى بالناس - إنصافًا لأنفسهم وللحق - أن يتحولوا إليه لا عنه.

الخلاصة:

- طالب الإسلام أتباعه بالاعتراف بالأنبياء السابقين وكتبهم - في أصلها السماوي الصحيح - وأوضح أنه جاء متممًا ومجملًا لها ومهيمنًا عليها، بينما تناكر الآخرون فيما بينهم، فالسابق منهم أنكر اللاحق، وكلهم أنكر رسالة الإسلام ونبوة محمد ﷺ.
- الديانات السابقة أصابتها يد التحريف والتبديل والتضليل، خاصة في مسألة التوحيد التي هي جوهر

---

١. المَمْقُوت: المكروه.

٢. مقدمة المصحف المفسر، د. محمد فريد وجدي، دار الشعب، القاهرة، ص١٠٦ وما بعدها بتصرف.

الأديان السماوية، فكيف يُطالب الناس باتباعها، واعتناق تعاليمها المحرفة المضللة، ففي المسيحية مثلًا: هل يتبع الناس المسيحية الحقة التي نزلت على عيسى ودعا إليها، وقد اندثرت معالمها؟ أم يتبعون المسيحية السائدة الآن وهي التي أسسها بولس منحرفًا بها عن الأصول الصحيحة؟!!

- بشرت الكتب السماوية السابقة بمحمد ﷺ قبل تحريفها، وأوجبت اتباعه وتصديقه، والتحول إلى ديانته، والاعتقاد بعقيدته، لا البقاء على دياناتهم السابقة كما يزعم الزاعمون.
- كانت الحاجة لرسالة الإسلام العالمية الخاتمة ضرورية وماسة؛ لأجل إصلاح حال البشرية، وهدايتها إلى الطريق السوي بعد التحريف والتضليل، لأنها الديانة التي لم تمسها يد التحريف والتغيير، وهي ديانة الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، وهي الوحيدة التي تصلح للبشرية جمعاء؛ لأنها تؤمن بجميع الرسل والرسالات قبلها.
- المفهوم من الآية الكريمة التي احتجَّ بها الزاعمون، أن هذه الجماعات من اليهود والنصارى والصابئة على صواب؛ لأنها آمنت بالله وكتبه ورسله، وأَوْلاهم بالتصديق به هو خاتمهم صاحب الرسالة العامة الخاتمة محمد ﷺ، فمن كان منهم على هذه الشاكلة من الإيمان والاعتقاد، فهو على صواب وله الأجر من الله، لا مَنْ هم على الإيمان المغلوط الفاسد بالتعاليم المحرفة والعقائد الباطلة.

الشبهة الثامنة والعشرون

الزعم أن الإسلام ليس آخر الأديان وأن محمدًا ﷺ ليس خاتم النبيين (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن الإسلام ليس آخر الأديان التي يوحي بها الله إلى أهل الأرض، وأن محمدًا ﷺ ليس خاتم النبيين المبلغين لدين الله ورسالته، كما يزعم المسلمون الذين يحاربون كل الديانات التي يُبَشَّر بها بعد دينهم، كالقاديانية مثلًا.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن هناك أدلة نقلية وأخرى تاريخية تؤكد خَتْم الأنبياء بالنبي محمد ﷺ، وخَتْم الرسالات بالإسلام.

٢) لختم النبوة حكم بالغة ودلالات هادفة.

٣) القاديانية عقيدة فاسدة، نازعت في عقيدة الختم، فلم تجد أذنًا مصغية إلا من أتباع محدودين.

التفصيل:

أولا. دلائل ختم النبوة بمحمد ﷺ:

من خصائص الإسلام أن نبيه محمدًا ﷺ آخر الأنبياء، وأن شريعته باقية إلى يوم الدين، فلا نسخ لها بشريعة جديدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

وبناءً عليه فلا مجال للقول بأن الإسلام لا يعترف بها

(*) الإسلام وأوربا تعايش أم مجابهة، إنجمار كارلسون، ترجمة: سمير بوتاني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٣م. العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي، د. أحمد الزغبي، مكتبة العبيكان، السعودية، ط١، ١٩٨٠م.

تلاه من أديان كما أنكرته هو نفسه الأديان السابقة عليه؛ فالأديان السابقة عليه لم تنكره - في أصلها الصحيح - بل بشرت به وبنبيه، وإنما أنكره أهلها المحرفون لها المنحرفون عن صوابها. أما هو فلم ينكر أحدًا أو شيئًا؛ لأنه لا دين بعده حتى يقبله أو ينكره، فقد تم الدين به وكملت رسالات السماء. أما اعتبار بعض المذاهب الوضعية الفاسدة نفسها دينًا ومطالبة المسلمين بالاعتراف بشريعتها بعد الرسالة المحمدية - فأمر باطل متهافت.

وإن ثمّة أدلة نقلية - قرآن وسنة - وأخرى تاريخية تؤكد أن النبي ﷺ خاتم النبيين، وأن رسالته الإسلام، خاتم الرسالات.

أما الأدلة النقلية: فهي مستفادة من كتاب الله تعالى وحديث رسوله ﷺ؛ يقول ﷻ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (الأحزاب)، ويقول ﷻ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣). ويقول النبي ﷺ: "مَثلي ومَثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بُنيانًا فأحسنه وأجمله، إلا مَوضِع لَبِنَة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون: هلّا وُضِعَت هذه اللبنة؟! قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين".[1] وقوله: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خَلَفَه نبي،

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٣٣٤٢)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه خاتم النبيين (٦١٠١)، واللفظ له.

وإنه لا نبي بعدي"[2].

وأما الدليل التاريخي الواقعي الذي يؤكد ختم النبوة بمحمد ﷺ وختم الرسالات بالإسلام - فإنه يتمثل - في إيجاز شديد - في أن التاريخ لم يشهد بأن الله ﷻ أرسل في الأربعة عشر قرنًا الماضية رسولًا إلى قوم من الأقوام، ولا أرسل في هذه الفترة رسولًا عامًّا للبشر كافّة؛ ذلك لأن محمدًا ﷺ هو الرسول الخاتم.

ثانيًا. حكمة ختم النبوة:

لختم النبوة حكم بالغة، ودلالات دقيقة هادفة، يعددها د. المسير بقوله: "إن ختم النبوة له حكم بالغة ودلالات ذات مغزى كبير، أهمها:

١. كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وتستمر شريعته لفترة محددة حتى يأتي نبي آخر، يجددها أو ينسخها، فقد اجتمع إبراهيم ولوط في زمن واحد، وفي مكانين متجاورين، قال ﷻ: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (العنكبوت). وكان داود وسليمان نبيين، وكذا زكريا ويحيى، فالأول منهما أب للثاني. فإذا بعث الله تعالى محمدًا ﷺ بالرسالة العامة الخالدة، تأكدت حكمة ختم النبوة، فإن دين الله قد عمّ الآفاق.

٢. كان كل نبي يعالج قضية خاصة في مجتمعه في إطار القضية العامة التي التقى عليها الأنبياء جميعًا،

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٦٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (٤٨٧٩).

وهي قضية التوحيد الكبرى.

على سبيل المثال، فقد تميزت رسالة شعيب عليه السلام بمعالجة الفساد الاقتصادي، قال الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾ (هود).

وتميزت رسالة لوط بمعالجة الفساد الأخلاقي، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) ﴾ (العنكبوت).

وتميزت رسالة موسى بمعالجة الفساد السياسي المتمثل في الملك الطاغية فرعون، وبطانة السوء هامان، وصاحب الثروة قارون، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) ﴾ (غافر).

وهكذا كل نبي في قومه له رسالة خاصة، فإذا جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليعالج الحياة بأسرها، ويصلح المجتمع في كافة جوانبه، ويقود الناس إلى التي هي أقوم في الدين والدنيا - كان لختم النبوة حكمة بالغة.

٣. أيد الله رسله بالمعجزات تأكيدًا لصدق البلاغ عنه عز وجل، إلا أن معجزات جميع الأنبياء السابقين كانت معجزات حسية ارتبطت بزمان نبيها ومكانه وشخصه وبمن شاهدها وقت وقوعها. فانقلاب العصا حية على يد موسى عليه السلام موقف حدث في لحظة من الزمان، ووقع في مكان معين، وأمام جمع من الناس، ثم أصبحت المعجزة خبرًا يُروى.

فإذا جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن المجيد معجزة عقلية لا ترتبط بزمان ولا مكان، ولا يتوقف إعجازه على حياة النبي الذي جاء به، بل يظل هذا القرآن يحمل دليله معه، يناجي العقل الإنساني ويناديه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) ﴾ (البقرة)، وهنا تصبح عقيدة ختم النبوة ضرورة عقلية.

٤. إن معجزة موسى عليه السلام انقلاب العصا حية، ورسالته التوراة، وإن معجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى، ورسالته الإنجيل، وهكذا كل نبي كانت له معجزة يستدل بها على رسالته، فهما شيئان مختلفان. فإذا جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمعجزة والرسالة يلتقيان على شيء واحد هو القرآن العظيم، كان ذلك دلالة كبرى على ختم النبوة؛ فإن القرآن هو معجزة محمد صلى الله عليه وسلم التي تظل شاهدة على صدقه، وإن القرآن هو الرسالة التي جاهد عليها محمد صلى الله عليه وسلم بما فيه من عقيدة وشريعة وأخلاق وقيم تربي الإنسان السوي، وتبني المجتمع المثالي، وتشيد الدولة والحضارة في دنيا الناس جيلًا بعد جيل.

٥. إن أتباع الرسالات السابقة حرفوا كتبهم المنزلة، وغيروا معالم الحق، وطمسوا حقائق الوحي، وخانوا الأمانة، وما استُحْفِظوا عليه، قال ﷻ: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (البقرة).

فإذا جاء محمد ﷺ بالكتاب المهيمن الخالد، الذي يتولى الله حفظه وبقاءه وعدًا عليه حقًّا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر) كان ختم النبوة موائمًا لمقتضى الحال، وملائمًا للسنة الطبيعية؛ وحتمية طبيعية؛ حيث بقي الكتاب فانقطعت النبوة.

٦. إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فريضة محكمة على كل مسلم ومسلمة، بقدر علمه، وفي حدود مسئوليته. قال الله ﷻ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ (التوبة).

وإن تبليغ دعوة الإسلام وتجديد الولاء لها يقع على عاتق العلماء العاملين والأمراء العادلين، الذين يحفظون للأمة أصول الدين ومعالم الإسلام، فعن المغيرة بن شُعْبَة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لا تزال طائفة من أُمَّتي ظاهرين، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون"[(١)].

وعن معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يَضُرُّهم من خَذَلَهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك"[(٢)].

وقد فسَّر البخاري هذه الطائفة بأنهم أهل العلم، وفسرها الإمام النووي بأنها جماعة متعددة من أنواع المؤمنين، ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه ومُحدِّث ومُفسِّر وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، وقال: لا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وافتراقهم في أقطار الأرض.

وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يُجدِّد لها دينها"[(٣)].

وقد اختلف العلماء والمحدثون في شرح هذا الحديث من وجوه.. وأيًّا ما كان الأمر، فالمراد هو استمرار الدعوة إلى هذا الدين القيم، وتحمُّل المؤمنين الصادقين لتبعات هذه الدعوة، وعناية الله تعالى ووعده بحفظ الإسلام.

ومما لا يخفى أن البعث ليس مرادًا به بعث النبوة، فإن النبوة قد انقطعت، وإنما هو بعث إيجاد وتدبير وعناية تحقيقًا لقوله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين" (٦٨٨١)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق" (٥٠٦٠).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم (٣٤٤٢)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق" (٥٠٥٩) بنحوه.

٣. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة (٤٢٩٣)، والطبراني في الأوسط، باب الميم، من اسمه محمد (٦٥٢٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٩٩).

﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ (الصف)[1].

هذه هي الحكم المستوحاة من ختم النبوة، حكم بالغة هادفة ـ كما قلنا ـ وليست مدّعاة متعسفة.

فرغنا إذن من إقرار ختم النبوة بالرسالة المحمدية وختم الرسل بالنبي ﷺ، وقد أنكرت القاديانية عقيدة الختم، وزعم زعيمهم أنه نبي مُرْسَل، وأنه يجب على المسلمين الاعتراف به لا إنكاره.

فما القاديانية، وما ظروف نشأة هذه الفرقة؟ وما جوهر مذهبها؟ وما الأدلة الداحضة لها؟

ثالثًا. القاديانية: نشأتها ومعتقداتها:

القاديانية فِرْقة مارقة، يحدثنا عنها الأستاذ محمد فريد وجدي فيقول: "القاديانية من النحل الهندية، تقول بنبوة رجل من مدينة "قاديان" اسمه غلام أحمد، ادعى أن الله يوحي إليه بكل الطرق التي كان يوحي بها إلى أنبيائه، وأنه مسيح الأمة الإسلامية، كما كان عيسى مسيح الأمة الموسوية، وأن رسالته عامة للناس كافة.

وُلِدَ غلام أحمد سنة ١٢٥٢هـ فتعلم العربية، وتلقى النحو والمنطق والفلسفة، وقرأ القرآن، واطلع على العلوم الدينية. ثم تقلد وظيفة في إدارة نائب الملك في بلاده مدة أربع سنين، ثم استقال.. وفي سنة ١٨٧٦م زعم غلام أحمد أنه ينزل عليه الوحي، فأنكر عليه علماء بلده هذه الدعوة، وشدَّدُوا عليه النَّكِير، فرحل إلى لودهيانة وأذاع بيانًا ادَّعى فيه أنه المسيح المنتظر، فأثار سخط العلماء، وأخذوا يتعقبون مزاعمه بالرد، ثم رحل إلى لاهور ودهلي (دلهي) ناشرًا مذهبه. ولما عاد إلى بلدته بنى بها مسجدًا خاصًّا بشيعته، ومدرسة لتعليم أبنائهم، ومدرسة أخرى لتخريج الدعاة إلى مذهبه، وأسس جريدة سمّاها "الأديان" لنشر دعوته، كان يكتب بعض فصولها بقلمه، ولما كان بلاهور في سنة ١٣٢٦هـ أدركته الوفاة بها، فانتخب أتباعه لخلافته "حكيم نور الدين" ولما توفي سنة ١٩١٤م، اختير للرئاسة "بشير الدين محمود" ابن غلام أحمد نفسه.

وقد تبين لبعض رجالهم أن القاديانية ما دامت تُصِرّ على القول بنبوة غلام أحمد فلا تجد لها مساغًا إلى عقول الناس، وينتهي أمرها بالتلاشي لا محالة، فرأوا أن يحذفوا من تعاليمهم، أمر هذه النبوة، وأن يقتصروا على القول بأن غلام أحمد كان مصلحًا لا نبيًّا. فانقسمت القاديانية إلى طائفتين:

- فطائفة (قاديانية) بقوا على ما كانوا عليه من إثبات النبوة لغلام أحمد.
- وطائفة (لاهور) رفضوا التسليم بهذه النبوة، فكان عملهم هذا دليلًا محسوسًا على فساد مذهبهم؛ فإن القاديانية إذا رُفِع منها القول بنبوة غلام أحمد، لم يبق هناك معنى؛ لأن ينتسب إليها منتسب، وهو يرفض القول بالأصل الأول فيها. ففي ذلك تكذيب ضمني لمؤسسها، فإنه دعا إلى الإيمان برسالته في كل كتاب نشره، وماذا يكون جواب المدافع عن هذه الطائفة إذا قال لهم قائل: أي ضرب من المؤمنين أنتم؟! يقول صاحبكم إنه نبي ورسالته عامة، فتقولون أنتم: لا، إنه كان مصلحًا فحسب ولم يك نبيًّا؟

وإذا كانت هذه الطائفة تتظاهر بالقول بأن زعيمها

---

١. النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد أحمد المسير، مرجع سابق، ص٢٦٠: ٢٦٣.

كان مصلحًا فحسب هربًا من مصادمة العقول، وإعوازًا من الدليل المقنع، وكانت مع هذا تبطن العقيدة بنبوته، فلا شك أن ذلك يعتبر من أقوى الأدلة على وهن أساسها، وهو اعتراف ضمني بأن القاديانية على ما دعا إليه مؤسسها، لا تصلح أن يُصَارَح بها الناس، إلا بعد هدم أساسها، وإيتائهم بها في صورة غير صورتها"[1].

وحول مجمل معتقدات القاديانية يحدثنا د. صابر طعيمة قائلًا: "من الخطأ البين أن تعتبر الحركة القاديانية واحدة من الفرق الإسلامية التي تأوّلت فأخطأت أو ضلت، ولكن القاديانية على ضوء النشأة والمعتقد، حركة ردة أعد لها وخطط لأطوارها الاستعمار الإنجليزي الذي استغل حالة اليأس التي كانت قد اجتاحت العالم الإسلامي في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وخلاصة معتقدات القاديانية يمكن عرضها في إيجاز علي الوجه التالي:

- الزعم أن عيسى عليه السلام هاجر بعد موته الظاهري إلى كشمير في الهند، لينشر تعاليم الإنجيل في البلاد، وأنه توفي بعد أن بلغ من العمر ١٢٠ عامًا، وأن قبره لم يزل موجودًا هناك.
- ادعاء الغلام بأنه المهدي الذي حل فيه عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ على السواء، ومن ثم اعتقد القاديانيون بأن الغلام هو المهدي والنبي معًا. وقد جاء في كتاب (حقيقة النبوة) الذي ألفه الميرزا بشير أحمد، الخليفة الثاني: أن غلام أحمد أفضل من بعض أولي العزم من الرسل، وجاء أيضًا في صحيفة (الفضل) القاديانية أن الغلام هو محمد ﷺ "برأه الله وطهره مما يقولون".

هذا ومن جملة معتقدات القاديانية هذه المزاعم الآتية:

١. اعتقاد أن الجهاد ليس هو اللجوء إلى القوة، واستعمال أدوات الحرب ضد غير المؤمنين، وإنما هو وسيلة سلمية للإقناع.

٢. اعتقاد عدم جواز الصلاة على المسلم الميت، ما لم يكن قاديانيًّا، ومن ثم يحرّمون دفن المسلمين في مقابر القاديانيين.

٣. لا يجيزون نكاح المسلم من القاديانية، بدعوى أن غير القادياني كافر؛ لأنه فيما زعموا، لم يؤمن بالغلام أحمد، وقد جاء في كتاب (بركات الخلافة) لمحمود أحمد القادياني أنه لا يجوز لأي قادياني أن يُنكح ابنته من غير القادياني؛ لأن هذا أمر مؤكد، وجاء فيه أيضًا أن من يُنكح ابنته من غير القادياني، فهو خارج من جماعتنا، وقد جاء في هذا الكتاب (بركات الخلافة) أنه يجوز أخذ بنات المسلمين والهندوس، والسيخ للقاديانيين، ولا يجوز إعطاؤهم، ومن أعطى من القاديانيين ابنته لواحد من المسلمين يُطْرَد من الجماعة ويُكَفَّر.

٤. لا تصح الصلاة عند القاديانيين خلف غير القادياني، بل لا يجوزون الصلاة في غير مساجد القاديانيين، وإذا وقعت صلاة خلف غير قادياني، أو في غير مساجد القاديانيين وَجبت إعادتها، وفي هذا يروي ابن الغلام محمود أحمد واقعة حدثت له في رحلة للحج عام ١٩١٢، فيقول: أدركتنا الصلاة، أنا وجَدِّي لأُمِّي، فَسُدَّتْ الطريق من الازدحام، وبدأت الصلاة، فأمرني

---

١. من معالم الإسلام، محمد فريد وجدي، مرجع سابق، ص٣٢٩، ٣٣٠.

جدِّي بأن ندخل الصلاة، فدخلنا وصلَّيْنا، وحينما رجعنا إلى البيت، قال جدي: هيا نصلي الصلاة لله التي لا تصلى خلف غير القادياني.

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن القاديانيين على تفاهة وخرافة ما هم عليه من معتقدات يحرصون عليها غاية الحرص؛ فهم لا يشاركون المسلمين في حفلات الزواج، أو تقديم العزاء في الموت، وقد بلغ من تشدُّدِهم في ممارسة معتقداتهم أنه عندما مات القائد محمد على جناح وحان ميعاد الصلاة عليه، رفض ظفر الله خان - الذي كان وزيرًا للخارجية الباكستانية آنذاك - أن يُصلِّ عليه، والسبب أن ظفر الله خان كان قاديانيًّا.

والقاديانيون من الناحية الحركية عندهم جانب تنظيمي لا بأس به، فهم يستطيعون دَفْع عناصر قيادية إلى قمة المراكز والمواقع المهمة، وذلك بفعل وتأثير المساندة القاديانية للقاديانيين، وهم بحكم ارتباطهم بالاستعمار الإنجليزي وحلفائه، يُتَاح لهم إمكان الاتصال والنفاذ إلى مستويات عليا في مختلف أوجه النشاط البشري.

وهذا هو السر وراء التركيز الإعلامي حول بعض الشخصيات العلمية، أو الأدبية التي تكون قاديانية أو لها علاقة بالقاديانيين[1].

هذه إذن مسيرة هذه العقيدة الفاسدة وطبيعتها، التي زعمها القاديانيون دينًا، أوجبوا على المسلمين الاعتراف به، ومن ثم نقض عقيدة ختم النبوة بمحمد ﷺ بالاعتراف بنبوة القادياني بعده رسولًا للناس كافة، مُوحَى إليه من السماء!

نزاع القاديانية في ختم النبوة:

في زعمه النبوة والوحي اصطدم "غلام أحمد" بالنصوص القرآنية والأحاديث الصريحة الدالة على كون محمد ﷺ خاتم الأنبياء، فأوّلها في هذا تأويلات فاسدة، وأورد مُماحَكات فِجَّة[2] يرويها محمد فريد وجدي بقوله: "لقد تَجشَّم[3] غلام أحمد جهدًا جهيدًا لكي يثبت أنه نبي، فاصطدم بالنص القرآني الدال على أن النبي ﷺ خاتم النبيين وأنه لا نبي بعده، وأتى في هذا الباب بما لا يُعقل من ضروب التحريف والتأويل. فزعم أن ما جاء في القرآن عن النبي ﷺ من أنه خاتم المرسلين ليس معناه أنه آخرهم، ولكن معناه أنه حِليتهم، فعنده أن كلمة "خاتم" ليست واردة في القرآن الكريم بمعنى آخر القوم، ولكن بمعنى حلية الإصبع المعروفة.

فيكون في الكلام مجاز، يقول هذا ويغفل عن أن هذا التعبير ساقط يتنزه القرآن عن مثله، ولو قال قائل لأحد الناس يمدحه: أنت خاتم قومك، مكان أنت حِليتهم، لعُدّ كلامه ساقطًا، بل غير مفهوم على الإطلاق، والكلام الإلهي يَتَنَزَّه عن مثل هذا السقط.

إن غلام أحمد حصر كل جهوده في إثبات رسالته وإحاطة نفسه بالنّعوت[4] والألقاب الفخمة، معتقدًا أن هذا كاف لإدراكه الغرض الذي رمى إليه في بيئة

---

1. العقائد الباطنية وحكم الإسلام فيها، د. صابر طعيمة، المكتبة الثقافية، بيروت، ط٢، ١٩٩١م، ص٣٩٤: ٣٩٦.
2. المُماحكات الفِجَّة: المنازعات القبيحة.
3. تجشَّم الأمر: تكلَّفه على مشقة.
4. النّعوت: الصِّفات.

كبيئته، فإن الجاذب الوحيد للدَّهْماء[1] التي تسارع إلى قبول أية دعوة هي هذه الألقاب الفخمة والنعوت المبالغ فيها التي يَنْتَحِلها[2] الداعي لنفسه. فكلما دخل في روع الأتباع أن صاحبهم متناه في السمو، وأنه مَكِين[3] في الملأ الأعلى، بالغ أتباعه في التحمس له، وزادوه سموًّا، ومكانة حتى يبلغوا به درجة الألوهية، غير فاحصين عما جاء به: أهو غثٌّ أم ثمين.

هذا شأن الدهماء قديمًا وحديثًا، وأمامنا فرق ومذاهب لا تُعد ولا تُحصى، لو نقدتها لوجدت أكثرها يَعْتَزِي[4] إلى أصل غير أصيل، أو قائمًا على أوهام اكتسبت بطول الزمن سلطانًا على الجماهير، فالقاديانية تبقي ما بقيت عقلية الآخذين بها في الحد الذي هي فيه، فإن تجاوزته إلى الاهتداء بالمنطق، تركت هذا المذهب وراءها كحلم من أحلام طفولتها، وألقت به إلى عالم الأساطير"[5].

الخلاصة:

- خَتْم الأنبياء بمحمد ﷺ والشرائع بالإسلام، عقيدة ثابتة راسخة عند المسلمين لا مُماراة[6] فيها، وقد قامت عليها الأدلة والبراهين من القرآن والسنة، وأجمعت عليها الأمة عبر تاريخها. وكل مدع للنبوة بعد محمد ﷺ سرعان ما ينفضح أمره ويزول أثره وينهدم زعمه.

- إن ثمَّة حِكَمًا جليلة تقف وراء ختم النبوة؛ وذلك أن كل نبي كان يبعث لقومه خاصة، يعالج شأنًا معينًا من شئون مجتمعهم، مؤيَّدًا في ذلك بمعجزات حسية تخص من شاهدها وعاينها. أما رسالة محمد ﷺ فعالمية عامة، لم تُغْفِل شأنًا من الشئون، وقد أيده الله بالإضافة للمعجزات الحسية، بالمعجزة الخالدة التي تعم، ولا تخص زمنًا بعينه ولا مكانًا بذاته ولا فئة دون غيرها، وهو القرآن الكريم.

- القاديانية عقيدة فاسدة باطلة، نشأت في ظل المستعمر الإنجليزي في شبه القارة الهندية، واستغلها هو في ضرب عقيدة المسلمين، والتشويش عليها، وقد نازعت في عقيدة خَتْم النبوة، وأوّلت الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية في هذا الشأن تأويلًا فاسدًا لا يثبت لنقل أو عقل.

١. الدَّهْماء: عامة الناس وجماعتهم.

٢. يَنْتَحِل الشيء: يدَّعيه لنفسه وهو لغيره.

٣. المكين: المستقر في المكانة العظيمة.

٤. يَعْتَزِي: ينتسب إلى شيء صدقًا أو كذبًا.

٥. من معالم الإسلام، محمد فريد وجدي، مرجع سابق، ص٣٣٢، ٣٣٣.

٦. المُماراة: المجادلة.

المصادر والمراجع

- أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، د. عبد الجواد المحص، الدار المصرية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.
- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق: بكر عوض، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- الأدلة الكتابية على فساد النصرانية، د. أحمد حجازي السقا، دار الفضيلة، القاهرة، د. ت.
- الأدلة على صدق النبوة المحمدية ورد الشبهات عنها، د. هدى عبد الكريم، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الأديان في القرآن، محمود بن الشريف، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط ٣، د. ت.
- آراء يهدمها الإسلام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٩٨٦م.
- الإرهاب صناعة غير إسلامية، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أدرخان محمد، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.
- استحالة تحريف الكتاب المقدس، مرقس عزيز خليل، كنيسة القديسة مريم العذراء والشهيدة دميانة المعلقة، مصر، ٢٠٠٣م.
- إسرائيل حرفت الأناجيل، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- الإسقاط في مناهج المستشرقين والمستبشرين، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- الإسلام، سعيد حوى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الإسلام المفترى عليه، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- الإسلام بعيون مسيحية، لطفي حداد، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
- الإسلام بين الحقيقة والادعاء، مجموعة علماء، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٦م.
- الإسلام دين الهداية والإصلاح، محمد فريد وجدي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، أبو الأعلى المودودي، تعريب: خليل أحمد الحامدي، دار القلم، الكويت، ط٤، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- الإسلام كبديل، مراد هوفمان، مؤسسة بافاريا، د. م، ط١، ١٩٩٣م.
- الإسلام والأديان الأخرى، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- الإسلام والغرب، روم لاندو، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م.

- الإسلام وأوربا: تعايش أم مجابهة، إنجمار كارلسون، ترجمة: سمير بوتاني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
- الإسلام وضرورة التغيير، كتاب العربي التاسع والعشرون، ١٥ يوليو ١٩٩٧م.
- أصالة التفكير الفلسفي في الإسلام، د. عبد المقصود عبد الغني، د. م، د. ن، ط١، ١٩٨٥م.
- أصول العقيدة الإسلامية، د. محمد سلامة أبو خليفة، دار الهاني، مصر، ط١، ٢٠٠٥م.
- أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، ترجمة: د. عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
- أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، د. شوقي أبو خليل، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، ط١، ١٤٢٨هـ/ ١٩٩٩م.
- الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، مروان وحيد شعبان التفتازي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.
- آلام المسيح: رؤية نقدية إسلامية، ياسر أنور، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل، د. أحمد حجازي، دار البيان العربي، القاهرة، ١٩٩٧م.
- بين الدين والدنيا في رحلة قطار، د. عبد الحليم حنفي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
- تاريخ الشعوب العربية، د. ألبرت حوراني، ترجمة: نبيل صلاح الدين، مراجعة د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.
- التبشير العالمي ضد الإسلام، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة النور، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت.
- تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، أبو البقاء الهاشمي، تحقيق: د. محمود قدح، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٨م.
- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٩٩٢م.
- التعصب والتسامح، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، د. ت.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٩٩٩م.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، د. ت.
- التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، دار الرسالة، القاهرة، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- التلمود: تاريخه وتعاليمه، د. ظفر الإسلام خان، دار النفائس، الأردن، ط٢، ١٩٧٢م.

- الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، د. شوكت عليان، دار الشواف، ليبيا، ط٢، ١٩٩٦م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الجذور التاريخية والجسور الحضارية بين الإسلام والغرب، د. محمد محمد أبو ليلة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- حضارة الإسلام، جوستاف أ. فون جرونيباوم، ترجمة: عبد العزيز جاويد، وعبد الحميد العبادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م.
- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- حقيقة الكتاب المقدس تحت مجهر علماء اللاهوت، ترجمة وتعليق: علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- حقيقة النصرانية من الكتب المقدسة، د. أحمد حجازي السقا، دار الفضيلة، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
- الحوار الإسلامي المسيحي: ضرورة المغامرة، د. سعود المولى، دار المنهل، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- الحوار الخفي اللاهوت، د. محمد الحسيني إسماعيل، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- خرافة الثقافة اللاتينية، مرسي عبد العظيم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، د. محمد الأعظمي، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، دائرة المعارف الأمريكية، د. ت.
- رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم، د. محمد جمعة، ١٩٨٥م، د. م، د. ن.
- الرد الجميل على المشككين في الإسلام من القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، عبد المجيد صبح، دار المنارة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣م.
- الرد على القس بوش في كتابه "محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين"، د. عبد الرحمن جيرة، دار المحدثين، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- الرد على المشكل، سيد أحمد محسب مرسي، المكتبة الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- الرد على كتاب جورج بوش "حياة محمد"، السيد حامد، مكتبة الولاء الحديثة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد بن محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ٢٠٠٦م.

- الشبهات المزعومة حول القرآن الكريم، د. محمد السعيد، دائرة المعارف الإسلامية والبريطانية.
- شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، محمد الصالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ.
- الشريعة الإسلامية هي الحل، أبو إسلام أحمد عبد الله، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- الصهيونية تحرف الإنجيل، سهيل التغلبي، مكتبة السائح، لبنان، ط١، ١٩٩٩م.
- ظلام من الغرب، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- العقائد الإسلامية، السيد سابق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٣، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.
- العقائد الباطنية وحكم الإسلام فيها، د. صابر طعيمة، المكتبة الثقافية، بيروت، ط٢، ١٩٩١م.
- العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي، د. أحمد الزغبي، مكتبة العبيكان، السعودية، ط١، ١٩٨٠م.
- عيسى رسول الإسلام، سليمان شاهد مفسر، ترجمة: أبو إسلام أحمد عبد الله، بيت الحكمة، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م.
- عيسى ليس المسيح الذي تَفْسِيرُه: المسِّيَّا، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- الفكر الاستشراقي: تاريخه وتقويمه، د. محمد الدسوقي، دار الوفاء، المنصورة، ط١، ١٩٩٥م.
- الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م.
- الفكر اليهودي بين تأجيج الصراعات وتدمير الحضارات، د. عبد الحليم عويس، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، عبد الودود يوسف، دار السلام، القاهرة، ١٩٩٨م.
- القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، كارين أرمسترونج، ترجمة: د. فاطمة نصر، ود. محمد عنان، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.
- القرآن واليهود، منصور الرفاعي عبيد، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.
- قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، دار القدس للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- قضايا معاصرة، د. محمد نبيل غنايم، دار الهداية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.

- الكشاف، الزمخشري، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٩٧م.
- الكنز المرصود في فضائح التلمود، د. محمد عبد الله الشرقاوي، دار عمران، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- ماذا خسر العالم بوجود الكتاب المقدس، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥م.
- محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، د. ت.
- محمد في حياته الخاصة، نظمي لوقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
- مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٥م.
- مدرسة الأنبياء: أضواء وعبر، محمد بسام الزين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- مرآة الإسلام، د. طه حسين، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
- المسلمون في الأندلس، رينهرت دوزي، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، د. ت.
- المسلمون في إنجيل متى، د. ممدوح جاد، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- المسيحية والإسلام والاستشراق، محمد فاروق الزين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
- المسيحية، شارل جنيبير، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٩٨م.
- المسيحيون والمسلمون في تلمود اليهود، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.
- مصدر القرآن، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- معالم الحضارة في الإسلام، د. عبد الله ناصح علوان، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٩٨٤م.
- مفاهيم ينبغي أن تُصحَّح، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٩، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام، د. عوض الله حجازي، د. م، د. ن، د. ت.
- المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله الجديع، مؤسسة الريان، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م.
- المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالي، مكتبة الجندي، القاهرة، د. ت.
- من معالم الإسلام، د. محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- من يرعى الخراف، د. عبد الرحمن جيرة، دار المحدثين، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٧م.
- المناظرة الكبرى مع القس شرُوش، أحمد ديدات، ترجمة: رمضان الصفناوي، المختار الإسلامي، د. ت.

- المناظرة الكبرى، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- مناظرة بين الإسلام والنصرانية، مجموعة باحثين، دار الحديث، القاهرة، ط٢، ١٤١٢هـ.
- مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠١م.
- منحة القريب المجيب في الرد على عُبَّاد الصليب، حمد بن ناصر آل معمر، دار ثقيف للنشر والتأليف، الرياض، ط٤، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل، عزية علي طه، دار البحوث العلمية للنشر، القاهرة، ١٩٨٧م.
- مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥م.
- موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- موقف ابن تيمية من النصرانية، د. مريم عبد الرحمن زامل، معهد البحوث، جامعة أم القرى، الرياض، ط١، ١٩٩٧م.
- النبوة المحمدية، د. محمد سيد أحمد المسيَّر، دار الاعتصام، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.
- النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- نحو وحدة فكرية، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- نظرية النسخ في الشرائع الإسلامية، د. شعبان محمد إسماعيل، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م.
- نقد التوراة، د. أحمد حجازي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط١، ١٩٧٦م.
- نقض دعوى عالمية النصرانية، فرج الله عبد الباري، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- هذا هو الحق: رد على مفتريات كاهن الكنيسة، ابن الخطيب، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م.
- الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي، دار الدعوة، القاهرة، ١٩٩٦م.
- يقولون عن الإسلام، د. عبد الحافظ سلامة حامد، دار الكتاب للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.
- اليهودية، د. أحمد شلبي، النهضة المصرية، القاهرة، ط١٢، ١٩٩٧م.

موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول: القرآن

المجلد الخامس

ج ٨

شبهات حول مقارنة الأديان

دار نهضة مصر
للنشر

العنوان:

موسوعة بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول: القرآن

المجلد الخامس (ج٨)

إشراف عام:

داليــا محمــد إبراهيـــم

جميــع الحقــوق محفوظــة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظــر طبـــع أو نشـــر أو تصويـــر أو تخزيـــن

أي جــزء مــن هــذا الكتــاب بأيــة وسيلــة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصويــر أو خــلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريــح من الناشــر.

الترقيم الدولي: 977-14-4266-8

رقم الإيداع: 2010/10910

الطبعة الأولى: يناير 2011

تليفــون: 33466434 - 33472864 02

فاكـــس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com

دار نهضة مصر للنشــر

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة